كتاب
الحيوان

تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

المتوفى سنة ٢٥٠هـ

وضع حواشيه

محمد باسل عيون السود

تنبيه:

ألحقنا الفهارس العامة في آخر الكتاب

المجلد الأول

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الثانية
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

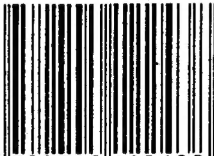
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-2243-6



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم اللّٰه الرَّحمن الرحيم

مقـــدمــة

الحمد لله وحده لا شريك له، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم، وبعد؛ فكتاب الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ هو من الكتب التي كتب لها البقاء والذيوع والانتشار قديماً وحديثاً.

وقد طبع الكتاب غير ما مرة، وتولى خدمته غير واحد من أهل العلم، بيد أنه - على تعدد طبعاته، وجلالة بعض من خدمه - يحتاج إلى طبعة علمية محققة، ففيه ما فيه من نقصان وتحريف ليس منه.

وقد أفدت من جهود من تقدمني في خدمة هذا الكتاب، وحرصت على تخريج ما فيه من آيات وأحاديث وأخبار وأشعار وأمثال، وعلى ربطه بكتب الجاحظ الأخرى: البيان والتبيين؛ والبخلاء؛ والرسائل؛ والبرصان والعرجان.

وقدمت للكتاب بمقدمة عرفت فيها بالجاحظ وكتابه، اقتضبتها لأن ناشري كتبه قد كتبوا لها مقدمات وافية ضافية.

وبعد أرجو أن يكون التوفيق قد حالفني في إخراج الكتاب على نحو يرضاه العلماء، والله أسأل أن يهدينا للحق وإلى ما فيه مرضاته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دمشق ١٩/ ٤/ ١٩٩٨م.

محمد باسل عيون السود

حيـاتـه:

من المتفق عليه أن ولادته كانت سنة (١٤٨هـ) وأقتطف سيرة حياته الموجزة من شذرات الذهب ٢ / ١٢١-١٢٢ [سنة خمسين ومائتين.

وفيها [توفي] عمرو بن بحر الجاحظ أبو عثمان البصري المعتزلي، وإليه تنسب الفرقة الجاحظية من المعتزلة، صنف الكثير في الفنون. كان بحراً من بحور العلم؛ رأساً في الكلام والاعتزال، وعاش تسعين سنة؛ وقيل بقي إلى سنة خمس وخمسين.

أخذ عن القاضي أبي يوسف وثمامة بن أشرس وأبي إسحاق النظام. قال في المغني: عمرو بن بحر الجاحظ المتكلم صاحب الكتب. قال ثعلب: ليس بثقة ولا مأمون؛ انتهى. وقال غيره: أحسن تآليفه وأوسعها فائدة كتاب الحيوان وكتاب البيان والتبيين، وكان مشوّه الخلق، استدعاه المتوكل لتأديب ولده؛ فلما رآه رده وأجازه؛ وفلج في آخر عمره، فكان يطلي نصفه بالصندل والكافور لفرط الحرارة ونصفه الآخر لو قرض بالمقاريض ما أحس به لفرط البرودة، وسمي جاحظاً لجحوظ عينيه؛ أي لنتوئهما. وكان موته بسقوط مجلدات العلم عليه].

مضمون الكتاب وقيمته:

يوهم العنوان الذي وسم به الكتاب أنه مقصور على الحيوان، إلا أن الكتاب يتضمن علوماً ومعارف أكبر من العنوان، فقد أطنب المؤلف في ذكر آي القرآن الكريم، وحديث نبينا محمد ﷺ، وفيه صورة للعصر العباسي وما انطوى عليه من ثقافة متشعبة الأطراف، وعادات كانت سائدة حينذاك، كما تحدث فيه عن الأمراض التي تعترض الإنسان والحيوان؛ وطرق علاجها، وتطرق إلى المسائل الكلامية التي عرف بها المعتزلة، وتحدث عن خصائص كثيرة من البلدان، وعرض لبعض قضايا التاريخ.

كل هذه الأنواع من العلوم كانت تتخللها الفكاهة التي بثها الجاحظ بين الفينة والأخرى، مما جعل كتابه بغية كل قارئ، فإن أراد الشعر وجده من أغنى الكتب الحافلة بالشعر، وإن أراد معرفة معلومات دقيقة عن البشر أو أحد الحيوانات وجد ضالته في تضاعيف هذا الكتاب.

وإن أراد الاطلاع على ما قالته العرب من أمثال وجد الكمّ الوافر منها، وإن حثته نفسه على مطالعة فكاهة وجدها مبثوثة في صفحات متعددة من هذا الكتاب الضخم، وهذا ما يجعل كتاب الحيوان مجموعة كتب ضمها كتاب واحد.

عملي في الكتاب:

قسم الجاحظ كتابه إلى عدة أبواب، وهي أبواب طويلة، يكاد يصل عدد صفحات بعضها إلى حوالي مئتي صفحة، ولما رأيت الأمر كذلك رأيت أن أحافظ على تقسيمه، وإشفاع هذا التقسيم بعناوين فرعية تعطي فكرة عن مضمون الفقرة، واقتبست العناوين من مضمون كلام الجاحظ؛ وجعلتها بين قوسين معكوفتين، كما جعلت لها رقماً متسلسلاً؛ كنت أحيل إليه إذا تكرر شيء من هذه الفقرة في موضع آخر من الكتاب، وتركت العناوين التي وضعها الجاحظ بدون أقواس أو أرقام، وجعلتها في منتصف الصفحة، لأميزها عن العناوين التي استحدثتها.

وقد تبين لي أن الكتاب بكافة طبعاته يعتريه السقط والخلل، فأضفت إليه ما وجدته ساقطاً؛ وسددت الثلم الذي اكتنف المتن، وكان من أهم المصادر التي أعانتي في استدراك السقط كتاب «ثمار القلوب» للثعالبي، وحصرت ما أضفته بين قوسين.

وخرجت الآيات والأحاديث والأقوال والآثار، وقدمت تخريجًا وافيًا للأشعار والأمثال والأخبار، فلم أدع قولاً أو أثرًا أو مثلاً أو بيتاً من الشعر إلا نقبت عنه في المظان المتوفرة، وهو جهد جشمني الكثير من العناء الذي رافقه الصبر والروية للتحقق مما أكتب.

ويتضح حجم الجهد الذي بذلته في سبيل إخراج هذا الكتاب من خلال الحواشي التي ذيلت بها متن الكتاب، ومن خلال المصادر التي أشفعتها بنهاية الكتاب.

وبعد.. فأرجو أن أكون قد أصبت المراد من عملي هذا.

محمد باسل عيون السود

بِسم اللّه الرَّحمن الرحيم

وبـــه ثـقـتـــــي

١ - [مؤلفات الجاحظ والرد على من عابها]

جَنَّبَكَ اللّهُ الشُّبْهةَ، وَعصَمك من الحَيرة، وجَعلَ بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سَبَباً، وحبَّب إليك التثبُّت، وزيَّن في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعرَ قلبكِ عزَّ الحقّ، وأودَعَ صدرك بَرْدَ اليقين وطرد عنك ذلَّ اليأس، وعرَّفك ما في الباطل من الذلَّة، وما في الجهل من القلَّة.

ولعمري لقد كان غيرُ هذا الدعاء أصوبَ في أمرك، وأدلَّ عَلَى مقدارِ وزنك، وعلى الحال التي وضعْتَ نفسك فيها، ووسَمْت عرضَك بها، ورضيتها لدينك حظًّا، ولمروءتك شكلاً، فقد انتهى إليَّ مَيلُكَ على أبي إسحاق، وحَملُك عليه، وطعنُك على مَعْبَدٍ، وتنقّصك له في الذي كان جرَى بينهما في مساوي الديكِ ومحاسنه، وفي ذكرِ منافع الكلب ومضارِّه، والذي خرجَا إليه من استقصاء ذلك وجمْعه، ومن تتبُّعه ونظمه، ومن الموازَنَة بينهما، والْحُكم فيهما. ثم عبتَني بكتاب حيل اللصوص[1]، وكتاب غشّ الصناعات، وعبتَني بكتاب المُلَح والطُّرَف[2]، وما حَرَّ من النوادر وبَرُد، وما عاد باَرده حاراً لفَرْط برده حتى أمتَعَ بأكثر من إمتاع الحارّ، وعبتني بكتاب احتجاجات البخلاء، ومناقضتَهم للسُّمَحاء، والقولِ في الفرق بين الصدق إذا كان ضاراً في العاجل، والكذب إذا كان نافعاً في الآجل، ولمَ جُعل الصدقُ أبداً محموداً، والكذبُ أبداً مذموماً، والفرق بين الغَيرة وإضاعة الحُرْمة، وبين الإفراط في الحميّة والأنَفَة، وبين التقصير في حفظ حقِّ الحرمة، وقلَّة الاكتراث لسوء القالَة، وهل الغيرة اكتساب وعادة، أم بعض ما يعرض من جهة الديانة، ولبعض التزيُّد فيه

---

(١) ذكره بروكلمان في تاريخه ٣ / ١١٩. وفيه: «حكاية عثمان الخياط في اللصوص: موصل ٢٦٤. وذكر الجاحظ: كتاب حيل سرّاق الليل وكتاب حيل النهار، في كتاب البخلاء ١؛ وذكره التنوخي ٢ / ١٩٦ بعنوان: كتاب اللصوص، والبغدادي في الفرق بين الفرق ١٦٢ بعنوان حيل اللصوص».

(٢) بروكلمان ٣ / ١٢٦، رقم (١٠٠).

والتحسن به، أو يكون ذلك في طباع الحريّة، وحقيقة الجوهريَّة، ما كانت العقولُ سليمة، والآفات منفيَّة والأخلاطُ معتدلة.

وعبتَني بكتاب الصُّرَحاء والهُجَناء[1]، ومفاخرة السُّودان والحمران[2]، وموازنة ما بين حقِّ الخؤولة والعمومة[3]، وعبتَني بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب[4]، وأقسام فضول الصناعات، ومراتب التجارات[5]؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء[6]، وفرقِ ما بين الذكور والإناث، وفي أيِّ موضع يَغلبن ويفضُلْن، وفي أي موضع يكنَّ المغلوبات والمفضولات، ونصيب أيِّهما في الولد أوفَر، وفي أيِّ موضع يكون حقُّهنّ أوجب، وأيُّ عملٍ هو بهنَّ اليق، وأيّ صناعةٍ هنَّ فيها أبلغ.

وعبتَني بكتاب القحطانيَّة وكتاب العدنانيَّة في الردّ على القحطانية[7]، وزعمتَ أنّي تجاوزتُ الحميَّة إلى حدِّ العصبيَّة، وأنّي لم أصل إلى تفضيل العدنانيَّة إلا بتنقُّص القحطانيّة، وعبتَني بكتاب العرب والموالي[8]، وزعمت أنّي بَخَسْت المواليَ حقوقَهم، كما أنّي أعطيتُ العربَ ما ليس لهم. وعبتَني بكتاب العرب والعجم، وزعمت أنّ القولَ في فرقِ ما بين العرب والعجم[9]، هو القولُ في فرقِ ما بين الموالي والعرب، ونسبتَني إلى التكرار والترداد، وإلى التكثير، والجهل بما في المُعَاد من الخَطَل، وحَمْلِ الناسِ المؤن.

وعبتَني بكتاب الأصنام[10]، وبذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إيّاها، وكيف اختلفا في جهة العلَّة مع اتّفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عُبَّاد البِدَدَة[11] والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة، والأصنام المنجورة، أشدَّ الديّانين

---

(١) بروكلمان ٣/١٢٣، رقم (٤٥).
(٢) بروكلمان ٣/١٢٤، رقم (٥٦).
(٣) بروكلمان ٣/١٢٤، رقم (٦١).
(٤) بروكلمان ٣/١٢٥، رقم (٨٠).
(٥) بروكلمان ٣/١٢٤، رقم (٦٢)، (٦٤).
(٦) رسائل الجاحظ ٣/٣٧(١) ١٥٩ بعنوان «النساء».
(٧) بروكلمان ٣/١٢٢، رقم (٢٧).
(٨) بروكلمان ٣/١٢٢، رقم (٢٨).
(٩) بروكلمان ٣/١٢٢، رقم (٢٩).
(١٠) بروكلمان ٣/١٢١، رقم (١).
(١١) البددة: جمع بُدّ، وهو الصنم. أو بيت الأصنام والتصاوير. وهو إعراب «بت» بالفارسية. اللسان: بدد ٣/٨٢.

إلْفاً لما دانوا به، وشغفاً بمَا تعبَّدوا له، وأظهَرَهم جداً، وأشدَّهم على من خالفهم ضغناً، وبما دانوا ضنّاً، وما الفرق بين البُدّ والوثَن، وما الفَرق بين الوثَن والصنم، وما الفَرق بين الدُّمية والجثّة، ولِمَ صوَّروا في محاريبهم وبيوت عباداتهم، صُوَرَ عظمائهم ورجالِ دعوتهم، ولم تأنَّقوا في التصوير، وتجوَّدوا[1] في إقامة التركيب، وبالغوا في التحسين والتفخيم، وكيف كانت أوَّليَّة تلك العبادات، وكيف اقترفت تلك النّحل، ومن أيّ شكل كانت خُدَع تلك السدنة[2]، وكيف لم يزالوا أكثرَ الأصنافِ عدداً، وكيف شمل ذلك المذهب الأجناسَ المختلفة.

وعبتني بكتاب المعادن[3]، والقولِ في جواهرِ الأرض، وفي اختلاف أجناس الفلزّ والإخبار عن ذائبها وجامدها، ومخلوقها ومصنوعها، وكيف يسرع الانقلاب إلىَ بعضها، ويُبطئ عن بعضها، وكيف صار بعض الألوان يَصبُغ ولا ينصبغ، وبعضها يَنْصبغ ولا يصْبَغُ، وبعضها يصبغُ وينصبغ، وما القولُ في الإكسير والتلطيف.

وعبتَني بكتاب فرق ما بين هاشمٍ وعبد شمس[4]، وكتاب فرق ما بين الجنّ والإنس[5]، وفرق ما بين الملائكة والجنّ[6]، وكيف القولُ في معرفة الهدهد واستطاعة العفريت[7]، وفي الذي كان عنده عِلْمٌ من الكتاب[8]، وما ذلك العلم، وما تأويل قولهم: كان عنده اسم اللّه الأعظم[9].

وعبتني بكتاب الأوفاق والرياضات[10]، وما القولُ في الأرزاق والإنفاقات

(١) تجوّدوا: فعلوا الجيّد.

(٢) السدنة: جمع سادن، وهو خادم الكعبة وبيت الأصنام. اللسان: سدن ١٣ / ٢٠٦.

(٣) بروكلمان ٣ / ١٢٥، رقم (٧٩).

(٤) بروكلمان ٣ / ١٢٢، رقم (٣٠).

(٥) بروكلمان ٣ / ١٢١، رقم (٢).

(٦) بروكلمان ٣ / ١٢١، رقم (٣).

(٧) معرفة الهدهد، إشارة إلى قوله تعالى ﴿وجئتك من سبأ بخبر يقين﴾ [النمل: ٢٢]. واستطاعة العفريت؛ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قال عفريت من الجنّ انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك﴾ [النمل: ٣٩]، ويقصد عرش بلقيس.

(٨) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك﴾ [النمل: ٤٠]. والقائل هو آصف كاتب سليمان، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم. انظر تفسير ابن كثير ٣ / ٣٧٦.

(٩) ذكر ابن كثير ٣ / ٢٧٦ ان تاويل قوله هو: «يا ذا الجلال والإكرام. وقال الزهري: قال: يا إلهنا وإله كل شيء واحداً لا إله إلا أنت، ائتني بعرشها».

(١٠) بروكلمان ٣ / ١٢٣، رقم (٣٦).

وكيف أسباب التثمير والترقيح، وكيفَ يجتلب التجار الحُرَفاء، وكيف الاحتيال للودائع، وكيف التسبُّب إلى الوصايا، وما الذي يوجب لهم حسن التعديل، ويصرف إليهم باب حسن الظن، وكيف ذكرنا غشَّ الصناعات والتجارات[1]، وكيف التسبُّب إلى تعرف ما قد ستروا وكشف ما موَّهوا؛ وكيف الاحتراس منه والسلامة من أهله. وعبتني برسائلي[2]، وبكلّ ما كتبت به إلى إخواني وخُلَطائي، من مَزْحٍ وجِدٍّ، ومن إفصاح وتعريض، ومن تغافُل وتوقيف، ومن هجاء لا يزال مِيسَمه باقياً، ومديح لا يزال أثرُه نامياً ومن مُلَح تُضحِك، ومواعظَ تُبكي.

وعبتَني برسائلي الهاشميّات[3]، واحتجاجي فيها، واستقصائي معانيَها، وتصويري لها في أحسَن صورة، وإظهاري لها في أتمّ حلية، وزعمتَ أنّي قد خرجتُ بذلك من حدِّ المعتزلة إلى حد الزيديّة، ومن حدّ الاعتدال في التشيُّع والاقتصاد فيه، إلى حدِّ السرف والإفراط فيه. وزعمتَ أنّ مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضَة، وأنّ مقالة الرافضة خطبة مقالة الغاليَة[4]. وزعمتَ أنّ في أصل القضيّة والذي جرَتْ عليه العادة. أن كلَّ كبير فأوّلهُ صغير، وأنَّ كلَّ كثير فإنما هو قليل جُمع مِنْ قليل، وأنشدت قول الراجز: [من الرجز]

قد يَلحَق الصغيرُ بالجليلِ وإنّما القَرْمُ من الأَفِيل
وسُحُقُ النخلِ من الفَسيل[5]

وأنشدت قول الشاعر: [من الرجز]

ربَّ كبير هاجَه صغيرٌ وفي البُحور تَغرَق البحورُ[6]

وقلت: وقال يزيدُ بن الحكم: [من م. الكامل]

فاعلم بُنَيَّ فإنَّه بالعلم يَنتفِع العليم[7]

---

(١) بروكلمان ٣/١٢٤، رقم (٦٣).
(٢) رسائل الجاحظ: ١/٢٢٧ «في الجد والهزل»، ١/٢٧٩ «في نفي التشبيه»، ١/٣٠٩ «الفتيا»، ٢/٣ «في النابتة».
(٣) بروكلمان ٣/١٢٦، رقم (١٩١).
(٤) رسائل الجاحظ ٤/٣١١ - ٣٢٤.
(٥) الرجز بلا نسبة في المحاسن والأضداد، والجمهرة ٨٤٨، ومروج الذهب ٣/١٩١.
(٦) البيت من بحر الرجز؛ أو البحر السريع، وهو بلا نسبة في المحاسن والأضداد.
(٧) البيتان في شرح الحماسة للمرزوقي ١١٩٠ - ١١٩٧.

إنّ الأمورَ دقيقُها مما يَهيج له العظيم

وقلتَ: وقال الآخر: [من المديد]

صار جِداً ما مزحتَ به رُبَّ جِدٍّ سَاقه اللعبُ[١]

وأنشدت قول الآخر: [من الكامل]

ما تَنْظُرون بحقِّ وَردةَ فيكمُ تُقضَى الأمورُ ورَهطُ وردَةَ غُيَّبُ[٢]
قد يبعثُ الأمْرَ الكبيرَ صغيرهُ حتَّى تظلَّ له الدماءُ تَصَبَّبُ

وقالت كَبْشة بنت مَعْدِ يكَرِب: [من الطويل]

جَدعتمْ بعبد الله آنُفَ قومِه بني مازن/أَنْ سَبَّ راعي المحَزَّمِ[٣]

وقال الآخر: [من السريع]

أَيّةَ نارٍ قَدَحَ القادحُ وأيّ جِدٍّ بَلَغَ المازحُ[٤]

وتقول العرب: «العَصَا من العُصَيَّة، ولا تلد الحيَّةَ إلاحَيَّةٌ»[٥].

وعبتَ كتابي في خلْق القرآن[٦]، كما عبت كتابي في الردِّ على المشبّهة[٧]؛ وعبْتَ كتابي في القول في أصول الفتيا والأحكام[٨]، كما عبتَ كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديعِ تركيبه[٩]. وعبتَ معارضَتي للزيديَّة وتفضيلي الاعتزالَ على كلِّ نِحْلة[١٠]، كما عبتَ كتابي في الوعد والوعيد[١١]، وكتابي على

---

(١) البيت لأبي نواس في ديوانه ٢٣٩.

(٢) البيتان لطرفة بن العبد في ديوانه ١١؛ والشعر والشعراء ٩٠، ووردة هي أمه؛ وكان أبو طرفة مات وطرفة صغير، فأبى أعمامه أن يقسموا ماله، وظلموا حقاً لأمه.

(٣) البيت من قصيدة في ستة أبيات في نوادر القالي ١٩٠؛ والخزانة ٣/٧٧ (بولاق)؛ وشرح الحماسة للتبريزي ١/١١٧؛ والأغاني ١٥/٢٣٠.

(٤) البيت لأبي نواس في ديوانه ٦١٨؛ والبيان والتبيين ٣/١٩٨.

(٥) المثل في المستقصى ٢/٣٩٠؛ ومجمع الأمثال ٢/٢٥٩.

(٦) بروكلمان ٣/١٢١، رقم (٤).

(٧) رسائل الجاحظ ٤/٥ - ١٨.

(٨) رسائل الجاحظ ١/٣٠٩ - ٣١٩.

(٩) بروكلمان ٣/١٢١، رقم (٥).

(١٠) بروكلمان ٣/١٢١، رقم (١١).

(١١) بروكلمان ٣/١٢٣، رقم (٣٧).

النصارى واليهود[1] ثمَّ عبتَ جملةَ كتبي في المعرفة والتمست تهجينَها بكلِّ حيلة، وصغَّرت من شأنها، وحطَطت من قدرها، واعترضت على ناسخيها والمنتفعين بها، فعبتَ كتاب الجوابات[2]، وكتاب المسائل[3]، وكتابَ أصحاب الإلهام[4]، وكتابَ الحجَّة في تَثبيت النبوّة[5]، وكتاب الأخبار، ثمّ عبتَ إنكاري بصيرةَ غنام المرتدِّ[6]، وبصيرةَ كلِّ جاحد وملحد، وتفريقي بين اعتراض الغُمْر[7]، وبين استبصار المحقّ، وعبتَ كتابَ الردِّ على الجَهْميّة في الإدراك[8]. وفي قولهم في الجَهْالات. وكتاب الفرقِ ما بينَ النبيِّ والمتنبي[9]. والفرق ما بينَ الحيَل والمخاريق[10]. وبينَ الحقائقِ الظاهرة والأعلام الباهرة. ثمّ قصدتَ إلى كتابي هذا بالتصغير لقدره والتهجين لنظمه، والاعتراض على لفظه، والتحقير لمعانيه، فزرَيت على نحْته وسَبكه، كما زرَيت على معناهُ ولفظه، ثمّ طعنتَ في الغرض الذي إليه نزعْنا، والغاية التي إليها قَصَدنا. على أنّه كتابٌ معناه أنبَهُ من اسمه، وحقيقتهُ آنَقُ من لفظه، وهو كتابٌ يحتاجُ إليه المتوسِّط العامي، كما يحتاجُ إليه العالم الخاصي، ويحتاج إليه الرَّيِّض كما يحتاج إليه الحاذق: أما الرّيض فللتعلُّم والدربْة، وللترتيب والرياضة، وللتمرين وتمْكين العادة، إذْ كان جليلُه يتقدم دقيقه، وإذا كانت مقدِّماته مرتبةً وطبقاتُ معانيه منزّلة. وأما الحاذقُ فلكفاية المؤنة، لأن كلَّ من التقط كتاباً جامعاً، وباباً من أمَّهات العلم مجموعاً، كان له غُنْمه، وعلى مؤلّفه غُرمُه، وكان له نفعُه، وعلى صاحبه كَدُّه، معَ تعرُّضه لمطاعِن البُغَاة، ولاعتراض المنافسين، ومع عرْضه عقلَه المكدودَ على العقولِ الفارغة، ومعانيه على الجهابذة، وتحكيمه فيه المتأوِّلين والحسَدَة. ومتى ظَفر بمثله صاحبُ علم، أو هجمَ عليه طالبُ فقه، وهو وادعٌ رافه، ونَشيط جَامٌّ، ومؤلِّفه مُتعَبٌ مكدود، فقد كُفي مَؤُونَة جمعه وخزنِه، وطلبِه وتتبُّعِه، وأغناه

(١) رسائل الجاحظ ٣ / ٣٠١ – ٣٥١.
(٢) رسائل الجاحظ ٤ / ٤٧ – ٦٧، وبروكلمان ٣ / ١٢٦، رقم (٩٢).
(٣) رسائل الجاحظ ٤ / ٤٧ – ٦٧.
(٤) بروكلمان ٣ / ١٢١، رقم (٧).
(٥) رسائل الجاحظ ٣ / ٢٢١ – ٢٨١.
(٦) بروكلمان ٣ / ١٢١، رقم (١٧). وفيه: «غنّام المرتدّ الذي أحرق بالنار سنة ٢٣٤ ...».
(٧) الغمز: الذي لم يجرّب الأمور. (اللسان: غمر ٥ / ٣١).
(٨) بروكلمان ٣ / ١٢١، رقم (٨).
(٩) بروكلمان ٣ / ١٢١، رقم (٩).
(١٠) بروكلمان ٣ / ١٢١، رقم (١٠).

ذلك عن طول التفكير، واستفادِ العمر وفلِّ الحدّ، وأدرك أقصى حاجته وهو مجتمعُ القُوَّة. وعلىٰ أنّ له عند ذلك أن يجعلَ هُجومه عليه من التوفيق، وظفَره به باباً من التسديد.

وهذا كتابٌ تستوي فيه رغبةُ الأمم، وتتشابَه فيه العُرْبُ والعَجَم، لأنه وإن كانَ عَربيًّا أعرابياً، وإسلاميًّا جماعيًّا، فقد أخَذَ من طُرَف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماعِ وعلْم التجرِبة، وأشركَ بين علم الكتاب والسنة، وبينَ وِجْدان الحاسَّة، وإحساس الغريزة. ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيُوخ، ويشتهيه الفاتكُ كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعبُ ذو اللَّهو كما يشتهيه المجدّ ذو الحَزْم، ويشتهيه الغُفْلُ كما يشتهيه الأريب، ويشتهيه الغبيُّ كما يشتهيه الفَطِن.

وعبتَني بحكاية قولِ العثْمانيَّة والضّرَارية(١)، وأنت تسمعني أقول في أوَّل كتابي: وقالت العثمانية والضراريَّة، كما سمعتَني أقول: قالت الرافضة والزيدية(٢)، فحكمتَ عليَّ بالنصْب لحكايتي قول العثمانية، فهلاَّ حكمتَ عليّ بالتشيُّع لحكايتي قول الرافضة!! وهلا كنتُ عندَك من الغالية لحكايتي حجج الغالية، كما كنتُ عندك من الناصبة لحكايتي قولَ الناصبة!! وقد حكينا في كتابنا قولَ الإباضيَّة والصُّفْرية، كما حكينا قولَ الأزارقة والزيدية. وعلى هذه الأركان الأربعة بُنيَت الخارجية، وكلُّ اسمٍ سواها فإنما هو فرعٌ ونتيجةٌ، واشتقاقٌ منها، ومحمولٌ عليها. وإلاَّ كنَّا عندَك من الخارجية، كما صرنا عندَك من الضّراريَّة والناصبَة. فكيف رضيتَ بأن تكون أسرع من الشيعة، أسرع إلى إعراض الناس من الخارجية، اللهم إلاّ أن تكون وجدتَ حكايتي عن العثمانيَّة والضّراريَّة أشبعَ وأجمعَ، وأتَمَّ وأحكم، وأجود صنعة، وأبعد غاية. ورأيتني قد وهَّنت حقَّ أوليائك، بقدر ما قوَّيتُ باطل أعدائك! ولو كان ذلك كذلك، لكان شاهدك من الكتاب حاضراً، وبرهانك على ما ادعيت واضحاً.

وعبتَني بكتاب العباسية(٣)، فهلاَّ عبتَني بحكاية مقالة مَن أبى وجوبَ الإمامة، ومَنْ يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أنّ ترْكَ النَّاس سُدًى بلا قيِّم أردُّ عليهم، وهملاً بلا راع أربحُ لهم، وأجدَرُ أنْ يجمع لهم ذلك بين سلامَة العاجل، وغنيمة الآجل، وأنَّ تركَهم نَشَراً لا نظامَ لهم، أبعد من المَفاسد، وأجمعُ لهم عَلَى المراشد!! بل ليَس ذلك بك، ولكنّه بهرَك ما سمعتَ، وملأَ صدرَك الذي قرأت، وأبعَلك

(١) رسائل الجاحظ ٤/١٩-٤٥.
(٢) رسائل الجاحظ ٤/٣١١ - ٣٢٤.
(٣) بروكلمان ٣/١١٤، رقم (١٧).

وأبْطَرَك، فلم تتّجه للحجّة وهي لك معرضة، ولم تعرف المقاتل وهي لك بادية، ولم تَعرِف بابَ المخرج إذ جهلتَ بابَ المدخَل، ولم تعرِف المصادر إذ جهلتَ الموارد.

رأيتَ أنَّ سبَّ الأولياء أشفى لدائك، وأبلغَ في شفاء سَقَمك، ورأيتَ أن إرسالَ اللسان أحضَرُ لَذَّةً، وأبعدُ من النَّصَب، ومن إطالة الفكرة ومن الاختلاف إلى أرباب هذه الصناعة.

ولو كنتَ فطِنت لعجْزك، ووصَلْتَ نقصَك بتمامِ غيرِك، واستكفيْتَ من هو موقوفٌ على كفايةِ مثلك، وحَبيسٌ على تقويم أشباهك كان ذلك أزينَ في العاجل. وأحقَّ بالمثُوبة في الآجل، وكنتَ إنْ أخطأتك الغنيمةُ لم تُخْطِك السلامة، وقد سَلِم عليك المخالفُ بقدر ما ابتُلي به منكَ الموافِق. وعلى أنَّه لم يُبتَل منك إلا بقَدْرِ ما ألزمَته من مُؤنة تثقيفك، والتشاغُلِ بتقويمك. وهل كنتُ في ذلك إلاّ كما قال العربي:

«هَلْ يَضُرُّ السَّحابَ نباحُ الكلاب»(١)، وإلاّ كما قال الشاعر: [من الرمل]

هل يَضُرُّ البحرَ أمسى زَاخِراً ... أنْ رَمَى فيه غُلامٌ بحجَرْ(٢)

وهل حالُنا في ذلك إلاّ كما قال الشاعر: [من الكامل]

ما ضرَّ تغلبَ وائلٍ أهجَوْتَها ... أم بُلْتَ حَيْثُ تَناطَحَ البَحْرَانِ(٣)

وكما قال حسَّانُ بنُ ثابت: [من الخفيف]

ما أُبالي أنَبَّ بالحَزْنِ تَيسٌ ... أم لَحَاني بظهْرِ غَيْبٍ لَئِيمُ(٤)

وما أشكُّ أنَّكَ قد جعلت طول إعراضنا عنك مَطيَّةً لك، ووجَّهتَ حلمَنا عنك إلى الخوف منك، وقد قال زُفَر بنُ الحارث لبعضِ مَنْ لم ير حقَّ الصفح، فجعل العفْوَ سبباً إلى سوء القول: [من الطويل]

فإنْ عدتَ وَاللّهِ الذي فوقَ عَرْشه ... مَنَحْتُك مسنون الغِرَارَينِ أزْرَقا(٥)

فإنّ دواءَ الجهل أن تُضْرَبَ الطُّلَى ... وأن يُغْمس العِرِّيضُ حتى يغرّقا

---

(١) من الأمثال؛ وتتمته: «ولا الصخر تفليل الزجاج»، والمثل في مجمع الأمثال ٢ / ٤٠٨؛ ٢ / ٢١٥، والدرة الفاخرة ٢ / ٤٣٢، والمستقصى ٢ / ٢٧٢.

(٢) البيت بلا نسبة في البيان ٣ / ٢٤٨، وأخبار أبي تمام ٤٦.

(٣) البيت للفرزدق في ديوانه ٨٨٢، والخزانة ٢ / ٥٠١ (بولاق)، والبيان ٣ / ٤٨، وأخبار أبي تمام ٤٩.

(٤) ديوان حسان ٤٣٤. نبَّ: صاح؛ ونبيب التيس يكون عند وثوبه للسفاد. والحزن: ما غلظ من الأرض.

(٥) البيتان في البيان ٤ / ٥٦ لزفر بن الحارث.

وقال الأوّل: [من الكامل]

وضغَائنٍ دَاوَيتُها بضغائنٍ ... حتَّى شَفَيتُ وبالحُقُودِ حُقُودا

وقال الآخر: [من البسيط]

وما نَفى عنك قوماً أنت خائفُهم ... كَمِثْل وَقمك جُهَّالاً بجُهّالِ[1]

فاقْعَسْ إذَا حَدِبوا واحدَبْ إذا قَعسوا ... وَوَازِنِ الشَّرَّ مثقالاً بِمثقالِ

فإنّا وإن لم يكن عندنا سنَان زُفَرَ بنِ الحارث، ولا معارضةُ هؤلاء الشرَّ بالشرّ، والجهلَ بالجهل، والحِقد بالحِقد، فإن عندي ما قال المسعوديُّ: [من الطويل]

فمُسَّا تراب الأرضِ منه خُلِقتُما ... وفيه المعادُ والمصيرُ إلى الحشر[2]

ولا تأنفا أن تَرْجِعا فتسلِّما ... فما كسى الأفواه شَرًّا من الكِبْرِ

فلو شئتُ أدْلى فيكما غير واحد ... علانيةً أو قالَ عندي في السِّرِّ

فإنْ أنا لم آمُرْ ولم أنْهَ عنكُما ... ضَحِكْتُ له كيما يَلجَّ ويَسْتَشْرِي

وقال النَّمر بن تَولَب: [من الطويل]

جزَى اللّهُ عنّي جَمرَةَ ابنةَ نوفلٍ ... جَزَاءَ مُغِلٍّ بالأمانةِ كاذبِ[3]

بما خَبَّرَتْ عنِّي الوُشاةَ ليكذِبوا ... عليَّ وقد أوليتُها في النوائِبِ

يقول: أخرجتْ خَبرَها، فخرج إلى من أحبُّ أن يعابَ عندها.

ولو شئتَ أن نعارضَك لعارضناك في القول بما هو أقبحُ أثراً وأبقى وَسْماً، وأصدقُ قيلاً، وأعدلُ شاهداً. وليس كلُّ مَن تَرَكَ المعارضَةَ فقد صفح، كما أنَّه ليس من عَارضَ فقد انتصرَ، وقد قال الشاعر قولاً، إن فهمتَه فقد كفَيتَنا مَؤُونَةَ المُعارضَة، وكفيتَ نفسَك لزوم العارِ، وهو قوله: [من السريع]

إن كنتَ لا ترهَبُ ذمِّي لِمَا ... تَعْرِفُ مِنْ صَفْحِي عن الجاهلِ[4]

---

(١) البيتان بلا نسبة في البيان ٣/ ٣٣٤، ومجالس ثعلب ٤٢٣، والروض الأنف ١/ ١٧٠.

(٢) الأبيات في الأغاني ٩/ ١٤٥، وأمالي المرتضى ٢/ ٦٠، ومجالس ثعلب ١٤، ورسائل الجاحظ ١/ ٣٥٥.

(٣) البيتان في ديوان النمر بن تولب ٣٣٢، والأغاني ٢٢/ ٢٧٦، وعيون الأخبار ٣/ ١٤، والبيت الأول في اللسان (غلل)، والتاج (جمر؛ غلل)، والمقاييس ٤/ ٣٧٦، وتهذيب اللغة ١٦/ ٩٢. والمغلّ: من الإغلال؛ وهو الخيانة.

(٤) الأبيات للعتابي أو ابن قنبر في الأغاني ١٤/ ١٦٦، وللعتابي في رسائل الجاحظ ١/ ٣٥٥، =

فاخشَ سُكُوتي إذ أنا منصت فيكَ لمسموعِ خَنَا القائلِ
فالسامعُ الذمِّ شريكٌ لهُ ومُطعمُ المأكول كالآكلِ
مقالةُ السُّوء إلى أهلها أسرَعُ من مُنْحَدر سائلِ
ومن دَعا الناسَ إلى ذمِّه ذمُّوه بالحقِّ وبالباطل
فلا تَهِجْ إنْ كنتَ ذا إربَةٍ حرْبَ أخي التجربة العاقل
فإنَّ ذا العَقل إذا هِجْتَه هجتَ به ذا خَبَلٍ خابل
تُبْصرُ في عاجلِ شدَّاته عليك غِبَّ الضرَر الآجلِ

وقد يقال: إنّ العفوَ يُفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم، وقد قال الشاعر: [من البسيط]

والعَفو عندَ لبيبِ القومِ موعِظةٌ وبعضهُ لسَفيهِ القومِ تدريبُ

٢ - [لا تزر وازرة وزر أخرى]

فإنْ كنَّا أسأنا في هذا التقريع والتوقيف، فالذي لم يأخُذ فينا بحُكم القرآن ولا بأدَب الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم يَفزَع إلى ما في الفطَن الصحيحة، وإلى ما توجبهُ المقاييسُ المطَّردةُ، والأمثالُ المضرُوبة، والأشعار السائرة، أولَى بالإساءَة وأحقُّ باللائمة، قال اللّه عزَّ وجل: ﴿ولاَ تَزرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[١]. وقد قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: « لا يَجْنِ يمِينُكَ عَلَى شِمَالك ».

وهذا حكمُ اللّه تعالى وآدابُ رسوله والذي أُنْزِلَ به الكتابُ ودلَّ عليه من حُجَج العقول.

٣ - [المفقأ والمعمى]

فأمَّا ما قالوا في المثل المضروب «رَمَتْني بِدَائها وانسَلَّتْ»[٢]، وأمّا قولُ الشعراءِ، وذمُّ الخطباءِ لِمنْ أخَذَ إنساناً بذنْب غيره، وما ضَرَبُوا في ذلك من الأمثال،

= - ولكعب بن زهير في الخزانة ٤ / ١٢ (بولاق)، ولمحمد بن حازم الباهلي في ديوانه ٨١، والحماسة البصرية ٢ / ٢٦٠، والبيتان ٤ - ٥ بلا نسبة في عيون الأخبار ٢ / ٢٦.

(١) ١٦٤ : الأنعام /٦.

(٢) المثل في مجمع الأمثال ١ /٢٨٦، والمستقصى ٢ /١٠٣، وفصل المقال ٩٢، والأمثال لابن سلام ٧٣.

كقول النابغة حيث يقول في شعره: [من الطويل]

وكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وتركْتَه كذِي العُرِّ يُكوَى غيرُه وهو رَاتِع [1]

وكانوا إذا أصاب إبِلَهُم العُرّ[2] كَوَوُا السليمَ ليدفعَه عن السقيم، فأسقمُوا الصحيحَ من غير أن يُبْرِئوا السقيم.

وكانوا إذا كثُرتْ إبلُ أحدِهم فَبَلَغَت الألف، فقَؤوا عَينَ الفحْل، فإنْ زادَت الإبلُ على الألف فقؤوا العينَ الأخرى، وذلك المفقَّأُ والمعمَّى اللذان سمعتَ في أشعارهم[3].

قال الفرزدق: [من الوافر]

غلبتك بالمفقئ والمعنَّى وبيتِ المُحْتَبِي والخافقاتِ[4]

وكانوا يزعمون أن المفقأ يطرد عنها العين والسوافَ[5] والغارة، فقال الأوّل: [من الطويل]

فقأتُ لها عَيْنَ الفَحِيل عِيَافَةً وفيهنّ رَعْلاَءُ المسامعِ والحامي[6]

الرعلاء: التي تشقّ أذنها وتترك مدلأة، لكرمها.

٤ - [ذبح العتيرة]

وكانوا يقولون في موضع الكَفَّارة والأمْنيَّة، كقول الرجل: إذا بلغَتْ إبلي كذا وكذا وكذلك غنَمي، ذَبحْتُ عند الأوثان كذا وكذا عتيرة[7]. والعتيرة من نُسُك الرَّجبيّة والجمع عتائر - والعتائر من الظباء - فإذا بلغتْ إبلُ أحدِهم أو غنمُه ذلك

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ٣٧، واللسان والتاج (عرر)، والمستقصى ٢/٢١٧، ومجمع الأمثال ٢/١٥٨.

(٢) العُرّ: قروح تخرج بالإبل متفرقة في مشافرها وقوائمها، يسيل منها مثل الماء الأصفر. (اللسان: عرر ٤/٣٥٥).

(٣) انظر كتاب البرصان والعرجان ٢٦٧، ٢٦٩، والفاضل ٨٥.

(٤) البيت في ديوان الفرزدق ١/١١٠، واللسان (فقأ، عمى، عنا)، والتاج (خفق، عنى)، وتهذيب اللغة ٣/٢١٣؛ ٩/٣٣٢، وكتاب العين ٢/٢٥٣.

(٥) السواف: مرض الإبل. (اللسان سوف ٩/١٦٦).

(٦) البيت دون نسبة في البيان ٣/٩٦، واللسان (حمى)، والتاج (حمي)، والمخصص ٧/١٥٦، والفاضل للمبرد ٨٥.

(٧) الفاضل ٨٥.

العددَ، استعملَ التأويلَ وقال: إنَّما قلتُ إنِّي أذبحُ كذا وكذا شاة، والظباء شاء كما أنَّ الغنم شاء، فيجعل ذلك القربانَ شاءً كلَّه ممَّا يَصيد من الظباء، فلذلك يقول الحارثُ ابن حِلِّزةَ اليشكُريُّ: [من الخفيف]

عَنَتاً باطلاً وظُلْماً كما تُعْـ ـتَرُ عَنْ حَجْرَةِ الرَّبيضِ الظِّباءُ[1]

بعد أن قال:

أمْ عَلينا جُناحُ كِنْدَةَ أن يَغْـ ـنَمَ غَازِيُهمُ ومِنَّا الجزاءُ

٥ - [إمساك البقر عن شرب الماء]

وكانوا إذا أورَدُوا البقرَ فلم تشرَبُ، إمَّا لكَدَر الماء، أو لقلَّة العطَش، ضربوا الثورَ ليقتَحِم الماء، لأنَّ البقرَ تَتْبَعه كما تتْبع الشَّوْلُ الفحل، وكما تتبع أُتُنُ الوحش الحِمار. فقال في ذلك عَوْفُ بن الخَرِع: [من الوافر]

تمنَّتْ طيِّئٌ جَهْلاً وجُبْناً وقد خالَيتُهم فأَبَوْا خلائي[2]

هَجَوْني أنْ هَجَوْتُ جِبَال سَلمى كضَرْب الثَّورِ للبقرِ الظِّماء

وقال في ذلك أَنَس بن مُدْرِكة في قتله سُلَيك بنَ السُّلَكَة: [من البسيط]

إنِّي وقَتْلي سُلَيْكاً ثمَّ أعْقِلهُ كالثَّورِ يُضرَب لمَّا عافَتِ البَقَرُ[3]

أنِفْتُ لِلْمَرءِ إذْ نِيكتْ حَليلتُه وأن يُشَدَّ على وجعائها الثَّفَرُ

وقال الهَيَّبان الفهميّ: [من الطويل]

كما ضُرِبَ الْيَعْسُوب أَنْ عافَ باقِرٌ وما ذَنْبُهُ أن عافَتِ الماءَ باقرُ

ولمّا كان الثورُ أميرَ البقر، وهي تطيعُه كطاعة إناث النحل لليعسوب، سمَّاه باسم أمير النحْلِ.

---

(١) البيت في ديوان الحارث بن حلزة ٣٦، واللسان (حجر، عتر، عنن)، والتاج (عتر، عنن)، والخصائص ٣/٣٠٧، وديوان الأدب ٢/١٥٦، والمخصص ١٣/١٨.

(٢) البيتان لعوف بن عطية بن الخرع في الفاضل ٨٦. والشاعر من فرسان العرب الجاهليين، انظر معجم الشعراء ١٢٥ والمفضليات ٣٢٧.

(٣) البيتان لأنس بن مدركة في الأغاني ٢٠/٣٨٧، وشرح الحماسة للتبريزي ٢/١٩٣، واللسان (ثور؛ وجع)، والبيت الأول في الدرر ٤/٩٣، والمقاصد النحوية ٤/٣٩٩، وبلا نسبة في شذور الذهب ٤٠٦ والهمع ٢/١٧، والبيت الثاني في المخصص ١٦/٤٤، وتهذيب اللغة ٣/٥١.

وكانوا يزعمون أنَّ الجنَّ هي التي تصُدُّ الثِّيرانَ عن الماء حتى تُمْسِكَ البقرُ عن الشرب حتى تهلِك، وقال في ذلك الأعشى: [من الطويل]

فإنِّي وما كلَّفتُموني – وربِّكم – لأعلَمُ مَنْ أمْسَى أعقَّ وأحربا[1]
لَكالثَّور والجنّيُّ يَضرِبُ ظَهرَه وما ذنْبُه أن عافَتِ الماءَ مَشرَبا
وما ذنْبُه أنْ عافَتِ الماءَ باقرٌ وما إن تَعافُ الماءَ إلاَّ ليُضْرَبا

كأنّه قال: إذا كان يُضْرَب أبداً لأنها عافت الماء، فكأنَّها إنما عافَتِ الماءَ ليُضْرَب.

وقال يحيى بن منصور الذُّهليّ في ذلك: [من الطويل]

لكالثَّور والجنيّ يَضْرِبُ وَجْهَه وما ذَنْبه إن كانَتِ الجِنُّ ظالِمه

وقال نَهْشَلُ بنُ حَرِّيٍّ: [من الوافر]

أتُتْرَكُ عارِضٌ وبنو عَدِيٍّ وتَغْرَمَ دارِمٌ وهُم بَراءُ[2]
كدأبِ الثَّوْرِ يُضْرَبُ بالهَراوى إذا مَا عَافَتِ البَقَرُ الظِّمَاءُ
وكيف تكلّفُ الشِّعرَى سُهيلاً وبينَهما الكواكبُ والسَّماءُ

٦ – [ذنب العطرق]

وقال أبو نُوَيرة بن الحصين، حين أخذه الحكم بن أيُّوب بذَنْب العَطَرَّق: [من الطويل]

أبا يُوسُفٍ لو كنتَ تَعلَمُ طاعَتي ونُصْحي إذنْ ما بِعتَني بالمحلَّق[3]
ولا ساقَ سَرّاق العِرَافة صالحٌ بَنِيَّ ولا كُلِّفْتُ ذَنْبَ العطرق

وقال خِداش بن زُهير حين أُخذ بدماء بني محارب: [من الطويل]

أُكلّفُ قَتْلَى مَعْشر لستُ مِنهمُ ولا دارُهُمْ داري ولا نصرُهُم نَصْرِي

---

(١) ديوان الأعشى ١٦٥، والبيت الأول في اللسان والتاج (عقق)، والثاني في اللسان والتاج (ثور)، والثالث في اللسان (ثور)، والمقاييس ١/٢٧٨، ٣٩٦.

(٢) الأبيات في ديوان نهشل بن حري ص ٨٥، وحماسة البحتري ٢٢٢، والأول والثاني في المستقصى ٢/٢٠٥.

(٣) البيتان في البخلاء ١٥٢.

أُكلَّفُ قَتلَى العِيصِ عِيصِ شُواحِط وذلك أمرٌ لم تُثَفَ لَهُ قِدْرِي[1]

وقال الآخر: [من الطويل]

إذا عَركت عِجْلٌ بنا ذنْبَ طيِّءٍ عَركْنا بتَيمِ اللاتِ ذنبَ بَني عِجْلِ

٧ - [جناية اليهودي]

ولما وَجَد اليهودِيُّ أخا حنبض الضبابيّ في منزله فخصَاه فمات، وأخذَ حنبض بني عَبْس بجنايَة اليهوديّ، قال قيس بن زُهَيْر: أتأخذُنا بذنْبِ غيرنا، وتسألنا العَقلَ والقاتلُ يهوديٌّ من أهل تيماء؟ فقال: والله أنْ لو قتلَتْه الريح، لودَيْتُمُوه! فقال قيس لبني عَبس: الموتُ في بني ذُبيانَ خَيْرٌ من الحَياةِ في بَني عامر! ثم أنشأ يقول: [من الطويل]

أكلَّفُ ذا الخُصْيَيْن إن كان ظَالماً وإن كنتُ مظلوماً وإن كنتُ شاطنا[2]

خصاه امرؤٌ من آلِ تيماءَ طائر ولا يَعْدمُ الإنسيُّ والجنُّ كائنا

فَهَلاَّ بني ذُبيانَ - أمُّكَ هَابِلٌ - رَهَنْتَ بفَيفِ الرِّيحِ إن كُنْتَ رَاهنا[3]

إذا قلتُ قد أفلتُّ من شَرِّ حنبض أتاني بأُخْرَى شرّه مُتَباطنا

فقد جَعَلَتْ أكبادُنا تجتويكُمُ كما تجتوِي سوقُ العِضاهِ الكرازِنِ[4]

٨ - [قتل لقمان بن عاد لنسائه وابنته]

ولما قَتَل لُقمان بنُ عادٍ ابنَته - وهي صُحْر أختُ لُقَيم - قال حين قَتَلها[5]: ألَسْتِ امرأة! وذلك أنّه قد كان تزوج عِدَّةَ نساء، كلُّهنَّ خُنَّهُ في أنفسهنّ، فلمَّا قَتَلَ أُخراهنَّ ونزل من الجبل، كان أوَّلَ من تلقّاه صُحْر ابنته، فوثَبَ عليها فقتلها وقال:

---

(١) البيت بلا نسبة في أساس البلاغة (أثف).

(٢) الأبيات لقيس بن زهير في ديوانه ٣٨.

(٣) فيف الريح: موضع بأعلى نجد، وهو من أيام العرب، قام به بنو مذحج على بني عامر. انظر أيام العرب في الجاهلية ١٣٢، والعقد الفريد ٣/٣٥٩.

(٤) الكرزن: الفاس الكبير.

(٥) انظر خبر لقمان ونسائه في مصارع العشاق ١/٧٦، وذم الهوى ٣٧٦ -٣٧٨، وأخبار النساء ١١٣، وتعليق من أمالي ابن دريد ١٠٧(١) ١٠٨، وتزيين الأسواق ٢٩٠، ومجمع الأمثال ٢/٢٤٦، وجمهرة الأمثال ٢/٢٦١.

وأنت أيضاً امرأة!وكان قد ابْتُلِي بأنَّ أختَه كانت مُحْمِقة وكذلك كان زوجُها، فقالتْ لإحدَى نساء لُقْمان: هذه ليلةُ طُهْرِي وهي ليلتُك، فَدَعيني أنامُ في مَضجَعك، فإنَّ لقمانَ رجلٌ مُنْجِب، فعسَى أن يقع عليَّ فأُنْجِبَ. فوَقَعَ على أُختِه فَحمَلَتْ بِلُقَيْم. فهو قولُ النَّمِرِ بن تَوْلَب: [من المتقارب]

لُقيمُ بنُ لُقمانَ من أُختِه ... فكانَ ابنَ أُختٍ لهُ وابنَما[1]

لياليَ حمّق فاستحصنَتْ ... عليه فَغُرَّ بها مُظْلما

فأحبَلَهَا رَجلٌ مُحكِمٌ ... فجاءت به رجلاً مُحْكَمَا

فضربت العربُ في ذلك المثلَ بقتل لقمان ابنتَه صُحراً، فقال خُفافُ بن نَدْبَةَ في ذلك: [من الوافر]

وعَبّاس يُدِبُّ لي المنايا ... وما أذنَبْتُ إلاّ ذَنْبَ صُحْر[2]

وقال في ذلك ابن أُذَيْنَة: [من الطويل]

أتجمَع تَهيَاماً بليلَى إذا نأَتْ ... وهِجْرانَها ظُلماً كما ظُلِمَتْ صُحْرُ[3]

وقال الحارثُ بن عُبَاد: [من الخفيف]

قَرِّبا مربطَ النعامة مِنّي ... لَقحَتْ حربُ وائلٍ عَنْ حِيالِ[4]

لم أكنْ من جُنَاتِها عَلِمَ اللّـ ... ـهُ وإنّي بحَرِّها اليومَ صالي

وقال الشاعر، وأظنُّه ابنَ المقفَّع: [من المتقارب]

فلا تَلُمِ المرءَ في شأنِه ... فربَّ ملومٍ ولَمْ يُذْنِبِ[5]

وقال آخر: [من الطويل]

لعلَّ لَهُ عُذْراً وأنتَ تَلُومُ ... وكم لائمٍ قد لامَ وهْوَ مُليم

---

(١) ديوان النمر بن تولب ٣٨٣، والبيان ١/١٨٤، وشرح شواهد المغني ٨٠(١) ١٨١، ومجمع الأمثال ٢/٣٨٩، والتاج (حمق).

(٢) البيت في ديوان خفاف بن ندبة ٤٧١، والفاضل ٨٦، ومجمع الأمثال ٢/٢٦٤، والمستقصى ٢/٨٧. و«عباس» هو: العباس بن مرداس السلمي (١٨هـ)، شاعر فارس؛ أسلم قبل فتح مكة (الأعلام ٤/٣٩).

(٣) البيت في الفاضل ٨٦.

(٤) البيتان في الأغاني ٥/٤٧، وذيل أمالي القالي ٢٦.

(٥) البيت لابن المقفع في البيان ١/٣٦٤.

٩ - [جزاء سنمّار]

وقال بعض العرب، في قتل بعضِ الملوك[١] لسنمّار الرومي؛ فإنه لما علا الخَوَرْنَق ورأى بُنْياناً لم يرَ مثله، ورأى في ذلك المستشرف، وخاف إن هو استبقاه أن يموت فيبني مثلَ ذلك البنيانَ لرجُلٍ آخرَ من الملوك، رمَى به من فوق القصر، فقال في ذلك الكلبيّ في شيءٍ كان بينه وبين بعضِ الملوك: [من الطويل]

جَزَاني جَزَاهُ اللّهُ شَرَّ جزائه ... جَزَاءَ سِنِمَّارٍ وما كان ذَا ذنب[٢]
سِوَى رَصِّه البنيانَ سَبعين حجَّةً ... يُعَلَّى عليه بالقَرَاميدِ والسَّكْبِ
فلما رأى البُنْيانَ تمَّ سُحُوقَه ... وآضَ كمثْلِ الطَّوْدِ ذي الباذخِ الصَّعْبِ
وظنَّ سنمّارٌ به كُلَّ حبوة ... وفازَ لَدَيْه بالمودَّة والقُرب
فقال اقذِفُوا بالعِلْجِ مِنْ رأسِ شاهقٍ ... فذاكَ لعَمْرَ اللّه مِنْ أعظَمِ الخَطْب

وجاء المسلمونَ، يروي خَلَفٌ عن سلف، وتابعٌ عن سابق، وآخرُ عنْ أول، أنَّهمْ لم يختلِفُوا في عيبِ قول زياد: «لآخُذَنَّ الوَلِيَّ بالوَلِيِّ، والسَّمِي بالسَّمِيِّ، والجارَ بالجارِ»، ولم يختلفُوا في لَعْن شاعرِهم حيث يقول: [من الوافر]

إذا أُخِذَ البَريءُ بِغَيرِ ذَنْبٍ ... تجَنَّبَ ما يُحاذِرُه السقيمُ

قال: وقيلَ لعَمْرو بن عُبَيد: إنّ فلاناً لما قدَّم رجلاً لِيُضْرَبَ عُنُقه، فقيل له: إنَّه مجنون! فقال: لولا أنَّ المجنونَ يَلِدُ عاقلاً لخلَّيت سبيلَه. قال: فقال عَمْرو: ما خَلَقَ اللّهُ النَّارَ إلاّ بالحق!

ولمّا قالت التغلَبِيَّةُ للجَحَّافِ، في وَقْعَة البِشْر[٣]: فضَّ اللّهُ فاكَ وأعماك، وأطالَ

---

(١) «الخورنق قصر كان بظهر الحيرة، وقد اختلفوا في بانيه؛ فقال الهيثم بن عدي: الذي أمر ببناء الخورنق النعمان بن امرئ القيس.... وقال ابن الكلبي: صاحب الخورنق بهرام جور بن يزدجرد» معجم البلدان: ٢/٤٠١-٤٠٢ «خورنق». وجاء في مروج الذهب ٢/٢٢٣ أن الذي بناه النعمان بن المنذر. وانظر مجمع الأمثال ١/١٥٩، والمستقصى ٢/٥٢، وجمهرة الأمثال ١/٢٩٧.

(٢) الأبيات في ثمار القلوب ١٠٩ لشراحيل الكلبي، وفي أمالي ابن الشجري ١/١٠٢ لعبد العزى بن امرئ القيس، وبلا نسبة في معجم البلدان (خورنق)، والسمط ١/٤٠٥، والأغاني ٢/١٤٥، والخزانة ١/٢٩٤، والاختيارين ٧١٣.

(٣) انظر الأغاني ١٢/١٩٨ - ٢٠٨، ومعجم البلدان «١/٤٢٦: بشر» وسبب ذلك أن بني تغلب قتلت عمير بن حباب السلمي. فاستعدى الجحاف السلمي قومه على بني تغلب . وورد قول التغلبية في البيان ١/٤٠١ . ونسب القول إلى الحمراء بنت ضمرة وعمرو بن هند في الأغاني ٢٢/١٩٣.

سُهادَك، وأَقَلَّ رُقادَك، فوَاللّه إنْ قَتَلْتَ إلاَّ نساءً أعاليهنَّ ثُديٌّ، وأسافلُهُنَّ دُمًى!! فقال لمنْ حَولَه: لولا أن تَلدَ هذه مثلَها لخَلَّيتُ سَبيلَها! فبلغ ذلك الحسنَ فقال: أمَّا الجَحَّاف فجَذْوَةٌ من نارِ جهنَّم.

قال: وذمَّ رجلٌ عند الأحنَفِ بنِ قيس الكَمْأَةَ بالسَّمْنِ، فقال عند ذلك الأحنَف: «رُبَّ مَلومٍ لا ذَنْبَ له»[1].

فبِهذهِ السيرةِ سرتَ فينا.

وما أحسنَ ما قال سعيدُ بنُ عبدِ الرحمن: [من الطويل]

وإنّ امرأً أمْسَى وأصْبَحَ سالماً مِنَ النَّاس إلاَّ ما جَنَى لَسَعيدُ[2]

١٠ - [اهتمام العلماء بالملح والفكاهات]

وقلتَ: وما بالُ أهلِ العلمِ والنظرِ، وأصحابِ الفكرِ والعِبَر، وأربابِ النِّحَلِ، والعلماءِ وأهلِ البصر بمخارجِ المِلَل، وورثَةِ الأنبياء، وأعوانِ الخلفاء، يكتُبُون كتبَ الظُّرَفاءِ والمُلَحَاء، وكُتب الفُرَّاغِ والخُلَعاء، وكتبَ الملاهي والفُكَاهات، وكتبَ أصحابِ الخُصومات، وكتبَ أصحابِ المراء، وكتبَ أصحاب العصبيَّةِ وحَميَّةِ الجاهليَّة!! ألأنَّهُمْ لا يحاسبون أنفسهم، ولا يُوازِنون بينَ ما عليهم ولهم، ولا يخَافُون تصفُّحَ العلماءِ، ولا لائمةَ الأرْبَاءِ، وشنف الأكْفَاء، ومَشْنَاة[3] الجُلَساء!؟

فهلاّ أمسكتَ - يَرْحَمُكَ اللّه - عَنْ عَيْبِها والطَّعْنِ عليها، وعن المَشُورَةِ والموعِظَة، وعن تخويفِ ما في سوءِ العاقبةِ، إلى أنْ تبلغَ حالَ العلماء، ومراتبَ الأكْفاء؟!

فأمَّا كتابُنا هذا، فسنذكرُ جُمْلَةَ المذاهب فيه، وسَنَأتي بعد ذلك على التفسير، ولَعلَّ رأيَك عند ذلك أنْ يتحوَّل، وقولَك أن يتبدل، فتُثْبِتَ أو تكونَ قد أخذتَ من التوقُّفِ بنصيب، إن شاء اللّه.

---

(١) مجمع الأمثال ١/٣٠٥، وجمهرة الأمثال ١/٤٧٤، والمستقصى ٢/٩٩، وفصل المقال ٧٣. والبيان ٢/٣٤٤، ٣٦٤، والبخلاء ١٨٧.

(٢) البيت لسعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت في البيان ١/٣٦٤، ولحسان بن ثابت في ديوانه ١٩٨، وعيون الأخبار ٢/١٢.

(٣) الشنف والمشناة: البغض.

١١ - [أقسام الكائنات]

وأقول[١]: إنّ العالَم بما فيه من الأجسام على ثلاثة أنحاء: متّفق، ومختلف، ومتضادّ؛ وكلّها في جملةِ القول جمادٌ ونامٍ. وكان حقيقةُ القولِ في الأجسام من هذه القِسْمة، أن يقال: نامٍ وغيرُ نام. ولو أنّ الحكماءَ وضعُوا لكلّ ما ليس بنامٍ اسماً،كما وضَعُوا للنامي اسماً، لاتبّعنا أثرَهُمْ؛ وإنما ننتهي إلى حيثُ انتهوا. وما أكثَرَ ما تكونُ دلالةُ قولِهمْ جماد، كدَلالة قولهم مَوَات. وقد يَفترِقان في مواضعِ بعضَ الافتراق. وإذا أخرجت من العالَم الأفلاكَ والبروجَ والنجومَ والشمسَ والقمر، وجدتَها غيرَ نامية، ولم تجدْهم يسمّون شيئاً منها بجَماد ولا مَوات، وليس لأنّها تتحرّكُ من تِلقاءِ أنفُسِها لم تُسَمَّ مواتاً ولا جماداً.

وناسٌ يجعلونها مدبِّرة غير مدبَّرة، ويجعلونها مسخِّرة غير مسَخَّرَة، ويجعلونها أحْيَا من الحيوان؛ إذْ كان الحيوانُ إنَّمَا يَحْيا بإحيائها له، وبِما تُعطيه وتُعيره. وإنما هذا منهم رأي، والأُمَمُ في هذا كلِّه على خلافِهم، ونحنُ في هذا الموضعِ إنّما نعبِّر عن لُغَتنا، وليس في لُغتنا إلاّ ما ذكرنا.

والناسُ يسمُّون الأرضَ جماداً، وربّما يَجعلونها مَوَاتاً إذا كانتْ لم تُنْبِتْ قديماً، وهي مَوَات الأرض، وذلك كقولهم: «مَنْ أحيَا أَرضاً مواتاً فهي له»[٢].

وهم لا يجعلون الماء والنارَ والهواءَ، جماداً ولا مَوَاتاً، ولا يسمُّونَها حيواناً ما دامت كذلك، وإن كانت لا تضاف إلى النَّماء والحسّ.

والأرضُ هي أحدُ الأركانِ الأربعة، التي هي الماءُ والأرضُ والهواءُ والنار، والاسمانِ لا يتعاوَرَانِ عندَهم إلاّ الأرض.

١٢ - [تقسيم النامي]

ثمّ النامِي على قسمين: حيوان ونبات، والحيوانُ على أربعة أقسام: شيءٌ يمشي، وشيء يطير، وشيء يسبَحُ، وشيءٌ يَنْسَاح[٣]. إلاّ أنّ كلّ طائرٍ يمشي، وليس الذي يَمشي ولا يَطير يسمى طائراً. والنوعُ الذي يَمشي على أربعةِ أقسام: ناس، وبهائم، وسباع، وحشرات. على أنّ الحشَرَاتِ راجعةٌ في المعنى إلى مشاكلةِ طباع

---

(١) ورد القول في مروج الذهب ٢ / ١٢٣ منسوباً إلى حكماء الهند.

(٢) النهاية في غريب الحديث ٤ / ٣٧٠.

(٣) ينساح: يمشي على بطنه. ومنه الحيّة.

البهائمِ والسباع. إلاّ أنّنا في هذا كلّه نتبع الأسماءَ القائمة المعروفة، البائنات بأنفُسها، المتميِّزات عند سامعيها، مِنْ أهلِ هذه اللغةِ وأصحاب هذا اللسان، وإنّما نُفْرِد ما أفْرَدوا، ونَجْمَع ما جَمَعوا.

١٣ - [تقسيم الطير]

والطيرُ كلُّ سَبُعٍ وبَهيمة وهَمَج. والسباعُ من الطير على ضَرْبَيْن: فمنها العِتاقُ والأحرارُ والجوارحَ، ومنها البغاث وهو كلُّ ما عظمَ من الطير: سبعاً كان أو بهيمة، إذا لم يكنْ من ذواتِ السلاحِ والمخالبِ المعقَّفة، كالنُّسورِ والرَّخَم والغِربان، وما أشبهها مِنْ لئام السباع.

ثم الخَشَاش، وهو ما لطُف جرمُه وصَغُر شخصه، وكان عديمَ السلاح ولا يكون كالزُّرَّقِ[١] واليُؤيُؤ[٢] والباذنجان[٣].

فأما الهَمَج فليس من الطير، ولكنّه ممّا يطير. والهمَجَ فيما يطيرُ، كالحشراتِ فيما يمشي.

والحيّاتُ من الحشرات، وأيُّ سبع أدخَلُ في معنى السَّبُعيَّة مِنَ الأفاعي والثعابين؟ ولكن ليس ذلك من أسمائها، وإن كانتْ من ذوات الأنياب وأكّالة اللُّحوم وأعداءَ الإنسِ وجَميعِ البهائم، ولذلك تأكلُها الأوعَال والخَنازيرُ والقَنافذُ والعقبان والشاهَمُرك[٤] والسنانير، وغير ذلك من البهائم، والسباع. فَمنْ جَعَلَ الحيّات سِباعاً، وسمَّاها بذلك عندَ بعضِ القولِ والسببِ فقدْ أصابَ، ومن جَعلَ ذلك لها كالاسم الذي هو العلامةُ كالكَلْبِ والذئب والأسَد فقد أخطأ.

ومن سِباعِ الطيرِ شكلٌ يكون سلاحُه المخالبَ كالعُقاب وما أشبهها، وشيءٌ يكونُ سِلاحُهُ المناقيرَ كالنُّسُورِ والرَّخَمِ والغِرْبان، وإنّما جعلْنَاها سباعاً لأنّها أكّالةُ لحوم.

ومِنْ بهائم الطير ما يكون سلاحُه المناقيرَ كالكَرَاكِيِّ وما أشبهها، ومنه ما

---

(١) الزُرَّق: طائر بين البازي والباشق؛ يُصاد به. وقال الفراء: هو البازي الأبيض (اللسان ١٠ / ١٤٠ زرق).

(٢) اليؤيؤ: طائر يشبه الباشق؛ من الجوارح، (اللسان ١ / ٢٠٢ يايا).

(٣) الباذنجان: هو طائر اسمه أبو جرادة. يسميه أهل العراق «الباذنجان»؛ ويسميه أهل الشام «البصير» حياة الحيوان ١ / ٣١٩.

(٤) الشاهمرك: الفتي من الدجاج، قبل أن يبيض بأيام قلائل، وكنيته أبو يعلى. وهو معرب الشاه مرغ، ومعناه ملك الطير. حياة الحيوان ١ / ٥٩٤.

يكونُ سلاحُه الأسنانَ كالبُومِ والوَطْوَاطِ وما أشبهها، ومنه ما يكون سلاحُه الصياصي كالدِّيَكَة، ومنه ما يكون سلاحه السَّلْح[1] كالحُبارى[2] والثعلب أيضاً كذلك.

والسَّبع من الطير: ما أكل اللحمَ خالصاً، والبهيمةُ: ما أكلت الحبَّ خالصاً. وفي الفنِّ الذي يجمعها من الخلْقِ المركَّبِ والطبع المشتَرَك، كلامٌ سنأتي عليه في موضعه إن شاء الله تعالى.

والمشتَرَك عندهم كالعصفور؛ فإنَّه ليس بذي مخْلَبٍ معقَّف ولا منْسَر[3] وهو يلقط الحبَّ، وهو مع هذا يصيد النَّمْل إذا طار، ويَصيد الجرادَ، ويأكُلُ اللحم، ولا يَزُقُّ فِراخَه كما تزقُّ الحمامُ، بل يُلْقمها كما تُلْقِمُ السباعُ من الطير فراخَها. وأشباهُ العصافيرِ من المشترَك كثيرٌ، وسنذكُر ذلكَ في موضِعه إن شاء الله تعالى.

وليس كلُّ ما طار بجَناحينِ فهو من الطير؛ قد يطير الجِعْلاَن[4] والجَحْلُ[5] واليَعاسِيبُ والذّبابُ والزَّنابيرُ والجَرادُ والنمْل والفَراشُ والبَعوضُ والأرضَة والنحلُ وغيرُ ذلك، ولا يسمَّى بالطير. وقد يقال ذلك لها عند بعض الذكرِ والسبب. وقد يسمُّون الدجاجَ طيراً ولا يسمُّون بذلك الجراد، والجرادُ أطْيَر، والمثلُ المضروبُ به أشهر[6]، والملائكةُ تطيرُ، ولها أجنحةٌ وليستْ من الطير. وجَعفر بن أبي طالب ذو جناحين يَطير بهما في الجنَّة حيثُ شاء، وليس جعفرٌ من الطير.

واسم طائرٍ يقَع على ثلاثة أشياء: صورة، وطبيعة، وجَناح. وليس بالريش والقَوادِمِ والأباهِرِ والخوافي[7]، يسمَّى طائراً، ولا بعدمه يسْقط ذلك عنه. ألا ترى أنَّ

---

(١) السلح: النجو. «اللسان: سلح ٢/٤٨٧».

(٢) الحبارى: طائر طويل العنق رمادي اللون، من أشد الطير طيراناً. وقد جعل الله تعالى سَلْحها سلاحاً لها. «حياة الحيوان ١/٣٢١».

(٣) المنسر: منقار الطير الجارح.

(٤) الجعلان: جمع جُعَل، دويبة تعض البهائم في فروجها فتهرب، وهي أكبر من الخنفساء، شديدة السواد؛ في بطنها حمرة. لها جناحان لا يكادان يريان إلا إذا طارت. «حياة الحيوان ١/٢٧٧ –٢٧٨».

(٥) الجحل: الحبارى. وقيل هو الحرباء، وقيل الجعل، وقيل هو الضبّ الكبير المسن، وقيل هو اليعسوب العظيم كالجراد إذا سقط لا يضم جناحه. «حياة الحيوان ١/٢٦١».

(٦) من الأمثال: «أطير من الجراد»، والمثل في مجمع الأمثال ١/٤٤١ والمستقصى ١/٢٣٠ وجمهرة الأمثال ٢/١٣.

(٧) القوادم: ريش في مقدم جناح الطائر. والخوافي: ريش يختفي إذا ضم الطائر جناحيه، والاباهر: ريش قصير.

الخفَّاشَ والوَطواطَ من الطير، وإن كانا أمْرَطَينِ ليس لهما رِيشٌ ولا زَغَبٌ ولا شَكِيرُ ولا قَصَبٌ[1] وهما مشهوران بالحمل والولادة، وبالرَّضاع، وبظهور حَجْم الآذان، وبكثرة الأسنان. والنعامة ذاتُ ريشٍ ومِنقارٍ وبَيضٍ وجَناحين، وليست من الطير.

وليس أيضاً كلُّ عائمٍ سمكة، وإن كان مناسباً للسمك في كثير من معانيه. ألا تَرَى أنّ في الماء كَلْبَ الماء، وعنْزَ الماء، وخنزيرَ الماء؛ وفيه الرِّقُّ[2] والسُّلَحْفاة، وفيه الضِّفْدَع وفيه السرطان، والبَيْنيبُ[3]، والتِّمساح والدُّخس[4] والدُّلْفين واللُّخْمُ[5] والبُنْبُك[6]، وغيرُ ذلك من الأصناف. والكَوسَجِ والد اللُّخْم، وليس للكوسج أبٌ يُعرَف. وعامَّةُ ذا يَعيش في الماء، ويبيت خارجاً من الماء، ويبيض في الشطِّ ويَبِيضُ بيضاً له صُفْرَةٌ، وقَيْضٌ وغِرْقِئٌ، وهو مع ذلك ممّا يكون في الماء مع السمك.

١٤ - [تقسيم الحيوان]

ثمَّ لا يخرج الحيوان بعد ذلك في لغة العرب من فصيح وأعجم، كذلك يقال في الجملة، كما يقال الصامت لما لا يَصْنَع صمتاً قطُّ ولا يجوز عليه خلافه، والناطق لمَا لَمْ يتكلَّمْ قطُّ، فيحملون ما يرغو، ويَثغو، ويَنهَق، ويَصْهِل، ويَشْحَج، ويَخُور، ويَبْغَم، ويَعوي، ويَنبَح، ويَزْقُو، ويَضْغُو، ويَهْدِر، ويَصْفِر، ويُصَوْصِي، ويُقَوْقِي، ويَنْعَبُ، ويَزْأَر، ويَنْزِبُ، ويكِشُّ، ويَعجُ[7]، على نطقِ الإنسان إذا جمع بعضه على بعض. ولذلك أشباهٌ، كالذكور والإناث إذا اجتمعا، وكالعِير التي تسمَّى لَطِيمة، وكالظُّعُن؛ فإنَّ هذه الأشياءَ إذا وجد بعضُها إلى بعض، أو أَخَذ بعضُها من بعض،

(١) الزغب: ريش قصير. والشكير: صغار الريش بين كبارها. القصب: صغار الريش.

(٢) الرق: ضرب من دواب الماء يشبه التمساح، والرق أيضاً: العظيم من السلاحف. (حياة الحيوان ١/٥٢٧).

(٣) البينيب على وزن فيعيل: سمك بحري. (حياة الحيوان ١/٢٢٩).

(٤) الدخس: ضرب من السمك؛ وهو الدلفين. (حياة الحيوان ١/٤٧٦).

(٥) اللخم: ضرب من السمك الضخم؛ يقال له الكوسج، وهو القرش. (حياة الحيوان ٢/٣٠٥).

(٦) البنبك: دابة كالدلفين، أو سمك يقطع الرجل نصفين فيبلعه. «القاموس المحيط: بنك».

(٧) الرغاء للإبل، والثغاء للغنم، والنهيق للحمير، والصهيل للخيل، والشحيج للبغال، والخوار للثيران، والبغام للظباء؛ وللإبل إذا قطعت صوتها ولم تمدّه، والعواء للذئاب، والنباح للكلاب، والزقاء للديكة، والضغاء للكلب إذا جاع، والهدير للإبل والحمام، والصفير للنسور، والصوصأة للعقرب والفارة، والقوقاة للدجاج، والنعيب للغربان، والزئير للأسد، والنزيب للظباء، والكشيش للأفاعي؛ وللإبل بعد الهدير، والعجيج للبعير.«فقه اللغة للثعالبي ٢٠٩ - ٢١٢».

سُمِّيَتْ بأنبَه النوعَين ذكْراً، وبأقواهما. والفصيحُ هو الإنسان، والأعجم كلُّ ذي صوت لا يفهَمُ إرادتَه إلاّ ما كان من جنسه. ولعمري إنا نفهم عَن الفَرس والحمار والكلبِ والسِّنَّور والبعير، كثيراً من إرادته وحوائجه وقصوره، كما نفهم إرادةَ الصبيِّ في مَهْده ونعلم - وهو من جليل العلم - انّ بكاءَه يدلُّ على خلاف ما يدُلُّ عليه ضَحِكُه. وحَمْحَمَةُ الفرَس عند رؤية المخلاة، على خلاف ما يدلُّ عليه حَمحمتُه عند رؤية الحِجْر، ودُعاء الهِرَّةِ الهرَّ خلافُ دعائها لولدها، وهذا كثير.

والإنسانُ فصيح، وإنْ عبَّرَ عن نفسه بالفارسيّة أو بالهنديّة أو بالروميّة، وليس العربيُّ أسوأ فهماً لِطَمْطَمَةِ[1] الروميِّ من الرومي لبيانِ لسان العربيّ. فكلُّ إنسانٍ من هذا الوجه يقال له فصيح، فإذا قالوا: فصيح وأعجَم، فهذا هو التأويل في قولهم أعجم، وإذا قالوا العرب والعجم ولم يلفظوا بفصيح وأعجم، فليس هذا المعنى يريدون، إنَّما يَعنُون انّه لا يتكلَّم بالعربيَّة، وانَّ العربَ لا تفهم عنه. وقال كُثَيِّر: [من الطويل]

فبُورِك ما أعطَى ابنُ لَيلَى بِنِيَّةٍ وصامتُ ما أعطَى ابنُ ليلى وناطقُه

ويقال «جاء بما صَأى وصمت»[2]. فالصامت مثل الذهب والفضّة، وقوله صأى يعني الحيوانَ كلَّه، ومعناه نطق وسكَت؛ فالصامت في كلّ شيءٍ سِوَى الحيوان.

ووجدْنا كونَ العالَم بما فيه حكمةً، ووجدْنا الحكمَة على ضربَين: شيءٌ جُعِلَ حكمةً وهو لا يَعقِل الحكمةَ ولا عاقبةَ الحكمة، وشيءٌ جُعِل حكمةً وهو يَعْقِل الحكمة وعاقبةَ الحكمة. فاستوى بذاكَ الشيء العاقلُ وغير العاقل في جهةِ الدَّلالة على أنَّهُ حكمة؛ واختلفا من جهةِ أنَّ أحدهما دَليلٌ لا يَسْتَدِلّ، والآخر دليل يستدل، فكلُّ مُسْتَدِلٌّ دليل وليس كلُّ دليلٍ مستدلاً، فشارك كل حيوانٍ سوى الإنسان، جميعَ الجمادِ في الدَّلالة، وفي عدم الاستدلال، واجْتَمَع للإنسان أنْ كان دليلاً مستَدلاً.

ثُمَّ جُعِل للمستدِلِّ سببٌ يدلُّ به على وجوهِ استدلاله، ووُجوهِ ما نتج له الاستدلال، وسمَّوا ذلك بياناً.

---

(١) الطمطمة: العجمة. ورجل طِمْطِم، اي في لسانه عجمة لا يفصح. (اللسان: طمم ١٢ / ٣٧١).

(٢) مجمع الأمثال ١ /٢٧٩، والمستقصى ٢ /٤٢، وجمهرة الأمثال ١ / ٣٢٠، والأمثال لابن سلام ١٨٧.

١٥ - [أقسام البيان ووسائله]

وجُعِل البيانُ على أربعة أقسام: لفظ، وخطّ، وعَقْد[١]، وإشارة، وجُعِل بيانُ الدليل الذي لا يستدلُّ تَمْكينَهُ المستدلَّ من نفسه، واقتيادَه كلَّ من فكَّر فيه إلى معرفة ما استُخْزِنَ من البرهان، وَحُشِيَ من الدَّلالة، وأُودِع من عَجيب الحكمة. فالأجسامُ الخُرْسُ الصامتة، ناطقةٌ من جهة الدَّلالة، ومُعْرِبَةٌ من جهة صحَّة الشهادة، على أنَّ الذي فيها من التدبير والحكمة، مخبرٌ لمن استخبَرَه، وناطقٌ لمَن استنطقه، كما خبَّر الهُزَالُ وكُسُوف اللون، عن سُوءِ الحال، وكما ينطق السِّمَنُ وَحُسْنُ النَّضْرَة، عن حسن الحال. وقد قال الشاعر وهو نصيب: [من الطويل]

فعاجُوا فأثنَوا بالذي أَنْتَ أَهلُه ... ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائب[٢]

وقال آخر: [من الوافر]

مَتى تَكُ في عدوٍّ أو صديقٍ ... تُخَبِّرْكَ العيونُ عن القلوبِ

وقد قال العُكْليُّ في صدق شمِّ الذّئب وفي شدّة حسّه واسترواحه: [من الرجز]

يَستخبِرُ الريحَ إذا لم يَسْمَعِ ... بمثل مقراعِ الصَّفا الموقَّعِ[٣]

وقال عنترة، هو يصف نَعيبَ غُراب: [من الكامل]

حَرِقُ الجَنَاحِ كأنَّ لَحْيَيْ رأسه ... جَلَمانِ بالأخبار هَشٌّ مُولَع[٤]

وقال الفضل بن عيسى بن أبان في قصصه: سَل الأرْضَ، فقلْ: مَنْ شقَّ أنهارَكِ، وغَرَسَ أشجارَكِ، وجَنَى ثِمارَكِ؛ فإنْ لم تُجبكَ حِواراً، أجابتْكَ اعتباراً.

فموضوعُ الجسم ونَصْبته، دليلٌ على ما فيه وداعيةٌ إليه، ومنبهة عليه. فالجمادُ الأبكمُ الأخرسُ من هذا الوجه، قد شارَكَ في البيان الإنسانَ الحيَّ الناطق. فمَنْ جَعَل أقسام البيان خمسة، فقد ذهَبَ أيضاً مذهباً له جوازٌ في اللّغة، وشاهدٌ في العقل. فهذا أحدُ قِسمَي الحكمة، وأحَدُ مَعْنَيَيْ ما استخزنها اللّه تعالى من الوديعة.

---

(١) ذكر البغدادي في خزانته ٣/١٤٧ (بولاق): «العقد نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين؛ يقال له: حساب اليد. وقد ورد منه في الحديث «وعقد عقد تسعين» وانظر البيان ١/٧٦.

(٢) البيت لنصيب في ديوانه ٥٩، والأغاني ١/٣٣٧، والخزانة ٥/٢٩٦ «هارون»، وشذور الذهب ٣٨ واللسان (حدث).

(٣) الرجز لأبي الرديني العكلي في البيان ١/٨٢، والبرصان ١٩٣، والخزانة ٣/١٠٥، وبلا نسبة في اللسان والتاج (مخر، قرع)، وديوان الأدب ١/٣١١.

(٤) البيت لعنترة في ديوانه ٤٨، والبيان ١/٨٢، واللسان (حرق، بين)، والتاج (بين)، وبلا نسبة في أساس البلاغة (حرق)، والمخصص ١/٧٣.

١٦ - [مقارنة بين الإنسان والحيوان]

والقسمة الأُخرى ما أودَع صدور صنوف سائر الحيوان، مِنْ ضُرُوب المعارف، وفَطَرَها عليه من غريب الهدايات، وسخَّر حناجرَها لَهُ من ضروبِ النَّغَم الموزونة، والأَصواتِ الملحنة، والمخارجِ الشجيَّة، والأغاني المطربة؛ فقد يقال إنَّ جميعَ أصواتها معدَّلة، وموزونة موقَّعة، ثمَّ الذي سهَّل لها من الرفق العجيب في الصنعة، مما ذلَّله اللّه تعالى لمناقيرها وأكُفِّها، وكيف فَتَحَ لها من باب المعرفة على قدر ما هَيَّأ لها من الآلة،وكيفَ أعطَى كثيراً منها مِنَ الحسِّ اللطيفِ، والصنْعة البديعة، من غير تأديبٍ وتثقيف، ومن غير تقويمٍ وتلقين، ومن غير تدريج وتمرين، فبَلَغَتْ بعَفوها وبمقدار قوى فطرتها، من البَديهة والارتجال، ومن الابتداء والاقتضاب، ما لا يَقْدرُ عليه حُذّاقُ رجالِ الرأي، وفلاسفةُ علماءِ البشر، بيَدٍ ولا آلة. بل لا يبلغ ذلك من الناسِ أكملُهُمْ خصالاً وأتمُّهُمْ خلالاً، لا مِنْ جهة الاقتضاب والارتجال ولا من جهة التعسُّف والاقتدار، ولا من جهة التقدُّم فيه، والتأنِّي فيه، والتأتِّي له. والترتيب لمقدِّماته، وتمكين الأسباب المُعِينة عليه. فصار جهد الإنسان الثاقب الحسِّ، الجامعِ القُوى، المتصرِّفِ في الوجوه، المقدَّم في الأمور، يَعجز عن عَفْوِ كَثيرٍ منها. وهو ينظرُ إلى ضروب ما يجيء منها، كما أعطيت العنكبوتُ، وكما أعطيَت السُّرْفَة[1]، وكما عُلِّم النحل، بل وعُرِّفَ التَّنَوُّطُ مِن بديعِ المعرفة، ومن غَريب الصنعة، في غير ذلك مِن أصناف الخلق. ثم لم يوجب لهم العجز في أَنْفُسِهِمْ في أكثر ذلك، إلاّ بما قوي عليه الهَمَجُ والْخشَاشُ وصغارُ الحشرات، ثم جعل الإنسان ذا العقلِ والتمكينِ، والاستطاعة والتصريف، وذا التكلُّفِ والتجربَة، وذا التأنِّي والمنافَسَة، وصاحبَ الفهْمِ والمسابَقَة، والمتبصِّرَ شأنَ العاقبة، متى أحسَنَ شيئاً كان كلُّ شيءٍ دونَه في الغُمُوض عليه أسهلَ، وَجَعَل سائرَ الحيوان، وإن كان يحسنُ أحدُها ما لا يحسنُ أحذَقُ الناس متى أحسنَ شيئاً عجيباً، لم يمكنْهُ أن يُحسن ما هو أقربُ منه في الظنّ، وأسهلُ منه في الرأي، بل لا يحسنُ ما هو أقرب منه في الحقيقة. فلا الإنسانُ جَعَلَ نفسه كذلك، ولا شيءٌ من الحيوان اختارَ ذلك، فأحسَنَتْ هذه الأجناسُ بلا تعلُّم، ما يمتَنِع على الإنسان وإن تعلَّم، فصار لا يحاوله؛ إذْ كان لا يطمع فيه، ولا يحسُدُها؛ إذا لا يؤمِّل اللَّحَاقَ بها. ثمّ جعل تعالى وعزَّ، هاتين الحكمتين بإزاء عُيونِ الناظِرين، وتُجَاهَ أسماعِ المعتَبرين، ثمَّ حثَّ على التفكير

---

(١) السرفة: الأرضة. (حياة الحيوان ١ / ٥٥٥).

والاعتبار، وعلى الاتّعاظ والازدجار، وعلى التعرُّف والتبيُّن، وعلى التوقُّف والتذكُّر، فَجَعَلَها مذكّرةً منبِّهة، وجَعَلَ الفطر تُنْشِئ الخَواطِر، وتجُولُ بأهلها في المذاهب. ذَلِكَ اللّهُ رَبُّ العالَمِينَ، ﴿فَتَبارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ﴾[١].

١٧ - [مزج الهزل بالجدّ في الكتاب]

وهذا كتابُ موعظةٍ وتعريفٍ وتفقُّهٍ وتنبيه. وأراكَ قد عبتَه قبل أن تقفَ على حُدوده، وتتفكَّرَ في فصوله، وتَعتبرَ آخرَه بأوله، ومَصَادرَه بموارده، وقد غلّطَك فيه بعضُ ما رأيتَ في أثنائه من مزحٍ لا تعرف معناه، ومن بَطالةٍ لم تطّلعْ على غورها؛ولم تدرِ لم اجتُلبت، ولا لأيِّ علّةٍ تُكُلِّفت، وأيَّ شيءٍ أُريغَ بها، ولأيِّ جدٍّ احتُمِل ذلك الهزل، ولأيِّ رياضةٍ تُجُشِّمتْ تلك البَطالة؛ ولم تَدْرِ أَنَّ المزاحَ جدٌّ إذا اجتُلِب ليكون علّةً للجدِّ، وأَنَّ البَطالة وَقارٌ ورزانة، إذا تُكُلِّفت لتلك العافية. ولمّا قال الخليلُ بن أحمد: لا يصل أحدٌ من علم النحو إلى ما يحتاجُ إليه. حتّى يتعلَّم ما لا يحتاج إليه، قال أبو شمر: إذا كان لا يُتوصَّل إلى ما يحتاج إليه إلاّ بما لا يحتاج إليه، فقد صار ما لا يُحتاج إليه يُحتاج إليه[٢]. وذلك مثل كتابنا هذا؛ لأنّه إن حَمَلْنَا جميعَ من يتكلَّف قراءة هذا الكتاب على مُرِّ الحق، وصُعوبة الجدّ، وثِقل المؤونة، وحِلية الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلاّ من تجرَّدَ للعلم، وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر قلبه من عزّه، ونال سروره على حسب ما يُورث الطولُ من الكَدّ، والكثرةُ من السآمة. وما أكثر مَن يُقَاد إلى حظّه بالسواجير[٣]، وبالسوق العنيف، وبالإخافة الشديدة.

١٨ - [وصف الكتاب]

ثم لم أرَكَ رضيتَ بالطعن على كلِّ كتاب لي بعينه، حتّى تجاوزتَ ذلك إلى أَنْ عبت وضْعَ الكتبِ كيفما دارت بها الحالُ، وكيفَ تصرفَتْ بها الوجوه. وقد كنتُ أعجَب من عيبك البعضَ بلا علم، حتّى عِبتَ الكلَّ بلا علْم، ثم تجاوزْت ذلكَ إلى التشنيع، ثم تجاوزتَ ذلك إلى نصب الحربِ فعبتَ الكِتَابَ؛ ونعم الذخر والعُقدة[٤] هو، ونعم الجليس والعُدَّة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم

---

(١) ١٤: المؤمنون/٢٣.

(٢) ربيع الأبرار ٤/١٣٧.

(٣) الساجور: الخشبة التي توضع في عنق الكلب. (اللسان: سجر). وانظر البيان ٣/٥٠، ٦٣.

(٤) العُقدة: كل شيء يستوثق الرجل به لنفسه، ويعتمد عليه. ومنه «في عقدته ضعف»، أي في رأيه ونظره في مصالح نفسه. (اللسان: عقد).

الأنيس لساعة الوحدة، ونعم المعرفةُ ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل. والكتاب وعاءٌ مُلِئَ علماً، وَظَرْفٌ حُشِي ظَرْفاً، وإناءٌ شُحِن مُزَاحاً وجِدّاً؛ إنْ شئتَ كان أبينَ من سَحْبانِ وائل، وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئتَ ضَحِكْتَ مِنْ نوادِرِه، وإن شئتَ عَجِبتَ من غرائبِ فرائده، وإن شئتَ الهتْك طرائفُه، وإن شئتَ أشجتْك مواعظُه. وَمَنْ لَكَ بواعظٍ مُلْهٍ، وبزاجرٍ مُغرٍ، وبناسكٍ فاتك، وبناطقٍ أخرسَ، وببارِدٍ حارّ. وفي البارد الحارِّ يقولُ الحسنُ بن هانئ: [من المنسرح]

قُلْ لزُهير إذا انتحى وشدا ... أَقْلِلْ أو أَكْثِر فأنْتَ مِهْذَارُ[1]

سَخُنْتَ مِنْ شِدَّةِ البُرُودَةِ حَـ ... ـتَّى صِرتَ عِنْدي كأنَّكَ النارُ

لا يَعجَبِ السامعُون مِنْ صِفَتي ... كذلك الثلجُ باردٌ حارُ

ومَنْ لكَ بطبيب أعرابيّ، وَمَنْ لَكَ برُوميٍّ هِنْديّ، وبفارسي يُونَانيّ، وبقَديمٍ مولَّد، وبميِّتٍ ممتَّع، وَمَنْ لَكَ بشيءٍ يَجْمَعُ لَكَ الأَوَّلَ والآخر، والناقص والوافر، والخفيَّ والظاهر، والشاهدَ والغائبَ، والرفيعَ والوضيع، والغَثَّ والسمين، والشَّكْلَ وخِلافَه، والجِنسَ وضدَّه.

وبعد: فمتى رأيتَ بستاناً يُحمَل في رُدْن[2]، وروضةً تُقَلُّ في حِجْرٍ، وناطقاً ينطق عن الموتَى، ويُترجمُ عن الأحياء!! وَمَنْ لك بمؤنس لا ينام إلاّ بنومك، ولا ينطق إلاّ بما تهوَى؛ آمَنُ مِنَ الأرض، وأكتمُ للسرِّ من صاحب السرِّ، وأحفَظُ للوديعة من أرباب الوديعة، وأحفَظ لما استُحْفِظَ من الآدميِّين، ومِن الأعْرَابِ المعربين، بل مِنَ الصِّبيان قبلَ اعتراضِ الاشتغال، ومِنَ العُميان قبلَ التمتُّع بتمييز الأشخاص، حينَ العنايةُ تامَّةٌ لم تنقص، والأذهانُ فارغةٌ لم تنقَسِم، والإرادةُ وافرةٌ لم تتشعَّب، والطِّينَةُ ليِّنة، فهي أقبلُ ما تكون للطبائع، والقضيبُ رَطْبٌ، فهو أقربُ ما يكون من العُلوق، حينَ هذه الخصالُ لم يَخْلُق جديدُها، ولم يُوهَنْ غَرْبُهَا، ولم تتفرَّق قُواها، وكانت كما قال الشاعر: [من الطويل]

أتاني هواها قبل أنْ أعرِفَ الهَوى ... فصادفَ قلباً خالياً فتمكّنا[3]

---

(١) الأبيات في ديوان أبي نواس ٥٤٥، وعيون الأخبار ٢/٧، والعقد الفريد ٦/٧٥. ورواية صدر البيت الأول في ديوانه: (قل لزهير إذا اتكا وشدا).

(٢) الردن: أصل الكم. وقيل هو الكم كله. (اللسان: ردن).

(٣) البيت لمجنون ليلى في ديوانه ٢٨٢، والبيان ٢/٤٢، وليزيد بن الطثرية في ديوانه ١٠٩، والحماسة لابن الشجري ١٤٥، ولعمر بن أبي ربيعة في عيون الأخبار ٣/٩.

وقال عَبْدة بن الطَّبيب: [من الكامل]

لا تأمَنوا قوماً يَشِبُّ صبيُّهم ... بَيْنَ القوابلِ بالعَداوةِ يُنْشَعُ[1]

ومن كلامهم: التعلُّمُ في الصِّغَر كالنقشِ في الحجر. وقد قال جِرَانُ العَودِ: [من الوافر]

تُركْنَ برجلة الروحاء حتَّى ... تنكّرت الديارُ على البَصير
كَوَحْيٍ في الحِجارةِ أو وُشُومٍ ... بأَيْدي الرُّومِ بَاقِيَةِ النُّؤُور

وقال آخر، وهو صالحُ بن عبد القُدُّوس: [من السريع]

وإنّ مَن أدَّبته في الصِّبَى ... كالعُود يُسقَى الماءَ في غَرْسه
حتَّى تُرَاهُ مُورِقاً ناضِراً ... بعدَ الذي قد كان في يُبْسِه

وقال آخر: [من الطويل]

يُقوِّمُ مِنْ مَيلِ الغُلامِ المؤدِّبُ ... ولا يَنْفعُ التأديبُ والرأسُ أشيَبُ

وقال آخر: [من الكامل]

وتَلُومُ عِرْسَكَ بَعْدَ ما هَرِمَتْ ... ومِنَ العَنَاءِ رِياضَةُ الهَرِمِ[2]

وقد قالَ ذو الرُّمَّة لعيسى بن عمر: اكتبْ شعري؛ فالكتابُ أحبُّ إليَّ من الحفظ. لأنّ الأعرابيَّ ينسى الكلمةَ وقد سهر في طَلَبها ليلَته، فيضَعُ في موضعها كلمةً في وزنها، ثم يُنشِدها الناسَ، والكتاب لا يَنْسَى ولا يُبدِّلُ كلاماً بكلام.

وعبتَ الكتابَ، ولا أعلَمُ جاراً أبرَّ، ولا خَليطاً أنصفَ، ولا رفيقاً أطوعَ، ولا معلِّماً أخضعَ، ولا صاحباً أظهرَ كفايةً، ولا أقلَّ جنَايَةً، ولا أقلَّ إمْلالاً وإبراماً، ولا أحفَلَ أخلاقاً، ولا أقلَّ خلافاً وإجراماً، ولا أقلَّ غيبةً، ولا أبعدَ من عَضيهة[3]، ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرُّفاً، ولا أقلَّ تصلُّفاً وتكلُّفاً، ولا أبعَدَ من مراء، ولا أتْرَك لشَغَب، ولا أزهَدَ في جدالٍ، ولا أكفَّ عن قتالٍ، من كتاب. ولا أعلَمُ قريناً أحسنَ موَافاةً، ولا أعجَل مكافاة، ولا أحضَرَ مَعُونةً، ولا أخفَّ مؤونة، ولا شجرةً أطولَ عمراً، ولا أجمعَ

---

(١) البيت في ديوان عبدة بن الطبيب ٤٧، والمفضليات ١٤٧، وأساس البلاغة (نشع)، وبهجة المجالس ٧٢٤.

(٢) عجز البيت من الأمثال في مجمع الأمثال ٢/٣٠١، وجمهرة الأمثال ٢/٢٧٩، والمستقصى ٢/٢٤٩، وفصل المقال ١٨٢، والأمثال لابن سلام ١٢١، والبيت لمالك بن دينار في المصادر السابقة، ومجمع البلاغة ١/٦٣.

(٣) العضيهة: السحر. (اللسان: عضه).

أمراً، ولا أطيبَ ثمرةً، ولا أقربَ مُجتنى، ولا أسرعَ إدراكاً، ولا أوجدَ في كلّ إبّانٍ، من كتاب. ولا أعلَمُ نتاجاً في حَداثةِ سنّه وقُرب ميلاده، ورُخْص ثمنه، وإمكانِ وُجوده، يجمَعُ من التدابيرِ العجيبَة والعلومِ الغريبة، ومن آثارِ العقولِ الصحيحة، ومحمودِ الأذهانِ اللطيفة، ومنَ الحِكَم الرفيعة، والمذاهب القويمة، والتجاربِ الحكيمة، ومنَ الإخبارِ عن القرون الماضية، والبلاد المتنازحة، والأمثال السائرة، والأمم البائدة، ما يجمَعُ لك الكتابُ. قال الله عزّ وجلّ لنبيّه عليه الصلاة والسلام ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾[1] فوَصَفَ نَفْسَهُ، تبارك وتعالى، بأنْ علَّمَ بالقَلم، كما وصف نفسَه بالكرَم، واعتدَّ بذلك في نعَمه العظام، وفي أياديه الجِسام. وقد قالوا: «القَلَمُ أحدُ اللسانَين»، وقالوا: «كلُّ مَنْ عرَف النِّعمةَ في بَيان اللسان، كان بفضل النِّعمة في بيانِ القلم أعرَف». ثمَّ جعَلَ هذا الأمرَ قرآناً، ثمَّ جعلَه في أوَّل التنزيل ومستَفْتَح الكتاب.

١٩ - [حاجة بعض الناس إلى بعض]

ثمَّ اعلمْ، رحمَك الله تعالى، أنّ حاجةَ بعض الناس إلى بعضٍ، صفةٌ لازمةٌ في طبائعهم، وخِلقةٌ قائمةٌ في جواهرِهم، وثابتةٌ لا تُزَايلُهم، ومُحيطةٌ بجماعَتهم، ومشتملةٌ على أدناهم وأقصاهم، وحاجَتُهُمْ إلى ما غاب عنهم - ممَّا يُعيشُهم ويُحْييهم، ويُمسك بأرْماقهم، ويُصلِحُ بالهم، ويَجْمَع شملَهم، وإلى التعاوُنِ في دَرْكِ ذلك، والتوازُرِ عليه - كحَاجَتهم إلى التعاون على معرفة ما يضرُّهم، والتوازرِ على ما يحتاجون من الارتفاق بأمورهم التي لم تَغبْ عنهم، فحاجَةُ الغائبِ موصُولةٌ بحاجة الشاهد، لاحتياج الأدنَى إلى معرفة الأقصى، واحتياج الأقصى إلى معرفَة الأدنى، معانٍ متضمّنةٌ، وأسبابٌ متَّصلة، وحبالٌ منعقدة. وجعل حاجتنَا إلى معرفة أخبارِ مَنْ كان قبلَنا، كحاجة من كان قبلنا إلى أخبار مَنْ كان قبلهم، وحاجةِ من يَكُونُ بعدَنا إلى أخبارِنا؛ ولذلك تقدَّمت في كتب الله البشارات بالرُّسل، ولم يسخِّر لهم جميعَ خلْقه، إلاّ وهم يحتاجُون إلى الارتفاق بجميع خلْقه. وجعلَ الحاجَةَ حاجتَين: إحداهما قِوامٌ وقُوت، والأخرى لذّةٌ وإمتاع وازديادٌ في الآلة، وفي كلٍّ ما أجذلَ النفوس، وجمع لهم العَتاد. وذلكَ المقدارُ منْ جميع الصِّنْفَين وفقٌ لكثرة حاجاتهم وشهوَاتهم، وعلى قدْر اتّساعِ معرفتهم وبُعْد غَورهم، وعلى قَدْرِ احتمال طبع البشريَّة وفِطرةِ الإنسانيَّة. ثم لم يقطعِ الزيادةَ إلا لعجْزِ خلقِهم عن احتمالها، ولم يجز أن يفرق

(١) ٣: العلق /٩٦.

بينهم وبين العجْز، إلاّ بعدَم الأعيان، إذ كان العجزُ صفةً من صفاتِ الخلق، ونعتاً من نُعوتِ العبيد.

لم يخلق اللّه تعالى أحداً يستطيعُ بلوغَ حاجته بنفسه دونَ الاستعانة ببعضِ من سخَّرَ له، فأدناهم مسخَّرٌ لأقصاهم، وأجلُّهم ميسَّر لأدقِّهم. وعلى ذلك أحوجَ الملوكَ إلى السُّوقة في باب، وأحوجَ السُّوقَةَ إلى الملوك في باب، وكذلك الغنيُّ والفقير، والعبدُ وسيِّدُه. ثُمَّ جَعلَ اللّه تعالى كلَّ شيءٍ للإنسان خَوَلاً، وفي يَده مُذَلّلاً مُيَسَّراً إمّا بالاحتيال له والتلطُّف في إراغَته واستمالته، وإمّا بالصَّوْلة عليه، والفتك به، وإمّا أنْ يأْتيَهُ سهواً ورهواً. على أنَّ الإنسانَ لولا حاجَتُهُ إليها، لما احتالَ لها، ولا صَالَ عليها. إلاّ أنّ الحاجةَ تفترِق في الجنس والجهةِ والجبِلَّة، وفي الحظِّ والتقدير.

ثمَّ تعبَّدَ الإنسانَ بالتفكُّرِ فيها، والنظرِ في أُمورها، والاعتبار بما يَرَى، ووَصَل بينَ عُقولهم وَبيْنَ معرفة تلك الحكَم الشريفة، وتلك الحاجاتِ اللازمة، بالنظرِ والتفكير، وبالتنقيب والتنْقير، والتثبت والتوقُّف؛ ووَصَلَ معارفَهم بموَاقعِ حاجاتِهم إليها، وتشاعُرِهم بمواضع الحكم فيها بالبيانِ عنها.

٢٠ - [آلة البيان]

وهو البيانُ الذي جعلَه اللّه تعالى سبباً فيما بينَهم، ومعبِّراً عن حقائق حاجاتهم، ومعرِّفاً لمواضع سدِّ الخَلَّة ورفْع الشبهة، ومداواةِ الحَيرة، ولأنّ أكثرَ الناسِ عن الناس أفهمُ منهم عن الأَشباحِ الماثلة، والأجسامِ الجامدة، والأجرامِ الساكنة، التي لا يُتعَرَّفُ ما فيها من دَقائق الحكمةِ وكُنوزِ الآداب، وينابيعِ العلمِ، إلاّ بالعقلِ الثاقب اللطيف، وبالنظرِ التامِّ النافذ، وبالأداةِ الكاملة، وبالأسبابِ الوافرة، والصبرِ على مكروه الفكر، والاحتراسِ من وُجوه الخُدَع. والتحفُّظِ مِن دواعي الهوى؛ ولأنَّ الشَّكلَ أفهَمُ عن شكله، وأسكَنُ إليه وأَصَبُّ به. وذلك موجودٌ في أجناسِ البهائم، وضُروبِ السباع. والصبيُّ عن الصبيِّ أفهمُ له، وله آلفُ وإليه أنزَع، وكذلك العالمُ والعالم، والجاهل والجاهل، وقال اللّه عزّ وجلّ لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾[1] لأنَّ الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعَه بطباعه آنس؛ وعلى قدْر ذلك يكونُ موقعُ ما يسمع منه.

ثمَّ لم يرضَ لهم من البنيان بصِنفٍ واحد، بل جَمع ذلك ولم يفرِّق، وكثَّر ولم

(١) ٩: الأنعام /٦.

يقلِّل، وأظهرَ ولم يُخْفِ، وجعَل آلة البيانِ التي بها يتعارَفُون معانيَهُم، والتَّرْجُمانَ الذي إليه يرجعون عند اختلافهم؛ في أربعة أشياء؛ وفي خَصْلةٍ خامسة؛ وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تُبدَّل بجنسها الذي وَضِعت له وصُرِفتْ إليه، وهذه الخصال هي: اللفظ، والخطّ، والإشارة، والعَقْد؛ والخَصلة الخامسة ما أوجَدَ من صحَّة الدَّلالة، وصدقِ الشهادة ووُضوحِ البرهان، في الأَجْرَامِ الجامدة والصامتة، والساكنة التي لاَ تَتَبيَّن ولاَ تحسُّ، ولا تَفهَم ولا تتحرَّك إلاّ بداخلٍ يدخل عليها، أو عندَ مُمْسِكٍ خلّي عنها، بعد أَنْ كان تقييده لها.

ثمَّ قسّم الأقسامَ ورتَّب المحسوسات، وحصَّل الموجودات، فجعل اللفظَ للسامع، وجعل الإشارةَ للناظر، وأشرَكَ الناظرَ واللامس في معرفة العَقْد، إلاّ بما فضّل اللّه به نصيبَ الناظرِ في ذلك على قدْرِ نصيبِ اللامس. وجَعَلَ الخطّ دليلاً على ما غابَ من حوائجه عنه، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه؛ وجعله خازناً لما لا يأمَن نسيانَه، ممَّا قد أحصاه وحفِظه، وأتقنه وجَمعه، وتكلف الإحاطة به؛ ولم يجعل للشامِّ والذائق نصيباً.

٢١ - [خطوط الهند]

ولولا خطوطُ الهندِ لضاع من الحساب الكثيرُ والبسيط، ولبطلت مَعرِفةُ التضاعيف، ولَعدموا الإحاطة بالباورات وباورات الباورات، ولو أدركوا ذلك لَما أدرَكُوه إلاّ بعد أَنْ تغلُظَ المؤونة، وتنتَقِضَ المُنّةُ، ولصارُوا في حال مَعْجَزةٍ وحسور، وإلى حالِ مَضيعَةٍ وكَلالِ حدّ، مع التشاغُلِ بأمورٍ لولا فقدُ هذه الدَّلالة لكان أربحَ لهم، وأردَّ عليهم، أن يُصرَفَ ذلك الشغلُ في أبوابِ منافع الدين والدنيا.

٢٢ - [نفع الحساب]

ونفع الحساب معلوم، والخَلَّةُ في موضعِ فقده معروفة. قال اللّه تعالى: ﴿الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(١). ثم قال: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بحُسْبَان﴾(٢). وبالبَيَان عرَفَ الناسُ القرآنَ. وقال اللّه تباركَ وتعالى: ﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً، وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ، لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ﴾(٣)

(١) ٤: الرحمن / ٥٥.
(٢) ٥: الرحمن / ٥٥.
(٣) ٥: يونس / ١٠.

فأجْرَى الحسابَ مُجرَى البيان بالقرآن. وبحُسْبان منازلِ القمر، عَرَفنا حالات المدِّ والجزْر، وكيف تكونُ الزيادةُ في الأهلَّة وأنصافِ الشهور، وكيف يكونُ النقصانُ في خلال ذلك، وكيف تلك المراتبُ وتلك الأقدار.

٢٣ - [فضل الكتابة]

ولولا الكتبُ المدوَّنَة والأخبار المخلَّدة، والحكم المخطوطة التي تُحصِّنُ الحسابَ وغيرَ الحساب، لبَطَل أكثر العلم، ولغلَب سُلطانُ النِّسيان سلطانَ الذكْر، ولَمَا كان للناس مفزعٌ إلى موضعِ استذكار. ولو تمَّ ذلك لحُرِمْنا أكثرَ النفع؛ إذ كنَّا قد علمْنا أنَّ مقدار حفْظ الناسِ لعواجل حاجاتهم وأوائلها، لا يَبلغ من ذلك مبلغاً مذكوراً ولا يُغْني فيه غَنَاء محموداً. ولو كُلِّفَ عامّةُ مَن يطلب العلمَ ويصطَنِع الكتب، ألاّ يزالَ حافظاً لفهرست كتبه لأَعجزه ذلك، ولكُلِّفَ شططاً، ولَشَغله ذلك عن كثيرٍ ممّا هو أولى به. وفهمُك لمعاني كلامِ الناس، ينقطع قبل انقطاعِ فهْمِ عين الصوت مجرَّداً، وأَبعَدُ فهمك لصوت صاحبك ومُعاملك والمعاونِ لك، ما كان صياحاً صرفاً، وصوتاً مصمَتاً ونداءً خالصاً، ولا يكون ذلك إلاّ وهو بعيدٌ من المفاهمة، وعُطْلٌ من الدَّلالة. فجعل اللفظ لأقرَب الحاجات، والصوتَ لأنفَسَ من ذلك قليلاً، والكتابُ للنازح من الحاجات. فأمّا الإشارة فأقربُ المفهومِ منها: رَفْعُ الحواجب، وكسرُ الأجفان، وليُّ الشِّفاه وتحريك الأعناق، وقبْض جلدة الوجه؛ وأبعدُها أن تلوى بثوبٍ على مقطعِ جبلٍ، تُجاهَ عينِ الناظر، ثمَّ ينقطع عملُها ويدرُس أثرها، ويموت ذكرها، ويصير بعدُ كلُّ شيءٍ فضَل عن انتهاء مدَى الصوت ومنتهى الطرف، إلى الحاجة وإلى التفاهم بالخطوط والكتب. فأيُّ نفع أعظمُ، وأيُّ مِرْفَقٍ أعونُ من الخطِّ، والحالُ فيه كما ذكرنا!! وليس للعَقْد حظُّ الإشارةِ في بُعد الغاية.

٢٤ - [فضل القلم واللسان]

فلذلك وضع اللّه عزّ وجلّ القلم في المكان الرفيع، ونوَّه بذكره في المنْصب الشريف حين قال ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[١] فأقسَمَ بالقَلَم كما أقسمَ بما يُخَطُّ بالقلم؛ إذ كان اللسانُ لا يتعاطى شأوَه، ولا يشُقُّ غبارَه ولا يجري في حلبته، ولا يتكلف بُعْدَ غايته. لكنْ لما أنْ كانت حاجات الناسِ بالحَضْرة[٢] أكثرَ مِنْ حاجاتهم

---

(١) ١: القلم/ ٦٨

(٢) الحضرة والحَضَر والحاضرة: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف. وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار. (اللسان: حضر).

في سائرِ الأماكن، وكانت الحاجَةُ إلى بيان اللسان حاجةً دائمة واكدة، وراهنةً ثابتة، وكانت الحاجةُ إلى بَيانِ القلم أمراً يكونُ في الغَيبة وعند النائبة، إلاّ ما خُصَّت به الدواوين؛ فإنّ لسانَ القلم هناك أبسَطُ، وأثرَهُ أعَمُّ، فلذلك قدَّموا اللسانَ على القلم.

٢٥ - [فضل اليد]

فاللسانُ الآنَ إنَّما هو في منافع اليدِ والمرافق التي فيها، والحاجاتِ التي تبلُغها. فمن ذلك حظُّها وقسْطُها من منافع الإشارة، ثم نَصيبُها في تقويم القلم، ثم حَظُّها في التصوير، ثم حَظُّها في الصناعات، ثم حَظُّها في العَقْد، ثم حَظُّها في الدَّفْع عن النفس، ثمَّ حَظُّها في إيصال الطعام والشراب إلى الفم، ثم التوضُّؤ والامتساح، ثم انتقادِ الدنانيرِ والدراهمِ ولُبسِ الثِّياب، وفي الدفع عن النفس، وَأَصْنَافِ الرَّمْي، وأصنافِ الضرْب، وأصناف الطعْن، ثم النَّقْرِ بالعُود وتحريكِ الوتر؛ ولولا ذلك لبَطَل الضرْبُ كلُّه أو عامَّتُه. وكيف لا يكون ذلك كذلك ولها ضَرْبُ الطبْل والدُّفّ، وتحريكُ الصفَّاقَتين[1]، وتحريك مخارِق خروق المزامير، وما في ذلك من الإطلاق والحبس. ولو لم يكنْ في اليدِ إلاّ إمساكُ العِنان والزِّمام والخِطام، لكانَ من أعظمِ الحظوظ.

وقد اضطرَبوا في الحكْم بين العَقْد والإشارة، ولولا أنّ مغْزانا في هذا الكتابِ سوى هذا الباب، لقد كانَ هذا ممَّا أُحِبُّ أن يعرفَه إخوانُنَا وخلطاؤنا. فلا ينبغي لنا أيضاً أن نأخذ في هذا الباب من الكلام، إلاّ بعدَ الفَراغ ممَّا هو أولى بنا منه، إذ كنتَ لم تنازِعني، ولم تَعِبْ كتبي، من طريقِ فضل ما بين العَقْد والإشارة، ولا في تمييز ما بين اللفظ وبينهما، وإنَّما قَصَدْنا بكلامنا إلى الإخبار عن فضيلة الكتاب.

٢٦ - [فضل الكتاب]

والكتابُ هو الذي يؤدِّي إلى الناس كتبَ الدين، وحسابَ الدواوين مع خفَّة نقلِه، وصِغَر حجمه؛ صامتٌ ما أسكتَّه، وبليغ ما استنطقته. ومَن لك بمسامر لا يبتديك في حالِ شُغْلك، ويدعُوك في أوقات نشاطك، ولا يُحوجك إلى التجمُّل له والتذمُّم منه. ومَن لكَ بزائرٍ إن شئتَ جعل زيارتَه غِبّاً، ووِرُوده خِمْساً، وإن شئت لَزِمَك لزومَ ظِلِّك، وكان منك مكانَ بعضك.

---

(١) يبدو أنها آلة موسيقية، تتألف من قرصين؛ يُضرب أحدهما بالآخر، كما تفعل الراقصات.

والقلمُ مكتفٍ بنفْسه، لا يحتاج إلى ما عندَ غيرِه؛ ولا بدَّ لبيان اللسان من أمور: منها إشارة اليد، ولولا الإشارةُ لَمَا فهموا عنك خاصَّ الخاصِّ إذا كان أخصُّ الخاصِّ قد يدخل في باب العامّ، إلاّ أنّه أدنى طبقاته؛ وليس يكتفي خاصُّ الخاصّ باللفظ عمَّا أدّاه، كما اكتفى عامُّ العامّ والطبقاتُ التي بينه وبين أخصِّ الخاصّ.

والكتابُ هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغْريك، والرفيق الذي لا يملُّكَ، والمستَميح الذي لا يستَريثُك[١]، والجارُ الذي لا يَسْتَبْطيك، والصاحبُ الذي لا يريد استخراجَ ما عندَك بالملَق، ولا يعاملُك بالمَكر، ولا يخدَعك بالنِّفاق، ولا يحتالُ لك بالكَذب. والكتابُ هو الذي إنْ نظرتَ فيه أطالَ إمتَاعَك، وشحَذَ طباعَك، وبسَط لسانَك، وجوَّدَ بَنانك، وفخَّم ألفاظَك، وبجَّح[٢] نفسَك، وَعمَّر صدرك، ومنحكَ تعظيمَ العوامِّ وصَداقَةَ الملوك، وعَرفتَ به في شهر، ما لا تعرفُه من أفواهِ الرجال في دهْر، مع السلامةِ من الغُرم، ومن كدِّ الطلب، ومن الوقوف بباب المكتسب بالتعليم، ومِن الجُلوس بين يَديْ مَن أنت أفضلُ منه خُلُقاً، وأكرمُ منه عِرْقاً، ومع السلامةِ من مجالَسَة الْبُغَضاء ومقارنةِ الأغبياء.

والكتابُ هو الذي يُطيعُك بالليل كطاعته بالنهار، ويطيعُك في السفر كطاعته في الحضر، ولا يعتلُّ بنومٍ، ولا يعترِيه كَلالُ السهرِ. وهو المعلِّمُ الذي إن افتقرتَ إليه لم يُخْفِرْك[٣]، وإن قطعتَ عنه المادَّة لم يقطعْ عنك الفائدة، وإن عُزلتَ لم يَدعْ طاعتَك، وإن هبَّتْ ريحُ أعاديك لم ينقلبْ عليك، ومتى كنتَ منه متعلِّقاً بسبب أو معتصماً بأدنى حبْل، كان لكَ فيه غنًى من غيره، ولم تَضطَرَّك معه وحشةُ الوَحدةِ إلى جليس السوء. ولو لم يكن مِن فضْله عليك، وإحسانه إليك، إلاّ منعُه لكَ من الجلوس على بابك، والنظرِ إلى المارَّة بك، مع ما في ذلك من التعرُّض للحقوقِ التي تَلزَم، ومن فُضولِ النظَر، ومن عادةِ الخوض فيما لا يعنيك، ومن ملابسةِ صغارِ الناس، وحضورِ ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الرديَّة، وجَهالاتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة، ثم الغنيمةُ، وإحرازُ الأصل، مع استفادةِ الفرع. ولو لم يكن في ذلك إلاّ أنّه يشغَلُك عن سُخْف المُنَى وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب، وكلِّ ما أشبهَ اللعب، لقد كان على صاحبه أسبَغَ النعمةَ وأعظَمَ المِنَّة.

---

(١) استراث: استبطأ. (اللسان: ريث).

(٢) بجّح: فرَّح. (اللسان: بجح).

(٣) الخَفَر: شدة الحياء. (اللسان: خفر).

وقد علمنا أنَّ أفضلَ ما يقطع به الفُرَّاغ نهارَهم، وأصحابُ الفُكاهات ساعات ليلِهم، الكتاب. وهو الشيء الذي لا يرى لهم فيه مع النيل أثرٌ في ازدِياد تجربةٍ ولاَ عقلٍ ولا مروءة، ولا في صونِ عرض، ولا في إصلاحِ دِين، ولا في تثمير مال، ولاَ في رَبِّ صنيعة(١) ولا في ابتداء إنعام.

٢٧ - [أقوال لبعض العلماء في فضل الكتاب]

وقال أبو عبيدة، قال المهلَّب لبنِيه في وصيَّته: يا بَنيَّ لا تقوموا في الأسواقِ إلاَّ على زرَّادٍ أو ورَّاق(٢).

وحدَّثني صديقٌ لي قال: قرأتُ على شيخٍ شاميٍّ كتاباً فيه مِن مآثر غطفان فقال: «ذهبَت المكارمُ إلاَّ من الكتب»(٣).

وسمعتُ الحسن اللؤلؤي يقول: غَبَرتُ(٤) اربعين عاماً ما قِلْتُ(٥) ولا بِتُّ ولا اتكأت إلاّ والكتابُ موضوعٌ على صدري.

وقال ابن الجهْم: إذا غشيَني النعاس في غير وقتِ نوم - وبئس الشيءُ النومُ الفاضِلُ عن الحاجة - قال: فإذا اعتراني ذلك تناولتُ كتاباً من كتب الحكَم، فأجدُ اهتزازي للفوائد، والأريحيَّة التي تعتريني عند الظفَر ببعض الحاجة، والذي يغشَى قلْبي من سرور الاستبانة وعزِّ التبيين أشدَّ إيقاظاً مِن نَهيق الحمير وهَدَّةِ الهدْم.

وقال ابن الجهم: إذا استحسنتُ الكتابَ واستجدتُه، ورجوتُ منه الفائدة ورأيتُ ذلك فيه -- فلو تراني وأنا ساعةً بعدَ ساعةٍ أنظرُ كم بقي من ورقه مخافَةَ استنفاده، وانقطاعِ المادَّة من قَلْبه، وإن كان المصحفُ عظيمَ الحجم كثيرَ الورق، كثير العدد - فقد تَمَّ عيشي وكَمُلَ سروري.

وذكر العتبي كتاباً لبعض القدماء فقال: لولا طولُه وكثرةُ ورقه لنسختُه. فقال

---

(١) ربّ الصنيعة: تعهدها.

(٢) الزرّاد: صانع الدروع. (اللسان: زرد). والمهلب يوصي بنيه بذلك لاستكمال صناعة الجندية. إذ لا يليق بالجند الوقوف في أسواق العطارين والصاغة. انظر التعابي الحربية لابن منكلي، الورقة ٧١.

(٣) ورد القول في كتاب البخلاء ١٧٦.

(٤) غبرتُ: مكثتُ.

(٥) قِلْتُ: من القيلولة، وهي النوم عند الظهيرة.

ابن الجهم: لكنّي ما رغّبني فيه إلاّ الذي زهّدك فيه؛ وما قرأتُ قطُّ كتاباً كبيراً فأخْلاني من فائدة، وما أُحصِي كم قرأتُ من صغارِ الكتب فخرجتُ منها كما دخلت.

وقال العتبي ذاتَ يومٍ لابن الجهم: ألا تتعجَّبُ من فلانٍ!! نَظَر في كتابِ الإقليدس مع جارية سَلْمَويه في يومٍ واحد، وساعة واحدة، فقد فرغت الجاريةُ من الكتابِ وهو بعدُ لم يُحكِم مقالةً واحدة، على أنَّه حُرٌّ مخيَّر، وتلك أمَةٌ مقصورة، وهو أحرصُ على قراءةِ الكتاب من سَلْمَوَيه على تعليمِ جارية. قال ابن الجهم: قد كنت أظنُّ أنّه لم يفهم منه شكلاً واحداً، وأُراك تزعم أنّه قد فرغ من مقالة!! قال العتبي: وكيف ظننتَ به هذا الظنَّ، وهو رجلٌ ذو لسانٍ وأدب؟ قال: لأنّي سمعتُه يقول لابنِه: كم أنفقتَ على كتاب كذا؟ قال: أنفقت عليه كذا، قال: إنَّما رَغّبَني في العلم أنّي ظننتُ أنّي أنفق عليه قَليلاً وأكتسب كثيراً، فأمّا إذا صرتُ أنفِق الكثيرَ، وليس في يدي إلاّ المواعيدُ، فإنّي لا أريد العلمَ بشيء!!

٢٨ - [الإنفاق على الكتب]

فالإنسان لا يعلمُ حتى يكثُرَ سماعُه، ولا بُدَّ من أن تكون كتبُه أكثرَ من سَمَاعِه؛ ولا يعلمُ، ولا يجمع العلم، ولا يُخْتَلَف إليه، حتى يكون الإنفاقُ عليه من ماله، ألذَّ عندهَ من الإنفاق من مال عدوِّه. ومَن لم تكن نفقتُه التي تخرج في الكتب، ألذَّ عنده مِن إنفاق عُشَّاق القيان، والمستهتَرين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضيّاً. وليس يَنتفِع بإنفاقه، حتَّى يؤثِر اتِّخاذَ الكتبِ إيثارَ الأعرابي فرسَه باللبن على عياله، وحتَّى يؤَمِّل في العلم ما يؤَمِّل الأعرابي في فرسه.

٢٩ - [مغالاة الزنادقة بتحسين كتبهم]

وقال إبراهيم بن السِّنديّ مرة: وددْتُ أنَّ الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النقيِّ الأبيض، وعلى تخيُّر الحبرِ الأسودِ المشرِق البرَّاق، وعلى استجادةِ الخطِّ والإرغاب لمن يخطّ، فإنّي لم أرَ كورَق كتبهم ورقاً، ولا كالخطوط التي فيها خطّاً. وإذا غرِمتُ مالاً عظيماً - مع حبِّي للمال وبُغْضِ الْغُرْم - كان سخاءُ النفس بالإنفاق على الكتب، دليلاً على تعظيم العلمِ، وتعظيمُ العلم دليل على شرف النفس، وعلى السلامَة من سُكْرِ الآفات. قلت لإبراهيم: إنّ إنفاقَ الزنادقةِ على تحصيل الكتب، كإنفاق النصارى على البِيَع، ولو كانت كتبُ الزنادقةِ كتبَ حكمٍ وكتبَ

فلسفة، وكتبَ مقاييسَ وسُنَنٍ وتبيُّنٍ وتبيين، أو لو كانت كتُبهم كتباً تُعرِّف الناسَ أبوابَ الصِّناعات، أو سُبُلَ التكسُّب والتجارات، أو كتبَ ارتفاقاتٍ ورياضات، أو بعض ما يتعاطاه الناسُ من الفطن والآداب - وإنْ كان ذلك لا يقرِّب من غنًى ولا يُبْعِد من مأثَم - لكانوا ممَّن قد يجوز أن يُظَنَّ بهم تعظيمُ البيان، والرغبةُ في التبيُّن، ولكنَّهم ذهبوا فيها مذهبَ الدِّيانة، وعلى طريقِ تعظيم المِلّة، فإنّما إنفاقهم في ذلك، كإنفاق المجوس على بيت النار، وكإنفاقِ النصارَى على صُلْبان الذهب، أو كإنفاق الهند على سَدَنة البِدَدَة[1]. ولو كانوا أرادوا العلمَ لكان العلمُ لهم مُعرضاً، وكتبُ الحكمة لهم مبذولةً، والطرقُ إليها سهْلةً معروفة. فما بالُهُم لا يصنعون ذلك إلاّ بكتُب دياناتهم، كما يزخرفُ النصارى بيوتَ عباداتهم! ولو كان هذا المعنى مستحسَناً عند المسلمين، أو كانوا يرون أنّ ذلك داعيةٌ إلى العبادة، وباعثةٌ على الخُشوع، لبلَغُوا في ذلك بعَفْوهم، ما لا تبلُغُه النصارى بغاية الجَهْد.

٣٠ - [مسجد دمشق]

وقد رأيتُ مسجدَ دِمَشْق، حين استجاز هذا السبيل ملِكٌ من ملوكها، ومَنْ رآه فقد علم أنّ أحداً لا يرومه، وأنَّ الرومَ لا تسخوا أنفُسهم به، فلمَّا قام عمرُ بنُ عبد العزيز، جَلَّله بالجِلال، وغطَّاه بالكرابيس[2]، وطبَخَ سلاسلَ القناديلِ حتَّى ذهب عنها ذلك التلألؤُ والبريق؛ وذهب إلى أنّ ذلك الصنيعَ مجانبٌ لسنَّة الإسلام، وأنَّ ذلك الحُسنَ الرائعَ والمحاسنَ الدِّقاق، مَذهَلةٌ للقلوب، ومَشغَلةٌ دونَ الخشوع، وأنّ البالَ لا يكون مجتمِعاً وهناك شيء يفرِّقه ويعترض عليه.

٣١ - [مضمون كتب الزنادقة]

والذي يدلُّ على ما قلنا، انّه ليس في كتبهم مثلٌ سائر، ولا خبرٌ طَريف، ولا صنعةُ أدب، ولا حكمةٌ غريبة، ولا فلسفةٌ، ولا مسألةٌ كلاميَّة، ولا تعريفُ صناعة، ولا استخراجُ آلة، ولا تعليمُ فِلاحة، ولا تدبير حرب، ولا مقارَعة عن دين، ولا مناضَلة عن نحْلة، وجُلُّ ما فيها ذِكر النور والظلمة، وتناكُحُ الشياطين، وتسافُدُ العفاريت، وذكر الصنديد، والتهويل بعمود السنخ، والإخبار عن شقلون، وعن الهامة والهمامة. وكلُّه هَذْرٌ وعِيٌّ وخُرافة، وسُخْرِيَة وتكذُّب، لا ترى فيه موعظةً حسنة، ولا حديثاً مُونِقاً،

---

(١) البددة: جمع بدّ، وهو الصنم، والبدّ هو «بوذا» عند الهنود.

(٢) الكرابيس: جمع كِرباس، وهو ثوب من القطن (اللسان: كربس).

ولا تدبيرَ مَعاشٍ، ولا سياسةَ عامة، ولا ترتيبَ خاصَّة. فأيُّ كتابٍ أجهلُ، وأيُّ تدبيرٍ أفسدُ من كتاب يوجِب على الناس الإطاعة، والبخوع[1] بالديانة، لا على جهة الاستبصار والمحبَّة، وليس فيه صلاحُ مَعاشٍ ولا تصحيحُ دين!؟ والناسُ لا يحبُّون إلا ديناً أو دنيا: فأمَّا الدّنيا فإقامةُ سوقها وإحضار نفعها. وأما الدِّين فأقلُّ ما يُطمع في استجابة العامة، واستمالة الخاصَّة، أنْ يصوَّر في صورةٍ مغلَّطة، ويموَّهَ تمويهَ الدِّينارِ البَهْرَج، والدرهمِ الزائف الذي لا يغلط فيه الكثير، ويعرفُ حقيقته القليل. فليس إنفاقُهم عليها من حيثُ ظننت. وكلُّ دين يكون أظهر اختلافاً وأكثرَ فساداً، يحتاج من الترقيع والتمويه، ومن الاحتشاد له والتغليظ فيه إلى أكثر. وقد علمْنا أنَّ النصرانيَّةَ أشدُّ انتشاراً من اليهوديَّة تعبداً، فعلى حسب ذلك يكون تزيُّدُهم في توكيده، واحتفالُهم في إظهار تعليمه.

٣٢ - [فضل التعلم]

وقال بعضهم: كنتُ عندَ بعضِ العلماء، فكنتُ أكتب عنه بعضاً وأدَعُ بعضاً، فقال لي: اكتبْ كلَّ ما تسمعُ، فإن أخسَّ ما تسمعُ خيرٌ من مكانه أبيض.

وقال الخليل بن أحمد: تكثَّرْ من العلم لتعرِف، وتقلّلْ منه لتحفَظ.

وقال أبو إسحاق: القليل والكثير للكتب، والقليلُ وحدَه للصدر.

وأنشد قول ابن يَسير[2]: [من المتقارب]

أما لو أعِي كلَّ ما أسمَع ... وأحفَظُ من ذاكَ ما أجمعُ
ولم أستَفدْ غَيْرَ ما قد جمعـ ... ـت لَقِيلَ هو العالم المصقَعُ
ولكنَّ نفَسي إلى كلّ نو ... عٍ من العلم تسمَعُه تنزِعُ
فلا أنا أحفظُ ما قد جَمعـ ... ـتُ ولا أنا من جَمعه أشبعُ
وأَحصَر بالعِيِّ في مجلسي ... وعلميَ في الكُتْب مستودَعُ
فمن يكُ في علمه هكذا ... يكَنْ دهرَهُ القهقرَى يرجعُ
إذا لم تكنْ حافظاً واعياً ... فجمعُك للكتبِ لا ينفع

٣٣ - [التخصص بضروب من العلم]

وقال أبو إسحاق: كلَّفَ ابنُ يسيرٍ الكتبَ ما ليس عليها. إن الكتبَ لا تحيي

---

(١) البخوع: التذلّل والخضوع. (اللسان: بخع).

(٢) الأبيات في ديوان محمد بن يسير الرياشي ٩١، وسمط اللآلي ١/٥١٤ -٥١٥.

الموتَى، ولا نحوِّل الأحمقَ عاقلاً، ولا البليد ذكيّاً، ولكنَّ الطبيعةَ إذا كان فيها أدنى قَبُول، فالكتبُ تشحَذُ وتَفتق، وتُرهِف وتَشفي. ومن أرادَ أن يعلمَ كلَّ شيء، فينبغي لأهلِه أن يداووه! فإنّ ذلك إنما تصوَّرَ له بشيءٍ اعتراه!! فَمنْ كان ذكيّاً حافظاً فليقصِد إلى شيئين، وإلى ثلاثة أشياء، ولا ينزِع عن الدرس والمطارَحَة، ولا يدعُ أن يمرَّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه، ما قدَر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالماً بخواصّ. ويكون غيرَ غفلٍ من سائرِ ما يجري فيه الناسُ ويخوضون فيه. ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئاً، إلاَّ نسيَ ما هو أكثرُ منه، فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد.

٣٤ - [جمع الكتب وفضلها]

وحدَّثني موسى بنُ يحيى قال: ما كان في خِزانةِ كتبِ يحيى، وفي بيت مدارسه كتابُ إلاّ وله ثلاثُ نسخ.

وقال أبو عمرو بنُ العلاء: ما دخلتُ على رجل قطُّ ولا مررتُ ببابه، فرأيتُه ينظرُ في دفترٍ وجليسُه فارغُ اليد، إلاّ اعتقدتُ أنَّه أفضلُ منه وأعقل.

وقال أبو عمرو بن العلاء: قيل لنا يوماً: إنّ في دار فلان ناساً قد اجتمعوا على سَوءة، وهم جُلوسٌ على خميرة لهم، وعندهم طُنبُورٌ. فتسوَّرنا عليهمْ في جماعةٍ من رجالِ الحيِّ، فإذا فتىً جالسٌ في وسط الدار، وأصحابُه حوله، وإذا همْ بيضُ اللِّحَى، وإذا هو يقرأ عليهم دفتراً فيه شعر. فقال الذي سعى بهم: السَّوءة في ذلك البيت، وإنْ دخلتموه عثَرتم عليها! فقلت: واللّه لا أكشفُ فتًى أصحابُه شيوخ، وفي يده دفترُ علم، ولو كان في ثوبه دمُ يحيى بنِ زكريَّاء!!

وأنشد رجلٌ يُونُسَ النحويَّ: [من البسيط]

استودَعَ العلمَ قرطاساً فضيّعَه فَبِئْسَ مستودَعُ العلمِ القراطيسُ(١)

قال، فقال يونس: قاتَلَه اللّه، ما أشدَّ ضَنانَتَه بالعلم، وأحسنَ صيانته له، إنَّ علمَك مِن روحِك، ومالَكَ مِن بدنك، فضعْه منكَ بمكان الرُّوح، وضعْ مالَكَ بمكان البدن!!

وقيل لابن داحة - وأخرجَ كتابَ أبي الشمقمق، وإذا هو في جلود كوفيَّة،

---

(١) البيت بلا نسبة في أساس البلاغة واللسان والتاج (ودع).

ودَفَّتَين طائفيّتَين، بخطٍّ عجيب – فقيل له: لقد أُضيع من تجوَّدَ بشعر أبي الشمَقْمق! فقال: لا جرم واللّه!! إنَّ العلمَ ليُعطيكم على حسابِ ما تعطونه، ولو استطعتُ أن أودِعَه سُويداءَ قلبي، أو أجعلَه محفوظاً على ناظري، لفعلت.

ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في إمْرته، فرأيتُ السِّماطَين والرجالَ مُثُولاً كأنَّ على رؤوسهم الطير، ورأيتُ فرْشَتَه وبزَّته؛ ثم دخلتُ عليه وهو معزول، وإذا هو في بيت كتبه، وحوالَيه الأسفاطُ والرُّقوق، والقماطرُ والدفاترِ والمَساطر والمحابر، فما رأيتُه قطُّ أفخمَ ولا أنبلَ، ولا أهيبَ ولا أجزَل منهُ في ذلك اليوم؛ لأنَّه جمعَ مع المهابَة المحبَّة، ومع الفَخامة الحَلاوة، ومع السُّؤدَد الحِكْمة.

وقال ابن داحة: كان عبدُ اللّه بنُ عبدِ العزيز بن عبد اللّه بن عمر بن الخطّاب، لا يجالسُ الناسَ، وينزلُ مَقْبُرَةً من المقابر، وكان لا يكادُ يُرَى إلاّ وفي يده كتابٌ يقرؤه. فسُئِل عن ذلك، وعن نزوله المقبُرة فقال: لم أرَ أَوْعظَ من قبر، ولا أمنَع من كتاب، ولا أسلَمَ من الوَحدة، فقيل له: قد جاء في الوَحدة ما جاء! فقال: ما أفسدَها للجاهِل وأصلحها للعاقل!.

٣٥ - [ضروب من الخطوط ومنفعتها]

وضروبٌ من الخُطوط بعد ذلك، تدلُّ على قدرِ منفَعَة الخطِّ. قال اللّه تبارَك وتعالى ﴿ كِرَاماً كَاتِبينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُون ﴾(١) وقال اللّه عزّ وجلَّ ﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَة. مَرْفُوعَة مُطَهَّرَة. بأَيْدي سَفَرَة ﴾(٢) وقال ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينه ﴾(٣) وقال ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾(٤) وقال ﴿ اقْرَأْ كِتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾(٥).

ولو لم تكتب أعمالُهم لكانت محفوظةً لا يدخلُ ذلك الحفظَ نِسيانٌ، ولكنَّه تعالى وعزَّ، علم أنّ كتابَ المحفوظِ ونسخَه، أوكَدُ وأبلغُ في الإنذار والتحذير، وأهيبُ في الصدور.

---

(١) ٩٤: الانفطار/٨٢.
(٢) ١٣: عبس/٨٠.
(٣) ١٩: الحاقة/٦٩.
(٤) ٢٥: الحاقة/٦٩.
(٥) ١٤: الإسراء/١٧.

وخط آخر، وهو خطُّ الحازي والعرَّاف(١) والزَّاجر. وكان فيهم حليس الخطَّاط الأسديّ، ولذلك قال شاعرهم في هجائهم: [من الطويل]

فأنتم عضاريط الخَميسِ إذا غزَوْا غَناؤكم تلْكَ الأخاطيطُ في التُّرْبِ(٢)

وخُطوطٌ أخَر، تكون مستراحاً للأسيرِ والمهموم والمفكِّر، كما يعتري المفكر من قَرْعِ السنِّ، والغضبانَ من تصفيقِ اليد وتجحيظ العين. وقال تأبَّطَ شرّاً: [من البسيط]

لتَقْرَعِنَّ عَلَيَّ السنَّ مِنْ نَدَمٍ إذا تذكَّرتِ يوماً بعضَ أخلاقي(٣)

وفي خطِّ الحزينِ في الأرض يقول ذو الرُّمَّة: [من الطويل]

عَشيَّةَ ما لي حيلةٌ غيرَ أنَّني بلَقْط الْحَصَى والخطّ في الدارِ مُولَعُ(٤)
أخطُّ وأَمحو الخطَّ ثم أُعيدُه بكفِّيَ والغرْبانُ في الدارِ وُقَّعُ

وذكر النابغةُ صنيعَ النساءِ، وفزَعَهنَّ إلى ذلك، إذا سُبين واغتربن وفكّرن، فقال: [من الطويل]

ويخْططْنَ بالعيدانِ في كلِّ منزلٍ ويَخبَأنَ رُمَّانَ الثُّدِيِّ النواهدِ(٥)

وقد يفزع إلى ذلك الخَجِلُ والمتعلِّل، كما يفزع إليه المهمومُ وهو قولُ القاسم ابن أمية بن أبي الصَّلْت: [من الكامل]

لا ينقرون الأرضَ عند سُؤالهم لتلمُّسِ العلاَّتِ بالعيدانِ(٦)
بل يبسُطُون وجوهَهم فترَى لها عندَ اللقاء كأحسَنِ الألوانِ

وقال الحارث بن الكِنْديّ، وذكرَ رجلاً سأله حاجةً فاعتراه العبثُ بأسنانه، فقال: [من الوافر]

وآضَ بكفِّه يحتكُّ ضِرساً يُرِينا أنَّهُ وَجِعٌ بضِرْسِ

---

(١) الحازي: الكاهن. (اللسان: حزا). العرّاف: الطبيب أو الكاهن. (اللسان: عرف).

(٢) البيت بلا نسبة في المخصص ١٣ / ٢٠٨، وهو لأبي نواس في ديوانه ٥١١، وروايته فيه:
فأنتم غطاريس الخميس إذا غزا غذاؤكم تلك الأخاطيط في الترب

(٣) البيت في ديوان تأبط شراً ١٤٤، والمفضليات ٣١.

(٤) البيتان في ديوان ذي الرمة ٧٢٠- ٧٢١، والتاج (خطط)، والمخصص ١٣ / ٢٠٧.

(٥) ديوان النابغة الذبياني ١٣٩، وروايته:
يُخطِّطْن بالعيدان في كل مقعد ......

(٦) البيتان للقاسم بن أمية في الوحشيات ٢٦١، والحماسة البصرية ١ / ١٣٤، ومعجم الشعراء ٢١٣، ولأمية بن أبي الصلت في ديوانه ٥٠٠- ٥٠١، وبلا نسبة في عيون الأخبار ٣ / ١٥٢، ومجالس ثعلب ٣٤٤.

وربما اعترى هؤلاء عدُّ الحصى، إذا كانوا في موضعِ حصى، ولم يكونوا في موضع تراب، وهو قول امرئ القيس: [من الطويل]

ظلِلْتُ رِدَائي فوقَ رأسِيَ قاعداً أعدُّ الحصَى ما تَنْقَضِي حَسَراتِي[1]

وقال أميَّةُ بنُ أبي الصَّلْت: [من الخفيف]

نَهَراً جَارياً وبيتاً عَلِيّاً يعتري المعتَفين فضلُ نداكا[2]
في تراخ من المكارمِ جَزْلٍ لم تعلِّلهمُ بلَقْطِ حَصاكَا

وقال الآخر، وهو يصِف امرأةً قُتِل زوجُها، فهي محزونة تلقط الحصى: [من الطويل]

وبيضاءَ مكسال كأنَّ وشاحَها على أمِّ أحوى المُقْلَتَين خَذُولِ
عَقَلت لها منْ زوجَها عَدَدَ الحصى مع الصُّبح، أو في جُنحِ كلِّ أصيلِ

يقول: لم أُعْطِهَا عقْلاً عن زوجها، ولم أُورثها إلاّ الهمَّ الذي دعاها إلى لقط الحصى. يخبر أنَّه لمنعَتِه، لا يُوصَل منه إلى عقلٍ ولا قَوَد.

٣٦ - [أقوال الشعراء في الخط]

ومّما قالوا في الخطّ، ما أنشدنا هشامُ بن محمد بن السائب الكلبي قال: قال المقنَّع الكنديُّ[3] في قصيدةٍ له مدح فيها الوليدَ بنَ يزيد: [من الكامل]

كالخطِّ في كُتُبِ الغلام أجادَه بمداده، وأسَدَّ من أقلامِه
قلمٌ كخُرطوم الحمامة مائلٌ مُستَحفظٌ للعلم من علاّمِه
يَسم الحروفَ إذا يشاءُ بناءَها لبيانِها بالنَّقْط من أرسامه
من صُوفة نَفث المداد سُخامه حتى تغيَّرَ لونُها بسُخامه
يَحفَى فيُقْصَمُ من شَعيرة أنفه كقُلاَمة الأُظْفُور من قلاّمه
وبأنفه شَقٌّ تلاءَم فاستَوى سُقِيَ المدادَ، فزاد في تَلآمه
مُسْتعجِمٌ وهو الفصِيحُ بكلِّ ما نطق اللسانُ به على استعجامِه

---

(١) ديوان امرئ القيس ٧٨.
(٢) ديوان أمية بن أبي الصلت ٤٢٩.
(٣) ديوان المقنع الكندي ٢١٢.

وله تراجمةٌ بألسنةٍ لهمْ ... تبيانُ ما يَتلُونَ من تَرجَامه
ما خطَّ من شيء به كتّابه ... ما إن يبوحُ به على استكتامه
وهجاؤه قاف ولام بعدها ... ميم معلّقةٌ بأسفلِ لامه

ثم قال:

قالتْ لجارتها الغزَيِّلُ. إذ رأت ... وجهَ المقنّع من وراء لثامه
قد كان أبيضَ فاعتراه أدْمَةٌ ... فالعينُ تُنكره من ادْهيمَامه
كم من بُويزل عامها مهرّية ... سُرُحِ اليدينِ ومن بُويزِل عامه
وَهَبَ الوليدُ برَحْلها وزمامها ... وكذاكَ ذاكَ برَحله، وزمامه
وقويرحٍ عتدٍ أُعدَّ لنيِّه ... لبن اللّقُوحِ فعادَ مِلءَ حزامه
وهبَ الوليدُ بسَرْجها ولجامها ... وكذاك ذاك بسَرجه، ولجَامه
أهدَى المقنّع للوَليد قصيدةً ... كالسيف أُرهف حدُّه بحُسامه
وله المآثرُ في قريشٍ كلِّها ... وله الخِلافةُ بعد موتِ هشامه

وقال الحسن بن جَماعةَ الجُذاميُّ في الخطّ: [من الطويل]

إليكَ بسرِّي بَاتَ يُرقلُ عالمٌ ... أصمُّ الصدى مُحرورفُ السِّنِّ طائعُ[1]
بَصيرٌ بما يُوحَى إليه وما لَهُ ... لسانٌ ولا أُذْنٌ بها هُوَ سامعُ
كأنَّ ضميرَ القلبِ باح بسرِّه ... لديه، إذا ما حَثْحَثَتْهُ الأصابعُ
له رِيقةٌ من غير فرثٍ تَمدُّه ... ولا مِنْ ضُلوعٍ صفَّقتها الأضالعُ

وقال الطائيُّ، يمدح محمَّدَ بن عبدِ الملك الزَّيات: [من الطويل]

وما برحتْ صُوراً إليكَ نوازعاً ... أعنَّتُها مُذْ راسلَتك الرسائلُ
لكَ القلمُ الأعلى الذي بشباته ... يُصَابُ من الأمرِ الكُلَى والمفاصلُ
لك الخَلواتُ اللاءِ لولا نجيُّها ... لما احتفلت للمُلْك تلك المحافلُ
لُعابُ الأفاعي القَاتلات لُعابُه ... وأَرْيُ الجَنَى اشتارتْه أيدٍ عَواسلُ
له رِيقَةٌ طلٌّ ولكنَّ وقعَها ... بآثارها في الشرق والغربِ وابلُ
فصيحٌ إذا استنطقْتَه وهو راكبٌ ... وأعجمُ إن خاطبتَه وهو راجلُ
إذا ما امتطى الخمسَ اللِّطَافَ وأُفرغت ... عليه شعابُ الفكرِ وهي حَوافلُ
أطاعَتْه أطرافُ القَنا وتقوَّضَتْ ... لنَجواه تقويضَ الخيامِ الجَحافلُ

---

(١) الصدى: رجع الصوت، يريد: أن القلم ينطق في الورق دون أن يبدو صدى صوته.

إذا استغزر الذهن الجليّ وأقبلتْ أعاليه في القِرطاس وهي أسافلُ
وقد رفدته الخنْصَران وسدَّدت ثلاثَ نواحيه الثلاثُ الأناملُ
رأيتَ جليلاً شأنُهُ وهو مُرْهَفٌ ضنى وسميناً خَطْبُه وهو ناحلُ
أرى ابنَ أبي مروانَ أمَّا لِقاؤُه فدانٍ وأمَّا الحكمُ فيه فعادلُ

وقد ذكر البُحتُريُّ في كلمةٍ له، بعض كهولِ العسكر، ومن أَنبَل أبناء كتّابهم الجِلَة فقال: [من الكامل]

وإذا دجَتْ أقلامُه ثم انتحَتْ برقَت مصابيحُ الدُّجَى في كتبه

٣٧ - [تدوين الكتابات القديمة]

وكانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور، ونقشاً في الحجارة، وخلقة مُركَّبةً في البُنْيان، فربَّما كان الكتابُ هو الناتئ، وربّما كان الكتابُ هو الحفر، إذا كان تاريخاً لأمر جَسيم، أو عهداً لأمرٍ عظيم، أو مَوعظةً يُرتَجى نفعُها، أو إحياءَ شرفٍ يريدون تخليد ذكره، أو تطويل مدته، كما كتبوا على قُبَّةِ غُمْدَان[١]، وعلى باب القَيرُوان، وعلى باب سَمَرْقَند[٢]، وعلى عمود مأرب، وعلى ركن المشقَّر[٣]، وعلى الأبلَق الْفَرْد[٤]، وعلى باب الرّها[٥]، يعمدُون إلى الأماكن المشهورة، والمواضع المذكورة، فيضعون الخطَّ في أبعدِ المواضع من الدُّثور، وأمنَعِها من الدروس، وأجدرَ أَنْ يراها من مرَّ بها، ولا تُنسى على وجه الدهر.

٣٨ - [فضل الخطوط]

وأقول: لولا الخطوطُ لبطَلت العهودُ والشروطُ والسِّجِلاَّتُ والصِّكاك، وكلُّ

(١) غمدان: قصر بين صنعاء وطيوة، واختلف في اسم بانيه، فقيل: بناه لِيشَرْحُ بن يحصب، وقيل: بناه النبي سليمان لبلقيس. معجم البلدان ٤ / ٢١٠.

(٢) سمرقند: بلدة عظيمة خلف نهر جيحون، وذكر الأصمعي أنه مكتوب على باب سمرقند بالحميرية مقدار المسافات بين سمرقند وغيرها من المدن. معجم البلدان ٣ / ٢٤٦ - ٢٥٠.

(٣) المشقر: حصن بين نجران والبحرين؛ يقال إنه من بناء طسم. وقيل: هو حصن بالبحرين قبل مدينة هجر. معجم البلدان ٥ / ١٣٤.

(٤) الأبلق: هو حصن السموءل بن عادياء اليهودي، مشرف على تيماء بين الحجاز والشام، على رابية من تراب. معجم البلدان ١ / ٧٥.

(٥) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، فيها كنيسة مكتوب على ركن من أركانها «أشد العذاب تطاول الأعمار في ظل الإقتار». معجم البلدان ٣ / ١٠٦.

إقطاعٍ، وكلُّ إنفاق، وكلّ أمان، وكلّ عهدٍ وعَقْدٍ، وكلُّ جوارٍ وحلف. ولتعظيمِ ذلك، والثقة به والاستناد إليه، كانوا يَدْعُونَ في الجاهليَّة مَنْ يكتبُ لهم ذكرَ الحلْف والهُدْنة، تعظيماً للأمر، وتبعيداً من النسيان، ولذلك قال الحارثُ بن حِلِّزة، في شأنِ بكرٍ وتغلب: [من الخفيف]

واذكرُوا حِلْفَ ذِي المَجَاز وما قُـ ـدِّمَ فيه العهودُ والكفلاءُ[1]

حَذَرَ الجَورِ والتَّعدِّي، وهلْ يَنْـ ـقُض ما في المَهارِقِ الأهواءُ!

والمهارق، ليس يراد بها الصُّحُفُ والكتب، ولا يقال للكتب مَهارقُ حتَّى تكونَ كتبَ دينٍ، أو كتبَ عهودٍ، ومِيثاقٍ، وأمان.

٣٩ - [الرقوم والخطوط]

وليس بين الرُّقومِ والخطوط فَرق، ولولا الرقوم لهلكَ أصحابُ البَزِّ والغُزول، وأصحابُ الساجِ وعامَّة المتاجر، وليسَ بينَ الوُسومِ التي تكون على الحافر كلِّه والخفِّ كلِّه والظِّلف كلِّه، وبين الرقومِ فرق، ولا بينَ العقود والرقوم فرق، ولا بين الخطوط والرقوم كلِّها فرق، وكلُّها خطوط، وكلها كتابٌ، أو في معنى الخطِّ والكتاب، ولا بين الحروف المجموعةِ والمصورَّةِ من الصوت المقطَّع في الهواء، ومن الحروف المجموعة المصوّرة من السواد في القرطاس فرق.

٤٠ - [اللسان والقلم]

واللسان: يصنَع في جَوبة الفمِ وهوائه الذي في جوفِ الفم وفي خارجه، وفي لَهاته، وباطنِ أسنانه، مثلَ ما يصنع القلمُ في المداد والِّليقة والهواءِ والقرطاسِ، وكلُّها صورٌ وعلاماتٌ وخَلْقٌ مواثل، ودَلالات، فيعرف منها ما كانَ في تلك الصُّوَر لكثرةِ تَردادها على الأسماع، ويعرف منها ما كان مصوَّراً من تلك الألوان لطول تكرارها على الأبصار، كما استدلُّوا بالضَّحك على السرور، وبالبكاء على الألم. وعلى مثل ذلكَ عرفوا معاني الصوت، وضروبَ صورِ الإشارات، وصورِ جميعِ الهيئات، وكما عرف المجنون لقبَه، والكَلبَ اسمَه. وعلى مثل ذلك فهم الصبيُّ الزجرَ والإغراء، ووعى المجنون الوعيد والتهدُّد، وبمثل ذلك اشتدّ حُضْرُ الدابّة مع رفع الصوت، حتّى

(١) البيتان من معلقته في شرح القصائد السبع ٤٧٨؛ وشرح القصائد العشر ٣٩٢؛ والبيان والتبيين ٣/ ٧؛ واللسان (جوز).

إذا رأى سائسَه حمحم. وإذا رأى الحمامُ القيِّمَ عليه انحطَّ للقطِ الحبّ، قبل أن يُلقيَ له ما يلقطه. ولولا الوسومُ ونُقُوش الخواتم، لدخل على الأموالِ الخللُ الكثير، وعلى خزائنِ الناس الضررُ الشديد.

٤١ - [تخليد العرب والعجم لمآثرها]

وليس في الأرض أمّةٌ بها طِرْق[١] أَوْ لها مُسْكَة، ولا جيلٌ لهم قبضٌ وبسْط، إلاّ ولهم خطّ. فأمّا أصحاب الملك والمملكة، والسلطانِ والجباية، والدِّيانة والعبادة، فهناك الكتابُ المتقَن، والحساب المحكَم، ولا يخرج الخطُّ من الجزْم والمسنَد المنمنم والسمون كيف كان، قال ذلك الهيثمُ بن عدي، وابن الكلبي.

قال: فكلُّ أمّةٍ تعتمدُ في استبقاءِ مآثرها، وتحصين مناقبها، على ضربٍ من الضروب، وشكل من الأشكال.

وكانت العربُ في جاهليَّتها تحتال في تخليدها، بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفَّى، وكان ذلك هو ديوانها. وعلى أنّ الشعرَ يُفيد فضيلةَ البيانِ، على الشاعر الراغب، والمادح، وفضيلةَ المأثُرة، على السيِّد المرغوبِ إليه، والممدوحِ به. وذهبت العجَم عَلَى أن تقيِّد مآثرَها بالبُنيان، فبنوا مثلَ كرد بيداد، وبنى أرْدشير بيضاء إصطَخْر[٢]. وبيضاء المدائن، والحَضْر، والمدن والحصون، والقناطر والجسور، والنواويس[٣]، قال: ثمَّ إنّ العربَ أحبَّتْ أن تشارك العجمَ في البناءِ، وتنفرد بالشعر، فبنوا غُمدان، وكعبةَ نَجْران[٤]، وقصرَ مارد، وقصر مأرب، وقصر شَعوب[٥] والأبلق الفرد، وفيه وفي مارد، قالوا «تمرَّدَ ماردٌ وعزَّ الأبلق»[٦] وغيرَ ذلك من البُنيان، قال: ولذلك لم تكن الفرسُ تبيح شريفَ البُنيان، كما لا تبيح شريف الأسماء، إلاّ لأهل البيوتات، كصنيعهم في النواويس والحمّامات

---

(١) الطرق: القوة. اللسان: طرق ١٠/٢٢٣.

(٢) إصطخر من أعيان مدن فارس وكورها، ومن مشهور مدنها البيضاء. (البلدان ١/٢١١)، وسميت البيضاء لأن لها قلعة تبيّن من بعد؛ ويُرى بياضها. (البلدان: ١/٥٢٩).

(٣) النواويس: جمع ناووس؛ وهي مقابر النصارى. اللسان: نوس.

(٤) كعبة نجران: بيعة بناها بنو عبد المدان بن الديّان الحارثي؛ على بناء الكعبة؛ وعظموها مضاهاة للكعبة. وكان فيها أساقفة معتمّون. البلدان: ٥/٢٦٨.

(٥) شعوب: قصر باليمن معروف بالارتفاع. البلدان: ٣/٣٥٠.

(٦) مجمع الأمثال ١/١٢٦، وجمهرة الأمثال ١/٢٥٧، والمستقصى ٢/٣٢، وفصل المقال ١٣٠، ٤٩٣، والدرة الفاخرة ١/٣٠١.

والقِباب الخضر، والشُّرَف على حيطان الدار، وكالعَقْد على الدِّهليز وما أشبهَ ذلكَ، فقال بعض من حضر: «كُتُبُ الحكماءِ وَما دَوَّنت العلماءُ من صنوف البلاغات والصِّناعات، والآداب والأرفاق[1]، من القَرون السابقة والأمم الخالية، ومن له بقيَّة ومن لا بقيّة له، أبقى ذكراً وأرفعُ قدراً وأكثر ردّاً، لأنَّ الحكمةَ أنفعُ لمن ورثها، من جهة الانتفاع بها، وأحسنُ في الأحدوثة، لمن أحبَّ الذكر الجميل».

٤٢ - [طمس آثار الأمم السالفة]

والكتبُ بذلك أولى من بُنيان الحجارة وحيطان المدَر؛ لأنَّ من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار مَن قبلَهمُ، وأن يُميتوا ذكرَ أعدائهم، فقد هدَموا بذلك السبب أكثرَ المدنِ وأكثرَ الحصون، كذلك كانوا أيَّامَ العجَم وأيَّامَ الجاهليّة. وعلى ذلك همْ في أيّام الإِسلام، كما هدم عُثمانُ صومعةَ غُمدان، وكما هدمَ الآطامَ[2] التي كانت بالمدينة، وكما هدم زيادٌ كلَّ قصر ومصنَع كان لابن عامر، وكما هدم أصحابُنا بناءَ مدن الشامات[3] لبني مروان.

٤٣ - [تاريخ الشعر العربي]

وأما الشعرُ فحديثُ الميلاد، صغير السنِّ، أوّلُ من نَهَجَ سبيلَه، وسهَّل الطريقَ إليه: امرؤُ القيس بن حُجْر، ومُهَلْهِل بنُ ربيعة. وكُتُبُ أرسطاطاليسَ، ومعلِّمه أفلاطون، ثم بَطْلَيموس، وديمقراطس، وفلان وفلان، قبلَ بدءِ الشعر بالدهور قبلَ الدهور، والأحقاب قبلَ الأحقاب.

ويدلُّ على حداثةِ الشعر، قولُ امرئِ القيس بن حُجْر: [من المنسرح]

إنَّ بني عوفٍ ابتَنَوا حسناً ... ضيّعه الدُّخلُلون إذ غَدَرُوا[4]
أدَّوا إلى جارهم خفارته ... ولم يَضِعْ بالمَغيب مَنْ نَصَرُوا[5]

---

(١) الأرفاق: جمع رفق، وهو ما استعين به. اللسان: رفق.

(٢) الآطام: جمع أُطُم. وهو كل بيت مربع مسطّح، وقيل: هو حصن مبني بحجارة، أو أبنية مرتفعة كالحصون. اللسان: أطم.

(٣) الشامات: كورة كبيرة من نواحي نيسابور، اجتاز بها عبد الله بن عامر بن كريز، فرأى هناك سباخاً فقال: ما هذه الشامات؟ فسميت بذلك. وفيها ما يزيد على «٣٠٠» قرية. (البلدان ٣ / ٣١١)، وقيل: الشامات خمس، فلسطين ومدينتها بيت المقدس، والأردن ومدينتها طبرية، والغوطة ومدينتها دمشق، وحمص، وقنسرين ومدينتها حلب. (العقد الفريد ٦ / ٢٥١-٢٥٢).

(٤) ديوان امرئ القيس ١٣٢ -١٣٣.

(٥) الخفارة: الذمة والعهد.

لا حِمْيَرِيٌّ وفى ولا عُدَسٌ ولا استُ عَيرٍ يحكها الثَّفر
لكنْ عُوَيرٌ وفَى بذمّته لا قِصَر عابَهُ ولا عَوَرُ

فانظُرْ، كم كان عمرُ زُرارةَ! وكم كان بين موت زُرارة ومولدِ النبي عليه الصلاة والسلام؟! فإذا استظهرنا الشعرَ، وجدنا له - إلى أن جاء اللّه بالإسلام - خمسين ومائةَ عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام.

قال: وفضيلة الشعر مقصورةٌ على العرب، وعلى من تكلّم بلسان العرب.

٤٤ - [صعوبة ترجمة الشعر]

والشعر لا يُستطاع أن يترجَم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوّل تقطّع نظمُه وبطلَ وزنُه، وذهب حسنُه وسقطَ موضعُ التعجب، لا كالكلامِ المنثور. والكلامُ المنثور المبتدأُ على ذلك أحسنُ وأوقعُ من المنثور الذي تحوّل من موزون الشعر.

قال: وجميع الأمم يحتاجون إلى الحكم في الدين، والحكم في الصناعات، وإلى كلّ ما أقام لهم المعاشَ وبوّب لهم أبوابَ الفِطَن، وعرَّفهم وجوهَ المرافق؛ حديثُهم كقديمهم، وأسودُهم كأحمرِهم، وبعيدُهم كقريبهم؛ والحاجة إلى ذلك شاملَة لهم.

وقد نُقلَتْ كتبُ الهند، وتُرجمتْ حكم اليونانيّة، وحُوِّلت آدابُ الفرس، فبعضها ازدادَ حُسناً، وبعضها ما انتقص شيئاً، ولو حوّلت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجزُ الذي هو الوزن، مع أنّهم لو حوَّلوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكرْه العجم في كتبهم، التي وضعت لمعاشهم وفِطَنهم وحِكَمهم، وقد نُقلَتْ هذه الكتبُ من أمّةٍ إلى أمّة، ومن قَرن إلى قرن، ومن لسانٍ إلى لسان، حتى انتهت إلينا، وكنَّا آخرَ مَنْ ورِثها ونظَر فيها. فقد صحَّ أنَّ الكتبَ أبلغُ في تقييدِ المآثِر، من البُنيان والشعر.

ثم قال بعضُ مَنْ ينصر الشعر ويحوطه ويحتجُّ له: إنَّ التَّرجُمان لا يؤدِّي أبداً ما قال الحكيمُ، على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته، وخفيَّات حدوده، ولا يقدر أنْ يوفيها حقوقها، ويؤدِّيَ الأمانة فيها، ويقومَ بما يلزمُ الوكيلَ ويجبُ على الجَرِيّ، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها، والإخبار عنها على حقِّها وصدقها، إلاّ أنْ يكونَ في العلم بمعانيها، واستعمالِ تصاريف ألفاظها، وتأويلاتِ مخارجِها، ومثلَ مؤلِّف الكتاب وواضعِه، فمتى كان رحمه اللّه تعالى ابنُ

البِطريق، وابن ناعمة، وابن قُرَّة، وابن فِهريز، وثيفيل، وابن وهيلي، وابن المقفَّع، مثلَ أرِسطاطاليس؟! ومتى كان خالدٌ مثلَ أفلاطون؟!

٤٥ - [شرائط الترجمان]

ولا بدَّ للتَّرجُمانَ من أن يكون بيانهُ في نفس الترجمة، في وزْن علمه في نفسِ المعرفة، وينبغي أن يكون أعلمَ الناس باللغة المنقولة والمنقولِ إليها، حتَّى يكون فيهما سواءً وغاية. ومتى وجدناه أيضاً قد تكلّم بلسانين، علمنا أنَّه قد أدخلَ الضيمَ عليهما، لأنَّ كل واحدةٍ من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذُ منها، وتعترضُ عليها. وكيف يكونُ تمكُّنُ اللسان منهما مجتمعين فيه، كتمكُّنه إذا انفرد بالواحدة، وإنَّما له قوَّةٌ واحدة، فَإِنْ تكلّمَ بلغةٍ واحدة استُفْرِغَتْ تلك القوَّةُ عليهما، وكذلك إنْ تكلَّم بأكثرَ مِنْ لغتين، وعلى حساب ذلك تكون الترجمةُ لجميع اللغات. وكلَّما كانَ البابُ من العلم أعسرَ وأضيق، والعلماءُ به أقلَّ، كان أشدَّ على المترجِم، وأجدرَ أن يخطئ فيه. ولن تجد البتَّةَ مترجماً يفِي بواحدٍ من هؤلاء العلماء.

هذا قولُنا في كتب الهندسة. والتنجيم، والحساب، واللحون، فكيف لو كانت هذه الكتب كتبَ دينٍ وإخبار عن اللّه ـ عزَّ وجلَّ ـ بما يجوز عليه ممَّا لا يجوز عليه، حتىَّ يريد أنْ يتكلَّم على تصحيح المعاني في الطبائع، ويكون ذلك معقوداً بالتوحيد، ويتكلَّمَ في وجوه الإخبار واحتمالاته للوُجوه، ويكونَ ذلك متضمِّناً بما يجوز على اللّه تعالى، ممَّا لا يجوز، وبما يجوزُ على الناس مما لا يجوز، وحتَّى يعلمَ مستقرَّ العامِّ والخاصّ، والمقابلات التي تَلقَى الأخبارَ العامِّيةَ المخرَج فيجعلَها خاصيَّة. وحتى يعرفَ من الخبر ما يخصُّه الخبر الذي هو أثر، ممَّا يخصُّه الخبر الذي هو قرآن، وما يخصُّه العقل مما تخصُّه العادة أو الحال الرادَّةُ له عن العموم، وحتَّى يعرفَ ما يكونُ من الخبر صدقاً أو كذباً، وما لايجوز أن يسمَّى بصدقٍ ولا كذب؛ وحتَّى يعرفَ اسم الصدق والكَذب، وعلى كم معنى يشتمل ويجتمع، وعند فقد أيِّ معنًى ينقلب ذلك الاسم، وكذلك معرفة المُحال من الصحيح، وأيّ شيءٍ تأويلُ المحال؛ وهل يسمَّى المحال كذباً أم لا يجوز ذلك، وأيّ القولين أفحشُ: المُحال أم الكذب، وفي أيِّ موضع يكون المحالُ أفْظَع، والكذب أشنع؛ وحتَّى يعرف المثلَ والبديع، والوحي والكناية، وفصْل ما بين الخطَلِ والهَذْر، والمقصورِ والمبسوط والاختصار، وحتَّى يعرف أبنيةَ الكلام، وعاداتِ القوم، وأسبابَ تفاهمهِم، والذي

ذكرنا قليلٌ من كثير. ومتى لم يعرفْ ذلك المترجم أخطأ في تأويل كلامِ الدين. والخطأُ في الدين أضرُّ من الخطأ في الرياضة والصناعة، والفلسفةِ والكَيْمِياء، وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم.

وإذا كان المترجِم الذي قد تَرجَم لا يكمل لذلك، أخطأ على قدْرِ نقصانه من الكمال. وما عِلْمُ المترجِم بالدليل عن شبه الدليل؟ وما علْمه بالأخبار النجوميّة؟ وما علمه بالحدود الخفيّة؟ وما علمه بإصلاح سقطات الكلام، وأسقاط الناسخين للكتب؟ وما علمُه ببعض الخطرفة لبعض المقدَّمات؟ وقد علمنا أنَّ المقدَّمات لا بدَّ أنْ تكون اضطراريّة، ولا بدَّ أن تكون مرتَّبةً، وكالخيط الممدود. وابنُ البِطريق وابن قرّة لايفهمان هذا موصوفاً منزَّلاً، ومرتَّباً مفصَّلاً، من معلِّمٍ رفيقٍ، ومن حاذقٍ طَبٍّ فكيف بكتابٍ قد تداولتْه اللغاتُ واختلافُ الأقلام، وأجناسُ خطوطِ المِلل والأمم؟!

ولو كان الحاذقُ بلسان اليونانيِّين يرمي إلى الحاذق بلسان العربيّة، ثم كان العربيُّ مقصِّراً عن مقدار بلاغة اليونانيّ، لم يجد المعنى والناقل التقصير، ولم يَجد اليونانيُّ الذي لم يرضَ بمقدار بلاغته في لسان العربيّة بُدّاً من الاغتفار والتجاوز، ثمّ يصير إلى ما يعرض من الآفات لأصناف الناسخين، وذلك أن نسختَه لا يَعدَمها الخطأ، ثمَّ ينسخُ له من تلك النسخة مَن يزيده من الخطأ الذي يجده في النسخة. ثمّ لا ينقص منه؛ ثم يعارض بذلك مَن يترك ذلك المقدار من الخطأ على حاله، إذا كان ليس من طاقته إصلاحُ السَّقَط الذي لا يجدُه في نسخته.

٤٦ - [تحريف الكتب]

ولربَّما أراد مؤلِّف الكتاب أن يصلِح تصحيفاً، أو كلمةً ساقطة، فيكون إنشاء عشرِ ورقات من حرِّ اللفظ وشريف المعاني، أيسرَ عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يردَّه إلى موضِعه من اتِّصال الكلام، فكيف يُطيق ذلك المعرض المستأجَر. والحكيمُ نفسهُ قد أعجزه هذا الباب! وأعجب من ذلك أنَّه يأخذ بأمرَين: قد أصلحَ الفاسدَ وزاد الصالحَ صَلاحاً. ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخةً لإنسان آخَرَ، فيسير فيه الورّاقُ الثاني سيرةَ الورَّاقَ الأوَّل؛ ولا يزال الكتابُ تتداوله الأيدي الجانية، والأعْرَاض المفسِدة، حتّى يصير غَلَطاً صرفاً، وكذباً مصَمتاً، فما ظنُّكم بكتابٍ تتعاقبه المترجَمون بالإفساد، وتتعاوره الخُطّاط بَشرٍّ من ذلك أو بمثله، كتابٍ متقادمِ الميلاد، دُهْرِيّ الصنعة![1].

---

(١) رجل دهري: مُسِنٌّ نسب إلى الدهر. اللسان: دهر ٤/ ٢٩٣.

٤٧ - [بين أنصار الكتب وأنصار الشعر]

قالوا: فكيف تكون هذه الكتبُ أنفعَ لأهلها من الشعر المقفَّى؟

قال الآخر: إذا كان الأمرُ على ما قلتم، والشأنُ على ما نزَّلتم، أليس معلوماً أنَّ شيئاً هذه بقيَّتُهُ وفضلتُه وسُؤرهُ وصُبَابته، وهذا مظهرُ حاله على شدَّة الضيم، وثبات قوته على ذلك الفسادِ وتداوُلِ النقص، حريٌّ بالتعظيم، وحقيقٌ بالتفضيلِ على البنيان، والتقديمِ على شعرٍ إن هو حُوِّل تهافَتَ، ونفعُه مقصورٌ على أهله، وهو يُعدُّ من الأدب المقصور، وليسَ بالمبسوط، ومن المنافع الاصطلاحيَّة وليست بحقيقة بيِّنة ، وكلُّ شيءٍ في العالم من الصناعات والأرفاق والآلات، فهي موجودات في هذه الكتب دونَ الأشعار، وهاهنا كتبٌ هي بينَنَا وبينكم، مثل كتاب أُقليدس، ومثل كتاب جالينوس، ومثل المجسْطي، مّما تولاَّه الحَجّاج، وكتبٌ كثيرةٌ لا تحَصى فيها بلاغٌ للناس، وإن كانت مختلفة ومنقوصة مظلومة ومغيَّرة، فالباقي كافٍ شافٍ، والغائب منها كان تكميلاً لتسلُّط الطبائع الكاملة.

فأما فضيلة الشعر فعلى ما حكينا، ومنتهى نفعه إلى حيث انتهى بنا القول.

وحسبُك ما في أيدي الناس من كتب الحساب، والطبّ،والمنطق، والهندسة، ومعرفة اللُّحون، والفلاحة، والتِّجارة، وأبواب الأصباغ، والعطر، والأطعمة، والآلات. وهم أتوكم بالحكَمة، وبالمنفعة التي في الحمَّاماتَ وفي الأصطرلابات(١) والقَرسطونات(٢) وآلات معرفة الساعات، وصنعة الزجاج والفُسَيفساء، والأسرنج(٣) والزنجفور(٤) واللازَوَرد(٥) والأشربة، والأنْبَجَات(٦)، والأيارجاتَ(٧) ولكم المينا،

---

(١) الأصطرلاب: مقياس للنجوم؛ وهو باليونانية أصطرلابون. وأصطر: النجم، لابون: المرآة. انظر مفاتيح العلوم للخوارزمي ١٣٤، مادة (لوب).

(٢) القرسطون: القبّان. انظر النزهة المبهجة للأنطاكي ١/ ١٥.

(٣) الأسرنج: أسرب يحرق، ويشب عليه النار حتى يحمر. مفاتيح العلوم ١٤٩.

(٤) الزنجفور: صبغ معروف، وهو أحمر يكتب به ويصبغ، قوته كقوة الإسفيداج، وهو معدني ومصنوع، أما المعدني: فهو استحالة شيء من الكبريت إلى معدن الزئبق، وأما المصنوع فانواع. انظر التاج ١١ /٤٥٨ (ز ن ج ف ر).

(٥) اللازورد: حجر فيه عيون براقة؛ يتخذ منها خرز. مفاتيح العلوم ١٤٨.

(٦) الأنبجات: جمع أنبج. وهو حمل شجر بالهند يربّب بالعسل على خلقة الخوخ؛ محرَّف الرأس، وهو لونان: أحدهما ثمرته في مثل هيئة اللوز، وآخر في هيئة الإجاص، وطعمه كالموز. اللسان: نبج ٢ /٣٧٢.

(٧) الإيارَجَة: دواء معروف، وهو معجون مسهل للأخلاط. معرب إياره، وتفسيره: الدواء الإلهي. التاج ٦ /٢٩١ (ي ر ج).

والنشادر والشَّبَه(١) وتعليق الحيطان والأساطين، وردُّ ما مال منها إلى التقويم. ولهم صبُّ الزردج(٢)، واستخراج النَّشَاسْتَج(٣)، وتعليق الخَيش، واتِّخاذ الجمَّازات، وعمل الحَرَّاقات(٤)، واستخراج شراب الداذِيّ(٥) وعمل الدّبابات(٦).

٤٨ - [فضل الحجاج فيما ابتدعه]

وكان الحجَّاجُ أوّلَ مَن أجرى في البحر السفن المقيَّرة المسمَّرة غيرَ المخرَّزة، والمدهونة والمسطّحة، وغيرَ ذواتِ الجؤجؤ، وكان أوّلَ من عمِل المحامل(٧)، ولذا قال بعضُ رُجَّاز الأكرياء: [من الرجز]

أوَّل خَلْقٍ عَمِلَ المحامِلا أخزاَهُ ربِّي عاجلاً وآجِلا(٨)

وقال آخر: [من الرجز]

شَيَّبَ أصداغِي فهُنَّ بيضُ مَحَاملٌ لِقدِّها نَقِيضُ(٩)

وقال آخر: [من الرجز]

شيَّب أصداغِي فهن بيَّضُ مَحَامِلٌ فيها رجال قبَّضُ

لو يتكون سنة لم يغرضوا(١٠)

---

(١) الشبه: ضرب من النحاس، يلقى عليه دواء فيصفر. اللسان: شبه ١٣/٥٠٥.

(٢) الزردج: اسم للعصفر، معرب عن زرده. التاج ٦/١٢ (زردج).

(٣) في اللسان ١٥/٣٢٥ (نشا): شيء يعمل به الفالوذج، فارسي معرب، يقال له النشاستج، حذف شطره تخفيفاً، كما قالوا للمنازل: منا.

(٤) الحراقات: سفن فيها مرامي نيران يرمى بها العدو. التاج: حرق.

(٥) الداذي: شراب للفساق، وهو الخمر. التاج ٩/٤٠٨ (دوذ). وفي اللسان «دوذ»، والتاج «ذوذ»: الداذي «الذاذي» نبت، وقيل هو شيء له عنقود مستطيل، وحبه على شكل حب الشعير، يوضع منه مقدار رطل في الفَرَق فتعبق رائحته؛ ويجود إسكاره.

(٦) الدبابات: جمع دبابة، وهي نوع من البرج يجلس ضمنه الجنود المكلفون بمهاجمة أسوار موقع ما. معجم دوزي ١/٤٢١. وانظر رسائل الجاحظ ١/٦٨، ٣/٢١٥.

(٧) ورد هذا القول منسوباً لأبي الحسن في البيان والتبيين ٢/٣٠٣.

(٨) الرجز بلا نسبة في البيان ٢/٣٠٤؛ والتاج (حمل)؛ والجمهرة ٥٦٧؛ والبيت الأول في اللسان (حمل).

(٩) الرجز بلا نسبة في البيان ٢/٣٠٤؛ واللسان والتاج (نقض)؛ والجمهرة ٩١٠.

(١٠) الرجز لرجل من فقيم في اللسان (فرض)؛ ولضب العدوي في التاج (فرض)، وبلا نسبة في الأساس (فرض).

وقال القوم: لولا ما عرَّفوكم من أبواب الحُمْلانات[1] لم تعرفوا صنعة الشَبَه، ولولا غَضارُ الصين على وجه الأرض لم تعرفوا الغَضار، على أنَّ الذي عَملْتُم ظاهرٌ فيه التوليد، منقوصُ المنفعة عن تمامِ الصِّينيّ. وعلى أن الشَّبَهَ لم تستخرجوه، وإنّما ذلك من الأُمور التي وقعت اتّفاقاً، لسقوط الناطف[2] من يد الأجير في الصُّفْر الذائب، فَخفتم إفساده، فلَمَّا رأيتم ما أعطاه من اللون عَملْتم في الزيادة والنقصان، وكذلك جميعُ ما تهيَّأ لكم، ولستم تخرُجون في ذلك من أحدِ أمرَين: إمَّا أن تكونوا استعملتم الاشتقاق من علمٍ ما أورثوكم، وإمّا أن يكون ذلكَ تهيَّأ لكم من طريق الاتِّفاق!!

٤٩ - [الجمازات]

وقد علمتم أنَّ أَوَّل شأن الجَمَّازات، أنَّ أُمَّ جعفر أمرت الرحَّالِينَ أن يَزيدُوا في سيرِ النجيبة التي كانت عليها، وخافت فوتَ الرشيد، فلما حُرِّكت مشَت ضروباً من المشي، وصنوفاً من السير، فجَمزت في خلال ذلك، ووافقت امرأةً تحسن الاختيار، وتفهم الأمور، فوجدت لذلك الجمزِ راحةً، ومع الراحة لذَّة، فأمرتْهم أن يسيروا بها في تلك السِّيرة، فما زالوا يقرِّبون ويبعِّدون، ويخطئون ويصيبون، وهي في كلٍّ ذلك تصوِّبهم وتخطئُهم على قدر ما عرفَتْ، حتى شَدَوا من معرفة ذلك ما شَدَوا، ثمَّ إنّها فرّغتهم لإتمام ذلك حتى تمَّ واستوى. وكذلك لا يخلو جميعُ أمركم، من أن يكون اتِّفاقاً، أو اتِّباعَ أثر.

٥٠ - [الترغيب في اصطناع الكتاب]

ثم رجع بنا القولُ إلى الترغيب في اصطناع الكتاب، والاحتجاج على مَنْ زَرَى على واضعِ الكتب، فأقول[3]: إنّ من شكر النعمة في معرفة مغاوي الناس ومَراشدهم، ومضارِّهم ومنافعهم، أن يُحتَمَل ثِقْلُ مؤونتهم في تقويمهم، وأن يُتَوَخَّى إرشادُهم وإن جهلوا فضلَ ما يُسْدَى إليهم، فلن يُصانَ العلمُ بمثل بذْله، ولن تُستَبقى النعمةُ فيه بمثل نشره، على أَنَّ قراءة الكتب أبلغُ في إرشادهم من تلاقيهم؛ إذ كان مع التّلاقي يشتدُّ التصنُّع، ويكثُر التظالُم، وتُفرط العصبيّة، وتقوَى الحَميَّة، وعند المواجَهةِ والمقابلَة، يشتدُّ حبُّ الغلَبة، وشهوةُ المباهاةِ والرياسة، مع الاستحياء من

---

(١) الحملان في اصطلاح الصاغة: ما يحمل على الدراهم من الغش. التاج (حمل).

(٢) الناطف: نوع من الحلواء، وهو القُبَّيْط، سمي بذلك لأنه يقطر قبل خثورته. التاج (نطف).

(٣) ورد قوله في كتاب الفتيا؛ ضمن رسائله ١ / ٣١٥.

الرجوع، والأنفة من الخضوع؛ وعن جميعِ ذلك تحدُثُ الضغائن، ويظهرُ التباين. وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفة وعلى هذه الهيئة، امتنعتْ من التعرُّف، وعَميت عن مواضعِ الدلالة، وليست في الكتب عِلَّةٌ تمنَع من دَرْك البُغْية، وإِصابة الحجَّة، لأنَّ المتوحِّد بدَرْسها، والمنفرد بفهم معانيها، لا يباهي نفسَه ولا يغالب عقلَه، وقد عَدِمَ مَنْ له يُباهي وَمِنْ أجله يغالب[1].

٥١ - [الكتاب قد يفضل الكاتب][2]

والكتابُ قد يفضلُ صاحبَه، ويتقدَّم مؤلِّفَه، ويرجِّح قلمَه على لسانه بأمور: منها أنّ الكتابَ يُقرأ بكلِّ مكان، ويظهرُ ما فيه على كلِّ لسان، ويُوجَد مع كلِّ زمان، على تفاوتِ ما بينَ الأعصار، وتباعُد ما بين الأمصار، وذلك أمرٌ يستحيل في واضعِ الكتاب، والمنازع في المسألة والجواب. ومناقلةُ اللسان وهدايته لا تجوزان مجلسَ صاحبه، ومبلغَ صوته. وقد يذهب الحكيمُ وتبقى كتبُه، ويذهب العقلُ ويبقى أثره. ولولا ما أودعت لنا الأوائلُ في كتبها، وخلَّدت من عجيبِ حكمتها، ودوَّنت من أنواعِ سيَرِها، حتَّى شاهدنا بها ما غاب عنَّا، وفتحنا بها كلَّ مستغلق كان علينا، فجمَعنا إلى قليلنا كثيرَهم، وأدركنْا ما لم نكن ندركُه إلاّ بهم، لما حَسُنَ حظُّنا من الحكمة، ولضعُف سبَبُنَا إلى المعرفة. ولو لجأنا إلى قدر قوَّتنا، ومبلغ خواطرِنا، ومنتهى تجارِبنا لما تدركه حواسُّنا، وتشاهدهُ نفوسنا، لقلَّت المعرفةُ، وسَقَطت الهمّة، وارتفعت العزيمة، وعاد الرأيُ عقيماً، والخاطِر فاسداً، ولَكلَّ الحدُّ وتبلَّد العقل.

٥٢ - [أشرف الكتب]

وأكثرُ مِنْ كتبهم نفعاً، وأشرف منها خَطَراً، وأحسنُ موقعاً، كتُبُ اللّه تعالى، فيها الهُدَى والرحمة، والإِخبارُ عن كلِّ حكمة، وتعريفُ كلِّ سيِّئةٍ وحسَنة. ومازالت كتبُ اللّه تعالى في ا لألواح والصُّحُف، والمهارق[3] والمصاحف. وقال اللّه عزَّ وجلَّ ﴿الٓمٓ ذلكَ الْكتَابُ لا رَيْبَ فيه﴾[4]. وقال ﴿مَا فَرَّطْنَا في الْكِتَابِ مِنْ شَيءٍ﴾[5]. ويقال لأهل التَّوراةِ والإِنْجيل: أَهل الكِتاب.

---

(١) ورد هذا القول في رسائله ٤/ ٢٩٦، مع خلاف يسير.

(٢) انظر رسائل الجاحظ ٤/ ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٣) المهارق: جمع مُهْرق، وهي الصحيفة البيضاء يكتب فيها، فارسي معرب. اللسان (هرق).

(٤) ١: البقرة/ ٢.

(٥) ٣٨: الأنعام/ ٦.

٥٣ - [مواصلة خدمة العلم]

وينبغي أن يكونَ سبيلُنا لمَنْ بعدَنا، كسبيلِ مَن كان قبلنا فينا. على أنَّا وقد وجدْنا من العبرة أكثرَ ممّا وجدوا، كما أنَّ مَن بعدَنا يجدُ من العبرة أكثرَ ممّا وجدْنا. فما ينتظر العالمُ بإظهار ما عندَه، وما يمنَع الناصرَ للحقِّ من القيامِ بما يلزمُه، وقد أمكن القولُ وصلحَ الدهرُ وخوى نجم التَّقِيَّة[١]، وهَبَّتْ رِيحُ العلماء ، وكسَدَ العِيُّ والجهل، وقامت سوقُ البيان والعلم ؟!

وليس يجدُ الإنسانُ في كل حينٍ إنساناً يدَرِّبه، ومقوِّماً يثقِّفه. والصبرُ على إفهام الرِّيِّض شديد، وصرفُ النفسِ عن مغالبة العالم أشدُّ منه، والمتعلِّم يجدُ في كلِّ مكانٍ الكتابَ عتيداً، وبما يحتاج إليه قائماً وما أكثرَ مَن فرَّط في التعليم أيَّام خُمولِ ذكره، وأيَّام حَداثة سنِّه!! ولولا جيادُ الكتبِ وحسَنُها، ومُبَيَّنُها ومختصرَها، لَمَا تحرَّكت هممُ هؤلاءِ لطلب العلم، ونزعت إلى حبِّ الأدب، وأنفَتْ من حال الجهل، وأن تكون في غِمار الحَشْو، ولَدخل على هؤلاء من الخَللِ والمضرَّة، ومن الجهل وسوء الحال، وما عسى ألا يمكن الإخبارُ عن مقداره، إلاَّ بالكلام الكثير، ولذلك قال عمرُ رضي الله تعالى عنه: «تفقَّهوا قبلَ أن تسودوا»[٢].

٥٤ - [فائدة كتب أبي حنيفة]

وقد تجدُ الرجلَ يطلبُ الآثارَ وتأويلَ القرآن، ويجالس الفقهاءَ خمسين عاماً، وهو لا يُعدُّ فقيهاً، ولا يُجعَل قاضياً، فما هو إلاّ أن ينظرَ في كتب أبي حنيفة، وأشباه أبي حنيفة، ويحفَظَ كتبَ الشروط في مقدارِ سنةٍ أو سنتين، حتى تمرَّ ببابه فتظن أنه من باب بعض العُمَّال، وبالحَرا[٣] ألاّ يمرَّ عليه من الأيّام إلاَّ اليسير، حتَّى يصير حاكماً على مصرٍ من الأمصار، أو بلدٍ من البلدان.

٥٥ - [ضرورة تنقيح المؤلفات]

وينبغي لمن كَتبَ كتاباً ألا يكتُبَه إلاَّ على أنَّ النَّاس كلَّهم له أعداء، وكلُّهم عالمٌ بالأمور، وكلُّهم متفرِّغ له، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غُفْلاً، ولا يرضى بالرأي الفطير، فإنَّ لابتداءِ الكتابِ فتنةً وعُجُباً، فإذا سكنت الطبيعةُ وهدأت الحركة،

---

(١) خوى النحم: اختفى . التقية: الحذر والخوف.

(٢) ورد حديث عمر في النهاية ٢ /٤١٨، أي تعلموا العلم ما دمتم صغاراً.

(٣) الحرا: الخليق.

وتراجَعَت الأخلاطُ، وعادت النفسُ وافرة، أعاد النَّظر فيه، فَيَتَوَقَّفُ عند فصوله توقُّفَ من يكونَ وزنُ طمَعِه في السلامةَ أنقَصَ من وزنِ خوفه من العيب، ويتفهَّم معنى قول الشاعر: [من البسيط]

إنَّ الحديثَ تَغُرُّ القومَ خلوتُه حتَّى يَلِجَّ بهم عِيٌّ وإكثارُ[1]

ويقفُ عند قولهم في المثل: «كلُّ مُجْرٍ في الخَلاءِ يُسَرُّ»[2] فيخاف أن يعتريه ما اعترى مَنْ أحرى فرسه وحدَه، أو خلا بعلمه عند فقدِ خصومه، وأهل المنزلة من أهل صناعته.

٥٦ - [الاستطراد في التأليف]

وليعلم أنَّ صاحبَ القلم يعتريه ما يعتري المؤدِّبَ عند ضربه وعقابه، فما أكثر من يَعزِم على خمسة أسواط فيضرب مائة؟! لأنَّه ابتدأ الضربَ وهو ساكنُ الطباع، فأراه السكونُ أنَّ الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرَّك دمُه، فأشاع فيه الحرارةَ فزادَ في غضبه، فأراه الغضبُ أنَّ الرأي في الإكثار، وكذلك صاحب القلم؛ فما أكثرَ من يبتدئ الكتابَ وهو يُريد مقدارَ سطرين، فيكتب عشرة! والحفظُ مع الإقلال أمكَن، وهو مع الإكثار أبعَد.

٥٧ - [مفاضلة بين الولد والكتاب]

واعلم أَنَّ العاقلَ إنْ لم يكن بالمتتبِّع، فكثيراً ما يعتريه من ولده، أَنْ يحسُنَ في عينه منه المقبَّحُ في عين غيره، فليعلمْ أنَّ لفظه أقربُ نسباً منه من ابنه، وحركَتَه أمسُّ به رِحْماً من ولده، لأنَّ حركتَه شيءٌ أحدثَه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فَصَلَت، ومن نفسه كانت؛ وإنَّما الوالدُ كالمخْطَة يتمخَّطها، والنُّخَامة يقذفها، ولا سواءٌ إخراجُك منْ جزئك شيئاً لم يكن منك، وإظهارُك حركةً لم تكنَ حتَّى كانت منك. ولذلك تجدُ فتنةَ الرجُل بشعرِه، وفتنتَه بكلامِه وكتبِه، فوقَ فتنتِه بجميعِ نعمته.

٥٨ - [لغة الكتب]

وليس الكتابُ إلى شيءٍ أحوجَ منه إلى إفهام معانيه، حَتَّى لا يحتاجُ السامع لما

---

(١) البيت لابن هرمة في ديوانه ١٢٤، والبيان ١/٢٠٣، ورسائل الجاحظ ٤/٩٨.

(٢) مجمع الأمثال ٢/١٣٥، والمستقصى ٢/٢٢٩، وفصل المقال ٢٠٣، والأمثال لابن سلام ١٣٦، والبيان ١/٢٠٣، ورسائل الجاحظ ١/٣٤٢.

فيه من الرويَّة، ويحتاجُ مِنَ اللفظ إلى مقدارٍ يرتفع به عَنْ ألفاظ السِّفْلَة والحَشْو، ويحطُّه من غريب الأعراب ووَحْشيِّ الكلام، وليس له أَنْ يهذِّبَه جدّاً، وينقِّحَه ويصفِّيه ويروّقه، حتى لا ينطقَ إلاّ بلُبِّ اللُّبِّ، وباللفظ الذي قد حذف فُضُولَه، وأسقطَ زوائده، حتّى عاد خالصاً لا شَوْب فيه؛ فإنَّه إنْ فعل ذلك، لم يُفْهَمْ عنه إلا بأن يجدِّد لهم إفهاماً مِراراً وتَكراراً، لأنَّ النَّاسَ كلَّهم قد تعوَّدوا المبسوطَ من الكلام، وصارت أفهامُهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها. ألا تَرَى أنَّ كتاب المنطق الذي قد وُسم بهذا الاسم، لو قرأتَه على جميعِ خطباء الأمصار وبلغاءِ الأعراب، لما فهموا أكثرَه، وفي كتاب إقليدِسَ كلامٌ يدور، وهو عربيٌّ وقد صُفِّي، ولو سمعه بعضُ الخطباء لما فهمه، ولا يمكن أن يفهِّمه من يريد تعليمه، لأنَّه يحتاج إلى أن يكون قد عرَف جهةَ الأمر، وتعوَّد اللفظ المنطقيَّ الذي استُخرِج من جميع الكلام.

٥٩ - [قول صحار العبدي في الإيجاز]

قال معاويةُ بن أبي سفيان، رضي اللّه عنهما، لصُحَارٍ العبدي: ما الإيجاز؟ قال: أَن تجيبَ فلا تبطئ، وتقولَ فلا تخطئ. قال معاوية: أو كذلك تقول!! قال صحار: أقِلْني يا أمير المؤمنين! لا تخطئ ولا تبطئ(١).

فلو أنَّ سائلاً سأَلك عنِ الإيجاز، فقلت: لا تخطئ ولا تبطئ، وبحضرتك خالد بنُ صفوان، لما عرَفَ بالبديهة وعندَ أَوَّل وهلة، أَنَّ قولَك «لاتخطئ» متضمِّنٌ بالقول، وقولَك «لا تبطئ» متضمِّن بالجواب. وهذا حديثٌ كما ترى آثروه ورَضُوه، ولو أن قائلاً قال لبعضنا: ما الإيجاز؟ لظننتُ أنّه يقول: الاختصار.

والإيجاز ليس يُعنَى به قلَّةُ عددِ الحروفِ واللفظ، وقد يكونُ البابُ من الكلام مَنْ أتى عليه فيما يسع بطن طُومارٍ فقد أوجز، وكذلك الإطالة، وإنَّمَا ينبغي له أن يحذف بقدرِ ما لا يكون سبباً لإغلاقه، ولايردِّد وهو يَكتفي في الإفهام بشطره، فَما فضَل عن المقدار فهو الخطل.

٦٠ - [صعوبة كتب الأخفش]

وقلتُ لأَبي الحسن الأخفش: أنت أعلمُ الناسِ بالنَّحو، فلم لا تجعَلُ كتبَك

(١) ورد حديث صحار ومعاوية في البيان ١/٩٦. مع خلاف.

مفهومة كلَّها، وما بالُنا نفهمُ بعضَها ولا نفهم أكثرها، وما بالُك تقدِّم بعضَ العويصِ وتؤخِّر بعض المفهوم؟! قال: أنا رجلٌ لم أضَعْ كتبي هذه للّه، وليست هي من كتبِ الدين، ولو وضعتُها هذا الوضع الذي تدعوني إليه، قلَّت حاجاتُهم إليَّ فيها، وإنَّما كانت غايتي المَنَالة، فأنا أضعُ بعضَها هذا الوضع المفهومَ، لتدعوَهم حلاوةُ ما فهموا إلى التماس فهْم ما لم يفهموا، وإنَّما قد كسَبتُ في هذا التدبير، إذ كنتُ إلى التكسُّب ذهبت، ولكنْ ما بالُ إبراهيم النظَّامِ، وفلانٍ وفلان، يكتبون الكتبَ للّه بزعْمِهم، ثم يأخذُها مثلي في مواقفته[1]، وحُسْنِ نظره، وشدَّةِ عنايته، ولا يفهمُ أكثرَها؟!

وأقول: لو أنَّ يوسف السَّمْتيَّ، كتب هذه الشروطَ، أيَّام جلسَ سَلمان بن ربيعة شهرين للقضاء، فلم يتقدَّم إليه رجُلان، والقلوب سليمةٌ والحقوقُ على أهلها موفَّرة، لكان ذلك خطلاً ولغواً؛ ولو كتبَ في دهره شروطَ سَلمان، لكان ذلك غَرارةً ونقصاً، وجهلاً بالسياسةِ، وبما يصلحُ في كلِّ دهر.

٦١ - [مواضع الاستطراد]

ووجدنا الناسَ إذا خطبُوا في صلحٍ بين العشائر أطالوا، وإذا أنشدوا الشعر بين السِّماطين في مديح الملوك أطالوا. وللإطالة موضعٌ وليس ذلك بخطَل، وللإقلال موضعٌ وليس ذلك من عَجْز.

ولولا أنِّي أتّكل على أنَّك لا تملُّ بابَ القولِ في البعير حتَّى تخرجَ إلى الفيل، وفي الذَّرَّة حتَّى تخرجَ إلى البعوضة، وفي العقربِ حتَّى تخرجَ إلى الحيَّةَ، وفي الرجل حتَّى تخرجَ إلى المرأة، وفي الذِّبان والنحل حتى تخرج إلى الغِرْبان والعِقْبان، وفي الكلبِ حتَّى تخرجَ إلى الديك، وفي الذئب حتَّى تخرج إلى السبُع، وفي الظِّلفِ حتَّى تخرجَ إلى الحافر، وفي الحافر حتَّى تخرج إلى الخُفّ، وفي الخفِّ حتَّى تخرجَ إلى البُرْثُنِ، وفي البرْثُنِ حتَّى تخرج إلى المخلَب، وكذلك القول في الطير وعامَّة الأَصناف، لَرأيتُ أنَّ جملة الكتاب، وإنْ كثُر عددُ ورقه، أَنَّ ذلك ليس مما يُملُّ، ويُعتَدُّ عليَّ فيه بالإطالة، لأنَّه وإن كان كتاباً واحداً فإنَّه كتبٌ كثيرة، وكلُّ مُصحَف منها فهو أمٌّ على حدَة، فإن أرادَ قراءةَ الجميع لم يَطل عليه الباب الأوّل حتَّى يهجمَ على الثاني، ولا الثاني حتَّى يهجمَ على الثالث، فهو أبداً مستفيدٌ ومستطْرِف، وبعضُه

(١) المواقفة: الجدال والخصومة.

يكون جَماماً لبعض، ولا يزالُ نشاطُه زائداً. ومتى خرج منْ آي القرآن صارَ إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكمٍ عقليّة، ومقاييس سِداد، ثم لا يترك هذا البابَ؛ ولعلّه أن يكون أثقلَ، والملالُ إليه أسرع، حتّى يفضيَ به إلى مزحٍ وفكاهة، وإلى سُخْفٍ وخُرافة، ولست أراه سُخفاً، إذ كنتُ إنما استعملتُ سِيرة الحكماءِ، وآدابَ العلماء.

٦٢ - [مخاطبة القرآن للعرب وبني إسرائيل]

ورأينا الله تبارك وتعالى، إذا خاطب العربَ والأعْرابَ، أخرجَ الكلامَ مُخْرَجَ الإشارة والوحي والحذف، وإذا خَاطَبَ بني إسرائيل أو حكَى عنهم، جعلَه مبسوطاً، وزاد في الكلام. فأصوبُ العمل اتّباعُ آثار العلماء، والاحتذاءُ على مثالِ القدماء، والأخذُ بما عليه الجماعة.

٦٣ - [شعر في صفة الكتب]

قال ابن يسير في صفةِ الكتب، في كلمةٍ له [١]: [من البسيط]

١- أقبلْتُ أهرُب لا آلو مُباعدةً ... في الأرض منهمْ فَلم يُحْصِنِّيَ الهربُ
٢- بقصر أوسٍ فَما والت خنادقُه ... ولا النواويسُ فالماخورُ فالخَرب
٣- فأيُّما موئلٍ منها اعتصمتُ به ... فمن ورائي حثيثاً منهمُ الطلبُ
٤- لمَّا رأيتُ بأني لستُ معجزَهم ... فوتاً ولا هَرَباً، قرَّبت أحتجبُ
٥- فصرتُ في البيت مسروراً بهم جَذِلاً ... جَارَ البراءة لا شكوَى ولاشَغَبُ
٦- فرداً يحدِّثني الموتى وتنطقُ لي ... عن علمِ ما غاب عنِّي منهمُ الكتبُ
٧- هم مُؤْنِسون وأُلّاف غَنيتُ بهمْ ... فليس لي في أنيسٍ غيرهم أَرَبُ
٨- لله من جُلَسَاءٍ لا جَليسهمُ ... ولا عشيرهُمُ للسُّوء مرتَقبُ
٩- لا بادرات الأذَى يخشى رفيقُهمُ ... ولا يُلاقيه منهمْ مَنْطِقٌ ذَرِبُ
١٠- أبقَوا لنَا حِكماً تبقى منافعُهَا ... أُخْرَى الليالي على الأيَّام وانشعبوا
١١- فأيّما آدبٍ منهم مددتُ يدي ... إليه فهو قريبٌ من يَدِي كَثَبُ

---

(١) الأبيات في ديوان محمد بن يسير ص ٤٤- ٤٦، والأبيات (٥، ٦، ٨، ١٠، ١٢، ١٥، ١٨) في بهجة المجالس للقرطبي ١/٥٢، والأبيات (٥، ١٣، ١٥) في ربيع الأبرار ٤/١٨٥، والأبيات (٤- ٨) في مروج الذهب ٢/١٨٨.

١٢- إن شئتُ من مُحكَم الآثارِ يرفعُها إلى النبيِّ ثِقاتٌ خِيرةٌ نُجُبُ
١٣- أو شئتُ من عَرَبٍ علماً بأوَّلِهم في الجاهليَّة أنبتْني به العرب
١٤- أو شئتُ منْ سِيَرِ الأملاك منْ عَجَمٍ تُنْبي وتُخْبرُ كيف الرأيُ والأدبُ
١٥- حتَّى كأنِّيَ قد شاهدتُ عصرَهُمُ وقد مضَتْ دونهم من دَهرِهم حِقَبُ
١٦- يا قائلاً قصُرَت في العلم نُهْيَتُهُ أمسى إلى الجهل فيما قال ينتسبُ
١٧- إنَّ الأوائل قد بانوا بعلمهم خلافَ قولِك قد بانوا وقدْ ذهبوا
١٨- ما ماتَ منا امرؤ أبقَى لنا أدباً نكون منه إذا ما مات نَكتسبُ

وقال أبو وَجْزة وهو يصف صحيفةً كُتب له فيها بستِّينَ وَسْقاً: [من البسيط]

راحَتْ بستِّين وَسْقاً في حقيبتها ما حُمِّلَتْ حِمْلَها الأدنى ولا السِّدَدا[١]
ما إنْ رأيتُ قلوصاً قبلها حَمَلتْ ستِّينَ وَسقاً وما جابت به بلدَا

وقال الراجز: [من الرجز]

تَعلَّمَنْ أنَّ الدواةَ والقلَمْ تَبقى ويُفْني حادثُ الدَّهر الغَنَمْ[٢]

يقول: كتابُكَ الذي تكتبُه عليَّ يبقى فتأخذني به، وتذهب غنَمي فيما يذهب.

٦٤ - [فضل الكتاب في نشر الأخبار]

ومِّما يدلُّ على نفع الكتاب، أنَّه لولا الكتابُ لم يجُزْ أن يعلمَ أهل الرَّقَّة والموصل وَبغدادَ وواسط، ما كان بالبصرة، وما يحدث بالكوفة في بياض يوم، حتَّى تكون الحادثةُ بالكوفة غُدوة، فتعلمُ بها أهل البصرة قبلَ المساءَ.

وذلك مشهورٌ في الحمام الهدَى، إذا جُعلت بُرُداً، قال اللّه جلّ وعزَّ ـ وذكر سليمانَ وملكه الذي لم يؤت أحداً مثله ـ فقال ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيرَ فَقَالَ مَا ليَ لاَ أَرَى الهُدْهُدَ﴾[٣] إلى قوله: ﴿أَوْ لأَذْبَحنَّهُ أَوْ لَيَأتِيَنِّي بسلْطَان مُبينٍ﴾[٣] فلمْ يلبثْ أن قال الهُدْهُدُ ﴿جئْتُكَ منْ سَبإٍ بنَبإٍ يَقينٍ. إِنِّي وَجدْتُ امرَأَةً تَملكُهُمْ، وأوتيَتْ منْ كُلِّ شَيءٍ، وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[٣] قال سليمان ﴿اذْهَبْ بكتابي هذَا فَأَلْقهْ إِلَيهِمْ﴾[٤] وقد

---

(١) الأغاني ١٢/١٤٣.
(٢) الرجز بلا نسبة في الجمهرة ٨٤٤. ورواية البيت الثاني في الجمهرة: (تبقى ويودي ما كتبت بالغنمْ).
(٣) سورة النمل، الآيات ٢٠- ٢١ - ٢٢ - ٢٣.
(٤) النمل:٢٨.

كان عندَه مَن يبلِّغ الرسالةَ على تمامها، من عِفريت، ومن بعض مَن عنده علمٌ من الكتاب، فرأى أنَّ الكتابَ أبهى وأنبَلُ، وأكرمُ وأفخمُ من الرسالة عن ظهر لسان، وإن أحاطَ بجميعِ ما في الكتاب. وقالت مَلكةُ سَبأ ﴿يَا أَيُّها المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِليَّ كِتَابٌ كرِيمٌ ﴾[1]. فهذا مما يدل على قدْر اختيار الكتب.

٦٥ [تسخير الكتابة لأمور الدين والدنيا]

وقد يريد بعضُ الجلَّة الكبارِ، وبعضُ الأُدباء والحكماء، أن يدعو بعضَ مَن يجري مَجْراه في سلطانٍ أوْ أدَب، إلى مأدُبة أو ندام[2]، أو خُروجَ إلى متنزَّه، أو بعض ما يشبهُ ذلك، فلو شاءَ أن يبلِّغَهُ الرسولُ إرادته ومعناه، لأصابَ من يُحسن الأَداء، ويصدُق في الإبلاغ، فيرى أنَّ الكتاب في ذلك أسرى وأنبَه وأبلغ.

ولو شاءَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم، ألاَّ يكتبَ[3] الكتبَ إلى كسرَى، وقَيْصَرَ، والنَّجَاشيِّ، والمقوقِس، وإلى ابني الجُلَنْدَى، وإلى العباهلة من حمير، وإلى هوذَة بن علي، وإلى الملوك والعظماء، والسادة النجباء، لفعل، ولوجد المبلِّغَ المعصوم من الخطأ والتبديل، ولكنَّهُ عليه الصلاة والسلام، علِم أنَّ الكتابَ أشبهُ بتلك الحال، وأليق بتلك المراتب، وأبلغُ في تعظيم ما حواه الكتاب.

ولو شاء الله أن يجعَل البشارات على الألسنة بالمرسلين، ولم يودعها الكتب لفعل، ولكنه تعالى وعزّ، علم أن ذلك أتمُّ وأكمل، وأجمع وأنبل.

وقد يكتب بعضُ من له مرتبةٌ في سلطان أو ديانة، إلى بعض من يشاكله، أو يجري مجراه، فلا يرضى بالكتاب حتَّى يخزمه ويختمه، وربَّما لم يرض بذلك حتى يُعَنْونه ويعظمه، قال الله جلَّ وعز: ﴿أمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِماَ في صُحُفِ مُوسَى وإبْراهيمَ الَّذي وَفَّى ﴾[4] فذكر صحف موسى الموجودة، وصحفَ إبراهيم البائدة المعدومة. ليعرف الناس مقدارَ النفع، والمصلحة في الكتب.

٦٦ - [نظام التوريث عند فلاسفة اليونانية]

قالوا: وكانت فلاسفة اليونانية، تورث البنات العَين، وتورث البنين الدين:

---

(١) ٢٩: النمل/٢٧.

(٢) الندام: مصدر نادمة، اي جالسة على الشراب.

(٣) رسائل الجاحظ ١/١٨٥، في رسالة «فخر السودان على البيضان».

(٤) ٣٧: النجم/٥٣.

وكانت تصل العجز بالكفاية، والمؤونة بالكلفة. وكانت تقول: لا تورثوا الابنَ من المال، إلاّ ما يكونُ عوناً له على طلب المال، واغذُوه بحلاوة العلم، واطبَعوه على تعظيم الحكمة، ليصير جمْع العلم أغلبَ عليه من جمع المال، وليرى أنَّه العُدَّة والعتاد، وأنّه أكرم مستفاد.

وكانوا يقولون: لا تورِّثوا الابن من المال إلاّ ما يسد الخلة، ويكون له عوناً على درك الفضول، إن كان لا بُدَّ من الفضول؛ فإنَّه إن كان فاسداً زادت تلك الفضول في فساده، وإن كان صالحاً كان فِيما أورثتموه من العلم وبقّيتم له من الكفاية، ما يكسبه الحال، فإن الحال أفضلُ من المال، ولأنَّ المأل لم يَزَلْ تابعاً للحال. وقد لا يتبع الحال المال. وصاحب الفضول بعرَض فساد، وعلى شفا إضَاعة، مع تمام الحنكَة، واجتماع القوَّة، فما ظنُّكم بها مع غرارة الحداثة، وسوء الاعتبار، وقلة التجربة.

وكانوا يقولون: خير ميراثٍ ما أكسبك الأركان الأَربعة، وأحاط بأصول المنفعة، وعجَّل لك حلاوة المحبة، وبقّى لك الأحدوثة الحسنة، وأعطاك عاجل الخير وآجله، وظاهره وباطنه.

وليس يجمع ذلك إلاّ كرامُ الكتب النفيسة، المشتملة على ينابيع العلم، والجامعة لكنوز الأَدب، ومعرفةِ الصناعات، وفوائدِ الأَرفاق، وحجج الدين الذي بصحته، وعند وضوح برهانه، تسكن النفوس، وتثلج الصدور. ويعود القلب معموراً، والعزُّ راسخاً، والأَصل فسيحاً.

وهذه الكتب هي التي تزيد في العقل وتشحذه، وتداويه وتصلحه، وتهذبه. وتنفي الخَبَث عنه. وتفيدك العلم. وتصادق بينك وبين الحجَّة، وتعوّدك الأَخذ بالثقة. وتجلب الحالَ. وتكسب المال.

٦٧ - [وراثة الكتب]

ووراثة الكتب الشريفة، والأَبواب الرفيعة، منبهة للمورِّث، وكنز عند الوارث، إلا أنه كنز لا تجب فيه الزكاة، ولا حقُّ السلطان. وإذا كانت الكنوز جامدة، ينقصها ما أخذ منها، كان ذلك الكنز مائعاً يزيده ما أخذ منه، ولا يزال بها المورِّث مذكوراً في الحكماء ومنوّهاً باسمه في الأسماء، وإماماً متبوعاً وعَلماً منصوباً، فلا يزال الوارث محفوظاً، ومن أجله محبوباً ممنوعاً، ولا تزال تلك المحبَّة نامية، ما كانت تلك

الفوائد قائمة، ولن تزال فوائدها موجودةً ما كانت الدار دار حاجة، ولن يزال من تعظيمها في القلوب أثر، ما كان من فوائدها على الناس أثر.

وقالوا: من ورَّثته كتاباً، وأودعته علماً، فقد ورثته ما يُغِل ولا يَستَغِلّ، وقد ورثته الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة ، ولا إلى سقي، ولا إلى إسجال بإيغار[1]، ولا إلى شرط، ولا تحتاج إلى أكّار[2]، ولا إلى أن تُثار، وليس عليها عُشر، ولا للسلطان عليها خَرْج. وسوَاء أفدته علماً أو ورثته آلة علم، وسواءٌ دفْعُك إليه الكفايةَ، أو ما يجلب الكفاية. وإنما تجري الأمور وتتصرف الأفعال على قدر الإمكان، فمن لم يقدر إلاّ على دفع السبب، ولم يجب عليه إحضار المسبَّب، فكتُب الآباء، تحبيب للأحياء، ومحي لذكر الموتى.

وقالوا: ومتى كان الأديب جامعاً بارعاً. وكانت مواريثه كتباً بارعة، وآداباً جامعة، كان الولد أجدر أن يرى التعلُّم حظاً، وأجدر أن يسرع التعليمُ إليه ، ويرى تركه خطأً. وأجدرَ أن يجري من الأدب على طريق قد أنهج له، ومنهاج قد وطئ له. وأجدرَ أن يسري إليه عِرقْ مَن نَجله، وسقي من غرسه، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكسْب، النظر في الكتب ، فلا يأتي عليه من الأيَّام مقدارُ الشغل بجمع الكتب، والاختلاف في سماع العلم، إلا وقد بلغ بالكفاية وغاية الحاجة. وإنَّما تُفسد الكفاية من له تمت آلاته. وتوافت إليه أسبابه، فأما الحدَث الغرير، والمنقوص الفقير ، فخير مواريثه الكفاية إلى أن يبلغ التمام، ويكمل للطلب. فخير ميراثٍ وُرّث كتبٌ وعلم، وخير المورّثين من أورث ما يجمع ولا يفرِّق، . ويبصِّر ولا يُعمي. ويُعطي ولا يأخذ. ويجود بالكلِّ دون البعض. ويدع لك الكنزَ الذي ليس للسلطان فيه حقّ. والرِّكازَ[3] الذي ليس للفقراء فيه نصيب، والنِّعمةَ التي ليس للحاسد فيها حيلة. ولا لِلُّصُوصِ فيها رغبة، وليس للخصم عليك فيه حجَّة، ولا على الجار فيه مَؤونة.

٦٨ - [أوجه تأليف كتب العلم]

وأما ديمقراط فإنه قال: ينبغي أن يعرف أنه لا بدَّ من أن يكونَ لكلِّ كتابٍ علمٍ وضعَه أحدٌ من الحكماء، ثمانيةُ أوجه: منها الهمَّة، والمنفعة، والنسبةُ ، والصحَّةُ، والصِّنف، والتأليف، والإسناد،والتدبير، فَأَوَّلُها أن تكون لصاحبه هِمَّة، وأن

(١) أسجل الأمرَ: أطلقه. الإيغار: الأرض التي ليس عليها خراج.
(٢) الأكار: الحرّاث أو الزرّاع.
(٣) الركاز: كنوز الجاهلية المدفونة تحت الأرض. النهاية ٢ /٢٥٨.

يكون فيما وضع منفعة، وأن يكون له نسبة يُنْسَب إليها، وأن يكون صحيحاً، وأن يكون على صِنف من أصناف الكتب معروفاً به، وأن يكون مؤتلفاً من أجزاء خمسة، وأن يكون مسنداً إلى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير موصوف.

فذُكِر أن أبقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه في هذا الكتاب، وهو كتابه الذي يسمى (أفوريسموا)، تفسيره كتاب الفصول.

٦٩ - [تشبيه الكلب بالخلق المركب]

وقولك: وما بلغَ من قدر الكلب مع لؤم أصله ، وخُبث طبعه، وسقوط قدره، ومهانة نفسه، ومع قلَّةِ خيره وكثرة شره، واجتماع الأمم كلِّها على استسقاطه، واستسفاله، ومع ضربهم المثل في ذلك كلِّه به ، ومع حاله التي يعرف بها، ومن العجز عن صولة السِّباع واقتدارها، وعن تمنُّعها وتشرُّفها، وتوحُّشها وقلة إسماحها، وعن مسالمة البهائم وموادعتها، والتمكين من إقامة مصلحتها والانتفاع بها، إذ لم يكن في طبعها دفع السباع عن أنفسها، ولا الاحتيال لمعاشها، ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع المخُوفة، ولأنَّ الكلب ليس بسبع تام، ولا بهيمة تامة، حتى كأنه من الخلْق المركَّب والطبائع الملفَّقة، والأخلاط المجتلبة، كالبغل المتلوِّن في أخلاقه، الكثير العيوب المتولِّدة عن مزاجه.

٧٠ - [الطبائع الملفقة][١]

وشرّ الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتضادَّة. والأخلاق المتفاوتة، والعناصر المتباعدة، كالراعبيِّ من الحمام، الذي ذهبت عنه هداية الحمام[٢]، وشكلُ هديره وسرعة طيرانه، وبطل عنه عمر الورَشان، وقوَّة جناحه وشدة عصبه، وحسنُ صوته، وشَحْو[٣] حلقه، وشكل لحونه، وشدَّة إطرابه، واحتماله لوقع البنادق وجرح المخالب، وفي الراعبي أنّه مُسرْوَل مثقل، وحدث له عِظَمُ بدن، وثقل وزن لم يكن لأبيه ولا لأمّه.

وكذلك البغل، خرج من بين حيوانين يلدان حيواناً مثلهما، ويعيش نتاجُهما ويبقى بقاءَهما، وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم، ولا يبقى للبغلة ولد وليست

---

(١) انظر ما سيأتي في الفقرة ٩٩.

(٢) الراعبي: هو من نتاج ما بين الورشان والحمام. انظر رسائل الجاحظ ٢ / ٢٩٧.

(٣) الشحو: الواسع. اللسان (شحو).

بعاقر، فلو كان البغل عقيماً، والبغلة عاقراً، لكان ذلك أزيدَ في قوتهما، وأتمَّ لشدتهما، فمع البغل من الشّبق والنَّعظ ما ليس مع أبيه، ومع البغلة من السَّوَس[1]، وطلب السفاد، ما ليس مع أمِّها. وذلك كلُّهُ قدح في القوَّة، ونقص في البنية. وخرج غرموله أعظم من غراميل أعمامه وأخواله، فترك شبههما، ونزع إلى شيء ليس له في الأرض أصل، وخرج أطول عمراً من أبويه، وأصبرَ على الأثقال من أبويه.

أو كابن المذكَّرة من النساء، والمؤنث من الرجال، فإنه يكون أخبث نتاجاً من البغل، وأفسد أعراقاً من السِّمع، وأكثر عيوباً من العِسبار[2]، ومنْ كلّ خلقٍ خلق إذا تركب من ضدّ، ومن كل شجرة مُطَعَّمَةٍ بخلاف[3].

وليس يعتري مثلُ ذلك الخِلاسيّ من الدجاج، ولا الورداني[4] من الحمام.

وكلُّ ضعف دخل على الخلقة، وكل رقَّة عرضت للحيوان، فعلى قدر جنسه. وعلى وزن مقداره وتمكنه، يظهر العجزُ والعيب.

وزعم الأصمعيُّ، أنَّه لم يسبق الحلبةَ فرسٌ أهضم قط.

وقال محمد بن سلاّم: لم يسبق الحلبة أبلق قط ولا بلقاء.

والهداية في الحمام، والقوَّة على بعد الغاية[5]. إنما هي للمصْمَتَة[6] من الخضر.

وزعموا أنَّ الشِّيات كلَّها ضعف ونقص - والشِّيَةَ: كلُّ لون دخلِ على لون - وقال اللّه جلّ وعزّ: ﴿إنّه يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ ولاَ تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَشِيَةَ فيهَا﴾[7].

وزعم عثمان بن الحكم أنَّ ابن المذكرة من المؤنث، يأخذ أسوأ خصال أبيه، وأردأ خصال أمه، فتجتمع فيه عظام الدواهي، وأعيان المساوي[8]، وأنَّه إذا خرج

---

(١) سَوِست البغلة: اغتلمت. انظر رسائل الجاحظ ٢/٣٢٠.

(٢) السمع: ولد الذئب من الضبع، والعسبار: ولد الضبع من الذئب. انظر رسائل الجاحظ ٢/٢٩٧. وسيذكر الجاحظ ذلك هنا ص ١١٩.

(٣) انظر رسائل الجاحظ ٢/٢٥٦.

(٤) الورداني: طائر متولد بين الورشان والحمام، وله غرابة لون. حياة الحيوان ٢/٤١٤.

(٥) الغاية: المسافة التي يقطعها حمام الزاجل.

(٦) المصمتة: التي لا يخالط لونها لون آخر.

(٧) ٧١: البقرة/٢.

(٨) ورد قول عثمان بن الحكم في رسائل الجاحظ ٢/٢٥٦.

كذلك، لم ينجع فيه أدب، ولا يَطمع في علاجه طبيب، وأنَّه رأى في دور ثقيف، فتًى اجتمعتْ فيه هذه الخصال، فما كان في الأرض يومٌ، إلاَّ وهم يتحدثون عنه بشيءٍ، يصغُر في جنْبِه أكبرُ ذنبٍ كان يُنسَب إليه!

وزعمت َ أنَّ الكلب في ذلك كالخنثى، والذي هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالخصي الذي لمَّا قُطع منه ما صار به الذَّكر فحلاً، خرجَ من حدِّ كمالِ الذكَر بفقدان الذكَر، ولم يكملْ لأن يصير أنثى، للغريزة الأصلية، وبقيّةِ الجوهريّة.

وزَعَمْتَ أنَّه يصير كالنبيذ الذي يفسده إفراطُ الحرّ، فيخرجه من حدِّ الخل، ولا يدخلهُ في حدِّ النبيذ.

وقال مرداس بن خذام: [من الطويل]

سَقَينا عقالاً بالثَّويّة شَرْبَةً فمالت بلُبِّ الكاهليِّ عقالِ[1]
فقُلتُ اصطَبِحْها يا عقالُ فإنَّما هي الخمرُ خَيَّلْنا لها بِخَيالِ
رَمَيْتُ بأُمِّ الخلِّ حبَّةَ قلبه فلم ينتعش منها ثلاثَ ليالِ

فجعل الخمر أُمَّ الخلّ قد يتولد عنها. وقد يتولّد عن الخل - إذ كان خمراً مرة - الخمرُ.

وقال سعيد بن وهب: [من الكامل]

هَلاَّ وأنت بماء وجهك تُشْتَهَى رَوْدَ الشَّباب قليلَ شَعْرِ العارض!
فالآن حين بدَتْ بخدِّك لحية ذهَبَتْ بملحك مثل كفِّ القابضِ
مثل السلافة عادَ خمرُ عصيرها بعدَ اللَّذاذة خَلَّ خمرٍ حامضِ

ويصير أيضاً كالشعر الوسط، والغناء الوسط، والنادرة الفاترة، التي لم تخرج من الحرِّ إلى البرد فتضحك السِّن، ولم تخرُج من البرد إلى الحر فتضحك السِّن.

(١) الثوية: موضع بالكوفة. معجم البلدان ٢ / ٨٧.

بــــاب
ذكر مايعتري الإنسان بعد الخصاء وكيف ماكان قبل الخصاء

قالوا: كلُّ ذي ريح مُنتنةٍ ، وكُلُّ ذي دَفْرٍ وصُنَان كريه المشَمَّة، كالنَّسر وما أشبهه، فإنَّه متى خُصي نقص نَتنُه وذهبَ صُنانه،غيرَ الإنسانَ، فإنَّ الخصيَّ يكون أنتنَ، وصنانُه أحدَّ، ويعمُّ أيضاً خبْثُ العرقِ سائرَ جسده، حتى لَتُوجَد لأجسادهمْ رائحةٌ لا تكون لغيرهم. فهذا هذا.

وكلُّ شيءٍ من الحيوان يُخصَى فإنَّ عظمَه يدقُّ، فإذا دقَّ عظمُه استرخَى لحمه، و تبرَّأ من عظمه، وعاد رَخْصاً رطْباً، بعد أن كانَ عَضلاً صُلباً، والإنسان إذا خُصِيَ طال عظمُه وعرُض، فخالف أيضاً جميعَ الحيوان من هذا الوجه.

وتعرض للخصيان أيضاً طول أقدامٍ، واعوجاج في أصابع اليد، والتواءٌ في أصابع الرِّجْل، وذلك مِن أوَّلِ طعْنهم في السنِّ. وتعرِض لهم سرعة التغيُّر والتبدُّل، وانقلاب من حدِّ الرطوبة والبضاضة ومَلاسة الجلد، وصفاءِ اللون ورقَّته، وكثرةِ الماء وبريقه، إلى التكرُّش والكمود، وإلى التقبُّض والتخَدُّد، وإلى الهُزال، وسوء الحال. فهذا الباب يعرِض للخصيان، ويعرض أيضاً لمعالجي النبات من الأكرة من أهل الزرع والنخل، لأنَّكَ ترى الخصيَّ وكأنَّ السيوفَ تلمع في لونه، وكأنَّه مرُآةٌ صينيَّة، وكأنه وَذيلة مجلوَّة، وكأنه جُمَّارَة رَطْبة، وكأنه قضيبُ فضَّةٍ قد مسَّهُ ذهب، وكأن في وجناته الورد، ثم لا يلبثُ كذلك إلا نُسَيْئاتٍ[1] يسيرةً، حتى يذهبَ ذلك ذَهاباً لا يعود، وإن كان ذا خِصبٍ، وفي عيش رَغَد، وفي فراغ بالٍ، وقلَّةِ نصَب.

٧١ - [طرائف عبد الأعلى القاصّ]

وكان من طرائف ما يأتي به عبد الأعلى القاصّ، قوله في الخصي، وكان لغلبة

١- النسيئات: المراد بها الوقت القليل.

السلامة عليه يُتوهَّم عليه الغفلة، وهو الذي ذكر الفقيرَ مرة في قصصه فقال[1]: الفقير مرقته سُلْقة، ورداؤه عِلْقة، وجَرْدَقته فِلْقة، وسمكته شِلقَة، وإزاره خرقة[2].

قالوا: ثمَّ ذكر الخَصيَّ فقال: إذا قُطعت خُصيته، قَويت شَهوته وسخُنت مَعِدته، ولانَتْ جلدتُه، وانجردت شَعْرته، واتَّسعت فَقْحته، وكثُرتْ دمعته!!

وقالوا: الخصيُّ لا يصلَع كما لا تصلَع المرأة، وإذا قطع العضوُ الذي كان به فحلا تامّا، أخرجه ذلك من أكثرِ معاني الفحول وصفاتهم، وإذا أخرجه من ذلك الكمال، صيَّره كالبغل الذي ليس هو حماراً ولا فرساً، وتصيرُ طباعُه مقسومةً على طباعِ الذكر والأنثى، وربما لم يَخْلُص له الخلقُ ولم يَصْفُ، حتّى يصير كالخلق من أخلاق الرجال، أو يلحق بمثله من أخلاق النساء، ولكنَّه يقع ممزوجاً مركباً، فيخرج إلى أن يكون مذبذباً، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وربما خرجت النتيجة وما يولّده التركيب، عن مقدار معاني الأبوين، كما يجوزُ عمرُ البغْل عمرَ أبويه، وكذلك ما عددنا في صدر هذا الكلام.

٧٢ - [طلب النسل]

وقالوا: وللإنسان قوًى معروفةُ المقدار، وشهواتٌ مصروفةٌ في وجوهِ حاجات النفوس، مقسومةٌ عليها. لا يجوزُ تعطيلُها وتركُ استعمالها ما كانت النفوسُ قائمةً بطبائعها ومِزاجاتها وحاجاتها. وبابُ المنكَح مِن أكبرِها، وأقواها، وأعمّها.

ويدخل في باب المنكَح ما في طبائِعهم من طلبِ الولد، وهو بابٌ من أبوابهم عظيم؛ فمنهم من يطلبه للكثرة والنُّصرة، وللحاجة إلى العدد والقوَّة، ولذلك استلاطت العربُ الرجالَ، وأغضتْ[3] على نسب المولود على فراش أبيه، وقد أحاط علمُه بأنَّه من الزوج الأوَّل. قال الأشهبُ بن رُمَيلة: [من البسيط]

قال الأقاربُ لا تغرُرْكَ كثرتُنا وأَغْنِ نفسَكَ عنَّا أيها الرجُلُ[4]

---

(١) ورد قول عبد الأعلى في البخلاء ١٠٦، عيون الأخبار ٢/٤٦.

(٢) (السلقة): الجرادة، لعله يريد أنه يجتزئ من المرق بالقليل منه؛ حتى إنه ليكفيه مرق جرادة واحدة. و(العلقة): شجر يبقى في الشتاء تتبلغ به الإبل حتى تدرك الربيع. (الفلقة): الكسرة. (الجردقة): الرغيف. (الشلقة): شيء على خلقة السمكة، صغير له رجلان عند ذنبه كرجل الضفدع، لا يدّبِن له، يكون في أنهار البصرة.

(٣) أغضت: سكتت.

(٤) البيتان للأشهب بن رميلة في ديوانه ٢٣٧، والبيان ٣/٦٦، وهما لنهشل بن حري في ديوانه ١١٨- ١١٩، والوحشيات ١١٨.

عَلَّ بَنِيَّ يشدُّ اللّهُ كثرتَهم　　　والنَّبْعُ يَنْبُتُ قُضْباناً فيكتهل

وقال الآخَر: [من الرجز]

إنَّ بَنِيَّ صِبْيَةٌ صَيْفِيُّونْ　　　أَفْلَحَ مَنْ كان لَهُ رِبْعِيُّونْ[1]

يشكو كما ترى صِغَر البنين، وضعف الأسر.

وما أكثر ما يطلب الرجل الوَلدَ نفاسةً بماله على بني عمّه، ولإشفاقه من أن تليه القضاةُ وترتع فيه الأمناء، فيصيرَ مِلكاً للأولياء، ويقضي به القاضي الذّمامَ ويصطنع به الرجال.

وربما همَّ الرجلُ بطلب الولد لبقاء الذكْر، وللرغبة في العقب، أو على جهة طلَب الثواب في مباهاة المشركين، والزيادة في عدد المسلمين، أو للكسب والكفَاية، وللمدافعة والنُّصْرة، وللامتناع، وبقاء نوع الإنسان، ولما طبع اللّه تعالى تعالى بني آدم عليه، من حبِّ الذُّرِّيَّة وكثرة النسل، كما طبع اللّه تعالى الحمام والسنانير على ذلك، وإن كان إذا جاءه الولد زاد في هَمِّه ونصبه، وفي جُبْنه وبخْله، وقد قال النبي ﷺ: «الْوَلَد مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَجْهَلَةٌ»[2] فيحتمل في الولَد المؤَن المعروفة، والهموم الموجودة لغير شيء قصَد له، وليس في ذلك أكثرُ من طلب الطباع، ونزوعِ النفس إلى ذلك.

وذكر أبو الأخزَر الحِمَّاني عَير العانة بخلاف ما عَليه أصحابُ الزِّواج من الحيوان، فقال عند ذكر سِفاده: [من الرجز]

* لا مُبتَغِي الذرْء ولا بالعازِلِ *

لأنَّ الإنسانَ من بين الحيوان المُزَاوِج، إذا كرِهَ الولدَ عزَل، والمزاوج من أصناف الحيوانات إنَّما غايتُها طلبُ الذرْء والولد. لذلك سُخِّرت، وله هيِّئت، لما أراد اللّه تعالى من إتمامِ حوائج الإنسانِ. والحمارُ لا يطلبُ الولدَ، فيكون إفراغَه في الأتان لذلك، ولا إذا كان لا يريد الولدَ عزَل كما يعزل الإنسان، غير أنّ غايتَه قضاءُ الشهوة فقط، ليس يَخْطُر على باله أنَّ ذلك الماءَ يُخلَق منه شيء.

وروى ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبيدة قال: «ليس في البهائم شيء يعمل عمل قوم لوط إلا الحمار».

---

(١) الرجز لسعد بن مالك بن ضبيعة في اللسان والتاج (ربع)، وللأكثم الصيفي في التاج (صيف)، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٢ / ٣٧١، والجمهرة ٣١٧، والمقاييس ٣ / ٣٢٦ والمخصص ١ / ٣٠.

(٢) الحديث في النهاية ١ / ١٠٣، وغريب ابن الجوزي ١ / ١٨٢– ١٨٣.

وعامَّة اكتساب الرجال وإنفاقهم، وهمِّهم وتصنُّعهم، وتحسينهم لما يملكون، إنَّما هو مصروفٌ إلى النساء والأسباب المتعلقة بالنساء، ولو لم يكن إلاّ التنمُّص والتطيُّب والتطوُّس والتَّعرُّس[1] والتخضُّب، والذي يُعَدُّ لها من الطيب والصِّبغ، والحَلْي، والكِساءِ، والفُرُش، والآنية، لكان في ذلك ما كفى. ولو لم يكن له إلاّ الاهتمامُ بحفظها وحراستها، وخوفُ العارِ من جنايتها والجناية عليها، لكان في ذلك المؤْنةُ العظيمة، والمشقة الشديدة.

٧٣ - [سبب شرَه الخصي]

فإذا بطل العضوُ الذي من أجله يكون اشتغالُ النفس بالأصناف الكثيرة، من اللذَّة والألَم، فباضطرارٍ أنْ تعلَمَ أنَّ تلك القوَى لم تَبطل من التركيب، ولم تَعدَمْها الخلقة، وإنَّما سُدَّ دونَها بسدٍّ، وأدخل عليها حجاب، فلا بدَّ لها إذا كانت موجودةً من عمل ، لأنَّ عملَ كلِّ جوهرٍ لا يُعدَم إلاّ بعدم ذاته، فإذا صُرِفَتْ من وجهٍ فاضَتْ من وجه. ولا سيما إذا جمَّت ونازعتْ، ولا بُدَّ إذا زخرت وغَزُرت، وطغت وطَمَّتْ، من أن تفيضَ أوِ تفتح لنفسها باباً، وليس بعد المنكح بابٌ له موقعٌ كموقعِ المطعم، فاجتمعت تلك القوى التي كانت للمنكَح وما يشتمل عليه باب المنكح، إلى القوَّة التي عنده للمطعم، فإذا اجتمعت القوَّتان في بابٍ واحد كان أبلغ في حكمه، وأبعدَ غايةً في سبيله، ولذلك صارَ الخَصيُّ آكَلَ من أخيه لأمِّه وأبيه، وعلى قدرِ الاستمراء يكون هضمه، وعلى قدر حاجةِ طبعه وحركة نفسه والحرارةِ المتولِّدةِ عن الحركة يكونُ الاستمراء، لأن الشهوة من أمتن أبواب الاستمراء، والحركة من أعظم أبواب الحرارة.

٧٤ - [شدة نهم الإناث]

ودوامُ الأكل في الإناثِ أعمُّ منه في الذكور، وكذلك الحجْرُ دون الفرَس، وكذلك الرَّمَكة دونَ البرذَون، وكذلك النعجة دونَ الكبش، وكذلك النساءُ في البيوت دونَ الرجال. وما أشكُّ أنَّ الرجلَ يأكلُ في المجلسِ الواحد ما لا تأكل المرأة، ولكنَّها تستوفي ذلك المقدارَ وتُربي عليه مقطَّعاً غيرَ منظوم، وهي بدوامِ ذلك منها، يكون حاصلُ طعامها أكثرَ. وهنَّ يُناسبْن الصبيانَ في هذا الوجه، لأنَّ طبعَ الصبيِّ سريعُ الهضم، سريعُ الكلَب، قصيرُ مدَّة الأكل، قليلُ مقدارِ الطُّعْم، فللمرأة كثرةُ معاودتها، ثمَّ تَبِينُ بكثرةِ مقدارِ المأكول. فيصير للخَصيِّ نصيبان: نصيبُه من شِبْه

---

(١) التنمص: نتف الشعر. التطوس: التزين. التعرس: التودد.

النساء، ثم اجتماعُ قوى شهوتيه في بابٍ واحد، أعني شهوةَ المنكَح التي تحولت، وشهوةَ المطعم.

قال، وقيل لبعض الأعراب: أيُّ شيء آكَلُ؟ قال: بِرْذَونَة رَغُوث[1].

ولشدَّة نَهَم الإناث، صارت اللبؤة أشدَّ عُراماً وأنزقَ، إذا طلبت الإنسانَ لتأكله، وكَذلك صارت إناثُ الأَجناس الصائدة أصيَدَ، كالإناثِ من الكلاب والبُزاة وما أشبهَ ذلك، وأحرصَ ما تكونَ عندَ ارتضاع جِرائها من أطبائها، حتَّى صار ذلك منها سبباً للحرص والنَّهم في ذلك.

٧٥ - [صوت الخصي]

ويعرض له عند قطع ذلك العضوِ تغيُّرُ الصوت، حتى لا يخفى على من سمعه من غير أن يرى صاحبَه أنَّه خَصِيٌّ، وإن كان الذي يخاطبه ويناقله الكلام أخاه أو ابنَ عمِّه، أو بعضَ أترابه من فُحولة جنسه، وهذا المعنى يعرض لخصيان الصقالبَة أكثر ممَّا يعرِض للخراسانية، وللسودان من السِّنْد والحُبْشان. وما أقلَّ مَن تجده ناقصاً عن هذا المقدار، إلاّ وله بيضة أو عِرْق، فليس يُحتاج في صِحَّة تمييزِ ذلك، ولا في دقة الحسِّ فيه، إلى حِذقٍ بقيافة، بل تجد ذلك شائعاً في طباع السِّفلة والغَثْرَاء[2]، وفي أجناس الصِّبيان والنساء.

٧٦ - [شَعر الخصي]

ومتى خُصي قبلَ الإنباتِ لم يُنْبِتْ، وإذا خُصِي بعد استحكام نباتِ الشعر في مواضعه، تساقط كله إلاّ شعرَ العانة، فإنه وإن نقَص من غلظه ومقدارِ عَدده فإنَّ الباقيَ كثير. ولا يعرِضُ ذلك لشعر الرأس، فإنَّ شعرَ الرأس والحاجبين وأشفار العينين يكون مع الولادة، وإنما يعرض لما يتولد من فضول البدن.

وقد زعم ناسٌ أنَّ حكمَ شعر الرأس خلافُ حكم أشفار العينين، وقد ذكرنا ذلك في موضعه من باب القول في الشعر، وهذه الخصال من أماكن شَعر النساء، والخصيان والفحولة فيه سواء، وإنما يعرض لسوى ذلك من الشعر الحادثِ الأصول، الزائدِ في النبات. ألا ترى أن المرأة لا تصلَعُ، فناسبها الخصيُّ من هذا الوجه، فإنْ

---

(١) رغوث: مرضعة. والخبر في رسائل الجاحظ ٢ / ٣٤٠ «كتاب البغال» والبيان ٣ / ٢١٢.

(٢) الغثراء: سفلة الناس.

عرضَ له عارضٌ فإنما هو من القرَع، لا من جهة النَّزَع والجَلَح، والجَلَه والصَّلَع[1] وكذلك النساء في جميع ذلك.

والمرأة ربَّما كان في قَصَاص مقاديم شعرِ رأسها ارتفاع، وليس ذلك بنزَعٍ ولا جلَح، إذا لم يكن ذلك حادثاً يُحدثه الطعنُ في السنّ.

وتكون مقاطعُ شعر رأسه ومنتهى حدود قُصاصه، كمقاطع شعر المرأة ومنتهى قُصاصها، وليس شعرُها كلما دنا من موضع الملاسَة والانجراد يكون أرقَّ حتى يقلَّ ويضمحلَّ، ولكنه ينبُت في مقدارِ ذلك الجلد على نبات واحد، ثم ينقطع عند منتهاه انقطاعاً واحداً. والمرأة ربَّماَ كانت سبلاءَ، وتكون لها شَعَراتٌ رقيقة زَغَبيَّةٌ كالعذار موصولاً بأصداغها، ولا يعرض ذلك للخَصي إلا من علة في الخصاء، ولايرى أبداً بعد مقطَع من صُدْغَيه شيءٌ من الشَّعر، لا من رقيقه ولا من كثيفه.

٧٧ - [ذوات اللحى والشوارب]

وقد توجد المرأة ذات لحية. وقد رأيت ذلك، وأكثرُ ما رأيته في عجائزِ الدَّهاقين، وكذلك الغَبَب[2] والشارب، وقد رأيت ذلك أيضاً. وهي ليست في رأي العين بخُنْثى، بل نَجدها أنثى تامَّة . إلا أن تكون لم تضرِب في ذلك بالسبب الذي يقوَى، حتى يظهر في غير ذلك المكان. ولا تعرض اللحى للنساء، إلا عند ارتفاع الحيض، وليس يعرض ذلك للخَصي.

وقد ذكر أهلُ بَغداد، أنَّه كان لابنةٍ من بنات محمَّد بنِ راشد الخنَّاق، لحيةٌ وافرة، وأنّها دخلت مع نساءٍ متنقِّبات إلى بعض الأعراس لترَى العُرس وجَلْوَةَ العَرُوس، ففطنت لها امرأة فصاحت: رجلٌ واللّه! وأحال الخدم والنساءُ عليها بالضرب، فلم تكن لها حيلةٌ إلا الكشفَ عن فرْجها. فنزَعن عنها وقد كادت تموت.

ويفضل أيضاً الخصيُّ المرأةَ في الانجراد والزَّعَر، بان تجدَ المرأة زَبَّاء[3] الذراعين والساقين، وتجد رَكَب[4] المرأة في الشعْر كأنَّه عانَةُ الرجل، ويعرض لها الشعر في إبطيها وغير ذلك.

---

(١) في فقه اللغة للثعالبي ٦١: «إذا انحسر الشعر عن جانبي جبهته فهو أنزع. فإذا زاد قليلاً فهو أجلح، فإذا بلغ الانحسارُ نصف رأسه فهو أجلى وأجله. فإذا زاد فهو أصلع، والفرق بين القرع والصلع أن القرع ذهاب البشرة، والصلع ذهاب الشعر منها».

(٢) الغبب: الجلد الذي تحت الحنك. اللسان: غبب ١/٦٣٧.

(٣) الزباء: الكثير الشعر. اللسان: زبب.

(٤) الركَب: العانة، وقيل منبتها. وقيل: الركب: ظاهر الفرج؛ أو الفرج نفسه. اللسان: ركب ١/٤٣٣- ٤٣٤.

ولا يعرِض للخصيِّ ما يعرض للديك إذا خُصي: أن يذبُلَ غُضروفُ عُرْفِه ولحيته.

والخصاءُ ينقُص من شدَّة الأسر، وينقُض مُبْرَمَ القُوَى، ويُرْخِي مَعاقِدَ العَصَب، ويقرِّب من الهرَم والبِلى.

٧٨ - [مشي الخصي]

ويعرِض للخصيِّ أن يشتدَّ وقعُ رجله على أرض السَّطح، حتى لو تفقَّدتَ وقعَ قدمه وقدَم أخيه الفحل الذي هو أعبلُ(١) منه لوجدتَ لوقْعه ووطْئه شيئاً لا تجده لصاحبه. وكأنَّ العضوَ الذي كان يشدُّ توتير النَّسَا، ومَعاقد الوركين ومعاليق العصب، لَمَّا بطل وذهب الذي كان يمسكُه ويرفعه، فيخفّ لذلك وقْعُ رجلِه، صار كالذي لا يتماسَكُ ولا يحمل بعضه بعضاً.

٧٩ - [أثر الخصاء في الذكاء]

ويعرض له أنَّ أخوين صَقْلَبِيَّيْنِ من أمّ وأب، لو كان أحدهُما توءمَ أخيه، أنَّه متى خُصِيَ أحدُهما خرَج الخَصيُّ منهما أجوَدَ خدمةً، وأفطن لأبواب المعاطاة والمُنَاولة، وهو لها أتقَنُ وبها أليق، وتجده أيضاً أذكى عقلاً عند المخاطبة، فيُخصُّ بذلك كلِّه، ويبقى أخوه على غثارة(٢) فطرته، وعلى غباوة غريزته، وعلى بلاهة الصَّقْلَبيَّة، وعلى سوءِ فهم العجَميّة.

ويدُ الإنسان لا تكون أبداً إلا خرْقاءَ، ولا تصير صَناعاً ما لم تكن المعرفةُ ثقافاً لها. واللسان لا يكون أبرأ، ذاهباً في طريق البيان، متصرفاً في الألفاظ، إلاَّ بعدَ أن تكونَ المعرفةُ متخلِّلَةً به، منقّلة له، واضعةً له في مواضع حقوقِه، وعلى أماكن حظوظِه، وهو علَّةٌ له في الأماكن العميقة، ومصرِّفةٌ له في المواضع المختلفة.

فأوَّلُ ما صنع الخصاءُ بالصَّقْلَبِيِّ تزكيةُ عقله، وإرهافُ حدِّه، وشحْذُ طبعِه، وتحريكُ نفسه. فلما عرَف كانت حركته تابعةً لمعرفته، وقوَّته على قدر ما هيّجه.

فأمَّا نساءُ الصقالبة وصبيانهم، فليس إلى تحويل طبائعهم، ونقْل خَلْقهم إلى الفطنة الثاقبة، وإلى الحركَة الموزونة، وإلى الخدمة الثابتة الواقعة بالموافقة، سبيلٌ.

---

(١) أعبل: أضخم.

(٢) الأغثر: الأحمق.

وعلى حسَب الجهْل يكون الخُرْق، وعلى حسب المعرفة يكون الحذق. وهذا جملةُ القول في نسائهم، وعلى أنّهنَّ لا حظوظَ لهنَّ عند الخلوة، ولا نفاذَ لهنَّ في صناعة؛ إذ كنَّ قد مُنِعن فهمَ المعاطاة ومعرفةَ المناولة.

والخِصيانُ معَ جودة آلاتهم ووَفَارة طبائعهم في معرفةِ أبوابِ الخدْمة. وفي استواء حالهم في باب المعاطاة، لم تر أحداً منهم قطُّ نفَذَ في صناعة تنسب إلى بعضِ المشقَّة، وتضافُ إلى شيءٍ من الحكمة، ممَّا يُعرَف ببُعْد الرَّويَّة، والغوصِ بإدامة الفكرة، إلا ما ذكرُوا من نَفَاذ ثقف في التحريك للأوتار، فإنَّه كانَ في ذلك مقدَّماً، وبه مذكوراً. إلاَّ أنَّ الخصيَّ من صباه، يُحسِن صنعة الدّابوق[1]. ويُجيد دُعاءَ الحمام الطوُّريِّ[2]. وما شئتَ من صغار الصناعات.

وقد زعم البصريُّون أن حَديجاً الخصيّ، خادمَ المُثنّى بن زُهَير، كان يُجاري المُثَنّى في البصَر بالحمام. وفي صحّة الفِراسة، وإتقان المعرفة، وجودة الرياضة. وسنذكُر حالَه في باب القول في الحمام إن شاء اللّه تعالى.

هذا قولهم فيمن خُصي من الصقالبة. وملوكُنا لعقول خِصيان خُراسانَ أحمد، وهم قليل، ولذلك لم نأتِ من أمرهم بشيءٍ مشهور، وأمر مذكور.

٨٠ - [خصيان السند]

وأما السِّند، فلم يكن فيهم أيضاً من الخصيان إلاَّ النَّفرُ الذين كان خصاهم موسى بنُ كعب، وقد رأيت أنا بعضَهم، وزعم لي أنَّه خَصَى أربعةً هو أحدهم، ورأيتُ الخصاء، قد جذبَه إلى حبِّ الحمام، وعملِ التكك[3]، والهراش بالديوك، وهذا شيءٌ لم يُجْرِ منه على عِرق، وإنما قاده إليه قطعُ ذلك العضو.

٨١ - [خصيان الحبشة والنوبة والسودان]

فأمَّا الخصيان من الحُبْشان والنُّوبة وأصناف السودان، فإنّ الخصاءَ يأخذُ منهم ولا يعطيهم، وينقُصهم ولا يزيدهم، ويحطُّهم عن مقادير إخوانهم، كما يزيد الصقالبةَ عن مقادير إخوتهم، لأن الحبشيَّ متى خُصِي سقطَتْ نفسه، وثقُلت حركته، وذهب نشاطه، ولا بدَّ أن يعرض له فساد، لأنه متى استُقْصي جِبابُه لم

---

(١) الدابوق: غراء يصاد به الطير. التاج (دبق).

(٢) الحمام الطوري: الحمام الوحشي.

(٣) التكك: جمع تكة، وهي رباط السراويل.

يتماسك بوله، وسلُس مخرجه، واسترخى الممسك له، فإن هم لم يستقصوا جبابه، فإنما يُدخل الرجل منزله مَن له نصفُ ذلك العضو. وعلى أنك لا تجد منهم خَصياً أبداً، إلاّ وبِسُرَّته بُجْرَةٌ[1]، ونفخة شنيعة، وذلك عيبٌ شديد، وهو ضرب من الفتق، مع قُبحه في العَين، وشُنعَته في الذِّكْر. وكلُّ ما قَبُح في العين فهو مؤلم، وكل ما شنُع في النفس فهو مؤذٍ. وما أكثَرَ ما تجد فيهم الألطَع[2]، وذلك فاشٍ في باطن شفاههم. ومتى كانت الشفاه هُدْلاً، وكانت المشافرُ منقلبة، كانت أَظهر للَّطَع، وهو ضرب من البرص. والبياض الذي يعرض لغَراميل الخيل وخُصَاها، ضربٌ أيضاً من البرص، وربما عَرَض مثل ذلك لحشفة قضيب المختون، إمَّا لَطَبَع الحديد[3]، وإمّا لقرب عهده بالإحداد وسقْيِ الماء، إلاّ أنَّ ذلك لا يعدُو مكانه.

وكلما عظُمت الحشفةُ انبسَطَ ذلك البياضُ على قدر الزيادة فيها، وإنَّما ذلك كالبياض الذي يعرض من حَرْق النار وتشييطها، وكالذي يعرض للصقالبَة من التَّعالُج بالكيِّ[4]. وربَّما اشتدَّ بياضُه حتى يفحُشَ ويُرديه، إلا أنَّه لا يفشو ولا ينتشر، إلاّ بقدر ما ينبسط مكانه، ويتحوَّل صاحبه رجُلاً، بعد أن كان صبيّاً. وليس كالذي يعرِض من البلغم ومن المرَّة. وبعضُ البرص يذهب حتى كأنه لم يكن، وبعضُه لا يذهب ولا يقف، بل لا يزال يتفشَّى ويتَّسع حتى ربَّما سلخه، ولا يذهب إلاّ بأنْ يذهب به نبي، فيكون ذلك علامةً له. ومن البهق الأبيض ما يكاد يلحق بالبَرَص، ولكن الذي هوَّن أمره الذي ترونَ من كثرَة بُرءِ الناس منه.

ثمَّ الخصاءُ يكونُ على ضروبٍ، ويكون في ضروب، فمن ذلك ما يعرِض بعدَ الكِبَر للأحرار، كما يعرض للعبيد، وللعرب كما يعرض للعجم، كما خَصَى بعضُ عبَاهلةِ اليمن علقمةَ بنَ سهلٍ الخَصيّ.

٨٢ - [علقمة الفحل وعلقمة الخصي]

وإنما قيل لعلقمةَ بن عَبَدَةَ الفحلُ، حين وقعَ على هذا اسمُ الخصي. وكان عبداً صالحاً، وهو كان جَنَبَ الجدِيل وداعراً[5]، الفحلين الكريمين، إلى عمان،

---

(١) البجرة: خروج السرة وغلظ أصلها. اللسان (بجر).

(٢) اللطع: ضرب من البرص، وهو يصيب بواطن شفاه الخصيان من الحبشان. انظر البرصان والعرجان ص ٤٠.

(٣) البرصان والعرجان ص ٤٠.

(٤) البرصان والعرجان ص ٣٩. وانظر في المصدر نفسه أسماء من اكتووا فبرصوا ص ٥٤ - ٥٥.

(٥) الجديل: فحل للنعمان بن المنذر، والداعر: فحل منجب، جنبه: قاده.

وكان من نازليها. وهو كان أحدَ الشهودِ على قُدامة بنِ مَظْعونٍ في شرب الخمر، وهو الذي قال لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: أتَقبَلُ شهادةَ الخصيّ؟ قال: «أما شهادتك فأقبَلُ». وهو عَلقمةُ بن سهْلِ بن عمارة، فلمَّا سمّوه الخصيّ، قالوا لعلقمةَ ابن عَبَدة: الفحل. وعلقمةُ الخصيّ، الذي يقول: [من الطويل]

فلن يَعْدَمَ الباقون قبراً لجثَّتي ... ولن يعدَم الميراثَ منِّي المواليا[1]

حراصٌ على ما كنت أجمعُ قَبْلَهم ... هَنيئاً لهـمْ جَمْعِي وما كنتُ والِيا

ودُلِّيتُ في زَوْراءَ ثُمَّتَ أعنقوا ... لشأنهِمُ قَدْ أَفْرَدُونِي وشَانيا

فأصبح مالي من طريفٍ وتالدٍ ... لغيري، وكانَ المالُ بالأمس ماليا

وكما عرَض للدَّلال ونَومَةِ الضُّحى، مِن خصاءِ عُثمانَ بن حيَّان المرّيّ والي المدينة لهما. بكتابِ هشام بن عبد الملك[2].

٨٣ - [أثر تحريف كتاب هشام بن عبد الملك]

فمنْ بني مرْوان من يدَّعي أنَّ عاملَ المدينة صحَّف، لأنه رأى في الكتاب: «أَحصِ مَنْ قِبلَكَ مِنَ المخنَّثين» فقرأها: «اخصِ مَنْ قبلَك من المخنَّثين». وذكر الهيثمُ عن الكاتب الذي تولَّى قراءَة ذلك الكتاب، أنَّه قال: وكيف يقولون ذلك ولقد كانت الخاء معجمةً بنقطةٍ، كأنها سُهيل أو تمْرةُ صيحانية[3]؟! فقال اليقطري: ما وجْهُ كتابِ هشامٍ في إحصاءِ عدَد المخنَّثين؟ وهذا لا معنى له، وما كان الكتابُ إلاّ بالخاء المعجمة دون الحاء المهملة.

وذُكِر عن مشايخَ من أهل المدينة أنهم حكَوا عنهما أنهما قالا: الآن صِرنَا نساءً بالحقّ!! كأنَّ الأمرَ لو كان إليهما لاختارا أن يكونا امرأتين! قال: وذُكِر أنهما

---

(١) الأبيات من قصيدة لمالك بن الريب في ذيل أمالي القالي ١٣٥، والخزانة ٢/١٧٦- ١٨٠ (بولاق).

(٢) الخبر في الأغاني ٤/٢٧٣- ٢٧٤، في فصل: «ذكر الدلال وقصته حين خصي». واسم الدلال: «ناقد»، وكنيته: أبو زيد، وهو مدني مولى بني فهم، وقيل: مولى عائشة بنت سعيد بن العاص. وفي الأغاني أن الخليفة الذي أرسل الكتاب هو سليمان بن عبد الملك.

(٣) الصيحاني: ضرب من تمر المدينة، أسود صلب الممضغة. وسمي صيحانياً لأن صيحان اسم كبش كان ربط إلى نخلة بالمدينة، فأثمرت تمراً صيحانياً، فنسب إلى صيحان. اللسان: صيح ٢/٥٢٢. وفي الأغاني ٤/٢٧٤«فرأيت على الخاء نقطة كتمرة العجوة».

خرجا بالخصلتين من الخصاء والتخنيث، من فُتورِ الكلام ولِين المفاصل والعظام، ومن التفكُّك والتثنّي، إلى مقدار لم يرَوا أحداً بلغه، لا من مخنَّثات النساء، ولا من مؤنَّثي الرجال.

٨٤ - [أبو همام السنوط]

وكما عرَض لأبي همام السَّنُوط مِن امتلاخِ اللُّخْم[١] مذاكيرَه وخصيَيه، أصابَه ذلك في البحر في بعضِ المغازي، فسقطت لحيتُه، ولقِّب بالسَّنُوط، وخَرَج لذلك نَهِماً وشَرِهاً.

وقال ذات يوم: لو كان النخلُ بعضُه لا يحمل إلاّ الرُّطَب، وبعضُه لا يحمل إلاّ التمرَ، وبعضُه لا يحملُ إلاّ المجزَّع، وبعضُه لا يحمل إلاّ البُسر، وبعضُه لا يحمل إلا الخَلاَل، وكنَّا متى تناولْنا من الشِّمْراخ بُسْرَةً، خلقَ اللّهُ مكانها بُسرَتين، لَمَا كان بذلك بأس! ثم قال: أستغفرُ اللّه! لو كنتُ تمنيَّتُ أن يكونَ بدل نواةِ التمر زُبدة كان أصوَب!!

ومنه ما يعرِض من جهة الأوجاع التي تعرِض للمذاكير والخصيتين، حتى ربما امتلخَهما طبيبٌ، وربَّما قطَع إحداهما، وربما سقطتا جميعاً من تلقاءِ أنفسهما.

٨٥ - [نسل منزوع البيضة اليسرى]

والعوامُّ يزعمون أنَّ الولدَ إنّما يكونُ من البيضة اليسرى[٢]. وقد زعمَ ناسٌ من أهل سليمان بن عليٍّ ومواليهم، أنَّ ولدَ داود بن جعفر الخطيب المعتزليِّ، إنَّما وُلِد له بعد أن نُزِعت بيضتُه اليُسرى، لأمر كانَ عرض له.

والخصيُّ الطيّان. الذي كان في مسجد ابن رَغبان، وُلدَ له غلام، وكان ليس له إلاّ البيضةُ اليُمنى، فجاء أشبهَ به من الذُّباب بالذُّباب والغراب بالغراب، ولو أبصرَه أجهلُ خلقِ اللّه تعالى بفراسةٍ، وأبْعدُهم من قِيافةٍ، ومن مخالَطَة النخَّاسين، أو من مجالسةِ الأعراب، لعلِمَ أنَّه سُلاَلَتُه وخلاصته، لا يحتاج فيه إلى مجزِّز المُدْلجِيّ، ولا إلى ابن كريز الخُزاعي.

---

(١) اللخم: ضرب من سمك البحر. (اللسان: لخم). وفي حياة الحيوان ٢/ ٣٠٥ «ضرب من السمك ضخم، يقال له الكوسج؛ وهو القرش».

(٢) البيان ١/ ٣٣٠.

٨٦ - [خصاء الروم]

ومن أهل الملل من يَخْصي ابنَه ويقفُه على بيت العبادَة، ويجعله سادناً، كصنيع الرُّوم، إلا أنهم لا يُحدثون في القضيب حدثاً، ولا يتعرضون إلا للأنثيين، كأنهم إنما كرهوا لأولادهم إحبالَ نسائِهم ورواهبهم فقط!! فأما قضاءُ الوَطَر وبلوغُ اللذة، فقد زعموا أنهم يبلُغون من ذلك مبلغاً لا يبلُغه الفحل، كأنهم يزعُمون أنه يستقصي جميعَ ما عِندها ويستَجْلبه، لفَرْط قوَّته على المطاولة.

وكلُّ خصاءٍ في الدنيا فإنما أصلُه من قِبَل الروم، ومن العجب أنهم نصارى، وهم يدَّعون مِن الرأفة والرحمة، ورقَّة القلبِ والكَبِد، ما لا يدَّعيه أحد من جميع الأصناف، وحسبك بالخصاء مُثْلةً! وحسبك بصنيع الخاصي قسوة! ولا جَرَم أنهم بعثوا على أنفسهم من الخَصيان، من طَلَب الطوائل وتذكُّر الأحقاد، ما لم يظنُّوه عندَهم، ولا خافوه من قِبَلِهم، فلا هم ينزعون، ولا الخصيانُ يَنْكلون، لأنَّ الرِّمايةَ فيهم فاشية، وإن كان الخَصيُّ أسواراً[١] بلغَ منهم، وإن كان جمع معَ الرماية الثَّرْوة، واتخذ بطَرَسُوس، وأذَنَة الضِّياعَ واصطنعَ الرجال، واتخذ العُقَد[٢] المُغلَّة فمضرَّة كلِّ واحدٍ منهم عليهم، تَفِي بمَضَرَّة قائدٍ ضخم. ولم ترَ عَداوةً قطُّ تجوز مقدارَ عداوتهم لهم، وهذا يدلُّ على مقدار فرطِ الرغبة في النساء، وعلى شهوةٍ شديدةٍ للمباضَعة، وعلى أنهم قد عرفوا مقدار ما فقدوا، وهذه خصلةٌ كريمة مع طلب المثوبة، وحسن الأحدوثة.

٨٧ - [خصاء الصابئة]

فأما الصابئون، فإنَّ العابدَ منهم ربَّما خصى نفْسَه. فهو في هذا الموضع قد تقدم الروميَّ، فيما أظهرَ من حُسْنِ النيَّة، وانتحل من الديانةِ والعبادة، بخصاء الولد التامِّ، وبإدخاله النقصَ على النَّسلِ، كما فَعَل ذلك أبو المبارك الصابي. وما زال خلفاؤنا وملوكنا يبعثون إليه، ويسمعون منه، ويَسمَر عندَهم، للَّذي يجدونه عنده من الفهم والإفهام، وطُرَف الأخبار، ونوادر الكتب، وكان قد أربى على المائة، ولم أسمعْ قطُّ بأغزَلَ منه، وإنْ كان يصدُق عن نفسه فما في الأرض أزنى منه.

---

(١) الأسوار: بالضم وبالكسر: قائد الفرس، وقيل: الجيد الرمي بالسهام، وقيل: هو الجيد الثبات على ظهر الفرس، أو هو: الفارس من فرسان الفرس المقاتل. اللسان (سور ٤ / ٣٨٨).

(٢) العقد: جمع عقدة، وهي الضيعة.

٨٨ - [حديث أبي المبارك الصابي]

حدَّثني محمد بن عباد قال: سمعته يقول - وجرى ذكرُ النساء ومحلّهن من قلوب الرجال، حتَّى زعموا أنَّ الرجلَ كلما كانَ عليهن أحرصَ كان ذلك أَدلَّ على تمام الفُحولة فيه، وكان أذهبَ له في الناحية التي هي في خلقته ومعناهُ وطبعه، إذ كان قد جُعِل رجلاً ولم يُجعل امرأة - قال ابن عبّاد، فقال لنا: أَلستْم تعلمون أنِّي قد أربَيتُ على المائة، فينبغي لمن كان كذلك أن يكون وهْنُ الكِبَرِ، ونفاذُ الذُّكْرِ، وموتْ الشهوة، وانقطاعُ ينبُوع النطْفة، قد أماتَ حنينه إلى النساء وتفكيرَه في الغزَل؟! قال: قلنا: صَدقتَ. قال: وينبغي أن يكون مَن عوَّد نفسه تركَهنَّ مُدداً، وتخلى عنهن سِنينَ ودهراً، أن تكون العادة وتمرينُ الطبيعة، وتوطينُ النفسِ، قد حطَّ من ثقل منازعة الشهوة، ودواعي الباءة، وقد علمتمْ أنَّ العادة التي هي الطبيعة الثانية، قد تستحكم ببعض عمد هَجْرٍ لملامسة النساء. قال: قلنا: صدقت. قال: وينبغي أن يكونَ مَن لم يذُقْ طعم الخَلوة بهنَّ ولَم يجالسهنَّ متبذلات، ولم يسمَعْ حديثَهنَّ وخِلاَبتهنَّ للقلوب، واستمالتهن للأهواء، ولم يَرَهُنَّ منكشفات عارياتٍ، إذا تقدم له ذلك معَ طولِ التَّرك، ألا يكون بقي معه من دواعيهن شيء؟! قال: قلنا: صدقت. قال: وينبغي أن يكون لِمَنْ قد علِم أنه محبوبٌ. وأنَّ سببه إلى خلاطهنَّ محسوم، أن يكون اليأسُ من أمتن أسبابه إلى الزهد والسلوة. وإلى موت الخواطر. قال: قلنا: صدقت. قال: وينبغي أن يكونَ من دعاهُ الزُّهدُ في الدنيا، وفيما يحتويه النساءُ مع جمالهنَّ وفتنة النُّسَّاك بهنّ، واتخاذ الأنبياء لهنّ، إلى أن خَصَى نفسه. ولم يُكْرِهْهُ عليه أبٌ ولا عدوٌّ، ولا سَباه سابٍ، أن يكون مقدارُ ذلك الزهد هو المقدار الذي يُميت الذُّكْرَ لهنَّ، ويُسَرِّي عنه ألم فقد وُجودِهنَّ، وينبغي لمن كان في إمكانه أن ينشئ العزم ويختارَ الإرادة التي يصير بها إلى قطع ذلك العضوِ الجامع لكبار اللذّات، وإلى ما فيه من الألم، ومع ما فيه من الخطر، وإلى ما فيه من المُثلة والنَّقصِ الداخل على الخلقة، أن تكون الوساوس في هذا الباب لا تعرُوه، والدواعي لا تقْروه. قال: قلنا: صدقت. قال: وينبغي لِمَنْ سَخَتْ نفسه عن السَّكَن وعن الوَلد، وعن أن يكون مذكوراً بالعقب الصالح،أن يكون قد نسيَ هذا البابَ، إن كان قد مرَّ منه على ذُكْرٍ. هذا وأنتم تعلمونَ أنّي سَمَلْتُ عيني يومَ خصَيت نفسي، فقد نسيتُ كيفية الصُّوَرِ وكيف تَرُوع، وجَهلت المراد منها، وكيف تُراد، أفما كان مَنْ كان كذلك حَرِيًّا أن تكون نفسُه ساهيةً لاهية مشغولةً بالبابِ الذي أحتمل له هذه المكاره؟!

قال: قلنا: صدقت. قال: أو لوْ لم أكنْ هَرِماً، ولم يكن ها هنا طولُ اجتنابٍ.

وكانت الآلة قائمةً أليس في أنّي لم أذُقْ حيواناً منذُ ثمانينَ سنة ولم تمتلِ عُروقي من الشرابِ مخافةَ الزيادة في الشهوة. والنقصانِ من العزم - أليسَ في ذلك ما يقطع الدواعيَ، ويُسْكن الحركة إن هاجت؟! قال: قلنا: صدقت. قال: فإنّي بعدَ جميع ما وصفتُ لكم، لأَسْمَعُ نغْمة المرأة فأظنُّ مرّةً أنّ كَبدي قد ذابت، وأظنُّ مرّةً أنها قد انصدعت، وأظنُّ مرّةً أنّ عقلي قد اختُلس، وربَّما اضطرب فُؤادي عند ضحِك إحداهُنّ، حتّى أظنّ أنّه قد خرجَ من فمي، فكيف ألومُ عليهنَّ غيري؟!

فإن كان - حفظك اللّه تعالى - قد صدقَ على نفسه في تلك الحال، بعد أن اجتمعت فيه هذه الخصال، فما ظنُّك بهذا قبل هذا الوقت بنحو ستّين سنة أو سبعين سنةً؟! وما ظنُّك به قبلَ الخصاء بساعة؟! وليس في الاستطاعة ولا في صفة الإمكان، أن يحتَجز عن إرادة النساء، ومعه من الحاجة إليهنَّ والشهوة لهنَّ هذا المقدارُ! اللّه تعالى أرحمُ بخلقه، وأعدلُ على عباده، من أن يكلِّفهم هِجرانَ شيءٍ، قد وصلَه بقلوبهم هذا الوصلَ، وأكَّدَه هذا التأكيد.

وقد خصى نفسه من الصابئين رجالٌ، قد عرَفناهم بأسمائهم وأنسابهم، وصفاتهم وأحاديثهم. وفي الذي ذكرنا كفايةٌ إن شاء اللّه تعالى.

٨٩ - [استئذان عثمان بن مظعون في الخصاء]

وقد ذُكر أَنَّ عثمانَ بن مَظْعون، استَأْذنَ النبي صلى اللّه عليه وسلم في السياحة فقال: «سِيَاحَةُ أُمَّتِي الجِمَاعَة»[١]. واستأْذَنه في الخصاءِ فقال: «خِصاء أمّتي الصوم، والصوم وِجاء»[٢]. فهذا خِصاءُ الديانة.

٩٠ - [خصاء الجلب]

فأمّا من خصى الجلَبَ[٣] على جهة التجارة، فإنه يَجُبُّ القضيب، ويمتلخ الأنثيين، إلا أن تقلَّصت إحداهما من فَرْط الفَزَع، فتصيرُ إلى موضعٍ لا يمكن ردُّها إلا بعلاج طويل، فللخاصي عند ذلك ظلمٌ لا يفي به ظُلم، وظلم يُربي على كلِّ ظلم، لأنّه عندَ ذلك لا يحفل بفوت المتقلّص، ويقطع ما ظهر له، فإن برئَ مجبوبَ القضيب أو ذَا بيضة واحدة، فقد تركه لا امرأةً ولا رجُلاً ولا خَصيًّا، وهو حينئذٍ ممّن تخرُج لحيتُه، وممَّن لا يدعه الناسُ في دُورهم ومواضعِ الخُصوص من بيوتهم، فلا

---

(١) في النهاية ٢ / ٤٣٣ «سياحة هذه الأمة الصيام». ولم أجد الحديث كما ذكره الجاحظ.

(٢) أخرج البخاري في كتاب الصوم، الحديث ١٨٠٦: «من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء».

(٣) الجلب: ما يجلب من خيل وسواها.

يكونُ مع الخصيان مقرَّباً ومكرَّماً، وخَصيبَ العَيش منعَّماً، ولا هو إذا رُمِي به في الفحول، كان له ما للفحول من لَذَّة غشيان النساء، ومن لذّة النسل والتمتّع بشم الأولاد؛ فلم يزَل عندَ الفحول مستضعَفاً محتقراً، وعند الخصيان مجرَّحاً مطرحاً، فهو أسوأُ حالاً من السَّدم المعنَّى[1] فلا أعلم قتْلَهُ ـ إذا كان القتلُ قتلةً صريحة مُريحة ـ إلا أصغَر عند اللّه تعالى، وأسهلَ على هذا المظلوم من طول التعذيب. واللّه تعالى بالمرصاد.

٩١ - [أنواع خصاء البهائم]

وأمّا خصاءُ البهائم، فمنه الوجاءُ، وهو أن يشدَّ عصَبُ مجامع الخُصية من أصل القضيب، حتَّى إذا نَدَرت البيضة، وجَحَظت الخُصية، وجأها حتى يرضَّها، فهي عند ذلك تذبُل وتنخسف، وتذوِي وتستَدقّ، حتى تذهبَ قُواها، وتنسدَّ المجاري إليها، ويسريَ ذلك الفسادُ إلى موضع تربيةِ النُّطْفة، فيمنعَها من أن تكثُر أو تعذب أو تخثُر.

ومنها ما يكون بالشدّ والعصْب، وشدَّة التحزيق، والعَقْد بالخيط الشديد الوَتير الشديد الفتل، فإذا تركه على ذلك عمِل فيه وحزَّ، أَو أكلَّ ومنعَه من أن يجزيَ إليه الغذاءُ، فلا يلبثُ أن ينقطعَ ويسقط.

ومنه الامتلاخ، وهو امتلاخ البيضتين.

٩٢ - [خصاء الناس]

فأمَّا خصاءُ الناس، فإنّ للخاصي حديدةً مرهَفَةً مُحْماة، وهي الحاسمة، وهي القاطعة. قال أبو زيد: يقال خصَيت الدابة أَخصيها خِصاءً، ووجأتها أجَؤُها وِجاء. ويقال: برئتُ إليك من الخصاء أو الوجاء، ولا يقال ذلكَ إلاّ لما كان قريبَ العهد لم يبرأ منه، فإذا برئَ لم يُقل له.

وأما الخِصاءُ فهو أنْ يسلَّ الخُصيتين، والوجاء أن توجَأ العرقُ والخصيتان على حالهما. والمعصوب من التيوس الذي تُعصَب خُصيتاه حتى تسقطا. والواحد من الخصيان خَصِيٌّ ومخصيّ. ويقال ملست الخصيتَين أملُسهما ملْساً، ومَتَنْتُهما أمتنهما متْناً، وذلك أن تشقّ عنهما الصَّفَن فتسلَّهُما بعروقهما. والصَّفَن: جلدة الخُصيتين.

---

(١) السدم: الذي يرغب عن فحلته، فيحال بينه وبين الافه، ويقيد إذا هاج، فيرعى حوالي الدار، وإن صال جعل له حجام يمنعه عن فتح فمه. اللسان: سدم.

٩٣ - [خصاء البهائم]

والخِصاءُ في أحداث البهائم، وفي الغنم خاصةً، يدع اللَّحمَ رَخْصاً ونديًّا عذباً، فإنْ خَصَاه بعد الكبر، لم يقو خِصاؤُه - بعدَ استحكامِ القوّة - على قلْب طباعه. وأجود الخصاء ما كانَ في الصِّغَر، وهو يسمَّى بالفارسية ثربخت يُعنى بذلك أنّه خُصِيَ رطباً. والخَصيُّ من فحولها أحَملُ للشحم، لعدم الهيْج والنَّعْظ، وخروج قواه مع ماء الفحْلة. وكثرةُ السِّفاد تورث الضَّعْفَ والهُزالَ في جميعِ الحيوان. وقد ذُكِر لمعاوية كثرة الجماع فقال: ما استُهترَ به أحدٌ إلاّ رأيت ذلك في مُنّته[١].

والديك يُخصى ليَرطب لحمُه ويطيب ويحملِ الشحم.

٩٤ - [خصاء العرب لفحولة الإبل]

وكانت العربُ تَخصي فُحولَةَ الإبل لئلاً يأكلَ بعضُها بعضاً، وتستبقي ما كان أجودَ ضِراباً ، وأكثرَ نَسْلاً، وكلٌّ ما كان مئناثاً وكان شابًّا ولم يكن مذكاراً، وهم يسمُّون الإذكار المحْقَ الخَفيّ. وما كان منها عَيَاياءَ طَبَاقاءَ، فمنها ما يجعل السّدمَ المعنَّى. وإذا كان الفحلُ لا يَتَّخذ للضِّراب، شدُّوا ثيلَه شدّاً شديداً، وتركوه يهدر ويُقَبقب في الهَجْمة. ولا يصل إليهنَّ وإن أردنَه، فإذا طلبْنَ الفحلَ جيءَ لهنَّ بفحلٍ قَعْسريٍّ[٢] ويقولون: «لَقْوَةٌ لاقَتْ قَبيساً!»[٣]. والقَبيس من الجِمال: السريع الإلقاح، واللَّقوة: السريعة القَبول لماءِ الفحلِ.

وشكت امرأةٌ زوجَها. وأخبرتْ عن جهله بإتيان النساء. وعيِّه وعجْزِه. وأنَّه إذا سقط عليها أطَبقَ صدرَه - والنساءُ يكرهْنَ وقُوعَ صدورِ الرجالِ على صدورهنَّ - فقالت: زَوْجِي عَيَاياءُ طَباقاء، وكلُّ داءٍ لَهُ داءُ[٤]!! وقال الشاعر: [من الطويل]

طَباقَاءُ لم يَشْهدْ خُصوماً ولم يَقُدْ ... رِكاباً إلى أكوارِها حينَ تعكف[٥]

---

(١) الخبر في رسائل الجاحظ ٢ / ٣٠٤ «كتاب البغال»، والبيان ٢ / ٨١، وعيون الأخبار ٤ / ٩٦.

(٢) القعسري: الجمل الضخم الشديد. اللسان: قعسر ٥ / ١٠٩.

(٣) من الأمثال في مجمع الأمثال ٢ / ١٣١، وجمهرة الأمثال ٢ / ١٨٤، والمستقصى ٢ / ٢١٢، وفصل المقال ٢٦١، والأمثال لابن سلام ١٧٦.

(٤) هذا القول من حديث طويل روته عائشة عن إحدى عشرة امرأة، وأخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة، الحديث ٤٨٩٣. وورد القول في البيان ١ / ١٠٩، وهو لأم زرع في النهاية ٣ / ١١٤.

(٥) البيت لجميل بن معمر في ديوانه ١٣٨، واللسان (طبق)، والمقاييس ٣ / ٤٤٠، والمخصص ١٦ / ٧٣، وتهذيب اللغة ٩ / ١٠، وبلا نسبة في البيان ١ / ١١٠ وجمهرة اللغة ١٢٢٩.

٩٥ - [خصاء العرب للخيل]

وكانوا يخْصُون الخيل لشبيه بذلك، ولعلَّة صهيلها ليلةَ البَيَات، وإذا أكمنوا الكُمَناء أوْ كانو هُرَّاباً.

٩٦ - [الخنذيذ]

ويزعم من لا علم له، أنَّ الخنذيذ في الخيل هو الخصيُّ[١]. وكيف يكون ذلك كما قال، مع قول خُفَاف بن نَدْبة: [من الخفيف]

وخناذيذ خصيةً وفُحولا[٢]

وقال بشرُ بنُ أبي خَازم: [من الوافر]

وخنذيذٍ تَرَى الغُرْمُولَ منهُ   كَطيِّ البُرْدِ يَطويه التِّجَارُ[٣]

وليس هذا أرادَ بشر، وإنَّما أراد زمانَ الغزو، والحالَ التي يعتري الخيلَ فيها هذا المعنى، كما قال جد الأحيمر: [من مجزوء الكامل]

لا لا أعقُّ ولا أحُو   ب ولا أُغيرُ على مُضَرْ[٤]
لكنَّما غزوي إذا   ضجَّ المَطيُّ من الدَّبَرْ

وإنَّما فخر بالغزْو في ذلك الزمان.

وأما الخنذيذ فهو الكريم التامُّ، وربَّما وصفوا به الرجل. وقال كثير: [من الطويل]

على كل خنذيذ الضُّحَى متمطِّر   وخَيْفانةٍ قد هذَّب الجريُ آلَها[٥]

وقال القطامي: [من الطويل]

على كلِّ خنذيذ السَّراة مُقلِّصٍ   تخنَّثَ منه لحمُه المتكاوِسُ[٦]

---

(١) ورد القول في البيان ٢ / ١١.

(٢) صدر بيت وعجزه: «وبراذين كابياتٍ وأُتْناً». والبيت في ديوان خفاف ٥٣٧، وللبرجمي في البيان ٢ / ١١، وللنابغة الذبياني في ديوانه ١٧٠، وكتاب العين، ولخفاف بن عبد القيس في اللسان والتاج (خنذ)، وبلا نسبة في المخصص ٦ / ١٦٥، ١٣ / ٢٦٤، وتهذيب اللغة ٧ / ٣٢٥.

(٣) البيت في ديوان بشر ٧٦، واللسان والتاج (خنذ، غرمل)، والبيان ٢ / ١١، والأضداد ٤٩. وعجزه في الديوان: «كطي الزق علقه التجار»، والتجار: جمع تاجر.

(٤) البيتان في البيان ٣ / ٢٠٠.

(٥) البيت في ديوانه ٨٢.

(٦) البيت في ديوان القطامي ١٥١. وروايته:
(على كل محبوك السراة مقلص   تخبّب عنه لحمه المتكاوس)
المتكاوس: المتراكب.

ومن الدليل على أنَّهم ربما جعَلوا الرجلَ إذا ما مدحوه خنذيذاً، قولُ بعضِ القيسيين، مِن قيس بن ثعلَبة: [من الطويل]

دعوتُ بني سعدٍ إليَّ فشمَّرتْ خناذيذُ مِن سعدٍ طِوالُ السواعدِ(١)

٩٧ - [عبد اللّه بن الحارث وعبد الملك بن مروان]

وقال عبدُ اللّه بن الحارث، وكتب بها إلى عبدِ الملكِ بن مرْوان حينَ فارقَ مُصعباً: [من الطويل]

بأيٍّ بلاءٍ أم بأيَّةِ علَّةٍ يُقدَّم قبلي مُسلِمٌ والمهلَّبُ(٢)
وَيُدعَى ابنُ منجوفٍ أمامي كأنَّهُ خَصِيٌّ دنا للماءِ من غير مَشْرَبِ

فقلت ليونس: أقوى! فقال: الإقواءُ أحسَنُ من هذا! قال: فلمَّا أخذتْه قيسٌ نصبُوه، فجَعلوا يرمُونه بالنبل ويقولون: أذاتَ مغازل تَرَى؟! يريدون بيت ابن الحرّ: [من الطويل]

ألم تر قيساً ـ قيسَ عَيلانَ ـ برقعت لِحاهَا وباعت نبلها بالمغازل(٣)

فلما أتي مُصعبٌ برأسه، قال لسُويد: يا أبا المِنهال! كيف ترى؟ قال: أيُّهَا الأمير! هو واللّه الذي أتَى الماءَ من غير مَشْرَب.

وقال أعشَى هَمْدان: [من الكامل]

وأبو بُريذِعةَ الذي حُدِّثْتَهُ فينا أذلُّ مِن الخَصيِّ الدَّيزجِ(٤)

وتعرِض للخصيِّ سُرعة الدَّمعة، وذلك من عادة طبائعِ الصبيان ثم النِّساءِ، فإنَّه ليس بعدَ الصبيان أغزَر دَمعةً من النساء، وكفاكَ بالشيوخ الهرمين.

٩٨ - [أخلاق الخصي]

ويعرض للخصيِّ العبثُ واللِّعبُ بالطير، وما أشبهَ ذلك من أخلاق النساء، وهو من أخلاق الصبيان أيضاً.

---

(١) البيت للقيسي في البيان ٢/ ١٢.
(٢) البيتان لعبيد اللّه بن الحر الجعفي في البرصان والعرجان ٣٢٧، وأشعار اللصوص ١٨٣. ورواية عجز البيت الثاني في أشعار اللصوص: (خصي أتى للماء والعير يشرب).
(٣) البيت في أشعار اللصوص ٢٣٣، عن مخطوطة منتهى الطلب.
(٤) الديزج: في اللسان «الديزج: معرب ديزه، وهي لون بين لون». وفي مبادئ اللغة ١٢٠ «الأخضر: الأطخم؛ المسمى بالفارسية الديزج» وفي أدب الكاتب ١٤٣ «الأخضر: هو في كلام العجم الديزج».

ويعرض له الشَّرَه عندَ الطعام، والبخل عليه، والشحُّ العامُّ في كلِّ شيء، وذلك مِن أخلاق الصِّبيانِ ثم النِّساء.

وقال الشاعر: [من الطويل]

كأنَّ أبا رُومان قيساً إذا غدَا ... خَصِيٌّ بَراذينٍ يُقَاد رَهيصُ

له معْدَةٌ لا يشتكي الدهرَ ضَعْفَها ... وحَنجرةٌ بالدورقين قموصُ

ويعرض للخصيِّ سرعةُ الغضب والرضا، وذلك من أخلاق الصِّبْيان والنِّساء. ويعرض له حبُّ النميمة، وضيقُ الصدرُ بما أُودِع من السرّ، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء، ويعرض له دون أخيه لأُمّه وأبيه، ودون ابنِ عمّه وجميعِ رهطه، البصَرُ بالرَّفْع والوضْع،والكنسِ والرشِّ، والطَّرح والبسْط، والصبرُ على الخدمة، وذلك يعرض للنساء. ويعرض له الصبرُ على الرُّكوب، والقوَّة على كثرة الركْض حتَّى يجاوز في ذلك رجالَ الأتراكِ وفرسانَ الخوارجِ. ومتى دفَع إليه مَولاه دابَّتَه ودخل إلى الصلاة، أو ليغتسل في الحمام، أو ليعودَ مريضاً، لم يترُكْ أن يُجريَ تلك الدابَّةَ ذاهباً وجائياً، إلى رجوع مولاه إليه.

ويعرض له حبُّ الرمي بالنَّشّاب، للّذي يدور في نفسه من حبِّ غزو الرُّوم. ويعرض له حبُّ أن تَمْلكَه الملوك، على ألاّ تقيمَ له إلاّ القوتَ ،ويكونُ ذلك أحبَّ إليه من أنْ تملكَه السُّوقةُ، وإن ألحقتْه بعيشِ الملوك!!.

ومن العجب أنَّهم مع خروجهم من شَطْر طبائع الرجال، إلى طبائع النساء، لا يعرِض لهم التخنيث. وقد رأيت غيرَ واحدٍ من الأعراب مخنَّثاً متفكّكاً، ومؤنثاً يَسيلُ سيلاً، ورأيتُ عدّةَ مجانينَ مخنَّثين، ورأيتُ ذلك في الزَّنج الأقْحاح. وقد خبَّرني من رأى كُرديّاً مخنثاً، ولم أَر خَصياً قط مخنَّثاً، ولا سمعتُ به؛ ولا أدري كيف ذلك ولا أعرف المانعَ منه. ولو كان الأمرُ في ذلك إلى ظاهِر الرأي، لَقَدْ كان ينبغي لهم أن يكونَ ذلك فيهم عامّاً!

ومما يَزيدني في التعجُّب من هذا الباب، كثرةُ ما يعرِض لهم من الحُلاَق(١)، مع قلّةِ ما يعرِض لهم من التخنيث، مع مفارقتِهم لشطرِ معاني الرجال إلى شبه النساء.

ويزعم كثير من الشيوخ المعمَّرين؛ وأهل التجربة المميِّزين، أنّهم اختبروا

---

(١) الحلاق: فساد متاع الإنسان، فتعود حرارته إلى دبره. انظر اللسان: حلق ١٠ / ٦٥، ٦٦.

أعمارَ ضُروبِ الناس، فوجدوا طولَ[1] الأعمارِ في الخصيان أعمَّ منه في مثلِ أعدادهم من جميع أجناس الرجال، وأنّهم تفقدوا أعمارَهم وأعمارَ إخوتِهم وبني أعمامهم الذين لم يُخصَوْا، فَوجدُوا طول العُمُر في الخِصيان أعمَّ، ولم يجدوا في عمومِ طوال العمر فيهم واحداً نادراً، كفلانٍ وفلان من الفحول.

وزعموا أنّهم لم يجدوا لطول أعمارِهِمْ علّةً إلاّ عدَمَ النِّكاح، وقلّةَ استفراغِ النُّطف لقُوى أصلابهم.

قالوا: وكذلك لم نجدْ فيما يعايشُ الناسَ في دُورهم، من الخيل والإبل، والحمير، والبقر، والغنم، والكِلابِ، والدَّجاج، والحمام، والدِّيَكة، والعصافير، أطول أعماراً من البغال.

وكذلك قالوا: وجدْنا أقلّها أعماراً العصافيرَ. وليس ذلك إلاّ لكثْرةِ سفادِ العصافير وقلّةِ سِفادِ البغال.

وجعل هؤلاء القومُ زيادةَ عمر البغلِ على عمرِ أبويَه دليلاً على أنّ قول الناسِ: لا يعيشُ أحدٌ فوق عمر أبويه خطأ. وأولئك إنما عنوا الناسَ دونَ جميع الحيوان[2].

٩٩ - [النتاج المركب][3]

وقالوا: قد وجدنا غُرمولَ البغل أطولَ من غرمول الحمار والفرس والبرذون، وهؤلاء أعمامُه وأخواله، فقد وجدْنا بعض النِّتاجِ المركَّب، وبعضَ الفروعِ المستخرجة، أعظَم من الأصلِ؛ ووجدنا الحمام الرَّاعبي أعظمَ من الوَرَشان الذي هو أبوه، ومِن الحمامة التي هي أمُّه، ولَم نجدْه أخذَ من عمر الوَرَشان شيئاً، وخرج صَوْتُه من تقدير أصواتهما، كما خرج شَحيح البغْل من نهيق الحمار وصهيل الفرَس. وخرَج الرَّاعبِي مُسرولاً، ولم يكن ذلك في أبويه؛ وخرَج مُثْقَلاً سَيِّءَ الهداية. وللورَشَان هداية، وإن كان دونَ الحمام؛ وجاءَ أعظمَ جُثّة من أبويه، ومقدارُ النَّفَس مِن ابتداءِ هَديله إلى منقطعه، أضعافُ مقدارِ هديل أبويه.

وفَوالجُ البُخْت إذا ضربَت في إناث البُخْت، ولم يخرُج الحُوارُ إلاّ أدَنّ[4] قصيرَ العُنق، لا ينال كلأً ولاماءً إلاّ بأنْ يُرفعا إليه، فيصيرُ ـ لمكانِ نُقْصان خلقه ـ جَزورَ لحم،

---

(١) انظر رسائل الجاحظ ٢ / ١٢٤، مفاخرة الجواري والغلمان.

(٢) انظر كتاب البغال للجاحظ؛ ضمن رسائل الجاحظ ٢ / ٣٠٤، ٣٠٥.

(٣) انظر ما تقدم في الفقرة (٧٠).

(٤) الأدن من الدواب: الذي يداه قصيرتان؛ وعنقه قريب من الأرض. اللسان: دنن ١٣ / ١٥٩.

ولا يكون من اليعمَلات ولا من السابقة، ولو عالُوه وكفَوه مُؤْنة تكلف المأكولِ والمشروب، ثم بلَغَ إلى أن يَصيرَ جملاً يمكنه الضِّراب. وكذلك الأنثى التي هي الحائل إلى أن تصيرَ ناقة؛ فلو ألقحها الفحلُ لجاء ولدُها أقصرَ عنقاً من الفيلِ، الذي لو لم يجعل الله تعالى له خرطوماً يتناولُ به طعامَه وشرابه، لمات جُوعاً وهُزالاً؛ وليس كذلك العِرَاب. وإذا ضربت الفوالجُ في العراب جاءت هذه الجوامز والبُخْت الكريمة التي تجمع عامَّة خصال العراب وخصال البُخت، فيكونُ ما يُخرِج التركيبُ من هذين الجنسين أكرمَ وأفخمَ وأنفس وأثمن. ومتى ضربت فحولُ العِرَاب في إناث البُخْت جاءت هذه الإبل البَهْوَنِيَّة[1] والصَّرصرانية[2] فتخرج أقبح منظراً من أبويها، وأشدَّ أسْراً من أبويها. وقال الراجز: [من الرجز]

* ولا بهونيٍّ من الأباعرِ *

وبعد؛ فإنّ هذه الشَّهْرِيَّة الخُراسانية، يخرج لها أبدانٌ فوقَ أبدانِ أمّهاتها وآبائها من الخيل والبراذين، وتأخذ من عتْق الخيل، ومن وثاجة[3] البراذين، وليس نِتاجها كنتاج البِرذَونِ خالصاً والفرس خالصاً.

وما أشبهَ قرابةَ الحمارِ بالرَّمكة والحِجْرِ، من قرابة الجمل الفالج البُخْتيّ بقرابةِ القَلوص الأعرابيَّة.

١٠٠ - [أطول الحمير أعماراً]

ويقال إن الحمرَ الوحشيَّة، وبخاصّة الأخدريَّة، أطولُ الحَمير أعماراً وإنما هي من نِتَاج الأخدَر، فرس كانَ لأرْدَشير بن بابَك صار وحشيّاً فحمَى عدَّة عاناتٍ فضرب فيها، فجاء أولادُه منها أعظمَ من سائر الحمر وأحسنَ. وخرجتْ أعمارُها عنْ أعمارِ الخيل وسائر الحُمُر - أعني حمر الوحش - فإنَّ أعمارَها تزيد على الأهليَّة مِراراً عدَّة.

١٠١ - [عير أبي سيارة]

ولا يعرفون حماراً وحشيّاً عاشَ أكثر وعُمِّر أطول من عير أبي سيَّارَة عُمَيلة بن أعزل؛ فإنهم لا يشكُّون أنّه دَفَع عليه بأهلِ الموسم أربعين عاماً[4]!!

---

(١) البهونية من الإبل: ما بين الكرمانية والعربية، وهو دخيل في العربية. اللسان والتاج (بهن).

(٢) الصرصرانيات: بين البخاتي والعراب؛ أو الفوالج. اللسان (صرر).

(٣) الوثاجة: كثرة اللحم. اللسان: وثج ٢/٣٩٦.

(٤) الخبر في البيان ١/٣٠٧-٣٠٨، وربيع الأبرار ٥/٤٠١، ومروج الذهب ١/١٧٤. وفي كتب الأمثال: «أصح من عير أبي سيارة» والمثل في مجمع الأمثال ١/٤١٠، والمستقصى ١/٢٠٥، وفصل المقال ٥٠١، والأمثال لابن سلام ٣٧٣. وانظر ثمار القلوب ٢٩٥ (٥٥٣).

قال الأصمعيُّ: لم يكن عيراً وإنما كان أتاناً.

١٠٢ - [لهج ملوك فارس بالصيد]

وزعموا - وكذلك هو في كتبهم - أنَّ ملوكَ فارسَ، كانت لهجة بالصيد؛ إلا أنَّ بهرام جور هو المشهور بذلك في العوامّ.

وهم يزعمون أنّ فيروز بن قباذ الملك الفارسيّ، ألحَّ في طلب حمار أخدري[1]؛ وقد ذُكر له ووُصف؛ فطاوَله عند طلبه والتماسه، وجدَّ في ذلك فلجَّ به عند طلبه الاغترام، وأخرجته الحفيظةُ إلى أن آلى ألاَّ يأخذهَ إلا أسراً، ولا يطاردَه إلا فرداً، فحمل فرَسه عليه، فحطَّه في خبَار[2] فجمع جَراميزه[3] وهو على فرسه ووثَب؛ فإذا هو على ظهره؛ فقمَص به، فضم فخذيه فحطّم بعض أضلاعه، ثم أقبل به إلى معظم الناس، وهم وقوف ينظرون إليه وهو راكبه.

قالوا: وكان الملك منهم إذا أخذَ عَيراً أخدريًّا وغيرَ ذلك؛ فإذا وجدَه فتياً وسمَه باسمه وأرَّخ في وسمه يومَ صيده وخلَّى سبيله، وكان كثيراً إذا ما صاده الملكُ الذي يقوم به بعدَه. سار فيه مثلَه تلك السِّيرةَ وخلَّى سبيله، فعرَف آخرُهم صنيعَ أوّلهم؛ وعرفوا مقدارَ مقاديرِ أعمارها.

١٠٣ - [الحكمة في تخالف الميول]

ولولا أنَّ ناساً من كلِّ جيل، وخصائص من كلِّ أمَّة، يلهجون ويَكْلَفون بتعرُّف معاني آخرين لدرستْ. ولعلَّ كثيراً من هؤلاء يُزْري على أولئك، ويعجِّب الناسَ من تفرُّغهم لما لا يجدي، وتركهم التشاغلَ بما يُجْدي، فالذي حبَّب لهذا أن يرصُد عمر حِمار أو وَرَشَانٍ أو حيَّة أو ضبٍّ، هو الذي حبَّب إلى الآخر أن يكون صيَّاداً للأفاعي والحيَّات، يتتبَّعُها ويطلُبها في كلِّ واد وموضع وجَبَلٍ للترياقات. وسخَّرَ هذا ليكون سائسَ الأُسْدِ والفُهود والنُّمُور والببور[4]، وترك من تِلقاء نفسه أن يكونَ راعيَ غنم!!

---

(١) الأخدري: الحمار الوحشي. اللسان: خدر.

(٢) الخبار: الأرض الرخوة اللينة. اللسان: خبر.

(٣) يقال: ضم فلان إليه جراميزه: إذا رفع ما انتشر من ثيابه. اللسان: جرمز ٥ / ٣١٨.

(٤) الببور: جمع ببر، وهو ضرب من السباع، يقال إنه متولد من الزبرقان واللبوة. حياة الحيوان ١ / ١٥٩.

والذي فرَّق هذه الأقسام، وسخَّر هذه النفوسَ، وصَرف هذه العقول لاستخراجِ هذه العلوم من مدافنها، وهذه المعاني من مخابيها، هو الذي سخَّر بَطْليمُوس مع مُلْكه، وفلاناً وفلاناً للتفرُّغ للأمور السماويَّة، ولرعاية النجوم واختلاف مَسير الكواكب. وكلٌّ ميسَّرٌ لِما خُلِق له، لتَتمَّ النعمة ولتكمُل المعرفة، وإنما تأبَّى التيسير للمعاصي.

فأمَّا الصناعاتُ فقد تقصُر الأسباب بعضَ الناس على أن يصير حائكاً، وتقصرُ بعضَهم على أن يكون صَيْرَفيّاً، فهي وإن قصَرتْه على الحِياكة، فلم تقصُرْه على خُلْف المواعيد وعلى إبدال الغُزُول، وعلى تشقيق العملِ دونَ الإحكام والصدق وأداءِ الأمانة، ولم تقصر الصيرفيَّ على التطفيف في الوزن والتغليط في الحساب، وعلى دسِّ المموَّه؛ تعالى اللهّ عزَّ وجلَّ عن ذلك علواً كبيراً.

١٠٤ - [خضوع النتاج المركب للطبيعة]

ولو كان أمرُ النِّتاج وما يحدث بالتراكيب ويخرج من التزاويج، إلى تقدير الرأي وما هو أقربُ إلى الظنِّ، لكانت الأظْلاف تجري مَجْرى الحوافر والأخفاف. ألا ترى أنَّ قرابة الضأن من الماعز، كقرابة البخْت من العراب، والخيل من الحمير!!

وسبيل نتائج الظِّلْف على خلاف ذلك؛ لأنَّ التيسَ ـ على شدَّة غُلمته ـ لا يعرض للنعجة إلاّ بالقليل الذي لا يُذكر. وكذلك ما يحدث بينهما من الولد كذلك: إمَّا ألاّ يتمّ خَلقُه، وإما ألاّ يعيش؛ وكذلك الكبشُ والعنز فضلاً عن أن يكون بينهما نتاج؛ لأنه قد يضرِب الجنس في الجنس الذي لا يُلْقحه، ولا يكون اللِّقاح إلا بعد ضراب.

وطلبَ التيسِ للنعجة قليل وأقلُّ من القليل، وكذلك الكبش للعنز، وأقلُّ من ذلك أنْ تتلاقح ولا يبقى ذلك الولد البتة.

وقد تجاسَرَ ناسٌ على توليدِ أبوابٍ من هذا الشكل، فادَّعوا أموراً، ولم يحفِلوا بالتقريع والتكذيب عند مسألة البرهان!!

١٠٥ - [الزرافة خلقٌ مركّب][١]

زعموا أنَّ الزرافة خلقٌ مركب من بين الناقة الوحشية وبين البقرة الوحشية، وبين الذِّيخ وهو ذكر الضباع؛ وذلك أنّهم لَّما رأَوا أنَّ اسمها بالفارسية (أشتر كاو

---

(١) انظر الفقرة (١١٧).

بلنك)؛ وتأويل «أشتر» بعير، وتأويل «كاو» بقرة، وتأويل «بلنك» الضبع؛ لأن الضباعَ عُرْج؛ كذلك الذكر والأنثى يكون بهما خُمَاع[1]؛ كما عرض للذئب القزَل[2] - وكلُّ ذئب أقزَل - وكما أنَّ كلَّ غرابٍ يحجَل كما يحجل المقيَّد من الناس؛ وكما أنَّ العصفورَ لَا يمشي؛ ومشيُه أن يجمعَ رجليه أبداً معاً في كلِّ حركةٍ وسكون. وقولهم للزرافة أشتر كاو بلنك اسم فارسيٌّ، والفُرس تسمِّي الأشياءَ بالاشتقاقات؛ كما تقول للنعامة: اشتر مرغ، وكأنَّهم في التقدير قالوا: هو طائر وجمل؛ فلم نجد هذا الاسم أوجبَ أن تكون النعامةُ نتاجَ ما بين الإبل والطير، ولكن القوم لما شبهوها بشيئين متقاربين؛ سمَّوها بذينك الشيئين. وهم يسمون الشيء المرَّ الحلو «تَرْش شِيرِين» وهو في التفسير حلوٌ حامض. فجسَر القومُ فوضعوا لتفسير اسم الزرافة حديثاً؛ وجعلوا الخِلقَةَ ضرْباً من التراكيب؛ فقالوا: قد يعرض الذيخ في تلك البلاد للناقة الوحشية فيسفدها، فتلقح بولدٍ يجيء خلقُه ما بين خلْق الناقة والضبع؛ فإن كان أنثى فقد يعرض لها الثور الوَحشي فيضربها؛ فيصير الولد زرافة، وإن كان ولدُ الناقة ذكراً عرَض للمهاة فألقحها فتلد زرافة. فمنهم من حجر البتَّةَ أن تكون الزرافة الأنثى تلقَح من الزرافة الذكر، وزعموا أنَّ كلَّ زرافةٍ في الأرض، فإنَّما هي من النّتاج الذي ركَّبوا؛ وزعموا أنَّ ذلك مشهورٌ في بلاد الحبَشة، وأقاصي اليمن. وقال آخرون: ليس كلُّ خلقٍ مركَّب لا ينسل ولا يبقَى نجلُه ولا يتلاقَح نسله، على ما حكينا من شأن الوَرشان والرَّاعبي[3]. وهؤلاء وما أشبههم يُفسدون العلم، ويتَّهمون الكتب، وتغرّهم كثرةُ أتباعهم ممن تجدُه مستهتَراً بسماع الغريب، ومُغرَماً بالطرائف والبدائع. ولو أُعطُوا معَ هذا الاستهتارِ نصيباً من التثبُّتِ، وحظًّا من التوقي، لسَلِمت الكتبُ من كثير من الفساد.

١٠٦ - [النتاج المركب في الطيور]

وأنا رأَيتُ طائراً له صوتٌ غير حسن، فقال لي صاحب الطيور: إنّه من نِتاج ما بين القُمْريِّ[4] والفاختة[5].

---

(١) الخماع: العرج. اللسان: خمع.

(٢) القزل: العرج. اللسان: قزل.

(٣) انظر الفقرة (٩٩).

(٤) القمري: طائر صغير من الحمام، حسن الصوت. وسمي «القمري» نسبة إلى بلدة القمرة بمصر. حياة الحيوان ٢ / ٢٢٢.

(٥) الفاختة: واحدة الفواخت؛ من ذوات الأطواق. (حياة الحيوان ٢ / ١٣٥). ومن العجب أن بيض القمارى يجعل تحت الفواخت، وبيض الفواخت تحت القمارى. حياة الحيوان ٢ / ٢٢٢.

وقنَّاص الطير، وَمن ياتي كلَّ أوقة[1] وغيضةٍ في التماس الصيد، يزعمون أنَّ أجناساً من الطير الأوابد والقواطع، تلتقي على المياه فتتسافد؛ وأنَّهم لا يزالون يرون أشكالاً لم يروها قطُّ، فيقدِّرون أنَّها من تلاقح تلك المختلفة.

١٠٧ - [زعم بعض الأعراب في الحرباء]

وقال أبو زيدٍ النحويّ، وذكر عمّن لقي من الأعراب أنَّهم زعموا أنَّ ذكرَ أمِّ حُبَين هو الحرباء. قال: وسمعت أعرابيًّا من قيسٍ يقول لأمِّ حُبين حُبينة، والحُبينة هو اسمها. قال: وقيسٌ تسمِّي ذكر العَظاءة العَضْرفوط.

وقال يحيى الأغرّ: سمعتُ أعرابياً يقول: لا خيرَ في العَظاءَة، وإنْ كان ضَبًّا مَكُوناً. قال: فإذاً سامُّ أبرَص، والورَل، والوَحَر، والضَّبّ والحلَكاء. كلُّها عنده عَظاءة.

١٠٨ - [تسافد الثعلب والهرّة الوحشية]

وزعم يحيى بن نُجَيم أنَّ الثعلب يسفد الهرة الوحشية، فيخرج بينهما ولدٌ. وأنشد قول حسان بنِ ثابت رضي الله تعالى عنه: [من المتقارب]

أبوك أبوك وأنت ابنُه … فبئس البُنَيُّ وَبئس الأبُ[2]
وأمُّكَ سَوْدَاءُ نُوبيَّةٌ … كأنَّ أناملها العنظب[3]
يبيتُ أبوكَ بها معرساً … كما ساورَ الهرَّةَ الثعلبُ

وأنشد أبو عبيدة قولَ عبد الرحمن بن الحكم: [من الوافر]

ألا أبلغْ مُعاوية بنَ حرب … مُغلغلَةً عن الرجُل اليماني[4]
أتغضبُ أنْ يقال أبوك عَفٌّ … وتَرضى أن يُقال أبوك زَاني

---

(١) الأوقة: هوة في الأرض؛ خليقة في بطون الأودية، وتكون في الرياض أحياناً. اللسان: أوق ١٠/ ١٢.
(٢) الأبيات في ديوان حسان ص١١٧.
(٣) العنظب: ذكر الجراد. والأنثى: عنظوبة. حياة الحيوان ٢/ ٨٦. ورواية الديوان «الحنظب». والحنظب: ذكر الجراد، أو الخنفساء. وقال حمزة الأصفهاني: من المركبات بين الثعلب والهرة الوحشية. حياة الحيوان ١/ ٣٨٠.
(٤) الأبيات لعبد الرحمن بن الحكم في الأغاني ١٣/ ٢٦٥ (دار الكتب)، الأغاني ١٢/ ٧١ (طبعة ساسي)، والخزانة ٢/ ٥١٨ (طبعة بولاق)، والأبيات في ديوان يزيد بن المفرغ ص ٢٣٠، ٢٣١. والأغاني ١٨/ ٢٦٥، ٢٧١ (دار الكتب)، ١٧/ ٥٧، ٧١ (ساسي)، واللسان (عدس).

فاشهد أنّ رِحْمَكَ مِن قُرَيشٍ   كَرِحْمِ الفيل مِنْ وَلَدِ الأَتانِ

قال كَيسان: ولأي شي قال:

كرحم الفيل من ولد الأتان

إنما كان ينبغي أن يقول: كرِحْم الفِيل من الخنزير. قال أبو عبيدة: أرادها هو التبعيدَ بعينه؛ وأنت تُريد ما هو أقرب.

١٠٩ - [زعم بعضهم في حيوان سفينة نوح]

وزعم بعض المفسِّرين وأصحابِ الأخبار(١): أنَّ أهلَ سفينةِ نوحٍ كانُوا تأذَّوا بالفار، فعَطَس الأسدُ عَطْسةً فرمى من مِنْخَريه بزوج سنانير، فلذلك السِّنَّوْرُ أشبهُ شيءٍ بالأسدِ. وسلَح الفيلُ زوجَ خنازير؛ فلذلك الخنزيرُ أشبهُ شيءٍ بالفيل. قال كيسان: فينبغي أن يكون ذلك السِّنَّورُ آدمَ السنانير، وتلك السِّنَّورة حوَّاءَها. قال أبو عبيدة لكيسان: أولم تعلمْ أنت أنّ لكل جنس من الحيوان آدم وحواء؟! وضحك فضحك القوم.

١١٠ - [نهم سعد القرقرة]

ولمَّا رأى أبو قُردُودةَ سعدَ القرقرة، أكلَ عند النُّعمان مسلوخاً بعظامه قال: [من البسيط]

بين النعامِ وبينَ الكلبِ مَنْبِتُه   وفي الذئاب له ظئر وأخْوالُ

يقول: إنَّ سعداً ضرب في أعراقه نجر النعام الذي يلتهم الجمر، ويلتقم الحجارة، فيطفئ الجمرَ ويميع الصخْر، وضرب في أعراقه نَجْرُ الكلبِ الذي يرضُّ كلَّ عظم. ولا يقبض عليه بكفِّه إلاّ هو واثق بفتّه، ولا يسيغه إلاّ وهو على ثقةٍ من استمرائه. فأمَّا الذئب فإنَّه لا يروم بفكّيه شيئاً إلاّ ابتلعَه بغير معاناةٍ، عظماً كان أو غيرَه، مصمتاً كان أو أَجْوفَ.

ولذلك قال الراجز: [من الرجز]

أَطلَس يُخْفِي شخصَه غُبارُه   في فمِهِ شَفْرتُه ونارُه(٢)

---

(١) ربيع الأبرار ٥/ ٤٢٧.

(٢) الرجز بلا نسبة في البيان ١/ ١٥٠، وديوان المعاني ٢/ ١٣٤، والأمالي ٣/ ١٢٩.

فأبو قُرْدُودةَ لم يُرِدْ أنَّ الذئب والكلب خالاه، وأنَّ النعام نَجلَه، وإنما قال ذلك على المثَل والتشبيه، ولم يردْ أَنَّ له ظئراً من الكلاب، وخالاً من الذئاب.

وشبيهُ ذلك قول أَمير المؤمنين المأمون لبعض الناس: يا نُطَفَ الخمَّارين، ونزائع الظُّؤورة، وأشباه الخُؤولة.

وعلى شبيهٍ بذلك قال سلم بن قُتَيبة لبعض من ذكره، وهو عند سليمان بن عليٍّ: أيُّها الأمير، إنَّ آلَ فلانٍ أعلاجُ خلقِ الله وأوباشُه، لئامٌ غُدر، شرَّابون بأَنْقُع[1]، ثمَّ هذا بعدُ في نفْسه، نُطفَةُ خَمَّار في رَحِم صَنَّاجة[2].

١١١ - [زواج الأجناس المتباينة من الناس]

وقال لي أبو إسحاق: قال لي أبو العباس - وأبو العباس هذا كانَ ختنَ إبراهيمَ على أخته، وكانَ رجلاً يَدين بالنجوم، ولا يقرُّ بشيءٍ من الحوادث إلاّ بما يجري على الطباع. قال أبو إسحاق: وقال لي مرَّة: أتعرفُ موضعِ الحُظْوة من خَلْوة النساء؟. قُلْتُ: لا واللّه لا أعرفُه. قال: بل اعلم أن لا يكونُ الحظُّ إلاَّ في نِتاج شكلين متباينين، فالتقاؤهما هو الأكسير المؤدّي إلى الخلاص: وهو أن تُزاوِج بين هنديَّةٍ وخُراسانيٍّ، فإنها لا تلد إلاَّ الذهبَ الإبريز. ولكن احرُس ولدَها، إن كان الولدُ أنثى فاحذَر عليها من شدَّة لواط رجال خراسان وزناء نساء الهند، واعلمْ أن شهوتَها للرجال على قدرِ حُظوتِها عندَهم، واعلمْ أنَّها ستساحق النساءَ على أعراق الخراسانيَّة، وتزْني بالرجال على أعراق الهند، واعلمْ أنّه ممّا يزيد في زِناها ومساحَقَتها معرفتُها بالحُظوة عند الزُّناة، وبالحظِّ عند السحاقات.

١١٢ - [زعمهم في الخلق المركب]

وقالوا في الخلق المركَّب ضُروباً من الحقِّ والباطل، ومن الصدق والكذب. فمن الباطلِ زعْمهم أنَّ الشَّبُّوط ولد الزَّجْر[3] من البُنّيِّ، وأنَّ الشَّبُّوط لا يُخْلَق من الشَّبُّوط، وأنَّه كالبغلِ في تركيبه وإنساله. ورووا ذلك عن أبي واثلة إياسِ بنِ معاوية بن قرّة.

---

(١) في كتب الأمثال: «شرّاب بأنقع، والمثل في جمهرة الأمثال ١/٥٤٠، والمستقصى ٢/١٣١، وفصل المقال ١٥٢، والأمثال لابن سلام ١٠٥. والنقع: الماء المستنقع. والمثل يضرب لمن جرَّب الأمور؛ أو للداهي المنكر.

(٢) في مجمع الأمثال ٢/٣٥٨: «نطف السكارى في أرحام القيان».

(٣) الزجر: ضرب من السمك عظام، صغار الحرشف، يتكلم به أهل العراق. اللسان: زجر ٤/٣١٩.

وزعموا أنّ أمَّ جعفر بنت جعفر بن المنصور، حصَرت في حوضٍ لها ضخمٍ أو بركةٍ كبيرة عدداً كثيراً من الزجر والبُنّيِّ، وأنَّها لم تخلطْ بهما غيرَهما، فمات أكثره وبقيَتْ بقيةٌ كانت الصميمَ في القوَّة، وفي احتمال تَغيُّر المكان فلم تحمل البيضَ حِيناً، ثمَّ إنّها حملت بالشبابيط.

١١٣ - [مطر الضفادع والشبابيط]

وزعم حُريثٌ أنّه كان بإيذَج(١)، فإذا سحابة دهماء طخياء تكاد تمسُّ الأرض، وتكاد تمسُّ قِممَ رؤُوسهم، وأنَّهم سمعوا فيها كأصوات المجانيق، وكَهدير الفحول في الأشوال، ثم إنَّها دفعَت بأشدِّ مطر رُئي أو سُمِع به، حتى استسلموا للغرق، ثمَّ اندفعتْ بالضفادع العظام(٢)، ثم اندفعت بالشبابيط السِّمان الخِدال(٣) فطبخوا واشتَوَوا، وملَّحوا وادَّخَروا(٤).

١١٤ - [غرور أبي واثلة والخليل بن أحمد]

ورووا عن أبي واثلة أنّه زعمَ أنَّ من الدليلِ على أنَّ الشَّبُّوط كالبغل، أنَّ الناسَ لم يجدوا في طولِ ما أكلوا الشبابيطَ في جوفها بَيْضاً قطُّ. فإن كان هذا الخبرُ عن هذا الرجُلِ المَذكُورِ بشدَّة العقل، المنعوت بثُقُوب الفراسة ودقَّة الفطنة صحيحاً، فما أعظمَ المصيبةَ علينا فيه، وما أخلَقَ الخبَرَ أن يكونَ صحيحاً، وذلك أنّي سمعتُ له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان وأقسامِ الأجناس، يدلُّ على أنَّ الرجلَ حينَ أحسَنَ في أشياءَ وهَمه العُجْبُ بنفسه أنَّه لا يَروم شيئاً فيمتنعُ عليه.

وغرَّه من نفسه الذي غرّ الخليل بنَ أحمدَ، حينَ أحسَنَ في النحوِ والعَرُوض، فظنَّ أنّه يُحسِنِ الكَلامَ وتاليف اللُّحون، فكتبَ فيهما كتابَين لا يُشير بهما ولا يُدلُّ عليهما إلاّ المِرَّةُ المحترِقة، ولا يؤدّي إلى مثل ذلك إلاّ خِذلانٌ من اللّه تعالى، فإنّ اللّه عزَّ وجلَّ لا يُعجزه شيء.

١١٥ - [بيض الشبوط وتناسله]

والشَّبُّوط - حفظك اللّه تعالى - جِنسٌ كثيرُ الذكور قليلُ الإناث، فلا يكون إناثه

---

(١) إيذج: بلدة وكورة بين خوزستان واصفهان. وقيل: هي بلدة من كور الأهواز وبلاد الخوز، وقيل: من قرى سمرقند عند الجبل. معجم البلدان ١ / ٢٨٨.

(٢) انظر الفقرة (١٢٣).

(٣) الخدال: جمع خدلة، وهي العظيمة الممتلئة. اللسان: خدل.

(٤) ربيع الأبرار ٥ / ٤٤٠.

أيضاً يجمعْن البيض، وإذا جمعنَ فلو جمعتَ بيضَ عشرٍ منهنَّ لَمَا كان كشَطْر بَيضِ بُنَّيَّة واحدةٍ. وقد رأيتُ بَيْضَ الشَّبُّوط وذقتُه للتعرُّف فوجدته غيرَ طائل، ولا مُعجب. وكلُّ صيّادٍ تساله فهو يُنْبيك أنّ له بيضاً، ولكنَّه إذا كانَ يكونُ ضئيلاً قليلا، لأنَّ الشبابيطَ في أصلِ العدد من أقلِّ السمك. وكذلك الجنس منه إذا كانت الأنثى منه مِذكاراً.

١١٦ - [مواطن الشبوط]

على أنَّه رُبَّ نهرٍ يكونُ أكثرُ سَمكه الشَّبُّوط، وذلك قليل، كنهر رَامَهُرْمز. والشَّبُّوط لا يتربَّى في البحار، ولا يسكن إلاّ في الأوديةِ والأنهار، ويكره الماءَ الملحَ ويطلبُ الأَعذبَ فالأعذب، ويكون في الماء الجاري، ولا يكون في الساكن. وسنذكر شأنَه في موضعه من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

١١٧ - [رد على ما زعموا في الزرافة]

ولم يصب أبو واثلة ، وكذَبوا على أمِّ جعفر[١]. فإذا قالوا في الزَّرافةِ ما قالوا[٢] فلا تأمَنْهم على ما هو دونَه. وإن كان مَن كذَب على الموتى واستشهد الغُيَّبَ أحذقَ، فصاحبُ الزرافة قد استعمل بعض هذه الحيلة، وصاحب الشَّبُّوط يكذب على الأحياء، ويستشهد الحضور. وإن كان الذي دعا إلى القول في الزرافة أنهم جعلوا تركيب اسمه دليلاً على تركيب الخلق. فالجاموس بالفارسية كاوماش. وتأويله ضائنيّ بقريّ، لأنهم وجدوا فيه مشابهةَ الكبش وكثيراً من مشابهة الثور، وليس أنّ الكِباشَ ضربت في البقر فجاءت بالجواميس.

١١٨ - [زعم الفرس في تقسيم الحيوان]

وزعم الفرسُ أنّ الحيوان كلَّه الذي يلد حيواناً مثلَه مِّما يمشي على أربع قوائم، لا تخلو أجناسها من المعز والضأن. والجواميسُ عندهم ضأن البقر،والبُخْت عندهم ضأن الإبل، والبَراذين عندهم ضأن الخيل.

١١٩ - [زعم في الإبل]

والناس يقولون في الإبل أقاويلَ عجيبةً: فمنهم مَن يزعمُ أن فيها عِرقاً من سِفاد

---

(١) انظر الفقرة (١١٢).

(٢) انظر الفقرة (١٠٥).

الجنّ، وذهبوا إلى الحديث: أنهم إنما كرهوا الصلاة في أعطان الإبل لأنها خُلقَتْ من أعناق الشياطين[١] فجعلوا المثل والمجاز على غير جهته. وقال ابن ميّادة: [من الطويل]

فلما أتاني ما تقول مُحارِبٌ تغنَّتْ شياطين وجُنَّ جنُونُها[٢]

قال الأصمعي المأثور من السيوف الذي يقال: إنّ الجنَّ عملته[٣].

١٢٠ - [القول في الشيطان]

وهم يسمُّون الكِبر والخُنزُوانةَ والنُّعَرَة التي تضاف إلى أنف المتكبّر شيطاناً، قال عمر: حتَّى أنزِعَ شيطانَه، كما قال: «حتى أنزِع النُّعَرة التي في أنفه»[٤]. ويسمُّون الحيَّة إذا كانت داهية منها شيطاناً، وهو قولهم: شيطان الحَماطة[٥]. قال الشاعر: [من الطويل]

تعالج مَثنَى حَضْرميٍّ كأنه تَعَمُّجُ شَيْطانٍ بذي خِروعٍ قَفْرِ[٦]

شبَّه الزِّمام بالحيَّة. وعلى مثل ذلك قال الشاعر: [من الطويل]

شناحية فيها شناح كأنها حباب بكف الشأو من أسطع حشر[٧]

والحباب: الحية الذكر، وكذلك الأيم[٨]. وقد نُهي عن الصلاة عند غيبوبة الشمس، وعند طلوع القرص إلى أن يتتامّ ذلك. وفي الحديث: «إنّها تطلُع بين قَرْنَي شيطان»[٩].

---

(١) في النهاية ٣/٣١٣: «لا تصلوا في أعطان الإبل؛ لأنها خلقت من أعنان الشياطين». أي كانها من نواحي الشياطين في أخلاقها وطبائعها. وفي حديث آخر في النهاية ٣/٢٥٨: «صلوا في مرابض الغنم، ولا تصلوا في أعطان الإبل».

(٢) البيت في ديوان ابن ميادة ٢٣١، وأساس البلاغة (شطن).

(٣) ورد هذا القول في اللسان: ٤/٩ (ثفر) دون ذكر الأصمعي.

(٤) الحديث في النهاية ٥/٨٠، وفيه: «النعرة: ذباب كبير أزرق، يتولع بالبعير، ويدخل أنفه فيركب رأسه، سميت بذلك لنعيرها؛ وهو صوتها، ثم استعيرت للنخوة والأنفة: أي حتى أزيل نخوته.

(٥) في اللسان: حمط ٧/٢٧٧ «الحَماط: يبيس الأفانَى تألفه الحيات. يقال: شيطان حماط... الواحدة حماطة، وقيل: الحماطة بلغة هذيل شجر عظام تنبت في بلادهم تألفها الحيات».

(٦) البيت بلا نسبة في اللسان (حبب، عمج، خرع، شطن، ثنى) والتاج (حبب، خرع، ثنى)، والمقاييس ٢/٢٨، ٣/١٤٨، ٤/١٣٧، والمجمل ٢/٣٠، والمخصص ٧/١١٠، ٨/١٠٩.

(٧) الشناحية من الإبل: الطويل الجسم. اللسان: شنح ٢/٥٠٠.

(٨) الأَيْم والأَيِّم: الحية الأبيض اللطيف: اللسان: أيم ١٢/٤٠.

(٩) النهاية ٢/٤٧٥.

١٢١ - [ضرورة حذق اللغة]

فللعرب أمثالٌ واشتقاقاتٌ وأبنية، وموضعُ كلام يدُلُّ عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضعُ أُخَرُ، ولها حينئذ دَلالات أخر، فمن لم يعرفْها جَهِل تأويل الكتاب والسُّنَّة، والشاهد والمثل، فإذا نظَر في الكلام وفي ضروب من العلم، وليس هو من أَهل هذا الشأن، هلك وأَهلك.

١٢٢ - [الإبل الوحشية]

وزعم ناسٌ أنَّ من الإبل وحشيًّا وكذلك الخيل، وقاسوا ذلك على الحمير والسَّنانير والحمام وغيرِ ذلك، فزعموا أنَّ تلك الإبلَ تسكنُ أرض وَبَارِ، لأنَّها غيرُ مسكونة، ولأنَّ الحيوانَ كلَّما اشتدَّت وحشيَّتهُ كان للخَلاء أطلب. قالوا: وربَّما خرجَ الجملُ منها لبعضِ ما يعرِض، فيضرب في أدنى هَجْمةٍ من الإبل الأهلية. قالوا: فالْمَهْرِيَّةُ من ذلك النِّتاج.

وقال آخرون: هذه الإبلُ الوحشيَّة هي الحُوش، وهي التي مِن بقايا إبل وَبَار، فلمَّا أهلكهم اللّه تعالى كما أهلك الأمم مثلَ عادٍ وثمودَ والعمالقة وطَسْمٍ وجَديسَ وجاسم، بقيَتْ إبلُهم في أماكنهم التي لا يَطُورها إنْسيٌّ فإن سقَطَ إلى تلك الجيزة بعض الخلعاء، أَوْ بَعْضُ من أضلَّ الطريق حثَت الجنُّ في وجهه، فإنْ ألحَّ خَبَلته، فضربَتْ هذه الحوش في العُمَانيّة، فجاءَت هذه المَهْرِيَّة، وهذه العسجديَّة التي تسمى الذهبيَّة.

وأنشدني سعدان المكفوف عن أبي العميثل قول الراجز: [من الرجز]

ما ذمَّ إبْلِي عَجَمٌ ولا عَرَبْ جُلودُها مِثلُ طَواويسِ الذَّهبْ

وقال الآخر: [من الوافر]

إذا اصطكَّتْ بضيق حَجْرَتاها تلاقَى العَسجديَّةُ واللَّطِيمُ[١]

والعسجد من أسماء الذهب.

---

(١) البيت لعامان (أو غامان) بن كعب بن عمرو بن سعد في اللسان (لطم)، والتاج (عسجد)، ولعاهان في التاج (لطم)، وبلا نسبة في اللسان (عسجد)، والمخصص ٧/١٣٢. وفي اللسان: «وقال ابن بري: العسجدية التي تحمل الذهب، وقال: اللطيم: جمع لطيمة؛ وهي العير التي تحمل المسك».

قالوا: وإنَّما سُمِّيتْ صاحبةُ يزيد بن الطَّثَرِيَّة حُوشِيَّةً على هذا المعنى[1].

وقال رؤبة: [من الرجز]

* جرت رحانا من بلاد الحُوش *[2]

١٢٣ - [رد على ما زعموا من مطر الضفادع والشبابيط]

وأما الذي زعم أنَّهم مُطروا الشَّبوط[3]، فإنه لما ظنّ أنَّ الضفادعَ التي تُصابُ بعَقب المطر[4]، بحيثُ لا ماءً ولا وحلَ ولا عينَ ولا شريعة - فإنهم ربما رأوها وسط الدَّوِّ والدَّهناء والصَّمَّان[5] - ولم يشُكَّ أنَّها كانت في السحاب وعلم أنَّها تكون في الأنهار ومنابع المياه، وليس ذلك من الذكر والأنثى، قاسَ على ذلك الظنِّ السمك، ثم جسَرَ فجعلَ السمك شَبُّوطاً. وتلك الضفادعُ إنما هي شيءٌ يُخلَق تلك الساعة، من طباع الماء والهواء والزمانِ وتلك التُّرْبة، على مقاديرَ ومقابلات، وعلى ما أجرى الله تعالى عليه نشأة الخلق.

١٢٤ [امتناع التلاقح بين بعض الأجناس المتقاربة]

وقد تُعرف القرابةُ التي تكون في رأي العين بين الشكلين من الحيوان فلا يكون بينهما تسافُدٌ ولا تلاقُح، كالضأن والمعز، وكالفأر والجُرْذان، فليس بالعجَب في البقر والجواميس أن تكون كذلك. وقد رأينا الخلاسيَّ[6] من الدجاج والدِّيَكة، وهو الذي تخلَّقَ من بين المولَّدات والهِنديَّات، وهي تَحمل اللحم والشحم.

وزعم لي مسعود بن عثمان، أنه أهدى إلى عمرو بن مَسْعَدة، دجاجة ووُزنَ فيها سبعة عشرَ رِطلاً بعد طرح الأسقاط وإخراج الحشوة.

---

(١) سماها «حوشية» أيضاً المبرد في الكامل ٢/٥٢٣. وهي وحشية الجرمية. انظر ديوان يزيد بن الطثرية ١٧ - ١٩، وأعلام النساء ٥/٢٧٥- ٢٧٦.

(٢) البيت في ديوان رؤبة ٧٨، واللسان والتاج (حوش)، والمقاييس ٢/١١٩، وتهذيب اللغة ٥/١٤٢، ومجمل اللغة ٢/١٢٢.

(٣) انظر الفقرة (١١٣).

(٤) ربيع الأبرار ٥/٤٤٠.

(٥) الدوّ: الفلاة الواسعة، وقيل: الأرض المستوية. (اللسان: دوا). الدهناء: سبعة أجبل من الرمل، من ديار بني تميم، بين مكة والبصرة (معجم البلدان ٢/٤٩٣). الصمان: أرض غليظة دون الجبل، كانت لبني حنظلة، والصمان متاخم للدهناء. والصمان جبل؛ أو بلد لبني تميم. والصمان: من نواحي الشام بظاهر البلقاء. (معجم البلدان ٣/٤٢٣).

(٦) الخلاسي من الديكة: بين الدجاج الهندية والفارسية. اللسان: خلس ٦/٦٦.

١٢٥ - [أثر زواج الأجناس المتباينة من الناس][١]

ورأينا الخِلاسيَّ من الناس، وهو الذي يتخلَّق بين الحبشيِّ والبيضاء، والعادةُ من هذا التركيب أنه يخرج أعظمَ من أبوَيه وأقوى من أصلَيه ومثْمِرَيه. ورأينا البَيْسَريَّ[٢] من الناس، وهو الذي يُخلَق من بين البيض والهند، لا يخرج ذلك النِّتاجُ على مقدار ضخم الأبوين وقوّتهما، ولكنه يجيءُ أَحسنَ وأملح. وهم يسمُّونَ الماءَ إذا خالطته الملوحة بيسراً قياساً على هذا التركيب الذي حكَينا عن البيض والهنديات، ورأينا الخِلاسيَّ من الكلاب، وهو الذي يُخلَق بين السَّلُوقيِّ وكلب الراعي، ولا يكون ذلك من الزِّئني والقلطي[٣]، ومن كلاب الدُّور والحرَّاس. وسنقول في السِّمْع والعِسبار، وفي غيرِهما من الخَلْقِ المركَّب إن شاء الله تعالى.

١٢٦ - [أطول الناس أعماراً]

وذكروا أنَّهم وجدوا أطولَ أعمار الناس في ثلاثة مواضع: أوَّلها سَرْوحمير، ثم فَرغانة، ثم اليمامة، وإنّ في الأعراب لأعماراً أطول، على أنَّ لهم في ذلك كِذْباً كثيراً، والهندُ تُربي عليهم في هذا المعنى. هكذا يقول علماء العرب.

١٢٧ - [أثر النبيذ في عمر الإنسان]

وكان عثمانُ ماش ويزال وجذعان، يذكرون أنّهم عدُّوا أربعينَ فتًى مِنْ فتيانِ قريش وثقيف أعذارَ عامٍ واحد فأحصَوْا عشرينَ من قريش، وعشرين من ثقيف، وتوخَّوا المتجاوِرين في المحلّة والمتقاربين في الدُّور من الموفَّرين على النبيذ، والمقصورين على التنادُم، وأنّهم أحصَوا مثلَ ذلك العدد وأشباهَ أولئك في السِّن ممَّن لا يذوق النبيذَ ولا يعرفُ شراباً إلا الماءَ،فذكَروا أَنَّهُمْ وجدُوا بعدَ مرورِ دهرٍ عامَّةَ من كان يشرَبُ النبيذَ حيّاً، ومن لا يشربه قد مات عامَّتُهم، وكانوا قد بلغوا في السنِّ. أما عثمان ويزال فكانا من المعمَّرين، وقد رأيتهما جميعاً ولم أَسمع هذا منهما، وسنأتي على هذا البابِ في موضعه من ذكر المعمَّرين، ونميِّز الصدقَ فيه من الكذب، وما يجوز وما لا يجوز إن شاء الله تعالى.

---

(١) انظر الفقرة (١١١).

(٢) البياسرة: جيل من السند يؤاجرون أنفسهم من أهل السفن لحرب عدوهم، ورجل بيسري. اللسان: بسر ٤ / ٥٩.

(٣) الزئني: القصير القوائم. والقلطي: القصير جداً.

١٢٨ - [ما يعرض للخصيان]

وما أكثر ما يعرض للخصيان البولُ في الفراش وغيرِ ذلك، ولا سيّما إذا بات أحدُهم ممتلئاً من النبيذ.

ويعرض لهم أيضاً حبُّ الشراب والإفراط في شهوته وشدَّة النَّهم.

ويعرض لهمْ أيضاً إيثار المخْفس[١] وحبُّ الصِّرْف، وذلك أيضاً مّما يعرض للنساء، والإفراط في شهوتهنَّ وشدَّة الهمَّة لهنَّ والغيرة عليهنَّ. ويحتلمون، ويجنبُون ويغتسلون، ويرون الماءَ غَير الرائق ولا الغليظ، الذي له ريح طلع الفُحَّال.

ويعرض للخصيِّ شدَّةُ الاستخفاف بمن لم يكن ذا سلطان عظيم أو مال كثيرٍ أو جاهٍ عريض، حتَّى ربَّما كان عند مولاه بعضُ من عسى أن يتقدَّم هؤلاء المذكورين الذين يَكون الخصيُّ كلفاً بهم وبتعظيمهم، ومُغرَماً بخدمتهم، في الأدبِ والحسب، وفي بُعْد الهمَّة وكرم الشِّيمة، فيعمد عند دخول ذلك الرجل الذي له السلطانُ والجاهُ والمالُ إِلى متَّكأ هذا الأديب الكريم، والحسيبِ الشريف، فينزِعه من تحت مرْفَقه، غيرَ محتفل بذلك ولا مكترث لما فيه، ويضعُه له من غير أَنْ يكونَ موضع المرافقَ بعيداً، أَو كان ذلك ممَّا يفُوت بعضَ الفوت، ويفعل ذلك وإن كان يعاشر هذا الأديب الكريم مولاه وهو على يقين أنه لا يرى ذلك الموسَر وصاحبَ الجاهِ أبداً.

١٢٩ - [أقوال في خصاء الخيل]

وقد حرَّم بعضهم خصاءَ الخيل خاصَّة، وبعضُهُم زاد على ذلك حتَّى حَرَّم خصاء البهائم. وقال بَعْضُهُمْ: إذا كان الخِصاءُ إِنَّمَا اجتلَبه فاعله أَوْ تَكَلَّفهُ صاحبُهُ علَى جهة التماسِ المنفعَة، أَو على طريقِ التجارة، فذلك جائز، وسبيلُه سبيل الميسَم، فَإِنّ الميسم نار، و أَلمه يجوزُ كلَّ ألم وقد رأينا إِبلَ الصدَقة موسُومة، ووسمَت العربُ الخيلَ وجميعَ أصنافِ النَّعم في الإِسلام، على مِثل صنيعِها في الجاهليَّة. وقد كانت القَصواءُ ناقة النبي صلى اللّه عليه وسلم موسومة، وكذلك العضْباءُ[٢].

(١) المخفس: شراب سريع الإسكار. أو هو الشراب الكثير النبيذ والقليل الماء. اللسان: خفس. ٦/٦٥.

(٢) في انساب الأشراف ٥١١- ٥١٢ أن اسم ناقته ﷺ القصواء، وتسمى الجدعاء والعضباء. والقصواء التي في أذنها قطع يسير؛ والعضباء مثلها.

١٣٠ - [وسم الحيوان]

وقال آخرون: الخصاء غيرُ شبيه بالميسم[١]، لأنَّ في الخصاء من شدَّة الألم، ومن المُثلة[٢]، ومن قطْع النَّسْل، ومن إدخال النقصِ على الأعضاء، والنقصِ لموادِّ القوى، ما ليس في الميسم وغيره، وهو بقطع الألية أشبَه، والسِّمَةُ إنَّمَا هي لَذْعة، والخصاءُ مجاوِزٌ لكلِّ شديدة.

قال القوم: ولا بأسَ بقطع الألية إذا مَنعت بثقلهَا أو عظَمها الشاةَ من اللَّحاق بالقطيع وخيف عليها من الذئب. وقطعُ الألية في جواز العقول أشبهُ من الميسم، لأنَّ الميسمَ ليس للبعير فيه حظٌّ، وإنَّما الحظُّ فيه لربِّ المال، وقطعُ الأليةِ من شكل الختان، ومن شكل البَطِّ[٣] والفصْد[٤]، ومن جنس الوَجُور والبيطرة، ومن جنس اللَّدُود[٥] والحِجامة، ومن جنس الكيِّ عند الحاجة، وقطع الجارحة إذا خِيف عليها الأَكِلَة.

١٣١ - [وسم الإبل]

قال الأوَّلون: بل لعمري إنَّ للإبلِ في السِّمات لأعظمَ المنافع، لأنهَّا قد تشْرَب بسماتها ولا تُذَاد عن الحوض إكراماً لأربابها، وقد تضِلُّ فتُؤْوَى، وتُصاب في الهُوَاشات[٦] فترُدّ.

قالوا: فإنا لا نسالكم إلاَّ عن سمات الخيل والبغالِ والحمير والغنم. وبعدُ فكيف نستجيز أنْ نَعمَّها بالإحراق بالنار، لأمَر عسى ألاَّ يَحتاج إليه من ألفِ بعيرٍ واحد، ثم عسى ألاَّ يحتاج من جميع ذلك في جميع عمره إلاَّ إلى شَرْبةٍ واحدة.

وقال القوم: إنَّمَا المياسم في النَّعَم السائمة كالرُّقوم في ثياب البزَّاز، ومتى ارتفعت الرقومُ ومُنعت المياسم، اختلَطَت الأموال، وإذا اختلطت أمكَنَ فيها الظلم، والمظلومُ باذلٌ نفسَه دونَ المعيشة والهَضِيمة.

---

(١) الميسم: المكواة أو الآلة التي يوسم بها الدواب. اللسان: وسم ١٢/ ٦٣٦.

(٢) المثلة: هو أن تنصب الدابة فتُرمى أو تقطع أطرافها وهي حية. اللسان: مثل ١١/ ٦١٥.

(٣) البط: شق الدمل. والمبطة: المبضع. اللسان: بطط ٧/ ٢٦١.

(٤) الفصد: شق العِرْق. وفصد الناقة: شق عرقها ليستخرج دمه فيشربه. اللسان: فصد.

(٥) الوجور: ما يصب بالمسعط من الدواء في أي الفم كان، واللدود: ما يصب في أحد شقي الفم. اللسان: وجر ٥/ ٢٧٩.

(٦) الهواشات: الجماعات من الناس والإبل إذا جمعوها فاختلط بعضها ببعض. اللسان: هوش.

وقالوا: ليس قطعُ الألية كالمجثَّمة وكالشيء المصبور، وقد نُهينا عن إحراق الهوامِّ، وقيل لنا: لا تعذّبوا بعَذاب اللّه تعالى، والميسمُ نار، وقطعُ الأَلية من شكل قَطْعِ العروق، وصاحبُ المجثَّمة يقدِر أن يرميَ - إن كان به تعلُّم الرماية - شيئاً لا يألم ولم يُنْهَ عن تغذيبه، فَمَا يَردّ الشيء المصبور من العذاب مَرَدّاً بوجه من الوجوه.

١٣٢ - [القول في نقص بعض أجزاء الحيوان أو نقضها أو إيلامها]

وقال آخرون: ليس لك أن تُحدث في جميع الحيوانِ حدثاً من نقْضٍ أو نقص أو إيلام، لأنك لا تملك النشأة، ولا يمكَنك التعويض له، فإذا أذن لك مالكُ العين، بل مخترعه ومنشئ ذاته والقادر على تعويضه، وهو اللّه عزَّ وجلَّ، حلَّ لك من ذلك ما كان لا يحلّ. وليس لك في حُجَّة العقل أن تصنعَ بها إلاّ ما كان به مصلحةٌ، كعلاج الدَّبَر وكالبيطرة.

وقال آخرون: لنا أن نصنعَ كلَّ ما كان يُصنَع على عهد رسول اللّه ﷺ وبعدَه، ممّا لم يكن مدفوعاً عندَ بعضهم، إلاّ أن يكون نَهْيُ ذلك البعضِ من جماعتهم، في طريق الخلاف والردِّ والمفارقة ولا يكون عندهم قولاً من الأقاويل، فإنَّ ذلك في سبيل العلاج بعد أن كان المتكلّف يَعْرِفُ وجهَ الملام. والمذهب في ذلكَ معروف وإن كان خارجاً من ذلك الحدّ، فقد علمنا أنَّه أُبيح من طريق التعبُّد والمحنة، كما جعل اللّه تعالى لنا ما أحلَّ ذبحَه من البهائم، وكما جعَل لنا أن نقتُل القملَ والبراغيثَ والبعوض، وإن لم يكن منها إلاّ مقدارُ الأذى فقط. والقتل لا يكون قصاصاً من الأذى، ولكن لمَّا أباح لنا خالقُ الشيء والقادر على تعويضه قتلَه، كان قتلُه أسوغَ في العقل مع الأذى، مِنْ ذبح البهيمة مع السلامة من الأذى.

قال: وليس كل مؤذٍ ولا كل ذي أذى حكم اللّه تعالى فيه بإباحة القتل، واللّه عزَّ وجلَّ، بمقادير الأمورِ وبحكم المختلف والمتَّفِق، والقليلِ من ذلك والكثير، أحكَمُ وأعلم.

وقد أمرَ اللّه تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، بذبح إسحاق أو إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فأطاع الوالدُ وطاوع الولد(١).

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الصافات: ١٠٢: ﴿يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى. قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء اللّه من الصابرين﴾. والذي أمر الله بذبحه هو إسماعيل، وليس إسحاق. انظر تفسير ابن كثير ٤ / ١٦.

والجواب الماضي إنما هو قول من قال بالتعويض، وهو قول النظّام. وأكثرُ المتكلّمين يعترِضون عليه فيه.

١٣٣ - [خصاء الإنسان]

ولا يزال - يرحُمك اللّه تعالى - بعضُ الملحدين من المعاندين، أو بَعْضُ الموحِّدين من الأغبياء المنقوصين، قد طعَن في مِلْكِ الخصيِّ وبيعه وابتياعه، ويذكرون الخصيَّ الذي كان المقوقِس عظيمُ القِبط أهداه إلى النبي ﷺ وعلى آله. مع مارية القِبطيَّة أمِّ إبراهيم عليه السلام. قالوا: فقد ملك عليه الصلاة والسلام خَصيًّا بعد أن عرَفه وأحاط علمُهُ بأنَّه خصيٌّ، وأنتم تزعمون أنَّ الخِصاء حرام، وأنَّ من اشترى من الخاصي خَصِيّاً ثم زاد على قيمته وهو فحل، فقد أعان على الخصاء وحثَّ عليه، ورغَّب فيه، وأنَّه من أفحش الظلم وأشدِّ القسوة، وزعمتم أنَّ من فعَل ذلك فهو شريكُ الخاصي في الإثم، وأنَّ حالَه كحال المعروفين بالابتياع من اللصوص. وقلتم: وكذلك من شهد القِمار وهِراشَ الكلاب، ونِطاحَ الكِباش وقتالَ الديوك، وأصحاب المجارحات وحرب الفئتين الضالَّتين. وقلتم: لأنَّ هذه المواضعَ لو لم تحضرها النَّظَّارةُ لما عمِلوا تلك الأعمال، ولو فَعلوها ما بَلغوا مقدارَ الشَّطر، لغلَبة الرياءِ والسُّمعة على قلوب الناس، فكذلك الخاصي، والمشتري، والمبتاع من المشتري، شركاءُ متعاوِنون، وخُلَطاءُ مترادفون. وإذا كان المبتاع يَزيد في السِّلْعةَ لهذه العلَّة، والبائع يزيد في السَّوْم لهذا السبب، وقد أقررتم بأنَّ النبي صلى اللّه عليه وسلم قد قَبِل له من المقوقس، كما قبل مارية، واستخدمه، وجرى عليه ملكُه وأمرُه، فافهمْ ـ فهّمك اللّه تعالى ـ ما أنا مجيبٌ به في هذه المسألة. واللّه الموفِّقُ، وعلى اللّه قَصْدُ السبيل.

أقول: قبلَ كلِّ شيء لا يخلو هذا الحديث الذي رويتموه من أن يكون مرضيَّ الإسناد. صحيحَ المخرج، أو يكونَ مسخوط الإسناد، فاسدَ المخرج. فإن كان مسخوطاً. فقد بطلت المسألة، وإن كان مرضيّاً، فقد علمنا أنّه ليس في الحديث أنَّه قَبِله منه بعد أنْ علِم أنَّه خصيٌّ، وعلى أنَّ قبولَ الهديّة خلاف الابتياع، لأنَّ بائعَ الخصيِّ إنَّما يحرُم عليه التماسُ الزيادة، وكذلك المبتاع إنَّما يحرم عليه دفعُ الزيادة إذا كان لو سلم إليه بذلك الثمن فحلاً أجملَ منه وأشبَّ وأخدمَ منه لم يزدْه، والبائع أيضاً لا يستام بالفحل سَومَه بالخصي. وقبول الهديَّة، وقبول الهبَة، وسبيلُ البيع والابتياع لا بأس به إذا كان على ما وصفنا، وإنَّما هديَّة الخصيِّ كهديَّة الثوب والعطر، والدابَّةِ والفاكهة. ولأنَّ الخصيَّ لا يحرم مِلكُه ولا استخدامُه، بل لا يحلُّ طرده ونفيُه،

وعتقُه جائز، وجوازُ العتق يوجب الملك. ولو باعه المالك على غير طلبِ الزيادة، أو لو تاب من الخصاء أو استحلّه مما أتى إليه، لَمَا حرم على الخاصي نفسه استخدامه، والخصيُّ مالٌ وَملك، واستخدامه حسَنٌ جميل، ولأنَّ خِصاءه إيّاه لا يَعتِقه عليه، ولا يُزيل عن ملكه إلا بمثل ما وَجَبَ به مِلكُه.

وأخرى: أنَّ في قَبول هديَّة ذلك الملكِ، وتلَّقي كرامته بالإكرام تدبيراً وحكمة. فقد بطلت المسْألة، والحمدُ للّه كما هو أهله.

وقد رووا مع ذلك أيضاً: أنَّ زِنباعاً الجُذَاميّ، خصى عبداً له[1]، وأنَّ النبي ﷺ أعتقَه عليه فيما بلغنا. واللّه أعلم.

وربَّما سألوا عن الشيء وليس القولُ فيه يقَع في نسق القول في الخصيّ، وفي الخلْق المركَّب، ولكنْ إذ قد أجبْنا في مسألةٍ كلاميَّة من مسائل الطعْن في النبوَّة، فلا بأسَ أن نُضيف إليها أخرى، ولا سيَّما إذا لم تَطُلْ فتزِيدَ في طُول الكتاب.

وقد لا يزال الطاعنُ يقول: قد علمْنا أنَّ العربَ لم يَسمُوا حروب أيّام الفِجار بالفجور وقريش خاصّة، إلاّ أنّ القتال في البلد الحرام، في الشهر الحرام كان عندهم فجوراً، وتلك حروبٌ قد شهدها النبيُّ صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله، وهو ابن أربَع عشرَ سنةً، وابن أربعَ عشرة سنة يكونُ بالغاً[2]، وقال: «شَهِدتُ الفِجَارَ فكنْتُ أنبُلُ على عمومتي»[3].

وجوابنا في ذلك: أنَّ بني عامر بن صعصعة، طالبوا أهلَ الحرَم من قريشٍ وكنانة، بجريرة البرَّاض بن قيس، في قتله عروة الرحّال، وقد علموا أنَّهم يُطالبون مَنْ لم يجنِ ومن لم يعاونْ، وأنَّ البرَّاض بنَ قيس كان قبل ذلك خليعاً مطروداً، فأتوَهمَ إلى حَرَمهم يُلزِمونهم ذنبَ غيرهم، فدافعوا عن أنفسهم، وعن أموالهم، وعن ذراريهم، والفاجر لا يكون المسْعِيَّ عليه، ولذلك أشهدَ اللّه تبارك وتعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام ذلك الموقف، وبه نُصروا كما نُصرت العربُ على فارسَ يوم ذي قارٍ، به عليه الصلاة والسلام وبمخرجه. وهذان جوابان واضحان قريبان، واللّه الموفّق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

---

(١) النهاية ١/٢٣٣.

(٢) في أنساب الأشراف ١٠٣ أن النبي ﷺ كان عمره عشرين سنة؛ أو أشفّ منها. ومن قال إنه كان ابن أربع عشرة سنة فقد غلط.

(٣) النهاية ١/٤١٤.

١٣٤ - [ذكر محاسن الخصي ومساويه]

ثم رجَعَ بنا القولُ إلى ذكرِ مَحاسِن الخصيّ ومساويه.

الخصيُّ يَنْكِحُ ويتّخذ الجواري ويشتدُّ شغفه بالنساء، وشغفُهنَّ به، وهو وإن كان مجبوب العضو فإنَّه قد بقي له ما عسى أن يكون فيه من ذلك ما هو أعجبُ إليهنَّ. وقد يحتلم ويخرجُ منه عند الوطء ماءٌ، ولكنَّه قليلٌ متغيِّر الريح، رقيقٌ ضعيف. وهو يباشِر بمشقّة، ثم لا يمنعه من المعاودة الماءُ الذي يخرج منه إذْ كان قليل المقدار لا يخرجه من القوّة إلى الضعف، مثل الذي يعتري من يخرج منه شيء يكون من إنسان، وهو أخثرُ، وأكثر، وأحدُّ ريحاً، وأصحُّ جوهراً.

والخصيُّ يجتمع فيه أُمنيَّةُ المرأة، وذلك أنَّها تبغض كلَّ سريعِ الإراقة، بطيء الإفاقة، كما تَكرهُ كلَّ ثقيل الصدر(١)، وخفيف العَجْز، والخصيُّ هو السريع الإفاقة، البطيء الإراقة، المأمونُ الإلقاح، فتقيمُ المرأةُ معَه، وهي آمنة العار الأكبر، فهذا أشدُّ لتوفير لذّتها وشهوتها، وإذا ابتذلن الخِيصانَ، وحَقَرن العبيد، وذهبت الهيبةُ من قلوبهنّ، وتعظيمُ البعول، والتصنُّع لذوي الأقدار باجتلاب الحياء وتكلّف الخجل، ظهَر كلُّ شيءٍ في قوى طبائِعهنّ وشَهواتهنّ، فامكنَهَا النَّخير والصياح، وأن تكون مرَّةً من فوقُ، ومرَّةً من أسفل، وسمحت النفسُ بمكنونها، وأظهَرت أقصى ما عندها.

وقد تجد في النساء مَنْ تؤْثر النساءَ، وتجدُ فيهنَّ من تُؤثر الرجال، وتجد فيهنَّ مَنْ تؤْثِرُ الخصيان، وتجد فيهنَّ من تجمعُ ولا تفرِّق، وتعمُّ ولا تخصُّ، وكذلك شأنُ الرجال في الرجال، وفي النساء والخصيان فالمرأة تنازِع إلى الخصيِّ لأنَّ أمرَه أستر وعاقبتهُ أسلم، وتحرص عليه لأنَّه ممنوعٌ منها، ولأنَّ ذلك حرام عليها، فلها جاذبان: جاذبُ حرصٍ كما يُحْرَص على الممنوع، وجاذبُ أَمْنٍ كما يُرغَب في السلامة. وقال الأصمعيّ: قال يونس بن عُبَيد: لو أُخِذْنا بالْجَزَعِ لصَبَرنا(٢). قال الشاعر: [من البسيط]

وزادها كَلَفاً بالحبِّ أنْ منعَتْ ... وحَبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنِعا(٣)

والحرصُ على الممنوعِ بابٌ لا يَقْدِر على الاحتجاز منه، والاحتراسِ من خُدَعه،

---

(١) مثل امرئ القيس.

(٢) البيان ٣ / ١٣١، وعيون الأخبار ٢ / ٢.

(٣) البيت للأحوص في ديوانه ١٥٣، والحماسة الشجرية ١ / ٥٢١، وزهر الآداب ٤٠٦، ولمجنون ليلى في ديوانه ٢٠١، وبلا نسبة في عيون الأخبار ٢ / ٥، واللسان (حبب)، والبخلاء ١٦١.

إلاَّ كلُّ مبرّز في الفطنة ومتمهِّل في العزيمة، طويلِ التجارب، فاضل العقل على قُوَى الشهوات. وبئس الشيءُ القرينُ السوء. وقالوا: صاحب السُّوءِ قطعةٌ من النار.

وبابٌ من هذا الشكل، فَبِكم أعظَم حاجةٍ إلى أن تعرفوه وتقفُوا عندَه، وهو ما يصنع الخَبَرُ السابق إلى السمع، ولا سيَّما إذا صادفَ من السامع قلَّةَ تجربة، فإنْ قرَن بين قلّة التجربة وقلّة التحفُّظ، دخل ذلك الخبر السابقُ إلى مستقرِّه دُخولاً سهلاً، وصادفَ موضعاً وطيئاً، وطبيعة قابلة، ونفساً ساكنة؛ ومتى صادفَ القلبَ كذلك، رسَخَ رسوخاً لا حيلة في إزالته. ومتى أُلقيَ إلى الفتيان شيءٌ من أمور الفَتيات، في وقت الغَرَارة، وعند غلَبة الطبيعة، وشَباب الشهوَة، وقلّة التشاغُل؛ وكذلك متى أُلقي إلى الفِتيان شيءٌ من أمورهنَّ وأُمُورِ الغلْمان، وهناك سُكْر الشَّباب، فكذلك تكون حالهم. وإنَّ الشُّطَّار لَيخلُو أحدُهم بالغلام الغَرير فيقول له: لا يكون الغلامُ فتًى أبداً حتَّى يصادقَ فتًى وإلاّ فهو تكش، والتكش عندهم الذي لم يؤدّبه فتًى ولم يخرِّجه، فما الماءُ العَذْبُ البارد، بأسرعَ في طباع العطشان، من كلمته، إذا كان للغُلام أدنى هوًى في الفتوَّة، وأدنَى داعيةٍ إلى المنالة. وكذلك إذا خلَت العجوز المدربة بالجارية الحَدَثة كيف تخلبها. وأنشدنا: [من الخفيف]

فأتتْهـا طَبَّـةٌ عالمـةٌ ... تخلط الجدَّ بأصناف اللعبْ
ترفعُ الصوتَ إذا لانت لها ... وتَنَاهَى عند سَورات الغَضَب

وقال الشاعر فيما يشبهُ وقوعَ الْخَبَرِ السابق إلى القلب: [من الكامل]

نقِّلْ فؤادَك حيثُ شئْتَ من الهوى ... ما الحبُّ إلاَّ للحبيب الأوَّلِ(١)
كم منزلٍ في الأرضِ يألَفُه الفتَى ... وحنينُـه أبـداً لأوَّلِ مَنْـزِلِ

وقال مجنون بني عامر: [من الطويل]

أتاني هَواهَا قَبْلَ أنْ أعرِفَ الهوَى ... فصادفَ قلباً خالياً فتمكَّنَا(٢)

١٣٥ - [ما يدعو إلى الفساد]

وبابٌ آخر ممَّا يدعو إلى الفساد، وهو طولُ وقوعِ البصرِ على الإنسان الذي في طبعه أدنى قابلٍ، وأدنى حركةٍ عند مثله. وطولُ التداني، وكثرةُ الرؤيةِ هما أصلُ

---

(١) البيتان لأبي تمام في ديوان الصبابة ١٥.

(٢) البيت لمجنون ليلى في ديوانه ٢٨٢، والبيان ٢/٤٢، وليزيد بن الطثرية في ديوانه ١٠٩، والحماسة الشجرية ١٤٥، ولعمر بن أبي ربيعة في عيون الأخبار ٣/٩. وتقدم في الفقرة (١٨).

البلاء، كما قيل لابنة الخُسّ: لم زَنيتِ بعبْدِك ولم تزني بحرٍّ، وما أغْرَاك به؟ قالت: طُولُ السِّواد، وقُرْبُ الوِساد[1].

ولو أنَّ أقبحَ الناسِ وجهاً، وأنتنَهم ريحاً، وأظهرَهم فقراً، وأسقطَهم نفساً، وأوضعَهم حسَباً، قال لامرأةٍ قد تمكَّنَ من كلامِها، ومكَّنته من سَمْعِها: واللّه يا مولاتي وسيِّدتي، لقد أسهَرْتِ ليلي، وأرَّقْتِ عَيني، وشغلْتِني عن مُهِمِّ أمري، فما أعقِلُ أهلاً، ولا مالاً، ولا ولداً؛ لنَقَض طباعَها، ولفسَخ عَقْدَها، ولو كانتْ أبرعَ الخلْق جمالاً، وأكملَهم كمالاً، وأملحهم مِلحاً. فإنْ تهيّأ مع ذلك من هذا المتعشِّق، أنْ تدمَع عينهُ، احتاجت هذه المرأة أن يكون معها وَرَعُ أمِّ الدرداء، ومُعاذة العدويّة، ورابعةَ القيسيَّة، والشجَّاء الخارجيَّة.

١٣٦ - [زهد الناس فيما يملكونه ورغبتهم فيما ليس يملكونه]

وإنَّمَا قال عمر بن الخطَّاب رضي اللّه تعالى عنهُ: «اضربُوهنَّ بالعُرْي»[2] لأنَّ الثيابَ هي المدعاةُ إلى الخُروج في الأعراس، والقيامِ في المَناحات، والظهورِ في الأعياد، ومتَى كثر خروجُها لم يعدمها أن ترى من هو من شكل طبعها. ولو كان بعلُها أتمَّ حسناً، والذي رأتْ أنقصَ حسناً، لكان ما لا تملكه، أطرفَ ممَّا تملكُه، ولكان ما لم تنلْه، ولم تَستكثر منهُ، أشدَّ لها اشتغالاً وأشد لها اجتذاباً. ولذلك قال الشاعر: [من الطويل]

وِللعين مَلْهًى بالتِّلادِ ولم يقُدْ ... هوى النفس شيءٌ كاقتيادِ الطرائف

وقال سعيد بن مسلم: لأن يرى حرمتي ألفُ رجل على حالٍ تكشَف منها وهي لا تراهم، أحبُّ إليّ من أن ترى حُرْمتي رجلاً واحداً غيرَ منكشف.

وقال الأوَّل: لا يضرُّك حُسْنُ من لم تعرف؛ لأنَّك إذا أتبعتها بصَرك، وقد نقضت طبعك، فعلمْتَ أنَّك لا تصل إليها بنفسك ولا بكتابك ولا برسولك، كان الذي رأيت منها كالحلم، وكما يتصور للمتمنِّي، فإذا انقضى ما هو فيه منَ المنى، ورجعت نفسُه إلى مكانها الأوَّل، لم يكن عليه من فقدها إلاَّ مثلُ فقدَ ما رآه في النوم، أو مثَّلته له الأمانيّ.

---

(١) ورد قولها في البيان ١/٣٢٤، ومجالس ثعلب ٣٠٤، وربيع الابرار ٣/١٥٨، وهو من الأمثال في مجمع الأمثال ٢/٩٣، والمستقصى ٢/١٩٥، وجمهرة الأمثال ٢/١١٤، ١٢٦.

(٢) عيون الأخبار ٤/٧٨. وانظر في مثل قوله ربيع الابرار ٥/٢٨٢-٢٨٣.

١٣٧ - [عقيل بن علفة وبناته]

وقيل لعَقِيل بن عُلَّفة: لو زوَّجْتَ بناتك! فإنَّ النساءَ لحمٌ على وَضَمٍ إذا لم يكنَّ غانيات!! قال: كلا، إنِّي أُجيعُهنَّ فلا يأشَرْنَ، وأُعْرِيهنَّ فلا يظهرْنَ[١]!! فوافقت إحدى كلمتيه قولَ النبي ﷺ ووافقت الأخرى قول عمر بن الخطاب؛ لأن النبي ﷺ قال: «الصَّوْمُ وِجَاء»[٢]. وقال عمر: استعينُوا عليهنّ بالعُرْي. وقد جاء في الحديث: «وفِّروا أشعارهن فإنَّ ترك الشعر مَجْفَرة»[٣]. وقد أتينا على هذا الباب في الموضع الذي ذكرنا فيه شأن الغيرة، وأوَّلَ الفسادِ، وكيف ينبُت، وكيف يُحصَد.

١٣٨ - [ميول الخصيان]

وقد رأيتُ غيرَ خَصيٍّ يتلوَّط، ويطلب الغلمان في المواضع، ويخلو بهم ويأخذهم على جهة الصداقة، ويحمل في ذلك الحديد، ويقاتل دون السخول، ويتمشى مع الشطَّار.

وقد كانَ في قطيعة الربيعِ خصيٌّ أثيرٌ عندَ مولاه، عظيم المنزلة عنده؛ وكان يثق به في مِلْكِ يمينه، وفي حُرَمه من بنتٍ وزوجةٍ وأختٍ، لا يخصُّ شيئاً دونَ شيء، فأشرَفَ ذاتَ يومٍ على مِربَدٍ له، وفي المربد غنمٌ صفايا، وقد شدَّ يَدي شاةٍ وركبها من مؤخَّرها يكُومُها، فلمَّا أبصره بَرِقَ وبَعِلَ[٤] وسُقِطَ في يديه، وهجم عليه أمرٌ لو يكون رآه من خصيٍّ لعدوٍّ لَهُ لَمَا فارقَ ذلكَ الهولُ أبداً قلبَه، فكيف وإنّما عايَن الذي عاين فيمَن كان يخلُفُه في نسائه من حُرَمه ومِلْكِ يمينه. فبينما الرجلُ وهو واجم حزين، وهو ينظر إليه وقد تحرَّق عليه غيظاً إذْ رَفَع الخصيُّ رأسَه، فلمَّا أثبت مولاهُ مَرَّ مُسرِعاً نحوَ باب الدار ليركَبَ رأسَه، وكان المولى أقربَ إلى الباب منه، فسبقه إليه، وكان الموضعُ الذي رآه منه موضعاً لا يُصعَد إليه، فحدَثَ لشقائه أمرٌ لم يجد مولاه معه بُدّاً من صُعودِه، فلبثَ الخصيُّ ساعةً ينتفِض من حُمَّى ركبته ثم فاظ، ولم يُمسِ إلاَّ وهو في القبر.

ولفرْط إرادتِهم النساء، وبالحسرة التي نالتهم، وبالأسف الذي دخلَهم، أبغَضُوا

---

(١) عيون الأخبار ٤/٧٨، والأغاني ١٢/٢٥٩، وربيع الأبرار ٥/٢٨٣، وذيل الأمالي ١٠٦.

(٢) النهاية ٥/١٥٢.

(٣) النهاية ١/٢٧٨ «صوموا ووفروا أشعاركم فإنها مجفرة» أي مقطعة للنكاح، ونقصٌ للماء.

(٤) بَعِلَ: دهش فلم يدر كيف يصنع. اللسان: بعل ١١/٥٩.

الفحولَ بأشدَّ مِنْ تباغُضِ الأعداءِ فيما بينهم، حتَّى ليس بين الحاسدِ الباغي وبينَ أصحابِ النِّعَمِ المتظاهرة، ولا بينَ المَاشي المعنَّى وبينَ راكبِ الهِمْلاجِ الفارِهِ[1]، ولا بين ملوكٍ صاروا سُوقةً، وبينَ سُوقَةٍ صاروا ملوكاً، ولا بينَ بني الأعمام مع وقوع التنافسِ، أو وقوعِ الحربِ، ولا بين الجيرانِ والمتشاكلين في الصناعات، من الشنف والبغضاء، بقدرِ ما يلتحف عليه الخِصيانُ للفحول.

وبُغضُ الخصيِّ للفَحل من شِكل بُغض الحاسِدِ لذِي النعمة، وليس مِنْ شكل ما يولِّده التنافسُ وتُلحِقُه الجنايات.

١٣٩ - [نسك طوائف من الناس][2]

ولرجالِ كلِّ فَنٍّ وضربٍ من الناس، ضربٌ من النسك، إذْ لا بدَّ لأحدِهم من النزوعِ، ومن تركِ طريقته الأولى: فنسك الخصيِّ غزْو الروم، لِمَا أنْ كانوا هم الذين خَصَوهم، ولُزُومُ أَذَنَة والرِّباطُ بطَرَسُوسَ وأشباهِها. فظنَّ عند ذلك أهلُ الفراسة أنَّ سببَ ذلك إنَّما كان لأنَّ الرُّومَ لِما كانوا هم الذين خَصَوهم، كانوا مغتاظين عليهم، وكانت متطلِّبةً إلى التشفِّي منهم، فأخرج لهم حبُّ التشفِّي شدَّةَ الاعتزامِ على قتلهم، وعلى الإنفاقِ في كلِّ شيء يَبلُغ منهم. ونُسكُ الخراسانيِّ أن يُحجَّ: ونسكُ البنوي[3] أن يَدَعَ الديوان. ونسكُ المغنِّي: أن يُكثر التسبيحَ وهو يشربُ النبيذ، والصلاةَ على النبي ﷺ، والصلاة في جماعة. ونسك الرافضيِّ: إظهارُ ترْك النبيذ. ونسك السَّواديِّ ترْكُ شرب المطبوخ فقط. ونسكُ اليهوديِّ: إقامة السبت. ونسك المتكلِّم: التسرُّع إلى إكفارِ أهل المعاصي، وأنْ يرمَي الناسَ بالجبْر، أو بالتعطيلِ، أو بالزندقة، يريد أن يوهم أموراً:

منها أنَّ ذلك ليس إلاّ من تعظيمه للدِّين، والإغراق فيه، ومنها أن يقال: لو كان نَطِفاً، أو مرتاباً، أو مجتنحاً على بليَّة، لما رمى الناسَ، ولرضي منهم بالسلامة، وما كان ليرميَهم إلاّ للعزِّ الذي في قلبه، ولو كان هناك من ذُلِّ الرِّيبة شيء لقطَعَه ذلك عن التعرُّض لهم، أو التنبيه على ما عسى إنْ حرَّكهم له أنْ يتحرَّكوا. ولم نجدْ في المتكلِّمين أنْطفَ ولا أكثرَ عيوباً، ممَّن يرمي خصومَه بالكفر.

---

(١) الهملاج: البرذون، والهملاج: حسن سير الدابة في سرعة. (اللسان: هملج).

(٢) انظر الفقرة ١٧٣.

(٣) الأبناء: قوم من أبناء فارس، ارتهنوا باليمن، وغلب عليهم اسم الأبناء، والنسب إليهم أبناوي في لغة بني سعد. أو بنوي. اللسان: بني ١٤/ ٩١.

١٤٠ - [الجماز وجارية آل جعفر]

وكان أبو عبد الله الجمَّاز، وهو محمد بن عمرو، يتعشَّق جاريةً لآل جعفر يقال لها طُغْيان، وكان لهم خصيٌّ يحفظُها إذا أرادتْ بيوتَ المغنِّين، وكان الخصيُّ أشدَّ عشقاً لها من الجمَّاز، وكان قد حال بينَه وبينَ كلامِها، والدنوُّ منها، فقال الجماز وكان اسم الخادم سناناً: [من المجتث]

ما للمَقيت سنان وللظِّباءِ المِلاحِ
لَبِئْسَ زانٍ خَصِيٌّ غازٍ بغير سلاحِ

وقال أيضاً فيه وفيها: [من المجتث]

نَفْسِي الفداءُ لظبيٍ يحبُّني وأُحِبُّهْ
من أجلِ ذاكَ سنانٌ إذا رآني يَسُبُّهْ
هَبْهُ أجابَ سِناناً يَنيكهُ أين زُبُّه

وقال أيضاً فيهما: [من المجتث]

ظبيٌ سنانُ شريكي فيه فبئسَ الشريكُ
فلا يَنيكُ سِنانٌ ولا يَدَعْنا ننيكُ

١٤١ - [شعر في الخصاء]

وقال الباخَرزيّ يذكرُ محاسِنَ خصال الخصيان: [من الخفيف]

ونساء لمطمئنٍّ مُقيمٍ ورجال إن كانت الأسفارُ

وقال حميد بن ثور يهجو امرأته: [من الطويل]

جُلُبَّانةٌ ورهاء تخصي حمارها بفِي من بغَى خيراً إليها الجلامدُ(١)

وقال مزرِّد بن ضِرار: [من الطويل]

فجاءتْ كخاصي العَيرِ لم تَحْلَ عَاجةً ولا جَاجَةٌ منها تلُوحُ على وَشْمِ(٢)

---

(١) البيت في ديوان حميد بن ثور ٦٥، وأمالي القالي ٢/١٤٦، واللسان والتاج (جلب، جرب)، والمخصص ١٣/٢٧٨، وتهذيب اللغة ١١/٩٤. الجلبانة: الصخابة السيئة الخلق. الورهاء: الحمقاء.

(٢) البيت لأبي خراش الهذلي في شرح أشعار الهذليين ١٢٠١، واللسان (جوج، عوج)، والتاج (جوج، خضل)، وللهذلي في اللسان (خضل)، والتاج (عوج).

وقال عمرو الخاركي: [من الهزج]

إذا لامَ على المرد نصيحٌ زادَني حرصا[1]
ولا واللّه ما أقْـ ـلع ما عمِّرت أو أُخْصى

وقال آخر: [من الوافر]

رَمَاك اللّهُ من أيْرٍ بأفعَى ولا عافاكَ من جَهْد البَلاءِ
جَزَاكَ اللّهُ شرّاً من رفيقٍ إذا بلغت بي ركَبَ النساءِ
أجُبْناً في الكريهة حين نلقى وما تنفكُّ تُنعظ في الخَلاَءِ
فلا واللّه ما أمسَى رفيقي ولولا البولُ عُوجِل بالخصاءِ

وقال بعض عبد القيس: [من الكامل]

ما كان قَحذَمٌ ابنُ واهصَة الْخُصى يرجو المناكحَ في بني الجارودِ
ومِن انتكاس الدهرِ أن زُوِّجتَها ولكلِّ دهرٍ عَثرةٌ بجُدُودِ
لو كان منذرُ إذ خطبت إليهم حيّاً لكان خَصَاكَ بالمغمودِ

وقال أبو عبيدة: حدَّثني أبو الخطاب قال[2]: كان عندنا رجلٌ أحدبُ فسقَط في بئرٍ فذهبت حَدَبته وصار آدَر فقيل له: كيف تجدِك؟ فقال: الذي جاءَ شرٌّ من الَّذي ذهب!

وأبو الحسن عن بعض رجاله قال: خرج معاويةُ ذاتَ يومٍ يمشي ومَعه خَصِيٌّ له، إذ دخلَ على ميسونَ ابنة بحدل وهي أمُّ يزيد، فاستترت منه فقال: أتستترين منه، وإنَّما هو مثلُ المرأَة؟ قالت: أتُرَى أنَّ المثلة به تُحِلُّ ما حرَّم اللّه تعالى؟!

---

(١) البيتان في معجم الشعراء ٣٢.

(٢) الخبر في عيون الأخبار ٣/٤٨، ٤/٦٨، وهو في البرصان والعرجان ٢٦١ وقد رواه أبو الحسن.

ذكر ما جاء في خصاءِ الدوابِّ

١٤٢ - [خصاء الدواب]

ذكر آدمُ بن سليمان عن الشعبيّ قال: قرأت كتابَ عمر رضي اللّه تعالى عنه إلى سعد، يَنْهَى عن حذْف أذناب الخيل وأعرافها، وعن خصائها، ويأمره أن يُجْرِيَ من رأس المائتين. وهو أربعة فراسخ.

وسُفيان الثَّوري عن عاصم بن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه تعالى عنه كان ينهى عن خِصَاء البهائم ويقول: هل الإنماء إلاّ في الذكور.

وشَريك بن عبد اللّه، قال: أخبرني إبراهيم بن المهاجر، عن إبراهيم النَّخَعي أنّ عمرَ رضي اللّه تعالى عنه نَهَى عن خصاءِ الخيل.

وسفيان الثوري عن إبراهيم بن المهاجر قال: كتب عمرُ بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه لبعض عماله: لا تُجرِيَنَّ فرساً إلاّ من المائتين، ولا تخْصِينَّ فرساً.

وقال: وسمعتُ نافعاً يقول: كان عبد اللّه بن عمر يكرَه خِصاءَ الذكورِ من الإبل، والبقر، والغنم.

وعبيد اللّه بن عمر عن نافع: أنَّ ابن عمر رضي اللّه تعالى عنهما كان يكره الخصاء ويقول: لا تقطعوا ناميةَ خَلْقِ اللّهِ تعالى.

وعبد اللّه وأبو بكر ابنا نافع عن نافع قال: نهى رسول اللّه ﷺ عن أن تُخصَى ذكورُ الخيلِ، والإبلِ، والبقر، والغنم، يقول: فيها نشأة الخلق، ولا تصلح الإناث إلاّ بالذكور.

ومحمد بن أبي ذئب قال: سألت الزُّهريَّ: هل بخصاء البهائم بأس؟ قال: أخبرني عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عُتبة بن مسعود، أنَّ رَسول اللّه ﷺ وعلى آله الطاهرين، نهى عن صَبْرِ الروح. قَالَ الزُّهريُّ: والخِصاءُ صبرٌ شديد.

وأبو جعفَر الرَّازيّ قال: حدَّثنا الرَّبيعُ بن أنس، عن أنس بن مالك في قوله تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾[1] قال: هو الخِصاء.

وأبو جرير عن قتادة عن عِكرِمة عن ابن عبَّاس نحوه.

---

(١) ١١٩: النساء / ٤. والأقوال التالية في تفسير هذه الآية وردت في تفسير ابن كثير ١ / ٥٦٩.

أبو بكر الهذليّ قال: سألتُ الحسنَ عن خِصاء الدواب فقال: تسألني عَن هذا؟ لعن اللّه من خَصَى الرجال.

أبو بكر الهذليُّ عن عِكرِمة في قوله تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قال: خصاء الدواب. قال: وقال سعيد بن جبير: أخطأ عكرمة، هو دين اللّه.

نَصر بن طريف قال: حدَّثنا قَتادة عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قال: خصاء البهائم. فبلغ مجاهداً فقال: كذَبَ هو دين اللّه.

فمن العجب أن الذي قال عكرمة هو الصواب، ولو كان هو الخطأ لما جاز لأحد أن يقول له: كذبت. والناسُ لا يضعون هذه الكلمةَ في موضعِ خطأ الرأي ممَّن يُظَنُّ به الاجتهاد، وكان ممَّن له أن يقول. ولو أنَّ إنساناً سمع قولَ اللّه تبارك وتعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قال: إنَّما يعني الخصاء، لم يقبل ذلك منه؛ لأنَّ اللفظ ليست فيه دلالةٌ على شيءٍ دونَ شيء، وإذا كان اللفظُ عامّاً لم يكن لأحد أن يقصد به إلى شيءٍ بعينه إلاَّ أن يكون النبي ﷺ قال ذلك مع تلاوة الآية، أو يكُونَ جبريلُ عليه السلام قال ذلك للنبي ﷺ؛ لأنَّ اللّه تبارك وتعالى لا يضمر ولا ينوي، ولا يخصُّ ولا يعمُّ بالقصد؛ وإنَّما الدلالةُ في بِنيةِ الكلام نفسه، فصورة الكلام هو الإرادة وهو القصد، وليس بينه وبينَ اللّه تعالى عَملٌ آخر كالذي يكون من الناس، تعالى اللّهُ عن قول المشبِّهة علوّاً كبيراً.

أبو جرير عن عمار بن أبي عمار أنَّ ابنَ عباسٍ قَالَ في قوله تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قَالَ: هو الخصاء.

وأبو جرير عن قَتادة عن عِكرمة عن ابن عبَّاسٍ مثله.

أبو داود النَّخَعِيّ، عن محمَّد بن سعيدٍ عن عبادة بن نسيّ، عن إبراهيم بن محيريز قال: كان أحبَّ الخيلِ إلى سَلَفِ المسلمين، في عهد عمر، وعثمان، ومعاوية، رضي اللّه تعالى عنهم، الخِصْيان؛ فإنَّها أخفى للكَمينِ والطلائع، وأبقَى على الجَهْد.

أبو جرير قال: أخبرني ابن جُريج عن عطاء أنَّه لم يَرَ بأساً بخصاء الدواب.

وأبو جرير عن أيُّوبَ عن ابنِ سيرين، أنَّه لم يكن يرى بأساً بالخصاء، ويقول: لو تُرِكت الفحولةُ لأكل بعضُها بعضاً.

وعمر ويونس عن الحسن: أنّه لم يكن يرى بأساً بخصاء الدواب.

سفيان بن عُيينة عن ابن طاوس عن أبيه: أنّه خَصى بعيراً.

وسفيان بن عيينة عن مالك بن مِغوَل عن عطاء، أنه سئل عن خصاء البغل فقال: إذا خفت عِضاضه.

١٤٣ - [أقوال في النتاج المركب]

ولْنَصِلْ هذا الكلام بالكلام الذي قبل هذا في الخلق المركب وفي تلاقح الأجناس المختلفة. زعموا أن العِسبارَ ولد الضبع من الذئب، وجمعه عسابر. وقال الكميت: [من مجزوء الكامل]

وتجمَّــع المتفرِّقُــو نَ من الفَراعِلِ العَسابِرْ[١]

يرميهم بأنّهم أخلاطٌ ومُعَلْهَجُونَ.

وزعموا أنّ السِّمع ولد الذئب من الضبع، ويزعمون أنّ السِّمع كالحيَّة لا تعرف العِلَل، ولا تموتُ حَتْفَ أنفها، ولا تموت إلاّ بعَرَض يَعْرِض لها. ويَزْعمون أنّه لا يَعدو شَيءٌ كعدو السِّمع، وأنّه أسرعُ مِنَ الريح والطَّير.

وقال سهم بن حنظلة يصف فرسه: [من البسيط]

فاعْصِ العواذل وارْمِ اللَّيلَ في عرضٍ بذي شبيبٍ يُقاسي ليْلَهُ خَبَبَا[٢]
كالسِّمع لم يَنقب البَيْطَار سرَّته ولم يَدِجْه ولم يَغمِز له عَصَبَا

وقَالَ ابن كُناسة يصف فرساً: [من الخفيف]

كالعقاب الطلوب يَضْرِبُها الطَّـ ـلُّ وقد صَوَّبَتْ على عِسبار

وقال سؤر الذئب: [من الخفيف]

هو سِمْعٌ إذا تمطَّرَ شيئاً وعُقابٌ يحثُّها عِسْبارُ

يقول: إذا اشتدَّ هربُ المطلوبِ الهاربِ من الطالب الجادّ، فهو أحث للطالب، وإذا صار كذلك صار المطلوبُ حينئذٍ في معنى من يحثُّ الطلب، إذ صار إفراط سرعَتِه سبباً لإفراط طلبِ العُقاب.

وقال تأبط شرّاً، أو أبو محرز خلف بن حيَّان الأحمر: [من المديد]

مُسْبِلٌ بالحيِّ أحوى رِفَلٌ وإذا يَعْدُو فسِمْعٌ أزَلُّ[٣]

---

(١) ديوان الكميت ١/٢٢٨، واللسان والتاج (عسبر)، والمخصص ٨/٧٢. الفرعل: ولد الضبع من الضبعان.

(٢) البيتان لسهم بن حنظلة في الوحشيات ٣٢ والأصمعيات ص ٥٤، ولكعب بن سعد في معجم الشعراء ٢٢٩، ولأحدهما في الحماسة البصرية ١/٨٣ وبلا نسبة في اللسان وأساس البلاغة والتاج (نقب)، ولمرة بن محكان في اللسان والتاج (نقب)، برواية مختلفة.

(٣) البيت لتأبط شراً في ديوانه ٦٤، وهو من قصيدة في شرح الحماسة للتبريزي ١/٣٤١-٣٤٧.

وإنّما قال أزَلّ وجعَلَه عادياً ووصفهُ بذلك، لأنّه ابن الذئب.

وقال الأصمعي: [من الرجز]

* يدير عيني لمظةٍ عِسبارَه *

وقال في موضع آخر: [من الرجز]

* كأن منها طرفه استعارَه *

وقال آخر: [من الرجز]

* تَلقى بها السِّمْعَ الأَزَلَّ الأَطلَسَا *

وزعموا أنَّ ولدَ الذئب من الكلبة الدَّيْسَم، ورووا لبشَّارِ بنِ بُرْد في دَيْسَمٍ العَنزيّ أنّه قال: [من الطويل]

أدَيْسَمُ يا ابنَ الذئبِ مِنْ نسلِ زارعٍ أَتَرْوِي هِجائِي سادراً غَيْرَ مُقْصِرِ

وزارع: اسم الكلب، يقال للكلاب أولاد زارعٍ.

١٤٤ - [زعم لأرسطو في النتاج المركب]

وزعم صاحب المنطق أنّ أصنافاً أُخَرَ من السباع المتزاوِجات المتلاقحات مع اختلاف الجنس والصورة، معروفة النتاج مثل الذئاب التي تسفَد الكلابَ في أرض رُومِيَة: قال: وتتولَّد أيضاً كلابٌ سَلوقيةٌ من ثعالبَ وكلاب. قال: وبين الحيوان الذي يسمَّى باليونانيَّة طاغريس[1] وبين الكلب، تحدث هذه الكلابُ الهندية. قال: وليس يكون ذلك من الولادة الأولى.

قال أبو عثمان: عن بعض البصريين عن أصحابه قال: وزعموا أنَّ نِتاجَ الأولَى يخرجُ صعباً وحشيّاً لا يلقَن ولا يؤلَّف.

١٤٥ - [تلاقح السبع والكلبة]

وزعم لي بعضهم عن رجلٍ من أهلِ الكوفة من بني تميم أنَّ الكلبةَ تعرِض لهذا السبعِ حتَّى تلقَح، ثم تعرَض لمثله مراراً حتى يكون جرو البطن الثالث قليلَ الصعوبة يقبلُ التلقين، وأنَّهم يأخذون إناثَ الكلاب، ويربطونها في تلك البراريّ، فتجيءُ هذه السباعُ وتسفَدُها، وليس في الأرض أنثى يُجتَمَع على حبِّ سفادها، ولا ذكرٌ يجتمع له من النزوع إلى سفاد الأجناسِ المختلفة، أكثرَ في ذلك من الكلب والكلبة.

(١) نهاية الأرب ٩/ ٢٥٦.

قال: وإذا رَبَطوا هذه الكلابَ الإناثَ في تلك البراري، فإن كانت هذه السباع هائجةً سفِدَتها، وإن لم يكن السبع هائجاً فالكلبة مأكولة. وقال أبو عدنان(١): [من الطويل]

أيا باكيَ الأطلالِ في رَسْمِ دمنةٍ   تَرُودُ بها عينُ المَهَا والجآذرُ
وعاناتُ جَوَّال وهَيْق سَفَنَّجٌ   وسنداوة فضفاضة وحَضَاجرُ(٢)
وسِمْعٌ خَفِيُّ الرِزِّ ثِلْبٌ ودَوْبَلٌ   وتُرْمَلَةٌ تعتادها وعَسابرُ(٣)

وقد سمعنا ما قال صاحبُ المنطق من قبل، وما نظنُّ بمثله أن يخلِّد على نفسه في الكتب شهادات لا يحقِّقُها الامتحان، ولا يعرِف صدقَها أشباهُه من العلماء، وما عندَنا في معرفةِ ما ادَّعى إلاّ هذا القول.

وأمَّا الذين ذكروا في أشعارهم السِّمْع والعِسبار، فليس في ظاهر كلامهم دليلٌ على ما ادَّعى عليهم النّاسُ من هذا التركيب المختلف، فأدَّينا الذي قالوا وأمسكْنا عن الشهادة، إذ لم نجد عليها بُرهاناً.

١٤٦ - [أولاد السعلاة]

وللنَّاس في هذا الضَّرْب ضروبٌ من الدعوى، وعلماءُ السوء يُظهرون تجويزَها وتحقيقَها، كالذي يدَّعون من أولاد السَّعَالِي من الناس، كما ذكروا عن عمرو بن يربوع(٤)، وكما يروي أبو زيدٍ النحويُّ عن السِّعلاة التي أقامت في بني تميم حتى وَلَدت فيهم، فلمَّا رأتْ برقاً يلْمَعُ من شقِّ بلاد السَّعالِي، حنَّت وطارت إليهم، فقال شاعرهم: [من الوافر]

رأى بَرْقاً فأوْضَعَ فَوْقَ بَكْرٍ   فَلاَ بِكِ ما أسَالَ وما أغاما(٥)

---

(١) في البيان ١/٢٥٢ «وما كان بالبصرة رجلان أدرى بصنوف العلم، ولا أحسن بياناً من أبي الوزير، وأبي عدنان المعلمين». وله خبر في الأغاني ١٤/٢٢٧.

(٢) الهيق: الظليم لطوله، وذكر النعام. السفنج: الظليم الذكر السريع الخفيف. السنداوة: الذئبة. الفضفاضة: المكتنزة لحماً. حضاجر: اسم للضبع أو ولدها.

(٣) الرز: الصوت الخفي الذي تسمعه ولا تراه، يكون شديداً أو ضعيفاً. ثلب: معيب. دوبل: ذكر الخنازير، أو الذئب العرم. الترملة: من أسماء الثعالب.

(٤) حياة الحيوان ١/٥٥٥-٥٥٦.

(٥) البيت لعمرو بن يربوع في جمهرة اللغة ٩٦٣، ونوادر أبي زيد ١٤٦، وبلا نسبة في الخزانة ٢/١٨ (هارون)، وسر صناعة الإعراب ١/١٠٤، ١٤٤، وشرح المفصل ٨/٣٤، ٩/١٠١.

وأنشدني أن الجنَّ طرقوا بعضَهم فقال: [من الوافر]

أتَوا ناري فَقُلْتُ مَنُونَ أنتمْ   فقالوا الجنُّ قلتُ عِموا ظَلامَا[1]
فقلتُ إلى الطَّعام فقال منهم   زعيمٌ نَحْسُدُ الإِنسَ الطَّعاما

ولم أعِب الرواية، وإنَّما عبتُ الإيمانَ بها، والتوكيدَ لمعانيها. فما أكثَرَ من يَروي هذا الضربَ على التعجُّبِ منه، وعلى أن يجعَلَ الرواية له سبباً لتعريفِ النَّاس حقَّ ذلك من باطله، وأبو زيدٍ وأشباهُه مأمونون على النَّاس؛ إلاَّ أنَّ كلَّ من لَم يكن متكلِّماً حاذقاً، وكان عند العلماء قدوةً وإماماً، فما أقربَ إفسادَه لهم من إفسادِ المتعمِّد لإفسادهم!

وأنشدوا في تثبيتِ أولاد السعلاة: [من الرجز]

تقول جمع من بُوان ووَتِدْ   وحَسَنٌ أنْ كَلَّفتْنِي مَا أجِدْ
ولَمْ تقل جِيء بأبَانٍ أو أُحُدْ   أو ولدِ السِّعلاةِ أو جِروِ الأسَدْ
أو ملكِ الأعجام مأسوراً بقِدْ

وقال آخر: [من الرجز]

يا قاتَلَ اللّه بَنِي السِّعلاةِ   عمراً وقابوساً شِرَارَ النَاتِ[2]

١٤٧ - [ما زعموا في جرهم]

وذكروا أنَّ جُرهُماً كان من نِتاج ما بين الملائكة وبنات آدم، وكان المَلَكُ من الملائكة إذا عصى ربَّه في السماء أهبَطَه إلى الأرض في صورة رجل، وفي طبيعته، كما صنع بهاروت وماروت حين كان من شأنهما وشأنِ الزُّهَرة[3]، وهي أناهيد[4] ما

---

(١) البيتان لشمر بن الحارث في الخزانة ٦/١٦٧، واللسان والتاج (حسد)، ونوادر أبي زيد ١٢٣، والحماسة البصرية ٢/٢٤٦. وبلا نسبة في اللسان والتاج (أنس).

(٢) الرجز لعلباء بن أرقم في النوادر ١٠٤، والجمهرة ٨٤٢، واللسان (نوت، سين، تا)، والتاج (كيت، نوت، عسل)، وبلا نسبة في الاشتقاق ٢٢٧، وفصل المقال ١٩٤، والإنصاف ١١٩، واللسان (أنس، مرس)، والخصائص ٢/٥٣، والأمالي ٢/٦٨، والمخصص ٣/٢٦، ١٣/٢٨٣، واللسان (أنس، مرس)، والتاج (سين)، ورسائل الجاحظ ٢/٣٧٤، ومحاضرات الراغب ٢/٢٨١.

(٣) انظر تفصيل الخبر في تفسير ابن كثير ١/١٤٢ - ١٤٦، وكتب التفسير الأخرى في تفسير الآية ١٠٢ من سورة البقرة.

(٤) أناهيد: كلمة فارسية تعني الزهرة. مفاتيح العلوم ١٢٢. وسماها الإغريق فينوس، وتسمى عشتار، وتعني جميعها آلهة الحب.

كان، فلّما عصى اللهَ تعالى بعضُ الملائكة وأهبطَه إلى الأرض في صورةِ رجل، تزوَّج أمَّ جُرهمٍ فولدتْ له جُرهماً، ولذلك قال شاعرهم: [من الرجز]

لا هُمَّ إنَّ جُرهُماً عِبادُكا | النّاس طِرْفٌ وهُمُ تِلادُكا[1]

١٤٨ - [ما زعموا في بلقيس وذي القرنين]

ومن هذا النسل ومن هذا التركيب والنجل كانت بلْقيسُ ملكةُ سَبأ[2]، وكذلك كان ذو القرنين كانت أمُّه فيرى آدميَّة وأبوه عبرى من الملائكة. ولذلك لما سمِع عمرُ بن الخطَّاب رضي الله تعالى عنه رجلاً ينادي: يا ذا القرنين، فقال: أفَرَغْتُمْ من أسماءِ الأنبياء فارتفعتم إلى أسماءِ الملائكة؟.

وروى المختارُ بن أبي عبيد أنَّ عليّاً كان إذا ذَكَر ذا القرنين قال: ذلك المَلكُ الأمرط.

١٤٩ - [زواج الإنس بالجن]

وزعموا أنَّ التناكُح والتلاقُح قد يقع بين الجنِّ والإنس[3]، لقوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ﴾[4]. وذلك أن الجنِّيّات إنَّما تعرض لصَرْع رجالِ الإنس على جهة التعشُّق وطلب السِّفاد، وكذلك رجال الجنِّ لنساء بني آدم، ولولا ذلك لعرض الرِّجالُ للرِّجال، والنساءُ للنساء، ونساؤهم للرجال والنساء.

ومن زعَم أن الصَّرْعَ من المرَّة، ردَّ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ﴾[5] وقال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾[6]. فلو كان الجانُّ لا يفتضُّ الآدميَّاتِ، ولم يكنْ ذلك قطُّ، وليس ذلك في تركيبِه، لَما قال الله تعالى هذا القول.

١٥٠ - [تركيب النسناس]

وزعموا أنّ النَّسْنَاسَ تركيبُ ما بين الشِّق والإنسان. ويزعمون أنَّ خلقاً من وراء

---

(١) البيت لعمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي في شرح القصائد السبع للأنباري ص٢٥٥. وبلا نسبة في حياة الحيوان ١/٥٥٦.

(٢) رسائل الجاحظ ٢/٣٧١ «كتاب البغال».

(٣) رسائل الجاحظ ٢/٣٧١ «كتاب البغال».

(٤) ٦٤: الإسراء/١٧.

(٥) ٢٧٥: البقرة/٢.

(٦) ٥٦، ٧٤: الرحمن/٥٥.

السدُّ تركيبٌ من النَّسْنَاس، والناس، والشقّ، ويأجوج ومَأجوج. وذكروا عن الوَاق واق والدوَال باي(١) أنهُمْ نِتاجُ ما بينَ بعض النَّبات والحيوان. وذكروا أنَّ أمَّةً كانت في الأرض، فأمرَ اللّه تعالى الملائكة فأجلوَهم؛ وإيَّاهم عَنوا بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾(٢). ولذلك قال اللّه عزَّ وجلَّ لآدم وحواء: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هذهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٣). فهذا يدلُّ على أن ظالماً وظُلماً قد كان في الأرض.

قال الأصمَعيُّ - أو خلَفٌ - في أرجوزة مشهورة، ذكرَ فيها طُولَ عمر الحيَّة: [من الرجز]

أرْقَشُ إنْ أسبَطَ أو تَثَنَّى ... حَسِبْتَ وَرْساً خالَطَ اليرَنَّا(٤)
خالَطَهُ مِنْ هَاهُنَا وَهَنَّا ... إذا تراءَاهُ الحواةُ استَنَّا(٥)

قال: وكان يقال لتلك الأمَّة مهنا.

١٥١ - [زعم المجوس في بدء الخلق]

وزعم المجوس أنَّ الناسَ من ولد مهنة ومهنينة، وأنَّهما تولدا فيما بينَ أرحام الأرَضين، ونطفتين ابتدرتا من عينَي ابن هُرمُز حين قتله هرمز. وحماقات أصحاب الاثنَين كثيرةٌ في هذا الباب. ولولا أنّي أحببْتُ أن تسمَعَ نوعاً من الكلام، ومبلغَ الرأي، لتُحدثَ للّه تعالى شكراً على السلامة، لما ذكرتُ كثيراً من هذا الجنس.

١٥٢ - [صديق إبليس وختنه]

وزعم ابن هيثم أنَّه رأى بالكوفة فتًى من ولد عبد اللّه بن هلال الحميري، صديق إبليس وخَتَنه، وأنَّهم كانوا لا يشكُّون أنَّ إبليسَ جَدُّه من قبَل أمَّهاته. وسنقولُ في ذلك بالذي يجبُ إن شاء اللّه تعالى. وصِلَة هذا الكلام تجيءُ بعد هذا إن شاء اللّه تعالى.

---

(١) الدوال باي: يطلق على جنس هندي يزعمون ان له ارجلاً دقيقة مرنة شبيهة بالسيور، فهو كسيح يتحين فرصة العثور على المسافرين؛ ويلح عليهم ليحملوه. معجم استينجاس ٥٣٩.

(٢) ٣٠: البقرة/٢.

(٣) ٣٥: البقرة/٢، ١٩: الأعراف/٧.

(٤) البيت الثاني والثالث في الدرر ١/٢٤٢، وهمع الهوامع ١/٧٨ بلا نسبة.
الورس: نبت أصفر يكون باليمن، وهو صبغ. (اللسان: ورس). اليرنأ: الحناء. (اللسان: رنأ).

(٥) استن: أسرع.

١٥٣ - [حوار في الكلب]

وقلت: ولو تمَّ للكلب معنى السبع وطباعه، لما ألف الإنسانَ، واستوحش من السبع، وكرِه الغياض، وألف الدُّور، واستوحَشَ من البرارِي وجانب القفار، وألِفَ المجالسَ والدِّيار. ولو تمَّ له معنى البهيمة في الطبع والخلق والغذاء، لما أكل الحيوانَ، وكَلِب على النَّاس. نعمْ حتَّى ربَّما كلِب ووَثَبَ على صاحبِه وكلِبَ على أهله. وقد ذكر ذلك طرفةُ فقال: [من المنسرح]

كُنْتَ لَنَا والدُّهورَ آونةً ... تَقْتُلُ حالَ النَّعيم بالبُؤُس[1]

ككَلْبِ طَسْمٍ وقد تَرَبَّبه ... يَعُلُّه بالحَليبِ في الغَلَسِ

ظلَّ عليه يوماً يُفرْفِرُه ... إلاَّ يَلَغ في الدماءِ يَنْتهِسِ

وقال حاجب بن دينار المازنيُّ في مثل ذلك: [من الطويل]

وكم من عدُوٌّ قد أعنتمْ عليكُم ... بمالٍ وسُلطانٍ إذا سَلم الحَبْلُ[2]

كذِي الكلبِ لمَّا أسمَنَ الكَلْبَ رابَهُ ... بإحدى الدَّواهي حينَ فَارَقَه الجهلُ

وقال عوف بن الأحوص: [من الطويل]

فإنِّي وقيساً كالمسمِّنِ كَلْبَه ... تُخَدِّشُهُ أَنْيَابُه وأظَافِرُه

وأنشد ابن الأعرابي لبعضهم: [من الطويل]

وهُمْ سَمَّنُوا كلباً ليأكُلَ بعضَهمْ ... ولو ظَفِروا بالحزمِ مَا سُمِّنَ الكَلْبُ[3]

وفي المثل: «سمِّن كَلْبَكَ يَأْكُلْك»[4].

وكان رجلٌ من أهل الشام مع الحجَّاج بن يوسف، وكان يحضُر طعامَه، فكتب إلى أهله يخبرُهم بما هو فيه من الخِصْب، وانه قد سَمِن فكتبت إليه امرأته: [من الطويل]

أتُهدِي ليَ القِرطَاسَ والخبْزُ حاجَتِي ... وأنتَ على بابِ الأميرِ بَطِينُ[5]

---

(١) الأبيات ليست في ديوان طرفة، وليس في ديوانه قافية السين، والبيتان الثاني والثالث في ثمار القلوب ٣١٤.

(٢) انظر البيان ٢/١٨٣.

(٣) البيت لمالك بن أسماء في ثمار القلوب ٣١٥، (٥٨٦)، وبلا نسبة في الفاخر ٧٠، وجمهرة الأمثال ١/٥٢٥.

(٤) المثل في مجمع الأمثال ١/٣٣٣، وفصل المقال ٤١٩ والفاخر ٧٠، وفصل المقال ٤١٩، ٤٨٩، والمستقصى ٢/١٢١، وجمهرة الأمثال ١/٥٢٥.

(٥) الأبيات مع الخبر في أمالي القالي ٢/١٣٦، والحماسة المغربية ١٣٩٥، وبهجة المجالس ٢/٤٨.

إذا غِبْتَ لم تَذْكُرْ صَدِيقاً وإن تقمْ فأنتَ على ما في يَدَيك ضَنينُ
فأنت ككَلْبِ السَّوْءِ في جُوعِ أهلِه فيُهْزَلُ أهلُ الكلب وهو سَمِينُ

وفي المثل: «سمن كلب في جوعِ أهلِه»، وذلك أنه عند السُّواف[١] يصيب المال، والإخداجِ[٢] يعرض للنُّوق، يأكُلُ الجيفَ فيسمَن. وعلى أنه حارِسٌ مُحترَسٌ منه، ومؤنسٌ شديد الإيحاش من نفسه، وأليفٌ كثير الخيانةِ على إلفه. وإنما اقتنوه على أنْ ينذِرَهم بموضع السارق، وتركوا طَرده لينبههُم على مكان المبيِّت. وهو أسرقُ من كل سارق، وأدومُ جنايةً من ذلك المبيِّت. ويدلُّ على أنَّه سروقٌ عندَهم، قولُ الشاعر: [من الطويل]

أَفِي أَنْ سرَى كلبٌ فبيَّت جُلَّةً وجَبْجَبةً للوَطب لَيْلَى تُطلقُ[٣]

فهو سَرَّاق، وصاحب بَيات، وهو نَبَّاشٌ، وآكلُ لحومِ النَّاس. ألا إنَّه يجمعُ سرِقة الليل مع سرقة النّهار، ثم لا تجده أبداً يمشي في خِزانةٍ، أو مطبَخ، أو عَرْصةِ دار، أو في طريقٍ، أو في بَراريَّ، أو في ظهرِ جَبل، أو في بَطْنِ وادٍ، إلاَّ وخطمُه في الأرض يتشمَّم ويستروح، وإنْ كانت الأرضُ بيضاءَ حَصَّاءَ ودَوِّيَّةً ملساءَ، أو صخرةً خلقاء؛ حرصاً وجشعاً، وشرهاً وطمعاً[٤]. نعم حتَّى لا تجده أيضاً يرى كلباً إلاَّ اشتمَّ استَه، ولا يتشمَّم غيرهَا منهُ، ولا تراه يُرمَى بحجر أيضاً أبداً إلاَّ رجَع إليه فعضَّ عليه؛ لأنَّه لمَّا كان لا يكاد يأكلُ إلاَّ شيئاً رمَوا به إليه صار ينسَى لفَرْط شرَهه وغلَبة الجشعِ على طبعه، أنَّ الراميَ إنَّما أراد عقْره أو قتلَه، فيظنّ لذلك أنَّه إنَّما أراد إطعامه والإحسانَ إليه. كذلك يخيِّل إليه فرْطُ النَّهم وتوهمُه غلبَةُ الشَّرَه، ولكنَّه رَمى بنفسِه على الناس عجزاً ولؤماً، وفُسولةً ونقصاً[٥]، وخافَ السباعَ واستوحش من الصَّحارى.

ولَمَّا سمِعوا بعضَ المفسِّرين يقول في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ

---

(١) السواف: الموتان في الإبل.

(٢) أخدجت الناقة: أتت بولد ناقص.

(٣) البيت بلا نسبة في اللسان (جبب)، والأساس (وطب)، والجمهرة ١٧٣، ١٢١٣، وتهذيب اللغة ٥١٣/١٠.

(٤) نهاية الأرب ٢٥٧/٩.

(٥) الفسولة: الفتور في الأمر.

مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[1] إنَّ المحروم هو الكلب[2]؛ وسمِعوا في المثل: «اصنَعُوا المعروفَ ولو إلى الكلب»[3] عَطفُوا عليه واتَّخَذُوه في الدُّور. وعلى أنَّ ذلك لا يكون إلاَّ من سِفْلتهم وأغبيائهم، ومن قلَّ تقزُّزُهُ وكثُر جهلُه، وردَّ الآثارَ إمَّا جهلاً وإمَّا معانَدة.

١٥٤ - [حوار في الديك]

وأما الديك فمن بهائم الطير وبغاثها، ومن كلولها والعِيال على أربابها، وليس مِنْ أحرارها ولا مِنْ عتاقها وجوارحها، ولا ممَّا يطرِب بصوته ويُشجِي بلحنه، كالقَماريِّ والدَّباسيِّ[4] والشَّفَانين[5] والوراشين والبلابل والفواخت، ولا ممَّا يُونِق بمنظره ويمتع الأبصار حسنُه، كالطواويس والتَّدارِج[6]، ولا مما يعجب بهدايته ويُعقَد الذمام بإلْفه ونزاعه، وشدة أُنسه وحنينه، وتُريده بإرادته لك، وتَعطِف عليه لحبِّه إياك، كالحمام، ولا هو أيضاً من ذوات الطيران منها، فهو طائرٌ لا يطير، وبهيمةٌ لا يَصيد، ولا هو أيضاً مما يكون صيداً فيمْتِع من هذه الجهة ويُراد لهذه اللّذة.

والخُفَّاش أمرَطُ، وهو جيِّدُ الطيران، والدِّيكُ كاسٍ وهو لا يطير. وأيُّ شيءٍ أعجبُ من ذي ريشٍ أرضيٍّ، ومن ذي جلدةٍ هوائيٍّ.

وأجمعُ الخلق لخصال الخير الإنسان، وليس الزِّواجُ إلاّ في الإنسان وفي الطير، فلو كان الديك من غير الطير ثمَّ كان ممن لا يزاوج، لقد كان قد مُنِع هذه الفضيلة وعَدِم هذه المشاكَلَة الغريبة، وحُرِم هذا السَّببَ الكريم والشِّبْه المحمود. فكيف وهو لا يزاوج، وهو من الطيرِ الذي ليس الزواجُ والإلْف وثباتُ العهْد، وطلَبُ الذرء وحبُّ النَّسل، والرجوعُ إلى السكن والحنين إلى الوطن - إلاَّ له وللإنسان. وكلُّ شيء لا يزاوج فإنَّما دخله النقصُ وخسر هذه الفضيلَة من جهةٍ واحدة، وقد دخل الديكَ النقص مِنْ جهتين. ووصف أبو الأخزَر الحِمَّانيُّ الحمارَ وعَيْر العانة خاصَّة، فإنَّه أمثلُ في باب المعرفة من الأهْليّ، فذكركيف يضرِب في الأُتُن، ووصَفَ استبهامَه عن طلب

---

(١) ١٩: الذاريات / ٥١.

(٢) ورد في تفسير ابن كثير ٤ / ٢٥١ أن المقصود بالمحروم من لا مال له في المال؛ ولا كسب له ولا حرفة. أو الذي لا يسأل الناس شيئاً. أو الذي ذهب ماله.

(٣) المستقصى ١ / ٢١٢.

(٤) الدباسي: طائر صغير من أنواع الحمام البري، قيل هو ذكر اليمام. حياة الحيوان ١ / ٤٦٦

(٥) الشفنين: هو اليمام. حياة الحيوان ١ / ٦٠١.

(٦) التدرج: طائركالدراج يكون بأرض خراسان. حياة الحيوان ١ / ٢٣٠.

الولد، وجهلَه بموْضِع الذَّرْء، وأنَّ الولدَ لم يجئ منه عن طلبٍ له، ولكن النُّطفة البريئة من الأسقام، إذا لاقت الأرحام البريئة من الأسقام حَدَث النِّتاج على الخلقة، وعلى ما سوِّيت عليه البِنية. وذكر أنّ نزوَه على الأتان، من شكل نَزوه على العير، وإنَّما ذلك على قدْر ما يحضُره من الشَّبَق، ثمَّ لا يلتفِت إلى دُبرٍ من قُبُل، وإلى ما يَلقَحُ من مثله ممَّا لا يُلقَحُ فقال: [من الرجز]

* لا مُبْتَغِي الضِّنْءِ ولا بالعازلِ *

يقول: هو لا يريد الولَد ولا يعزل.

والأشياء التي تألفُ الناسَ ولا تريدُ سواهم، ولا تحنُّ إلى غيرهم، كالعصفور والخُطّاف والكلْب والسِّنَّور. والدِّيك لا يألَفُ منزلَه ولا ربْعه ولا يُنازع إلى دجاجته ولا طَرُوقته، ولا يحنُّ إلى ولده، بل لم يَدرِ قطُّ أنّ له ولداً؛ ولو درَى لكان على درايته دليل، فإذ قد وجدناه لبيضه وفراريجه الكائنة منه، كما نجدُه لما لم يلدْه ولمَا ليس من شَكله ولا يرجِع إلى نسَبه، فكيف تُعرَف الأمور إلاَّ بهذا وشبهه. وهو مع ذلك أبلَهُ لا يعرِف أهلَ داره، ومبهوتٌ لا يُثْبِتُ وجهَ صاحِبه، وهو لم يُخْلَق إلاَّ عندَه وفي ظلِّه، وفي طعامِه وشرابِه، وتَحْتَ جناحه.

والكلْبُ على ما فيه يعرف صاحبَهُ، وهو والسِّنَّور يعرفان أسماءهما، ويألَفان موضعَهما، وإن طُردا رَجعا، وإن أُجيعا صَبَرَا، وإن أُهينا احتملا.

والديك يكون في الدار من لَدُنْ كانَ فَرُّوجاً صغيراً إلى أن صار ديكاً كبيراً، وهو إن خرَج من باب الدار، أو سقط على حائط من حيطان الجيران. أو على موضعٍ من المواضع، لم يعرفْ كيف الرُّجوعُ، وإن كان يُرَى منزلُه قريباً، وسهل المطلب يسيراً، ولا يَذكُر ولا يتذكَّر، ولا يهتدي ولا يتصوَّر له كيف يكونُ الاهتداء، ولو حنَّ لَطلَبَ، ولو احتاج لالتمس. ولو كان هذا الخُبْرُ في طباعه لظَهَر، ولكنَّها طبيعةٌ بلهاءُ مستبهِمة، طامحة وذاهلة، ثمَّ يسفَدُ الدَّجاجةَ ولا يعرفُها، هذا مع شدَّة حاجته إليهنَّ وحرصِه على السِّفاد، والحاجةُ تفتقُ الحيلَة، وتَدُلُّ على المعرفة، إلاَّ ما عليه الديك؛ فإنَّه مع حرصه على السِّفاد، لا يعرفُ الَتي يسفَد، ولا يقصد إلى ولد، ولا يحضُن بيضاً ولا يَعطِفُه رَحِمٌ، فهو من ها هنا أحمقُ من الحُبارَى[1] وأعقُّ من الضَّبِّ[2].

وقال عثمان بن عفَّان رضي اللّه تعالى عنه: «كلُّ شيءٍ يحبُّ ولدَه حتى

---

(١) من الأمثال في المستقصى ١ / ٧٤، والدرة الفاخرة ١ / ١٣٣.

(٢) من الأمثال في المستقصى ١ / ٢٥٠، ومجمع الأمثال ٢ / ٤٧، وجمهرة الأمثال ٢ / ٦٩.

الحُبَارى»[1]. فضرَب بها المثلَ كما ترى في المُوق والغفْلة، وفي الجهل والبَلَه. وتقول العرب: «أعَقُّ من الضَّبِّ»؛ لأنَّه يأكلُ حُسُولَه.

١٥٥ - [أكل الهرة أولادها]

وكرُمَ عند العرَب حظُّ الهرَّة، لقولهم: أَبَرُّ مِنْ هرَّة[2]، وأعقُّ مِنْ ضَبٍّ. فوَجَّهوا أكلَ الهرَّةِ أولادَها على شدَّة الحبِّ لها، ووجَّهوا أَكْلَ الضبِّ لها على شدَّة البغْض لها، وليس ينجو مِنْهُ شيءٌ منها إلاّ بشغْله بأكْل إخْوته عنه، وليس يحرُسُها ممَّا يأكلُها إلاَّ ليأكلَها. ولذلكَ قال العَمَلَّسُ بن عَقيل، لأبيه عَقيل بن عُلَّفَة: [من الوافر]

أكلْتَ بَنيك أكْلَ الضَّبِّ حتَّى وَجدتَ مَرارةَ الكلأ الوبيل[3]
فلو أنَّ الأُلَى كانوا شهوداً منعْتَ فِناءَ بيتك من بَجيلِ

وقال أيضاً: [من الوافر]

أكلْت بَنيك أكل الضَّبِّ حتَّى تركت بَنِيك لَيْسَ لَهُمْ عديد[4]

وشبَّه السَّيِّدُ بن محمَّد الحميريُّ، عائشةَ رضي اللّه تعالى عنها في نصْبِها الحربَ يوم الجملِ لقتال بنيها، بالهرَّةِ حين تأكلُ أولادَها، فقال: [من السريع]

جاءَتْ معَ الأَشْقَينَ في هَوْدَجٍ تُزْجي إلى البَصْرَةِ أجْنادَها[5]
كأنَّها في فِعلِها هِرَّةٌ تُريدُ أن تأكُلَ أولادَهَا

١٥٦ - [رعاية الذئبة لولد الضبع]

وتقول العرب أيضاً: «أحمَقُ مِنْ جَهِيزَة»[6]، وهي عِرس الذئب؛ لأنَّها تدعُ ولدها وترضع ولد الضبع.

---

(١) من الأمثال في مجمع الأمثال ٢/١٤٦، والمستقصى ٢/٢٢٧.

(٢) مجمع الأمثال ١/١١٦، والدرة الفاخرة ١/٧٥، ٨٢، والمستقصى ١/١٧، وجمهرة الأمثال ١/٢٠٤، ٢٤٣.

(٣) البيتان لعملس بن عقيل أو لأرطاة بن سهية في نوادر المخطوطات ١/٣٥٩، (العققة)، ولأرطاة ابن سهية في الأغاني ١٢/٢٦٩.

(٤) العقد الفريد ٦/٤٩.

(٥) البيتان في ديوانه ١٧٣.

(٦) مجمع الأمثال ١/٢١٨، وجمهرة الأمثال ١/٣٩٣، والدرة الفاخرة ١/١٣٣، ١٥١، والمستقصى ١/٧٧.

قال: وهذا معنى قول ابن جِذْل الطِّعَان. [من الطويل]

كَمُرضِعَةٍ أولادَ أُخرَى وَضَيَّعَتْ بَنِيهَا فلم تَرْقَع بذلك مَرْقَعا[1]

١٥٧ - [رعاية الذئب لولد الضبع]

ويقولون: إنَّ الضبعَ إذا صِيدَت أو قُتلت، فإنَّ الذئب يأتي أولادَها باللحم. وأنشد الكُميت: [من الطويل]

كما خَامَرَتْ في حِضْنِها أمُّ عامرٍ لِذِي الحبل حتى عَال أوسٌ عِيالها[2]

وأوس هو الذئب. وقال في ذلك: [من مجزوء الكامل]

في كلِّ يومٍ من ذُؤَالَه ضِغْثٌ يَزيد على إبَالَه[3]
فلأحْشأنَّك مِشْقَصاً أوساً أُويسُ من الهباله

الأوس: الإعطاء، وأويس هو الذئب. وقال في ذلك الهذليّ: [من الرجز]

يا ليتَ شعري عنك والأَمْرُ أَمَمْ ما فَعَلَ اليومَ أُويسٌ في الغنمْ[4]

وقال أميَّةُ بن أبي الصّلْت: [من الكامل]

وأبو اليتامى كانَ يُحْسِنُ أوسهم وَيُحوطُهم في كلِّ عامٍ جامدِ[5]

١٥٨ - [حمق بعض الطيور]

ويقولون: «أحْمَقُ مِنْ نَعَامة»[6] كما يقولون: «أَشْرَدُ مِنْ نعامة»[7] قالوا ذلك

---

(١) البيت لابن جذل الطعان في اللسان والتاج (جهز)، وثمار القلوب ٣١٣، والحماسة البصرية ١/٦٥، والمعاني الكبير٢١٢.

(٢) ديوان الكميت ٢/٨٠، واللسان والتاج (جهز، عول، حضن)، والمستقصى ١/٧٧، وتهذيب اللغة ٣/١٩٦، ٦/٣٥، ١٣/١٣٧، وعيون الأخبار ٢/٧٩، وبلا نسبة في اللسان والتاج (أوس).

(٣) البيتان لأسماء بن خارجة في اللسان والتاج (حشا، أوس، إبل، ذال، هبل)،وبلا نسبة في المخصص ٨/٦٦، وتهذيب اللغة ٥/١٣٨. وفي البيت الأول مثل، هو «ضغث على إبالة»، وهو في جمهرة الأمثال ٢/٦، والمستقصى ٢/١٤٨، ومجمع الأمثال ١/٤١٩، والأمثال لابن سلام ٢٦٤.

(٤) الرجز لعمرو ذي الكلب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ٥٧٥، واللسان والتاج (لجب، مرخ، رخم، عمم)، وللهذلي في اللسان والتاج (أوس)، وبلا نسبة في المخصص ٨/٦٦، والجمهرة ٢٣٨، والمقاييس ١/١٥٧.

(٥) ديوان أمية بن أبي الصلت ٣٨٤.

(٦) الدرة الفاخرة ١/١٥٢، والمستقصى ١/٨٥، ومجمع الأمثال١/٢٢٥، وفصل المقال ١/٤١٧، وجمهرة الأمثال ١/٣١٢، ٣٤٣، ٣٩٤.

(٧) لم أجده في كتب الأمثال، بل وجدت «أشرد من ظليم» وهذا المثل في المستقصى ١/١٩٥، والدرة الفاخرة ١/٢٣٦، وجمهرة الأمثال ١/٥٣٨.

لأنّها تدَعُ الحَضْن على بيضها ساعةَ الحاجة إلى الطُّعم، فإن هي في خروجها ذلك رأتْ بيضَ أخرى قد خرجت للطُّعم، حضَنت بيضَها ونسيت بيضَ نفسها، ولعلَّ تلك أن تُصادَ فلا ترجعُ إلى بيضها بالعَرَاء حتَّى تهلِك. قالوا: ولذلك قال ابن هَرْمة: [من المتقارب]

فإنّي وتَرْكي نَدَى الأكرَمينَ　　وقَدْحِي بكَفّيَ زَنْداً شَحَاحا[1]
كتاركةٍ بيضَها بالعَرَاء　　ومُلبِسةٍ بَيضَ أُخْرَى جناحا

وقد تحضُن الحمامُ على بيض الدَّجاج، وتحضُن الدَّجاجةُ بيضَ الطاوُس، فأمَّا أن يَدَعَ بَيضَه ويحضُنَ بيضَ الدَّجاجة، أو تَدَعَ الدجاجةُ بيضَها وتحضُن بيضَ الطاوس فلا. فأمَّا فَرُّوجُ الدَّجاجة إذا خرج من تحت الحمامة؛ فإنَّه يكونُ أكيسَ[2]. وأمَّا الطاوُس الذي يخرج من تحت الدَّجاجة فيكون أقلَّ حسناً وأَبْغَضَ صوتاً.

١٥٩ - [الفرخ والفروج]

وكلُّ بيضةٍ في الأرض فإنَّ اسمَ الذي فيها والذي يخرُج منها فرخ، إلاَّ بيضَ الدَّجاج فإنَّه يسمى فرُّوجاً. ولا يسمَّى فرخاً، إلاَّ أن الشعراء يجعلون الفَرُّوج فَرخاً على التوسُّع في الكلام. ويجوِّزون في الشعر أشياءَ لا يجوِّزونها في غير الشعر، قال الشاعر: [من الطويل]

لَعَمْري لأَصْواتُ المَكَاكيِّ بالضُّحَى　　وسَودٌ تَداعى بالعشيِّ نَواعِبُه[3]
أحبُّ إلينا من فِراخِ دَجاجةٍ　　ومِنْ ديكِ أنباطٍ تَنُوسُ غباغِبُه

وقال الشمَّاخ بن ضِرار: [من الوافر]

ألا مَنْ مُبلغٌ خاقانَ عنّي　　تأمَّلْ حينَ يضربُك الشِّتاءُ[4]
فتجعل في جنابك من صغير　　ومن شيخٍ أضرَّ به الفَناءُ
فراخ دَجاجةٍ يَتْبَعْنَ ديكاً　　يَلُذْنَ به إذا حَمِس الوَغَاءُ

---

(١) البيتان في ديوان إبراهيم بن هرمة ٨٧، والحماسة الشجرية ٢٦٩، وحماسة البحتري ٧٠، والحماسة البصرية ٢/٢٧٧، وشرح الحماسة للمرزوقي ٧٣٧، وعيون الأخبار ٢/١٠٢، واللسان (شحح، جهز، هنبق).
(٢) ربيع الأبرار ٥/٤٤٤.
(٣) ورد البيت الثاني بلا نسبة في المخصص ٨/١٦٧.
(٤) ديوان الشماخ بن ضرار ٤٢٧.

١٦٠ - [حوار في الكلب والديك]

فإنْ قلت: وأيُّ شيء بلَغَ من قدْر الكلبِ وفضيلة الديك، حتَّى يتفرّغ لذكر محاسنهما ومساويهما، والموازنة بينهما والتنوية بذكرهما، شيخان من علْية المتكلِّمين، ومن الجلة المتقدِّمين. وعلى أنَّهما متى أبرما هذا الحكمَ وأفصحا بهذه القضيَّة، صار بهذا التدبير بهما حظٌّ وحكمة وفضيلة وديانة، وقلدَهما كلُّ مَن هو دونَهما، وسيعودُ ذلك عذراً لهما إذا رأيتهما يوازيان بين الذِّبَّان وبنات وَرْدانَ، وبين الخنافس والجِعْلان، وبينِ جميع أجناس الهمَج وأصناف الحشرات، والخَشاش، حتَّى البعوض والفَراش والديدان والقِردان[1] فإن جاز هذا في الرأي وتمَّ عليه العمل، صار هذا الضَّربُ من النظر عِوضاً من النَّظَر في التوحيد، وصار هذا الشكلُ من التمييز خَلَفاً من التعديل والتجوير، وسقَط القولُ في الوعد والوعيد، ونُسي القياسُ والحكم في الاسم، وبطَلَ الردُّ على أهلِ الملل، والموازنةُ بين جميع النِّحَل، والنظرُ في مراشد الناس ومصالحهم، وفي منافعهم ومَرافقهم؛ لأنَّ قلوبَهم لا تتَّسع للجميع، وألسنَتهم لا تنطلِق بالكلِّ. وإنَّما الرأيُ أن تبدأ من الفتق بالأعظم، والأخوف فالأخوف.

وقلتَ: وهذا بابٌ من أبواب الفراغ وشكل من أشكال التطرُّف وطريق من طرق المزاح، وسَبيلٌ من سُبُل المضاحك. ورجالُ الجدِّ غير رجالِ الهزْل، وقد يحسُن بالشَّبابِ ويقبُح مثلُه من الشيوخ، ولولا التحصيلُ والموازنَة، والإبقاء على الأدب، والدِّيانة بشدَّة المحاسبة، لما قالوا: لكلِّ مقامٍ مقال[2]، ولكلِّ زمانٍ رجالٌ[3]، ولكلِّ ساقطةٍ لاقطة[4]، ولكلِّ طعامٍ أكلة[5].

١٦١ - [تنوع الملكات وقوتها وضرورة ظهورها]

قد زعم أناسٌ أنَّ كلَّ إنسانٍ فيه آلة لَمرْفقٍ من المرافق، وأداةٌ لمنفعةٍ من المنافع، ولا بدَّ لتلك الطبيعة من حركةٍ وإنْ أبطأت، ولا بدَّ لذلك الكامنِ من ظهور، فإنْ أمكَنهُ ذلك بعثَه، وإلاَّ سرَى إليه كما يسري السمُّ في البدن، ونمَى كما يَنْمِي العرق، كما أنّ البُزور البرِّيَّة، والحبَّةَ الوحشيَّة الكامنةَ في أرحام الأَرَضين، لا بدَّ لها من حركةٍ

(١) القردان: جمع قراد، وهو دويبة تنتشر في أعطان الإبل. اللسان: قرد.

(٢) مجمع الأمثال ٢/١٩٨، والمستقصى ٢/٢٩٣، والفاخر ٣١٤.

(٣) في مجمع الأمثال ٢/٢٠٢ «لكل دهر رجال».

(٤) مجمع الأمثال ٢/١٩٣، وفصل المقال ٢٣، والمستقصى ٢/٢٩٢، والفاخر ١٠٩.

(٥) لم أجده في كتب الأمثال، بل وجدت: «لكل غدٍ طعام» في مجمع الأمثال ٢/٢٠٢.

عندَ زمان الحركة، ومن التفتُّق والانتشار في إبَّان الانتشار. وإذا صارت الأمطارُ لتلك الأرحامِ كَالنُّطفة، وكان بعضُ الأرض كالأُم الغاذِية فلا بدَّ لكلِّ ثدي قويٍّ أن يُظهِر قُوَّته، كما قال الأوّلُ: [من الطويل]

* ولا بدَّ للمصدور يوماً من النَّفْث *(١)

وقال: [من الطويل]

* ولا بدَّ من شَكوى إذا لم يكنْ صبرُ *(٢)

ولذلك صارَ طلبُ الحساب أخفَّ على بعضهم، وطلبُ الطِّبِّ أحبَّ إلى بعضهم. وكذلك النِّزاع إلى الهندسَة، وشغَفُ أهلِ النُّجوم بالنُّجوم. وكذلك أيضاً ربَّما تحرَّك له بعد الكِبَرَة، وصرف رغبتَه إليه بعد الكهولة، على قدر قوَّة العِرق في بدنه، وعلى قدْر الشَّواغل له وما يعترضُ عليه، فتجد واحداً يَلهج بطلب الغناء واللحون، وآخر يلهج بشهوة القتال، حتى يَكْتَتبَ مع الجُند، وآخر يختار أن يكون ورّاقاً، وآخر يختارُ طلبَ الملك، وتجدُ حرصَهم على قدر العلل الباطنة المحرِّكة لهم، ثمَّ لا تَدْري كيف عرضَ لهذا هذَا السَّببُ دونَ الآخَرِ إلاَّ بجملة منَ القول، ولا تجدُ المختارَ لبعض هذه الصناعات على بعضٍ يعلَمْ لم اختارَ ذلك في جملةٍ ولا تفسير، إذْ كان لم يَجْرِ منه عَلَى عِرْق، ولا اختارَه على إرْث.

١٦٢ - [من سار على غير طبعه]

وليس العجبُ من رجلٍ في طباعه سببٌ يَصِلُ بينه وبينَ بعض الأمور ويحرِّكه في بعض الجهات، ولكنَّ العجبَ ممَّن يموت مغنِّياً وهو لا طبعَ له في معرفة الوزن، وليس له جرمٌ حسَن(٣)، فيكون إن فاته أن يكون معلّماً ومغنِّيَ خاصَّة أنْ يكون مُطرباً ومُغَنِّيَ عامَّة، وآخر قد ماتَ أن يُذكرَ بالجود، وأن يسخَّى على الطعام، وهو أبخلُ الخلق طبعاً. فتراه كلفاً باتِّخاذ الطيِّبات ومستَهتَراً بالتكثير منها. ثمّ هو أبداً مفْتَضِحٌ وأبداً منتقض الطباع، ظاهرُ الخطأ، سيِّئ الجزع عندَ مؤاكلةِ من كان هو الداعيَ له، والمرسلَ إليه، والعارفِ مقْدارَ لَقْمه ونهايةَ أكله.

فإنْ زعمتم أنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء إنَّما هو رهنٌ بأسبابه. وأسيرٌ في أيدي عِلَله،

(١) مجمع الأمثال ٢/٢٤١.

(٢) عجز بيت لمالك بن حذيفة في حماسة البحتري ١٩٧، وصدره: (وما كثرة الشكوى بأمر حزامة)، والبيت بلا نسبة في البيان ٣/٢٢٠، ٤/٦٣، وعجزه في رسائل الجاحظ ١/١٤٤.

(٣) الجرم: الصوت أو الحلق.

عذَرتم جميعَ اللئام وجميع المقصِّرين، وجميعَ الفاسقين والضالِّين. وإن كان الأمر إلى التمكين دونَ التسخير. أفَليس من أعجبِ العجبَ ومن أسوأ التقدير التمثيل بين الدِّيَكة والكِلاب.

قَدْ عرَفنا قولَك، وفهمْنا مذهبَك.

فأما قولُك: «وما بلَغ من خَطَر الديك وقدر الكلب» فإنَّ هذا ونحوَه كلامُ عبدٍ لم يفهم عن ربِّه، ولم يَعقِل عن سيِّده، إلاَّ بقدْرِ فهم العامَّة أو الطبقة التي تلي العامَّة. كأنَّكَ، فهَّمك اللّه تعالى، تظنُّ أنَّ خَلْقَ الحيَّة والعقرَب، والتدبيرَ في خلقِ الفَراش والذباب، والحكمةَ في خلْق الذئاب والأسد وكلَّ مبغَّضٍ إليك أو محقَّرٍ عندك، أو مسخَّرٍ لك أو واثبٍ عليك، أنَّ التدبير فيه مختلفٌ أو ناقص، وأنَّ الحكمةَ فيه صغيرةٌ أو ممزوجة.

١٦٣ - [امتزاج الخير بالشر من مصلحة الكون]

اعلم أنَّ المصلحةَ في أمرِ ابتداء الدنيا إلى انقضاء مُدَّتها امتزاجُ الخير بالشرِّ، والضارِّ بالنافع، والمكروه بالسارِّ، والضَّعَة بالرِّفعة، والكَثْرة بالقِلَّة. ولو كان الشرُّ صِرْفاً هلَكَ الخلقُ، أو كان الخيرُ مَحضاً سقَطت المحْنة وتقطَّعَتْ أسبابُ الفكرة، ومع عَدَم الفكرة يكون عَدَمُ الحكمة، ومتى ذهب التَخيير ذهب التمييز، ولَم يكن للعالِم تثبُّتٌ وتوقُّف وتعلُّم، ولم يكن علم، ولا يُعرف بابُ التبيُّن، ولا دفعُ مضرةٍ، ولا اجتلابُ منفعة، ولا صَبْر على مكروهٍ ولا شكْرٌ على محبوب، ولا تفاضُلٌ في بيانٍ، ولا تَنَافس في درجةٍ، وبطلَت فَرحةُ الظَّفَر وعزُّ الغلبة، ولم يكن على ظهرها مُحِقٌّ يجد عزَّ الحق، ومُبْطِلٌ يجد ذلَّة الباطل، وموقنٌ يجد بَرْدَ اليقين، وشاكٌّ يجد نقصَ الحَيرة وكَرْبَ الوُجوم؛ ولم تكن للنفوس آمالٌ ولم تتشعَّبْهَا الأطماع. ومَن لم يعرف كيف الطَّمعُ لم يعرِفِ اليأس، ومن جَهِل اليأسَ جهِلَ الأمن، وعادت الحالُ من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياءُ والأولياءُ، إلى حالِ السبُعِ والبهيمة، وإلى حال الغباوة والبلادة، وإلى حال النجوم في السُّخْرة؛ فإنها أنقص من حالِ البهائم في الرُّتْعَة. ومَنْ هذا الذي يسرُّه أن يكون الشمسَ والقمرَ والنَّارَ والثلج، أو برجاً من البروج أو قطعةً من الغيم؛ أو يكونَ المَجرَّةَ بأسْرِها، أو مكيالاً من الماء أو مقداراً من الهواء؟! وكلُّ شيءٍ في العالم فإنما هو للإنسان ولكلِّ مختَبَرٍ ومُختَار، ولأهل العقول والاستطاعة، ولأهل التبيُّن والرويَّة.

وأين تقعُ لَذَّة البهيمة بالعَلُوفة، ولذَّة السبع بلَطْع الدَّمِ وأكل اللحم - مِن سرورِ الظَّفَر بالأعداء؛ ومِنِ انفتاحِ بابِ العلم بعد إدْمان القَرْع؟ وأين ذلك من سرورِ السُّودَد ومن عزِّ الرياسة؟ وأين ذلك من حال النُّبوّةِ والخلافة، ومِن عزِّهما وساطعِ نورهما. وأينَ تقعُ لذَّةُ درْك الحواسِّ الذي هو ملاقاةُ المطعَم والمشرب، وملاقاةُ الصوتِ المُطرِبِ واللّونِ المونق، والملمسة الليِّنة - مِن السرور بنَفاذ الأمرِ والنَّهي، وبجواز التوقيع، وبما يُوجب الخاتَمُ من الطاعة ويُلزِم من الحجَّة؟!.

ولو استَوت الأمور بطَلَ التمييزُ، وإذا لم تكن كلفةٌ لم تكن مَثوبة، ولو كان ذلك لبطلتْ ثمرةُ التوكُّلِ على اللّه تعالى، واليقينِ بأنَّه الوَزَرُ والحافظ، والكالئ والدافع، وأنَّ الذي يحاسبُك أجْوَدُ الأَجْوَدين، وأرحَمُ الراحمين، وأنه الذي يقبلُ اليسيرَ ويَهَبُ الكثير، ولا يهلك عليه إلاّ هالك. ولو كان الأمرُ على ما يشتهيه الغَرير والجاهلُ بعواقبِ الأمور، لبطَلَ النَّظَرُ وما يشحذ عليه[1]، وما يدعو إليه، ولتعطَّلت الأرواحُ من معانيها، والعقولُ من ثِمارها، ولعَدِمت الأشياءُ حظوظَها وحقوقَها.

فسبْحَان من جعل منافعَها نعمةً، ومضارَّها ترجع إلى أعظم المنافع، وقسّمها بين مُلِذٍّ ومُؤلم، وبين مؤنسٍ ومُوحش، وبين صَغيرٍ حقير وجليل كبير، وبين عدوٍّ يرصُدُك وبين عقيلٍ يحرسك، وبين مُسَالمٍ يَمْنَعُكَ، وبين مُعينٍ يعضُدك، وجعَل في الجميع تمامَ المصلحة، وباجتماعها تتمُّ النعمة، وفي بطلان واحدٍ منها بُطلانَ الجميع، قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً. فإنّ الجميع إنَّما هو واحدٌ ضُمّ إلى واحدٍ وواحدٌ ضُمَّ إليهما، ولأنّ الكلَّ أبعاضٌ، ولأنّ كلَّ جُثَّةٍ فمن أجزاء، فإذا جوَّزتَ رفْعَ واحدٍ والآخرُ مثلُه في الوزن وله مثلُ علَّته وحظِّه ونصيبه، فقد جوَّزْتَ رفعَ الجميع؛ لأنّه ليس الأولُ بأحقَّ من الثاني في الوقت الذي رجوتَ فيه إبطالَ الأوَّل، والثاني كذلك والثالث والرابع، حتَّى تأتيَ على الكلِّ وتستفرغ الجميع. كذلك الأمورُ المضمَّنة والأسباب المقيَّدة؛ ألا ترى أنَّ الجبلَ ليس بأدلَّ على اللّه تعالى مِنْ الحصاة، وليس الطاوسُ المستحسنُ بأدَلَّ على اللّه تعالى مِنْ الخنزير المستقبح. والنارُ والثلج وإنْ اختلفا في جِهَة البرودة والسُّخونة، فإنَّهما لم يختلفا في جهة البرهان والدَّلالة.

وأظنُّك ممَّن يرى أنَّ الطاوسَ أكرمُ على اللّه تعالى من الغراب، وأن التُّدْرُجَ[2]

---

(١) شحذته: سقته سوقاً شديداً. اللسان: شحذ.

(٢) التدرج: طائر كالدراج يغرد في البساتين بأصوات طيبة، يكون بأرض خراسان، حياة الحيوان ١/ ٢٣٠.

أعزُّ على اللّه تعالى من الحِدَأة، وأنّ الغزالَ أحبُّ إلى اللّه تعالى من الذئب. فإنَّما هذه أمور فرّقها اللّه تعالى في عيون الناس، وميَّزها في طبائع العباد، فجعَلَ بعضها بهم أقربَ شبهاً، وجعل بعضَها إنسيّاً، وجعل بعضَها وحشيّاً، وبعضها غاذِياً، وبعضها قاتلاً. وكذلك الدُّرَّة وَ الخَرَزة والتمرة والجَمرة.

فلا تَذْهَبْ إلى ما تريك العينُ واذهَبْ إلى ما يريك العقل.

١٦٤ - [الحكم الظاهر والحكم الباطن]

وللأُمور حكمان: حكم ظاهرٌ للحواس، وحكم باطنٌ للعقول. والعقل هو الحجَّة. وقد علمْنا أنَّ خَزَنَة النارِ من الملائكة، ليسوا بدون خزَنَة الجنَّة؛ وأنَّ ملك الموت ليس بدُونِ ملَكِ السَّحاب، وإن أتانا بالغَيث وجلب الحيَاء[1]؛ وجبريلُ الذي يَنْزِل بالعذاب، ليسَ بدونِ ميكائيل الذي ينزِل بالرحمة؛ وإنَّما الاختلاف في المطيع والعاصي، وفي طبقاتِ ذلك ومواضعه. والاختلاف بين أصحابنا أنَّهم إذا استووا في المعاصي استَووا في العقاب، وإذا استَووا في الطاعة استووا في الثواب، وإذا استووا في عدم الطاعة والمعصية استووا في التفضل. هذا هو أصل المقالة، والقُطْب الذي تدورُ عليه الرحى.

١٦٥ - [التين والزيتون]

وقد قال اللّه عزّ وجلَّ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾[2] فزعم زَيدُ بنُ أسلم أنَّ التِّين دمشق، والزيتون فلَسطين[3]. وللغالية في هذا تأويلٌ أرغبُ بالعتْرة عنه وذكرِه. وقد أخرَجَ اللّه تبارك وتعالى الكلامَ مُخرَجَ القسم. وما تُعرَف دِمَشق إلاّ بدِمشق، ولا فلَسطين إلاّ بفلسطين. فإن كنتَ إنَّما تقف من ذكرِ التين على مقدار طعمِ يابسه ورَطْبه، وعلى الاكتنانِ بورَقه وأغصانه، والوَقود بعيدانه، وأنّه نافعٌ لصاحب السُّلِّ، وهو غذاءٌ قويٌّ ويصلُح في مواضعَ من الدواء، وفي الأَضْمدة، وأنَّه ليس شيءٌ حلو إلاّ وهو ضارٌّ بالأسنانِ غيره، وأنّه عند أهلِ الكتاب الشَّجرةُ التي أكَلَ منها آدمُ عليه السلام، وبورقها ستَرَ السّوءَة عند نزولِ العقوبة، وأنّ صاحبَ البواسيرِ يأكله ليُزْلِقَ عنه الثفل، ويسهلَ عليه مخرج الزِّبل؛ وتقف من الزيتون على زيتِه والاصطباح به، وعلى

---

(١) الحياء: الخصب والمطر

(٢) ١: التين/ ٩٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٥٦٣.

التادُّم بهما والوَقود بشجرهما، وما أشبه ذلك من أمرهما - فقَدْ أساتَ ظَنّاً بالقرآن، وجهلتَ فضلَ التأويل. وليس لهذا المقدارِ عظّمهما الله عزّ وجلّ، وأقسَمَ بهما ونوّه بذكرهما.

١٦٦ - [التأمل في جناح البعوضة]

ولو وقفْتَ على جَناحِ بَعوضةٍ وُقوفَ معتبِر، وتأمَّلتَه تأمُّلَ متفكّرٍ بعد أن تكونَ ثاقبَ النَّظرِ سليمَ الآلة، غوّاصاً على المعاني، لا يعتريك من الخواطر إلاّ على حسب صحَّة عقلك، ولا من الشواغل إلاّ ما زادَ في نشاطك، لملأت ممَّا تُوجدك العبرةُ من غرائبَ الطوامير الطّوال، والجلود الواسعة الكِبار، ولرَأَيتَ أنَّ له من كثرة التصرُّف في الأعاجيب، ومن تقلُّبه في طبقات الحكمة، ولرأيتَ له من الغزْر والرَّيع، ومن الحَلب والدَّرّ ولتَبجَّسَ عليك من كوامنِ المعاني ودفائنها، ومن خَفيَّاتِ الحكم وينابيعِ العلم، ما لا يشتدُّ معه تعجّبُك ممَّن وقَفَ على ما في الدِّيك من الخصالِ العجيبة، وفي الكلبِ من الأمور الغريبة، ومن أصناف المنافع، وفنون المرافق؛ وما فيهما من المِحَن الشّدَاد، ومع ما أودعا من المعرفة، التي مَتى تجلَّت لك تصاغرَ عندك كَبيرُ ما تستعظم، وقلَّ في عينك كَثير ما تستكثر. كأنَّك تظنُّ أنَّ شيئاً وإنْ حسُن عندك في ثمنِه ومنظره، أنَّ الحكمةَ التي هي في خلْقه إنَّما هي على مقدارِ ثمنه ومنظَره.

١٦٧ - [كلمات الله]

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِه سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلماتُ اللَّه﴾[1] والكلماتُ في هذا الموضع، ليس يُريد بها القولَ والكلامَ المؤلَّفَ منَ الحروف، وإنَّما يريد النِّعَم والأعاجيب، والصفات وما أشبه ذلك، فإنَّ كلاًّ من هذه الفنون لو وقَف عليه رجلٌ رقيقُ اللسان صافي الذهن، صحيحُ الفِكْر تامُّ الأدَاة، لما بَرِح أن تحسره المعاني وتَغْمرَه الحِكَم.

١٦٨ - [الموازنة والمقابلة بين نوعين]

وقد قال المتكلمون والرؤساء والجلّةُ العُظماءُ في التمثيل بين الملائكة والمؤمنين، وفي فرق ما بين الجنّ والإنس. وطباعُ الجنّ أبعدُ من طباع الإنس، ومن طباعِ الديك، ومن طبَاع الكلب. وإنَّما ذهبوا إلى الطاعة والمعصية. ويخيَّل إليَّ أنك لو كنت سمعتَهما يمثّلان ما بين التُّدْرُج والطاوُس، لَمَا اشتدَّ تعجّبُك. ونحن نرى أنَّ

---

(١) ٢٧: لقمان / ٣١.

تمثيلَ ما بينَ خصالِ الدُّرَّة والحمامة، والفيل والبعير، والثَّعلب والذيب أعجَب، ولسنا نعني أنَّ للدُّرَّة ما للطاوس من حسنِ ذلك الريش وتلاوينه وتعاريجه، ولا أنَّ لها غَناءَ الفرَس في الحرب والدَّفْع عن الحريم؛ لكنَّا إذا أردنا مواضعَ التدبير العجيبِ من الخلْق الخسيس، والحسَّ اللطيفِ من الشيءِ السخيف، والنَّظرِ في العواقب من الخَلق الخارج من حدود الإنس والجنّ والملائكة، لم نذهب إلى ضخَم البدَن وعظَم الحجم، ولا إلى المنظر الحسَن ولا إلى كثرة الثمن. وفي القرد أعاجيبٌ وفي الدُّبِّ أعاجيب، وليس فيهما كبير مَرْفقٍ إلاّ بقدْرِ ما تتكسَّب به أصحاب القردة، وإنما قصدنا إلى شيئين يَشيعُ القولُ فيهما، ويكثُرُ الاعتبار ممَّا يستخرِج العلماءُ من خفِيِّ أمرهما. ولو جمعْنا بين الدِّيك وبين بعضِ ما ذكرت، وبين الكلب وبين بعض ما وصفت، لانقطع القولُ قبل أن يبلغَ حدَّ الموازنة والمقابلة.

وقد ذكرتَ أنَّ بعضَ ما دعاك إلى الإنكار عليهما والتعجُّب من أمرهما، سقوطُ قدرِ الكلب ونذالتُه، وبَلَهُ الدِّيكِ وغباوتُه، وأنَّ الكلبَ لا بهيمةٌ تامَّة ولا سبعٌ تامٌّ، وما كان ليخرجَه من شيءٍ من حدود الكلاب إلى حدود الناس، مقدارُ ما هو عليه من الأُنس بهم، فقد يكون في الشيءِ بعضُ الشبه مِنْ شيء ولا يكون ذلك مُخرِجاً لهما من أحكامِهما وحدودِهما.

١٦٩ - [تشبيه الإنسان بالقمر والشمس ونحوهما]

وقد يشبِّه الشعراءُ والعلماءُ والبلغاءُ الإنسانَ بالقمر والشمس، والغيثِ والبحر، وبالأسد والسيف، وبالحيَّة وبالنَّجم، ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حدِّ الإنسان. وإذا ذمُّوا قالوا: هو الكلب والخنزير، وهو القرد والحمار، وهو الثور، وهو التَّيس، وهو الذيب، وهو العقرب، وهو الجُعَل، وهو القَرنْبَى؛ ثم لا يُدخِلون هذه الأشياءَ في حدود الناس ولا أسمائهم، ولا يُخرجون بذلك الإنسانَ إلى هذه الحدودِ وهذه الأسماء. وسمَّوا الجاريةَ غزالاً، وسمَّوها أيضاً خِشْفاً، ومُهْرةً، وفاختةً، وحمامةً، وزهرةً، وقضيباً، وخيزراناً، على ذلك المعنى. وصنَعوا مثلَ ذلك بالبروج والكواكب، فذكَروا الأسدَ والثور، والحَمَل والجدي، والعقربَ والحُوت، وسمَّوها بالقوس والسُّنبلة والميزان، وغيرها. وقال في ذلك ابن عَسَلة الشيبانيّ: [من الكامل]

فصَحَوتَ والنَّمَريُّ يحسَبُها عَمَّ السِّمَاكِ وخَالَةَ النَّجْمِ

ويُروى عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «نِعْمَتِ العَمة لَكُم النَّخلة خُلقت مِنْ فضلة

طينةِ آدم»[1] وهذا الكلام صحيحُ المعنى، لا يَعيبه إلاّ مَن لا يعرف مجاز الكلام. وليس هذا ممَّا يطَّرِد لنا أن نقيسَه، وإنَّما نُقدِم على ما أقدَموا، ونُحجم عمّا أحجموا، وننتهي إلى حيثُ انتهوْا.

ونراهم يسمُّون الرجلَ جملاً ولا يسمُّونه بعيراً، ولا يسمُّون المرأةَ ناقة؛ ويسمُّون الرجلَ ثوراً ولا يسمُّون المرأةَ بقرةً، ويُسَمُّونَ الرجل حماراً ولا يسمون المرأة أتاناً؛ ويسمُّون المرأة نعجةً ولا يسمُّونها شاة. وهم لا يضعون نعجةً اسماً مقطوعاً، ولا يجعلون ذلك علامةً مثلَ زيد وعمرو، ويسمُّون المرأة عنْزاً.

١٧٠ - [تسمية الإنسان بالعالم الأصغر]

أوَ ما علمتَ أنّ الإنسان الذي خُلقت السمواتُ والأرضُ وَمَا بَينَهما من أجْله كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا في السَّمَوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ جَميعاً منْهُ﴾[2] إنَّما سَمُّوه العالَم الصغير سليلَ العالَم الكبير، لمَا وجَدوا فيه من جَمع أشكالِ ما في العالم الكبير، ووجدْنا له الحواسَّ الخمسَ ووجَدُوا فيه المحسوسات الخمس، ووجدُوه يأكل اللَّحمَ والحبَّ، ويجمعُ بينَ ما تقتاته البهيمةُ والسبع، ووجَدوا فيه صَولةَ الجمل ووُثوبَ الأسد، وغدْرَ الذئب، وروَغان الثعلب، وجُبْن الصِّفْرِد[3]، وجَمْعَ الذَّرَّة، وصنْعةَ السُّرْفة[4] وجُودَ الدِّيك، وإلفَ الكلب، واهتداءَ الحمام. وربَّما وجدوا فيه ممَّا في البهائم والسباع خُلُقَيْن أو ثلاثة، ولا يبلغُ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهتداؤه وغَيرته، وصَولته وحقدُه، وصبرُه على حَمْلِ الثِّقْل، ولا يلزَم شبهُ الذئب بقدْر ما يَتَهَيَّأُ فيه من مثل غدْره ومكْره، واسترواحه وتوحُّشه، وشدَّة نُكْره. كما أن الرجلَ يصيبُ الرأيَ الغامضَ المرَّةَ والمرَّتين والثَّلاثَ، ولا يبلغُ ذلك المقدارُ أن يقال له داهيةٌ وذو نَكراء أو صاحبُ بَزْلاء، وكما يخطئ الرجلِ فيفحُش خَطَاؤه في المرَّة والمرَّتين والثلاث، فلا يبلغ الأمرُ به أن يقال له غبيٌّ وأبلهُ ومنقوص.

وسمَّوه العالمَ الصغيرَ لأنَّهم وجدُوه يصوِّر كلَّ شيءٍ بيده، ويحكي كلَّ صوتٍ بِفَمه[5]. وقالوا: ولأنَّ أعضاءَه مقسومةٌ على البروج الاثني عشر والنجومِ السبعة، وفيه

---

(١) الحديث في النهاية ٣/٣٠٣.

(٢) ١٣: الجاثية / ٤٥.

(٣) الصفرد: طائر من خساس الطير تسميه العامة أبا مليح، حياة الحيوان ١ / ٦١٨.

(٤) السرفة: دويبة سوداء الرأس وسائرها أحمر، تتخذ لنفسها بيتاً مربعاً من دقائق العيدان، تضم بعضها إلى بعض بلعابها على مثال الناوس ثم تدخل فيه وتموت. حياة الحيوان ١ / ٥٥٥.

(٥) البيان والتبيين ١ / ٧٠.

الصفراء وهي من نِتاج النار، وفيه السوداء وهي من نِتاج الأرض، وفيه الدَّمُ وهو من نِتاج الهواء، وفيه البلغَمُ وهو من نِتاج الماء. وعلى طبائعه الأربع وضعت الأوتاد الأربعة. فجعَلوه العالَمَ الصغير، إذ كانَ فيه جميعُ أجزائه وأخلاطه وطبائعه. ألا تَرَى أنَّ فيه طبائعَ الغضبِ والرضَا، وآلة اليقين والشكّ، والاعتقاد والوقف وفيه طبائعُ الفطنة والغَباوة، والسلامة والمكر، والنصيحة والغِشّ، والوَفاء والغدر، والرياء والإخلاص، والحبّ والبُغْض، والجدّ والهزْل، والبخْل والجُود، والاقتصاد والسّرَف، والتواضع والكبر، والأُنسِ والوحشة، والفكرة والإهمال، والتمييز والخبْط، والجبْن والشجاعة، والحزم والإضاعة، والتبذير والتقتير، والتبذل والتعزز، والادّخار والتوكُّل، والقَناعة والحِرْص، والرغبة والزُّهْد، والسُّخْط والرِّضا، والصبر والجزَع، والذِّكر والنسيان، والخوف والرجاء، والطَّمَع واليأس، والتنزُّه والطبَع، والشكّ واليقين، والحياء والقحَة، والكتْمان والإشاعة، والإقرار والإنكار، والعلم والجهل، والظلم والإنصاف، والطلب والهَرب، والحقْد وسرْعة الرضا، والحدَّة وبُعْد الغَضب، والسُّرور والهمّ، واللَّذَّة والألَم، والتأميلِ والتمنّي، والإصرارِ والنَّدَم، والجمَاحِ والبَدَوات، والعيّ والبلاغَة، والنُّطق والخرَس، والتصميمِ والتوقف، والتغافُلِ والتفاطُن، والعفوِ والمكافأة، والاستطاعة والطبيعة، وما لا يحصى عدده، ولا يُعرَف حَدُّه.

فالكلبُ سبع وإن كانَ بالناس أنيساً، ولا تخرجُه الخصلة والخَصلتان ممَّا قاربَ بعضَ طبائعِ الناس، إلى أن يخرجَه من الكَلْبيَّة. قال: وكذلك الجميع. وقد عرَفت شبَه باطنِ الكلب بباطن الإنسان، وشبَه ظاهرِ القرد بظاهر الإنسان: ترى ذلك في طَرْفه وتغميضِ عينه، وفي ضِحْكه وفي حكايته، وفي كفِّه وأصابعه، وفي رفعِها ووضعِها، وكيف يتناولُ بها، وكيف يجهز اللُّقمة إلى فيه وكيف يكسِر الجَوْزَ ويستخرج لبَّه وكيف يَلْقَنُ كل مَا أُخذَ به وأُعيدَ عليه، وأنَّهُ من بين جميعِ الحيوان إذا سقط في الماء غرِق مثلَ الإنسان، ومع اجتماعِ أسبابِ المعرفة فيه يغرق، إلاَّ أن يكتسب معرفةَ السباحة، وإن كان طبعُه أوفى وأكمل فهو من هاهنا أنقص وأكلُّ. وكلُّ شيءٍ فهو يسبَح من جميع الحيوانات، ممَّا يوصف بالمعرفة والفطنة، وممَّا يوصَفُ بالغَباوة والبَلادة؛ وليس يصير القردُ بذلك المقدار من المقاربَة إلى أن يخرُج من بعض حدود القرود إلى حدود الإنسان.

١٧١ - [عود إلى الحوار في شأن الكلب والديك]

وزعمتَ أنَّ ممَّا يمنعُ من التمثيل بين الديك والكلب أنّه حارسٌ محترسٌ منه. وكلُّ حارسٍ من الناس فهو حارسٌ غيرُ مأمونٍ تَبدُّلُه.

ولقد سأل زيادٌ ليلةً من الليالي: مَنْ على شُرطتكم؟ قالوا: بَلْج بنُ نُشْبَة الجُشَميّ. فقال: [من الطويل]

وساعٍ مع السلطانِ يَسعى عليهمُ ومحترسٍ مِن مثلِه وهو حارس

ويقال: إن الشاعر قال هذا الشعرَ في الفلافس النَّهشَليّ، حين ولِيَ شُرطةَ الحارِث بن عبد اللّه فقال: [من الطويل]

أقلّي عليَّ اللومَ يا ابنةَ مالكٍ وذُمِّي زماناً سادَ فيه الفُلافسُ[1]
وساعٍ مع السلطان يَسعَى عليهمُ ومُحتَرسٍ من مثلِه وهو حارسُ

وليس يُحكمَ لِصغار المضارِّ على كبارها بل الحكمُ للغامر على المغمور والقاهر على المقهور. ولو قد حكَينا ما ذكر هذا الشَّيخُ من خِصال الكلب وذكَرَ صاحبُه من خصالِ الديك، أيقنتَ أنَّ العجَلةَ من عمل الشيطان، وأنَّ العُجْبَ بئس الصاحب.

وقلتَ: وما يبلغُ من قدْر الكلب ومِن مقدارِ الديك، أن يتفرَّغ لهما شيخان من جِلَّة المعتزِلة، وهم أشراف أهلِ الحكمة؛ فأيُّ شيءٍ بلغ، غفر اللّه تعالى لك، من قدْرِ جزءٍ لا يتجزَّأ من رمْل عالج، والجزء الأقلُّ من أوَّل قطْع الذَّرَّة للمكان السحيق، والصحيفة التي لا عمقَ لها، ولأيِّ شيء يُعنَوْن بذلك، وما يبلغ من ثمنه وقدْرِ حجْمه، حتَّى يتفرَّغَ للجدالِ فيه الشُّيوخ الجِلَّة، والكهولُ العِلْية، وحتَّى يختاروا النَّظرَ فيه على التسبيح والتهليل، وقراءة القرآن وطولِ الانتصاب في الصلاة؛ وحتَّى يزعم أهلُه أنَّه فوقَ الحجِّ والجهاد، وفوقَ كلِ برٍّ واجتهاد. فإنْ زعمتَ أنّ ذلك كلّه سواءٌ، طالت الخُصومةُ معَك، وشغلْتنا بهما عمّا هو أولى بنا فيك. على أنَّك إذا عَممْتَ ذلك كلَّه بالذمِّ، وجَلَّلته بالعيب، صارت المصيبةُ فيكَ أجلَّ، والعزاءُ عنها أعسر. وإن زعمتَ أنَّ ذلك إنَّما جاز لأنَّهم لم يذهبُوا إلى أثمان الأعيان في الأسواق، وإلى عظم الحجم، وإلى ما يروقُ العينَ ويلائمُ النفس، وأنَّهم إنَّما ذهبوا إلى عاقبة الأمر فيه، وإلى نتيجته، وما يتولَّد عنه من علم النِّهايات، ومن باب الكلِّ والبعْض، وكان ويكون، ومن باب ما يحيط به العلم أو ما يفضل عنه، ومن فَرق ما بين مذاهب الدُّهريَّة ومذاهب الموحِّدين. فإن كان هذا العذْرُ مقبولاً، وهذا الحكم صحيحاً، فكذلك نقول في الكلب، لأنَّ الكلبَ ليس له خطرٌ ثمين ولا قَدْر في الصدرِ جليل؛ لأنَّه إن

(١) البيتان في عيون الأخبار ١/٥٧، والشعر والشعراء ٤١٢. وانظر مجمع الأمثال ٢/٣٢١، والمستقصى ٢/٣٤٢، وفصل المقال ٩٤.

كان كلبَ صيد فديتُه أربعون درهماً، وإن كان كلب ضَرْعٍ فديتُه شاة، وإن كان كلبَ دارٍ فديتُه زِنبيلٌ من تراب، حُقَّ على القاتل أن يؤدِّيَه، وحُقَّ على صاحب الدار أن يقبلَه، فهذا مقدارُ ظاهرِ حاله ومُفتَّشه، وكوامنُ خصاله، ودفائنُ الحكمة فيه. والبرهاناتُ على عجيب تدبير الربِّ تعالى ذكرُه فيه،على خلاف ذلك؛ فلذلك استجازُوا النَّظَر في شأنه، والتمثيلَ بينَه وبين نظيره.

وتعلم أيضاً مع ذلك أنَ الكلبَ إذا كانَ فيه، مع خُموله وسقوطه، مِن عجيبِ التدبير والنعمةِ السابغةِ والحكمة البالغة، مثلُ هذا الإنسان الذي له خلق الله السمواتِ والأرضَ وما بينهما، أحقَّ بأنْ يُفكر فيه، ويُحْمَدَ اللّهُ تعالى على ما أودَعَه من الحكمةِ العجيبةِ، والنِّعمة السابغة.

وقلت: ولو كان بدلُ النظرِ فيهما النظرَ في التوحيد، وفي نفي التشبيه، وفي الوعد والوعيد، وفي التعديل والتجوير، وفي تصحيح الأخبار، والتفضيلِ بين علم الطبائع والاختيار، لكان أصوبَ.

١٧٢ - [دفاع عن المتكلمين]

والعجبُ أنَّك عَمَدْتَ إلى رجالٍ لا صناعةَ لهم ولا تجارةَ إلاَّ الدعاء إلى ما ذكرت، والاحتجاجُ لما وصفت، وإلاَّ وَضْعُ الكتبِ فيه والولايةُ والعداوةُ فيه، ولا لهمْ لَذَّةٌ ولا هَمٌّ ولا مذهبٌ ولا مجازٌ إلا عليه وإليه؛ فحين أرادُوا أن يُقَسِّطُوا بينَ الجميعِ بالحصص، ويَعْدلوا بينَ الكلِّ بإعطاء كلِّ شيء نصيبه، حتَّى يقعَ التعديلُ شاملاً، والتقسيطُ جامعاً، ويظهرَ بذلك الخفيُّ من الحكَم، والمستورُ من التدبير، اعترضْتَ بالتعنُّت والتعجُّب، وسطَّرت الكلامَ، وأطلتَ الخَطب، من غير أنْ يكون صوَّبَ رأيَكَ أديبٌ، وشايَعَك حكيم.

١٧٣ - [نسك طوائف من الناس]

وسأضرب لك مثلاً قد استوجبتَ أغلظَ منه، وتعرَّضتَ لأشدَّ منه ولكنَّا نستأني بك وننتظرُ أوْبَتَك. وَجَدْنا لجميعِ أهلِ النَّقص، ولأهلِ كلِّ صنفٍ منهم نُسْكاً يعتمدون عليه في الجمَال، ويحتسبون به في الطاعة وطلَب المثُوبة، ويفزَعون إليه، على قدْرِ فساد الطِّباع، وضعف الأصل، واضطراب الفرْع، مع خبْث المنشأ، وقلَّة التثبُّتِ والتوقُّفِ، ومع كثرة التقلُّب والإقدام مَعَ أوّلِ خاطر(١): فنُسك المَريب

(١) تقدم القول على نسك طوائف من الناس في الفقرة (١٣٩).

المرتابِ من المتكلّمين أنْ يتحلّى برمْي الناسِ بالرِّيبة، ويتزيَّنَ بإضافة ما يجدُ في نفسه إلى خَصمه، خوفاً من أن يكونَ قد فطِن له، فهو يستُرُ ذلك الداءَ برمْيِ الناس به.

ونُسكُ الخارجيِّ الذي يتحلَّى به ويتزيًّا بجماله، إظهارُ استعظامِ المعاصي، ثم لا يَلتفت إلى مجاوزَة المقدارِ وإلى ظُلْم العباد، ولا يقِف على أنَّ اللّه تعالى لا يحبُّ أن يَظْلِمَ أظلمَ الظَّالمين، وأنَّ في الحقِّ ما وسِعَ الجميع.

ونسْك الخُراسانيِّ أن يُحجَّ ويَنَام على قفاه، ويعقد الرِّياسة، ويتهيَّأ للشَّهادة، ويبسُطَ لسانَه بالحِسْبة. وقد قالوا: إذا نَسَك الشَّريفُ تواضَعَ، وإذا نسَكَ الوضيعُ تكبَّر. وتفسيرُه قريبٌ واضح.

ونُسْك البَنَوي والجنديِّ طرحُ الديوان، والزِّرايةُ على السُّلطان. ونسك دَهاقِين السَّواد تركُ شُرْب المطبوخ. ونُسْك الخَصِيِّ لُزُوم طَرَسُوس وإظهارُ مجاهَدَة الروم. ونُسكَ الرافضيِّ تركُ النبيذ. ونسك البستانيِّ تركُ سَرِقة الثَّمر. ونُسْك المغنِّي الصَّلاةُ في الجماعة وكثرةُ التسبيح، والصلاةُ على النبيِّ ﷺ.

ونسك اليهوديِّ التشدُّدُ في السَّبْت وإقامته.

والصوفيُّ المظهِرُ النُّسكَ من المسلمين، إذا كان فسلاً يبغض العمل تطرف وأظهر تحريمَ المكاسب، وعاد سائلاً، وجعل مسألتَه وسيلة إلى تعظيم الناسِ له.

وإذا كان النَّصرانيُّ فسلاً نذْلاً مبغضاً للعمَل، وترهَّب ولَبِس الصُّوف؛ لأنَّه واثقٌ أنَّه متى لبِس وتزيًّا بذلك الزِّيِّ وتحلَّى بذلك اللِّباس، وأظهر تلك السِّيما، أنَّه قد وجَبَ على أهل اليُسرِ والثَّروة منهم أن يعُولُوه ويَكْفُوه، ثمَّ لا يرضى بأنْ ربحَ الكفايةِ باطلاً حتى استطال بالمرتبة.

فإذا رمى المتكلِّمُ المريبُ أهلَ البراءة، ظنَّ أنَّه قد حوَّل ريبتَه إلى خَصمه، وحوَّل براءةَ خصمه إليه. وإذا صار كلُّ واحدٍ من هذه الأصناف إلى ما ذكرنا، فقد بلغ الأمنيَّة، ووقَفَ على النِّهاية. فاحذَر أن تكونَ منهم واعلَمْ أنَّكَ قد أشبهتهم في هذا الوجه، وضارعتَهم في هذا المذهب.

بـــــاب
مما قدَّمْنَا ذكرَه، وبينَه وبينَ ما ذكرنا بعضُ الفرْق

١٧٤ - [طائفة من الأمثال]

يقال: أجرأ من الليث[١]، وأجبَنُ من الصِّفْرِد[٢]، وأسخَى مِنْ لافظة[٣]. وأصبرُ على الهُونِ من كَلب، وأحذر من عَقْعَق[٤]، وأَزهى مِن غراب[٥]، وأصنَع من سُرفَة[٦] وأظلم من حيَّة[٧]، وأغدَر من الذئب[٨]، وأخبَث من ذئب الخَمَر[٩] وأشدُّ عداوةً من عقرب[١٠]، وأروغُ من ثعلب[١١]، وأحمقُ من حُبارى[١٢]، وأهدى من قطاة[١٣]، وأكذَبُ مِن فاختة[١٤]، والأمُ من كلبٍ على جيفة[١٥]، وأجمَعُ من ذَرّة[١٦]، وأضلُّ

---

(١) المثل برواية: «أجرأ من ليث بخفان» في مجمع الأمثال ١/١٨٩، والمستقصى ١/٤٨، وجمهرة الأمثال ١/٣٢٩.

(٢) مجمع الأمثال ١/١٨٥، والمستقصى ١/٤٥، وجمهرة الأمثال ١/٣٢٥، والدرة الفاخرة ١/١١٣.

(٣) الدرة الفاخرة ١/٢١٨.

(٤) المستقصى ١/٦٢، وجمهرة الأمثال ١/٣٤٣، ٣٩٦، والدرة الفاخرة ١/١٣٣.

(٥) مجمع الأمثال ١/٣٢٧، والمستقصى ١/١٥١، والأمثال لابن سلام ٣٦٠، وجمهرة الأمثال ١/٥٠٧.

(٦) مجمع الأمثال ١/٤١١، وجمهرة الأمثال ١/٥٨٣.

(٧) مجمع الأمثال ١/٤٤٥، والمستقصى ١/٢٣٢، وفصل المقال ٤٩٢، وجمهرة الأمثال ٢/٢٩.

(٨) مجمع الأمثال ٢/٦٧، وجمهرة الأمثال ١/١٦٧، والمستقصى ١/٢٥٨، والدرة الفاخرة ١/٣٢١.

(٩) مجمع الأمثال ١/٢٥٩، والمستقصى ١/٩٢، وجمهرة الأمثال ١/٤١٢، ٤٣٨، ٤٦٢.

(١٠) الدرة الفاخرة ٢/٤٣٨.

(١١) جمهرة الأمثال ١/٤٧٣، ٥٠٠، والدرة الفاخرة ٢/٤٤١.

(١٢) المستقصى ١/٧٤، والدرة الفاخرة ١/١٣٣.

(١٣) مجمع الأمثال ٢/٤٠٩، جمهرة الأمثال ١/١٦٧، ٢/٣٥٣، والمستقصى ٢/٤٢٩، ٤٤١.

(١٤) مجمع الأمثال ٢/١٦٧، وجمهرة الأمثال ٢/١٣٧، ١٧٣، والمستقصى ١/٢٩٢.

(١٥) لم يرد المثل بهذه الرواية، بل برواية: «ألأم من كلب على عرق» والمثل في مجمع الأمثال ٢/٢٥٦، والمستقصى ١/٣٠١، وجمهرة الأمثال ٢/١٨٠.

(١٦) مجمع الأمثال ١/١٨٨، والمستقصى ١/٥١، والدرة الفاخرة ١/١٠٧، ١٢١.

من حمار أهلي، وأعقُّ من ضَبٍّ[١]، وأبرُّ من هِرَّة[٢]، وأنْفَر من الظليم[٣]، وأضَلّ من وَرَل[٤] وأضلُّ من ضبٍّ[٥]، وأظلم من الحيَّة[٦].

فيعبِّرون عن هذه الأشياء بعبارةٍ كالعبارة عن الناس، في مواضع الإحسان والإساءة، حتَّى كأنَّهم من الملومِين والمشكورين، ثم يعبِّرون في هذا البابِ الآخَر بدونِ هذا التعبير، ويجعلونَ خبَرهم مقصوراً على ما في الخَلقة من الغريزة والقُوى فيقولون: أبصرُ من عُقاب[٧]، وأسمعُ من فرَس[٨]، وأطولُ ذماءً من ضبٍّ[٩]، وأصحُّ من الظليم[١٠].

والثاني يشْبِه العبارةَ عن الحمد والذمّ، والأوَّل يُشبه العبارةَ عن اللائمة والشكر. وإنَّما قلنا ذلك، لأنَّ كلّ مشكورٍ محمود، وليس كلُّ محمودٍ مشكوراً؛ وكلُّ ملومٍ مذموم وليس كلُّ مذمومٍ ملوماً. وقد يحمدون البَلدَةَ ويذمُّون الأخرى، وكذلك الطعام والشراب، وليس ذلك على جهة اللّوم ولا على جهة الشكر؛ لأنَّ الأجْر لا يقع إلاَّ على جهة التخيُّر والتكلُّف، وإلاَّ على ما لا يُنال إلاَّ بالاستطاعة والأوَّلُ إنَّما يُنالُ بالخِلقة وبمقدارٍ من المعرفة، ولا يبلغ أنْ يسمَّى عقْلاً، كما أنّه ليس كلُّ قُوَّةٍ تسمَّى استطاعة. واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) مجمع الأمثال ٢/٤٧، والمستقصى ١/٢٥٠، وجمهرة الأمثال ٢/٦٩، والدرة الفاخرة ١/٢٩٧.

(٢) مجمع الأمثال ١/١١٦، وجمهرة الأمثال ١/٢٠٤، ٢٤٣، والمستقصى ١/١٧.

(٣) لم يرد المثل بهذه الرواية، بل برواية: «أنفر من ظبي»، «أنفر من نعامة» في المستقصى ١/٣٩٧، وجمهرة الأمثال ٢/٣٩٨، والدرة الفاخرة ٢/٣٩١.

(٤) مجمع الأمثال ١/٤٢٦، وجمهرة الأمثال ٢/١١، والمستقصى ١/٢١٨، وفصل المقال ١٦٣.

(٥) المستقصى ١/٢١٧، ومجمع الأمثال ١/٤٢٦، وفصل المقال ١٦٣.

(٦) الأمثال لابن سلام ٣٦، ومجمع الأمثال ١/٤٤٥، والمستقصى ١/٢٣٢، وفصل المقال ٤٩٢.

(٧) جمهرة الأمثال ١/٢٠٤، ٢٣٩، والدرة الفاخرة ١/٧٥، ٧٧.

(٨) الدرة الفاخرة ١/٢١٨، ومجمع الأمثال ٢/٣٤٩، والأمثال لابن سلام ٣٦٠.

(٩) مجمع الأمثال ١/٤٣٧، والمستقصى ١/٢٢٧، وجمهرة الأمثال ٢/٢٠.

(١٠) مجمع الأمثال ١/٤١٧، وجمهرة الأمثال ١/٥٦٨، والمستقصى ١/٢٠٥.

بـــــاب
ما ذكر صاحبُ الديك من ذمِّ الكلابِ

وتعداد أصناف معايبها ومثالبها، مِن لؤمها وجبنها وضعْفها وشرَهها، وغدْرِها وبَذَائها، وجهْلها وتسرُّعها، ونتْنها وقذَرها، وما جاء في الآثار من النَّهْي عنِ اتخاذها وإمساكها، ومن الأَمْر بقتْلها وطردها، ومن كثرةِ جناياتها وقلَّة رَدِّها ومِن ضرب المثَل بلؤمها ونذالتها، وقبحِها وقبْحِ معاظلتِها وَمِن سماجة نُباحها وكثرة أذاها، وتقذُّر المسلمين من دنوِّها، وأنّها تأكل لحومَ الناسِ، وأنَّها كالخَلْق المركّب والحيوان الملفّق: كالبغْل في الدوابِّ وكالراعبيِّ في الحمام، وأنّها لا سبعٌ ولا بهيمة، ولا إنسيَّةٌ ولا جِنِّيَّة، وأنَّها مِن الحِنِّ دون الجنِّ، وأنّها مطايا الجنِّ ونوعٌ من المِسْخ، وأنّها تنبُش القبورَ وتأكُلُ الموتى، وأنّها يعتريها الكَلَبُ مِن أكل لحوم الناس.

فإذا حكيْنَا ذلكَ حكَينا قولَ من عدَّد محاسنَها، وصنّف مناقبها، وأخذْنا مِنْ ذكر أسمائِها وأنسابها وأعراقها، وتفدية الرجال إيَّاها واستهتارهم بها، وذكر كسْبِها وحراستها، ووفائها وإلْفها وجميعِ منافعها، والمرافق التي فيها، وما أُودعت من المعرفةِ الصحيحةِ والفطَن العجيبة والحسِّ اللطيف والأدب المحمود. وذلك سوى صِدق الاسترواح وجَودَةِ الشمِّ، وذكْر حفظها ونَفَاذها واهتدائِها، وإثباتها لصُوَر أربابها وجيرانها، وصبرِها، ومعرفتِها بحُقوق الكرام، وإهانتها اللئام، وذكر صبْرِها على الجفا، واحتمالها للجوع، وذكر ذِمامها وشدَّة مَنْعها مَعَاقدَ الذِّمَارِ[1] منها، وذكر يَقَظَتها وقلَّة غفلتها وبُعْدِ أصواتها، وكثرة نسْلها وسرعة قَبولها وإلقاحها وتصرُّف أرحامها في ذلك، مع اختلاف طبائعِ ذكورها والذكور من غير جنسها، وكثرة أعمامها وأخوالها، وتردُّدها في أصناف السِّباع، وسلامتها من أعراق البهائم، وذكر لَقَنها وحكايتها، وجودة ثقافتِها ومَهْنها وخدمتها، وجدِّها ولعْبها وجميعِ أمورها؛ بالأشعارِ المشهورة والأحاديث المأثورة، وبالكتُبِ المنزَّلة والأمثالِ السائرة، وعن تجربةِ النَّاس لها وفِراستِهم فيها، وما عايَنوا منها؛ وكيف قال أصحابُ الفأل فيها، وبإخبار المتطيِّرين

(١) الذمار: هو كل ما يلزمك حفظه والدفع عنه. اللسان: ذمر.

عنها، وعن أسنانها ومنتهى أعمارها وعدد جرائها، ومدَّة حملها، وعن أسمائها وألقابها، وسماتها وشياتها، وعن دوائها وأدوائها وسياستها، وعن اللاتي لا تلقَنُ منها وعن أعراقها والخارجيِّ منها وعن أصول مواليدها ومخارج بلدانها.

١٧٥ - [أكل الكلاب للحوم الناس]

وذكر صاحبُ الديك ما يحفظ من أكلِ الكلابِ للحُوم النَّاس فقال: قال الجَارود بن أبي سَبْرَة في ذلك: [من الطويل]

ألم تر أنَّ اللّهَ ربِّي بَحولِه ... وقوَّته أخزى ابنَ عَمْرَةَ مالكا
فَمنْ كانَ عنه بالمغيَّبِ سائلاً ... فقد صارَ في أرض الرُّصافةِ هالكا
تظلُّ الكلابُ العادياتُ يَنُشْنَه ... إذا اجتَبْن مُسْوَدّاً منَ الليل حالكا

وقال نُفَيع بن صفَّار المحاربي من ولد مُحارِب بن خُصَفة في حرب قيسٍ وتغلب: [من الكامل]

أفنَتْ بَني جُشَم بن بكرٍ حَرْبُنا ... حتى تَعادَلَ مَيلُ تَغلب فاستَوَى
أَكَلَ الكلابُ أنوفَهم وخُصَاهُمُ ... فلتَبْكِ تَغْلِبُ للأنوفِ وللخُصى

وقال أبو يعقوب الخُرَيمي، وهو إسحاق بن حسَّان بن قوهي في قتلَى حربِ ببغداد: [من المنسرح]

وهَل رأيتَ الفتيانَ في باحة المعْـ ... ـرَكِ مَعفورة مَنَاخِرُها[١]
كلّ فتًى مانعٍ حقيقَتَه ... يشقَى به في الوَغَى مَساعِرُها
باتَتْ عليه الكلابُ تنهَشُه ... مخضوبةً من دمٍ أظافِرُها

وقال أبو الشمقمق (وهو مَرْوان بن محمد، مولى مروان بنِ محمَّد، ويكنى أبا محمَّد): [من مجزوء الرمل]

يُوسفُ الشاعرُ فَرْخٌ ... وجَدُوه بالأُبُلّه[٢]
حَلَقيٌّ قَدْ تُلقِّي ... كامناً في جَوف جُلّه
خيَّطوها خشْيَةَ الكلـ ... ـبِ عليْه بمِسَلَّه

وذُكر لي عن أبي بَكر الهُذَليِّ، قال: كنَّا عندَ الحسن إذ أقبل وكيع بن أبي سُود

---

(١) الأبيات في ديوان الخريمي ٣٤ - ٣٥.
(٢) الأبيات في ديوانه ١٤٩.

فجلس، فقال يا أبا سعيد: ما تقولُ في دم البراغيث يُصيب الثوب: أيصلّى فيه؟ فقال: يا عجباً ممَّن يلَغ في دماءِ المسلمين كأنَّه كلبٌ، ثم يسألُ عن دم البراغيث!! فقام وكيعٌ يتخلَّج في مِشيتِه كتخلُّج المجنون، فقال الحسن: إنَّ للّه في كلِّ عضوٍ منه نعمة فيستعين بها على المعصية، اللَّهمَّ لا تجعلْنا ممَّن يتقوَّى بنعمتِك على معصيتـك!!

١٧٦ - [ما أضيف من الحيوان إلى خبث الرائحة]

وقال صاحب الديك: أشياءُ مِنَ الحيوان تُضافُ إلى نتْنِ الجُلُود وخُبث الرائحة، كريح أبْدان الحيَّات، وكنتْن التُّيوس وصُنَان عرَقها، وكنتن جلد الكلاب إذا أصابه مطر. وضروبٌ من النَّتن في سوى ذلك، نحنُ ذَاكروها إن شاء اللّهَ تعالى.

وقال رَوح بن زنباع الجُذَاميّ في امرأته، وضرب بالكلب المثل: [من البسيط]

رِيح الكرائمِ معروفٌ لَهُ أَرَجٌ وريحُها ريحُ كلْبٍ مَسَّهُ مَطَرُ

قال: وكانت امرأةُ رَوح بن زنباع أمَّ جعفر بنتَ النُّعمان بن بشير، وكان عبدُ الملك زوَّجه إيّاها، وقال: إنَّها جاريةٌ حسناء، فاصبرْ على بَذاءِ لسانِها.

وقال الآخر: [من الرجز]

وريحُ مَجْروبٍ وريح جُلَّه وريح كلبٍ في غَدَاةٍ طَلّهْ

وأنشد أبو زيد في ذلك: [من البسيط]

كأنَّ ريحَهُمُ من خُبْثِ طُعْمَتِهِمْ ريحُ الكلاب إذا ما بلّها المطر(١).

ومما ذُكر به الكلبُ في أكله العَذِرة، قولُ الراجز: [من الرجز]

* أَحرَصُ من كلبٍ على عِقْيِ صَبِي(٢) *

وقال مثل ذلك حَنْظَلة بن عَرَادة في ذكره لابنه السَّرَنْدَى: [من البسيط]

ما للسَّرَنْدَى أطالَ اللّهُ أيْمَتَهُ خَلَّى أباه بقفرِ البيد وادَّلجا(٣)

مِجْعٌ خَبيثٌ يُعاطي الكَلْبَ طُعْمَتَه وإن رأى غفلةً من جارِهِ ولجا(٤)

---

(١) البيت لحسان بن ثابت في ديوانه ٢٨٢.

(٢) الرجز في المستقصى ١/ ٦٤.

(٣) الأبيات في العقة والبررة ٣٥٥-٣٥٦ «نوادر المخطوطات». والبيت الأول بلا نسبة في أساس البلاغة (أيم)، والثاني لحنظلة في التاج (مجع).

(٤) المجع الأحمق والجاهل.

رَبَّيْته وهو مثلُ الفَرْخ أَصْرُرُهُ

والكلبُ يلحَسُ من تحتِ استِه الرَّدَجا[1]

يقال للذي يخرُج من بطن الصبيِّ حين يخرُج من بطن أمه عقي بكسر العين، ويقال عقَى الصبي يعقي عَقْياً، فإذا شُدَّ بطنُه للسِّمن قيل قد صُرِبَ ليسمَن. والعقي وهو العَقْية الغيبة، وإيَّاه عنَى ابنُ عمر حين قيل له: هلاَّ بايعت أخاك ابن الزُّبير؟ فقال: إنَّ أخي وضَعَ يده في عَقْيَةٍ ودعا إلى البَيعة. إنِّي لا أنزَع يَدي مِن جماعةٍ وأضعُها في فُرقة.

وفي الحديث المرفوع: «الراجعُ في هِبَتِه كالرَّاجِع في قَيئه»[2]. وهذا المثلُ في الكلب.

ويقالُ: «أبخَلُ من كلبٍ على جيفة»[3]. وقال بعضُهم في الكلب: الجِيفة أحبُّ إليه من اللّحم الغريض، ويأكل العَذِرة ويرجِع في قيئه، ويشغَر ببَوله فيصير في جوفِ فيه وأنفه، ويحذفه تِلقاءَ خَيشومه.

وقال صاحب الكلب: إنْ كنتُم إنَّما تستسقطون الكلب وتستسفلونه بهذا وأشباهه، فالجيفةُ أنتنُ من العذرة، والعَذرة شرٌّ من القيء، والجيفة أحبُّ إلى أشراف السباع ورؤسائها من اللحم العبيط الغريض الغضّ.

١٧٧ - [مأكل السبع]

والأسَد سَيِّد السباع، وهو يأكل الجِيفةَ، ولا يعرِض لشرائع الوحش وافتراس البهائم، ولا للسابلة من الناس، ما وَجَدَ في فريسته فَضْلة. ويبدأ بعدَ شُرْب الدَّم فيبقُر بطنَه ويأكل ما فيه من الغثيثة والثفل والحَشْوة والزِّبل، وهو يرجع في قيئه، وعنه ورِث السِّنَّور ذلك.

---

(١) الردج: أول ما يخرج من بطن الصبي.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب ٥٨، حديث ١٤١٨، ١٤١٩، ومسلم في الهبات برقم ١٦٢٠.

(٣) ورد المثل برواية «أبخل من كلب» في مجمع الأمثال ١/١١٤، وجمهرة الأمثال ١/٢٤٧، والدرة الفاخرة ١/٧٥، ٩٠. وبرواية «ألأم من كلب على عرق» في مجمع الأمثال ٢/٢٥٦، وجمهرة الأمثال ٢/١٨٠، والمستقصى ١/٣٠١. وبرواية «ألأم من كلب على جيفة» في البخلاء ١٦٠. وبرواية «أحرص من كلب على جيفة» في مجمع الأمثال ١/٢٢٨، والمستقصى ١/٦٤، والدرة الفاخرة ١/١٦١.

١٧٨ - [ما قيل في السبع من الأمثال]

وهو المضروبُ به المثلُ في النَّجدة والبسالة، وفي شِدَّة الإقدام والصَّولة، فيقال: «ما هو إلاّ الأسد على براثنه»[١] و «هو أشدُّ من الأسد»[٢] و «هو أجرأ من الليث العادي»[٣] و «فلان أسدُ البلاد»[٤] و «هو الأسد الأسود»[٥]. وقيل لحمزة بن عبد المطَّلب أسدُ الله. فكفَاك من نُبْل الأسد أنَّه اشتُقَّ لحمزة بن عبد المطَّلب من اسمه. ويقال للملك أَصْيَد إذا أرادوا أن يصفوه بالكِبْر وبقلَّة الالتفات[٦]، وبأنَّ أنفه فيه أسلوب[٧] ولأنَّ الأسد يَلتفت معاً لأنَّ عنقه من عظم واحد. وقال حاتم: [من البسيط]

هَلاَّ إذا مَطَرَ السماءُ عليكُمُ ورفعتَ رأسَكَ مثلَ رأسِ الأصْيَدِ[٨]

وقال الآخر: [من الطويل]

يَذُودونَ كلباً بالرِّماحِ وطَيِّئاً وتَغلِبَ والصِّيدَ النواظرِ من بَكر

وقال الآخر : [من المتقارب]

وكم لي بها من أبٍ أصْيَدٍ نَماه أبٌ ما جدٌ أصيَدُ

وبعدُ فإنّ الذي يأكل الجيفةَ لم يبعُد من طبعِ كثيرٍ من الناس؛ لأنَّ من الناس من يشتهي اللحمَ الغابَّ، ومنهم من يشتهي النَّمكْسود. ولَيْسَ بَيْنَ النَّمَكْسُود وبين المصلوب اليابس كبيرُ فرق، وإنَّما يذبحون الدِّيَكَةَ والْبَطَّ والدَّجاج والدُّرّاج من أوَّلِ الليل، ليسترخيَ لحمُها، وذلك أول التَّجييف.

فالأسد أجمعُ لهذه الخصال من الكلب، فهلاَّ ذكرتمْ بذلك الأسد وهو أنبهُ ذِكراً وأبعدُ صيتاً.

---

(١) لم أجده في كتب الأمثال.

(٢) مجمع الأمثال ١/٣٩١، وجمهرة الأمثال ١/٥٣٨، والمستقصى ١/١٩٣، والدرة الفاخرة ١/٢٣٦، ٢/٤٤٦.

(٣) ورد المثل برواية «اجرا من ليث بخفان» في مجمع الأمثال ١/١٨٩، والمستقصى ١/٤٨، وجمهرة الأمثال ١/٣٢٩. والدرة الفاخرة ١/١٠٧، ١١٦.

(٤) (٥) لم يردا في كتب الأمثال.

(٦) في الأمثال «أصيد من ليث عفرين» وهذا المثل في مجمع الأمثال ١/٤١٧، وجمهرة الأمثال ١/٥٦٨، والمستقصى ١/٢١٣.

(٧) في الأمثال «أنفه في أسلوب» والمثل في جمهرة الأمثال ٢/٩٩.

(٨) البيت في ديوان حاتم الطائي ٢٤٤، والأغاني ١٧/٣٧٣.

١٧٩ - [عيوب التيس والعنز]

وأمَّا ما ذكرتم من نَتْن الجلد ومن استنشاق البول، فإنَّ للتيسِ في ذلك ما ليس للكلب، وقد شاركه في الحذْفِ ببوله تِلقاءَ أنفه، وباينَه بشدَّةِ الصُّنان؛ فإنَّ الأمثالَ لَه أكثرُ ذِكراً. وفي العنز أيضاً عيوب.

وفي توجيه التيس ببوله إلى حاقِّ خَيشومه قال الشاعر لبعض من يهجُوه: [من الطويل]

دُعيتَ يَزيدَ كي تَزيدَ فلم تَزدْ فعادَ لك المُسْمِي فأسْمَاك بالقحر

وما القَحْرُ إلاَّ التيسُ يَعْتِك بولُه عَلَيْهِ فيمذي في لَبَانٍ وفي نحر

وقال آخر في مثل ذلك: [من الوافر]

أَعثمانُ بنُ حَيَّانَ بن لؤم عَتُودٌ في مفارِقِه يَبولُ

ولو أنِّي أشافِهُه لشالت نَعامَتُه ويفهم ما يقول

وبعد: فما يُعلمَ من صنيع العنز في لبنها وفي الارتضاع من خلفها إلاَّ أقبح.

وقال ابن أحْمَرَ الباهليُّ في ذلك: [من البسيط]

إنّا وجَدْنا بَني سَهْمٍ وجاملهم كالعنز تعطِفُ روْقَيها وتَرْتَضِعُ[١]

وقلتم: هَجَا ابْنُ غادية السلمي بعضَ الكِرام، حينَ عُزِل عن يَنْبُع، فقال لمن ظنَّ أنَّه إنَّما عُزِل لمكانه: [من الكامل]

رِكبوك مُرتَحَلاً فظهرُك منهمُ دَبرُ الحراقفِ والفَقَارِ مُوقَّعُ

كالكلبِ يَتْبَعُ خانِقيهِ وينتحي نحوَ الذين بهم يَعِزُّ ويمنعُ

وقال ابن هَرْمة الفِهريّ: [من الوافر]

فما عادَت لذي يمنٍ رؤوساً ولا ضَرَّت بفُرْقتها نزارَا[٢]

كعَنْزِ السَّوْءِ تَنْطَحَ مَنْ خَلاهَا وتَرْأمُ مَنْ يُحِدُّ لها الشِّفارَا

وما نعلم الرُّجوعَ في الجِرَّة، وإعادةَ الفرثِ إلى الفم ليُستقصَى مضغُه إلاَّ أسمجَ وأقذَرَ من الرُّجوعِ في القَيْءِ. وقد اختار اللّه عَزّ وجلَّ تلك الطبيعةَ للأنعام، وجعل

---

(١) البيت في ديوان ابن أحمر ١٢٠، وعيون الأخبار ٢/ ٧٥، واللسان والتاج وأساس البلاغة (رضع).

(٢) ديوان ابن هرمة ١١٨.

الناسَ ليسوا لشيء من اللُّحمان أشدَّ أكلاً ولا أشدَّ عَجباً بِهِ منكم، ولا أصلحَ لأبدانهم ولا أغْذَى لهم من لُحُوم هذه الأنعام أفتائِهَا ومَسَانِّهَا.

١٨٠ - [عود إلى القول في الديك والكلاب]

وقال صاحبُ الديك: ما يشبه عَوْدُ الماشية في الجرَّة، ورجوعُها في الفرث تطحَنُه وتُسيغه، الرجُوعَ في القيء. وقد زعمتم أنَّ جرَّةَ البعيرِ أنتنُ مِن قَيءِ الكلاب لطول غُبُوبها في الجوف، وانقلابها إلى طباع الزِّبل، وأنَّها أنتن من الثلط. وإنَّما مثل الجِرَّة مثل الرِّيق الذي ذكره ابنُ أحمر فقال: [من البسيط]

هذا الثناءُ وأجْدرْ أن أُصاحبه وقَدْ يدوِّمُ رِيقَ الطَّامِعِ الأَمَلُ(١)

فإنَّما مَثَلُ القَيءِ مَثَلُ العَذِرَة؛ لأنَّ الرِّيق الذي زعمتم، ما دامَ في فم صاحبه، ألذُّ من السلوى، وأمتعُ من النسيم، وأحسنُ موقعاً من الماء البارد من العطاش المسهوم. والريقُ كذلك ما لم يزايِل موضعَه، ومتى زايل فَمَ صاحِبه إلى بعض جِلْده اشتدّ نتْنه وعادَ في سبيل القيء.

فالرِّيق والجِرَّةُ في سبيلٍ واحد، كما أنَّ القيء والعَذِرة في سبيل واحد. ولو أن الكلبَ قَلَسَ حتَّى يمتلئ منه فمه، ثم رجع فيه من غير مباينة له، لكان في ذلك أحقَّ بالنظافة من الأنعام في جرَّتها، وحشيِّها وأهليِّها، وإنَّ الأرانبَ لَتَحيضُ حيضاً نَتِناً، فما عاف لحمَهَا أصحابُ التَّقذُّرِ لمشاركَتِها الأنعامَ في الجرَّة.

فقال صاحب الكلب: أمَّا ما عبتموه من أكْلِ العَذِرة، فإنَّ ذلك عامٌّ في الماشية المتخيَّرِ لحمُها على اللُّحْمان، لأنَّ الإبل والشياه كلّها جَلاّلة وهُنَّ على يابسِ ما يخرُجَ من الناسِ أحرَصُ؛ وعلى أنّها إذا تعوَّدت أكل ما قد جفَّ ظاهرُه وداخلُه رطبٌ، رَجَع أمرُها إلى ما عليه الكلب. ثم الدَّجاج لا تَرْضَى بالعَذِرة، وبما يَبْقَى من الحبوبِ التي لم يأت عليها الاستمراء والهضْم، حتَّى تلتمس الديدانَ التي فيها، فتجمع نوعين من العذرة لأنها إذا أكلت ديدان العَذِرَة فقد أتَتْ على النَّوْعين جميعاً. ولذلك قال عبد الرحمن بن الحَكَم في هجائه الأنصار بخبيث الطعام، فضرب المثلَ بالدَّجاج من بين جميع الحيوان، وتركَ ذِكر الكلاب وهي له مُعرِضة فقال: [من الوافر]

وللأنْصَارُ آكَلُ في قُرَاها لخُبْثِ الأَطْعِمَاتِ مِنَ الدَّجَاجِ

---

(١) ديوان ابن أحمر ١٣٦، والبيان ١ / ١٨٠، وسمط اللآلي ١٢٧، والبرصان والعرجان ١٩٥، والمعاني الكبير ١٢٥٨.

ولو قال: [من الوافر]

وللأنْصَارُ آكَلُ في قُرَاها لِخُبْثِ الأَطْعِمَاتِ مِنَ الْكِلابِ

لكان الشِّعْر صحيحاً مُرضياً.

وعلى أنَّ الكلابَ متى شبعت، لم تعرض للعَذرة. والأنعامُ الجلاَّلةُ وكذلك الحافر، قد جعلت ذلك كالحَمْضِ إذا كانت لها خَلَّةٌ؛ فهي مَرَّةً تتغذَّى به ومرة تتحمَّض. وقد جاء في لحُوم الجَلاَّلة ما جاء.

١٨١ - [رغبة الملوك والأشراف في الدجاج]

وملوكُنا وأهلُ العيشِ منَّا، لا يرغبون في شيءٍ من اللُّحمان رغبَتَهم في الدَّجاج، وهم يقدِّمونها على البطِّ والنواهض، والقَبَجِ والدُّرَّاج. نعم وعلى الجداء والأَعْنُقِ الحُمْرِ من بَنَات الصَّفَايا. وهم يعرفُون طبعها وسوء قُوتِها، وهم مع ذلك يأكلون الرَّواعِيَ كما يأكُلون المسمَّنات.

١٨٢ - [الشبوط أجود السمك]

وأطيبُ ما في الأنهار من السمك، وأحسنُها قُدوداً وخَرْطاً، وأسبطُها سُبُوطاً، وأرفعُها ثمناً وأكثرُها تصرُّفاً في المالح والطريّ، وفي القَرِيسِ[١] والنَّشوط[٢] الشَّبُّوطُ، وليس في الماء سمكة رفيعةُ الذكر ولا ذاتَ خمول، إلاَّ وهي أحرص على أكْل العَذِرة منها، وإنّها في ذلك لأشدُّ طلباً لها من الخِنزير في البرِّ، والجِرِّيّ في البحر.

١٨٣ - [لحم الخنزير]

وقد عَلم الناسُ كيفَ استطابةُ أكلِ لحُومِ الخنازير، وأكلُ الخنازيرِ لها، وكيف كانت الأكاسرة والقياصرةُ يقدِّمونها ويفضِّلونها. ولولا التعبُّدُ لجَرَى عندنا مَجْرَاه عندَ غيرِنا.

وقد علم النَّاسُ كيف استطابةُ أكل الجِرِّيِّ لأذنابها.

١٨٤ - [فائدة الجري]

وفي الجِرّيِّ قال أبو كَلْدة: هو أُدْم العُميان، وجيِّدٌ في الكَوْشَان[٣] ودواءٌ

---

(١) يقال: أصبح الماء قريساً؛ أي جامداً، ومنه سمي قريس السمك. اللسان: قرس ٦ / ١٧١.

(٢) النشوط: ضرب من السمك؛ وليس بالشبوط. اللسان: نشط ٧ / ٤١٥.

(٣) كوشان: طعام لأهل عمان من الأرز والسمك. القاموس المحيط: كوش.

للكليتين، وصالحٌ لوجَع الظهر وعَجْبِ الذَّنب، وخلافٌ على اليهود، وغيظٌ على الروافض؛ وفي أكله إحياءٌ لبعض السُّنن، وإماتةٌ بعضِ البدَع، ولم يُفْلَجْ عليه مُكثرٌ منه قطُّ، وهو محنةٌ بين المبتدِع والسُّنِّي، هلك فيه فِئتَانِ مذْ كانت الدنيا: محلِّلٌ ومحرِّمٌ.

وقال أبو إسحاق: هو قبيح المنظر، عاري الجلد، ناقص الدّماغ، يلتهم العَذرة ويأكل الجرذان صحاحاً والفأرَ، وزَهِمٌ لا يُستَطاعُ أكلُه إلاّ محسيّاً ولا يتصرَّفُ تصرُّفَ السمك، وقد وقع عليه اسم المسْخ، لا يَطِيب مملوحاً ولا ممقوراً، ولا يؤكل كباباً، ولا يُختارُ مطبوخاً، ويُرمَى كلُّه إلاّ ذنَبه.

والأصناف التي تَعرض للعَذِرة كثيرة، وقد ذكرنا الجلاَّلاتِ من الأنعامِ والجرِّيِّ والشَّبُّوطِ من السمك. ويعرِض لها من الطير الدَّجاجُ والرَّخَمُ والهَداهِد.

١٨٥ - [الأنوق وما سمي بهذا الاسم]

وقد بلغ من شَهوة الرَّخَمَة لذلك، أنْ سمَّوها الأنوق، حتى سمَّوا كلَّ شيءٍ من الحيوان يعرِض للعذِرة بأنوق، وهو قول الشاعر: [من الرجز]

حتَّى إذَا أضحى تَدرَّى واكتحل ... لجارتَيه ثم ولَّى فنثلْ
رِزقَ الأُنُوقَينِ القَرَنْبَى والجُعَل

١٨٦ - [ما قيل من الشعر في الجُعَل]

ولشدَّة طلب الجعل لذلك قال الشاعر: [من البسيط]

يَبيت في مجلس الأقوام يَربَؤُهم ... كَأنَّه شُرَطيٌّ بَاتَ في حَرَسِ

وكذلك قال الآخر: [من الرجز]

إذا أتَوه بطعامٍ وأكَلْ ... بَاتَ يعشّي وَحْدَه الفَيْ جُعَل

هذا البيتُ يدلُّ على عِظَم مقدار النَّجْو، فهجاه بذلك، وعلى أنَّ الجُعَل يقتات البَراز.

وفي مثل ذلك يقول ابن عَبْدَل - إن كان قاله - وإنما قلت هذا لأنَّ الشعر يَرتفِع عنه. والشعر قوله: [من الخفيف]

نِعْم جارُ الخنزيرةِ المرضعُ الغر ... ثى إذا ما غدا أبو كلثومِ[1]

---

(١) الأبيات في البيان ٣ / ٣١١، باستثناء البيت الرابع. الغرثى: الجائعة.

ثاوياً قد أصابَ عند صديقٍ من ثَريدٍ ملبَّقٍ مأدُوم
ثم أنحى بجَعره حاجبَ الشمـ ـسِ فالقَى كالمعْلَفِ المَهْدُوم[١]
بضَريطٍ ترى الخنازير منه عامداتٍ لتلِّهِ المركومِ

وقال الراجز في مثل ذلك: [من الرجز]

قد دقَّهُ ثَارِدُهُ وصَوْمَعَا[٢] ثُمَّتَ ألبَانَ البَخاتي جعْجعَا
جَعْجَعَةَ العَوْدِ ابْتَغَى أنْ يَنْجَعا ثُمَّتَ خوّى بارِكاً واسْتَرْجَعا
عَن جاثمٍ يُحْسَبُ كلباً أبقعا

وفي طلب الجُعَل للزِّبْلِ قال الراجز (وهو أبو الغُصْن الأسَدي): [من الرجز]

ماذا تلاَقي طَلَحاتُ الحرجه من كل ذات بُخْنقٍ غَملَّجه
ظَلّ لها بَيْنَ الحلال أرجَه منَ الضُّراطِ والفُسَاءِ السمجه
فجئتُها قاعِدَةً منشجه تعطيه عنها جعَلاً مُدحرجَه

وقال يحيى الأغرّ: تقول العرب «سَدكَ به جُعَله»[٣]. وقال الشاعر: [من البسيط]

إذا أتيتُ سُليمَى شَبَّ لي جُعَلٌ إنَّ الشقيَّ الذي يُغْرَى به الجُعَلُ[٤]

يضرب هذا المثلُ للرَّجل إذا لَصِقَ به من يكره، وإذا كان لا يزال يراه وهو يهرُب منه.

قال يحيى: وكان أصلُه ملازمةَ الجُعَل لمن بات في الصحراء، فكلَّما قام لحاجةٍ تبِعه؛ لأنَّه عنده أنَّه يريد الغائط.

١٨٧ - [القرنبى]

وفي القَرَنْبَى يقول ابنُ مقبل: [من الطويل]

ولا أطرُق الجَارات بِاللَّيل قابعاً قبُوعَ القَرَنْبَى أخْلَفَتْه مجاعره[٥]

---

(١) الجعر: ما يبس من النجو.
(٢) ثريدة مصومعة: مدققة الرأس.
(٣) مجمع الأمثال ١/٣٤٢، والدرة الفاخرة ٢/٣٧١.
(٤) البيت في مجمع الأمثال ١/٣٤٢.
(٥) البيت في ديوان ابن مقبل ١٥٤، واللسان والتاج (قبع)، وتهذيب اللغة ١/٢٨٣.

والقبوع: الاجتماع والتقبض. والقرَنْبى: دويْبَّةٌ فوق الخُنْفَسَاء ودونَ الجعل، وهو والجعل يتْبعان الرَّجلَ إلى الغائط.

١٨٨ - [خبث ريح الهدهد]

ومن الطَّير الذي يُضارِع الرَّخمة في ذلك الهدهدُ، منتنُ البَدَن وإن لم تجدْه ملطخاً بشيءٍ من العَذِرة؛ لأنَّهُ يبني بيته ويصنع أُفحوصَه من الزِّبل، وليس اقتياتُه منه إلاَّ على قدْر رغبتِه وحاجته في ألاَّ يتَّخذ بيتاً ولا أُفحوصاً إلاَّ منه، فخامَرَه ذلك النَّتنُ فَعَلِق ببدنه وجرى في أعراق أبويه؛ إذ كان هذا الصنيع عامّاً في جنسه.

وتعتري هذه الشَّهْوةُ الذِّبان، حتَّى إنَّها لو رأتْ عسلاً وقذَراً، لكانت إلى القذَر أسرعَ. وقال الشاعر: [من الطويل]

قَفاً خَلْفَ وَجْهٍ قَدْ أُطيلَ كأنَّه ... قفا مالك يُقْصي الهُمومَ عَلَى بَثْق[١]
وأعظمُ زهواً من ذُبابٍ على خراً ... وأبخَلُ من كَلْبٍ عَقُور على عَرْق[٢]

ويزعمون أنَّ الزُّنبورَ لهِجٌ بصيد الذِّبان، ولا يكاد يصيده إلاَّ وهو ساقطٌ على عذرة لفَرْط شَهْوته لها ولاستفراغها، فيعرف الزُّنبور ذلك، فيجعل غَفلتَه فُرصة ونُهْزة. قالوا: وإنَّما قلنا ذلك لأنَّا لم نجِدْه يرومُ صيدَه وهو ساقِطٌ على ثمرةٍ، فما دونها في الحلاوة.

١٨٩ - [شعر في الهجاء]

وقال أبو الشَّمقمق في ذلك: [من الخفيف]

الطَّريقَ الطَّريقَ جاءكُم الأحـ ... ـمقُ رأس الأنتانِ والقَذِره[٣]
وابْنُ عمِّ الحمارِ في صورة الفيـ ... ـلِ وخالُ الجامُوسِ والبقَره
يمشي رُويداً يريد حَلْقتكم ... كمشي خِنزيرةٍ إلى عَذِره

وقال حَمَّادُ عَجْرَد في بشَّارِ بْن بُرْدٍ العُقَيليّ: [من السريع]

ما صَوَّرَ اللّه شِبْهاً لَه ... مِنْ كلِّ مَنْ مِنْ خَلْقِه صَوَّرا[٤]

---

(١) البيتان لأبي نواس في ديوانه ٥١٩، والبيان ٣/٣٥٤، والعرجان ٢١٨، وعيون الأخبار ١/٢٧٣.
البثق: منبعث الماء.

(٢) العرق: العظم بلحمه.

(٣) الأبيات في ديوان أبي الشمقمق ١٣٩، ضمن (شعراء عباسيون).

(٤) الأغاني ١٤/٣٣١.

أَشبَهَ بالخنزيرِ وجهاً ولا بالكلب أعراقاً ولا مَكْسِرا[1]
ولا رأينَا أحداً مثله أنجَسَ أو أطْفَسَ أو أقذرا[2]
لو طُليتْ جلدتُه عنبراً لنتَّنت جلْدتُه العَنْبرا
أو طُليت مِسكاً ذكيّاً إذَنْ تَحوَّلَ المِسْكُ عليه خرَا

وقال أبو نُواس في هجاء جعْفرِ بْنِ يحيى بن خالد البرمَكيّ: [من المتقارب]

إذا ما مدحتُ فتًى من خرَا أليس جزائي أن اعطَى الخرَا

وقال أعرابيٌّ يهجو رجلاً يقال له جُلمود بن أوس، كان مُنتنَ العرق: [من الرجز]

إنِّي إذا ما عارضي تألَّقا ورَعَدت حافته وَبرَقا
أهلكتُ جُلمودَ بنَ أوس غرَقا كانَ لحمقاءَ فصارَ أَحمَقَا
أخبث شيءٍ عرَقاً وخرَقَا

وقال حمَّادُ عَجْرَدٍ في بشَّار: [من الخفيف]

يا ابنَ بُرْدٍ اخْسأ إليك فمثلُ الـ ـكلبِ في الخلْق أَنْتَ لا الإنْسَان[3]
بَلْ لَعَمْري لأَنْتَ شرٌّ من الكلـ ـب وأولَى منه بكلِّ هوَان
ولَريحُ الخِنْزيرِ أطيَبُ مِنْ ريـ ـحِكَ يا ابْنَ الطَّيان ذي التُّبَّانِ

وقال بعض الشعراء في عبد اللّه بن عُمير: [من الطويل]

غزَا ابنُ عُميرٍ غزْوةً تركَتْ له ثَناءَ كَريحِ الجَوْرَبِ المتخرقِ[4]

وقال حمَّادُ عَجْرَدٍ في بشَّار: [من السريع]

قُلْ لشقيِّ الجدِّ في رَمْسه ومَن يفرُّ الناسُ من رجْسه[5]
للقرد بَشَّارِ بْنِ بردٍ ولا تَحفِل برغم القرد أو تَعسه
لَلقرْدَ باللَّيْث اغترارٌ به فمَا الَّذي أدناك من مَسِّه
يا ابنَ استِها فاصبرْ على ضَغْمةٍ بنَابِه يا قِردُ أَوْ ضِرْسِهِ

---

(١) المَكْسِر: الأصل.
(٢) الطَّفَس: قذر الإنسان.
(٣) الأغاني ١٤/ ٣٦١.
(٤) البيت بلا نسبة في الوساطة ٤٠٠، وثمار القلوب ٤٨٦ (٨٦٧) والمستقصى ١/ ٣٨٢، وسيأتي في الجزء الرابع فقرة (١٢٢٦).
(٥) الأغاني ١٤/ ٣٣٠، وربيع الأبرار ٢/ ٤٤١، وأمالي المرتضى ١/ ٩٣.

نهارُه أخبثُ من ليله ... ويومُه أخبثُ من أمسِهِ
وليس بالمُقْلِعِ عن غَيِّه ... حتى يُدلَّى القردُ في رَمْسِهِ
ما خلقَ اللّه شبيهاً له ... من جنِّه طُرّاً ومن إنْسِهِ
واللّه ما الخنزيرُ في نَتْنِه ... من رُبْعِه بالعُشْر أو خمْسِهِ
بل ريحُه أطيبُ من ريحِه ... ومسُّه ألينُ مِن مسِّهِ
ووجهُه أحسنُ من وَجهِه ... ونفسُه أنبلُ من نفسِهِ
وعودُه أكرمُ من عُودِه ... وجِنسُه أكرمُ من جِنسِهِ

وأنا حفظك اللّه تعالى أستظرِف وضعَه الخنزيرَ بهذا المكان وفي هذا الموضع، حين يقول: وعودُه أكْرَمُ من عُودِهِ.

وأيُّ عودٍ للخنزير؟! قَبحه اللّه تعالى، وقبح من يشتهي أكله. وقال حمَّادُ عجرد في بشَّارِ بن بُرد: [من البسيط]

إنَّ ابنَ بُردٍ رأى رُؤيَا فأوَّلَهَا ... بلا مَشُورةِ إنسانٍ ولا أَثَرِ
رأى العَمَى نعمةً للّه سابغة ... عليه، إذ كانَ مكفوفاً عن النَّظرِ
وقال: لو لَمْ أكُنْ أعمَى لكنتُ كما ... قد كان بُردٌ أَبي في الضِّيقِ والعُسُرِ
أكدُّ نفسيَ بالتطيين مجتهداً ... إمَّا أجيراً وإمَّا غيرَ مُؤتَجِرِ
أو كنتُ إنْ أنا لم أقنعْ بفعلِ أبي ... قَصَّابَ شاءٍ شَقِيِّ الجَدِّ أو بَقَرِ
كإخوتي دائباً أشقَى شقاءَهُمُ ... في الحرِّ والبردِ والإدلاجِ وَ الْبُكَرِ
فقد كفاني العَمَى من كلِّ مَكْسَبَةٍ ... والرِّزقُ يأتي بأسبابٍ من القَدَرِ
فصرتُ ذا نَشَبٍ من غير ما طلب ... إلاَّ بمَسْألتي إذ كنت في صِغَري
أضمُّ شيئاً إلى شيءٍ فاذخره ... ممَّا أجمِّع من تمر ومن كِسَرِ
مَن كان يعرفُني لو لم أكن زَمِناً ... أو كان يبذُل لي شيئاً سِوى الحجَرِ؟!
فقُل له لا هَداه اللّهُ مِن رجُلٍ ... فإنَّها غُرَّةٌ تُربي على الغُرَرِ
لقد فطِنتَ إلى شيءٍ تعيش به ... يا ابنَ الخبيثة قد أدقَقْتَ في النظر
يا ابنَ التي نَشَزَت عن شيخ صِبْيَتِها ... لأَير ثوبانَ ذي الهامات والعُجَرِ
أما يكفُّكَ عن شَتْمي ومنقَصَتي ... ما في حِرامِّك من نَتْن ومن دَفَرِ
نفَتْكَ عنها عُقَيلٌ وهي صادقة ... فسل أسيداً وسل عنها أبا زُفَرِ
يا عبدَ أمِّ الظباء المستطبِّ بها ... من اللَّوَى، لستَ مولى الغُرِّ من مُضَرِ

بل أنتَ كالكلب ذُلاً أو أذلُّ وفي نَذَالة النفس كالخنزيرِ واليَعَر[1]
وأنتَ كالقردِ في تشويه منظرِه بل صورةُ القرد أبهى منك في الصُّوَرِ

ووصف ابنُ أبي كريمة حُشّاً له، كان هو وأصحابه يتأذَّون بريحه فقال: [من البسيط]

ولي كَنيفٌ بحَمْد اللّه يطرقني أرواح وادي خبال غير فَتَّار
له بدائعُ نَتْن ليس يَعرفها من البَرِيَّة إلاَّ خَازِن النَّارِ
إذا أتانى دَخيلٌ زَادَني بدَعاً كَأنَّهُ لَهجٌ عَمْداً بإضْرَارِي
قد اجتواني له الخُلاَّنُ كلُّهم وباعَ مَسْكَنَه من قُرْبه جاري
فمن أرادَ من البِرْسَامِ أقتَلَهُ أو الصُّدَاعِ فمرْهُ يدخُلَنْ داري
استكثَفَ النَّتنُ في أنفي لكثرته فليس يوجِدُنيه غيرُ إضماري[2]

وقيل للمحلول: ويلكَ، ما حفظتَ بيتَ شعرٍ قط؟ فقال: بيتاً واحداً اشتهيته فحفظتُه. فقيل له: فهاته. قال: أمَا إنِّي لا أحفَظُ إلاَّ بيتاً واحداً. قيل: فكيف رزق منك هذا البيت؟ فَأَنْشِدْهُ، فَأَنشَدَهم: [من السريع]

كأنَّما نَكْهَتُهَا مِدَّةٌ تَسِيلُ من مَخْطَةِ مَجْذُومِ

١٩٠ - [نتن إبط الإنسان]

وزعم أصحابنا أنّ رجُلاً من بني سعد - وكان أنتنَ الناس إبطاً - بلَغه أن ناساً من عبد القيس يتحدَّثونَه برجلٍ منهم، فمضى إليهم شدّاً، فوافاهم وقد أَزْبَدَ إبطاه، وهو يقول: [من الرجز]

أقلتُ مِنْ جَلْهَةَ ناعتينا بذي حُطاطٍ يُعطِسُ المخنُونا[3]
يَزْوِي له من نتْنه الجَبِينا حتَّى تَرَى لوجهِه غُضُونا
نُبِّئْتَ عبدَ القيس يَأبطونا

قال: ومتَح أعرابيٌّ على بئرٍ وهو يقول: [من الرجز]

يا رِيَّها إذا بَدا صُنَانِي كأنَّني جاني عُبَيْثُرَانِ[4]

---

(١) اليعر: الشاة تشد عند زبية الأسد.
(٢) يوجدنيه: يجعلني أشعر بوجوده.
(٣) الحُطاط: الرائحة الخبيثة، المخنون: الإبل الذي أصابه زكام.
(٤) العبيثران: نبات كالقيصوم طيب للأكل؛ له قضبان دقاق. اللسان: عبثر ٣ / ٥٣٣.

وقال آخر: [من الرجز]

كَأنَّ إبطيَّ وقد طالَ المدى نَفْحَةُ خُرْءٍ مِنْ كَوَاميخ القرى[1]

ويقال إنّهُ ليس في الأرض رائحةٌ أنتنُ، ولا أشَدُّ على النفس، من بَخَر فمٍ أو نَتْنِ حِرٍ، ولا في الأرض رائِحةٌ أعصمُ لرُوحٍ من رائِحة التفاح.

١٩١ - [فوائد العذرة]

وقال صاحب الكلب: فما نرى النَّاسَ يَعافُون تسميدَ بُقولِهم قبل نُجومها وتفتُّقِ بزورها ولا بعد انتشارِ ورقها وظهورِ موضع اللُّبِّ منها حتَّى ربَّمَا ذَرُّوا عليها السَّمادَ ذَرّاً، ثُمَّ يُرْسَل عليها الماءُ حتى يَشْرَبَ اللُّبُّ قُوى العذرة، بل مَن لهمْ بالعَذرة؟! وعلى أنَّهُم ما يصيبونها إلاّ مغشوشةً مُفْسَدَة. وكذلك صنيعُهم في الريحَان. فأمَّا النَّخْلُ فلو استطاعوا أن يَطْلوا بها الأجذاعَ طلياً لفعلوا. وإنَّهم لَيُوقدون بها الحَمَّامات وأَتاتينَ الملاَل[2]، وتنانير الخبز. ومن أكرم سمادهم الأبعارُ كلُّهَا والأخثاءُ[3] إذاَ جفَّت. وما بينَ الثَّلط[4] جَافاً والخثاء يابساً، وبين العَذرة جافَّةً ويابسةً فرق. وعلى أنَّهم يعالجون بالعَذرة وبخرْءِ الكلب، من الذُّبحة والخانُوق[5] في أقصى مواضِع التقزُّز وهو أقصى الحلق، ومواضِع اللهاة، ويضعونَها على مواضع الشَّوكة، ويعالجون بها عُيون الدَّوابّ.

١٩٢ - [أقوالٌ لمسبِّحٍ الكناس]

وقال مسبّح الكناس: إنَّمَا اشتُقَّ الخير من الخُرْء. والخرء في النوم خير. وسَلْحَةٌ مُدرِكَةٌ ألذُّ مِن كَوْمِ العَروس ليلةَ العُرس. ولقد دخَلتُ على بَعْضِ الملوك لبعض الأسباب، وإذاَ به قُعاصٌ[6] وزكام وثِقَلُ رأس، وإذا ذلك قد طاولَه، وقد كان بلغني أنَّه كان هجَر الجلوس على المقعدة وإتيانَ الخلاء، فأمرتُه بالعَود إلى عادته، فما مَرَّت به أيامٌ حتى ذهب ذلك عنه.

وزعم أنَّ الدنيا مُنتِنة الحِيطان والتُّرْبةِ، والأنهار والأودية، إلاّ أنَّ النَّاسَ قد

---

(١) الكامخ: نوع من الأدْم معرب.

(٢) الأتاتين: جمع أتون، وهو الموقد. الملال: جمع مليل، وهو اللحم والخبز.

(٣) الأخثاء: روث الإبل.

(٤) الثلط: الرقيق من الرجيع؛ وأكثر ما يقال للإبل والبقر والفيلة.

(٥) الخانوق: الذبحة.

(٦) القعاص: داء يأخذ في الصدر، كأنه يكسر العنق.

غمرهم ذلك النتْن المحيط بهم، وقد مَحَقَ حسَّهم له طولُ مُكثه في خياشيمهم. قال: فمن ارتابَ بخبري، فليقفْ في الرَّدِّ إلى أن يمتحنَ ذلك في أوَّل ما يخرجُ إلى الدنيا، عَنْ بيتِ مطيَّب؛ وليتشَمَّمْ تشمُّمَ المتشبِّث. عَلَى أنّ البقاعَ تتفاوت في النتن. فهذا قولُ مسبّح الكنَّاس.

١٩٣ - [أنتن الجيف]

وزعم لي سَلْمَوَيه وابن ماسَوَيه مُتطبِّبا الخلفاء، أنَّه ليس على الأرض جيفةٌ أنتنُ نَتْناً ولا أَثْقَبُ ثُقوباً من جيفة بعير، فظننتُ أنَّ الذي وهَّمهما ذلك عَصَبيَّتُهُمَا عليه، وبغضُهما لأربابه، ولأنَّ النبيَّ ﷺ وعلى آله، هو المذكورُ في الكتب براكب البعير. ويقال إن الحجَّاج قال لهم: أيُّ الجيَفِ أنتن؟ فقيل: جيَف الكلاب. فامتحنَتْ فقيل له: أنتن منها جيف السنانير، وأنتن جيفها الذكورُ منها. فصلب ابن الزُّبير بين جِيفَتَيْ سنَّورين ذكرين(١).

١٩٤ - [أطيب الأشياء رائحة وأنتنها]

وأنا أقول في النتن والطِّيب شيئاً، لعلَّك إن تفقّدتَه أن توافقَني عليه وترضى قولي. أمَّا النتن فإنِّي لم أشمَّ شيئاً أنتنَ من ريحِ حُشٍّ مقيَّر، يبول فيه الخصيان ولا يُصَبُّ عليه الماء؛ فإنّ لأبوالهم المترادفة المتراكبة ولريح القار وريح هواءِ الحشِّ وما ينفصل إليه من ريح البالوعة - جِهةً من النَّتْن ومذهباً في المكروه، ليس بينه وبين الأبدان عمل، وإنَّما يقصِد إلى عين الرُّوح وصميمِ القلب، ولا سيَّما إذا كان الخلاءُ غيرَ مكشوف، وكان مغموماً غيرَ مفتوح. فأمَّا الطِّيب فإني لم أشْمَمْ رائحة قطُّ أحيا للنفس ولا أعصَمَ للرُّوح، ولا أفتَقَ ولا أغنج، ولا أطيب خمرة من ريحِ عَروس، إذا أُحكمت تلك الأخلاط، وكان عَرْف بَدَنها ورأسِها وشعرها سليماً. وإن كانت بمدينة الرسول ﷺ، فإنّك ستجد ريحاً تعلَمُ أنَّهُ ليس فوقَهَا إلاّ ريحُ الجنة.

١٩٥ - [ما قيل في الظربان]

ومما قالوا في النَّتْن، وفي ريح جُحْرِ الظَّرِبان خاصَّة، قول الحكم بن عَبْدَل:
[من الكامل]

أَلقيتَ نفسَكَ في عَرُوضٍ مَشَقَّةٍ ولحَصْدُ أنفِكَ بالمنَاجِل أَهْوَنُ(٢)

---

(١) في المعارف لابن قتيبة ٢٢٥ «صلب حيث أصيب».

(٢) الأغاني ٢/٤٢٤؛ والبيتان الأخيران في عيون الأخبار ٤/٦٢. العروض: الطريق في عرض الجبل في مضيق.

أنت امرؤٌ في أرضِ أمّكَ فُلفلٌ   جَمٌّ وفُلفُلنا هُناك الدِّنْدنُ[١]
فبحقِّ أمّك وهي منك حقيقةٌ   بالبرِّ واللُّطفَ الذي لا يُخزَنُ
لا تُدْنِ فاكَ من الأميرِ ونحِّه   حتّى يُداوِيَ ما بأنفكَ أهْرَنُ
إن كانَ للظَّرِبانِ جُحْرٌ مُنتِنٌ   فلَجُحْرُ أنفك يا محمَّدُ أنتَنُ

وقال الربيع بن أبي الحقَيق – وذكر الظَّرِبان – حينَ رمى قوماً بأنّهم يَفسُون في مجالسهم، لأنّ الظَّرِبان أنتنُ خلْقِ اللّه تعالى فَسْوةً[٢]. وقد عَرَف الظَّرِبانُ ذلك فجعَلَه من أشدِّ سِلاَحه، كما عرفَتِ الحُبارَى مَا في سُلاَحِها من الآلة، إذا قرب الصقر منها[٣]. والظَّرِبَانُ يدخل على الضبِّ جُحرَه وفيه حُسوله أو بيضُه، فيأتِي أضيقَ موضعٍ في الجُحر فيسدُّه بيديه، ويحوِّل استَه فلا يفسو ثلاثَ فَسَوَاتٍ حتى يُدارَ بالضبِّ فيخِرَّ سكرانَ مغشيّاً عليه، فيأكله، ثم يقيم في جُحره حتَّى يأتِيَ على آخرِ حُسوله.

وتقول العرب: إنّه ربَّمَا دخَل في خِلال الهَجْمة فيفسو، فلا تتمُّ له ثلاثُ فَسَواتٍ حتى تتفرَّق الإبل عن المبْرَك، تتركه وفيه قِرْدان فلا يردُّها الراعي، إلاّ بالجَهْدِ الشديد[٤].

فقال الربيع، وهجاهم أيضاً بريح التُّيوس: [من المتقارب]

قَليلٌ غَنَاؤُهُم في الهِياجِ   إذَا مَا تَنَادَوْا لأمرٍ شديد[٥]
وأنتمْ كِلاَبٌ لَدَى دُورِكم   تهرُّ هريرَ العَقور الرَّصُودِ
وأنتم ظَرَابيُّ إذ تجلسونَ   وما إنْ لنا فيكمُ من نَديدِ
وأنتم تيوسٌ وقد تُعرَفونَ   بريح التُّيوسِ وقُبْح الخدودِ

قال: ويقال: «أفسى من الظَّرِبان» ويسمّى مفرِّقَ النَّعَم، يريدون من نتْنِ ريحِ فُسَائه. ويقال في المثل – إذا وقعَ بين الرجُلين شرٌّ فتباينَا وتقاطَعَا –: «فسَا بَيْنَهُمَا

---

(١) الدندن: ما بلي واسود من النبات والشجر، وقيل: هي أصول الشجر البالي.
(٢) ربيع الأبرار ٥/٢٨٣.
(٣) ربيع الأبرار ٥/٤٤٨.
(٤) ربيع الأبرار ٥/٢٨٣، وثمار القلوب ٣٣٣ (٦١٧).
(٥) الأبيات في ثمار القلوب ٣٣٣ (٦١٨).

ظَرِبَان». ويقال: «أنتَن مِنْ ظربان»[1] لأنَّ الضبَّ إنَّما يخدع في جُحْره ويُوغِل في سِرْبه لشدَّة طلب الظَّرِبان له. وقال الفرزدق في ذلك: [من الطويل]

ولو كنتُ في نارِ الجحيم لأصبحَتْ ظَرَابِيُّ من حِمَّانَ عنِّي تثيرها[2]

وكان أبو عُبيدة يُسمِّي الحِمَّانيَّ صاحِبَ الأَصَمِّ: الظَّرِبان، يريد هذا المعنى، كما يسمى كل حِمَّانِيٍّ ظَرِبَاناً.

وقال ابن عَبدَلٍ: [من الكامل]

لا تُدْنِ فاكَ من الأميرِ ونحِّه حتَّى يداوِيَ ما بأنْفِك أهْرَنُ[3]
إن كانَ للظَّرِبان جُحرٌ مُنتِنٌ فلَجُحر أنفِك يا محمد أنتن

في شعره الذي يقول:

ليتَ الأميرَ أطاعَني فشفيتُه من كلِّ مَن يُكْفي القصيدَ ويَلْحَنُ
متكَوِّرٌ يَحْثُو الكلام كأنَّما باتَتْ مناخِرُهُ بدُهْنٍ تُعرَنُ
وبنَى لهم سِجناً فكنتُ أميرَهم زَمناً فاضربُ مَن أشاءُ وأسجُنُ
قل لابنِ آكِلة العِفَاصِ محمَّدٍ إن كنتَ من حبِّ التقرُّب تجبُنُ
ألقِيْتَ نفسَك في عَروضٍ مَشَقَّةٍ ولَحَصْدُ أنفك بالمناجِلِ أهْوَنُ
أنتَ امرؤٌ في أرضِ أمِّك فلفلٌ جَمٌّ وفلفلنا هناك الدَّنْدن
فبحقِّ أمِّكَ وهي منك حقيقَةٌ بالبرِّ واللَّطَف الذي لا يُخْزَنُ
لا تُدْنِ فاكَ من الأميرِ ونحِّه حتَّى يُداوِيَ ما بأنفك أهْرَنُ
إنْ كانَ للظَّرِبانِ جُحْرٌ منتنٌ فلَجُحْر أنفك يا محمَّدُ أنتَنُ
فسَلِ الأميرَ غيرُ موفَّقٍ وبَنُو أبيه للفَصاحة مَعْدِنُ
وسَلِ ابنَ ذَكْوانٍ تَجِدْهُ عالماً بسَليقة العُرْب التي لا تحزَنُ
إذْ أنتَ تجعَلُ كلَّ يومٍ عفصَةً فتجيدُ ما عملت يَداك وتحسنُ
أشبهتَ أمَّكَ غيرَ بابٍ واحدٍ أنْ قد خُتِنْتَ وأنَّها لا تُخْتَنُ

---

(١) المثل في الدرة الفاخرة ٢ / ٣٩١، ومجمع الأمثال ٢ / ٨٥، وجمهرة الأمثال ٢ / ٢٩٨.

(٢) البيت للفرزدق في شرح شواهد الإيضاح ٥٩٣، ولم أجده في ديوانه. وبلا نسبة في اللسان (ظرب)، ونوادر أبي زيد ٢١١.

(٣) الأغاني ٢ / ٤٢٤، وعيون الأخبار ٤ / ٦٢.

فلَئِن أصبتَ دراهماً فدفنتَها | وفُتنت فيها، وابنُ آدمَ يُفتَنُ
فبما أراك وأنتَ غيرُ مُدَرْهِمٍ | إذْ ذاك تَقْصف في القِيان وتزْفِنُ
إذ رأسُ مَالِكَ لُعْبَةٌ بصريَّةٌ | بَيْضاءُ مُغْرِبَةٌ عليها السَّوْسَنُ

وقال ابن عبدل أيضاً: [من الوافر]

نَجَوت محمداً ودخانُ فيه | كريح الجَعْر فوقَ عَطينِ جلْد[1]
ركبتُ إليه في رَجُلٍ أتاني | كريمٍ يطلبُ المعروفَ عندي
فقلتُ له ولم أعجَل عليه، | وذلكَ بعدَ تقريظي وحَمْدي
فأعْرَضَ مُكْمَحاً عنّي كأنّي | أكَلِّمُ صَخْرَةً في رأْس صمْد[2]
أقرِّبُ كل آصِرَةٍ ليدنو | فما يزْداد منِّي غيرَ بُعْد
فأقسِمُ غيرَ مستثنٍ يميناً | أبا بَخرٍ لتتَّخمَنَّ رَدِّي
فلو كنتَ المهذّبَ من تميمٍ | لخفتَ ملامتي ورجوتَ حَمدي
نَجَوتُ محمداً فوجدتُ ريحاً | كريح الكلبِ ماتَ قريبَ عَهْد
وقد ألْذَعتَني ثعبانَ نَتْنٍ | سيبلغ إنْ سَلمْنا أهلَ نَجْد
وأدنى خَطْمَه فوددتُ أنِّي | قَرَنْتُ دونوَه مني ببُعْد
كما افْتَدَت المعاذةُ من جَواهُ | بخلْعَتها ولم تَرجع بزَنْد
وفارقَها جواه فاستراحَتْ | وكانتْ عندَه كأسيرِ قدٍّ
وقد أدنيتُ فاه إليَّ حتَّى | قتلتُ بذاك نفسي غيرَ عَمْد
وما يدنُو إلى فيه ذُبابٌ | ولو طُليت مَشافرُه بقَنْد[3]
يَذُقن حلاوةً ويَخفْن موتاً | زعافاً إنْ همَمْنَ له بورد[4]
فلما فاحَ فُوه عليّ فَوْحاً | بمثل غَثيثَةِ الدُّبر المَغدِّ[5]
فقلت له: تنحَّ بفيك عنِّي | فما هذا بريحِ قُتَارِ رَنْد[6]
وما هذا بريح طِلاً ولكنْ | يفوحُ خرَاكَ منه غير سَرْد[7]

(١) الأغاني ٢/٤١٢-٤١٣، ومعجم الأدباء ١٠/٢٣٢-٢٣٣.
(٢) أكمح الرجل: رفع رأسه من الزهو، الصمد: المكان المرتفع.
(٣) القند: عصارة قصب السكر إذا جمد.
(٤) الزعاف؛ ومثله الذعاف: السم القاتل.
(٥) الغثيثة: القيح. المغد: الذي أصابه الطاعون.
(٦) الرند: نبات طيب الرائحة.
(٧) الطّلا: الخمر.

فحدّثْني فإنَّ الصِّدقَ أدنى … لبابَ الحقِّ من كذبٍ وجَحْدِ
أباتَ يجولُ في عَفَجٍ طحور … فاعلم أمْ أتاكَ به مُغَدِّي[1]
نكهتَ عليَّ نكهةَ أخدَريٍّ … شتيمٍ أعصلِ الأنيابِ وَرْدِ
فإن أهديتَ لي من فيكَ حتْفي … فإنِّي كالذي أهديتَ أهدي
لكم شُرُداً يَسرنَ مغنِّياتٍ … تكونُ فنونُها من كل فندِ[2]
أما تخزَى خَزِيت لها إذا ما … رَوَاها النَّاسُ من شيبٍ ومُرْدِ
لأرجُو إن نجوت ولم يُصبْني … جوًى إنِّي إذن لَسعيدُ جدٍّ
وقلتُ له: متى استطْرفْتَ هذا … فقال أصابني من جَوفِ مَهْدي
فقلت له: أما دَاويتَ هذا … فتعذر فيه آمالا بجَهْدِ
فقال: أمَا علمت له رِقَاءً … فتسديَه لنا فيما ستُسْدي
فقلت له: ولا آلوه عيا … له فيما أسرُّ له وأُبدي
عليكَ بقيئةٍ وبجعْرِ كَلْبٍ … ومثليْ ذاك من نونٍ كَنَعْدِ
وحلتيتٍ وكُرَّاثٍ وثُومٍ … وعُودَي حَرْمَلٍ ودماغِ فَهْدِ[3]
وحَنْجَرَةِ ابنِ آوى وابنِ عِرسٍ … ووزنِ شَعيرةٍ من بَزْرِ فَقْدَ[4]
وكَفٍّ ذُرُحْرُحٍ ولسانِ صَقرٍ … ومثقالين من صوّانِ رَقْدَ[5]
يُدَقُّ ويُعجَن المنخولُ منه … ببولِ آجنٍ وبجَعْرِ قردِ
وتدفنُه زماناً في شعيرٍ … وترقبه فلا يَبدُو لبَرْدِ
فدخِّن فاكَ ما عتَّقت منه … ولا يعجن بأظفارٍ ونَدٍّ[6]
فإنْ حضرَ الشتاءُ وأنتَ حيٌّ … أراك اللّهُ غَيَّكَ أمرَ رشدِ
فدَحْرِجْها بنادقَ وازدرِدْها … متَى رُمْتَ التكلُّم أيّ زَرْدِ
فتقذف بالمصَلِّ على مَصَلٍّ … ببلعومٍ وشدْقٍ مُسْمَعِدٍّ[7]
وويْلَكَ ما لِبَطْنِك مذْ قعَدْنا … كأنّ دويَّهُ إرزامُ رَعْدِ

---

(١) العفج: الأمعاء. الطحور: السريع.

(٢) الفند: الفئة.

(٣) الحلتيت: نبات يخرج من وسطه قصبة، وهو مما يؤكل.

(٤) الفقد: نبات ينبذ في العسل فيقويه؛ ويجيد إسكاره.

(٥) الذرحرح: دويبة أعظم من الذباب شيئاً، مبرقش بسواد وحمرة وصفرة. وهو سم قاتل. الرقد: جبل تنحت منه الأرحية.

(٦) الأظفار والند: نوعان من الطيب.

(٧) المسمعد: المنتفخ ورماً.

فإنَّ لحكَّة الناسور عندي دواءً إن صبرتَ له سيُجدي
يُميت الدُّودَ عنكَ وتشتهيه إن انت سَنَنْتَهُ سنَّ المقَدّي[1]
به، وطليتَه بأصول دِفْلَى وشيءٍ من جنَى لَصَفٍ ورَنْد[2]
أَظُنُّي ميّتاً مِنْ نَتْنِ فيهِ أهانَ اللهُ من ناجَاهُ بَعْدِي

١٩٦ - [أشعار العرب في هجاء الكلب]

وقال صاحب الديك: سنذكُر أشعار العرب في هجاء الكلب مجرّداً على وجهه، ثمَّ نذكُر ما ذمُّوا من خلالهِ وأصناف أعماله، وأموراً من صفاته، ونبدأ بذكرِ هجائه في الجملة. قال بشَّار بن بُرْد: [من الطويل]

عددتَ سويداً إذ فخرتَ وتَوْلَباً وللكَلْبُ خَيْرٌ من سُوَيدٍ وتَولبِ[3]

وقال بشَّارٌ أو غَيره: [من الطويل]

أتَذْكُرُ إذ تَرْعَى على الحيِّ شاءَهُمْ وأنتَ شريكُ الكلب في كلِّ مَطْعَمِ
وتلحَسُ ما في القَعْبِ من فَضْلِ سُؤْرِهِ وقد عاثَ فيه باليدَين وبالفمِ

وقال ابن الذئبة: [من الرجز]

من يجمع المال ولا يَثُبْ به ويترك المالَ لِعَامِ جِدْبِهِ[4]
يهُنْ عَلَى النَّاسِ هَوانَ كلبِهِ

وقال آخر: [من الطويل]

إنَّ شَرِيبي لا يغبُّ بوجهه كُلومي كأنْ كلباً يُهارِش أكْلُبا
ولا أَقْسِمُ الأعطان بيني وبينَه ولا أتوقَّاه وإن كان مُجْرِبا

وهجا الأحوص ابناً له فشبَّهه بجروِ كَلْبٍ فقال: [من الرجز]

أقبِحْ به من ولدٍ وأَشْقِحْ مثل جُرَيِّ الكلب لم يُفَقِّحْ[5]

---

(١) سننته: صببته. المقَدّي: شراب غليظ.

(٢) اللصف: نبات له ورق كورق لسان الحمل. والرند: نبات طيب الرائحة.

(٣) ديوان بشار ٤/١٩٣.

(٤) الرجز في كتاب البخلاء ١٨٤، وعيون الأخبار ١/٢٤٣.

(٥) الرجز في الأغاني ٤/٢٣٢.

إن يَرَ سُوءاً مَا يَقُمْ فينبحْ　　　بالبابِ عند حاجةِ المستفتِحْ

وقال أبو حُزَابة: [من السريع]

يا ابنَ عليٍّ بَرِحَ الخَفاءُ　　　أنتَ لغَيْرِ طَلْحَةَ الْفداءُ(١)
قد علمَ الأشرافُ والأكفاءُ　　　أنَّك أنت النَّاقصُ اللُّفاءُ(٢)
حَبلَّقَ جدَّعه الرِّعاء　　　يغُمُّه المئزَرُ والرِّداءُ(٣)
بنو عليٍّ كلُّهمْ سواءُ　　　كأنَّهم زَينيَّةٌ جراءُ(٤)

وقال عبدُ بني الحَسْحاس، وذكر قُبْحَ وجهِه فقال: [من الطويل]

أتيتُ نساءَ الحارثيِّينَ غُدْوَةً　　　بوجهٍ بَراهُ اللّهُ غيرِ جميلِ(٥)
فشبَّهنَني كلباً ولسْتُ بفوقِه　　　ولا دونَه إن كان غيرَ قليل

وقال أبو ذبَابٍ السَّعْديّ في هَوَان الكلب: [من الوافر]

لكسْرَى كانَ أعقَلَ من تميمٍ　　　لياليَ فرَّ من أرْضِ الضِّبابِ(٦)
وأسكنَ أهلَه ببلاد ريف　　　وأشجارٍ وأنهارٍ عذَابِ
فصار بنُو بَنيه لها مُلوكاً　　　وصرنا نحنُ أمثالَ الكِلاَبِ
فلا رَحمَ الإلهُ صدَى تميم　　　فقد أزْرَى بنا في كلِّ بابِ

وأراد اللّعين هجاءَ جريرٍ - وجَريرٌ من بني كُليب - فاشتقَّ هجاءَه من نسبه فقال: [من الوافر]

سأقْضِي بين كلب بني كُليب　　　وبين القَينِ قَينِ بني عِقال(٧)
فإنَّ الكلبَ مَطعَمُه خبيثٌ　　　وإنَّ القينَ يَعمَلُ في سَفالِ
كِلاَ العَبدين - قد علمتْ مَعَدٌّ　　　لئيمُ الأصلِ من عمٍّ وخالِ

---

(١) الأبيات في الأغاني ٢٢ / ٢٦١. وابن علي هو: عبد اللّه بن علي بن عدي، وكان شحيحاً. الأغاني ٢٢ / ٢٦١.

(٢) اللفاء: الحقير.

(٣) حبلّق: غنم صغار.

(٤) الزينية: كلاب قصيرة القوائم

(٥) البيتان في ديوان سحيم عبد بني الحسحاس ٦٩، والأغاني ٢٢ / ٣٠٦، وعيون الأخبار ٤ / ٣٥.

(٦) الأبيات للفرزدق في رسائل الجاحظ ٢ / ٤١١، وليست في ديوانه.

(٧) الأبيات في الوحشيات ٦٣، وطبقات ابن سلام ٤٠٢، والخزانة ١ / ٥٣١ (بولاق). والبيت الأخير ورد في ديوان لبيد ٦٥٨.

فما بُقيَا عليَّ تركتُماني ... ولكنْ خِفتُما صَرَدَ النبال

وقال رجلٌ من همْدان، يقال له الضَّحَّاك بن سعد، يهجو مَرْوان بن محمد بن مروان بن الحكم، واشتقَّ له اسماً من الكلب فجعلَه كلباً فقال: [من البسيط]

لجَّ الفِرَارُ بمرْوان فقلتُ له ... عادَ الظلوم ظليماً همُّهُ الهربُ[1]
أين الفِرارُ وتركُ المُلْك إن قبلت ... منك الهُوَينَى فلا دينٌ ولا أدبُ
فَرَاشَةُ الحلم فِرعون العذابِ، وإن ... يُطلَب نَداهُ فكلبٌ دونَه كَلِبُ

وقال آخر وجعل الكلبَ مثلاً في اللُّؤم: [من الطويل]

سَرَتْ ما سَرَت من ليلِها ثمّ عرَّسَتْ ... على رجلٍ بالعَرْجِ ألأَمَ مِنْ كلْبِ[2]

وكذلك قول الأسود بن المنذر، فإنّه قال: [من المتقارب]

فإنّ امرأً أنتُمُ حولَه ... تحفُّون قُبَّتَه بالقباب[3]
يُهينُ سرَاتَكُم جاهداً ... ويقتُلكم مثلَ قتْل الكلابِ

وقال سحيمة بن نعيم: [من الطويل]

ألستَ كليبيّاً لكَلْبٍ وكلبةٍ ... لها عندَ أطْنَاب البُيوتِ هَرِيرُ

وقال النَّجْرانيُّ في ذلك: [من الرجز]

من منْزِلي قد أخرجَتْني زوجتي ... تهِرُّ في وجهي هَرِير الكَلَبة
زَوَّجتُها فقيرةً من حِرْفَتي ... قلت لها لمّا أراقتْ جَرتي
أُمَّ هِلالٍ أبْشِرِي بالحسرةِ ... وأبشرِي منك بقُرب الضَّرَّةِ

١٩٧ - [الفلحس والأرشم]

ويقال للكلب «فلحَس» وهو من صفات الحرْص والإلحاح. ويقال: «فلان أسأَلُ منْ فَلْحَس»[4]. وفَلْحَسٌ: رجلٌ من بني شيبان كان حريصاً رغيباً، ومُلحِفاً مُلِحّاً. وَكلّ طُفَيليٍّ فهو عندهم فَلْحَسٌ.

---

(١) نسبت الأبيات إلى سعيد بن العاصي في ديوان المعاني ١/١٩٦، والبيت الثالث بلا نسبة في الدرر ٥/٢٩٣، وهمع الهوامع ٢/١٠١.

(٢) البيت بلا نسبة في البخلاء ١٦١.

(٣) البيتان للقيط بن زرارة في الأغاني ٢٢/١٩٣، وبلا نسبة في عيون الأخبار ١/٢٩٢.

(٤) مجمع الأمثال ١/٣٤٧، وجمهرة الأمثال ١/٥٣٢، والمستقصى ١/١٥٢.

والأرشَم[1]: الكلب والذئب، وقد اشتقَّ منه للإنسان إذا كان يتشمَّم الطعام ويتْبع مواضعه. قال جريرٌ في بعضهم: [من الطويل]

لَقًى حَملتْهُ أمُّه وهي ضَيفة ... فجاءَتْ بيَتْنٍ للضِّيافةِ أرشَما[2]

وقال جريرٌ في استرواح الطعام: [من الكامل]

وبنو الهُجَيم سَخيفةٌ أحلامُهم ... ثُطُّ اللِّحَى مُتشابِهُو الألوان[3]

لو يَسمَعون بأكلةٍ أو شَرْبةٍ ... بعُمَانَ أضحى جمْعُهم بعُمان

متأبِّطين بنيهمُ وبناتِهمْ ... صُعْرَ الخدودِ لريحِ كلِّ دُخانِ

وقال سَهمُ بن حنظَلَة الغَنَويُّ في ذلك: [من المتقارب]

وأمّا كلابٌ فمثلُ الكلا ... ب لا يُحسنُ الكلبُ إلاَّ هريرًا[4]

وأمّا نُميرٌ فمثلُ البغا ... ل أشبَهْنَ آباءهُنَّ الحَميرا

وأمّا هِلالٌ فعَطَّارَةٌ ... تبيع كِباءً وعِطْراً كثيرا

١٩٨ - [بين جرير والراعي]

ومرَّ جريرٌ يوماً بالمِربَد، فوقف عليه الراعي وابنه جنْدَل، فقال له ابنه جندل: إنَّه قد طال وقوفُك على هذا الكلب الكُلَيبيّ، فإلى متى؟! وضرب بغلَته، فمضى الراعي وابنه جندل، فقال جرير: واللّه لأُثقلنَّ رواحلك! فلما أمسى أخذَ في هجائه، فلم يأته ما يريد، فلما كان معَ الصبح انفتَح له القولُ فقال: [من الوافر]

فغضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُميرٍ ... فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا[5]

ولو جُعِلت فِقاحُ بني نُميرٍ ... على خَبَثِ الحديدِ إذاً لذَابا

---

(١) الأرشم: من يحرص على الطعام ويتشممه.

(٢) البيت لجرير في اللسان (نزر، لقا)، والتاج (نزر)، والعين ٦/٢٦٢. وللبعيث في اللسان والتاج (رشم، يتن). وبلا نسبة في اللسان والتاج (نزل)، والمخصص ٣/٦٦، ١٧/٣٠، والمقاييس ٢/٣٩٦، ٣/٣٨٢.

(٣) الأبيات لجرير في ديوانه ٥٨١، والأغاني ٨/٥٢، وعيون الأخبار ٣/٢٢٥، وبلا نسبة في البيان ٣/٣٢١.

(٤) البيتان ١-٢ في رسائل الجاحظ ٢/٣٤٣ (كتاب البغال).

(٥) انظر خبر الشعر في الأغاني ٨/٢٩، ٢٤/٢٠٦-٢٠٩، والشعر في ديوانه ٦٤-٧٩ ضمن قصيدة طويلة.

ثم وقف في موقفه، فلمَّا مرَّ به جندلٌ قبض على عِنان فرسِه، فأنشده قوله، حتى إذا بلغ إلى هذا البيت:

أَجندلُ ما تقول بنو نميرٍ إذا ما الأَيرُ في استِ أبيك غابا

قال: فأدبرَ وهو يقول: يقولون واللّه شراً.

وقال الشاعر – وضرب بالكلب المثلَ في قُبْح الوجه –: [من الكامل]

سَفَرتْ فقلتُ لها هَجِ فَتبرقَعَتْ فذكرتُ حين تبرقعت ضَبَّارا[1]

وضَبَّار: اسم كلب له.

١٩٩ – [أمثال في الكلاب]

وقال كعب الأحبارِ لرجل وأراد سفراً: إنّ لكلِّ رُفقةٍ كلباً، فلا تكنْ كلبَ أصحابِك[2].

وتقول العرب: «أحبُّ أهلي إليّ كلبهم الظاعن»[3]. ومن الأمثال «وقَع الكلبُ على الذّئب ليأخذَ منه مثل ما أخَذ»[4]. ومن أمثالهم: «الكلابَ على البَقَر»[5]. ومن أمثالهم في الشؤم قولهم: «على أهْلها دلَّتْ بَرَاقِشُ»[6]. وبراقش: كلبةُ قومٍ نبحَت على جيشٍ مرُّوا ليلاً وهمْ لا يشعُرون بالحيِّ، فاستباحوهم واستدلُّوا على مواضعهم بنباحـها.

قال الشاعر: [من الوافر]

ألم تَرَ أنَّ سيِّد آلِ ثورٍ نُباتة عضَّهُ كلبٌ فماتا

٢٠٠ – [قتيل الكبش وقتيل العنز]

وقال صاحب الكلب: قد يموت الناسُ بكلِّ شيء، وقد قال عبد الملك بن

---

(١) البيت بلا نسبة في اللسان (هجج، ضبر، هبر) وشرح المفصل ٤/٧٥.

(٢) ثمار القلوب (٥٨٧)، وعيون الأخبار ١/١٣٦، والأمالي ٢/٢٣٤.

(٣) في الأمثال: «أحب أهل الكلب إليه الظاعن»، والمثل في مجمع الأمثال ١/٢٠١، والمستقصى ١/٢٥٩، وجمهرة الأمثال ٢/١٣٦، ١٦٥.

(٤) مجمع الأمثال ٢/٣٧٣.

(٥) مجمع الأمثال ٢/١٤٢، وجمهرة الأمثال ٢/١٦٩، والمستقصى ١/٣٤١، وفصل المقال ٤٠٠.

(٦) جمهرة الأمثال ٢/٥٢، والمستقصى ٢/١٦٥، والمثل برواية «على أهلها تجني براقش» في مجمع الأمثال ٢/١٤، وفصل المقال ٤٥٩، والامثال لابن سلام ٣٣٣.

مروان: ألا تتعجبون من الضحّاك بن قيس يطلب الخلافة ونطح أباه كبش فوُجد ليس به حَبَضٌ ولا نَبَض[1]. وقال عَرفجة بن شريك يهجو أسلَم بن زُرْعة – ووطئتْ أباه عنْزٌ بالمِربد فمات – فقال: [من الطويل]

ولم أستطع إذْ بانَ منّيَ معشَري   مكانَ قتيلِ العنز أنْ أتكلّما
فيما ابنَ قتيلِ العنْز هل أنت ثائرٌ   بزُرعةَ تيساً في الزَّرِيبةِ أزنما

٢٠١ – [شعر في الهجاء]

وقال أبو الهول يهجو جعفر بن يحيى: [من السريع]

أصبحتُ محتاجاً إلى الضَّرْبِ   في طلَبِ العُرْف إلى الكلْبِ[2]
قد وقَّح السَّبُّ له وجهَه   فصار لَا ينحاش للسَّبِّ
إذا شَكَا صبٌّ إليه الهوَى   قال لهُ مالي وللصبِّ
أعْني فتًى يُطعَن في دينه   يشِبُّ مَعَهُ خَشَبُ الصُّلْبِ

قال: وقلتُ لأبي عبيدة: أليس بُقْعُ الكلاب أمثلَها؟ قال: لا. قلت: ولم قال: [من الوافر]

وخِفْتُ هجاءهم لما تَوَاصَوْا   كخَوْفِ الذِّئبِ من بُقْعِ الكِلابِ؟

قال: ليس هكذا قال، إنما قال:

* كَخَوْفِ الذِّئب من سُودِ الكِلابِ *

ألا ترى أنّه حين أراد الهجاء قال: [من الوافر]

كأنَّك بالمبارَكِ بعدَ شهرٍ   تَخُوضُ غُمورَه بُقْعُ الكِلابِ[3]

ويدل على ذلك قول الجَدَليّ: [من الطويل]

لَعَمري لَجوٌّ مِنْ جِواء سُوَيقَةٍ   أسافلُه مَيْثٌ وأعلاه أجْرَعُ[4]

---

(١) قوله: «ليس به حبض ولا نبض» يعني: لا حراك به. وهو مثل في مجمع الأمثال ٢/ ٢٧٠، والمستقصى ٢/ ٣٣٠. وهذا القول يعرف بما يسمى «الإتباع» انظر الإتباع والمزاوجة ٩١.

(٢) الأبيات في البيان ٣/ ٣٥١، والعمدة ١/ ٦٩، والبيتين ١–٢ لإسماعيل بن بشر اللاحقي في أخبار الشعراء المحدثين ٧٣.

(٣) البيت للمفرج بن المرفع؛ أو للفرزدق في معجم البلدان (٥/ ٥١: المبارك). والمبارك: نهر بالبصرة؛ احتفره خالد بن عبد الله القعسري. وقيل: نهر وقرية فوق واسط.

(٤) الأبيات لغطمش الضبي في معجم البلدان (٢/ ١٨٤: جوسق).

أحبُّ إلينا أن نجاورَ أهلَه ... ويصبحَ منَّا وهو مرأى ومسمعُ
من الجَوْسَقِ الملعونِ بالرَّيِّ لا يني ... على رأسه داعي المنيَّة يلمَعُ
يقولون لي صبراً فقلتُ: لَطالَما ... صَبرتُ ولكنْ لا أرى الصَّبرَ ينفعُ
فليتَ عطائي كانَ قُسِّمَ بيْنَهُمْ ... وكان لي الصَّمَّان والحزنُ أجمعُ
وكان لهم أجْري هنيئاً وأصبحَتْ ... بي البازلُ الكَوماء بالرمل تَضْبَعُ
أأجعلُ نفسي عِدْلَ علجٍ كأنَّما ... يموتُ به كلبٌ إذا ماتَ أبقَعُ

قال: فقد بيَّن كما ترى أنَّ الأبقَعَ شرُّها.

قال: وقلت: فلم قال الشاعر: [من البسيط]

أرسلْتَ أُسداً على بُقْعِ الكلاب فقد ... أمسى شَرِيدُهمُ في الأرض فُلاَّلا(١)

قال: فكيف يقول ذلك وهو يمدحهم؟ وإذا صغَّر شأنَ من هَزَموا فقد صغَّر شأنَ الممدوح. بل إنَّما قال: «أرسلتَ أسداً على سود الكلاب».

قال: وإنَّما جاء الحديثُ في قتل سُود الكلاب، لأنَّ عُقُرَها أكثرُ ما تكون سوداً، وذلك من غلَبة أنفسها.

وليس في الأرض حيوانٌ من بقرةٍ وثورٍ وحِمارٍ وفرسٍ وكلبٍ وإنسان، إلاَّ والسُّودُ أشدُّها أَسْراً وعَصَباً، وأظهرُها قُوَّةً وصبْراً.

وقال أبو سعد المخزومي في هجائه دِعبلاً: [من الكامل]

يا ثَابِتَ بن أبي سعيدٍ إنَّها ... دُوَلٌ وأحْرِ بها بأَنْ تتنَقَّلا(٢)
هلاَّ جعلتَ لها كحُرْمَةِ دِعْبِلٍ ... في است أمِّ كلبٍ لا يساوي دِعبِلا

وقال ابن نوفل: [من الطويل]

وجئتَ على قَصْواءَ تنقلُ سَوءةً ... إلينا وكم من سوءةٍ لا تَهابُها(٣)
وتزعمُ أَنْ لم تخز سَلْمُ بنُ جنْدَلٍ ... وقد خَزِيت بعدَ الرِّجال كلابُها

وقال الحسن بن هانئ يهجو جعفرَ بنَ يحيى: [من الطويل]

قفاً خلف وجه قد أطيل كأنَّه ... قفا مالك يقضي الهموم على بثق(٤)

---

(١) قوم فلّ: منهزمون. والجمع فلول وفلال.

(٢) البيتان في ديوانه ٥٠، وديوان المعاني ١ / ١٨١.

(٣) القصواء: اسم ناقة.

(٤) ديوان أبي نواس ٥١٩، والبيان ٣ / ٣٥٤، والبرصان ٢١٨، وعيون الأخبار ١ / ٢٧٣.

واعظم زهواً من ذباب على خِراً — وأبخَلُ من كَلْبٍ عقُورٍ على عرْق

وقال أبو الشَّمقمق: [من الخفيف]

أهلُ جودٍ ونائلٍ وفَعالٍ — غَلَبُوا الناسَ بالنَّدى والعطيَّهْ[1]
جئتُه زائراً فأدنى مكاني — وتلقَّى بمرْحَبٍ وتحيَّهْ
لا كمِثْلِ الأصَمِّ حارثةِ اللؤْ — مِ شبيه الكُلَيبةِ القَلَطيَّهْ
جئتُه زائراً فأعرضَ عنّي — مثلَ إعراض قحبةٍ سُوسيَّهْ
وتولّى كأنّه أير بغلٍ — غابَ في دُبْر بَغلةٍ مِصريَّهْ

وقال أيضاً: [من الوافر]

ألا قُولا لسرّان المخازي — ووجه الكلب والتَّيْسِ الضروط[2]
له بطنٌ يَضلُّ الفيلُ فيه — ودُبرٌ مثلُ راقود النَّشوطَ[3]
وأَيْرٌ عارمٌ لا خيرَ فيه — كدَوْرِ سفينةٍ في بَثْق رُوط[4]
ولحيَةُ حائكٍ من باب قلب — مُوَصَّلَةَ الجَوانب بالخُيوطَ
له وجهٌ عليه الفقرُ بادٍ — مُرقَّعة جوانُبه بقوطَ
إِذَا نَهَضَ الْكِرَامُ إِلَى المَعَالِي — تَرَى سَرَّانَ يَسْفَلُ فِي هَبُوطَ

وقال أيضاً في ذلك: [من البسيط]

يا رازقَ الكلبِ والخنزيرِ في سعةٍ — والطيرِ والوحش في يهماءَ دوِّيَّهْ[5]
لو شئتَ صيَّرتَه في حالِ فاقته — حتى تُقرَّ بتلك الحالِ عينيَّه

وقال جرير بن عطية، يهجو الصَّلَتان العبديّ: [من الطويل]

أقول لها والدَّمع يغسِل كُحلَها — متى كان حكمُ اللّهِ في كَرَبِ النخلِ[6]

---

(١) ديوان أبي الشمقمق ٢٥٣.

(٢) ديوان أبي الشمقمق ٢٤٠.

(٣) الراقود: دنّ طويل الأسفل يُسيّع داخله بالقار. أو هو إناء خزف مستطيل مقيّر. النشوط: نوع من السمك.

(٤) الروط: النهر، معرب.

(٥) ديوان أبي الشمقمق ٢٥٠.

(٦) ديوان جرير ٤٢٩، ورواية صدر البيت: «أقول ولم أملك سوابق عبرتي». والبيت في اللسان (كرب، متى)، وأساس البلاغة (كرب).

فأجابه الصَّلَتَانُ فقال: [من الطويل]

تُعيِّرنا أن كانت النَّخْلُ مالَنا ... ووَدَّ أبوك الكلبُ لو كان ذا نَخْلِ

يعيِّره جريرُ بأنَّه كان هو وأبوه من أصحاب النَّخْل.

وقال وضّاحُ اليمن: [من البسيط]

وأكتم السِّرَّ غضباناً وفي سكري ... حتى يكون له وجهٌ ومستمعُ[1]
وأتْرُكُ القولُ عن علمٍ ومَقْدرَةٍ ... حتى يكون لذاك النَّجْد مُطَّلَعُ
لا قُوّتي قُوّة الراعي ركائبَه ... يبيتُ يأوي إليه الكلبَ والرُّبَع
ولا العَسيفِ الذي تشتدُّ عُقْبَتُهُ ... حتَّى يَثُوبَ وباقي نعْلِه قطَع

وقال محمَّد بن عبَّاد الكاتب مولى بجيلة، وأبوه من سبي دابق وكاتب زهير، وصديق ثُمامة، يهجو أبا سعد دعيَّ بني مخزوم، وبعد أن لقى منه ما لَقى: [من مجزوء الكامل]

فعلَتْ نزارُ بك الذي اسـ ... ـتاهَلْتَه نفياً وضَرْبًا[2]
فهجوتَ قحطانا لأهـ ... ـجُوَهم مكايَدةً وإرْبا
وأردتَ كيما تشتَفي ... بهجائهم منهم فتَرْبًا
ووثقت أنَّك ما سببـ ... ـتَ، حَماكَ لؤمُك أن تُسَبَّا
كالكلب إن ينبح فليـ ... ـس جوابه إلاّ اخسَ كَلْبا
خفِّض عليك وقَرْ مكا ... نَك لا تطفْ شرقاً وغربا
واكشِفْ قِناعَ أبيك فالـ ... آباءُ ليس تُنال غَصْبا

وقال آخر يصف كلباً: [من الطويل]

ولَذٍّ كطَعْم الصَّرْخَديِّ تركتُه ... بأرض العدا من خَشية الحَدَثَان[3]
ومُبْدٍ ليَ الشَّحناءَ بيني وبينه ... دعوتُ وقد طال السُّرى فدعاني

---

(١) الأبيات في الحماسة بشرح التبريزي ١ / ٢٦١ بلا نسبة، والمرزوقي ٦٤٥-٦٤٧، وهي لوضاح اليمن في ديوانه ٥٦.

(٢) الأبيات الأربعة الأخيرة في أخبار أبي تمام ٤٦، والبيت الأول في ديوان المعاني ١ / ١٧٩ بلا نسبة.

(٣) البيت الأول بلا نسبة في أساس البلاغة واللسان والتاج (لذذ)، ومجمل اللغة ٤ / ٢٤٥، وتهذيب اللغة ١٤ / ٤٠٩. ولم أجد البيت الثاني، بل وجدت ما يشبهه في ديوان زهير ٢٦٩:

وأشعث قد طالت قنازع رأسه ... دعوت على طول الكرى فدعاني

فوصفه كما ترى أنّه يبدي له البغضاء.

وقال آخر: [من الطويل]

سَرَتْ ما سَرَتْ من ليلها ثم عرَّست ... عَلَى رجُلٍ بالعَرْج ألأمَ من كلْبِ[1]

وقال راشِد بن شهاب اليشكُريُّ: [من الطويل]

فلستُ إذا هبَّتْ شَمالٌ عَرِيَّةٌ ... بكَلْبٍ على لحم الجزورِ ولا بَرَمْ

وقال كُثَيِّر بن عبد الرحمن، وهو يصف نعلاً من نِعال الكرام: [من الطويل]

إذا طُرِحَتْ لم يَطَّبِ الكلبَ ريحُها ... وإن وُضِعت في مجلس القَوم شُمَّتِ[2]

وقال اللّعين في بعض أضيافه، يخبر أنّه قراه لحمَ كلب. وقد قال ابنُ الأعرابي: إنّما وصف تيساً: [من الطويل]

فقلتُ لعَبْدَيَّ اقْتُلا داءَ بطنِه ... وأعفاجه اللائي لهنَّ زوائدُ[3]

فجاءَا بخِرشَاوَي شَعير عليهما ... كَرَادِيسُ من أوصالِ أعقَدَ سافِدِ

وقال خُلَيد عَيْنَين وهو يهجو جرير بن عطية ويردّ عليه: [من الطويل]

وعيّرتَنا بالنخل أن كان مالنا ... ووَدَّ أبوك الكلب لو كان ذا نخل

وقال دِعبل بن عليّ: [من المتقارب]

ولو يُرزَق الناسُ عن حيلةٍ ... لما نال كفّاً من التُّرْبَهْ

ولو يشربُ الماءَ أهلُ العفا ... ف لما نال من مائهم شَرْبَهْ

ولكنَّه رزقُ مَنْ رِزْقُه ... يعمُّ به الكلبَ والكلبهْ

(١) البيت بلا نسبة في كتاب البخلاء ٢٦١، وتقدم في الفقرة ١٩٦.

(٢) البيت لكثير عزة في ديوانه ٣٢٤، والبيان ٣/١٠٩، ١١٢، واللسان (نعل)، والتاج (شمت).

(٣) البيتان في معجم البلدان ٢/٢٨١ «حُلامات».

بـــاب
ذكر من هُجِيَ بأكل لحوم الكلاب ولحومِ الناس

٢٠٢ - [شعر في أكل لحوم الكلاب]

قال سالم بن دَارة الغطفانيُّ: [من الرجز]

يافَقْعَسِيُّ لِمْ أكلته لِمَهْ   لو خافَكَ اللّهُ عليه حرَّمه(١)

فما أكلتَ لحمَه ولا دَمه

وقال الفرزدق في ذلك: [من الطويل]

إذا أسديٌّ جاعَ يوماً ببلدةٍ   وكان سميناً كلبُه فهو آكلُه(٢)

وقال مساور بن هند: [من المتقارب]

إذا أسدِيَّةٌ ولدتْ غُلاَماً   فبشِّرها بلؤمٍ في الغلام(٣)

يخرِّسها نساءُ بني دُبَير   بأخبثِ ما يجدن من الطَّعام

ترى أظفارَ أعقَدَ مُلقيَاتٍ   براثنُها على وَضَم الثُّمَامِ

فهذا الشعر وما أشبَهه يدلُّ عليَ أنَّ اللعين إنَّما قراهم كلباً ولم يَقْرِهم تيساً، وأنَّ الصوابَ خلافُ ما قال ابْنُ الأعرابيِّ.

وقال مُساوِر بن هند أيضاً: [من الطويل]

بني أسدٍ أن تُمحل العامَ فَقْعس   فهذا إذنْ دَهْرُ الكلابِ وعامُها(٤)

---

(١) الرجز في كتاب البخلاء ٢٣٤.

(٢) البيت في كتاب البخلاء ٢٣٥، وربيع الأبرار ٥/٥١٥.

(٣) الشعر في كتاب البخلاء ٢٣٤.

(٤) البيت في كتاب البخلاء ٢٣٥.

وقال شرَيح بن أوس يهجو أبا المهوّش الأسدي: [من الطويل]

وعيَّرْتنا تمرَ العراق وبُرَّه ... وزادُك أير الكَلْب شيَّطه الجمرُ(١)

٢٠٣ - [شعر في أكل لحوم الناس]

وقال معروفٌ الدُّبيريّ في أكلهم لحومَ الناس: [من الوافر]

إذا ما ضِفْتَ يوماً فقعسيّاً ... فلا تَطعَمْ له أبداً طعاما(٢)

فإنَّ اللحم إنسانٌ فدَعْهُ ... وخيرُ الزَّادِ مَا مَنَع الحراما

وقد هُجيت هذيلٌ وأسد وبَلْعنبَر وباهلة بأكلِ لحوم الناس، قال حسَّان بن ثابت يذكر هذيلاً: [من البسيط]

إنْ سرَّك الغَدْرُ صرفاً لا مِزَاجَ له ... فأت الرجيع وسل عن دار لحْيان(٣)

قومٌ تواصَوا بأكلِ الجار بينهم ... فالكلبُ والشَّاةُ والإنسَانُ سِيَّانِ

وقال الشاعر في مثل ذلك في هذيل: [من الطويل]

وأنتمْ أكلتُمْ شحمة بن مخدَّم ... زباب فلا يأمنْكُم أحدٌ بعدُ(٤)

تداعَوا له من بين خَمسٍ وأربعٍ ... وقد نصل الأظفارُ وانسبَأ الجلْدُ

ورَفَّعتم جُردَانَه لرئيسكم ... مُعاوية الفلحاء يالكَ ماشُكْدِ

وقال الشاعر في ذلك في باهلة: [من الرجز]

إنَّ غفاقاً أكلَتْه باهله ... تمشَّشوا عظامَه وكاهلَه(٥)

* وأصبحتْ أم غفاق ثاكلَه *

وهجا شاعر آخر بَلْعَنبر، وهو يريد ثَوْبَ بن شَحْمَة، وكان شريفاً وكان يقال له مجير الطير. فأمَّا مجير الجراد فهو مدلج بن سويد بن مرشد بن خيبري فعيَّر الشاعرُ ثوب بنَ شحمة بأكل الرجلِ العنبريّ لحمَ المرأة إلى أن أتى ثوبٌ من الجبَل فقال: [من الرجز]

عجِلتُمُ ما صادكم عِلاجْ ... من العُنُوق ومن النِّعاجْ(٦)

حتى أكلتمْ طَفْلَةً كالعاجْ

---

(١) البخلاء ٢٣٥، والخزانة ٣/٨٦ (بولاق).

(٢) البخلاء ٢٣٧.

(٣) البخلاء ٢٣٥، وديوانه ٤٧٦.

(٤) البخلاء ٢٣٥. الزباب: ضرب من الفأر.

(٥) البخلاء ٢٣٦.

(٦) البخلاء ٢٣٥.

فلما عيَّره قال ثوب: [من البسيط]

يا بنتَ عمِّيَ ما أدراك ما حسبي ... إذ لا تجنُّ خبيثَ الزاد أضلاعي[(١)]

إنِّي لذو مِرَّةٍ تُخْشَى بوادِرُه ... عِنْدَ الصِّياحِ بِنَصْلِ السَّيْفِ قَرَّاعِ

ومن ظريف الشعر قول أبي عدنان: [من الطويل]

فما كلبة سوداءُ تفري بنابها ... عُراقاً من الموتى مِرَاراً وتَكدِمُ

أُتيح لها كلبٌ فضنَّتْ بعَرْقِها ... فهارشَها وهي على العَرْق تَعْذِمُ

فقفْ على هذا الشعر فإنّه من أعاجيب الدنيا.

وقال سُنَيح بن رباح شار الزِّنجي: [من الكامل]

مَا بالُ كلبِ بني كُليبٍ سبَّنا ... أن لم يُوازِنْ حَاجِباً وعِقالا[(٢)]

٢٠٤ - [قتيل الكلاب]

وتنازع مالك بن مِسْمَع وشقيق بن ثور، فقال له مالك: إنَّما رفعك قَبْرٌ بتُسْتَر فقال شقيق: حينَ وضَعَكَ قبرٌ بالمشقَّر، يا ابن قتيلِ النساء وقتيل الكلاب!!.

قال[(٣)]: وكان يقال لمسمع بن شيبان قتيلُ الكلاب، وذلك أنَّه لجأ في الردة إلى قومٍ من عبد القيس، فكان كلبُهم ينبحُ عليه فخاف أن يدلَّ على مكانه فقتَلَه فقُتِلَ به.

٢٠٥ - [أمثال أخرى في الكلب]

قال: والعرب تقول: «أسرَعُ من لَحْسَةِ كلبٍ أنفه»[(٤)]. ويقال: «أحرصُ من لَعْوة»[(٥)] وهي الكلبة، وجمعها لعاء. وفي المَثل: «ألأم من كلبٍ على عَرْق»[(٦)]، و«نَعِم كلبٌ في بؤس أهله»[(٧)]. وفي المثل: «اصنع المعروف ولو مَعَ الكلب»[(٨)].

---

(١) البخلاء ٢٣٦.

(٢) البيت في رسائل الجاحظ ١ / ١٩٠، والحماسة البصرية ١ / ١٨١، واللسان (طول).

(٣) الخبر في ربيع الأبرار ٥ / ٤٢٢، وثمار القلوب ٣١٨ (٥٩٢).

(٤) مجمع الأمثال ١ / ٣٥٥، والمستقصى ١ / ١٦٥، والدرة الفاخرة ١ / ٢١٧.

(٥) لم يرد في كتب الأمثال، ووجدت: «أجوع من لعوة» في مجمع الأمثال ١ / ١٨٦، والمستقصى ١ / ٥٨، وجمهرة الأمثال ١ / ٢٩٨، ٣٣١. وثمة مثل هو «أحرص من كلب» في المستقصى ١ / ٦٤، ومجمع الأمثال ١ / ٢٢٨، وجمهرة الأمثال ١ / ٣٤٣، ٤٠٢.

(٦) مجمع الأمثال ٢ / ٢٥٦، وجمهرة الأمثال ٢ / ١٨٠، والمستقصى ١ / ٣٠١.

(٧) مجمع الأمثال ٢ / ٣٣٦، وجمهرة الأمثال ٢ / ٢٩٧، ٣٠٦، وفصل المقال ٢٧٨.

(٨) المستقصى ١ / ٢١٢.

٢٠٦ - [تأويل رؤيا الكلب]

وقال ابن سيرين: الكلبُ في النوم رجلٌ فاحش، فإن كان أسودَ فهو عربيٌّ، وإن كان أبقَعَ فهو عجَميٌّ[١].

وقال الأصمعيّ عن حمّاد بن سلمة عن ابنِ أخْت أبي بلال مِرداسِ بن أُديَّة قال: رأيتُ أبا بلالٍ في النوم كلباً تذرِف عيناه، وقال: إنّا حُوِّلنا بعدكم كلاباً من كلاب النار.

قال[٢]: ولمّا خرج شَمِر بن ذي الجَوشَن الضِّبابي لقتال الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما، فرأى الحسينُ فيما يرى النائم أنَّ كلباً أبقعَ يلغُ في دمائهم، فأوَّلَ ذلك أن يقْتُلهم شمر بن ذي الجوشن. وكان مُنْسلخاً بَرَصاً.

قال: والمسلمون كلُّهم يسمُّون الخوارجَ: كلابَ النار.

٢٠٧ - [شعر في تشبيه الفرس بضروب من الحيوان ليس بينها الكلب]

وقال صاحب الديك: صاحب الكلب يصفُه بالسُّرعةِ في الحُضْر، وبالصّبر على طول العَدْو، وبسَعة الإهاب، وأنَّه إذا عدا ضَبَع وبسَط يديهِ ورجليه حتى يمسَّ قَصَصُهُ الأرْض، وحتى يشرط أذنيه بشَبَا[٣] أظفاره، وأنَّه لا يحتشي ريحاً مع ما يصيب الكلاب من اللَّهَث. فإن كان كما تقولون فلم وصفت الشعراءُ الفرسَ وشبّهته بضروب من الخلق، وكذلك الأعضاءُ وغير ذلك من أمره، وتركوا الكلب في المنْسَا لا يلتفت أحَدٌ لِفْتَهُ؟!

وقال أبو دُؤاد الإيادِيُّ في ذلك: [من الخفيف]

عن لسانٍ كجثَّة الوَرَل الأحـ ـمر مجَّ النَّدى عليه العَرارُ[٤]

ولم يذكره في شيء. وقال خالد بن عجرة الكلابي: [من الوافر]

كأن لسانَه وَرَلٌ عليه بدار مضية مج العرار[٥]

---

(١) حياة الحيوان ٢/٢٩٧-٢٩٨.

(٢) البرصان ٨٢.

(٣) شبا الشيء: حده وطرفه.

(٤) البيت لأبي دؤاد في ديوانه ٣١٨، ولعدي بن الرقاع في ديوانه ٧٤، واللسان (ورل).

(٥) البيت بلا نسبة في نوادر أبي زيد ١١٦، ورواية عجزه: (بدار مضنة مج العرارا).

وقال امرؤ القيس: [من الطويل]

وَخدٌّ أسِيلٌ كالمِسَنِّ وبِرْكَةٌ كجُؤجؤ هَيقٍ دَفُّه قد تموَّرا

ولم يذكره في شيءٍ. وقال عُقْبة بن سابق: [من الهزج]

عريض الخدّ والجبـ ـهَةِ والصَّهوةِ والجنبِ[1]

ولم يذكره في شيء. وقال امرؤ القيس: [من الطويل]

وسامعتان تعرِف العتقَ فيهما كسامعتَي مذعورة وسطَ ربرب

ولم يذكره في شيء من ذلك. وقال عقبة بن سابق: [من الخفيف]

ولها بِركةٌ كجؤجؤ هَيقٍ ولَبَانٌ مضرّجٌ بالخِضَابِ

ولم يذكره في شيء. وقال خُفاف بن نَدبة: [من السريع]

عَبل الذِّراعين سليم الشّظا كالسِّيدِ يَومَ القِرَّةِ الصاردِ[2]

ولم يذكره في شيء من ذلك. وقال امرؤ القيس: [من الطويل]

سليم الشَّظا عبْل الشَّوى شَنِج النَّسا أقبٌّ كتَيسِ الحُلَّبِ الغَذَوانِ[3]

ولم يذكره في شيءٍ من ذلك. وقال عقبة بن سابق: [من الهزج]

وأرساغ كأعناقِ ظِباءٍ أربع غُلْبِ[4]

ولم يذكره في شيءٍ من ذلك. وقال الجَعْديُّ: [من المتقارب]

كأن تماثيلَ أرساغهِ رِقابُ وُعُولٍ لَدَى مَشْرَبِ[5]

ولم يذكره في شيء من ذلك. وقال امرؤ القيس: [من المتقارب]

لها متْنَتَانِ خَظَاتَا كما أكبٌّ عَلَى ساعديه النَّمِرْ[6]

---

(١) البيت لأبي دؤاد في ديوانه ٢٨٩، ولم يرد في قصيدة عقبة بن سابق في الأصمعيات حيث فيها قصيدة يتنازع نسبتها أبو دؤاد وعقبة.

(٢) البيت في الأصمعيات ص ٢٩.

(٣) ديوانه ٨٧.

(٤) البيت لأبي دؤاد في ديوانه ٢٨٩.

(٥) البيت للنابغة الجعدي في ديوانه ١٩، والخزانة ١ / ٥١٠ (بولاق).

(٦) البيت في ديوانه ١٦٤ والخزانة ٧ / ٥٠٠، ٥٧٣، وسر صناعة الإعراب، واللسان (متن، خظا)، وبلا نسبة في شرح الحماسة للمرزوقي ٨٠.

ولم يذكره في شيء من ذلك. وقال أبو دُؤاد: [من مجزوء الكامل]

يمشي كمشي نعامتَينِ تُتابعانِ أشقَّ شاخِصْ[1]

ولم يذكره في شيء من ذلك. وقال ابن الصَّعِق: [من مجزوء الكامل]

بمحنَّبٍ مثلِ العُقا بِ تخالُه للضُّمرِ قِدْحا[2]

ولم يذكره في شيءٍ من ذلك. وقال رَبيعة بن جُشم النمري، ويروى لامرئ القيس: [من المتقارب]

وساقانِ كعباهما أصمَعَا نِ لحمُ حَمَاتَيهما منبتِرْ[3]

ولم يذكره في شيء من ذلك. وقال عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت الأنصاري: [من المتقارب]

كأنَّ حَمَاتَيْهِما أرنبانِ تقبَّضتا خيفةَ الأجدلِ[4]

ولم يذكره في شيء من ذلك. وقال خالد بن عبد الرحمن في مثل ذلك: [من الوافر]

كأنَّ حَماتَها كردوس فحْلٍ مقلَّصةٌ على ساقَي ظليمِ[5]

ولم يذكره في شيء من ذلك. وقال الأعشى: [من الكامل]

أمَّا إذا استقبلتَه فكأنَّه جذْعٌ سَمَا فوقَ النَّخيلِ مشذَّبُ[6]
وإذا تصفَّحَه الفوارسُ معرضاً فتقولُ سرحانُ الغَضَا المتصوِّبُ
أما إذا استدبرته فتسوقُه ساقٌ يقمِّصها وظيفٌ أحدَبُ
منهُ وجاعرة كأنَّ حماتها لما كشفت الجُلّ عنه أرنبَ

ولم يذكره في شيءٍ من ذلك. وقال الأسعر الجُعْفي: [من الكامل]

أما إذا استقبلْتَه فكأنّه بازٍ يكفكِفُ أن يطيرَ وقد رأى[7]

---

(١) ديوان أبي دؤاد ٣٢٢، واللسان والتاج (مصص).

(٢) البيت لابن الصعق في الخزانة ١/٣٨٨ (بولاق)، ونسبه الجاحظ في كتاب البخلاء ١٦٩ إلى قيس ابن زهير.

(٣) البيت لامرئ القيس في ديوانه ١٦٣، واللسان والتاج (صمع)، وتهذيب اللغة ٢/٦٠.

(٤) البيت لعبد الرحمن بن حسان في المعاني الكبير ١/١٦٤، والأنوار ١/٢٩٧.

(٥) البيت لخالد بن الصقعب في كتاب الجيم ٣/١٧٠.

(٦) البيت الأول لأنيف بن جبلة في اللسان (أول).

(٧) الأبيات في الأصمعيات ١٤١-١٤٢، والخزانة ٤/٢٢ (بولاق).

أما إذا استعرضتَه متمطِّرا فتقول هذا مثلُ سِرحان الغَضا
أمَّا إذا استدبرته فتَسُوقه ساقٌ قُموصُ الوَقْعِ عاريةُ النَّسَا

ولم يذكره في شيءٍ. وقال أبو داؤد: [من الكامل]

كالسِّيد ما استقبلتَه وإذا ولَّى تقول مُلَمْلَمٌ ضَرِبُ[1]
لأمٌ إذا استعرضتَه ومشَى متتابعاً ما خانَه عَقْبُ
يمشِي كمشيِ نعامةٍ تبِعتْ أُخرى إذا هي راعَها خطْبُ

ولم يذكره في شيء من ذلك. وقال امرؤ القيس: [من الطويل]

له أيطلاَ ظبي وساقَا نعامةٍ وإرخاءُ سِرحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ[2]

ولم يذكره في شيءٍ من ذلك. وقال ابن سِنانٍ العبْديّ: [من الكامل]

أما إذا ما أقبلت فُمطارةٌ كالجذع شذّبهُ نفيُّ المنْجَلِ
أما إذا ما أعرضَتْ فنبيلة ضخمٌ مكانُ حزامِها والمركَلِ
أما إذا تشتدُّ فهي نعامةٌ تنفي سنابكُها صِلابَ الجَنْدَلِ

٢٠٨ - [قول أبي عبيدة في تشبيه الفرس بضروب من الحيوان]

قال أبو عبيدة: ومما يشبِه خلْقُه من خَلْقِ النعامة طولُ وظيفها وقصر ساقيها وعُري نَسَييها. وممَّا يشبه من خلقه خلْقَ الأرنب صِغَر كعبَيها. وممَّا يشبه من خلْقه خلْق الحمار الوحشيِّ غِلظ لحمه، وظمأ فصوصِه وسَراتِه، وتمحص عصَبِه، وتمكُّن أرساغه، وعَرض صهوته.

قال صاحب الكلب: قد قال أبو عبيدة: إنّ مما يشبه من خلقه خلْقَ الكلب هَرَت شدقه، وطول لسانه، وكثرة ريقه، وانحدار قصِّه[3]، وسبوغ ضُلوعه، وطول ذراعيه، ورُحْب جلده، ولحوق بطنه. وقال طُفيل الغَنَويّ، يصف الخيل: [من الطويل]

تبارِي مَراخِيها الزِّجاج كأنَّها ضِراءُ أحسَّتْ نباةً من مكلِّبِ[4]

---

(١) ديوانه ٢٨٤.

(٢) ديوانه ٢١، واللسان (غور، تفل، رخا)، والتاج (أطل، تفل)، والمقاييس ١ / ١١٢، وبلا نسبة في (سرح، أطل)، وشرح المفصل ٦ / ١١٢.

(٣) القص: الصدر.

(٤) ديوان طفيل الغنوي ٢٤، والمعاني الكبير ١ / ٤٢، والمخصص ١٦ / ٣٠.

وقال طُفَيل أيضاً: [من الطويل]

كَأنَّ عَلَى أعطافِهِ ثوبَ مائحٍ   وإن يلق كلب بين لحييه يَذْهَبِ[١]

وقال صاحب الديك: وأين يقع البيتُ والبيتان والثلاثة، من جميع أشعار العرب؟!

وقال صاحب الكلب: لعلّنا إن تتبّعنا ذلك وجدناه كثيراً، ولكنك تقدّمت في أمر ولم تُشْعِر بالذي تعني، فَنَلتقط من الجميع أكثرَ مما التقطت. والإنسان شريف الأعضاء وقد تشبه مواضعُ منه مواضع من الفرس العتيق. وما حضرنا من الأشعار إلاّ قوله: [من مجزوء الكامل]

وترى الكميتَ أمامَه   وكأنّه رجلٌ مُغاضِبْ

وقال الشاعر في ذلك: [من الكامل]

خُوصٌ تَرَاحَ إلى الصراخ إذا غدت   فِعْلَ الضُّرَاءِ تَرَاح للكَلاّبِ[٢]

وقد شبهوا بالكلب كلَّ شيء

وكان اسم فرس عامر بن الطفيل، الكلب، والمزنوق، والوَرد.

٢٠٩ - [شعر في وصف الناقة]

قال صاحب الديك: قد قال أوس بن حجر، ووصف الناقةَ ونشاطها والذي يَهيجها فقال: [من البسيط]

كَأَنَّ هِرّاً جَنيباً عند مَغْرِضها   والتفَّ ديكٌ برجليها وخنْزيرُ[٣]

فهلاّ قال: والتف كلبٌ كما قال: والتفَّ ديك!! وقال أبو حيَّة[٤]: [من الكامل]

و تزاورَتْ عنه كأن بدَفِّها   هِرّاً ينشّبُ ضَبْعَها بالأظفر

وقال الأعشى: [من الكامل]

بجُلالةٍ سُرُحٍ كَأَنّ بدَفِّها   هِرّاً إذا انتعل المطيُّ ظلالَها[٥]

---

(١) ديوان طفيل الغنوي ٢٧، والمعاني الكبير ١/١٦، والأمالي ٢/٣٥. والمائح: الذي ينزل البئر فيملأ الدلو.

(٢) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج (روح).

(٣) ديوان أوس بن حجر ٤٢.

(٤) لم يرد البيت في ديوان أبي حية النميري.

(٥) ديوان الأعشى ٧٧، واللسان والتاج (سرح)، وتهذيب اللغة ٤/٣٠١.

وقال عنترة بن شدَّاد العَبْسي: [من الكامل]

وكأنَّما ينأى بجانب دَفِّها الـ ـوحْشِيِّ من هَزِج العشيِّ مؤوَّمِ[1]
هرٌّ جَنيبٌ كلّما عطَفَتْ له غَضْبَى اتقاها باليدين وبالفمِ

وقال المثقِّب العَبْديّ: [من الوافر]

فسلِّ الهمَّ عنك بذات لَوْثٍ عُذَافرةٍ كَمِطْرَقة القُيُونِ[2]
بصادقةِ الوَجيفِ كأنَّ هراً يُبارِيها ويأخُذُ بالوَضِين

قال صاحب الكلب: إنما يذكرون في هذا الباب السِّباعَ المنعوتة بالمخالب وطولِ الأظفار، كما ذكر الهرَّ وابن آوى. والكلبُ ليس يوصف بالمخالب، وليس أنَّ الهر أقوى منه. ألا ترى أوسَ بن حجرٍ قال في ذلك: [من البسيط]

* كأنَّ هراً جَنيباً عِنْدَ مغْرِضِها *[3]

فذكر الموضع الذي يوصف بالخلْب والخدْش والخمش والتظفير، فلما أراد أن يفزِّعها ويثوِّرَها حتى تذهبَ جافلة في وجْهِها، أو نادَّة، أو كأنّها مجنونة من حاق المرح والنشاط قال: [من البسيط]

* والتفَّ دِيكٌ برجلَيها وخِنزِير *[3]

وقال أبو النجم: [من الرجز]

لو جُرَّ شَنٌّ وسطها لم تَحْفِلِ من شهوةِ الماءِ ورِزٌّ معضل[4]

ولو قال أوس:

* والتفَّ شَنٌّ برِجليها وخِنزير *

لكان جائزاً، لولا يُبْس الشنِّ وقحُوله، وأنّه ليس مما يلتوي على رجليها. وقال آخر: [من الطويل]

كأنَّ ابنَ آوى مُوثَقٌ تحت غرْزِها إذا هو لم يَكْلِمْ بنابَيهِ ظَفّرا

---

(١) البيتان من معلقته في ديوانه ٢١، والأول في اللسان (هزج، وحش، دفف، أوم)، والتاج (هزج، أوم).
(٢) البيتان في ديوان المثقب العبدي ٣٤، والمفضليات ٢٩٠، والمراثي لليزيدي ٢٣٦.
(٣) الأول صدر البيت، والثاني عجزه، وهما لأوس بن حجر في ديوانه ٤٢.
(٤) الرجز في ديوانه ١٩٩، والطرائف الأدبية ٦٦.

٢١٠ - [الرجوع في الهبة]

وقال صاحب الديك: حديث عمرو بن شُعيب عن عبد اللّه بن عمر وعبد اللّه ابن عباس، أنّ رسول اللّه ﷺ قال: «لا يحلُّ لرجلٍ أنْ يُعطِيَ عَطِيَّةً ويرجع فيها، إلاّ الوالد فيما يعطي ولده. ومثل الذي يُعطي العطيَّةَ ثم يرجعُ فيها كمثل الكلب يأكل، حتى إذا شَبِع قاءَ ثم عاد في قيئه»(١).

وعن عبد اللّه بن عمر قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا يرجع في هِبَته إلاّ الوالد من ولده. والعائِدُ في هبتِه كالعائد في قيئه».

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبد اللّه بن جعفر، أنّ أبا بكرٍ أمر بقتل الكلب. قال عبد اللّه بن جعفر: وكانت أمِّي تحتَ أبي بكر، وكان جروٌ لي تحت سريره فقلت له: يا أبتِ، وكلبي أيضاً؟ فقال: لا تقتلوا كلبَ ابني، ثمّ أشار بإصبعه إلى الكلب - أي خذوه من تحت السرير - وأنا لا أدري، فقتل.

وإسماعيل بن أميَّة قال: أُمَّتان من الجنّ مُسِختا، وهما الكلاب والحيَّات.

ابن المبارك قال: إذا عرف الرجلُ قدْرَ نفسه صار عِند نفسِه أذلَّ من الكلب.

٢١١ - [لؤم الكلب]

قال صاحب الديك - وذكَرَ الكلب فقال -: من لؤمِه أنَّه إذا أسمنْتَه أكلك(٢)، وإن أجعْتَه أنكرك. ومن لؤمه اتّبَاعه لمن أهانه، وإلفُه لمنَ أجاعَه؛ لأنه أجهلُ من أن يأنس بما يؤنس به وأشره وأنهمُ وأحرصُ وألجُّ من أن يذهب بمطمعته ما يذْهَب بمطامع السباع.

ومن جهله أيضاً أنّا لم نجدْه يحرُسِ المحسنين إليه بنباحه، وأربابَهُ الذين ربّوه وتبنّوه إلا كحراسته لمن عَرَفه ساعةً واحدة، بل لمن أذلّه وأَجاعَه وأَعطشه. بل ليس ذلك منه حراسةً، وإنَّما هو فيه من فضل البَذَاء أَو الفُحْش، وشدَّة التحرُّش والتسرُّع. وقد قال الشاعر في ذلك: [من الرجز]

إذا تخازَرْتُ وما بي من خَزَرْ ثم كسَرت العينَ من غير عَوَر(٣)

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة، باب ٥٨، حديث ١٤١٨، ١٤١٩، ومسلم في الهبات برقم ١٦٢٠.

(٢) قيل في الأمثال: «سمّن كلبك يأكلك». والمثل في مجمع الأمثال ١/٣٣٣، وفصل المقال ٤١٩، والفاخر ٧٠، والمستقصى ٢/١٢١.

(٣) الرجز لعمرو بن العاص؛ أو لأرطاة بن سهية في التنبيه والإيضاح ٢/٢٠٥، واللسان والتاج (مرر)، وبلا نسبة في أساس البلاغة (قزح)، ومجالس ثعلب ٩، وأمالي القالي ١/٩٦، والأغاني ٢٠/٢٦٣.

أبذى إذا بُوذيت من كلبٍ ذَكَرْ   أسودَ قَزّاحٍ يُعوِّي في السَّحَرْ

وإنّما ذلك شكل من شكل الجبن، وكالذي يعتري نِسَاءَ السَّفْلة من الصخب.

٢١٢ - [جبن الكلب]

والكلب جبانٌ وفيه جراة ولؤم. ولو كان شجاعاً وفيه بعض التهيُّب كان أمثل. ومن فرط الجبن انّه يفزَع من كلِّ شيء وينبحَه.

والبرذون ربَّما رمَح البرذونَ مبتدئاً، وقلق وصهل صَهيلاً في اختلاط، وليس ذلك من فضْل قوّةٍ يجدُها في نفسه على المرموح، ولكنّه يكون جباناً، فإذا رأى البِرذون الذي يظنُّ أنّه يعجِز عنه أراه الجبنُ أنّه واقعٌ به، فعندها يقلَق وإذا قلِق رمَح. وهذه العلّة تعرض للمجنون؛ فإنَّ المجنونَ الذي تستولي عليه السَّوداء، ربما وثَب على من لا يعرفه. وليس ذلك إلاّ لأنَّ المِرَّة أوهمتْه انَّه يريده بسوء، وانّ الرأي ان يبدأه بالضرب. وعلى مثل ذلك يرمي بنفسه في الماءِ والنار.

٢١٣ - [نفي اللحن عن النظام]

فأمّا الذي شهدت انا من أبي إسحاق بن سيَّار النظّام، فإنّا خرجنا ليلةً في بعض طرقات الأُبلَّة، وتقدَّمتُه شيئاً، والح عليه كلبٌ من شكل كلاب الرِّعاء، وكره ان يعدوَ فيغريَه ويُضَرِّيه(١)، وأنف أيضاً من ذلك - وكانَ انفاً شديدَ الشَّكيمة أبَّاء للهَضيمة - وكرِه أن يجلسَ مخافةَ ان يشغَر عليه أو لعلّه ان يَعضَّه فيَهْرِتَ ثوبَه، والحَّ عليه فلم ينله بسوءٍ. فلمَّا جُزْنا حدَّه وتخلَّصنا منه، قال إبراهيم في كلامٍ له كثير، يعدُّد خصالَه المذمومة، فكان آخر كلامه أن قال: إن كنت سَبْع فاذهبْ مع السِّباع، وعليك بالبرارِي والغِياض، وإن كنت بَهيمة فاسكتْ عنَّا سكوت البهائم!

ولا تنكرِ قولي وحياتي عنه بقولٍ ملحون. من قولي: «إن كنت سَبْع» ولم أقلْ «إن كنت سبعاً»!

٢١٤ - [الإعراب واللحن]

وأنا أقول: إنّ الإعرابَ يفسد نوادر المولَّدين، كما انّ اللحنَ يُفْسد كلام الأعراب(٢)؛ لأنّ سامعَ ذلك الكلام إنّما أعجبتْه تلك الصورة وذلك المخرَج، وتلك

---

(١) يضريه: يغريه.

(٢) انظر البيان ١/١٤٥-١٤٦.

اللغة وتلك العادة؛ فإذا دَخَلَت على هذا الأمر - الذي إنما أضحك بسُخْفه وبعضِ كلام العجميَّة التي فيه - حروفَ الإعراب والتحقيق والتثقيل وحوَّلتَه إلى صورةِ ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهلِ المروءَة والنجابة انقلب المعنى مع انقلاب نظْمِه، وتبدَّلَتْ صورته.

٢١٤ - [عود إلى الحديث عن الكلب]

ثم قال أبو إسحاق: إنْ أطعمَه اللصُّ بالنهار كسرةَ خُبْزٍ خلاّه، ودارَ حولَه ليلاً. فهو في هذا الوجه مرتشٍ وآكلُ سُحت[١]؛ وهو مع ذلك أسمجُ الخلْقِ صوتاً، وأحمق الخلق يقَظَةً ونوماً، وينام النَّهارَ كله على نفس الجادَّة، وعلى مدقِّ الحوافر، وفي كل سوقٍ وملتقَى طريق، وعلى سبيل الحمُولة وقد سهر الليلَ كله بالصياح والصَّخَب، والنَّصَب والتَّعب، والغيظ والغضب، وبالمجيء والذَّهاب، فيركبه من حبِّ النوم على حسب حاجته إليه، فإن وطئتْه دابَّةٌ فأسوأُ الخَلْقِ جزَعاً وألأمه لؤماً، وأكثره نُباحاً وعُواءً، فإن سلم ولم تَطَأْهُ دابَّةٌ ولا وطئه إنسان، فليست تتمُّ له السلامة؛ لأنّه في حال متوقِّعٍ للبليَّةِ. ومتوقِّعُ البليَّةِ في بَليَّة. فإنْ لم يسلم فليس على ظهرها مبتلى أسوأُ حالاً منه؛ لأنّه أسوَؤُهم جزَعاً، وأقلُّهم صبراً، ولأنّه الجاني ذلك على نفسه، وقد كانت الطُّرق الخالية له معرضة، وأصول الحيطان مباحة.

وبعد فإنّ كلَّ خُلُقٍ فارقَ أخلاقَ النَّاس فإنّه مذموم. والناس ينامون بالليل الذي جعله اللّه تعالى سكَناً، وينتشرونَ بالنّهار الذي جعله اللّه تعالى لحاجات الناس مَسْرحاً.

قال صاحب الكلب: لو شئنا أن نقول: إنّ سهره بالليل ونومَه بالنهار خَصْلَةٌ ملوكيَّة لقلنا، ولو كان خلافُ ذلك ألذّ لكانت الملوك بذلك أولى. وأمَّا الذي أشرتمْ به من النوم في الطرق الخالية، وعبتُموه به من نومه على شارعات الطُّرق والسِّكَكِ العامرة وفي الأسواق الجامعة، فكلُّ امرئٍ أعلم بشأنه. ولولا أنّ الكلبَ يعلمُ ما يَلقَى من الأحداث والسُّفهاءِ وصبيان الكتَّاب، من رضِّ عظامه بالواحهم إذا وجدوه نائماً في طريق خالٍ ليس بحضرته رجالٌ يُهابون، ومشيخةٍ يرحمون ويزجرون السفهاءَ، وأنّ ذلك لا يعتريه في مجامع الأسواق - لقَلّ خلافه عليك، ولما رقد في الأسواق. وعلى أنّ هذا الخُلُق إنّما يعتري كلاب الحرَّاس، وهي التي في الأسواق مأواها ومنازلها.

---

(٢) السحت: المال الحرام.

وبعد فمن أخطأُ وأظلمُ ممَّن يكلِّف السباعَ أخلاقَ الناس وعادات البهائم!! وقد علمْنا أنّ سباعَ الأرض عن آخرها إنَّما تَهيج وتَسرح وتلتَمس المعيشةَ وتتلاقى على السفاد والعظال ليلاً؛ لأنها تبصر بالليل.

٢١٥ - [سبب اختيار الليل للنوم]

وإنما نام الناسُ بالليل عن حوائجهم، لأنّ التمييز والتفصيل والتبيُّن لا يمكنهم إلاّ نهاراً، وليس للمتعَب المتحرّك بدٌّ من سكون يكون جَماماً له. ولولا صرفُهم التماسَ الجَمام إلى الوقت الذي لو لم يناموا فيه والوقتُ مانع من التمييز والتبيُّن، لكانت الطبائعُ تنتقض. فجعلوا النَّوم بالليل لضربين: **أحدهما** لأنّ الليلَ إذ كان من طبعه البرد والرُّكود والخُثورة، كان ذلك أنزَعَ إلى النوم وما دعا إليه، لأنّه من شكله. وأمّا **الوجه الآخر** فلأنّ الليلَ موحِشٌ مخُوف الجوانب من الهوامِّ والسباع، ولأنّ الأشياء المبتاعةَ والحاجات إلى تمييز الدنانير، والدراهم، والحبوب، والبزور، والجواهر، وأخلاط العطر، والبَرْبَهار[1] وما لا يحصى عدده، فقادتهم طبائعُهم وساقتهم غرائزهم إلى وضعِ النوم في موضعه، والانتشار والتصرف في موضعه على ما قدَّر اللّه تعالى من ذلك وأحبَّه. وأمَّا السباع فإنها تتصرَّف وتبصر بالليـل، ولها أيضاً عللٌ أخرى يطول ذكرُها.

٢١٦ - [نوم الملوك]

وأمَّا ما ذكرتموه من نوم الملوك بالنَّهار وسهرهم بالليل، فإنّ الملوكَ لم تجهلْ فضلَ النوم بالليل والحركةِ بالنهار، ولكنَّ الملوك لكثرة أشغالها فضلَت حوائجها عن مقدار النهار ولم يتّسع لها، فلما استعانَت بالليل ولم يكن لها بدٌّ من الخلوة بالتدبير المكتوم والسرِّ المخزون، وجمعت المقدارَ الفاضلَ عن اتِّسَاع النهار إلى المقدارِ الذي لا بدَّ للخلوة بالأسرار منه؛ أخذتْ من الليل صدراً صالحاً. فلمَّا طال ذلك عليها أعانها المِران، وخفَّ ذلك عليها بالدُّربة.

وناسٌ منهم ذهبوا إلى التناول من الشراب وإلى أن سَماع الصوت الحسن مما يزيد في المُنّة[2]، ويكون مادّةً للقوة. وعلموا أنّ العوامَّ إذا كانت لا تتناول الشّرابَ

(١) البربهار: أدوية من الحشيش تجلب من الهند.

(٢) المنة: القوة.

ولا تتكلّف السماعَ على هذا المعنى، أن ظنّها سيسوءُ، وقولَها سيكثُر؛ فرأوا أنّ الليل أسترُ وأجدرُ أن يتمَّ به التدبير، وقال الراجز: [من الرجز]

* اللَّيلُ أخفَى والنَّهارُ أفْضَحُ *[1]

وقالوا في المثل: «اللَّيل أخفَى للويل»[2].

٢١٧ - [تلهي المحزون بالسماع]

وما زالت ملوكُ العجَم تلهِّي المحزون بالسماع، وتعلِّل المريض، وتَشغله عن التفكير، حتَّى أخذت ذلك ملوكُ العرب عن ملوك العجم. ولذلك قال ابن عَسَلة الشيباني: [من الكامل]

وسماعِ مُدْجنةٍ تعلِّلُنا حتَّى نَنامَ تَنَامَ تناوُمَ العُجْمِ[3]

فصحوت والنَّمَرِيُّ يحسَبُها عَمَّ السِّماكِ وخالَةَ النَّجْمِ

النجم: واحد وجمع، وإنَّما يعني في البيت الثريَّا. ومدجنة: يعني سحابةً دائِمة.

٢١٨ - [قول أم تأبط شراً في ولدها]

وفيما يحكى عن امرأةٍ من عقلاء نساءِ العرب - وإذا كان نساءُ العرب في الجملة أعقلَ من رجال العجَم، فما ظنُّكَ بالمرأة منهم إذا كانت مقدَّمة فيهم - فروَوا جميعاً أنَّ أمَّ تأبَّط شرّاً قالت: «واللّه ما وَلَدْتُه يَتْناً، ولا سقَيته غَيْلاً ولا أبتُّه على مَأْقة»[4].

فأمَّا اليتن فخروج رِجل المولود قبلَ رأسِه، وذلك علامة سُوءٍ، ودليلٌ على الفساد. وأما سَقي الغَيْل، فارتضاع لبن الحبلى، وذلك فسادٌ شديد.

---

(١) الرجز بلا نسبة في البيان ١/١٥١، وقبله: «إنك يا ابن جعفر لا تفلحُ». وانظر مجمع الأمثال ١/٢٥٥، والمستقصى ١/٣٤٣.

(٢) مجمع الأمثال ٢/١٩٣، وجمهرة الأمثال ٢/١٨١، والمستقصى ١/٣٤٣، وفصل المقال ٦٥، ٦٦.

(٣) البيتان في المفضليات ٢٧٩، والبيان ١/٢٢٩، ونوادر المخطوطات ١/٩٤.

(٤) ورد قولها في العقد الفريد ٦/١١٨، وإصلاح المنطق ١١، ونسب إلى فاطمة بنت خرشب في مجمع الأمثال ٢/٣٥٠، والاغاني ١٧/١٨٠.

٢١٩ - [ما ينبغي للأم في سياسة رضيعها حين بكائه]

وأما قولها في المأقة، فإنَّ الصبيَّ يبكي بكاءً شديداً متعباً موجعاً، فإذا كانت الأمُّ جاهلةً حرّكته في المهد حركةً تورثه الدُّوار، أو نوّمته بأن تضرب يدَها على جنبه. ومتى نام الصبيُّ وتلك الفزْعةُ أو اللَّوعة أو المكروه قائمٌ في جوفه، ولم يعلَّلْ ببعضِ ما يلهيه ويُضحكه ويسرُّه، حتى يكون نومه على سرور، فيسْرِي فيه ويعمَل في طباعه، ولا يكون نومه على فزعٍ أو غيظ أو غمٍّ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يعمل في الفساد. والأمُّ الجاهلةُ والمرقِّصة الخرقاء، إذا لم تعرف فرقَ ما بين هاتين الحالتين، كثُر منها ذلك الفساد، وترادَفَ، وأعان الثاني الأوّلَ والثالثُ الثانيَ حتَّى يخرجَ الصبيُّ مائقاً. وفي المثل: «صاحبي مَئِق وأنا تئقٌ»[١]، يضرب هذا المثل للمسافر الأحمق الرَّفيق والزَّميل، وقد استفرغه الضَّجر لطول السفر فقلبُه ملآن، فأوَّلُ شيءٍ يكون في ذلك المئق من المكروه لم يحتمله بل يَفيض ضجره عليه، لامتلائه من طول ما قاسى من مكروه السفر.

٢٢٠ - [القول في الصوت]

فاحتاج حُذَّاق الملوكِ وأصحابُ العنايات التامَّة، أن يداووا أنفسَهم بالسماع الحسن، ويشدُّوا من متْنِهم بالشراب، الذي إذا وقعَ في الجَوف حرَّك الدَّم، وإذا حرك الدَّم حرَّك طباعَ السرور، ثمَّ لا يزالُ زائداً في مِكيال الدم، زائداً في الحركة المولِّدة للسرور. هذه صفةُ الملوك. وعليه بنوا أمرَهم، جهل ذلك مَنْ جهله، وعَلمه من علمه.

وقال صاحب الكلب: أمَّا تركُه الاعتراضَ على اللِّصِّ الذي أطعمه أيَّاماً وأحسنَ إليه مِراراً، فإنَّما وجب عليه حفظُ أهله لإحسانهم إليه، وتعاهدهم له. فإذا كان عهده ببرِّ اللص أحدَث من عهده ببرِّ أهله، لم يكلَّف الكلبُ النظرَ في العواقب، وموازنة الأمور. والذي أَضمر اللصُّ من البَيات غَيْبٌ قد سُتِر عنه؛ وهو لا يَدري أجاء ليأخذَ أم جاء ليعطيَ، أو هم أمروه أو هو المتكلِّف لذلك؛ ولعلَّ أهله أيضاً أن يكونوا قد استحقُّوا ذلك منه بالضَّرب والإجاعة، وبالسبِّ والإهانة.

وأمَّا سماجة الصَّوت فالبغل أسمجُ صوتاً منه، كذلك الطاووس على أنَّهم يتشاءَمون به. وليس الصَّوت الحسنُ إلاَّ لأصناف الحمام من القَماريِّ والدَّبَاسيِّ،

---

(١) البخلاء ٢٠٧.

وأصناف الشَّفانين والوراشين. فأمّا الأسد والذئب؛ وابن آوى والخنزير، وجميعُ الطير والسباع والبهائم فكذلك. وإنّما لك أن تذمَّ الكلبَ في الشيء الذي لا يعمّ. والناس يقولون: ليس في الناس شيءٌ أقلَّ من ثلاثة أصناف: البيان الحسن، والصوت الحسنِ، والصورة الحسنة؛ ثمّ النّاس بعدُ مختلِطون ممتزجون. وربّما كان مِنَ الناس بل كثيراً ما تجدُه وصوته أقبحُ من صوت الكلب، فلم تخصّون الكلبَ بشيءٍ عامَّةُ الخلق فيه أسوأ حالاً من الكلب؟!

وأما عُواؤه مِن وَطْء الدَّابّة وسوءُ جزَعه من ضرب الصِّبيان، فجزعُ الفرَس من وقْع عذَبة السَّوط، أسوأ من جزَعه من وقع حافر بِرذون. وهو في هذا الموضع للفرس أشدُّ مناسبةً منه للحمار.

على أنَّ الدِّيكَ لا يُذكَر بصبرٍ ولا جزَع.

٢٢١ - [نوادر ديسيموس اليوناني]

قال صاحب الديك: حدَّثني العُتْبي قال: كان في اليونانيِّين ممرور له نوادرُ عجيبة، وكان يسمَّى ديسيموس(١)، قال: والحكماء يروون له أكثرَ من ثمانين نادرة ما منها إلاّ وهي غُرَّةٌ؛ وعينٌ من عُيون النوادر: فمنها أنَّه كان كلَّما خرجَ من بيته مع الفجر إلى شاطئ الفرات للغائط والطهور، ألقَى في أصل باب داره وفي دُوَّارته حجراً، كي لا ينصفق الباب، فيحتاج إلى معالجة فتحه، وإلى دفعه كلَّما رجَع من حاجته، فكان كلَّما رجع لم يجد الحجَر في موضعه، ووجد البابَ منصفقاً. فكَمن له في بعضِ الأيّام ليرى هذا الذي يصنع ما يصنع. فبينا هو في انتظاره إذ أقبَل رجلٌ حتَّى تناوَلَ الحجر، فلمَّا نحَّاه عن مكانه انصفق البابُ، فقال له: ما لَكَ ولهذا الحجر؟ وما لك تأخذه؟ فقال لم أعلمْ أنَّه لك. قال: فقد علمتَ أنَّه ليس لك!

قال: وقال بعضهم: ما بال ديسيموس يعلِّم الناسَ الشِّعرَ ولا يقول الشعر؟ قال: ديسيموس كالمِسَنِّ الذي يشحَذ ولا يقطع.

ورآه رجلٌ يأكل في السُّوق فقال: أتأكل في السوق؟ فقال: إذا جاع ديسيموس في السُّوق أكلَ من السوق.

قال: وأسمعه رجلٌ كلاماً غليظاً وسطَا عليه، وفحش في القول، وتحلَّم عنه فلم يجبه، فقيل له: ما منعك من مكافاته وهو لك مُعرِض؟ قال: أرأيتَ لو رمحَك حِمارٌ

---

(١) انظر البخلاء ١٨٨، ٣٩٤.

أكنتَ ترمحُه؟ قال: لا. قال: فإن ينبح عليك كلب تنبح عليه؟ قال: لا، قال: فإنَّ السفيهَ إمَّا أن يكون حماراً، وإما أن يكون كلباً؛ لأنَّه لا يخلو من شَرارةٍ تكون فيه أو جهل، وما أكثر ما يجتمعان فيه.

٢٢٢ - [أمثال أخرى في الكلب]

وقال صاحب الديك: يقال للسفيه إنَّما هو كلب، وإنَّما أنتَ كلبٌ نَبَّاح، وما زال ينبَح علينا منذُ اليوم، وكلبُ مَن هذا؟ ويا كلب ابن الكلب، واخسأْ كلباً.

وقالوا في المثل: «احتاج إلى الصُّوف مَنْ جزَّ كلبَه»[١]، و «أجِعْ كلبَك يتبَعْك»[٢]، و«أحبُّ شيءٍ إلى الكلبِ خانقهُ»[٣]، و«سمِّن كلبَك يأكلك»[٤]، و«أجوَع من كَلْبة حوْمَل»[٥]، و«كالكلب يربِض في الآرِيِّ فلا هو يأكل ولا يدَعَ الدابَّة تعتلف».

٢٢٣ - [براقش]

وفي أمثالهم في الشؤم: «على أهلها دلَّتْ بَراقِشُ»[٦].

وبَراقش: كلبة نبحتْ على جيشٍ مرُّوا في جوف الليل وهم لا يشعُرون بموضع الحيِّ، فاستدلُّوا عليهم بنُباح الكلبة فاستباحوهم.

٢٢٤ - [الجنّ والحنّ]

وقال صاحب الدِّيك: روى إسماعيلُ المكِي عن أبي عَطاءِ العُطارِدي قال: سمعت ابن عبَّاس يقول: السُّود من الكلاب الجنّ، والبُقْع منها الحنّ. ويقال إنَّ الحنَّ ضَعفة الجنّ، كما أنَّ الجنيَّ إذا كفر وظلَم وتعدَّى وأفسد، قيل شيطان؛ وإن قوي على البنيان والحمل الثقيل، وعلى استراق السمع قيل مارد، فإنْ زاد فهو عِفريت، فإن زاد فهو عبقريّ. كما أنّ الرجلَ إذا قاتل في الحرب وأقدم ولم يحجم فهو الشجاع،

---

(١) مجمع الأمثال ١/٢٣٠.

(٢) مجمع الأمثال ١/١٦٥، وجمهرة الأمثال ١/١١١، والمستقصى ١/٥٠ وفصل المقال ٤٨٩.

(٣) مجمع الأمثال ١/٢٠١، والمستقصى ١/٩٥.

(٤) مجمع الأمثال ١/٣٣٣، وجمهرة الأمثال ١/٥٢٥، والمستقصى ٢/١٢١، وفصل المقال ٤١٩.

(٥) مجمع الأمثال ١/١٨٦، وجمهرة الأمثال ١/٢٩٨، ٣٣١، والمستقصى ١/٥٧، وفصل المقال ٤٩٦.

(٦) مجمع الأمثال ٢/١٤، وجمهرة الأمثال ٢/٣٢، ٥٢.

فإن زاد فهو البطل، فإن زاد قالوا: بُهْمة، فإن زاد قالوا: أَلْيَس. فهذا قول أبي عبيدة.

وبعض النَّاس يزعم أنَّ الحنّ والجنَّ صنفان مختلفان، وذهبوا إلى قول الأعرابي حينَ أتى بعضَ الملوك ليكتتب في الزَّمْنَى، فقال في ذلك: [من الرجز]

إن تكتتبوا الزَّمْنَى فإنِّي لَزَمِنْ   من ظاهر الدَّاء وداء مُستَكِنّ[1]
أبيتُ أهوِي في شياطينَ تُرِنّ   مختلفِ نجارُهمْ حِنٌّ وجِنّ

٢٢٥ - [ما ورد من الحديث والخبر في الكلاب]

[١ - قتل الكلاب]

وعن أبي عنبسة عن أبي الزبير عن جابر: قال: أمرنا رسول الله ﷺ بقتل الكلاب، حتى أن المرأة لتقدم بكلبها من البادية فنقتله، ثم نهانا عن قتلها وقال: «عليكم بالأسود البهيم ذي النكتتين على عينيه؛ فإنه شيطان».

وعن أبي الزبير عن جابر قال: أمرنا رسول الله ﷺ بقتل الكلاب، فكنا نقتلها كلها حتى قال: «إنها أمة من الأمم؛ فاقتلوا البهيم الأسود ذا النكتتين على عينيه؛ فإنه شيطان».

وعبد الله وأبو بكر ابنا نافع عن ابن عمر، ونافع عن أبي رافع قال: أمرَني رسول الله ﷺ أنْ أقتلَ الكلاب، فكُنَّا نقتُلُها؛ فانتهيت إلى ظاهر بني عامر، وإذا عجوزٌ مسكينة معها كلب وليس قربها إنسان فقالت: ارجعْ إلى النبيِّ ﷺ فأخبره أنَّ هذا الكلبَ يُؤنسني، وليس قربي أحد. فرجع إليه فأخبره، فأمر أن يقتلَ كلبها فقتله. وقال في حديث آخر: إنَّه لمَّا فرَغ من قتل كلاب المدينة وقتلِ كلْب المرأة قال: الآنَ استرحْت. قالوا: فقد صحَّ الخبرُ عن قتل جميع الكلاب، ثمَّ صحَّ الخبر بنسخ بعضه وقتلِ الأسود البهيم منها، مع الخبر بأنَّها من الجنّ والحنّ، وأنَّ أُمَّتين مُسِختا، وهما الحيَّات والكلاب.

ثم روى الأشعث عن الحسن قال: ما خطَب عثمانُ خُطبةً إلاَّ أمرَ بقتْل الكلاب وذبح الحمام.

وعن الحسن قال: سمعت عثمانَ بن عفَّانَ يقول: اقتلوا الكلابَ واذبحوا الحمام.

قال: وقال عطاءٌ: في قتل كَلْب الصيد إذا كان صائداً أربعُون درهماً، وفي كلب الزرع شاة.

---

(١) الرجز للمهاصر بن المحل في اللسان والتاج (دفن).

[٢ - دية الكلب]

والحسن بن عمارة عن يعلى بن عطاءٍ عن إسماعيل بن حسان عن عبد اللّه بن عمر قال: قضى رسول اللّه ﷺ في كلب الصَّيد بأربعين درهماً، وفي كلب الغنم بشاة، وفي كلب الزرع بفَرَق من طعام، وفي كلب الدار بفَرَق من تراب، حقٌّ على القاتل أن يؤدِّيَه، وحُقَّ على صاحب الدار أن يقبضه.

قالوا: والتراب لا يكون عقلاً إذا كان في مقدار الفَرَق.

وفي قوله: وحُقَّ على صاحب الدار أن يقبضه، دليلٌ على أنّه عقوبة على اتخاذه وأن ذلك على التصغير لأمر الكلب وتحقيره، وعلى وجه الإرغام لمالكه. ولو كان عوضاً أو ثواباً، أو كان في طريق الأموال المحروص عليها، لما أُكْرِه على قبضه أحد، ولكان العفو أفضل.

[٣ - شأن الكلاب]

قال: وسئل عن الكلب يكون في الدار وفي الدار مَن هو له كاره.

ابن أبي عَروبة عن قَتادة عن أبي الحكم: أنّ ابنَ عمر سئل عن ذلك فقال: لمأثَمُ على ربِّ الدَّار الذي يملكها.

وعن ابن عُمر قال: من اتَّخذ كلباً ليس بكلب زَرْع ولا ضَرْع ولا صَيد نَقَص من أجره كلَّ يوم قيراط. فقال رجل: فإن اتخذه رجلٌ وهو كاره؟ قال: إنَّما إثمه على صاحب الدار.

وصَدَقة بن طَيْسَلة المازنيّ قال: سألت الحسن قلت: إنَّ دورَنا في الجبّان وهي مُعْوِرة وليس عليها أبواب، أفترى أن نتَّخذ فيها كلاباً؟ قال: لا لا.

وعن ابن أبي أُنيسة عن سالم عن أبيه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من اقتَنَى كلباً إلاَّ كلب صيدٍ أو كلب ماشية، نقص من أجره كلَّ يوم قيراطان».

وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «من اقتنى كلباً فإنَّه ينقص من عمله كلَّ يوم قيراط».

ويونس عن أبيه عن إسحاق قال: حدثنا هُنَيدَةُ بن خالد الخزاعي قال: انطلقت مع نفرٍ من أصحاب النبي ﷺ، نعودُ رجلاً من الأنصار، فلمَّا انتهوا إلى باب الدار ثارت أكلُبٌ في وجوه القوم، فقال بعضهم لبعض: ما يُبقي هؤلاءِ من عمل فلانٍ شيئاً، كلُّ كلبٍ منها ينقُص قيراطاً في كلِّ يومٍ.

هشام بن حسان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من اتخذ كلباً ليسَ بكلب صيدٍ ولا زرْع ولا ضَرْع، فإنه ينقُص من أجره كلَّ يوم قيراطٌ، والقيراطُ مثلُ جبل أحُد».

يونس عن أبي إسحاق عن مجاهد قال: أقبل عبد اللّه بن عمرو بن العاص حتَّى نزل ناحية مكَّة، وكانت امرأةُ عمٍّ له تهاديه، فلما كانت ذاتَ يوم قالت له: لو أرسلتَ إليَّ الغنَم فاستأنستُ برعائها وكلابها فقد نزلتُ قاصية! فقال: لولا كلابُها لفعلتُ؛ إنَّ الملائكةَ لا تدخلُ داراً فيها كلب.

الثوريُّ عن سماك بن حرب، أنَّ ابنَ عباس قال على منبر البصرة: إنَّ الكلاب من الحنّ وإنّ الحنّ من ضَعفة الجن، فإذا غشيكم منها شيءٌ فألقُوا إليها شيئاً أو اطردوه، فإنَّ لها أَنفُسَ سوء.

وهُشيم عن المغيرة عن إبراهيم قالوا: لم يكونوا ينهَوننا عن شيء من اللعب ونحنُ غلمان إلاَّ الكلاب.

قال صاحب الديك: روى إبراهيم بن أبي يحيى الأسلميّ، عن محمّد بن المنكدِر، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال: تقامر رجُلان على عهد عُمر بديكين، فأمر عمر بالديكة أن تُقْتَل فأتاه رجلٌ من الأنصار فقال: أمرتَ بقتل أمَّةٍ من الأمم تسبِّح اللّه تعالى؟! فأمر بتركها.

وعن قَتادة أنّ أبا موسى قال: لا تتَّخذوا الدَّجاج في الدُّور فتكونوا أهل قرية، وقد سمعتم ما قال اللّه تعالى في أهل القرى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ﴾(1).

وهذا عندي من أبي موسى ليس على ما يظنُّه الناس، لأنّ تأويله هذا ليس على وجه، ولكنَّه كره للفُرسان ورجالِ الحرب اتخاذَ ما يتّخذه الفلاَّح وأصحابُ التعيُّش، مع حاجته يومئذ إلى تفرُّغهم لحروب العجم، وأخْذهم في تأهُّب الفُرسان وفي دُرْبة رجال الحرب. فإن كان ذهب إلى الذي يظهَرُ في اللفظ فهذا تأويلٌ مرغوب عنه.

وقال صاحب الكلب لصاحب الديك: فقد أمر عُمَر بقتل الدِّيَكة ولم يستثنِ منها شيئاً دون شيء، ونهى أبو موسى عن اتخاذ الدجاج ولم يستثن منها شيئاً دون شيء، والدِّيكةُ تدخل في هذا الاسم، واسم الدَّجاج يجمعها جميعاً. ورويتم في قتل الحمام مثلَ روايتكم في قتل الكلاب، ولم أركم رويتم أنّ الحمام مِسْخ، ولا أنَّ بعضَه من الجن وبعضه من الحِن، ولا أنَّ أمتين مسختا وكان أحدهما الحمام.

---

(1) ٩٧: الأعراف/٧.

وزعمتم أنَّ عمر إنَّما أمر بقتل الدِّيكة حين كره الهراش بها والقمار بها. فلعلَّ كلابَ المدينة في تلك الأيَّام كثُر فيها العَقُور وأكثر أهلُها من الهراش بها والقمار فيها. وقد علمتم أنّ ولاة المدينة ربَّما دَمَروا على صاحب الحمام إذا خيف قبَلَه القمار وظنُّوا أنه الشَّرَف[1]. وذكروا عنه الرَّمْيَ بالبُندق وخديعةَ أولادهم بالفراخ. فما بالكم لم تُخرِّجوا للكلابِ من التأويل والعذْر، مثلَ الذي خرَّجتم للحمام والديكة.

٢٢٦ - [المسخ من الحيوان]

ورويتم في الجرِّيِّ[2] والضِّباب أنهما كانتا أمَّتين مُسختا. وروى بعضهم في الإرْبيانة أنَّها كانت خيّاطة تسرق السُّلوك، وأنَّها مُسخت وترك عليها بعضُ خيوطها لتكون علامةً لها ودليلاً على جِنْس سرقتها. ورويتم في الفأرة أنَّها كانت طحّانة[3]، وفي سُهيل أنّه كان عشّاراً باليمن[4] وفي الحيَّة أنَّها كانت في صورة جَمَل، وأنَّ اللّه تعالى عاقبها حتى لاطَها بالأرض، وقسم عقابَها على عشرة أقسام، حين احتملت دخولَ إبليس في جوفها حتَّى وَسوَس إلى آدم منْ فيها. وقلتم في الوَزَغة وفي الحكاءَة[5] ما قلتم. وزعمتم أنّ الإبل خُلقَت من أعنان الشياطين[6]، وتأوّلتم في ذلك أقبحَ التأويل. وزعمتم أنَّ الكلابَ أمّةٌ من الجنّ مُسخت. والذئبُ أحقُّ بأن يكون شيطاناً من الكلب، لأنَّه وحشيٌّ وصاحبُ قفار، وبه يُضرَب المثل في التعدِّي، والكلب ألوفٌ وصاحبُ ديار، وبه يُضرَبُ المثل. والذئب خَتُور غدّار، والكلب وفيٌّ مناصح. وقد أقام الناسُ في الدّيار الكلابَ مُقامَ السَّنانير للفأر. والذئب مضرَّةٌ كلُّه، والكلبُ منافعُه فاضلةٌ على مضارِّه، بل هي غالبة عليها وغامرةٌ لها، وهذه صفة جميع هذه الأشياء النافعة.

والناس لم يُطبقوا على اتِّخاذها عبَثاً ولا جهْلاً، والقضاة والفقهاءُ والعُبّاد والوُلاة والنُّسَّاك، الذين يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر، والمحتَسبة وأصحاب التكلُّف والتسليم جميعاً، لم يطبقوا على ترك النَّكير على ما يشاهدونه منها في دورِ مَنْ لا يعصيهم ولا يمتنع عليهمْ إلاّ وقد عَلِموا أنَّه قدْ كان لقتلِ الكلابِ بأعيانها في

---

(١) الشرف: الإشفاء على خطر من خير أو شر. (اللسان: شرف).

(٢) الجري: ضرب من السمك.

(٣) ورد القول في ربيع الأبرار ٥ / ٤٧١.

(٤) العشار: الذي يأخذ العشر.

(٥) الحكاءة: عظاءة مخططة بخمسة خطوط سود.

(٦) في النهاية ٣/٣١٣ (لا تصلوا في أعطان الإبل لأنها خلقت من أعنان الشياطين)، الأعنان النواحي، كأنه قال: إنها لكثرة آفاتها كأنها من نواحي الشياطين في أخلاقها وطبائعها.

ذلك الدَّهر، معنى. وإلاَّ فالنَّاسُ في جميع أقطارِ الأرض لا يُجمِعون على مسالمة أصحاب المعاصي، الذين قد خلعوا عُذُرَهم وأبرزوا صَفحتَهم. بل ما ترى خصماً يطعن على شاهدٍ عندَ قاضٍ بأنَّ في داره كلباً، ولا تَرَى حَكَما يردُّ بذلك شهادة. بل لو كان اتِّخاذُ الكلاب مأموراً به، لَما كان إلاّ كذلك.

ولو أنَّكم حملتم حكم جميع الهَداهد على حكم هدهد سليمان[١]، وجميعَ الغربان على حكم غُراب نوح[٢]، وجميعَ الحمام على حكم حمامة السفينة[٣]، وجميعَ الذئاب على حكمِ ذئب أُهبان بن أوس، وجميعَ الحميرِ على حكم حمار عُزَير[٤] - لكان ذلك حكماً مردوداً.

٢٢٧ - [أمور حدثت في دهر الأنبياء]

وقد نعرِض لخصائص الأمور أسبابٌ في دهر الأنبياءِ ونزول الوحي، لا يعرض مثلُها في غير زمانهم[٥]: قد كان جبريل عليه السلام يمشي في الأرض على صورة دِحيةَ الكَلبيّ، وكان إبليس يتراءى في السِّكك في صورة سُرَاقة المُدْلجِي، وظهر في صورة الشيخ النَّجْدي. ومثل هذا كثير.

٢٢٨ - [ما يسمى شيطاناً وليس به]

فإنْ زعمتم أنّ النبي ﷺ نظَرَ إلى رجلٍ يتبع حماماً طيَّاراً فقال: «شيطانٌ يتبع شَيطاناً»، فخبِّرونا عمن يتخذ الحمام من بين جميع سكان الآفاق ونازلة البُلدان من الحرميِّين والبصريِّين ومن بني هاشم إلى من دونَهم، أتزعمون أنَّهم شَياطينُ على الحقيقة، وأنَّهم من نجل الشياطين؛ أو تزعمون أنَّهم كانوا إنساً فمُسخوا بعدُ جنّاً؛ أم يكون قوله لذلك الرجل شيطان، على مثل قوله ﴿ شَيَاطِينَ الجِنِّ وَالإِنْس ﴾ وعلى قول عمر: لأنزِعنَّ شيطانَه من نُعرتِه[٦]، وعلى قول منظور بن رواحة: [من الطويل]

فلما أتاني ما تقولُ تَرَقَّصَتْ شياطينُ رأْسِي وانتَشَيْنَ من الخَمْرِ[٧]

---

(١) في ثمار القلوب (٧٠٦): هدهد سليمان: يضرب مثلاً للإنسان الحقير يُدلّ على الملك الخطير.
(٢) في ثمار القلوب (١٠٠): غراب نوح: يضرب مثلاً للرسول الذي لا يعود.
(٣) في ثمار القلوب (٦٧٨): ويقال لها أيضاً: حمامة السفينة.
(٤) في ثمار القلوب (١٢٨): حمار عزير: يضرب مثلاً للمنكوب الذي ينتعش.
(٥) الخبر في ثمار القلوب (١٣٨).
(٦) النهاية ٥ / ٨٠: أي حتى أزيل نخوته، وأخرج جهله من رأسه.
(٧) البيت في ثمار القلوب (١٤٩)، وحاشية معجم الشعراء ٢٨٢.

وقد قال مَرَّةً أبو الوجيه العُكْلي: «وكان ذلك حين ركبني شيطاني»[1] قيل له: وأيَّ الشياطينِ تعني؟ قال: الغضب.

والعرب تسمِّي كلَّ حيّة شيطاناً. وأنشد الأصمعي: [من الطويل]

تُلاعب مثنى حَضْرَميٍّ كأنَّهُ   تعمُّج شَيطانٍ بذي خِرْوَعٍ قَفْرِ[2]

وقالت العرب: ما هو إلاّ شيطان الحَمَاطة[4]. ويقولون: «ما هو إلاّ شيطان»[3] يريدون القبح؛ و«ما هو إلاّ شيطان»، يريدون الفِطنة وشدّة العارضة.

وروي عن بعض الأعراب في وقعة كانت: واللّه ما قتلْنا إلاّ شَيطَانَ بَرِصاً، لأنَّ الرجل الذي قاتلهم كان اسمه شيطان، وكان به برص.

وفي بني سعد بنو شيطان. قال طفيلٌ الغنوي: [من الطويل]

* وشيطان إذ يدعوهم ويُثَوِّب *[5]

وقال ابن مَيّادة: [من الطويل]

فلما أتاني ما تَقُول محاربٌ   تغنَّت شياطيني وجُنَّ جُنونُها[6]

وقال الراجز: [من الرجز]

إنِّي وإن كنتُ حديثَ السِّنِّ   وكانَ في العين نُبوٌّ عنِّي[7]
فإنَّ شيطاني كبيرُ الجِنِّ

وقال أبو النَّجم: [من الرجز]

إنِّي وكلَّ شاعرٍ من البَشَرْ   شَيطانُه أُنثى وشَيطانِي ذَكَرْ[8]

---

(١) ورد قوله في أساس البلاغة (شطن).
(٢) البيت بلا نسبة في اللسان (حبب، عمج، خرع، شطن، ثنى)، والتاج (حبب، خرع، ثنى)، والمقاييس ٢/٢٨، ٣/١٤٨، ٤/١٣٧، والمجمل ٢/٣٠، والمخصص ٧/١١٠، ٨/١٠٩، وديوان الأدب ٢/٦٠، ٤٤٠.
(٣) المستقصى ٢/٢٠٢، ومجمع الأمثال ١/٣٦٢، وانظر ثمار القلوب (٦١٤، ٦٢٣).
(٤) مجمع الأمثال ١/٥٠.
(٥) صدر البيت: (وقد منت الحذواء منّاً عليهم)، وهو في ديوان طفيل الغنوي ٤٩، واللسان (شيط، شطن، خذا)، والتاج (شيط)، وبلا نسبة في التاج (خذا).
(٦) ديوان ابن ميادة ٢٣١، وأساس البلاغة (شطن)، وثمار القلوب (١٤٩).
(٧) الرجز لأمية بن كعب، في الوحشيات ١١٩، وبلا نسبة في الخصائص ١/٢١٧، وثمار القلوب ٥٦ (١٤٨).
(٨) ديوان أبي النجم ١٠٤ - ١٠٥، والاغاني ١٠/١٥٣، وثمار القلوب (١٤٨)، والحماسة البصرية ١/٨٠، ومحاضرات الأدباء ٢/٣٧٠.

وهذا كلُّه منهم على وجه المثل، وعلى قول منظور بن رَواحَة: [من الطويل]

أتاني وأهلي بالدِّماخ فغَمْرَةٍ مسبُّ عُويفِ اللؤم حيَّ بني بَدْرِ[1]
فلما أتاني ما يقولُ ترقَّصتْ شياطينُ رأسي وانتشَيْنَ من الخَمْر

٢٢٩ - [خرافات عن الجن]

[١] وقد رويتم عن عبد اللّه بن فايد بإسناد له يرفعه قال: خرافة رجل من بَني عذرة استهوته الشياطين، فتحدَّث رسول اللّه ﷺ يوماً بحديث فقالت امرأةٌ من نسائِه: هذا من حديثِ خُرافة قال: «لا وَخُرافَة حقٌّ»[2].

[٢] ورويتم أنَّ شريك بن خُباسة دخَلَ الجنَّةَ وخرجَ منها ومعه ورقةٌ من وَرَقِها[3]، وأنَّ عمر سأل الرجل المفقود الذي استهوته الجنُّ فقال: ما كان طعامهم؟ قال: الفول والرِّمَّة. وسأل عن شرابهم فقال: الجدَف[4]. وقال الأعشى: [من الطويل]

وإني ومَا كلّفتموني وربِّكم لأعلمُ من أمسَى أعقَّ وأحْوَبا[5]
لكالثَّورِ والجنيّ يضرِب ظَهْرَهُ وما ذنبه أنْ عَافت الماءَ مَشْرَبا

[٣] وزعَمتم أنَّ الجنَّ خنقت حرْبَ بن أمية، وخنقت مِرداسَ بن أبي عامر، وخنقت الغَريض المغنِّي، وأنَّها قتلت سعد بن عبادة، واستهوت عمرو بن عدي واستهوت عمارة بن الوليد، فأنتم أمْلياءُ بالخرافات[6] أقوياءُ على ردِّ الصحيح وتصحيح السقيم، وردِّ تأويل الحديث المشهورِ إلى أهوائكم. وقد عارضْناكم وقابلناكم وقارضْناكم.

٢٣٠ - [فضل الكلاب]

وقالوا: في الحديث أنّ «من اقتنى كلباً ليسَ بكلْب زرْعٍ ولا ضرْع ولا قَنص

---

(١) معجم الشعراء ٢٨٢، وثمار القلوب (١٤٩).
(٢) مسند أحمد ٦/١٥٧، وانظر الفاخر ١٦٨، والمستقصى ١/٣٦١، والنهاية ٢/٢٥، والاشتقاق ٤٢٨، ومجمع الأمثال ١/١٩٥.
(٣) ورد الخبر في المصدر السابق، ومعجم البلدان ٤/٣٨٦ (القلت).
(٤) ورد الخبر في النهاية ١/٢٤٧، وفيه: الجَدَف بالتحريك: نبات يكون باليمن لا يحتاج آكله معه إلى شرب ماء، وقيل: هو كل ما لا يغطى من الشراب وغيره.
(٥) ديوان الأعشى ١٦٥.
(٦) انظر مروج الذهب ٢/٢٩٧ (الباب الخمسون في ذكر قول العرب في الهواتف والجان).

فقد أَثِم». فهاتوا شيئاً من جميع الحيوان يصلح للزرْع والضَّرْع والقنص. وبعد فهل اتخذوا كلبَ الضَّرْع إلاّ ليحرسَ الماشيةَ وأولادَها من السباع؟ وهل عند الكلبِ عند طروق الأسد والنمر والذئاب وجميع ما يقتات اللُّحمانَ من رؤساء السباع، إلاّ صياحَه ونباحَه وإنذاره ودلالته، وأنْ يشغلَها بعضَ الشُّغْل، ويهجهج بها بعض الهجهجة، إلى أن يلحق بها من يحميها، ويتوافى إليها من يذود عنها، إذ ليس في هذا القياس أنّا متى وجدنا دهراً تكثُر فيه اللصوص ويفشو فيه السُّرَّاق، وتظهر فيه النُّقوب، ويشيع فيه التسلُّق، ممَّن إذا أفضى إلى منزلِ القوم لم يرضَ إلا بالحريبة[1] ليس دونها شيء، أو يأتي على الأنفس، وهو لا يصل إلى ما يريدُ حتى يمرَّ على النساء مكشَّفات، ومَن عسى إذا أخذ المرأةَ أخذَ يدٍ ألاّ يرضى أن يتوعَّد بذبح الأولاد وأن يُتَّقى بالمال، حتَّى يذبح، ومن عسى إن تمكَّن شيئاً أو أمنَ قليلاً، أن يركب الحُرَم بالسَّوءَة العظمى وبالتي لا شَوَى لها. فهذا الحال أحقُّ بالحِراسة من تلك الأحوال.

وبعد فلِمَ صار نساءُ الحرمَين يتزاوَرْن ليلاً، ونساء المصرَين يتزاورن نهاراً، ونساء الحرمين لا يرين نهاراً، ونساء المصرَين لا يُريْنَ ليلاً؛ إلاّ للمكابرات ولمكان كثرةِ من يستقفي ويتحوّب للنقب والتسلُّق. وإذا كان الأمر كذلك فأيُّ الأمورِ أحقُّ بالتحصين والحياطة، وأيُّهما أشبه بالتغرير والإضاعة: اتخاذ الكلاب التي لا تنام عند نوم من قد دأب نهاره، أو ترك اتخاذها؟ ويقَظة السُّرَّاق على قدر المسروقين.

وعلى أنّا لو حُلنا بين حَرس الأسواق وما تشتمل عليه من حرائب الناس، وبين اتِّخاذ الكلاب، لامتنعوا من ضَمان الحراسة، ولامتنع كلُّ محروس من إعطائهم تلك الأجرة، ولوجَد اللصوصُ ذلك من أعظم الغُنْم وأجود الفُرص. أو ما تعلمون أنَّ هذا الحريم، وهذه الحرمات وهذه العقائل من الأموال، أحقُّ بالمنْع والحِراسة والدَّفع عنها بكلِّ حيلة، منْ حفظ الغنم وحريمِ الراعي وحُرمة الأجيرِ؟!

وبعد فإنَّ الذئابَ لا تجتمع على قطيعٍ واحد، والذي يُخاف من الذئب السَّلَّة والخطفة، والاستلابُ والاختلاس. والأموالُ التي في حوانيت التجار وفي منازل أهلِ اليسار يأتيها من العدد والعُدّة، ومن نُجب أصحاب النجدة، من يحتملها بحذافيرها، مع ثقل وزنها وعظم حجمها، ثمَّ يجالدون دون ذلك بسيوف الهند وبالأذرع الطوال. وهم من بين جميع الخليقة لَولاَ أنّهم قد أحسُّوا من أنفسهم الجراءَة وثباتَ العزيمة، بما ليس من غيرهم، لكانوا كغيرهم، ولولا أنَّ قلوبَهم أشدُّ من قلوب الأُسْد لما

---

(١) الحريبة: المال الذي يسلب من الإنسان.

خَرَجوا، على أنّ جميع الخلق يطالبونهم، وعلى أنّ السلطانَ لم يُوَلَّ إلاّ لمكانهم. والكلابَ لم تُتَّخَذْ إلا للإنْذَارِ بهم، وعلى أنّهم إذا أُخذوا ماتوا كراماً.

ولعلَّ المدينةَ قد كانت في ذلك الدهر مأموناً عليها من أهل الفساد وكان أكثرُ كلابها عَقوراً، وأكثرُ فتيانها من بين مُهارشٍ أو مقامرٍ. والكلبُ العَقورُ والكلْب الكَلِبُ أشدُّ مضرَّةً من الذئب المأمورِ بقتله.

وقد يعرض للكلاب الكلَب والجنون لأُمور: منها أن تأكلَ لحوم الناس، ومنها كالجنون الذي يعرِض لسائر الحيوان.

٢٣١ - [قتل العامة للوزغ]

وجُهَّالُ النَّاسِ اليوم يقتلون الوزَغ، على أنَّ آباءَها وأمهاتها كانت تنفُخ على نار إبراهيم، وتنقُل إليها الحطب. فأحسَب أنَّ آباءها وأمَّهاتِها قد كنَّ يعرفن فصْل ما بين النبيِّ والمتنبِّي، وأنَّهن اعتقدْن عداوة إبراهيم، على تقصيرٍ في أصل النظر، أو عن معاندةٍ بعد الاستبانة حتَّى فعلنَ ذلك - كيف جاز لنا أن تَزِر وازرةٌ وِزْرَ أخرى؟! إلاَّ أن تدَّعوا أنَّ هذه التي نقتلها هي تلك الجاحدةُ للنبوَّة، والكافرةُ بالربوبيّة، وأنَّها لا تتناكح ولا تتوالد.

وقد يستقيم في بعض الأمرِ أن تقتلَ أكثر هذه الأجناس، إمَّا من طريق المحنة والتعبُّد وإمّا إذ كان اللّه عزّ وجلَّ قد قضى على جماعتها الموتَ، أن يجريَ ذلك المجرى على أيدي الناس، كما أجرى موت جميع الناس على يد ملك واحد، وهو ملك الموت.

وبعد فلعلَّ النبيَّ ﷺ قال هذا القول إن كان قاله، على الحكاية لأقاويل قوم. ولعلَّ ذلك كان على معنًى كان يومئذٍ معلوماً فترَك النَّاسُ العلَّة ورووا الخبر سالماً من العِلل، مجرَّداً غير مضمّن.

ولعلَّ مَن سمع هذا الحديث شهد آخرَ الكلام ولم يشهد أولَّه، ولعلَّه عليه الصلاة والسلام قصَد بهذا الكلام إلى ناسٍ من أصحابه قد كان دار بينهم وبينه فيه شيء. وكلُّ ذلك ممكنٌ سائغٌ غير مستنكَر ولا مدفوع.

٢٣٢ - [قتل الفواسق]

وقد رويتم في الفواسق ما قد رويتم في الحيَّة والحدأة والعقرب والفأرة

والغراب، ورويتم في الكلب العَقور، وكيف يُقتلْنَ في الحِل والحرَم. فإنْ كنتم فُقهاءَ فقد علمتم أنَّ تسميةَ الغراب بالفِسق، والفأرةِ بالفُويسِقة؛ أنّ ذلك ليس من شكل تسمية الفاسق، ولا من شكل تسمية إبليس.

وقد قالوا: ما فجرها إلاَّ فاجر، ولم يجعلوا الفاجر اسماً له لا يفارقه. وقد يقال للفاسق من الرجال: خبيث. وقد قال ﷺ: «من أكَلَ من هذه الشَّجَرَة الخَبيثَة فَلاَ يَقْرَبَنَّ مُصَلاَّنَا» وهو على غير قوله عزّ وجلَّ ﴿الخَبيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾[1]. وقد قال بعضُ الرُّجَّاز وذكر ذئباً: [من الرجز]

أما أتاكَ عَنِّيَ الحَديثُ إذْ أنَا بالغَائِطِ أَسْتَغيثُ
والذئبُ وَسْطَ غَنَمِي يَعِيثُ وصِحْتُ بِالْغَائِطِ يا خَبِيثُ

وهذا الباب كثير، وليس هذا موضعه، وقد ذكرناه في كتاب الاسم والحكم.

وقد يشبه الاسمُ الاسمَ في صورةِ تقطيع الصوت، وفي الخطِّ في القرطاس، وإن اختلفت أماكنُه ودلائله. فإذا كان كذلك فإنَّما يعرف فضلُه بالمتكلّمين به، وبالحالات والمقالات، وبالذين عُنُوا بالكلام. وهذه جملةٌ، وتفسيرها يطول.

وقالوا: قد أُمرْنا بقتل الحيَّة والعقرب، والذئب والأسد، على معْنًى ينتظم معنَيْين: أحدهما الامتحان والتعبُّد بفكر القلب وعمل الجارحة، لا على وجه الانتقام والعقوبة. وأُمرنا بضرب الباغي بالسيف إذا كانت العصَى لا تُغني فيه على جهة الدَّفْع وعلى جهة العقاب، ولم نُؤمَرْ بالقصد إلى قتله، وإنَّما الغاية في دفع بأسِه عنا، فإن أتى إلى ذلك المقدار عليه، كان كسارقٍ ماتَ من قطع يده، وقاذفٍ ماتَ عن جَلد ظهره. وقد أُمرْنا بالقصد إلى قتل الحيَّات والعقارب وإن لم تعرض لنا في ذلك الوقت؛ لأنَّ جنسَها الجنسُ المتلف متَى همَّ بذلك. وليس لنا أن نضربَ الباغيَ بالسَّيف إلاَّ وهو مقبلٌ غيرُ مدبر، ولنا أن نقتل الحيَّة مقبلةً ومدبرة، كما يُقتل الكافرُ مقبلاً ومدبراً؛ إلاَّ أنَّ قتلَ الكافر يجمع الامتحان والعقوبة، وليس في قتل الحية إلاَّ الامتحان. وقد كان يجوز أن تمتحَن بحبسها والاحتيالِ لمنعها، دونَ قتلها. وإذا ولَّى الباغي من غير أن يكون يريد الرجوع إلى فئة، فحكمه الأسر والحبس أبداً إلى أن يُؤْنَسَ منه النُّزوعُ. وسبيل الأحناشِ والسِّباع وذوات السموم من الهمَج والحشرات، القتلُ مقبلةً ومدبرة. وقد أبيح لنا قتلُ ضروبٍ من الحيوان عندما يبلُغ من جناياتها علينا الخدش، فضلاً من الجرح والقتل، كالبعوض والنمل، والبراغيث والقمل.

---

(١) ٢٦/ النور.

والبعيرُ قتلهُ فسادٌ، فإن صال على الناس كان قتلُه صلاحاً. والإنْسان قتله حرام، فإن خيفَ منه كان قتلُه حلالاً.

٢٣٣ - [طائفة من المسائل]

والحديث عن مسخ الضَّبِّ والجِرِّيِّ، وعن مسخ الكلاب والحُكَأَة وأنَّ الحمامَ شيطان، من جنس المُزاح الذي كنَّا كتبنا به إلى بعض إخواننا ممَّن يدَّعي علمَ كلِّ شيء، فجعلنا هذه الخرافاتِ وهذه الفطنَ الصغارَ، من باب المسائل.

فقلنا له: ما الشِّنْقناقُ والشَّيْصَبانُ وتنكوير ودركاذاب ومَن قاتل امرأة ابنِ مقبل؟ ومن خانق الغَريض؟ ومن هاتف سعد؟ وخبِّرنا عن بني أُقيش وعن بني لبنى، ومَن زَوْجُها؟ وعن بني غَزْوان ومَن امرأته؟ وعن سملقة وزَوبعة، والميدعان، وعن النقار ذي الرقبة وعن آصف، ومن منهم أشار بأصفر سليم[١]، وعن أطيقس اسم كلب أصحاب الكهف[٢]، وكيف صارت الكلابُ لا تنبح من سمَّاه؟ وأين بلغ كتَابُ شَرطهم؟ وكيف حدَّثوا عن ابن عباسٍ في الفأر والقرد والخنزير والفيل والأرنب والعنكبوت والجِرِّيِّ، أنَّهنَّ كلُّهنّ مسخ؛ وكيف خُصَّت هذه بالمسخ؟ وهل يحلُّ لنا أن نُصدِّق بهذا الحديث عن ابن عبَّاس؟ وكيف صارت الظباءُ ماشيةَ الجنّ؟ وكيف صارت الغِيلان تُغيِّر كلَّ شيء إلاَّ حوافرَها؟ ولم ماتت من ضربةٍ وعاشتْ من ضربتين[٣]؟ ولم صارت الأرانب والكلاب والنَّعامُ مراكبَ الغيلان؟ ولم صارت الرواقيد مطايا السَّواحر؟ وبأي شيء زوَّج أهلُ السّعلاة ابن يربوع[٤]؟ وما فرق ما بينه وبين عبد اللّه بن هلال؟ وما فعلت الفتاة التي كانت سميت بصبر على يد حرمي وأبي منصور؟ ولم غضب من ذلك المذهب؟ ولم مضى على وجهه شفشف؟ وما الفرق بين الغِيلان والسّعالي، وبين شيطان الخضراء وشيطان الحَماطة؟ ولم عُلق السمك المالح بأذنابه والطريّ بآذانه، وما بالُ الفراخِ تُحمَل بأجنحتها والفراريج

---

(١) أصفر سليم: كان سليم صيدلانياً بالبصرة، وقد عجن دواءً أصفر بكل ما شُرب له، فكان يستشفي به كل مبرود ومحرور، فسار مثلاً في البركة. ثمار القلوب ١١٩ (٢٦٤)، وانظر المعارف ٦١٤، وطبقات ابن المعتز ٣١٠.

(٢) انظر قول الدميري في اسم كلب أصحاب الكهف، حياة الحيوان ٢ / ٢٦٢، والسيوطي في كتابه مفحمات الأقران ص١٣٧.

(٣) انظر حياة الحيوان ٢ / ١٣٠.

(٤) حياة الحيوان ١ / ٥٥٥.

بأرجلها؟ وما بال كلِّ شيء أصلُ لسانه ممّا يلي الحلق وطرفه ممَّا يلي الهواء، إلاَّ لسان الفيل؟ ولم قالت الهند: لولا أنَّ لسانه مقلوب لتكلَّم[١]؟ ولم صار كلُّ ماضغٍ وآكلٍ يُحرِّك فكَّه الأسفل، إلا التمساح فإنه يحرِّك فكَّه الأعلى[٢]؟ ولم صار لأجفان الإنسان الأشفار، وليس ذلك للدواب إلاّ في الأجفان العالية؟ وما بالُ عين الجَرادة وعين الأفعى لا تدوران؟ وما بيضة العُقْر[٣] وما بيضة الديك[٤]؟ ولم امتنع بيض الأنوق؟ وهل يكون الأبلق العقوق؟ وما بال لسانِ سمكِ البحر عديماً؟ وما بال الغريقِ من الرِّجال يطفو على قفاه، ومن النساء على وجهه؟ ولم صار القتيل إذا قُتل يسقط على وجهه ثم يقلبه ذكَرُه؛ وأين تذهب شقشقة البعير وغُرمول الحمار والبغْل وكبدُ الكوسج بالنهار، ودَمُ الميت؟ ولم انتصب خَلْق الإنسان من بين سائر الحيوان؟ وخبِّرني عن الضفادع، لم صارت تنقُّ بالليل وإذا أُوقدت النارُ أمسَكَت؟.

وقالوا: قد عارضناكم بما يجري مجرى الفساد والخُرافة. لنردَّكم إلى الاحتجاج بالخبَر الصحيح المخرج للظاهر.

فإن أعجبتك هذه المسائلُ، واستطْرَفتَ هذا المذهب، فاقرأ رسالتي إلى أحمد ابن عبد الوهاب الكاتب، فهي مجموعةٌ هناك.

٢٣٤ - [كثرة أصناف الكلاب]

والكلاب أصنافُ لا يحيط بها إلاّ من أطالَ الكلام. وجملة ذلك أنّ ما كان منها للصيد فهي الضِّراء، وواحدها ضِروة، وهي الجوارح والكواسب، ونحن لا نعرفها إلاَّ السَّلُوقيّة؛ وهي من أحرار الكلاب وعتاقها، والخلاسية هجنها ومقاريفها. وكلابُ الرعاءِ من زينيِّها وكرديها فهي كرادتها.

---

(١) ربيع الأبرار ٥ / ٤٣٠.

(٢) ربيع الأبرار ٥ / ٤٣٩.

(٣) بيضة العقر: اختلفوا فيها؛ فمن قائل: إنها البيضة التي تستبرأ بها المرأة؛ أبكرٌ هي أم ثيِّب. ومن قائل: إنها بيضة الديك ولا ثانية لها قط. ومن قائل: إنها آخر بيضة تكون للدجاجة، ولا بيضة لها بعدها. انظر ثمار القلوب (٧٢١)، ومجمع الأمثال ١/٩٦، وجمهرة الأمثال ١/٢٢٤، والمستقصى ٢ / ٢١١.

(٤) بيضة الديك: مثل يضرب في الشيء يكون مرة واحدة لا ثانية لها، والذي يعطي عطية لا يعود لمثلها. انظر ثمار القلوب (٧٢٠)، والمستقصى ٢ / ٢١١، وفصل المقال ٤٣٧، ومجمع الأمثال ٢ / ١٣١.

وقد تَصيد الكلابُ غيرُ السَّلوقيّة، ولكنَّها تقصرٌ عن السَّلوقيّة بعيداً. وسَلوق من أرض اليمن كان لها حديدٌ جيِّد الطبع، كريم العنصر حرُّ الجوهر. وقد قال النابغة: [من الطويل]

تَقدُّ السَّلوقيَّ المضاعَفَ نَسْجُه ... وتوقِد بالصُّفَّاح نارَ الحُباحِبِ[1]

وقال الأصمعيّ: سمعتُ بعضَ الملوك وهو يركض خلفَ كلْبٍ وقد دنا خَطمه من عَجْب ذنب الظبي وهو يقول: إيه فدتكَ نفسي!!

وأنشد لبعض الرجاز: [من الرجز]

* مفدَّيات وملعَّنات *

قال صاحب الديك: فلمَّا صار الكلبُ عندهم يجمع خصالَ اللؤم والنَّذالة، والحرصِ والشَّره، والبَذاء والتسرُّع وأشباه ذلك، صاروا يشتقُّون من اسمه لمن هجَوه بهذه الخصال. وقال بشَّار: [من الكامل]

واستَغْنِ بالوجَبات عن ذَهبٍ ... لم يَبقَ قبلَك لامرئٍ ذَهبُهْ[2]

يرِدُ الحريص على متالفه ... والليثُ يبعثُ حَيْنَه كَلَبُهْ

٢٣٥ - [ما اشتق من اسم الكلب]

قال صاحب الكلب: لَما اشتقُّوا من اسمه للأشياء المحمودة أكثر؛ قال عامر بن الطفيل: [من الكامل]

ومدجَّجٍ يسعَى بشِكَّتِه ... محمرَّةٍ عيناهُ كالكلْبِ[3]

ومن ولد ربيعة بن نزار كلب بن ربيعة، وكلاب بن ربيعة، ومكالب بن ربيعة، ومكلبة بنو ربيعة بن نزار. وفيهم من السباع أسَد، وضُبيعة، وذئب، وذؤيب، وهم خمسة عشر رجلاً؛ ثمانية من جميع السباع، ومن الثمانية أربعة مشتقَّة من اسم

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ٤٦. المضاعف: الذي نُسج حلقتين حلقتين، الصفّاح: حجارة عراض، الحباحب: دويبة تضيء بالليل كالنار، وقيل: نار الحباحب هو أن تسير الإبل في الليل في الأرض ذات الحجارة، فتصكها بأخفافها، فيقرع بعضها بعضاً؛ فتنقدح منها النار.

(٢) ديوان بشار ١ / ٢٥٢.

(٣) البيت ليس لعامر بن الطفيل، بل للحارث بن طفيل في الأغاني ١٣ / ٢٢٤، وبلا نسبة في اللسان والتاج (دجج)، والمقاييس ٢ / ٢٦٥، والمجمل ٢ / ٢٥٨، والعين ٦ / ١١، والمخصص ٨ / ٩٥، وتهذيب اللغة ١٠ / ٤٦٧.

الكلب. ومن هذا الباب كليب بن يربوع، وكلاب بن ربيعة، وكلب بن وَبرة. ومنه بنو الكلبة، قال الشاعر: [من الطويل]

سَيكْفِيك من ابني نزارٍ لراغبٍ بنو الكلبةِ الشمُّ الطوالُ الأشاجعِ[1]

والكلبة لقب ميَّة بنت عِلاج بن شَحْمة العنبريّ. وبنوها بنو الكلبة الذين سمعتَ بهم - تزوَّجها خُزيمة بن النعمان من بني ضُبَيعة بن ربيعة بن نزار، فهي أمُّهم. وفيها يقول شُبَيل بن عَزْرة الضُّبَعي صاحب الغريب - وكان شِيعيّاً من الغالية، فصار خارجيًّا من الصُّفرية -: [من الطويل]

بنو كلبةٍ هرَّارة وأبُوهُمُ خُزَيمةُ عبدٌ خاملُ الأصل أوكَسُ[2]

وفي مَيَّة الكلبة يقول أبوها، وهو عِلاج بن شحمة: [من الطويل]

إنْ تكُ قد بانت بميَّةَ غربة فقد كان مِمًّا لا يُمَلُّ مَزَارُها
دعتْها رجالٌ من ضُبَيعة كَلْبةً وما كان يُشكى في المحول جِوارُها

ومما اشتقَّ له من اسم الكلب من القُرى والبُلدان والناس وغير ذلك، قولهم في الوقْعة التي كانت بإرمِ الكلبة[3]. ومن ذلك قولهم: حين نزلنا من السَّراة صرنا إلى نجد الكلبة.

وكان سبب خروج مالك بن فَهم بن غَنْم بن دَوس إلى أزد شنوءة من السراة أنّ بني أخته قتلوا كلبةً لجاره، وكانوا أعَدَّ منه فغضب ومضى. فسمِّي ذلك النجد الذي هَبط منه نَجْد الكَلْبة.

وبطَسُّوج بادُوريا نهر يقال له: نهر الكلبة.

ويقولون: كان ذلك عند طلوع كوكب الكلب. ومن ذلك قولهم: عبَّاد بن أنْف الكلب. ومن ذلك أبو عُمَرَ الكلبُ الجَرميّ النحوي، وكان رجلاً من العِلية عالماً، عَروضيّاً نحويّاً فرضيّاً. وعَلُّويه كلب المطبخ، وكان أشربَ الناس للنبيذ، وقد راهنوا بينه وبين محمَّد بن عليّ.

---

(١) البيت بلا نسبة في الاشتقاق ٣١٩.

(٢) البيت في أساس البلاغة (وكس)، وشعر الخوارج ٢٠٨.

(٣) إرم الكلبة: موضع بين البصرة والحجاز، والكلبة اسم امرأة ماتت ودفنت هناك، فنسب إليها الإرم، ويوم إرم الكلبة من أيام العرب، قُتل فيه بجير بن عبد الله القشيري. انظر معجم البلدان ١ /١٥٧ (إرم الكلبة).

والكلب: كلب الماء، وكلب الرحى والضبة التي يقال لها الكلب. وكذلك الكُلْبة والكَلْبتان، والكُلاّب والكَلُّوب.

وقال راشد بن شهابٍ في ذلك المعنى: [من الطويل]

أُمكِّن كُلاَّب القنا من ثغورها وأخضِب ما يبدو منَ استاهها بِدَمّ[1]

وقال:

فسوفَ يرى الأقوامُ ديني ودينَكم إذا كلْبتا قَينٍ ومِقْرَاضُهُ أَزَمْ

وقال الراجز: [من الرجز]

ما زالَ مذْ كَان غُلاماً يستتر له على العَيرِ إكافٌ وثَفرْ

والكَلْبَتَانِ والعَلاةُ والوَتَرْ

وقال أشهب بن رُميلة، وكان أوَّلَ من رمى بني مجاشع بأنَّهم قُيون: [من الرجز]

يا عجبًا هل يركبُ القَيْنُ الفَرَسْ وعَرَقُ القَينِ على الخَيلِ نَجَسْ[2]

وإنَّما أداته إذا جَلَسْ الكلبتان والعَلاةُ والقَبَسْ

وكان اسم المزنوق فَرَسِ عامر بن الطفيل: الكلب.

وقد زعمت العلماء أنَّ حرب أيَّام هَراميت[3] إنَّما كان سببه كلب[4].

قال صاحب الديك: قد قيل للخوارج: كلاب النار، وللنوائح: كلاب النار.

وقد قال جَندلُ بن الراعي لأبيه في وقوفِه على جرير: ما لكَ تُطيل الوقوفَ على كلبِ بني كليب[5]؟!

وقال زفر بن الحارث: [من الكامل]

يا كلبُ قد كَلِبَ الزَّمانُ عليكُمُ وأصابكُمْ مِنَّا عذابٌ مُرسَلُ[6]

---

(١) انظر المفضليات ص ٣٠٨.

(٢) ديوان الأشهب بن رميلة ٢٣٥.

(٣) يوم الهراميت: كان بين الضِّباب وجعفر بن كلاب، معجم البلدان ٥/٣٩٦، وانظر أيام العرب في الجاهلية ٣٠٤.

(٤) في معجم البلدان (كان القتال بسبب بئر).

(٥) انظر الأغاني ٢٤/٢٠٧، وانظر ما تقدم في الفقرة (١٩٨).

(٦) الأبيات لزفر بن الحارث في الأغاني ١٩/١٩٩.

إنَّ السَّماوة لا سماوةَ فالحقي ... بمنَابتِ الزَّيتونِ وابْني بَحْدلُ
وبأرض عكٍّ في السواحل إنَّها ... أرضٌ تذوبُ بها اللِّقاحُ وتُهزَلُ

وقال حُصين بن القعقاع يرثي عُتيبة بن الحارث: [من الكامل]

بكَرَ النّعيُّ بخيرِ خنْدِفَ كلِّها ... بعُتيبةَ بنِ الحارثِ بن شِهابِ(١)
قتلُوا ذُؤَاباً بعد مقتلِ سَبْعةٍ ... فشفَى الغليلَ وريبةَ المرتابِ
يوم الحليس بذي الفَقَارِ كأنَّه ... كَلِبٌ بِضرب جماجِم ورِقابِ

وقال آخر: [من البسيط]

للّه درُّ بني الحَدّاءِ مِنْ نَفَرٍ ... وكلُّ جارٍ على جيرانه كَلِبُ(٢)
إذا غدوْا وعِصِيُّ الطَّلْح أرجُلُهم ... كما تَنَصَّبُ وسَطَ البيعة الصُّلُبُ

وإذا كان العُود سريع العُلوق في كلِّ زمانٍ أوْ كلِّ أرض، أو في عامَّة ذلك قالوا: ما هو إلاّ كلب.

وقالوا: قال النبي ﷺ في وزَرِ بن جابر حين خرجَ من عندهِ واستأذنه إلى أهله: «نعم إن لم تدركْه أمُّ كلْبة» يعني الحمَّى.

وممَّا ذكروا به العضو من أعضاء الكلب والكلبة والخلق منهما أو الصفة الواحدة من صفاتهما، أو الفعل الواحد من أفعالهما، قال رؤبة: [من الرجز]

* لاقيت مَطْلاً كَنُعَاسِ الْكَلْبِ *(٣)

يقول: مطلاً مُقَرْمَطاً دائماً. وقال الشاعر في ذلك: [من الوافر]

يكون بها دليلَ القومِ نجمٌ ... كَعينِ الكلب في هُبَّى قِبَاعِ

قال: هذه أرضٌ ذات غبرة من الجدب لا يبصر القوم فيها النجم الذي يُهتَدى به إلاّ وهو كأنّه عين الكلب، لأنّ الكلب أبداً مُغمِضٌ غير مطبق الجفون ولا مفتوحها. والهُبّى: الظلمة واحدها هابٍ، والجمع هُبًّى مثل غازٍ وغُزًّى. والقِباع: التي قَبعت في

(١) انظر رغبة الآمل ٢/١٥٥، ٦/٩٢.
(٢) الأبيات لبشر بن أبي خازم في ملحق ديوانه ٢٢٧، والبيان والتبيين ٣/٧٥، والبرصان والعرجان ٢٢٩.
(٣) ديوان رؤبة ١٧، وثمار القلوب ٣١٦ (٥٨٨)، ومجمع الأمثال ٢/٣٠٢، ٣٥٥، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٢/١٠٦.

القتام، واحدها قابع، كما يقبَع القنفذ وما أشبهه في جُحره. وأنشد لابن مقبل: [من الطويل]

ولا أطرقُ الجاراتِ باللَّيل قابعاً   قُبُوعَ القَرَنْبى أخلفته مجاعره[1]

والقبوع: الاجتماع والتقبُّض. والقَرَنْبى: دُوَيْبَّة أعظم من الخُنَفساء.

٢٣٦ - [شعر له سبب بالكلب]

وقال الآخر في صفة بعض ما يعرض له من العيوب: [من الكامل]

ما ضَرَّ تغلبَ وائلٍ أهجوتَها   أم بُلتَ حيثُ تناطَحَ البحران[2]
إنّ الأَراقم لا ينالُ قديمَها   كلبٌ عَوَى متهتِّم الأسْنانِ

وقال الشاعر في منظور بن زَبَّان: [من البسيط]

لبئس ما خَلَّفَ الآباءُ بعدَهُمُ   في الأُمَّهاتِ عِجَانُ الكَلْبِ مَنْظورُ

ومن هذا الضرب قول الأعرابيّ: [من الطويل]

لقد شَانَ صغري والياها وزَيَّنا   لصغري فتًى من أهلها لا يَزينها
كلاب لعاب الكلب إن ساق هَجْمة   يعذّب فيها نفسَه ويُهينُها

وقال عمرو بن معدِ يكرِب: [من الطويل]

لحا اللّهُ جَرْماً كلَّما ذَرَّ شارِقٌ   وجوهُ كِلابٍ هارشَتْ فازبأَرَّتِ[3]

وقال أبو سفيان بن حرب: [من الطويل]

ولو شئتُ نجَّتني كُميتٌ طِمِرَّة   ولم أجْعَل النَّعماءَ لابن شَعوب
وما زال مُهري مَزْجَرَ الكلبِ مِنهمُ   لدنْ غدوةً حتّى دنَتْ لِغُروبِ[4]

وقال عبد الرحمن بن زياد: [من الطويل]

دعَتْه بمسرُوق الحديث وظالعٍ   من الطرف حتى خاف بَصبصَةَ الكَلْبِ

---

(١) ديوان ابن مقبل ١٥٤، وتقدم البيت في الفقرة (١٨٧).
(٢) البيتان للفرزدق في ديوانه ٨٨٢، والبيان والتبيين ٣/٢٤٨.
(٣) ديوانه ٧٢، والخزانة ٢/٤٣٦، والسمط ١/٣٦٦، وشرح الحماسة للمرزوقي ١٦٠.
(٤) البيت لأبي سفيان في الدرر ٣/١٣٨، وبلا نسبة في اللسان (لدن)، والمقاصد النحوية ٣/٤٢٩، وهمع الهوامع ١/٢١٥، وشرح الأشموني ٢/٣١٨.

وقال شريح بن أوس: [من الطويل]

وعيَّرْتَنا تمْرَ العراقِ ونخْلَه … وزادك أير الكَلْبِ شيَّطه الجمرُ(١)

وقال آخر وهو يهجو قوماً: [من الطويل]

فجاءا بخرشَاوَي شعيرٍ عَلَيْهما … كراديسُ من أوصالِ أعقَدَ سافِدِ(٢)

وقال الحارث بن الوليد: [من الكامل]

ذهب الذين إذا رأَوني مُقبلاً … هَشُّوا وقالُوا: مَرحباً بالمقْبلِ

وبقيتُ في خَلْفٍ كأنَّ حديثَهم … وَلْغُ الكلاب تهارَشَتْ في مَنْهَلِ

وقال سَبْرة بن عمرو الفقعسيّ، حين ارتشى ضَمْرة النهشلي، ونفر عليه عباد بن أنف الكلب الصيداوِيّ فقال سبرة: [من الكامل]

يا ضَمْرُ كيفَ حكمتَ أمُّك هابلٌ … والحكْمُ مَسؤول به المتعمَّدُ(٣)

أحفظتَ عهداً أم رَعيت أمانةً … أم هل سمعتَ بمثلها لا يُنشدُ

شَنعَاءَ فاقرة تجلِّلُ نهشلاً … تَغُور به الرفاق وتُنْجد

إنَّ الرِّفاقَ أمالَ حكمك حبُّها … فلك اللقاء وراكبٌ متجرِّد

فضح العشيرةَ واستمرَّ كأنّه … كلبٌ يبصبص للعظال ويَطْرُدُ

لا شيءَ يعدلُها ولكنْ دونَها … خَرْطُ القَتاد تَهابُ شَوكَتَها اليدُ

جوْعانُ يلحَس أَسكَتَا زيفيَّة … غَلِمٌ يثورُ على البراثن أَعْقَدُ

وقال مزرِّدُ بن ضرار: [من الطويل]

وإنَّ كناز اللَّحْمِ من بَكَرَاتِكمْ … تَهرُّ عليها أُمُّكمْ وتُكالبُ(٤)

وليتَ الذي ألقى فناؤك رحلَه … لتَقْرِيَه بالتْ عليه الثَّعالبُ

وهذان البيتان من باب الاشتقاق لا من باب الصفات وذِكْرِ الأعضاء. وقال: [من الرجز]

يا سبْرُ يا عبدَ بني كلاب … يا أيرَ كلبٍ مُوثَقٍ بباب

أكان هذا أوَّلَ الثَّوابَ … يا وَرَلاً رَقْرَقَ في سرابِ

لا يَعْلِقَنْكمُ ظُفري ونابي

---

(١) البيت لشريح بن أوس في البخلاء ٢٣٥، والخزانة ٣/٨٦ (بولاق) وهو لأوس بن حجر في ديوانه ٣٨. وتقدم في الفقرة (٢٠٢).

(٢) البيت للّعين المنقري في معجم البلدان (حلامات). وتقدم في نهاية الفقرة (٢٠١).

(٣) انظر أمالي المرتضى ٣/٤٠، والمعمرون والوصايا ٥٥.

(٤) البيت الأول لحرام بن وابصة الفزاري في أساس البلاغة (هرر).

وقال الآخر: [من الوافر]

كأنّ بني طُهَيّةَ رهطَ سَلْمَى حجارةُ خارئٍ يَرمي الكِلابَا[1]

وقال صاحب الكلب: ومما اشتقَّ من اسم الكلب في موضع النباهة، كليب بن ربيعة، هو كليب وائلٍ. ويقال إنّه قِيل في رجلين من بني ربيعة ما لم يُقَلْ في أحدٍ من العرب، حتَّى ضُرب بهما المثل، وهو قولهم: «أعزُّ من كليبِ وائل»[2]، والآخر: «لا حرَّ بوادِي عَوْف»[3].

قالوا: وكانت ربيعة إذا انتجعت معه لم توقد ناراً ولم تحوِّضْ حوضاً، وكان يحمي الكلأ ولا يُتَكَلَّمُ عندَهُ إلاّ خفضاً، ويجير الصيد ويقول: صيدُ أرضِ كذا وكذا في جواري لا يباح. وكان له جرو كلب قد كَتَعه[4] فربما قذَف به في الروضة تعجبُه، فيحميها إلى منتهى عوائه، ويلْقيه بحريم الحوض فلا يردُه بعير حتَّى تصدُرَ إبله[5].

٢٣٧ - [ما قيل من الشعر في كليب]

وفي ذلك يقول معبَد بن شعبة التميمي: [من الطويل]

أظنَّ ضِرارٌ أنَّني سأُطيعه وأنِّي سأُعطيه الذي كنتُ أمنعُ
إذِ اغرورقت عيناه واحمرّ وجهُه وقد كادَ غيظاً وجهُه يتبضَّعُ
تقَدَّم في الظلم المُبيِّن عامداً ذراعاً إذا ما قُدِّمَتْ لك إصبعُ
كفعلِ كُليبٍ كنت أنبئت أنَّه يخلط أكلاءَ المياه ويَمنَعُ
يُجير على أفْناءِ بكرِ بن وائل أرانب ضاح والظِّباءَ فترتَعُ

وقال دريد بن الصمة: [من الوافر]

لعمرُكَ ما كُليبٌ حين دلّى بحبلٍ كلبَه فيمن يميحُ[6]

(١) البيت لجرير في ديوانه ٨١٤ (طبعة نعمان طه)، والبيان والتبيين ٢/٢٥٠، وجمهرة اللغة ١٠٩٦.

(٢) مجمع الأمثال ٢/٤٢، والفاخر ٩٣، والدرة الفاخرة ١/٣٠٠، وجمهرة الأمثال ٢/٣٣، ٦٥، والمستقصى ١/٢٤٦، والأمثال لابن سلام ٢٦٢.

(٣) مجمع الأمثال ٢/٣٢٦، والدرة الفاخرة ٢/٤١٩، والفاخر ٢٣٦، وجمهرة الأمثال ٢/٣٤٦، ٤٠٦، ٤١٤، والمستقصى ٢/٢٦٢، وفصل المقال ١٢٩، والأمثال لابن سلام ٩٤.

(٤) كتعه: بمعنى شد قوائمه.

(٥) ثمار القلوب (١٩٠-١٩١) والأغاني ٥/٣٤-٣٥. وانظر الحاشية قبل السابقة.

(٦) ديوان دريد بن الصمة ٤٤.

بأعظَم من بني سفيان بَغْياً وكلُّ عدوِّهم منهم مريح

وقال العبَّاس بن مرداس: [من الطويل]

كما كان يبغيها كليبٌ بظلمه من العزِّ حتى طاح وهو قَتيلُها[1]
على وائل إذْ يُنزِل الكلب مائحاً وإذ يُمنَع الأكلاءَ منها حلولُها

وقال عباس أيضاً لكُليب بن عهمة الظفريّ: [من الكامل]

أكُليبُ إنَّكَ كلَّ يوم ظالم والظلمُ أنكدُ وجْهُه ملعونُ[2]
تبغِي بقَومِك ما أرادَ بوائل يومَ الغدير سَميُّكَ المطعونُ
وإخالُ أنَّك سوفَ تَلْقَى مثلَها في صَفْحتَيك سنانُه المسنون

وقال النابغة الجعدي: [من الطويل]

كليبٌ لَعمري كان أكثرَ ناصراً وأيسرَ ذنباً منك ضُرِّجَ بالدَّم[3]
رَمَى ضَرْعِ نابٍ فاستمر بطَعْنَةٍ كحاشيةِ البُرد اليماني المسهَّم

وقال قَطِران العبشَميُّ، ويقال العبشي: [من الطويل]

ألم تر جسَّاسَ بن مُرَّة لم يَرِدْ حِمَى وائلٍ حَتَّى احتداه جَهولُها
أجرَّ كليباً إذ رمى النابَ طعنةً جدَت وائلاً حتَّى استخفَّت عقولها
بأهون مما قلت إذ أنت سادِرٌ وللدَّهرِ والأيَّامِ والٍ يُديلها

وقال رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة: [من الطويل]

نحن أبَسْنَا تغلبَ ابنةَ وائلٍ بقتل كُليبٍ إذ طغى وتَخيَّلا[4]
أبأناه بالنَّابِ التي شقَّ ضَرعها فأصبحَ موطوءَ الحِمى متذلِّلا[5]

وقال رجل من بني سَدوس: [من الطويل]

وأنت كليبيٌّ لكليبٍ وكلبةٍ لها حولَ أطنابِ البيوتِ هَريرُ

---

(١) ديوان العباس بن مرداس ١٣٨.

(٢) ديوان العباس بن مرداس ١٥٦، والوحشيات ٢٣٨، والحماسة البصرية ١/ ١٠، والأغاني ٥/ ٣٨.

(٣) ديوان النابغة الجعدي ١٤٣، والأغاني ٥/ ٣٣.

(٤) البيتان في الأغاني ٥/ ٣٨ وفيه (وقال رجل من بني بكر بن وائل في الإسلام، وهي تنحل للأعشى)، والبيت الأول بلا نسبة في كتاب الجيم ١/ ٥٧. أبسنا: أذللنا وقهرنا. تخيل: تكبّر.

(٥) أبأناه: جعلناه عدلاً فقتلناه بها.

وقال ابن مقبل العَجلاني : [من الطويل]

بكتْ أمُّ بكرٍ إذْ تبدَّدَ رهطُها   وأنْ أصبحوا منهم شَريدٌ وهالكُ[1]
وإنَّ كلا حيَّيك فيهم بقية   لوَ انَّ المنايا حالُها متماسكُ
كلاب وكعب لا يَبيت أخوهم   ذليلاً ولا تُعيِي عليه المسالكُ[2]

وقال رجل من بني كلاب من الخوارج، لمعاوية بن أبي سفيان : [من البسيط]

قد سِرتَ سَيْرَ كُليبٍ في عشيرته   لو كان فيهم غلامٌ مثلُ جسَّاسِ[3]
الطاعنِ الطعنة النجلاء عاندُها   كطرّة البرد، أعيا فتقُها الآسي[4]

٢٣٨ - [أهون من تبالة على الحجاج]

وقال أبو اليقظان في مثل هذا الاشتقاق : كان أوَّل عمل وليه الحجّاج بن يوسف تَبالة[5]، فلما سار إليها وقرُب منها قال للدليل: أين هي، وعلى أيّ سمت هي؟ قال : تسترك عنها هذه الأكمة. قال : لا أُراني أميراً إلاّ على موضعٍ تسترني منه أكمة، أهونْ بها عليّ؟! وكرَّ راجعاً، فقيل في المثل: «أَهْوَنُ مِنْ تَبَالَةَ عَلَى الحَجاج»[6].

والعامة تقول : لهو أهونُ عَلَيَّ من الاعراب على عركوك.

٢٣٩ - [احتضار الحجاج وقول المنجِّم]

قال[7]: ولمّا حضرت الحجاج الوفاةُ وقد وليَ قبل ذلك ما وليَ، وافتتح ما افتتح، وقتل من قتل، قال للمنجِّم : هل ترى ملكاً يموت؟ قال : نعم ولستَ به، أرى ملكاً يموتُ اسمه كُليب، وأنتَ اسمُك الحجَّاج قال : فأنا واللّه كليبٌ، أمّي سمَّتْني به وأنا صبيٌّ. فمات، وكان استخْلَفَ على الخراج يزيد بن أبي مسلم، وعلى الحرب يزيد بن أبي كبشة.

---

(١) ديوان ابن مقبل ٢٠٠ (ط ا)، ١٥٤ (دار الشرق).
(٢) كلاب وكعب : حَيّان من أحياء عامر بن صعصعة.
(٣) البيتان لبشير بن أبي العبسي في نوادر أبي زيد ١٥١.
(٤) العاند : العرق يسيل فلا يرقأ.
(٥) تبالة : بلدة مشهورة من أرض تهامة في طريق اليمن. معجم البلدان ٢ /٩ (تبالة).
(٦) المثل في مجمع الأمثال ٢ /٤٠٨، والدرة الفاخرة ٢ /٤٢٩، ٤٣١، وجمهرة الأمثال ٢ /٣٥٣، ٣٧٣، والمستقصى ١ /٤٤٥. وانظر معجم البلدان ٢ /٩/ (تبالة).
(٧) الخبر في المعارف ٣٩٧، وشذرات الذهب ١ /١٠٦.

٢٤٠ - [مذاهب العرب في تسمية أولادهم]

قال[١]: والعرب إنَّما كانت تسمِّي بكلب، وحمار، وحجر، وجُعَل، وحنظلة، وقرد، على التفاؤل بذلك. وكان الرجل إذا وُلد له ذكر خرج يتعرّض لزجر الطير والفأل، فإن سمع إنساناً يقول حجراً، أو رأى حجراً سمَّى ابنَه به وتفاءل فيه الشدَّة والصلابة، والبقاء والصبر، وأنَّه يحطم ما لقي. وكذلك إن سمع إنساناً يقول ذئباً أو رأى ذئباً، تأوَّل فيه الفطنة والخِبَّ والمكرَ والكسب. وإن كان حماراً تأوَّل فيه طولَ العُمر والوقاحة والقوَّة والجَلَد. وإن كان كلباً تأوَّل فيه الحِراسة واليَقَظة وبُعْدَ الصوت، والكسبَ وغير ذلك.

ولذلك صوَّر عبيد اللّه بن زياد في دِهليزه كلباً وأسداً، وقال: كلب نابح، وكبش ناطح، وأسد كالح. فتطيَّر إلى ذلك فطارت عليه.

وقال آخر: لو كان الرجل منهم إنَّما كان يسمِّي ابنَه بحجر وجبل، وكلب، وحمار، وثور، وخنزير، وجُعَل، على هذا المعنى فهلاً سمَّى بِبِرْذون، وبغل، وعُقاب، وأشباه ذلك؛ وهذه الأسماء من لغتهم.

قال الأوّل: إنَّما لم يكن ذلك، لأنّه لا يكاد يرى بغلاً وبِرذوناً، ولعلَّه لا يكون رآهما قط، وإن كانت الأسماء عندهم عتيدة لأمورٍ لعلّهم يحتاجون إليها يوماً ما.

قالوا: فقد كان يسمع بفرس وبعير، كما كان يسمع بحمار وثور، وقد كان يستقيم أن يشتقَّ منهما اشتقاقات محمودة. بل كيف صار ذلك كذلك ونحن نجده يسمِّي بنجم ولا يسمِّي بكوكب! إلاّ أنَّ بعضَهم قد سمَّى بذلك عبداً له، وفيه يقول: [من مخلع البسيط]

كَوْكَبُ إنْ مُتُّ فَهْيَ مِيتَتي لا مُتَّ إلاَّ هَرِماً يا كَوْكَبُ

ووجدناهم يسمون بجبل وسَنَد، وطَود، ولا يسمُّونَ بأُحُد ولا بثَبير وأجأ وسلمى ورَضوى، وصِنْدد وحميم، وهو تلقاء عيونهم متى أطلَعوا رؤوسهم من خيامهم. ويمسونَ بِبُرْج ولا يسمون بفلَك، ويسمون بقَمر وشمس علَى جهة اللقب أو على جهة المديح، ولم يسمُّوا بأرض وسماء، وهواءٍ وماء، إلاّ على ما وصفنا. وهذه الأصول في الزجر أبلغ، كما أنَّ جبلاً أبلغُ من حجر، وطوداً أجمع من صخر. وتركوا أسماءَ جبالهم المعروفة.

---

(١) انظر الاشتقاق ٤-٦.

وقد سمّوا بأسد وليث وأُسامةَ وضِرغامة. وتركوا أن يسمُّوا بسبع وسبعة. وسبع هو الاسم الجامع لكلٍّ ذي ناب ومخلب.

قال الأوّل: قد تسمَّوا أيضاً بأسماء الجبال، فتسمَّوْا بأَبَان وسَلْمَى.

قال آخرون: إنَّما هذه أسماء ناسٍ سمَّوا بها هذه الجبال، وقد كانت لها أسماءٌ ترِكت لثقلها، أو لعلَّة من العلل؛ وإلاَّ فكَيف سمَّوا بسلمى وتركوا أجأ ورَضوى.

وقال بعضهم: قد كانوا ربَّما فعلوا ذلك على أن يتَّفق لواحدٍ وَلودٍ ولمعظَّمٍ جليل، أن يسمع أو يرى حماراً، فيسمِّي ابنه بذلك؛ وكذلك الكلبَ والذئب، ولن يتفق في ذلك الوقت أن يسمع بذِكر فرس ولا حجْر أو هواء أو ماء؛ فإذا صار حمار، أو ثور، أو كلب اسمَ رجل معظَّم، تتابعت عليه العرب تَطيرُ إليه، ثم يكثر ذلك في ولده خَاصَّةً بعده. وعلى ذلك سمَّت الرعية بنيها وبناتها بأسماء رجال الملوك ونسائهم، وعلى ذلك صار كلُّ عليٍّ يكنى بأبي الحسن، وكل عُمَر يكنى بأبي حفص، وأشباه ذلك. فالأسماء ضروب، منها شيء أصليٌّ كالسَّمَاء والأرض والهواء والماء والنار، وأسماءٌ أخَرُ مشتقَّاتٌ منها على جهة الفأل، وعلى شكل اسم الأب، كالرجل يكون اسمه عمر فيسمى ابنَه عميراً، ويسمِّي عميرٌ ابنَه عِمران، ويسمِّي عمرانَ ابنَه مَعْمَراً. وربَّما كانت الأسماء بأسماء اللّه عزَّ وجلّ مثل ما سمى اللّه عز وجل أبا إبراهيم آزر، وسمَّى إبليس بفاسق، وربّما كانت الأسماء مأخوذةً من أمورٍ تحدثُ في الأسماء؛ مثل يوم العَرُوبة سمِّيت في الإسلام يوم الجمعة[1]، واشتقَّ له ذلك من صلاة يوم الجمعة.

٢٤١ - [الألفاظ الجاهلية المهجورة]

وسنقول في المتروك من هذا الجنس ومن غيره، ثم نعودُ إلى موضعِنا الأوَّلِ إن شاء اللّه تعالى.

ترك النّاسُ مما كان مستعملاً في الجاهلية أموراً كثيرة، فمن ذلك تسميتُهم للخَراج إتاوة، وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السُّلطان: الحُملان والمَكْس. وقال جابر ابن حُنَيّ: [من الطويل]

أفي كلِّ أسواقِ العِراقِ إتاوةٌ ... وفي كلِّ ما باع امرؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ[2]

---

(١) انظر مبادئ اللغة ١٠، ففيه ذكر لأيام الأسبوع في الجاهلية (الأول؛ والأهون؛ وجبار؛ ودبار؛ ومؤنس؛ والعروبة؛ وشيار).

(٢) البيت لجابر بن حني في المفضليات ٢١١، واللسان (مكس)، والتاج (مكس، اتو)، وأساس =

وكما قال العبديُّ في الجارود: [من الطويل]

أيا ابن المعلَّى خِلتَنا أم حسبتَنا صَرَارِيَّ نُعطِي الماكسِين مُكوسا(١)

وكما تركوا انْعَمْ صباحاً، وانْعَمْ ظلاماً، وصاروا يقولون: كيف أصبحتم؟ وكيف أمسيتم؟

وقال قيس بن زُهير بن جذيمة، ليزيد بن سنان بن أبي حارثة: انعَمْ ظَلاماً أبا ضَمْرة! قال: نعمتَ فمن أنت؟ قال: قيس بن زهير.

وعلى ذلك قال امرؤ القيس: [من الطويل]

ألا عِمْ صَباحاً أيُّها الطَّلَلُ البالي وهَلْ يَعِمَنْ مَن كان في العُصُر الخَالِي(٢)

وعلى ذلك قال الأوَّل: [من الوافر]

أتوْا نَارِي فقلتُ مَنُونَ قالوا سَرَاة الجنِّ قلتُ عِمُوا ظَلاَمَا(٣)

وكما تركوا أن يقولوا للملك أو السَّيِّد المطاع: أبيت اللعن، كما قيل: [من الرجز]

* مَهْلاً أبيتَ اللّعنَ لا تأكُلْ مَعَهْ *(٤)

وقد زعموا أن حُذَيفةَ بنِ بدرِ كان يُحيًّا بتحيَّة الملوك ويقال له: أبيت اللّعن. وتركوا ذلك في الإسلام من غير أن يكون كفراً.

وقد ترك العبْد أنْ يقول لسيده ربِّي، كما يقال ربُّ الدار، وربُّ البيت.

= البلاغة (أتي)، ولحني بن جابر في اللسان (أتى)، وبلا نسبة في المخصص ٣/٧٧، ١٢/٢٥٣، والعين ٥/٣١٧، ومجمل اللغة ١/١٦٤، ٤/٣٤٣، وتهذيب اللغة ١٠/٩٠، ١٤/٣٥٢.

(١) البيت ليزيد بن الخذاق في المفضليات ٢٩٨، وبلا نسبة في أساس البلاغة (مكس).

(٢) ديوان امرئ القيس ٢٧، والخزانة ١/٦٠، ٣٢٨، ٣٣٢، ٢/٣٧١، ١٠/٤٤، والتاج (طول)، والكتاب ٤/٣٩، وشرح شواهد المغني ١/٣٤٠، وبلا نسبة في الخزانة ٧/١٠٥، وأوضح المسالك ١/١٤٨، وهمع الهوامع ٢/٨٣.

(٣) البيت لشمر بن الحارث في الخزانة ٦/١٦٧، والتاج (حسد)، واللسان (حسد، منن)، ونوادر أبي زيد ١٢٣، والدرر ٦/٢٤٦، ولسمير الضبي في شرح أبيات سيبويه، ولشمر أو لتابط شراً في شرح المفصل ٤/١٦، وشرح التصريح ٢/٢٨٣، ولأحدهما أو لجذع بن سنان في المقاصد النحوية ٤/٤٩٨، وبلا نسبة في اللسان (أنس، سرا)، والخصائص ١/١٢٨، وأوضح المسالك ٤/٢٨٢، والكتاب ٢/٤١١، والدرر ٦/٣١٠، وهمع الهوامع ٢/١٥٧، ٢١١، والمقتضب ٢/٣٠٧.

(٤) الرجز للبيد في ديوانه ٣٤٣، وأمالي المرتضى ١/١٣٦، والفاخر ١٤٢، وسمط اللآلي ٨٨٢، واللسان والتاج وأساس البلاغة (لمع).

وكذلك حاشية السيِّد والملِك تركوا أن يقولوا ربّنا. كما قال الحارث بن حلّزة: [من الخفيف]

ربُّنا وابننا وأفضَلُ مَنْ يمـ ـشِي ومَن دُونَ مَا لديْهِ الثّناءُ[1]

وكما قال لبيد حين ذكر حُذَيفة بن بدر: [من الطويل]

وأهلكْنَ يوماً ربَّ كِنْدَةَ وابنَه وربَّ مَعدٍّ بين خَبْت وعَرْعَرِ[2]

وكما عيّر زيدُ الخَيل حاتماً الطائيّ في خروجه من طيٍّء ومن حرب الفساد[3]، إلى بني بدر، حيث يقول: [من الطويل]

وفرَّ من الحَرْب العَوانِ ولم يكُنْ بها حاتم طَبّاً ولا متطبِّبا[4]
وريب حصناً بَعْدَ أن كان آبياً أُبوّة حِصْنٍ فاستقالَ وأعتَبَا
أقِمْ في بني بدر ولا ما يهمنا إذا ما تقضَّت حربُنا أنْ تطربا

وقال عوف بن محلَّم، حين رأى الملك: إنّه ربي وربُّ الكعبة. وزوجُه أمُّ أناس بنت عَوف.

وكما تركوا أن يقولوا لقُوّام الملوك السَّدَنة وقالوا الحَجَبَة.

وقال أبو عُبيدة مَعْمر بن المثنَّى عن أبي عبد الرحمن يونس بن حبيب النحوي حين أنشدَه شعر الأسديّ: [من الوافر]

ومركضة صريحي أبوها تُهان لها الغلامة والغلامُ[5]

قال: فقلت له: فتقول: للجارية غلامة؟ قال: لا، هذا من الكلام المتروك وأسماؤُه زالت مع زوال معانيها، كالمِربَاعِ والنَّشيطة وبقي الصَّفايا؛ فالمرباع: رُبع جميع الغنيمة الذي كان خالصاً للرئيس، وصار في الإسلام الخمس، على ما سنّه الله

---

(١) البيت هو رقم (٢٨) من معلقته في شرح القصائد السبع الطوال ٤٦٣، وشرح القصائد العشر ٣٨٤.

(٢) ديوان لبيد ٥٥، والمخصص ١٧ / ١٥٤.

(٣) حرب الفساد: من أيام العرب في الجاهلية بين جديلة والغوث من طيئ، وفيها انهزمت جديلة هزيمة قبيحة. الأغاني ١٣ / ١٠، وأيام العرب في الجاهلية ٦٠-٦١.

(٤) ديوان زيد الخيل ١٥٥.

(٥) البيت للأسدي في شرح شواهد الإيضاح ٤١٥، ولأوس بن غلفاء في اللسان والتاج (صرح، ركض، غلم)، وشرح المفصل ٥ / ٩٧، وعمدة الحفاظ (ركض). الصريحي: اسم فحل منجب.

تعالى. وأما النَّشيطة فإنَّه كان للرئيس أن ينشط عند قسمة المتاع العِلْقَ النفيسَ يراه إذا استحلاه. وبقي الصفِيّ وكان لرسول الله ﷺ من كل مَغْنم، وهو كالسيف اللَّهذَم والفرسِ العتيق، والدرع الحصينة، والشيء النادر.

وقال ابن عَنَمة الضبّي حليف بني شَيبان، في مرثيته بِسطام بن قيس: [من الوافر]

لك المِرباعُ منها والصَّفايا ... وحُكْمُك والنَّشيطَةُ والفُضولُ[1]

والفُضول: فضول المقاسم، كالشيءِ إذا قسم وفضَلت فَضلةٌ استهلكت، كاللؤلؤة، والسيف، والدِّرْع، والبيضة، والجارية، وغير ذلك.

٢٤٢ - [الألفاظ الإسلامية المشتقة]

وأسماءُ حدثت ولم تكن، وإنَّما اشتقَّت لهم من أسماءٍ متقدِّمة، على التشبيه، مثل قولهم لمن أدركَ الجاهليَّة والإسلام مُخَضرم كأبي رجاءٍ العُطارديِّ، بن سالمة، وشقيق بن سالمة؛ ومن الشعراء النابغة الجَعديُّ وابن مقبل، وأشباههم من الفقهاء والشعراء. ويدلُّ على أنَّ هذا الاسم أحدث في الإسلام، أنَّهم في الجاهليَّة لم يكونوا يعلمون أنَّ ناساً يسلمون وقد أدركوا الجاهليَّة، ولا كانوا يعلمون أنَّ الإسلام يكون.

ويقال إنَّ أوَّلَ من سمَّى الأرضَ التي لم تُحفَر قطُّ ولم تحرثْ إذا فعل بها ذلك مظلومة، النابغةُ حيث يقول: [من البسيط]

إلاّ الأواريَّ لأياً ما أبيِّنُها ... والنؤيَ كالحَوضِ بالمظلومَةِ الجَلَدِ[2]

ومنه قيل سقاءٌ مظلوم إذا أعجل عليه قبل إدراكه. وقال الحادرة: [من الكامل]

ظَلم البِطاحَ له انهلالُ حَريصةٍ ... فصفَا النِّطافُ له بُعيْدَ المَقْلَعِ[3]

---

(١) البيت لابن عنمة الضبي في الأصمعيات ٣٧، والبيان والتبيين ١/٢٩٢، واللسان (نشط، فضل، صفا)، والتهذيب ٢/٣٦٩، ١١/٣١٤، ١٢/٤١، ٢٤٩، والتاج (نشط، ربع، فضل، صفا)، والمقاييس ٢/٤٧٩، ٣/٢٩٢، ٥/٤٢٧، وجمهرة اللغة ٨٦٧، ١٢٤١ (٣/٥٨، ٤١٨)، وبلا نسبة في أمالي القالي ١/١٤٤، والمخصص ١٢/٢٧٤، واللسان (ربع).

(٢) ديوان النابغة الذبياني ١٥، والأغاني ١١/٣١، واللسان والتاج (جلد، ظلم، بين)، والكتاب ٢/٣٢١، والخزانة ٤/١٢٢، ١١/٣٦، والمقاصد النحوية ٤/٣١٥، ٥٧٨، والمقتضب ٤/٤١٤.

(٣) البيت في ديوان الحادرة ٤٨، وشرح اختيارات المفضل ٢١٧، والمفضليات ٤٤، واللسان (حرص، ظلم)، والتاج (حرص، قلع، ظلم)، وأساس البلاغة (حرص)، وتهذيب اللغة ٦٤/٣٨٤، وبلا نسبة في المقاييس ٢/٤٠.

وقال آخر: [من الرجز]

قالتْ له ميٌّ بأعلَى ذِي سَلَم لو ما تَزُورُنا إذا الشعْبُ أَلَمّ

ألا بلَى يا ميّ واليومُ ظلَمْ(١)

يقول ظلم حين وضعَ الشيءَ في غير موضعه. وقال الآخر: [من الرجز]

* أنا أبو زينب واليومُ ظلَمْ *

وقال ابن مقبل: [من البسيط]

عادَ الأذلَّةُ في دارٍ وكان بها هُرْتُ الشَّقَاشِقِ ظَلاَّمُونَ للجزُرِ(٢)

وقال آخر: [من الطويل]

وصاحبِ صدقٍ لم تَنلني أذاته ظلَمْتُ وفي ظُلْمِي له عامداً أجْرُ(٣)

وقال آخر: [من البسيط]

لا يَظلِمون إذا ضِيفوا وِطابَهُمُ وهم لجودهمُ في جُزْرِهم ظلمُ

وظلم الجزور: أن يعرقبوها، وكان في الحقِّ أن تنحر نحراً. وظلمهم الجزُر أيضاً أن ينحروها صِحاحاً سماناً لا علَّة بها.

قال: ومن ذلك قولهم: «الحرب غَشوم»(٤)؛ وإنَّما سمِّيت بهذا لأنَّها تنال غير الجاني.

قال: ومن ذلك قولهم: «مَنْ أشْبَهَ أباه فما ظَلَم»(٥)، يقول: قد وضع الشبه في موضعه.

ومن المحدَثِ المشتقِّ، اسم منافق لمن رَاءَى بالإسلام واستسرَّ بالكفر أُخذ

---

(١) الرجز بلا نسبة في اللسان (ظلم).

(٢) ديوان ابن مقبل ٨١ (ط ١)، ٧٤ (دار المشرق)، واللسان (هرت، دور، شقق، ظلم)، والتاج (هرت، دور، ظلم)، وأساس البلاغة (ظلم، هرت)، والسمط ٧٣٣، وأمالي القالي ٢/١٠١، والتهذيب ٦/٢٣٥، ٨/٢٤٧، ١٤/٣٨٤، وبلا نسبة في المقاييس ٣/٤٦٩، والمجمل ٣/٣٦٤.

(٣) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج وأساس البلاغة (ظلم).

(٤) من الأمثال في مجمع الأمثال ١/٢٠٦، والمستقصى ١/٣١١، وجمهرة الأمثال ١/٣٥٨، وأمثال ابن سلام ٢٥٩.

(٥) مجمع الأمثال ٢/٣٠٠، وجمهرة الأمثال ٢/٢٤٤، والفاخر ١٠٣، ٢٧٧، وفصل المقال ١٨٥، وأمثال ابن سلام ١٤٥، ٢٦٠، والمستقصى ٢/٣٥٢.

ذلك من النافقاء والقاصعاء والداماء[١]، ومثل المشرك والكافر، ومثل التيمُّم. قال الله تعالى: ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً ﴾[٢] أي تحرَّوْا ذلك وتوخَّوْه. وقال: ﴿ فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾[٣] فكثُر هذا في الكلام حتَّى صار التيمُّم هو المسح نفسُه[٤]. وكذلك عادتهم وصنيعهم في الشيءِ إذا طالتْ صُحبتهم وملابستهم له.

وكما سمَّوا رَجيع الإنسان الغائط، وإنَّما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاءَ الحاجة للستر[٥].

ومنه العَذِرة، وإنَّما العذرة الفناءُ، والأفنية هي العَذِرات، ولكن لما طال إلقاؤهم النَّجْو والزِّبل في أفنيتهم، سمِّيت تلك الأشياء التي رَموا بها، باسم المكان الذي رميت به[٦]. وفي الحديث: «أَنْقُوا عَذِرَاتكم»[٧].

وقال ابن الرقَيَّات: [من الخفيف]

رَحِمَ اللَّهُ أَعْظُماً دَفَنُوها ... بِسجِسْتَان طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ[٨]

كان لا يحجُبُ الصديقَ ولا يعـ ... ـتَلُّ بالبخلِ طيِّبَ العَذِرَاتِ

ولكنَّهم لكثرةِ ما كانوا يُلقون نجوَهم في أفنيتهم سموها باسمها.

ومنه النّجو: وذلك أنّ الرجل كان إذا أراد قضاءَ الحاجةِ تستَّر بنجوة[٩].

والنّجو: الارتفاع من الأرض، قالوا من ذلك: ذهب يَنْجُو، كما قالوا ذهب يتغوّط إذا ذهب إلى الغائط لذلك الأمر، ثمَّ اشتقوا منه فقالوا إذا غسل موضع النجو قد استنجى.

---

(١) هي من أسماء جحرة اليربوع السبع. انظر اللسان (دمم).
(٢) ٤٣ / النساء: ٤، ٦ / المائدة: ٥.
(٣) ٤٣ / النساء: ٤.
(٤) انظر أدب الكاتب ٦٧، باب تأويل كلام من كلام الناس.
(٥) أدب الكاتب ٦٧.
(٦) أدب الكاتب ٦٧.
(٧) النهاية ٣/١٩٩.
(٨) ديوان ابن قيس الرقيات ٢٠، والبيت الأول في اللسان والتاج (طلح، نضر)، وعمدة الحفاظ (نضر)، والخزانة ٨/١٠، ١٤، وشرح المفصل ١/٤٧، وبلا نسبة في المقتضب ٢/١٨٨، ٤/٧، وهمع الهوامع ٢/١٢٧، والإنصاف ٤١.
(٩) أدب الكتاب ٦٦

وقالوا: ذهب إلى المخرَج، وإلى المتوضَّأ، وإلى المذهب، وإلى الخَلاء، وإلى الحُش، وإنّما الحشّ القطعةُ من النَّخل وهي الحِشّان[1]. وكانوا بالمدينة إذا أرادوا قضاءَ الحاجة دخلوا النخلَ؛ لأنَّ ذلك أستر، فسموا المتوضأ الحشّ، وإن كان بعيداً من النخل؛ كلّ ذلك هرباً من أن يقولوا ذهب لخَرْءٍ، لأنَّ الاسم الخرءُ، وكل شيءٍ سواه من [نجو] ورجيع وبراز وزبل وغائط فكله كناية.

ومن هذا الباب الملَّةُ، والمَلَّة موضع الخُبْزة، فسموا الخُبْزة باسم موضعها. وهذا عند الأصمعيٍّ خطأ.

ومن هذا الشكل الراوية، والراوية هو الجمل نفسه، وهو حامل المزادة فسمِّيت المزادة باسم حامل المزادة[2]. ولهذا المعنى سمَّوا حاملَ الشعر والحديث راوية.

ومنه قولهم: ساق إلى المرأة صَداقها. قالوا: وإنَّما كان يقال ذلك حين كانوا يدفعون في الصَّدَاق إبلاً، وتلك الإبل يقال لها النافجة. وقال شاعرهم: [من الطويل]

وليس تِلادي من وِراثةِ والدي ... ولا شادَ مالي مُستَفاد النوافِجِ[3]

وكانوا يقولون: تَهنيك النافجة. قال: فإذا كانوا يدفَعون الصَّدَاقَ عيناً ووَرِقاً فلا يقال ساق إليها الصَّداق.

ومن ذلك أنَّهم كانوا يضربون على العروس البناءَ، كالقبَّة والخَيمة والخيام، على قدر الإمكان، فيقال بني عليها، اشتقاقاً من البناء، ولا يقال ذلك اليومَ. والعروس إمَّا أن تكون مقيمةً في مكانها أَوْ تتحوّل إلى مكان أقدَم من بنائها.

قال[4]: ومن ذلك قولهم في البَغيّ المكتسبة بالفُجور: قَحْبة، وإنَّما القُحَاب السعال. وكانوا إذا أرادوا الكناية عن من زنَتْ وتكسَّبت بالزنى، قالوا قحبت أي سعلت، كناية. وقال الشاعر: [من مجزوء الكامل]

* إنَّ السُّعَالَ هُوَ القُحَاب *

وقال: [من الرمل]

وإذا ما قحَبت واحدةٌ ... جاوبَ المبعِدُ منها فَخَضَفْ[5]

---

(١) أدب الكاتب ٦٧.

(٢) أدب الكاتب ٦٥–٦٦.

(٣) البيت بلا نسبة في أساس البلاغة (نفج).

(٤) انظر النص التالي في البرصان والعرجان ٧٤.

(٥) البرصان والعرجان ٧٤، خضف: ضرط.

وكذلك كان كنايتهم في انكشاف عورة الرجل، يقال[1]: كشف علينا متاعَه وعَورته وشواره. والشّوار: المتاع. وكذلك الفرج وإنَّما يعنون الأَير والحِرَ والاسْت.

٢٤٣ - [كلمات للنبي ﷺ، لم يتقدمه فيهن أحد]

وكلمات النبيِّ ﷺ، لم يتقدَّمْه فيهنَّ أحد[2]: من ذلك قوله: «إذاً لا ينتَطِح فيها عَنْزان»[3]. ومن ذلك قوله: «ماتَ حتْف أنفه»[4]. ومن ذلك قوله: «يا خيلَ اللّه اركَبي»[5] ومن ذلك قوله: «كلُّ الصَّيدِ في جَوفِ الفَرا»[6]، وقوله: «لا يُلسَعُ المؤمنُ من جُحْرٍ مرتين»[7].

٢٤٤ - [شنشنة أعرفها من أخزم]

وقال عُمر رضي اللّه تعالى عنه: «شِنْشِنَةٌ أعرِفها من أخزم»[8]، يعني شبه ابن العبَّاس بالعبَّاس. وأخزَم: فحل معروف بالكَرم.

٢٤٥ - [ما يكره من الكلام]

وأما الكلام الذي جاءَت به كرَاهيةٌ من طريق الروايات، فروي عن رسول اللّه

---

(١) البرصان والعرجان ٧٣، وأدب الكاتب ٦٣-٦٤.

(٢) رسائل الجاحظ ٢/٢٢٣، والبيان والتبيين ٢/١٥-١٦.

(٣) النهاية ٥/٧٤، والحديث من الأمثال في المستقصى ٢/٢٧٧، والفاخر ٣١٢، ومجمع الأمثال ٢/٢٢٥، وجمهرة الأمثال ٢/٤٠٣.

(٤) تمام الحديث في النهاية ١/٣٣٧ «من مات حتف أنفه في سبيل الله فهو شهيد»، والحديث من الأمثال في المستقصى ٢/٣٣٨، ومجمع الأمثال ٢/٢٦٦.

(٥) النهاية ٢/٩٤ «أراد: يافرسان خيل الله اركبي، وهذا من أحسن المجازات وألطفها» وهو من الأمثال في مجمع الأمثال ٢/١٨٢.

(٦) هذا مثلٌ يضرب لمن يفضل أقرانه، وهو في مجمع الأمثال ٢/١٣٦، وجمهرة الأمثال ١/١٦٥، ٢/١٣٦، ١٦٢، والمستقصى ٢/٢٢٤، وفصل المقال ١٠-١١، وأمثال ابن سلام ٣٥، والأغاني ٢/٣٤٤-٣٤٥ في أخبار أبي سفيان.

(٧) أخرجه البخاري في الأدب برقم ٥٧٨٢، ومسلم في الزهد والرقائق برقم ٢٩٩٨. وهو من الأمثال في مجمع الأمثال ٢/٢١٥، والمستقصى ٢/٢٧٦، وجمهرة الأمثال ٢/٣٨٦، وأمثال ابن سلام ٣٨، والفاخر ٣٠٣.

(٨) النهاية ٢/٥٠٤. الشنشنة: السجية والطبيعة، وأول من قاله أبو أخزم الطائي. وذلك أن أخزم كان عاقاً لأبيه، فمات وترك بنين عقّوا جدّهم وضربوه، وهذا القول من الأمثال في مجمع الأمثال ١/٣٦١، وفصل المقال ٢١٩، والمستقصى ٢/١٣٤، وأمثال ابن سلام ١٤٤، وجمهرة الأمثال =

ﷺ أنَّه قال: «لا يقولَنَّ أحدُكم خَبثت نَفسي ولكن ليقلْ لَقِسَت نفسي»(١)، كأنه كره ﷺ أن يضيف المؤمنُ الطاهرِ إلى نفسه الخُبث والفساد بوجهٍ من الوجوه.

وجاءَ عن عمر ومجاهد وغيرهما النهيُ عن قول القائل: استأثَر اللّهُ بفُلان، بل يقال مات فلان. ويقال استأثَرَ اللّه بعلم الغيب واستأثر اللّه بكذا وكذا.

قال النَّخَعيّ: كانوا يكرهون أن يقال: قراءة عبد اللّه، وقراءة سالم، وقراءَة أُبَيّ، وقراءَة زيد. وكانوا يكرهون أن يقولوا سنَّة أبي بكر وعمر، بل يقال سنَّة اللّه وسنَّة رسوله، ويقال فلان يقرأ بوجْه كذا، وفلان يقرأ بوجه كذا.

وكره مجاهد أن يقولوا مُسيجد ومُصيحف، للمسجد القليل الذَّرْع، والمصحف القليل الورق. ويقول: هم وإن لم يريدوا التصغير فإنَّه بذلك شبيه.

٢٤٦ - [تصغير الكلام]

وربَّما صغَّروا الشيءَ من طريق الشَّفَقة والرِّقَّة(٢)، كقول عمر: أخافُ على هذا العُريب. وليس التصغير بهم يريد. وقد يقول الرجل: إنَّما فلانٌ أخَيِّي وصُدَيِّقي؛ وليس التصغير له يريد. وذكر عمرُ ابنَ مسعود فقال: «كُنَيْفٌ مُلئ علماً»(٣). وقال الحُباب بن المنذر يوم السَّقيفة: «أنا جُذَيْلها المحكك، وعُذَيقُها المرجَّب»(٤). وهذا كقول النبيّ ﷺ لعائشة: «الحُميراء»(٥)، وكقولهم لأبي قابوسَ الملك: أبو قُبيس. وكقولهم: دبّت إليه دويْهِيَة الدهر، وذلك حين أرادوا لطافة المدخل ودقّة المسلك.

ويقال إنَّ كلَّ فُعيل في أسماء العرب فإنَّما هو على هذا المعنى، كقولهم

= ١/ ٥٤١، وهو من الرجز لأبي أخزم الطائي في اللسان (رمل، خزم، شنن)، والتاج (رمل، خزم)، ومجمل اللغة ٢/ ١٨٣، ولعقيل بن علفة في نوادر المخطوطات ٢/ ٣٥٨، وجمهرة اللغة ٥٩٦، وبلا نسبة في المخصص ٦/ ٩٤، والتاج (نشش)، وتهذيب اللغة ٧/ ٢١٨، ١١/ ٢٨١، والتعازي والمراثي ١٣١.

(١) أخرجه البخاري في الأدب برقم ٥٨٢٥، ٥٨٢٦، ومسلم في الألفاظ من الأدب برقم ٢٢٥٠، ٢٢٥١.

(٢) انظر الكتاب لسيبويه ٣/ ٤١٥-٤٩٦.

(٣) النهاية ٤/ ٢٠٥، الكنف: الوعاء.

(٤) النهاية ١/ ٢٥١، ٤١٨، ٢/ ١٩٧، ٣/ ١٩٩، ٤/ ٢٠٥، وهو من الأمثال في مجمع الأمثال ١/ ٣١، والمستقصى ١/ ٣٧٧، وأمثال ابن سلام ١٠٣، والدرة الفاخرة ٢/ ٣٦٨.

(٥) تمام الحديث في النهاية ١/ ٤٣٨ «خذوا شطر دينكم من الحميراء» يريد: البيضاء.

المُعَيْدِيّ، وكنحو: سُليم، وضُمَير، وكليب، وعُقير، وجُعيل، وحُميد، وسُعيد، وجُبير؛ وكنحو عُبيد، وعُبيد اللّه، وعُبيد الرماح. وطريق التحقير والتصغير إنَّما هو كقولهم: نُجيل ونُذيل. قالوا: ورُبَّ اسمٍ إذا صغَّرْتَه كان أملأ للصَّدْر، مثل قولك أبو عبيد اللّه، هو أكبر في السماع من أبي عبد اللّه، وكعب بن جُعَيل، هو أفخم من كعب بن جعل. وربَّما كان التصغير خِلقة وبنية، لا يتغيَّر، كنحو الحُمَيّا والسُّكَيْت، وجُنَيدة، والقطيعا، والمريطاء، والسُّميراء، والمليساء – وليس هو كقولهم القُصَيْرى، وفي كبيدات السماءِ والثرّيا.

وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي اللّه تعالى عنه: دقَقت البابَ على رسول اللّه ﷺ، فقال: من هذا؟ فقلت: أنا. فقال: أنا! كأنَّه كره قولي أنا[1].

وحدّثني أبو عليٍّ الأنصاري، وعبد الكَريم الغفاريّ قالا: حدَّثنا عيسى بن حاضر قال: كان عمرو بن عُبيد يجلس في دَاره، وكان لا يَدَع بابَه مفتوحا، فإذا قرعَه إنسان قامَ بنفسه حتَّى يفتحه له. فأتيتُ الباب يوماً فقرعتُه فقال: من هذا؟ فقلت: أنا. فقال: ما أعرف أحداً يسمَّى أنا. فلم أَقُلْ شيئاً وقمتُ خلفَ الباب، إذ جاءَ رجلٌ من أهل خراسان فقرَع الباب، فقال عمرو: مَن هذا؟ فقال: رجلٌ غريبٌ قدم عليك، يلتمس العلم. فقام له ففتح له الباب، فلمَّا وجدْتُ فرجةً أردت أن ألجَ الباب، فدفَع البابَ في وجهي بعُنف، فأقمتُ عنده أيَّاماً ثم قلت في نفسي: واللّه إنِّي يومَ أتغضَّب على عمرو بن عُبيد، لَغيرُ رشيدِ الرأي. فأتيتُ البابَ فقرعته عليه فقال: من هذا؟ فقلت: عيسى بن حاضر. فقام ففتح لي الباب.

وقال رجل عند الشَّعبيّ: أليس اللّه قال كذا وكذا! قال: وما عَلَّمَك؟ وقال الربيع بن خُثَيم: اتَّقُوا تكذيب اللّه، ليتَّق أحدكم أن يقولَ قال اللّه في كتابه كذا وكذا، فيقول اللّه كذبتَ لم أقلْه.

وقال عمر بن الخطَّاب رضي اللّه عنه: لا يقل أحدُكم أهرِيقُ الماء ولكن يقول أبول.

وسأل عمرُ رجلاً عن شيءٍ، فقال: اللّه أعلم. فقال عمر: قد خَزينا إن كُنَّا لا نعلم أنَّ اللّه أعلم؛ إذا سُئِلَ أحَدُكم عن شيءٍ فإن كان يعلمه قاله، وإن كان لا يعلمه قال: لا علم لي بذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان برقم ٥٨٩٦، ومسلم في الآداب برقم ٢١٥٥.

وسمعَ عمر رجلاً يدعو ويقول: اللهمَّ اجعلْني من الأقلِّين! قال: ما هذا الدعاءُ؟ قال: إنِّي سمعت اللَّه عزّ وجلّ يقول: ﴿وقليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورَ﴾[1] وقال: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[2]. قال عمر: عليك من الدعاءِ بما يُعرَف.

وكره عمر بن عبد العزيز قولَ الرجلِ لصاحبه: ضعْه تحت إبطك، وقال: هلاّ قلتَ تحت يدك وتحت مَنكبك! وقال مرَّة - وراثَ فرسٌ بحضْرة سليمان - فقال: ارفَعوا ذلك النَّثيل[3]. ولم يقلَ ذلك الرَّوث.

وقال الحجَّاج لأمّ عبد الرحمن بن الأشعَث: عَمَدْتِ إلى مَال اللّه فوَضَعْته تحْتَ. كأنَّه كره أن يقول على عادة الناس: تحت استك، فتلَجلج خوفاً من أن يقول قَذَعاً أو رَفَثاً، ثمّ قال: تحتَ ذيلك.

وقال النبيّ ﷺ: «لا يقولَنَّ أحدُكم لمملوكه عَبْدي وأمَتي، ولكنْ يقول: فتَايَ وفتاتي، ولا يقول المملوكُ ربِّي وربَّتي، ولكن يقول سيِّدي وسيِّدتي»[4].

وكره مُطرِّف بن عبد اللّه، قولَ القائل للكلب: اللّهُمَّ اخْزه.

وكره عِمران بن الحُصين، أن يقولَ الرَّجلُ لصاحبه: «أنعمَ اللّهُ بك عيناً»؛ و«لا أنعَمَ اللّهُ بك عيناً».

وقد كرهوا أشياءَ ممَّا جاءت في الروايات لا تُعرَف وجوهها، فرأيُ أصحابنا: لا يكرهونها. ولا نستطيع الردَّ عليهم، ولم نسمع لهم في ذلك أكثرَ من الكراهة. ولو كانوا يروون الأمورَ مع عللها وبرهاناتها خَفَّت المؤنة، ولكنّ أكثر الروايات مجرّدة، وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دونَ حكاية العلة، ودون الإخبار عن البرهان. وإن كانوا قد شاهدوا النوعين مشاهدةً واحدة.

قال ابن مسعود وأبو هريرة[5]: «لا تسمُّوا العِنبَ الكَرْم؛ فإنَّ الكَرمَ هو الرجلُ المسلم»[6].

---

(١) ١٣/سبأ: ٣٤.

(٢) ٤٠/ هود: ١١.

(٣) النهاية ٥/١٦.

(٤) أخرجه البخاري في العتق برقم ٢٤١٤، ومسلم في الألفاظ من الأدب برقم ٢٢٤٩.

(٥) النهاية ٤/١٦٧.

(٦) أخرج البخاري في الأدب برقم ٥٨٢٨: «لا تسمّوا العنب الكرم، ولا تقولوا: خيبة الدهر، فإن الله هو الدهر»، وأخرجه مسلم في الألفاظ من الأدب برقم ٢٢٤٧، وأخرج البخاري برقم ٥٨٢٩ «ويقولون الكرم، إنما الكرم قلب المؤمن».

وقد رفعوا ذلك إلى النبي ﷺ.

وأمَّا قوله: «لا تسبُّوا الدَّهرَ فإنَّ الدهر هو اللّه»(1) فما أحسن ما فسَّر ذلك عبد الرحمن بن مهديّ قال: وجهُ هذا عندنا، أنَّ القوم قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكنَا إلاَّ الدَّهْرُ﴾(2) فلما قال القوم ذلك، قال النبيّ ﷺ: «ذلك اللّه». يعني أنَّ الذي أهلك القرونَ هو اللّه عزّ وجلَّ، فتوهم منه المتوهِّم أنَّه إنَّما أوقع الكلام على الدهر.

وقال يونس: وكما غلطوا في قول النبي ﷺ لحسَّان: «قُلْ ومَعَك رُوح القُدُس»(3) فقالوا: قال النبي ﷺ لحسَّان: قُلْ ومَعَك جبريل(4)؛ لأنَّ روح القدس أيضاً من أسماءِ جبريل. ألا ترى أنّ موسى قال: «ليتَ أنّ رُوحَ اللّه مع كلّ أحد»، وهو يريد العصمة والتوفيق. والنصارى تقول للمتنبّي: معه روح دكالا، ومعه روح سيفرت. وتقول اليهود: معه روح بَعلزَبول، يريدون شيطاناً. فإذا كان نبياً قالوا: روحه روح القدس، وروحه روح اللّه، وقال اللّه عزَّ وجلّ: ﴿وكَذلِكَ أَوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾(5)، يعني القرآن.

وسمع الحسن رجلاً يقول: طلع سُهيل وبَرُد الليل. فكره ذلك وقال: إنّ سهيلاً لم يأتِ بحرٍّ ولا ببردٍ قطُّ. ولهذا الكلام مجازٌ ومذهب، وقد كره الحسنُ كما ترى.

وكره مالك بن أنس أن يقولَ الرجُلُ للغيم والسحابة: ما أخلقها للمطر! وهذا كلام مجازه قائم، وقد كرهه ابن أنس. كأنّهم من خوفهم عليهم العودَ في شيءٍ من أمر الجاهليّة، احتاطوا في أمورهم، فمنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلّق.

ورووا أنّ ابنَ عبَّاسٍ قال: لا تقولوا والذي خَاتَمه على فمي، فإنَّما يختِم اللّه عزّ وجلّ على فم الكافر. وكره قولهم: قوس قُزَح. وقال: قزح شيطان(6)، وإنَّما ذهبوا إلى

---

(1) أخرج البخاري في الأدب برقم ٥٨٢٧، وفي التوحيد برقم ٧٠٥٣ «قال اللّه تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر». وانظر الحاشية السابقة.

(2) ٢٤/ الجاثية: ٤٥.

(3) أخرج البخاري في المساجد برقم ٤٤٢، وفي بدء الخلق برقم ٣٠٤٠، وفي الأدب ٥٨٠٠، ومسلم في فضائل الصحابة برقم ٢٤٨٥ «اللهم أيده بروح القدس». وانظر الأغاني ٤/١٣٧، ١٤٣، ١٤٨.

(4) أخرج البخاري في بدء الخلق برقم ٣٠٤١، وفي الأدب برقم ٥٨٠١، ومسلم في فضائل الصحابة برقم ٢٤٨٦ «اهجهم - أو هاجهم - وجبريل معك».

(5) ٥٢/ الشورى: ٤٢.

(6) النهاية ٤/٥٧، وثمار القلوب (٧٨).

التعريج والتلوين، كأنّه كره ما كانوا عليه من عادات الجاهلية. وكان أحَبَّ أن يقال قوس اللّه، فيرفع من قدره، كما يقال بيت اللّه، وزُوَّار اللّه، وأرض اللّه، وسماء اللّه، وأسد اللّه[1].

وقالت عائشة رضي اللّه عنها: «قولوا لرسول اللّه ﷺ خاتَم النبيين، ولا تقولوا: لا نَبيَّ بعده» فإلاّ تكنْ ذهبتْ إلى نزول المسيح فما أعرف له وجهاً إلاّ أن تكُون قالت لا تغيِّروا ما سمعتم، وقولوا كما قيل لكم، والفِظوا بمثله سواء.

وكره ابن عمر رضي اللّه عنهما قول القائل: أسلمت في كذا وكذا، وقال: ليس الإسلام إلاّ للّه عزّ وجلَّ. وهذا الكلام مجازُه عند الناس سهل، وقد كرهه ابنُ عمر، وهو أعلم بذلك.

وكره ابنُ عبَّاسٍ رضي اللّه عنهما قولَ القائل: أنا كسلان.

وقال عمر: لا تسمُّوا الطريق السِّكَّةَ.

وكره أبو العالية قول القائل: كنت في جِنازة، وقال: قل تبِعت جنازة. كأنّهُ ذهب إلى أنّه عنى أنه كان في جوفها، وقال قل تبِعت جنازة. والناس لا يريدون هذا، ومجاز هذا الكلام قائم، وقد كرهه أبو العالية، وهي عندي شبيهةٌ بقول من كره أن يقول: أعطاني فلان نصف درهم. وقال: إذا قلت: كيف تكيل الدقيق؟ فليس جوابه أن تقول: القَفِيز بدُنَينير، ولكن يتناول القفيز ثم يكيل به الدقيق، ويقول: هكذا الكيلة وهذا من القول مسخوط!

وكره ابن عبَّاس قول القائل: الناس قد انصرفوا، يريد من الصلاة، قال بل قولوا: قد قَضَوُا الصلاة، وقد فرَغوا من الصلاة، وقد صلَّوْا؛ لقوله: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2]، قال: وكلام الناس: كان ذلك حين انصرفنا من الجنازة، وقد انصرفوا من السُّوق، وانصرف الخليفة، وصرف الخليفةُ الناسَ من الدار اليومَ بخير، وكنت في أوَّل المنصرفين. وقد كرهه ابن عبّاس. ولو أخبرونا بعلّته انتفعنا بذلك.

وكره حَبيب بن أبي ثابت، أن يقال للحائض طامث، وكره مجاهد قول القائل: دخل رمضان، وذهب رمضان، وقال: قولوا شهر رمضانَ، فلعلّ رمضان اسم من أسماء اللّه تعالى.

---

(١) انظر ثمار القلوب (٥٧–٩٦) «الباب الاول فيما يضاف إلى اسم الله تعالى عز ذكره».
(٢) ١٢٧/ التوبة: ٩.

قال أبو إسحاق: إنما أتى من قِبل قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾(١) فقد قال الناس يوم التَّروية، ويوم عَرَفة ولم يقولوا عرفة.

٢٤٧ - [رأي النظَّام في بعض المفسرين]

كان أبو إسحاق يقول: لا تسترسلوا إلى كثير من المفسِّرين، وإن نصَبوا أنفسَهم للعامَّة، وأجابوا في كلِّ مسألة؛ فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس، وكلَّما كان المفسِّر أغربَ عندَهم كان أحبَّ إليهم، وليكن عندكم عِكْرِمةُ، والكلبيُّ، والسُّدِّي، والضَّحاك، ومقاتل بن سليمان، وأبو بكر الأصمّ، في سبيل واحدة. فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم، وقد قالوا في قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾(٢): إنَّ اللَّه عزّ وجلَّ لم يعن بهذا الكلام مساجدَنا التي نصلّي فيها، بل إنَّما عنَى الجباهَ وكل ما سجد الناس عليه: من يدٍ ورجلٍ، وَجَبْهَةٍ وأنفٍ وثَفِنَة.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾(٣): إنَّه ليس يَعني الجمال والنُّوقَ، وإنَّما يَعني السحاب(٤).

وإذَا سُئلوا عن قوله: ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾(٥) قالُوا: الطلح هو الموز.

وجعلوا الدليلَ على أنَّ شهر رمضانَ قد كان فرضاً على جميع الأمم وأنّ الناس غيَّروه، قولَهُ تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾(٦).

وقالوا في قوله تعالى: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾(٧) قالوا: يعني أنّه حَشَرَهُ بِلاَ حجَّة.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾(٨): الويل وادٍ في جهنم. ثم قَعَدُوا

---

(١) ١٨٥/ البقرة: ٢.
(٢) ١٨/ الجن: ٧٢.
(٣) ١٧/ الغاشية: ٨٨.
(٤) عمدة الحفاظ (إبل).
(٥) ٢٩/ الواقعة: ٥٦.
(٦) ١٨٣/ البقرة: ٢.
(٧) ١٢٥/ طه: ٢٠.
(٨) ١/ المطففين: ٨٣.

يصفون ذلك الوادي. ومعنى الويل في كلام العرب معروف، وكيف كان في الجاهليّة قبل الإسلام، وهو من أشهر كلامهم!

وسئلوا عن قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾[1] قالوا: الفَلَق: وادٍ في جهنم، ثمَّ قعدوا يصفونه. وقال آخرون: الفلق: المقْطَرة بلغة اليمن.

وقال آخرون في قوله تعالى: ﴿عَيْناً فيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾[2] قالوا: أخطأ من وصَلَ بعض هذه الكلمة ببعض. قالوا: وإنَّما هي: سَلْ سبيلاً إليها يا محمد. فإن كان كما قالوا فأين معنى تسمَّى، وعلى أيّ شيءٍ وقع قوله تسمَّى فتسمَّى ماذا، وما ذلك الشيء؟

وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾[3] قالوا الجلود كناية عن الفروج. كأنه كان لا يَرَى أنّ كلام الجِلد من أعجب العجب!

وقالوا في قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعامَ﴾[4]: إنّ هذا إنَّما كان كنايةً عن الغائط. كأنه لا يرى أنّ في الجوع وما ينال أهلَه من الذِّلّة والعجزِ والفاقة، وأنّه ليس في الحاجة إلى الغذاء - ما يُكتفَى به في الدّلالة على أنهما مخلوقان، حتّى يدَّعيَ على الكلام ويدّعي له شيئاً قد أغناه اللّه تعالى عنه.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[5]: إنّه إنما عنَى قلبه.

ومن أعجب التأويل قول اللّحياني: (الجبّار) من الرجال يكون على وجوه: يكون جبّاراً في الضّخَم والقوَّة، فتأوّل قوله تعالى: ﴿إنّ فيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾[6] قال: ويكون جبَّاراً على معنى قتّالاً، وتاوّل في ذلك: ﴿وَإذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[7]، وقولَه لموسى ﷺ: ﴿إنْ تُرِيدُ إلاّ أنْ تَكُونَ جَبَّاراً في الأَرْضِ﴾[8] أي قتَّالاً بغيرحقّ. والجبارُ: المتكبِّر عن عبادة اللّه تعالى، وتأوّل قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً

---

(١) ١/ الفلق: ١١٣.
(٢) ١٨/ الإنسان: ٧٦.
(٣) ٢١/ فصلت: ٤١.
(٤) ٧٥/ المائدة: ٥.
(٥) ٤/ المدثر: ٧٤.
(٦) ٢٢/ المائدة: ٥.
(٧) ١٣٠/ الشعراء: ٢٦.
(٨) ١٩/ القصص: ٢٨.

عَصياً﴾[١]، وتأوّلَ في ذلكَ قول عيسى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾[٢] أي لم يجعلْني متكبّراً عن عبادته، قال: الجبّار: المسلّط القاهر، وقال: وهو قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾[٣] أي مسلّط فتقهرهم على الإسلام. والجبَّار: اللّه.

وتأوَّل أيضاً (الخوف) على وجوه، ولو وجدَه في ألف مكان لقال: والخوفُ على ألف وجه، وكذلك الجبّار. وهذا كلّه يرجع إلى معنى واحد؛ إلاّ أنّه لا يجوز أن يوصَف به إلاّ اللّه عزّ وجلّ.

٢٤٨ - [تكلف بعض القضاة في أحكامهم]

وقال رجل لعُبيد اللّه بن الحسن القاضي: إنّ أبي أوصى بثُلث ماله في الحصون. قال: اذهبْ فاشترِ به خيلاً، فقال الرجل: إنّه إنّما ذكَر الحصون! قالَ: أما سمعتَ قول الأسْعَر الجُعْفيّ: [من الكامل]

ولقد علمت على تجنُّبيَ الرَّدى   انّ الحصونَ الخيلُ لا مَدَرُ القُرَى[٤]

فينبغي في مثل هذا القياس على هذا التأويل، أنّه ما قيل للمدن والحصون حصون إلاّ على التشبيه بالخيل.

وخبَّرني النُّوشِروانيّ قال: قلت للحسن القاضي: أوصى جدّي بثلث ماله لأولاده، وأنا من أولاده. قال: ليس لك شيء. قلت: ولم؟ قال: أو ما سمعت قول الشاعر: [من الطويل]

بنُونا بنو أبنائِنا وبناتُنا   بنُوهُنَّ أبناءُ الرِّجالِ الأباعِدِ[٥]

قال: فشكوت ذلك إلى فلان فزادني شرّاً.

وقالوا في قوله[٦]: مَا سَاءَكَ ونَاءَك: ناءك، أبعدك. قالوا: وساءك أبرصك. قال: لقوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾[٧]. وبئس التكلُّف.

---

(١) ١٤/ مريم: ١٩.
(٢) ٣٢/ مريم: ١٩.
(٣) ٤٥/ ق: ٥٠.
(٤) البيت في الأصمعيات ١٤١، والوحشيات ٤٣، واللسان والتاج وأساس البلاغة (حصن)، وتهذيب اللغة ٤/٢٤٧.
(٥) البيت للفرزدق في ديوانه ٢١٧ (الصاوي)، والخزانة ١/٤٤٤، وبلا نسبة في الإنصاف ١/٦٦، وشرح المفصل ١/٩٩، ٩/١٣٢، ومغني اللبيب ٢/٤٥٢، والدرر ٢/٢٤، وهمع الهوامع ١/١٠٢.
(٦) ورد القول في أساس البلاغة (سوء).
(٧) ١٢/ النمل: ٢٧، ٣٢/ القصص: ٢٨.

وقال ابن قميئة: [من الطويل]

وحمَّال أثقال إذا هي أعْرَضت   على الأصل لا يَسطِيعُها المتكلِّفُ[1]

وقال اللّه وهو يخبر عن نبيِّه ﷺ: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[2].

وليس يُؤْتَى القوم إلاَّ من الطمع، ومن شدَّةِ إعجابهم بالغريب من التأويل.

٢٤٩ - [رأي في فقه أبي حنيفة]

وسئل حَفص بن غِياث، عن فقه أبي حنيفة، فقال: أعلم الناس بما لم يكنْ، وأجهلُ الناس بما كان[3]!

وقالوا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[4] قالوا: النعيم: الماءُ الحارُّ في الشتاء، والبارد في الصيف.

٢٥٠ - [الصَّرورة]

ومن الأسماء المحدَثة التي قامت مقامَ الأسماء الجاهليَّة، قولهم في الإسلام لمنْ لم يحجّ: صَرورة.

وأنتَ إذا قرأتَ أشعارَ الجاهليَّة وجدتَهم قد وضعوا هذا الاسمَ على خلافِ هذا الموضع. قال ابن مَقروم الضَّبّيّ: [من الكامل]

لو أنَّها عَرَضَتْ لأَشْمَطَ راهبٍ   عَبدَ الإله صَرُورةٍ مُتَبَتِّلِ[5]

لدنا لبَهْجَتِها وحُسْنِ حَديثِها   ولَهَمَّ من تامُورِه بتنَزُّلِ

والصرورة عندهم إذا كانَ أرفعَ الناسِ في مراتب العبادة، وهو اليومَ اسمٌ للذي لم يَحجَّ إمّا لعجزٍ، وإمَّا لتضييعٍ، وإمَّا لإنكار. فهما مختلفان كما ترى.

٢٥١ - [ألفاظ القرآن الكريم]

فإذا كانت العرب يشتقُّون كلاماً من كلامهم وأسماءً من أسمائهم، واللغة

---

(٢) ديوان عمرو بن قميئة ٨٠، والبيان والتبيين ٢ / ١٨.

(٣) ٨٦/ ص: ٣٨.

(٤) ورد الخبر في البيان والتبيين ٢ / ٢٥٣، والبرصان والعرجان ٣-٤.

(٥) ٨/ التكاثر:١٠٢.

(٦) ديوان ربيعة بن مقروم ٢٦٧، والأغاني ٢٢ / ١٠٢، والأول في اللسان (بتل)، وتهذيب اللغة ١٤ / ٢٩١، وبلا نسبة في العين ٨ / ١٢٤، والثاني في اللسان (تمر).

عاريّة في أيديهم ممّن خلقَهم ومكّنهم وألهمهم وعلّمهم، وكان ذلك منهم صواباً عند جميع الناس؛ فالذي أعارهمْ هذه النّعمةَ أحقّ بالاشتقاق وأوجبُ طاعةً. وكما أنّ له أن يبتدئَ الأسماءَ؛ فكذلك له أن يبتدئها ممَّا أحَبَّ.. قد سمَّى كتابَه المنزلَ قرآناً، وهذا الاسم لم يكنْ حتى كان، وجعل السجودَ للشمس كفراً، فلا يجوز أن يكون السجود لها كفراً إلاّ وترك ذلك السجود بعينه يكون إيماناً، والترك للشيء لا يكون إلاّ بالجارحة التي كان بها الشيء، وفي مقداره من الزمان، وتكون بدلاً منه وعَقِباً. فواحدةٌ أن يسمَّى السجود كفراً، وإذا كان كفراً كان جحوداً وإذا كان جحوداً كانَ شركاً، والسجود ليس بجَحْد، والجحد ليس بإشراك إلاّ أن تصرفه إلى الوجه الذي يصير به إشراكاً.

٢٥٢ - [ما اشتق من نباح الكلابِ]

وقال طُفيل الغَنَوِيّ: [من الطويل]

عَوَازِبُ لَمْ تَسْمَعْ نُبُوحَ مقامةٍ ... ولم ترَ نَاراً تِمَّ حَولٍ مجرَّمِ(١)

وإنَّما أُخذ ذلك للجميع من نباح الكلاب.

وذكروا أن الظَّبيَ إذا أسنَّ ونبتَتْ لقرونه شُعَبٌ نَبَح، وهو قول أبي دُؤاد: [من الهزج]

وقُصرَى شَنِج الأَنْسَا ... ءِ نبَّاح من الشعب(٢)

يعني من جهة الشعب؛ وأنشد بعضهم: [من الطويل]

وينبَحُ بينَ الشعب نبحاً كأنّه ... نُبَاحُ سَلُوقٍ أبصَرَتْ مَا يُرِيبها(٣)

وبَيَّضها الهُزْل المسَوَّدُ غَيْرَها ... كما ابيضَّ عَن حَمْضِ المراحم نِيبُها

لأن الظَّبيَ إذا هزل ابيضّ، والبعير يَشِيب وجهَه من أكل الحَمْض. وكذلك قال ابن لَجَأ: [من الرجز]

* شابَتْ ولمَّا تَدْنُ من ذَكَائها(٤) *

---

(١) ديوان طفيل الغنوي ٧٧، وأمالي القالي ٢/٨٣، وأساس البلاغة (تمم، نبح).

(٢) البيت لأبي دؤاد في ديوانه ٢٨٨، واللسان (شعب، شنج، نبح، قصر)، والمعاني الكبير ١٤٢، ولعقبة بن سابق في الأصمعيات ٤١، وبلا نسبة في همع الهوامع ٢/١٢٠، والمقرب ١/٢٢٨. قصرى: أسفل الأضلاع. شنج: متقبِّض. الشعب: الظباء التي طالت قرونها وتشعبت.

(٣) البيتان بلا نسبة في المعاني الكبير ٦٩٥، والأول في اللسان (نبح، عجل)، وتهذيب اللغة ٥/١١٨.

(٤) ديوان عمر بن لجأ ١٥٢، والبرصان والعرجان ٤٣، والمعاني الكبير ٦٩٥، ٧٩٠.

كما قال الآخر: [من الرجز]

أكلْن حمضاً فالوُجُوه شِيبُ شَرِبن حتى نزح القَلِيبُ[1]

وقد تصير النَّاقة الحمراء إذا أتمَّت حبشيّة. ولذلك قال الشاعر: [من الكامل]

* حمراء لا حَبَشيّة الإتمام *

وما أشبه ذلك بقول العَبديّ: [من الطويل]

وداويتُها حتَّي شتَتْ حَبَشِيَّةً كأنَّ عليها سُنْدُساً وسَدُوسا[2]

والدَّواء: اللبن، فلذلك تصير الفرس إذا ألقت شعرها وطرّت، تستديل هذا اللون.

وقال خالد بن الصقْعب النَّهديّ: [من الوافر]

هَبطْنَا بعدَ عهدك بَطْن خَبْتٍ تَظَلُّ حمامُه مثلَ الخُصُومِ[3]

كأنَّ عرينَ أيكَته تلاَقَى به جَمْعَان من نَبطٍ ورُومِ

نُباحُ الهدْهدِ الحَوْلِيِّ فيه كَنَبْح الكَلْبِ في الأَنَس المقيم

ويقال إنَّ الهدهد ينبَحُ. وربَّما جعلوا الهُدْهُدَ، الذي ينبح، الحمامَ الذكر. قال الشاعر – وهو يصف الحمام الذُّكَرَ كيف يصنع فيها: [من الكامل]

وإذا استترن أرَنَّ فيها هُدهُدٌ مثْلُ المَدَاكِ خَضَبْتَهُ بِجِسادِ[4]

وقال طُفيل في النُّبوح والمجاعات: [من الطويل]

وأشْعَث تَزْهَاه النُّبوح مُدَفَّعٍ عن الزَّادِ ممَّا جَلّف الدهرُ مُحْثَلِ[5]

---

(١) البيت الأول بلا نسبة في اللسان، والتاج (علج، هرم)، والمقاييس ٤ /١٢٢، وجمهرة اللغة ٨٠٤.

(٢) البيت ليزيد بن الخذّاق في المفضليات ٥٩٧، وشرح اختيارات المفضل ١٢٨٢، واللسان والتاج (سدس)، وبلا نسبة في المخصص ٤ /٧٨، ٦ /١٨٧، وتهذيب اللغة ١٤ /٢٢٧، واللسان (دوا)، وأساس البلاغة (دوي)، وجمهرة اللغة ٢٣٣.

(٣) الأبيات لخالد بن الصقعب في الحماسة الشجرية ٢٨٩، والبيتان الثاني والثالث في أساس البلاغة (نبط).

(٤) المداك: حجر يسحق عليه الطيب. الجساد: الزعفران.

(٥) ديوان طفيل الغنوي ٧٠، والتاج (دفع)، والعين ٢ /٤٦، ٣ /٢٠٦، ٢٥٢، وبلا نسبة في اللسان (حثل)، والمخصص ٢ /١٣٦.

وقال الجعديّ: [من المتقارب]

فلما دَنونا لصَوتِ النُّباح ... وَلا نُبْصِرُ الحيّ إلاّ التماسَا[1]

وقال ابن عبدل: [من الكامل]

آليتُ إذ آليتُ مجتهداً ... ورفعتُ صَوتاً ما به بَحَحُ

لا يُدْرِكُ الشعراءُ منزلَتي ... في الشعر إنْ سكَتوا وإنْ نَبحُوا

وقال عمرو بن كلثوم: [من الوافر]

وَقَدْ هرَّتْ كلابُ الحَيِّ مِنَّا ... وشَذَّ بنا قَتَادَةَ مَنْ يَلينا[2]

وقال بعض العلماء: كلاب الحيّ شعراؤهم، وهم الذين ينبحون دونَهم، ويحمون أعراضَهم. وقال آخرون: إن كلابَ الحَيِّ كلُّ عقورٍ، وكلُّ ذي عُيون أربع.

وأما قوله: [من الوافر]

لَعَمْرُكَ ما خَشيتُ على أُبَيٍّ ... رِماحَ بني مقيِّدة الحمارِ[3]

ولكنّي خَشِيتُ على أُبَيٍّ ... رِمَاحَ الجنّ أو إيَّاكَ حارِ

فالطُّواعين هي عند العرب رماح الجن. وفي الحديث: «إنَّ الطاعونَ وخْز مِن الشيطان»[4].

وقال أبو سلمى: [من الرجز]

لا بدَّ للسُّودَد من أرماحِ ... ومن سفيهٍ دائمِ النُّباحِ

ومن عَديدٍ يُتَّقَى بالرَّاحِ[5]

وقال الأعشى: [من الرمل]

مِثْل أيَّامٍ لَنَا نعرِفُهَا ... هَرَّ كلبُ النَّاسِ فيها ونَبَحْ[6]

---

(١) ديوان النابغة الجعدي ٨٠، والاقتضاب ٤٠٧، والاغاني ٥/٦.

(٢) البيت لعمرو بن كلثوم في شرح القصائد السبع ٣٩٠، وشرح القصائد العشر ٣٣٣، وجمهرة أشعار العرب ١/٣٩٥، والتاج (هقق).

(٣) البيتان لفاختة بنت عدي في الأغاني ١١/٢٠٠، والحماسة البصرية ١/٢٧٠، وشرح أبيات سيبويه ٢/١٩٨، وبلا نسبة في مجالس ثعلب ٥٧٤، والكتاب ٢/٣٥٧، وأساس البلاغة (رمح)، واللسان (رمح، قيد، حمر)، والتاج (رمح، قيد)، ومجالس ثعلب ٥٣ (١٤٣). بنو مقيدة الحمار: العقارب.

(٤) الحديث لعمرو بن العاص في النهاية ٥/١٦٣.

(٥) الرجز بلا نسبة في البيان والتبيين ٣/٣٣٥، وأساس البلاغة (هرر).

(٦) ديوان الأعشى ٢٩١، ٢٩٣.

رُزُنُ الأحْلامِ في مجلسِهِمْ   كلّما كَلْبٌ من الناسِ نَبَحْ

وقال: [من الطويل]

سيَنبَحُ كلبي جاهداً مِن ورائكم   وأَغنى غَنَائي عنكُم أن أُؤنَّبا[1]

وقال أبو ذؤيب: [من الطويل]

ولا هَرَّها كَلبِي ليبعد تعْرها   ولو نَبَحَتْني بالشَّكاةِ كلابُها[2]

كلابها: شعراؤها، وهو قول بشر بن أبي خازم: [من الوافر]

وإِنّي والشَّكاةَ لآلِ لأمٍ   كذاتِ الضِّغْنِ تَمشي في الرِّفاقِ[3]

وقال أبو زُبَيْد: [من الطويل]

ألم تَرَني سكَّنْتُ لأياً كلابَهُمْ   وكفكفت عنكم أكلُبِي وَهي عُقّرُ[4]

٢٥٣ - [هجاء ضروب من الحيوان]

قال صاحب الكلب: قد علمنا أنّكم تتبَّعتم على الكلب كلَّ شيءٍ هُجِي به، وجعلتم ذلك دليلاً على سقوط قدْره وعلى لؤم طبعه؛ وقد رأينا الشعراءَ قد هَجَوا الأصناف كلّها، فلَمْ يُفلت منهم إنسان ولا سبع، ولا بهيمةٌ ولا طائر ولا هَمَج ولا حشَرة، ولا رفيع من الناس ولا وضيع، إلاّ أن يَسلم بعضُ ذلك عليهم بالخمول، فكفاك بالخمول دِقَّةً ولُؤماً وقِلَّة ونَذالة. وقال أميَّة بن أبي عائذ لإياس بن سهم: [من الطويل]

فأبْلِغْ إياساً أَنَّ عِرضَ ابنِ أُختِكمْ   رِداؤُك فاصطَنْ حسنه أو تبذَّلِ[5]

فإن تكُ ذا طَوْلٍ فإني ابنُ أُختكم   وكلُّ ابنِ أختٍ من نَدَى الخالِ مغتلِي

فكنْ أسداً أو ثعلباً أو شبيهَه   فمهما تكنْ أُنسَبْ إليك وأُشكل

---

(١) ديوان الأعشى ١٦٧.

(٢) ديوان الهذليين ١/ ٨١.

(٣) ديوان بشر بن أبي خازم ١٦٣، واللسان والتاج (رفق، ضغن)، وتهذيب اللغة ٩/ ١١٣، والمعاني الكبير ٥٩٠، وبلا نسبة في المقاييس ٢/ ٤١٨، ومجمل اللغة ٢/ ٤٠١، وكتاب الجيم ٢/ ١٤، ٤١.

(٤) ديوان أبي زبيد ٦١٤، واللسان والتاج (كفف)، وبلا نسبة في أساس البلاغة (كلب).

(٥) شرح أشعار الهذليين ٥٣٠، وعيون الأخبار ٣/ ٨٩-٩٠. اصطن: صن واحفظ. تبذل: امتهن.

فما ثعلبٌ إلأ ابن أختِ ثُعالةٍ   وإنَّ ابنَ أختِ اللَّيثِ رِيبالُ أشبُلِ
ولن تجد الآسادَ أخوالَ ثعلَبٍ   إذا كانت الهيجا تَلوذُ بمدخلِ

فهذا من الثعلب. وقال مزرّد بن ضرار: [من الطويل]

وإنّ كناز اللَّحمِ من بَكَرَاتِكمْ   تهرُّ عليها أمُّكُمْ وتكالب(١)
وليتَ الذي ألقى فناؤُك رحله   لتَقريَه بالتْ عليه الثعالبُ

فقد وضع الثعلب كما ترى بهذا الموضع الذي كفاك به نذالة. قال ابن هرمة: [من الوافر]

فما عادت بذي يَمَن رُؤوساً   ولا ضَرَّت لفرقتها نزارا(٢)
كعنزِ السَّوءِ تنطَحُ من خلاها   وتَرأَمُ من يُحِدُّ لها الشِّفَارا

وهذا قول الشاعر في العنز. وقال ابن أحمر: [من البسيط]

إنا وجدْنا بني سهْمٍ وجامِلَهم   كالعنْزِ تَعْطِف رَوقيها فترتَضِعُ(٣)

وقال الفرزدق: [من الطويل]

على حينَ لم أتركْ على الأرضِ حَيّة   ولا نابحاً إلا استقرَّ عَقُورها
وكان نُفَيع إذ هجاني لأهْلِه   كباحثة عن مُدْية تستثيرُها(٤)

فهذا قولهم في العنز. ولا نعلم في الأرض أقلَّ شراً ولا أكثر خيراً من شاة.

وقال الخُرَيميُّ: [من البسيط]

يا لَلرجال لقومٍ قد مَللتُهم   أرى جوارَهمُ إحدى البليَّات(٥)
ذئبٌ رضيع وخِنزير تُعارِضُها   عَقاربٌ وُجنَتٌ وَجْناً بحَيَّات
ما ظنُّكم بأناس خَيْرُ كسبهمُ   مُصَرَّح السُّحتِ سمُّوه الأَمَانات

---

(١) تقدم البيتان في الفقرة ٢٣٦.
(٢) ديوان ابن هرمة ١١٨.
(٣) ديوان عمرو بن أحمر ١٢٠، واللسان والتاج (رضع)، والمعاني الكبير ٦٨٩، وعيون الأخبار ٢/٧٥، والعقد الفريد ٦/٢٣٦، ٤/٢٥٧، وبلا نسبة في أساس البلاغة (رضع)، وديوان الأدب ٢/٤١٠.
(٤) في هذا البيت إشارة إلى المثل: «لا تكن كالعنز تبحث عن المدية»، والمثل في أمثال ابن سلام ٣٣٠، وفصل المقال ٤٥٥، وثمة مثل «كالباحث عن المدية» في مجمع الأمثال ٢/١٥٧، وأمثال ابن سلام ٢٥٠، وفصل المقال ٣٦٢.
(٥) ديوان الخريمي ٢٠.

فهذا قولهم في العقارب والحيَّاتِ والضِّباع والخنازير.

وقال حماد عَجْرد في بَشَّار: [من الكامل]

قد كان في حُبِّي غزالةَ شاغِلٌ   للقرد عن شَتْمي وفي ثوْبَانِ
أو في سميعةَ أُختِها وشِرادِها   لمجونها مع سِفْلة المُجّانِ
أو بيت ضيق عرسه وركوبها   شرّ البغاءِ بأوكَسِ الأثمانِ

هذا قول حماد في القرد. وقال حمّاد في بشّار بن بُرد أيضاً: [من الطويل]

ولكنْ مَعاذَ اللّهِ لستُ بقاذفٍ   بَريئاً لسوَّاق لِقَومٍ نوائحِ
وما قلتُ في الأعمى لِجَهلٍ وأمّه   ولكِنْ بأمرٍ بيِّنٍ ليَ واضحِ
سأُعرِضُ صحفاً عن حُصينٍ لأمّه   ولست عن القِرد ابن بَرْدٍ بصافِحِ

وقال الآخر: [من الطويل]

لما أتيت ابنَي يزيدَ بن خَثْعَمٍ   أرى القردَ والخنْزيرَ مُحتَبيانِ
أمَامَ بيوتِ القومِ من آل خَثْعَم   وراءَ قَبيحاتِ الوجوه بطانِ

وقال العتَّابي: [من الرجز]

اسْجدْ لقِرْدِ السَّوءِ في زَمَانِه   وإن تَلقَّاكَ بِخَنْزَوانِه
لا سيَّما ما دام في سلطانه[1]

وقال أبو الشمقمق: [من الرجز]

إن رِياحَ اللُّؤمِ من شحِّه   لا يَطمَع الخنزير في سَلْحه[2]
كفّاه قُفل ضلّ مِفتاحهُ   قد يَئِس الحدَّاد مِن فَتْحِهِ

وقال خلف بن خليفة: [من المتقارب]

فسبحانَ من رِزقُه واسع   يَعُمُّ به القِرْدَ والقِرْدَهْ

وهذا كثير. ولعمري لو جُمِع كلُّه لكان مثلَ هجاء الناس للكلب، وكذلك لوجمع جميعُ ما مُدِح به الأسدُ فما دُونه، والأمثالُ السائرةُ التي وقعت في حَمد هذه الأشياء، لَمَا كانتْ كلُّها في مقدارِ مديح الكلب. فهذه حُجَّتُنَا في مَرتبةِ الكلب على جميع السباع والبهائم.

---

(١) الرجز بلا نسبة في اللسان والتاج (قرا) برواية مختلفة. الخنزوان: القرد، وذكر الخنازير.
(٢) ديوان أبي الشمقمق: ١٥٤.

ولما قال معبدٌ في قتل الكلب، وتلا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾[1]، قال أبو إسحاق: وإن كنتَ إنَّما جعلتَ الكلب شرّ الخلق بهذه العلَّة، فقد قال على نسق هذا الكلام: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[2]، فالذي قال في الإبل والبقَر والغنَم أعظم، فَأَسْقِطْ من أقدارها بقدر معنى الكلام. وأدنى ذلك أن تُشرِكَ بين الجميع في الذمّ فإنَّك متى أنصفتَ في هذا الوجه، دعاك ذلك إلى أن تُنْصِفَها في تتبُّع ما لها من الأشعار والأمثال والأخبار والآيات، كما تتبَّعت ما عليها.

٢٥٤ - [الشرف والخمول في القبائل]

وقال صاحب الكلب: سنضرب مثلاً بيننا يكون عَدلاً: إذا استوى القبيلان في تقادم الميلاد ثم كان أحد الأبوين كثير الذرء[3] والفُرسان والحكماء والأجواد والشعراء، وكثيرَ السادات في العشائر، وكثيرَ الرؤساء في الأرحَاء[4] وكان الآخر قليل الذَّرء والعدد، ولم يكن فيهم خير كثيرٌ ولا شر كثير، خملوا أو دخلوا في غمار العرب، وغَرِقُوا في معظم الناس، وكانوا من المغمورين ومن المنسيِّينَ، فسَلموا من ضروب الهجاء ومن أكثرِ ذلك، وسلموا من أنْ يُضرَبَ بهم المثل في قلَّة ونذالة إذا لم يكن شرٌّ، وكان محلُّهم من القلوب محلّ من لا يَغْبِط الشعراءُ، ولا يحسدهم الأكفاءُ؛ وكانوا كما قال حُميد بن ثور: [من الطويل]

وقُولا إذا جَاوزتما أرْضَ عامرٍ ... وجاوزتُما الحيَّينِ نَهْداً وَخَثْعَمَا[5]
نَزيعانِ من جَرْمِ بن رَبَّانِ إنَّهم ... أَبَوْا أن يُرِيقوا في الهَزاهِز مِحْجما

وإذا تقادم الميلاد ولم يكن الذَّرْءُ وكان فيهم خيرٌ كثيرٌ وشرٌّ كثيرٌ، ومثالب

(١) ١٧٥-١٧٦/ الأعراف: ٧.
(٢) ١٧٩/ الأعراف: ٧.
(٣) الذرء: النسل.
(٤) الأرحاء: جمع رحى، وهي القبيلة المستقلة.
(٥) ديوان حميد بن ثور ٢٨.

ومناقب، ولم يَسلَموا من أن يُهجَوا ويُضْرَبَ بهم المثل، ولعلَّ أيضاً أن تتفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة، وأمثال تسير على ألسنة العلماء، فيصيرُ حينئذٍ من لا خير فيه ولا شرَّ، أمْثلَ حالاً في العامَّة، ممَّن فيه الفضلُ الكثيرُ وبعضُ النقص، ولا سيَّما إذا جاوَروا من يأكُلهم وحالَفوا من لا ينصفهم، كما لقيت غَنِيٌّ أو باهلة.

ولو أنَّ عبْساً أقامت في بني عامر ضعفَ ما أقامت؛ لذهب شَطْرُ شرفها؛ ولكنَّ قيسَ بن زُهير لمَّا رأى دلائل الشرِّ قال لأصحابه: الذلُّ في بني غَطفَان خير من العزِّ في بني عامر!

وقد يكون القوم حُلولاً مع بني أعمامهم، فإذا رأوا فضْلهم عليهم حَسدوهم وإن تركوا شيئاً من إنصافهم اشتدَّ ذلك عليهم وتعاظَمَهم، بأكثر من قدره، فَدَعاهم ذلك إلى الخروج منهم إلى أعدائهم. فإذا صاروا إلى آخرين نهكوهم وحملوا عليهم، فوقَ الذي كانوا فيه من بني أعمامهم، حتى يدْعُوَهم ذلك إلى النَّدم على مفارقتهم، فلا يستطيعون الرُّجوع، حميةً واتقاء، ومخافَة أن يعودوا لهم إلى شيء مما كانوا عليه، وإلى المقام في حلفائهم الذين يرون من احتقارهم، ومن شدَّة الصَّولة عليهم.

٢٥٥ - [بكل وادٍ بنو سعد]

وقد خرج الأضبَط بن قُريع السَّعْديُّ من بني سعد، فجاوَزَ ناساً، فلما رأى مذْهَبهم وظُلمهم ونَهْكهم، قال: «بكلِّ وادٍ بَنُو سعد!»(١)، فأرسلها مثلاً.

وقد كان عبَّاس بن ريطة الرِّعلي سيِّد بني سُليم، وقد ناله ضيم في بعض الأمر، فأبى الضَّيم، فلما حاولَ مفارقتَهم إلى بني غَنْم عزَّ عَليْه فقال في كلمة له: [من الطويل]

وأمُّكم تُزْجِي التؤام لبَعْلِها ... وأمُّ أخِيكم كزَّةُ الرَّحْم عاقِرُ

وزعموا أنَّ أبا عمرو أنشد هذا الشعر، وخبَّر عن هذه القصّة في يومٍ من أيامه، فدمعت عينُه، فحلف شُبَيل بن عَزرة بالطلاق: إنَّه لَعَرَبيٌّ في الحقيقة لغيَّةٍ أو لرِشْدة!

٢٥٦ - [قبائل في شطرها خير كثير وفي الشطر الآخر شرف وضعة]

فمن القبائل المتقادمة الميلاد التي في شِطرها خير كثير، وفي الشطر الآخر شرف وضَعة، مثل قبائل غطفان وقيس عيلان، ومَثل فزارة ومرَّة وثعلبة. ومثل عبس

(١) البخلاء ١٨٩، ومجمع الأمثال ١/١٠٥، وجمهرة الأمثال ٦١.

وعبد اللّه بن غطفان، ثم غَنِيّ وباهلة، واليعسوب والطفاوة فالشرف والخطر في عَبس وذبيان، والمبتلى والملقّى والمحروم والمظلوم، مثل باهلة وغنيّ، ممّا لقيت من صوائب سهام الشعراء، وحتّى كأنّهم آلة لمدارج الأقدام، ينكب فيها كلُّ ساعٍ، ويعثُر بها كلُّ ماش. وربّما ذكروا اليَعسوب والطفاوة، وهاربة البقعاء[1] وأَشجَع الخنثى ببعض الذِّكر. وذلك مشهور في خصائص العلماء ولا يجوز ذلك صدورَهم. وجلُّ معظم البلاء لم يقع إلاّ بغنيٍّ وباهلة، وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولاً ومناقب، حتى صار من لاخير فيه ولا شرَّ عنده أحسنَ حالاً ممَّن فيه الخير الكثير وبعض الشرّ، وصار مثلهم كما قال الشاعر: [من البسيط]

اضرب نَدَى طَلْحَةِ الطَّلْحَات مبتدئا
ببُخْلِ أشْعثَ واستَثْبِتْ وكُنْ حكما[2]
تخرج خُزاعة من لؤم ومِن كرمٍ
ولا تعُدَّ لها لؤماً ولا كرما

وقد ظرف في شعره فظلم خُزاعةَ ظُلماً عبقرياً.

وقال في مثل ذلك الأشعر الرَّقَبان الأسديّ: [من المتقارب]

بحسْبِك في القوْمِ أن يعْلموا ... بأنّك فيهم غنيٌّ مُضِرّ[3]
وأنت مليخ كلحْم الحُوَارِ ... فلا أنت حُلْوٌ ولا أنت مُرّ

وكما قال الشاعر في علباءَ بن حبيب حيث يقول: [من الهزج]

أرى العِلباء كالْعِلْبَاءِ ... لا حلوٌ ولا مُرُّ
شُيَيْخٌ من بني الجارو ... دِ لا خيرٌ ولا شرُّ[4]

فهذا ونحوه من أشدِّ الهجاء.

---

(١) في معجم البلدان ٥/٣٨٨ (الهاربية): «مويهة لبني هاربة بن ذبيان». وانظر المعارف ٨٢.
(٢) البيتان لدعبل الخزاعي في الأغاني ٢٠/١٥٢، ١٦١.
(٣) البيتان في عيون الأخبار ٢/١٩٥، ٣/٢٦٨، وأمالي القالي ٢/٢٢١، وديوان المعاني ١/٣٥، واللسان والتاج (مسخ، ضرر)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٤٦٩، ونوادر أبي زيد ٧٣، والبيت الأول في الخصائص ٢/٢٨٢، ٣/١٠٦، والمعاني الكبير ٤٩٦، وشرح المفصل ٢/١١٥، ٨/٢٣، ١٣٩، واللسان (با)، والثاني في أساس البلاغة (حور، مسخ)، والتنبيه والإيضاح ١/٢٨٩، والعين ٤/٢٠٦، والتاج (حور).
(٤) البيت بلا نسبة في ديوان المعاني ١/٣٥.

والخمول اسمٌ لجميع أصناف النَّقْص كلِّها أو عامَّتها، ولكنَّه كالسَّرْو عند العلماء. وليس ينفعك العامَّةُ إذا ضرّتك الخاصَّة.

ومن هذا الضرب تميم بن مرّ، وثور وعُكل، وتيم ومزينة. ففي عُكل وتيم ومزَينة من الشرف والفضل، ما ليس في ثور، وقد سلم ثور إلاَّ من الشيء اليسير، مما لا يرويه إلاَّ العلماء، ثم حلَّت البليَّةُ وركَدَ الشرُّ، والتحف الهجاء على عُكْل وتيم، وقد شعّثوا بين مزينة شيئاً، ولكنَّهم حبَّبهم إلى المسلمين قاطبةً ما تهيأ لهم من الإسلام، حين قلّ حظٌّ تيم فيه. وقد نالوا من ضبَّة، مع ما في ضبَّة من الخصال الشريفة؛ لأنَّ الأبَ متى نقص ولَدُه في العدد عن ولد أخيه فقد ركبهم الآخَرون بكلِّ عظيمة، حتى يروا تسليمَ المرباع إليهم حظّاً، والسير تحت اللواء، والحمل على أموالهم في النوائب؛ حتَّى ربَّما كانوا كالعضاريط والعُسَفاء، والأتباع، وفي الأتباع والدخلاء، ثم لا يجدون من ذلك بدّاً؛ كأنهم متى امتنعوا خذَلوهم، فاستباحوهم، فرأوا أن النَّعمة أربحُ لهم.

وقد أعان غيلان على الأحنف بكلمة، فقال الأحنف: عبيدٌ في الجاهليَّة، أتباعٌ في الإسلام.

فإن هربوا تفرّقوا فصاروا أشلاءً في البلاد، فصار حكمُهم حكم من درج، وحكمُ أبيهم كحكم من لم يُعقِب. وإذا هم حالفوا القرباء فذلك حيث لا يرفعون رؤوسهم من الذلّ والغرم.

٢٥٧ - [الحِلْفُ عند العرب]

والحِلْف ضربان: فأحدهما كانضمام عبس وضبَّة، وأسد وغطفان فإنَّ هؤلاءِ أقوياءُ لم يُنهكوا كما نُهكت باهلة وغنيّ، لحاجة القوم إليهم، ولخشونة مسِّهم إنَ تذكّروا على حال؛ فقد لَقيت ضبَّةُ من سعدٍ، وعبسٌ من عامر، وأسدٌ من عيينة بن حصن ما لقُوا.

وقد رأيت مشقَّةَ ذلك على النابغة، وكيف كرِه خروج أسد من بني ذبيان.

وعيينةُ بن حصن وإن كان أسود من النابغة وأشرف، فإنَّ النابغةَ كان أحزم وأعقل.

وقد سلمت ثور وابتُليت عُكلٌ وتيم، ولولا الربيع بن خُثَيم وسُفيان الثوري، لما علمت العامَّةُ أنَّ في العرب قبيلةً يقال لها ثور. ولَشَريفٌ واحدٌ ممَّن قَبلت تيم أكثرُ من ثور وما ولد.

وكذلك بَلْعَنبر، قد ابتُليت وظلمت وبُخست، مع ما فيها من الفُرسان والشُّعراء، ومن الزُّهاد، ومن الفقهاء، ومن القضاة والوُلاة، ومن نوادر الرِّجال إسلاميِّين وجاهليِّين.

وقد سلمت كعب بن عمرو؛ فإنه لم ينلها من الهجاء إلاَّ الخمش والنُّتف.

وربَّ قومٍ قد رضُوا بخُمولهم مع السلامة على العامَّة، فلا يشعرون حتَّى يصبَّ اللّه تعالى على قممِ رؤوسهم حجارةَ القذف، بأبياتٍ يسيِّرها شاعر، وسوطَ عذابٍ يسير به الراكبُ والمثل، كما قال الشاعر: [من الرجز]

إن مَنَافاً فَقْحَةٌ لدارِم كما الظليمُ فَقْحَةُ البراجِمِ(١)

وقال الشاعر: [من الوافر]

وجَدْنَا الحُمْرَ مِنْ شَرِّ المطَايَا كما الحَبِطاتُ شرُّ بني تميمِ(٢)

فما الميسم في جِلد البعير، بأعلق من بعض الشعر.

٢٥٨ - [أثر الشعر في نباهة القبيلة]

وإذا كان بيت واحد يربطه الشاعر في قوم لهم النباهة والعَدد والفَعال، مثل نُمير، يصير أهلُه إلى ما صارت إليه نُمير وغير نمير، فما ظنُّكَ بالظُّلَيم وبمناف وبالحَبِطات، وقد بلغ مضرَّةُ جرير عليهم حيثُ قال: [من الوافر]

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِن نُمير فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا(٣)

إلى أن قال شاعر آخر وهو يهجو قَوْمًا آخَرين: [من الوافر]

وسَوفَ يزيدُكم ضَعةً هِجَائِي كما وضعَ الهِجاءُ بَنِي نُميْرِ(٤)

وحتّى قال أبو الرُّدَيْنيّ: [من الوافر]

أَتُوعِدُنِي لِتَقْتُلَنِي نُميْرٌ مَتى قَتَلَتْ نُمَيْر مَنْ هَجَاهَا(٥)

---

(١) الرجز بلا نسبة في البيان والتبيين ٤ /٣٧.

(٢) البيت لزياد الأعجم في ديوانه ١٧٠، والأزهية ٧٧، والخزانة ١٠ /٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٣، والمقاصد النحوية ٣ /٣٤٦، وشرح شواهد المغني ٥٠١، والبيان والتبيين ٤ /٣٧.

(٣) البيت في الأغاني ٨ /٣٠، ٢٤ /٢٠٦-٢٠٩ ضمن خبر طويل، وهو في ديوان جرير ٧٩، والبيان والتبيين ٤ /٣٦.

(٤) البيت بلا نسبة في البيان والتبيين ٤ /٣٥.

(٥) البيت في الأغاني ٢٤ /٢٤٦، والبيان والتبيين ٤ /٣٥.

٢٥٩ - [بكاء العرب من الهجاء]

ولأمر ما بكت العربُ بالدموع الغزار من وقعِ الهجاءِ، وهذا من أوَّل كرمها، كما بكى مخارقُ بن شِهاب، وكما بكى عَلقمة بن عُلاثة، وكما بكى عبد اللّه بن جُدعان من بيتٍ لخداش[١] بن زهير. وما زال يهجوه من غير أن يكون رآه، ولو كان رآه ورأى جماله وبهاءَه ونبله والذي يقع في النفوس من تفضيله ومحبته ومن إجلاله والرقة عليه أمسك. ألا ترى أن النَّبيت وغسَّان بن مالك بن عمرو بن تميم[٢]، ليس يعرفهم بالعجز والقلَّة إلاَّ دَغفل بن حنظلة، وإلاَّ النخَّار العُذريّ وإلا ابن الكيِّس النمريّ، وإلاَّ صُحار العبدي، وإلاَّ ابن شَرِيَّة وأبو السَّطَّاح وأشباههم ومن شابه طريقهم والاقتباس من مواريثهم، وقد سلموا على العامة وحصلوا نسب العرب فالرجل منهم عربي تميمي، فهو يعطي حقّ القوم في الجملة ولا يقتضي ما عليه وعلى رهطه في الخاصّة. والحرمان أسوأ حالاً في العامة من هذه القبائل الخاملة وهم أعدّ وأجلد.

٢٦٠ - [سبب خمول القبائل]

وبليَّة أخرى: أنْ يكون القبيلُ متقادمِ الميلاد، قليل الذلة قليل السيادة، وتهيَّأ أن يصير في ولد إخوتهم الشرف الكامل والعدد التامّ، فيستبين لمكانهم منهم من قلتهم وضعفهم لكلٍّ من رآهم أو سمع بهم، أضعافُ الذي هم عليه لو لم يكونوا ابتُلوا بشرف إخوتهم.

ومِنْ شؤم الإخوة أنّ شرفهم ضعةُ إخوتهم، ومن يُمن الأولاد أنّ شرفهم شرفُ من قَبْلهم من آبائهم ومن بعدهم من أولادهم: كعبد اللّه بن دارم وجرير بن دارم. فلو أنَّ الفُقَيم لم يناسب عبد اللّه بن دارم وكان جاراً، كان خيراً له.

ولقد ضعضعتْ قُريش - لما جاءتْ به من الخصال الشريفة التامّة؛ مِنْ أركان كنانة - سَنامَ الأرض وجبلها وعينَها التي تبصر بها، وأنفَها التي بها تعطس، فما ظنُّك بمن أبصر بني زيد بن عبد اللّه بن دارم، وبني نهشل بن دارم، وبني مجاشع بن دارم، ثمَّ رأى بني فقُيم بن جرير بن دارم؟!

وكذلك كلُّ أخوَين إذا برَع أحدُهما وسبق وعلا الرِّجال؛ في الجود والإفضال،

---

(١) لم أجد البيت الذي هجا به خداشُ بن زهير، وفي الأغاني ١٠/٢٠-٢١ خبر يفيد أن دريد بن الصمة هجا عبد الله بن جدعان، ولم يكن دريد يعرفه.

(٢) انظر الاشتقاق ٢٠٢-٢٠٣، وجمهرة أنساب العرب ٢١١-٢١٣.

أو في الفُرُوسة أو في البيان، فإن كان الآخر وسَطاً من الرجال، قصدُوا بحسنِ مآثره في الطبقة السفلى لتَبين البراعةُ في أخيه، فصارت قرابته التي كانت مفخرةً هي التي بلغت به أسفَل السافلين. وكذلك عَنَزَة بن أسد في ربيعة. ولو كان سودد ربيعة مرّةً في عَنَزَة ومرّة في ضُبَيعة أضْجَمَ، لكان خيراً لهم اليوم، ولودَّ كثير من هؤلاءِ القبائل التي سلمت على الشعراءِ أو على العوامِّ أن يكون فيهم شَطْرُ ما للعنزيِّين من الشرف، ولو أنَّ الناس وازنوا بين خصال هذه القبائل خيرها وشرِّها لكانوا سَوَاءً.

وقال صاحب الكلب: ذكرتَ عيوبَ الكلب فقلتَ: الكلب إذا كان في الدار مَحَق أُجُور أهل الدَّار حتى يأتيَ على أقصاها، لأنَّ الأجور إذ أُخذ منها كلَّ يوم وزنَ قيراط، والقيراط مثل أحد، لم يلبث على ذلك أن يأتيَ على آخرها. وقلتَ: في الكلب أشدُّ الأذى على الجار والضيف والدخيل، يمنعه النَّومَ ليلاً والقائلَة نهاراً، وأن يسمَعَ الحديث. ثمّ الذي على سامع النُّباح من المؤنة من الصوت الشديد.

ولو لم يكن في الكلب ما يؤذي بشدَّة صوته إلاَّ بإدامة مجاوبة الكلاب لكان في ذلك ممّا ينغِّص العيش، ويمنع من الكلام والحديث.

٢٦١ - [شعر في النباح والاستنباح]

وقال أرطاة بن سُهَيّة في بعض افتخاره: [من الطويل]

وإنِّي لَقَوَّام إلى الضّيف موهنا ... إذا أغدف السِّترَ البخيلُ المواكلُ[١]
دعَا فأجابَتْهُ كلاب كَثِيرَةٌ ... على ثقةٍ منِّي بما أنا فاعلُ
وما دونَ ضيفي، من تلادٍ تحوزُه ... يدُ الضيفِ، إلاَّ أنْ تُصانَ الحَلائِلُ

وقال ابن هَرْمة: [من الطويل]

ومستنبحٍ نبَّهتُ كلبي لصوتهِ ... وقلتْ له قُمْ في اليَفَاع فجَاوِب[٢]
فجاءَ خَفِيَّ الصوتِ قد مسَّهُ الضَّوَى ... بضرْبَة مسنون الغرارَيْن قاضِب
فرحَّبت واستبشرتَ حتَّى بسطتهُ ... وتلكَ التي ألقَى بها كلَّ آئبَ

وقال آخر: [من الطويل]

هجمنَا عليه وهو يَكْعمُ كلبَهُ ... دعِ الكلب يَنْبحْ إنَّما الكلبُ نابحُ[٣]

---

(١) الأبيات في عيون الأخبار ٣ / ٢٣٩، والشعر والشعراء ٣٣٢.
(٢) ديوان ابن هرمة ٧٦-٧٧، والبخلاء ٢٤١.
(٣) البيت بهذه الرواية بلا نسبة في اللسان والتاج (كعم)، وبرواية مختلفة لصخر بن أعيى في الأغاني ٢ / ١٧٢، والبخلاء ٢٤١، وانظر الوحشيات ٢٤١، وسيأتي البيت في الفقرة (٢٦٨).

وقال مزرِّد بن ضرار: [من الطويل]

نشأتُ غلاماً أتَّقي الذمَّ بالقِرى ... إذا ضاف ضيف من فَزارةَ راغبُ
فإن آبَ سارٍ أسمَعَ الكلبَ صوتَه ... أتى دون نَبْحِ الكلبِ، والكلب دائبُ

وقال بشَّار بنُ برْد: [من الوافر]

سقَى اللّه القِباب بتلِّ عبدي ... وبالشرقين أيَّامَ القِباب[1]
وأياماً لنا قَصُرَتْ وطالتْ ... على فُرعان نائمَةَ الكلابِ

وقال رجل من بني عبد اللّه بن غَطفان: [من الطويل]

إذا أنتَ لم تستَبْقِ وُدَّ صحابة ... على دَخن أكثرت بثَّ المعاتِبِ[2]
وإنِّي لأستبقي امرأ السَّوءِ عُدَّةً ... لعدْوَة عِرِّيضٍ من الناس جانبِ[3]
أخاف كلابَ الأبعدين ونبحهَا ... إذا لم تجاوبْها كلابُ الأقارِبِ

وقال أُحيحة بن الجُلاح: [من المنسرح]

ما أحْسَنَ الجِيدَ من مُليكةَ واللَّـ ... ـبَّات إذ زانها ترائبُها[4]
يا ليتني ليلة إذَا هجع الـ ... ـنَّاسُ ونامَ الكلابُ صاحبُها

وقلتَ: وفي الكلب قذارةٌ في نفسه، وإقذاره أهله لكثرة سُلاحه وبوله، على أنّهُ لا يرضى بالسُّلاح على السطوح، حتَّى يحفر ببراثنه وينقب بأظافره، وفي ذلك التخريب.

ولو لم يكن إلاّ أنّهُ يكون سبب الوكف، وفي الوكف من منع النَّوم ومن إفساد حُرِّ المتاع، ما لا يخفى مكانه، مع ما فيه من عضِّ الصبيان وتفزيع الوِلدان، وشقِّ الثياب، والتعرُّض للزوّار؛ ومع ما في خلقه أيضاً من الطبع المستدعي للصبيان إلى ضربه ورجْمه وتهييجه بالعبث، ويكون سبباً لعقْرهم والوثوبِ عليهم.

وقلت: وبئس الشيء هو في الدار، وفيها الحُرَم والأزواج، والسَّراريُّ والحظِيّات المعشوقات؛ وذلك أن ذكَره أيَرٌّ ظاهر الحجم، وهو إما مُقْبَع وإمّا قائم، وليس معه ما

---

(١) ديوان بشار بن برد ١ /٢٤٩.
(٢) الأبيات للنعمان بن حنظلة العبدي في حماسة البحتري ٣٩٤. الدخن: الحقد.
(٣) العريض: الذي يتعرض للناس بالشر.
(٤) البيتان في الأغاني ١٥ /٣٦، والحماسة البصرية ٢ /١٨٧، والخزانة ٣ /٣٢١ (بولاق).

يواريه، وربما أَشَظَّ وأنعَظ بحضرتهنَّ، ولعلّهنَّ يكنَّ مُغيبات أو محتاجاتٍ إلى ما يحتاج إليه النساءُ عند غيبة فحلهنّ، وإذا عجزَ عن أن يَعُمَّهن.

٢٦٢ - [وفد قرحان]

وقد رمى ضابئُ بن الحارث البُرجُميُّ أمّ أناس من العرب، أنّ الكلب الذي كان يسمَّى قُرْحان[١]، كان يأتي أمَّهم، حتَّى استعدَوا عليه، وحبسه في ذلك عثمان بنُ عفّان رضي اللّه تعالى عنه. ولولا أنّ المعنى الذي رماهم به كان مما يكون ويجوز ويُخافُ مثلُه، لَما بلغ منه عثمانُ ما بلغ، حتّى مات في حبسه. وفي ذلك يقول ضابئ ابن الحارث: [من الطويل]

تجشَّم نَحوي وَفْدُ قُرحانَ شُقَّةً تَظَلُّ بها الوَجناءُ وهي حَسيرُ[٢]
فزوّدتُهم كلباً فراحوا كأنما حَباهم بتَاجِ الهرمزان أميرُ
فأمَّكم لا تتركوها وكلبَكم فإنَّ عقوقَ الوالدات كبيرُ
إذا عَثّنَتْ من آخر الليل دُخْنة يبيت له فوقَ السريرِ هَريرُ[٣]

٢٦٣ - [قصص تتعلق بالكلاب]

وزعم اليقطريُّ أنّهُ أبصرَ رجلاً يكُومُ كلبةً من كلاب الرعاء، ومرَّ بذلك الزُّبُّ العظيم في ثفرها - والثَّفرُ منها ومن السبع، كالحرِ من المرأة والظَّبْية من الأتان والحِجر، والحياء من الناقة والشاة - فزعم أنّها لم تعقِد عليه، ولا ندري أمكّنته أم اغتصبَها نفسَها.

وأمّا النَّاس ففي مُلحِ أحاديثهم: أنّ رجلاً أشرفَ على رجل وقد ناك كلبةً فعقَدت عليه، فبقي أسيراً مستخزِياً يدور معها حيث دارت. قال: فصاح به الرجل: اضربْ جَنبَيها. فاطلقته، فرفَعَ رأسه إليه، فقال: أخزاه اللّه أيُّ نيَّاكِ كلْباتٍ هو!

وخبّرني من لا أردُّ خبره، أنّه أشرفَ من سطحٍ له قصير الحائط، فإذا هو بسَوادٍ في ظلِّ القمر في أصل حائط، وإذا أنينُ كلبة، فرأى رأسَ إنسان يدخل في القمر، ثم يرجع إلى موضعه من ظِلّ القمر، فتأمَّل في ذلك فإذا هو بحارس ينيك كلبة. قال:

---

(١) انظر قصة «قرحان» في الشعر والشعراء ٢٠٢-٢٠٣، ومعاهد التنصيص ١ / ٦٦، والخزانة ٤ / ٨٠ (بولاق).

(٢١) انظر الحاشية السابقة.

(٣) عثنت: دخنت.

فرجمتُه وأعلمته أنّي قد رأيتُه، فصبَّحني من الغد يقرَع الباب عليّ، فقلت له: ما حاجتك؟ وما جاء بك؟ فلقد ظننتُ أنّك ستركب البحر أو تمضي على وجهك إلى البراري. قال: جُعلتُ فداك، أسألك أن تستُر عليّ، ستَرَ اللّه عليك، وأنا أتوب على يديك! قال: قلتَ ويلَك، فما اشتهيتَ من كلبة؟! قال: جُعلت فداك، كلُّ رجلٍ حارسٍ ليس له زوجةٌ ولا نجل، فهو ينيك إناثَ الكلاب إذْ كنَّ عِظامَ الأجسام. قال: فقلت: فما يخاف أن تعضَّه؟ قال: لو رَامَ ذلك منها غيرُ الحارس التي هي له وقد باتتْ معه فأدخلها في كِسائه في ليالي البرد والمطر، لما تركته. وعلى أنَّه إن أراد أن يوعبه كلَّه لم تستقرّ له. قال: ونسيتُ أنْ أسألَه: فهل تعقد على أُيور النّاسِ كما تعقد على أيور الكلاب؟ فلقيته بعدَ ثلاثين سنة، فقال: لا أدري لعلَّها لا تعقد عليه، لأنَّهُ لا يُدْخِلُهُ فيها إلى أصله، لعلّ ذلك أيضاً إنَّما هو شيءٌ يحدث بين الكلب والكلبة، فإذا اختلفا لم يقع الالتحام. قال:فقلتُ: فَطَيِّبٌ هو؟ قال: قد نكْت عامَّة إنَاث الحيوانات فوجدتُهنَّ كلَّهنَّ أطيَبَ من النساء. قلتُ: وكيف ذلك؟ قال: ما ذاك إلاّ لشدَّة الحرارة. قال: فطال الحديث حتى أَنِس فقلتُ له: فإذا دار الماء في صُلْبك وقرُبَ الفراغ؟ قال: فربَّما التزمتُ الكلبةَ وأهويَت إلى تقبيلها. ثم قال: أمَا إنَّ الكلابَ أطيبُ شيءٍ أفواهاً، وأعذَبُ شيءٍ رِيقاً؛ ولكن لا يمكن أنْ أنيكها من قُدَّامٍ، ولو ذهبتُ أن أنيكها من خلف وثَنيتُ رأسَها إلى أنْ أقبِّلها، لم آمَنْ أنْ تظنَّ بي أني أريدُ غيرَ ذلك فتُكدِّم فمي ووجهي. قال فقلت: فإنّي أسألُك بالذي يستُرُ عليك، هل نَزَعت عن هذا العمل مُنْذُ أعطيتَني صفقةَ يدِك بالتَّوبة؟ قال: ربَّما حنَنتُ إلى ذلك فَأَحتبسُ بعهدك.

قال: وقلتُ: وإنَّك لتحنُّ إليها؟ قال: واللّه إني لأَحِنُّ إليها، ولقد تَزَوَّجتُ بعدَك امرأتين، ولي منهما رجالٌ ونساء، ومن تعوّد شيئاً لم يكد يصبرُ عنه! قال: فقلت له: هل تَعرف اليومَ في الحُرّاس مَن ينيك الكلبات؟ قال: نعم، خذ محمويَه الأحمر، وخذ يشجب الحارس، وخذ قفا الشاة، وخذ فارساً الحَمّاميّ فإنّ فارساً كان حارساً وكان قيِّم حَمّام، وكان حلَقيّاً، فزعم أنّه ناكَ الكلابَ خمسين سنة، وشاخ وهُزِلَ وقبُح وتشنَّج، حتّى كان لا يُنيكه أحد. قال: فلم يزَلْ يحتالُ لكلب عندَه حتى ناكه. قال: وكان معه بخير حتَّى قتله اللصوص، ثمَّ أشرفَ على فارسٍ، هذا المحتسِبُ الأحدبُ، وهو ينيك كلبةً فرماه بحجر فدمَغَه[1].

---

(١) دمغه: أصاب دماغه.

قال: فالكلاب كما ترى تُتَّهم بالنساءِ، وينيكها الرجال، وتنيك الرجال، وليس شيءٌ أحقّ بالنفي والإغراب والإطراد وبالقتل منها. ونحن من السباعِ العاديَة الوحشيَّة في راحة، إلاّ في الفَرْط[1] فإنّ لها عُراماً على بعض الماشية، وجنايةً على شرار العامَّة وكذلك البهائم. وما عسى أن يبلغ من وطْءِ بعير ونطح كبش، أو خمش سِنّورٍ أو رَمْح حمار، ولعلّ ذلك يكون في الدهر المرّةَ والمرّتين، ولعلَّ ذلك أيضاً لا ينال إلاَّ عبداً أو خادماً أو سائساً، وذلك محتَمل. فالكلاب مع هذه الآفات شركاءُ الناس في دورهم وأهاليهم!!

قال صاحب الكلب: إنْ كنتم إلى الأذى بالسُّلاح تذهبون، وإلى قَشرِ طِين السطوح بالبراثن تميلون، وإلى نتن السُّلاح وقذَر المأكول والمشروب تقصدون، فالسِّنَّورُ أكثر في ذلك. وقد رويتم عن النبي ﷺ في ذلك أنّه قال: «هُنَّ مِنَ الطَّوَّافات عليكم»[2]. فإذا كان ذلك في السنانير مغتفراً، لانتفاعهم بها في أكل الفأر، فمنافع الكلاب أكثرُ، وهي بالاعتقاد أحقّ. وفي إطلاق ذلك في السنّور دليلٌ على أنّه في الكلاب أجْوَز.

وأمَّا ما ذكرتم من إنعاظه، فلعمري إنّه ما ينبغي للغَيورِ أن يُقيم الفرسَ ولا البرذونَ والبغلَ والحمارَ والتَّيس في المواضع التي تراها النساءُ. والكلبُ في ذلك أحسنُ حالاً. وقد كرِه ناسٌ إدخال منازلهم الحمامَ والدِّيكةَ والدجاج والبطّ خاصة؛ لأنّ له عند السفاد قضيباً يظهر، وكذلك التيس من الظباء، فضلاً عن تُيوس الصفايا. فهذا المعنى الذي ذكرتمْ يجري في وجوهٍ كثيرة وعلى أنَّ للحمام خاصَّةً من الاستشارة[3]، والكَسْم بالذنب، والتقبيل الذي ليس للناس مثلُه، ثمَّ التقبيل والتغزّل والتَّنفُّش، والابتهاج بما يكون منه بعدَ الفراغ، وركوب الأنثى للذكر وعدم إمكانها لغير ذكرها، ما يكونُ أهيجَ للنساء ممَّا ذكرتم. فلم أفردتم الكلب بالذِّكر دونَ هذه الأمورِ، التي إذا عاينت المرأة غُرمُولَ واحدٍ منها، حقَرت بعلَها أو سيِّدَها، ولم يزل ظلُّ ذلك الغرمول يعارضها في النوم، وينبِّهها ساعةَ الغفلة، ويُحدث لها التمنِّيَ لما لا تقدر عليه، والاحتقارَ لما تقدر عليه، وتركتم ذكر ما هو أجلُّ وأعظمُ إلى ما هو أخسُّ وأصغر؟!

فإنْ كنتم تذهَبون في التشنيع عليه إلى ما يعقر من الصبيان عند العَبث

(١) الفرط: الندرة.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/٢٩٦، وهو في النهاية ٣/١٤٢.

(٣) الاستشارة: إظهار الحسن.

والتعرُّض، والتَّحَكك والتهييج والتحريش، فلو أنّ الذي يأتي صبيانُكم إلى الكلب، من الإلحاح بأصنَاف العَبَث - والصِّبيانُ أقسى الخلْقِ وأقَلّهم رحمةً - أنْزَلُوهُ بالأحنف ابن قيس، وقيس بن عاصم، بل بحاجب بن زُرارة وحِصن بن حُذَيفة، لخَرَجُوا إلى أقبَحَ ممَّا يخرج إليه الكلب. ومَن ترك منهم الأخذَ فوق يدِ ابنه، فهو أحقُّ باللائمة.

وبعد فما وجدْنَا كلباً وثبَ على صبيٍّ فعقَره منْ تلقاءِ نفسه، وإنّه ليتردَّد عليه وهو في المهد، وهو لحمٌ على وضَم، فلا يشَمُّه ولاَ يدنو منه. وهو أكثرُ خلقِ اللّه تعالى تشمُّماً واسترواحاً؛ وما في الأرضِ كلبٌ يلقى كلباً غريباً إلاَّ شمّ كلُّ واحدٍ منهما استَ صاحبِه، ولا في الأرضِ مَجوسيٌّ يَموت فيُحْزَن على موته ويحمل إلى الناوُوس إلاَّ بعد أن يُدني منه كلبٌ يشَمُّه، فإنّه لا يخفى عليه في شمّه عندَهم، أحيٌّ هو أم ميِّتٌ؛ للطافَة حسِّه، وأنّه لا يأكل الأحياءَ. فأمّا اليهود فإنّهم يتعرَّفون ذلك من الميّت، بأن يدهُنوا استَه. ولذلك قال الشاعر وهو يرمي ناساً بدين اليهودية: [من الطويل]

إذا مات منهم ميِّتٌ مَسَحُوا اسْتَهُ بدُهنٍ وحَفُّوا حَوْلَه بقرامِ[1]

٢٦٤ - [جنايات الديك]

وقالوا: فإذا ذكرتم جناياتِ الكلاب، فواحدٌ من جنايات الدِّيَكة أعظمُ من جنايات الكلاب؛ لأنّ عبد اللّه بنَ عثمان بن عفّان، ابنَ بنت رسول اللّه ﷺ، إنّما مات من نقْرِ ديك في دار عثمان، نقر عينه فكان سببَ موته[2]. فقتْلُ الديك لعِتْرة رسول اللّه ﷺ، أعظمُ من كثيرٍ ممَّا تستعظمونَه من جنايات الكلاب.

وقد نقر ديكٌ عينَ ابن حَسَكة بن عتَّاب، أو عين ابن أخته.

وقد نقر ديك عين ابن الريان بن أبي المسيح وهو في المهد فاعورّ، ثمَّ ضربته الحُمرة فمات.

ووثبَ ديك فطعن بصيصَته عين بنتٍ لثُمامة بن أشرس، قال ثمامة: فأتاني الصَّريخ، فو اللّه ما وصلتُ إليها حتى كَمدَ وجهُها كلُّه واسوَدَّ الأنفُ والوَجْنتان وغارت العينان. وكان شأنُ هذا الديك - فيما زعم ثمامة - عجباً من العجب: ذكر أنَّ رجلاً ذكر أنَّ ديكاً عند بقَّالٍ لهم، يقاتل به الكلاب، قال: فأتيتُ البقَّال الذي

(١) البيت لسالم بن دارة في اللسان والتاج (حمم).

(٢) في المعارف ١٤٢: (.. وهلك صبياً لم يجاوز ست سنين، وكان نقره ديك على عينه فمرض ومات). وانظر جمهرة أنساب العرب ١٦.

عنده فسألتُه عن الديك، فزعم أنَّه قد وجَّه به إلى قتال الكلاب، وقد تراهنوا في ذلك. فلم أبرحْ حتّى اشتَرَيْتُهُ؛ وكنتُ أصونُه وجعلته في مَكَنّة، فخرجت يوماً لبعض مصلحةٍ وأقبلت بنتي هذه لتنظر إليه، فكان هذا جزائي منه!

قال: وديكٌ آخر أقبل إلى رأس زيد بن علي، حتَّى وطئَ في ذؤابته ثمّ أقبَلَ ينقُرُ دِماغه وعينيه. فقال رجل من قريش، لمن حضر ذلك من الخدم: [من الخفيف]

اطردُوا الديكَ عن ذؤابة زيد　　　طالما كان لا تَطَاهُ الدَّجاجُ(١)

٢٦٥ - [نفع الكلب]

والكلب إن كان كما يقول، فإنَّ له يداً تشجُّ وأخرى تأسُو، بل ما يدفَع اللّه بحراسته ويجلب من المنافع بصيده أكثرُ وأغمر، وهو الغامر لا المغمور، والفاضل لا المفضول. والديك يفقأ العُيونَ وينقُر الأدمغة ويقتل الأنفس، ويشُجُّ ولا ياسو؛ فشرُّه صِرف وخيره ممزوج. إلاّ أنْ يزعموا أنّه يحرس من الشيطان، فيكون هذا من القول الذي يحتاج إلى البرهان. ومن عارض منافع الكلاب وحراستَها أموالَ الناس من اللصوص، ومنعَ السِّباع من الماشية، وموضعَ نفع الكلب في المزارع - وذلك عيان ونفعه عامٌّ وخطبه عظيم - بما يُدَّعَى من حراسة الدِّيكة للشيطان، لم يكايل ولم يُوازِن ولم يَعرف المقايسة، ولا وقَف قطُّ على معنَى المقابلة ودَلَّ بذلك على أنَّ مبلغَ رأيِه لا يجوز رأيَ النساء.

٢٦٦ - [العواء وما قيل من الشعر فيه]

ويكون العُواء للكلب والذئبِ والفصيل. وقال النابغة: [من الوافر]

ألم أكُ جارَكم فتركتموني　　　لِكلبي في دياركمُ عُواءُ(٢)

وقال الشاعر: [من الطويل]

وإنِّي امروٌ لا تقشَعِرُّ ذؤابتي　　　من الذئب يَعوِي والغرابِ المحجَّلِ(٣)

وقال الشاعر: [من الطويل]

ومستَنْبحٍ تَستَكشِط الرّيحُ ثَوْبَه　　　ليَسقُط عنهُ وهو بالثَّوب مُعْصمُ(٤)

---

(١) البيت لاحد الشيعة في الكامل ٢/٣١٠ (مطبعة المعارف).

(٢) البيت للحطيئة في ديوانه ٨٣، ومعجم البلدان (قوو)، وليس للنابغة.

(٣) البيت بلا نسبة في البرصان والعرجان ٢٢، واللسان والتاج (حجل).

(٤) الأبيات لإبراهيم بن هرمة في ديوان المعاني ١/٣٣، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٥٨١، وسمط اللآلي ٥٠٠، والفاضل ٣٨، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/١٣٧، وأمالي المرتضى ١١٤.

عَوى في سوادِ الليل بعدَ اعتسافه   لينبَحَ كلبٌ أو ليفزَعَ نُوَّمُ
فجاوبَهُ مستسمِعُ الصوتِ للقرَى   له مع إتيان المُهبِّينَ مَطْعَمُ
يَكَادُ إذا ما أبصر الضيفَ مُقْبِلاً   يكلِّمهُ من حبِّهِ وَهوَ أعجَمُ

وقال ذو الرُّمَّة: [من الطويل]

به الذئب محزوناً كأنَّ عواءَه   عواءُ فصيل آخرَ الليلِ مُحثَلِ[2]

وقال آخر: [من الرجز]

ومنهلٍ طامسة أعلامُه   يَعوِي به الذئبُ وتَزقُو هامُه

وقال عَقيل بن عُلَّفة يهجو زبَّان بن منظور: [من البسيط]

لا باركَ اللّهُ في قومٍ يسودهمُ   ذئبٌ عَوى وهو مشدود على كُورِ[3]
لم يبقَ من مازنٍ إلاَّ شرارُهُم   فوقَ الحصَى حولَ زبّان بنِ منظورِ

وقال غَيلان بن سلمة: [من الكامل]

ومعرِّس حين العشاء به   الحبس فالأنواء فالعقل
قد بثَّه وهناً وأرّقني   ذئب الفلاة كأنّه جذلُ
فتركته يعوِي بقَفرته   ولكلّ صاحب قفرةٍ شَكلُ
بتَنُوفةٍ جرداءَ يجزعها   لَحِب يلوحُ كأنّه سَحْل[4]

وقال مغلّس بن لقيط: [من الطويل]

عوى منهُمُ ذئبٌ فطرَّب عادياً   على فعليات مُسْتَثَارٍ سخيمها[5]
إذا هُنَّ لم يلحَسْنَ من ذي قرابةٍ   دماً هُلِستْ أجسادُها ولحومُها

وقال الأحيمرُ السعديُّ: [من الطويل]

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوى
وصوَّتَ إنسان فكِدتُ أطيرُ[6]

---

(٢) ديوان ذي الرمة ١٤٨٨، واللسان والتاج (حثل)، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٤ / ٤٧٩، واللسان والتاج (عوى)، وجمهرة اللغة ٢٤٣، ٩٥٧.
(٣) ورد البيت الأول في البرصان والعرجان ٢٦٦.
(٤) انظر مثل هذا البيت في ديوان المسيب بن علس ٦٢٥، واللسان والتاج (ريع، سحل).
(٥) البيتان في معجم الشعراء ٣٠٩ برواية مختلفة.
(٦) البيت للأحيمر في الوحشيات ٣٤، ومروج الذهب ٣ / ٣٨٠، وسمط اللآلي ١٩٦، ومعجم البلدان (دورق) ٢ / ٤٨٣.

وقال آخر: [من الطويل]

وعاوٍ عَوى واللّيْلُ مستحلس الندى ... وقد زَحَفَتْ للغور تالية النَّجمِ(1)

وذلك أنّ الرجلَ إذا كانَ باغياً أو زائراً، أو ممَّن يلتمِس القرَى، ولم ير بالليل نَاراً، عوى ونبح، لتجيبَه الكلاب، فيهتدي بذلك إلى موضع الناس.

وقال الشاعر: [من الطويل]

ومُستَنبِحٍ أهلَ الثَّرى يَلمَس القِرى ... إلينا وممساه من الأَرض نازح(2)

وقال عمرو بن الأهتم: [من الطويل]

ومستنبحٍ بعد الهدُوِّ دعوتُه ... وقد حانَ من سارِي الشّتاءِ طروق(3)

فهذا من عواء الفصيل والذئب والكلب.

٢٦٧ - [ما قالوا في أنس الكلب وإلفه]

وقال صاحب الكلب: وممّا قالوا في أنْس الكلب وإلفه، وحبِّه لأهله ولمن أحسَنَ إليه قول ابن الطّثريّة: [من الكامل]

يا أُمَّ عمرٍو أنجِزِي الموعودا ... وارعَيْ بذاكَ أمانةً وعُهُودا(4)

ولقد طرقْت كلابَ أهلِك بالضُحَى ... حتَّى تركتُ عُقُورَهُنَّ رُقُودا

يضرِبْنَ بالأذنابِ مِن فرحٍ بنا ... متوسّداتٍ أذرُعاً وخدودا

وقال الآخر: [من البسيط]

لو كُنْتُ أحمِلُ خمراً يومَ زرتُكم ... لم يُنكرِ الكلبُ أنّي صاحب الدَّارِ(5)

لكنْ أتيتُ وريحُ المِسكِ يفعمني ... والعنبرُ الوَرْدُ أُذكيه على النار

---

(١) البيت لحميد الأرقط في البخلاء ٢٣٨، وعيون الأخبار ٣/ ٢٤٤، ولحميد (؟) في أساس البلاغة (ضجع)، وعنه في ديوان حميد بن ثور ١٣٤.

(٢) البيت بلا نسبة في البخلاء ٢٣٨.

(٣) ديوان عمرو بن الأهتم ٩٢، والمفضليات ١٢٦، وعيون الأخبار ١/ ٣٤٢، ومعجم الشعراء ٢١، والحماسة البصرية ٢/ ٢٣٧.

(٤) ديوان يزيد بن الطثرية ٦٧، وبلا نسبة في البخلاء ٢٣٩-٢٤٠.

(٥) الأبيات لمالك بن أسماء بن خارجة في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٥٢٣، والأول والثاني له في الحماسة البصرية ٢/ ٢٩٠، وسمط اللآلي ١٩١، ولبعض الحجازيين في البيان والتبيين ٣/ ٢١١، وبلا نسبة في البخلاء ٢٤٠.

فأنكر الكلب ريحي حين أبصرني وكان يعرف ريح الزِّقِّ والقار

وقال أبو الطَّمَحان القينيّ في الإلف، وهو يمدح مالك بن حمار الشمْخي: [من الوافر]

سأمدَحُ مالكاً في كلِّ ركب لقيتُهمُ وأتركُ كلَّ رَذْلِ[1]
فما أنا والبكارةُ من مخاضٍ عظامٍ جلَّة سُدُسٍ وبُزْلِ
وقد عرَفَتْ كلابُهمُ ثيابي كأنِّي منهمُ ونسيتُ أهلي
نمَتْ بك من بني شَمْخٍ زِنَادٌ لها ما شئتَ مِن فرعٍ وأصلِ

وقال الشاعر في أَنَس الكلاب وإلفها، يذكر رجلاً: [من الطويل]

عنيف بتَسْواقِ العِشارِ ورَعْيِها ولكنْ بتَلْقَامِ الثَّريدِ رفيقُ
سَنِيد يظَلُّ الكلبُ يمضَغُ ثوبَه له في دِيارِ الغانيات طَرِيق

وقال الآخر: [من الكامل]

بات الحويرثُ والكلاب تَشَمُّه وسَرت بأبيضَ كالهلال على الطَّوَى[2]

وقال ذو الرمة: [من الطويل]

رأتني كلابُ الحي حتَّى ألِفنَني ومُدَّت نُسوج العنكبوت على رحلي[3]

وقال حسَّان بن ثابت: [من الكامل]

أولاد جَفْنَةَ حولَ قبرِ أبيهمُ قبرِ ابْنِ ماريةَ الكريم المُفْضِلِ[4]
بيضُ الوجوهِ نقيَّةٌ حُجزاتُهمْ شمُّ الأنوفِ من الطِّرازِ الأَوَّلِ
يُغشَوْنَ حتَّى ما تَهِرُّ كلابهم لا يَسألونَ عن السَّوادِ المقبلِ

وفي هذا المعنى قال الشاعر: [من المتقارب]

وبوَّأتِ بيتك في مَعلمٍ رَحِيب المَبَاءةِ والمسْرحِ[5]

---

(١) الأبيات في الأغاني ١٣ /٧-٨.
(٢) البيت بلا نسبة في البخلاء ٢٤٠.
(٣) ديوان ذي الرمة ١٥٩.
(٤) ديوان حسان ٣٦٥، وديوان المعاني ١ /٣٧، والبخلاء ٢٣٩، وأمالي المرتضى ١ /٣٥، وحماسة القرشي ٣٧٣، والبرصان والعرجان ٢٩٤.
(٥) البيتان الأول والثاني بلا نسبة في التاج (بوأ)، ولعل الأبيات للعماني الراجز، فإن له قصيدة في هذا الوزن والروي يمدح بها عبد الملك بن صالح الهاشمي، وانشد منها في الأغاني ١٨ /٣١٦ بيتين.

كفيتَ العُفاةَ طِلاَبَ القِرَى ونَبْحَ الكلاب لمستَنْبِحِ
تَرَى دَعْس آثَارِ تلك المطيِّ أخاديدَ كاللُّقم الأفيَحِ
ولو كنْتَ في نفق زائغٍ لكُنْتَ على الشرك الأوضَحِ

وفي مثل ذلك، وليس في ذكر إلف الكلاب، ولكنَّه مما ينبغي أن يكون مجموعاً إلى هذه الأشعار، وبك إلى ذلك حاجة شديدة، قال أميَّةُ بنُ أبي الصَّلْت: [من الخفيف]

لا الغياباتُ مُنتواكَ ولكنْ في ذُرَى مُشْرِفِ القُصورِ ذرَاكا(٢)

وقال البزَّار الحلِّيّ، في المعنى الأول: [من الرمل]

اَلِفَ الناسَ فما ينبَحُهُمْ مِنْ أسيف يبتغي الخيرَ وحُرّ(٣)

وقال عمران بن عصام: [من المتقارب]

لَعَبْد العزيز على قَوْمه وغيرهِمُ مِنَنٌ غَامِرَهْ(٤)
فَبابك أَلينُ أبوابهم ودارُك آهلةٌ عامرهْ
وكلبُك آنس بالمعتفين من الأُمِّ بابنتها الزَّائرهْ
وكفُّك حين ترى السائليـ ـن أندَى من اللَّيلة الماطرهْ
فمِنك العَطاءُ ومنَّا الثَّناءُ بكلِّ محبَّرةٍ سائرهْ

وقال هلال بن خثعم: [من الطويل]

إنِّي لَعَفٌّ عن زيارة جارَتي وإنِّي لَمشْنوءٌ إليّ اغتيابُها(٥)
إذا غابَ عنها بعلها لم أكنْ لها زَوُوراً ولم تأنَسْ إليَّ كلابُها

---

(٢) ديوان أمية ٤٢٨.
(٣) البيت للمرار الحماني في البخلاء ٢٣٩.
(٤) الأبيات لعمران بن عصام في البخلاء ٢٣٩، ولنصيب في ديوانه ٩٩، والأغاني ١/٣٣٣، وعيون الأخبار ٢/١٩٠، ولعمران أو لنصيب في ديوان المعاني ١/٣٣، ولأيمن بن خريم في رسائل الجاحظ ٢/٨١، وللأقيبل القيني أو لنصيب في الوحشيات ٢٦٠، وانظر المزيد من المصادر في ديوان نصيب ١٨٦، والوحشيات ٢٦٠.
(٥) الأبيات لهلال بن خثعم في أمالي المرتضى ١/٢٧٩، وحماسة القرشي ٤٠٦، والبخلاء٢٤٠، ولبشار بن بشر في عيون الأخبار ٣/١٨٣ -١٨٤، والحماسة الشجرية ٤٦٧، ولزياد بن منقذ التميمي في حماسة البحتري ٣٤٢، ولحميد بن ثور في الحماسة المغربية ٦١٩، وبلا نسبة في الحماسة البصرية ٢/١٢، وربيع الأبرار ٣/٦٢٣، والبيت الأخير لهلال بن جشم في عيون الأخبار ٣/٢٢١، وعجزه بلا نسبة في رسائل الجاحظ ٢/٢٩.

وما أنَا بالدَّارِي أَحاديثَ سِرِّها ولا عالِم مِنْ أيِّ حوكٍ ثِيابُها
وإنّ قِرَابَ البطنِ يكفيك ملؤهُ ويَكفيك سوءَات الأمور اجتنابُها

وقال حاتم الطائي، وهو حاتم بن عبد الله، ويكنى أبا سَفّانة، وكان أسره ثوب ابن شَحمة العنبريّ مُجير الطير: [من الطويل]

إذا ما بخيلُ النَّاس هَرَّتْ كلابُه وشَقَّ على الضَّيفِ الغريب عَقُورُها(١)
فإنِّي جبانُ الكلب بيتي موطَّأٌ جَواد إذا ما النَّفسُ شَحَّ ضميرُها
ولكن كلابي قد أُقِرَّت وعُوِّدت قليل على مَن يعتريها هَريرُها

٢٦٨ - [هجو الناس بهجو كلابهم]

وقال صاحب الكلب: إنّ كثيراً من هجاءِ الكلب، ليس يراد به الكلب، وإنَّما يراد به هِجَاءُ رجلٍ، فيجعل الكلب وُصلةً في الكَلام ليبلغ ما يريدُ من شتمه. وهذا أيضاً مما يرتفق الناسُ به من أسباب الكلاب. ولذلك قال الشاعر: [من الكامل]

مِن دونِ سَيبك لونُ ليل مظلمٍ وحَفيف نافجةٍ وكلب مُوسَدُ(٢)
وأخوكَ محتمل عليك ضغينة ومُسيفُ قومك لائم لا يَحمَدُ
والضّيفُ عِنْدَكَ مثلُ أسودَ سالخ لا بلْ أحبُّهما إليك الأَسودُ

فهذا قول الشاعر. وقال الآخر: [من الوافر]

وما يكُ فيَّ مِن عيبٍ فإنِّي جَبَانُ الكلبِ مَهْزولُ الفصيلِ

فهو لم يردْ مدحَ الكلب بالجبن، وإنَّما أراد نفسه حين قال: [من الكامل]

* وحفيف نافجة وكلب موسد *

فإن كان الكلبُ إنما أسرَه أهلُه، فإنَّما اللوْم على من أسرَه. وإنما هذا الضَّرب كقوله: [من البسيط]

قوم إذا استنبَحَ الأَضيافُ كلبهمُ قالوا لأُمِّهمُ بُولي على النَّارِ(٣)

---

(١) ديوان حاتم الطائي ٢٣١، وحماسة القرشي ١٢٠-١٢١، وأمالي المرتضى ٢ / ١١١، والفاضل ٤٠-٤١، ونوادر أبي زيد ١٠٦-١٠٧، والمعاني الكبير ١ / ٢٣٤.
(٢) الأبيات لحسيل بن عرفطة في نوادر أبي زيد ٧٥، وبلا نسبة في ديوان المعاني ١ / ١٠٦. النافجة: الريح تجيء بقوة. أوسد الكلب: أغراه بالصيد.
(٣) البيت للأخطل في ديوانه ٦٣٦، وديوان المعاني ١ / ١٧٥، واللسان والتاج (ردب، نبح).

ومعلوم أنّ هذا لا يكون، ولكن حقَّر أمرهم وصغَّرهم.

وقال ابن هَرْمة: [من الكامل]

وإذا تنوَّرَ طارِق مستنبِح نبحَتْ فَدلَّتْهُ عليّ كلابي[1]

وقال ابن مهية: [من الوافر]

جلَبنا الخيلَ من شُعَبَى تَشَكَّى حوافِرَها الدوابرَ والنُّسورا[2]

فلما أنْ طَلَعن بعين جعدي وأهل الجوف أن قتلوا غرورا

ولم يكُ كلبُهم ليفيق حتَّى يُهارِشَ كلبُهم كلباً عَقـورا

ومعلوم أنَّ هذا لا يكون، إنما هو مثل. وقال أعرابيّ: [من الطويل]

أخو ثقةٍ قَدْ يحسبُ المجدَ فُرصةً إلى أهله أو ذِمَّةً لا تُخَفَّرُ

حبيبٌ إلى كلبِ الكريمِ نباحُه كريهٌ إلى الكوماءِ والكلبُ أبصَرُ

وقال ابن هَرْمة: [من البسيط]

وفرحة من كلابِ الحيِّ يتبَعُها شَحمٌ يَزِفُّ به الداعِي وتَرعِيبُ

فهذا قول هؤلاءِ. وقال الآخر: [من الطويل]

هَجَمْنا عليه وهو يَكعَمُ كلبَه دَعِ الكلبَ يَنْبَحْ إنَّما الكلبُ نابحُ[3]

وقال الآخر: [من الطويل]

وتَكْعَم كلبَ الحيِّ مِن خَشيةِ القِرى ونارُكَ كالعَذْراءِ مِنْ دُونها سِتْرُ[4]

وقال أعشى بني تغلب: [من الوافر]

إذا احتلَّت معاوية بن عمرو على الأطواء خَنَّقَتِ الكلابا[5]

فالكلب مرَّةً مكعوم، ومرّة مخنوق، ومرّة مُوسَد ومحرَّش،ومرةً يجعله جباناً،

---

(١) ديوان ابن هرمة ٧٣، وأمالي المرتضى ٢/١١٣، والحماسة البصرية ٢/٢٤٤، والخزانة ٤/٥٨٤ (بولاق).

(٢) البيت في البخلاء ٢٤٠، وسمط اللآلي ٥٠٠.

(٣) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج (كعم)، وتقدم في الفقرة ٢٦١.

(٤) البيت لزياد الأعجم في ديوانه ١١٠، والبخلاء ٢٣٨، وعيون الأخبار ٣/٢٤٢، وبلا نسبة في اللسان والتاج (كعم).

(٥) البيت للأعشى في عيون الأخبار ٣/٢٦٣، والبخلاء ٢٣٨.

ومرّةً وثّاباً، كما قال الراعي في الحطيئة: [من الطويل]

الاَ قبَّحَ اللّه الحطيئةَ إنّه على كلِّ ضيفٍ ضافَه فهو سالحُ[1]
وقعنا إليه وهو يخنقُ كلبَه دَع الكلبَ ينبحْ إنَّما الكلبُ نابحُ

وقال أعشى بني تغلب: [من الطويل]

بكَيْتَ على زادٍ خبيثٍ قرِيتَه الا كلُّ عَبْسيٍّ على الزادِ نابحُ

وقال الفرزدق: [من الطويل]

ولا تنزع الأضياف إلاّ إلى فتًى إذا ما أبَى أن ينبَحَ الكلبُ أوقدا

(وقال الآخر:

* دَع الكلبَ ينبحْ إنَّما الكلبُ نابحُ *

وقال الآخر:

* الا كلُّ كلبٍ لا أبا لَكَ نابحُ *

وقال الفرزدق:

* إذا ما أبى أن ينبَحَ الكلبُ أوقَدَا)[2] *

ومتى صار الكلب يأبى النباح؟! فهذَا على أنّهم يتشفّون بذكر الكلب، ويرتَفِقُونَ به، لا على أنّ هذا الأمرَ الذي ذكروه قد كانَ على الحقيقة.

وقال الآخر، وهو جرير: [من الطويل]

ولو كنت في نَجْرَانَ أو بعَمَايةٍ إذن لأَتاني من رَبيعة راكبُ[3]
يُثير الكلابَ آخرَ اللّيلِ وَطؤُه كضَبِّ العَرادِ خَطْوُه متقارِبُ[4]
فباتَ يُمنِّينَا الربيعَ وصَوْبَه ويَنْظُرُ من لُقَّاعةٍ وهو كاذبُ[5]

فذكر تقارُبَ خطوه، وإخفاءَ حركته، وأنّه مع ذلك قد أثار الكلاب من آخر الليل، وذلك وقت نومها وراحتها، وهذا يدلُّ على تيقُّظها ودِقَّة حسِّها.

---

(١) الأبيات للراعي في العمدة ٢/١٥١، ولابن أعيا في البخلاء ٢٤١، والأغاني ٢/١٧٢-١٧٣، وبلا نسبة في الوحشيات ٢٤١.

(٢) ما بين قوسين هو أعجاز أبيات سابقة.

(٣) ديوان جرير ٤٢ (طبعة الصاوي).

(٤) العراد: شجر صلب العود؛ منتشر الأغصان.

(٥) اللقاعة: الكثير الكلام.

٢٦٩ - [حالة الكلب لسبب القرى من البرد]

وفيما ذكروا من حالة الكلب لسبب القرى من البرد، والذي يلقى، وكيف الشأن في ذلك، قال أعشى باهلة: [من البسيط]

وأجْحَرَ الكلبَ مُبْيَضُّ الصَّقيعِ بِهِ وألجأ الحيَّ من تنفاحه الحُجَرُ(١)

وقال الحطيئة: [من الطويل]

إذا أجْحر الكلبَ الصَّقيعُ اتَّقَيْنَه بأثباجِ لا خُورٍ ولا قَفِراتِ(٢)

وقال ابن هَرْمة: [من الخفيف]

وسل الجارَ والمعصِّبَ والأضـ ـياف وَهْناً إذا تحبَّوْا لديّا(٣)
كَيف يَلْقونَني إذا نبحَ الكلـ ـب وراءَ الكُسُورِ نَبْحاً خَفيّا
ومَشَى الحالبُ الْمُبِسُّ إلى النَّا ب فلم يقرِ أصفرَ الحيِّ ريّا(٤)
لم تَكُنْ خارجيَّةً من تراثٍ حادثٍ، بل وَرِثتُ ذاكَ عَليّا(٥)

وقال الأعشى: [من المتقارب]

وتَبرُد بَرْدَ رداءِ العَرو سِ في الصَّيْف رَقرقتَ فيه العبيرا(٦)
وتسخن ليلةَ لَا يستَطيـ ـعُ نُباحاً بهَا الكلب إلا هريرا

وقال الهذلي: [من الطويل]

وليلةِ يَصطَلي بالفَرثِ جازِرُها يختصُّ بالنَّقَرى المُثرِينَ داعيها(٧)

---

(١) البيت لأعشى باهلة في الأصمعيات ٨٩، والتعازي ٦٠، والبيت من قصيدة تنسب أيضاً إلى الدعجاء بنت المنتشر، وليلى بنت وهب الباهلية أخت المنتشر. وانظر حواشي المصدرين السابقين والحماسة البصرية ١/ ٢٤١.

(٢) ديوان الحطيئة ١١٥. الخور: الرقاق الجلود اللينات الفصوص. القفرات: القليلات اللحم.

(٣) ديوان ابن هرمة ٢٢٧. المعصب: الفقير المعدم. تحبوا: جلسوا الحبوة، وهي أن يجمع الجالس بين ظهره وساقيه، أو بمعنى لبسوا الحبوة، أي اشتملوا على ثوب أو عمامة.

(٤) المبس: الذي يدعو الناقة للحلب. الناب: الناقة المسنة.

(٥) خارجية: مستحدثة. علي: اسم أبيه.

(٦) ديوان الأعشى ١٤٥، والبيت الأول في اللسان (عبر، رقق، ردى)، وأساس البلاغة (رقق)، والثاني في الخزانة ١/ ٦٦، والدرر ٣/ ١٥٢، وبلا نسبة في همع الهوامع ١/ ٢١٩.

(٧) البيتان لجنوب أخت عمرو ذي الكلب في ديوان الهذليين ٣/ ١٢٦، وشرح أشعار الهذليين ٥٨٢، والمعاني الكبير ٤١٥، ١٢٤٩، ومجموعة المعاني ١٩٠، ولريطة أخت عمرو في نوادر المخطوطات ٢/ ٢٤٢، ولأبي ذؤيب الهذلي في الحماسة البصرية ٢/ ٣٥٢، ولبعض هذيل في أمالي المرتضى ١/ ٣٥٤، والبخلاء ٢١٥، ولعمرو بن الأهتم في ديوانه ١٠١، والحماسة الشجرية ١٨٨-١٩٠، ولهبيرة بن أبي وهب في السيرة لابن هشام.

لا ينبَحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ   من الشِّتاءِ ولا تَسرِي أفاعيها

وقال الفرزدق : [من الطويل]

إذا احمرَّ آفاقُ السَّماءِ وهَتَّكَت   كُسُورَ بَيوتِ الحيِّ نَكْباءُ حرْجَفُ[1]
وجَاءَ قريعُ الشَّولِ قبلَ إفَالِها   يزِفُّ وجاءَتْ خَلفَه وَهي زُحَّفُ[2]
وهتَّكَتِ الأطنابَ كلُّ ذِفرَّةٍ   لها تامكٌ من عاتق النَّيِّ أعرَفُ[3]
وباشَرَ راعيها الصَّلَى بلبانه   وكَفٌّ لحرِّ النار ما يتحرَّفُ
وقاتلَ كلبُ الحيِّ عن نارِ أهلِه   ليربِضَ فيها، والصِّلا متكنَّفُ
وأصبَحَ مبيَضٌّ الصَّقيعِ كأنَّه   على سَرَوات النِّيبِ قُطْن مُندَّفُ

تم المصحف الأول ويتلوه المصحف الثاني من كتاب الحيوان

وأوله باب احتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة

---

(١) ديوان الفرزدق ٥٦٠ (الصاوي)، ٢ / ٢٨ (دار صادر). الحرجف: الريح الباردة الشديدة الهبوب.

(٢) القريع: فحل الإبل. الشول: جمع شائلة، وهي الناقة ترفع ذنبها للّقاح والتي لا لبن لها. قبل إفالها: قبل أن تسمن.

(٣) الذفرة: الناقة النجيبة. التامك: السنام العظيم. الأعرف: المرتفع.

بِسم اللَّه الرَّحمن الرحيم

بـــاب

احتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة والأمثالِ السَّائرة، والأخبار الصحيحة والأحاديث المأثورة، وما أوجد العيان فيها، وما استخرجت التجاربُ منها من أصناف المنافع والمرافق، وعن مواضع أخلاقها المحمودة وأفعالها المرادة.

ونبدأ بقول العرب: «إنَّ دماءَ الملوك شفاءٌ من داء الكلب»(١)، ثُمَّ نذكر الأبواب لما قدَّمنا في صدر كلامنا هذا. قال بعض المُرِّيِّين: [من الوافر]

أرى الخلاَّنَ بعد أبي عُمَير ... بحُجْرٍ في لقائهمُ جفاءُ(٢)
منَ البيضِ الوُجوه بني سنان ... لو أنَّك تستضيء بهم أضاؤوا
لهم شَمسُ النَّهار إذا استقلَّتْ ... ونُورٌ ما يغيِّبه العَمَاءُ(٣)
بُناةُ مكارمٍ وأُساةُ كَلْم ... دِماؤهمُ مِنَ الكلَبِ الشفاءُ(٤)

وقال الفرزدق: [من الطويل]

منَ الدارميِّين الذين دِماؤهم ... شِفاءٌ من الدَّاء المجنّة والخبْلِ(٥)

وقال عبدُ اللَّه بنُ قيس الرّقَيَّات: [من المنسرح]

عاوَدَني النُّكسُ فاشتفيت كما ... تَشفي دِماء الملُوكِ من كَلَبِ(٦)

---

(١) في مجمع الأمثال ١/٢٧١، والدرة الفاخرة ٢/٤٥٤، ٤٦١ «دماء الملوك أشفى من الكلب؛ ويروى: دماء الملوك شفاء الكلب».

(٢) الأبيات في الحماسة البصرية ١/١٥٤، وديوان المعاني ١/٤٣، وحماسة الخالديين ١/١٦٠، ومحاضرات الراغب ١/١٦٠، والمؤتلف ٦٢، وشرح الحماسة للتبريزي ٤/١٩٧، ومعجم الشعراء ٢١٣، والحماسة المغربية ٣٠٥، وحماسة القرشي ٣٢٢، وشرح الحماسة للمرزوقي ١٦٥٩، والبيت الأخير لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ٥٤٧.

(٣) استقلت الشمس: ارتفعت. العماء: السحاب المرتفع؛ والكثيف.

(٤) الأساة: جمع آسٍ؛ وهو الطبيب. الكلم: الجرح.

(٥) البيت للفرزدق في العين ٦/٢١، وعيون الأخبار ٢/٩٣، وليس في ديوانه، وللمتلمس في الأغاني ١٥/٣١٨، وملحق ديوانه ٣٠٩، وللبعيث في مروج الذهب ٢/٢١٩، وبلا نسبة في اللسان (جنن)، والمقاييس ٥/١٣٣، وتهذيب اللغة ١٠/٤٩٧. المجنة: الجنون.

(٦) لم أجد البيت في ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، ووجدت في ديوانه ص١٢:
فدلَّها الحبُّ فاشتفيتَ كما ... تشفي دماءُ الملوكِ من كَلَبهْ

وقال ابن عَيَّاش الكنديُّ لبني أسَد في قتلهم حُجْرَ بنَ عمرو : [من الطويل]

عبيد العصا جئتمْ بقتلِ رئيسكمْ تُريقون تاموراً شفاءً من الكَلَبْ[1]

وقال الفرزدق : [من الطويل]

ولو تَشربُ الكَلْبى المِرَاضُ دماءَنا شَفَتْها وذو الخَبْلِ الذي هو أدْنَفُ[2]

وذاك أنَّهمْ يزعمون أنَّ دماءَ الأشراف والملوك تَشفي من عَضَّةِ الكَلْبِ الكَلِبِ، وتَشفي من الجنون أيضاً، كما قال الفرزدق :

ولوتشربُ الكَلْبَى المِرَاضُ دماءنا شفتها. . . . .

ثم قال : « وذو الخَبْلِ الذى هو أدْنَفُ »

وقد قال ذلك عاصم بن القِرِّيَّة، وهو جاهليّ : [من الطويل]

وداويتُهُ مما بِهِ من مَجَنة دمَ ابنِ كُهالِ والنِّطاسيُّ واقفُ[3]

وقَلَّدْتُه دهراً تميمةَ جَدِّهِ وليس لِشيءٍ كادَهُ اللَّهُ صارفُ[4]

وكان أصحابنا يزعُمون أنَّ قولهم : « دماء الملوك شفاءُ من الكلب »، على معنى أنَّ الدَّم الكريم هو الثأرُ المُنيم، وأنَّ داء الكلب على معنى قول الشاعر : [من الرمل]

كَلِبٌ مِن حِسّ ما قد مسَّهُ وأفانين فُؤاد مُخْتَبلْ[5]

وعلى معنى قوله : [من الكامل]

* كَلِبٌ بِضربِ جَماجمِ ورِقابِ *[6]

---

(١) قال ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٣٧ « ليدن » : (مُلِّكَ حجرٌ على بني أسد، فكان يأخذ منهم شيئاً معلوماً، فامتنعوا منه؛ فسار إليهم فأخذ سرواتهم فقتلهم بالعصيّ، فسمُّوا عبيد العصا). وذكر الثعالبي في ثمار القلوب ٥٠٤ « ٨٩٥ » : (عبيد العصا : يضرب هذا المثل للقوم إذا استُذِلّوا، وهو اسم لكل ذليل وتابع؛ ولزم ذلك بني أسد). وانظر المثل في مجمع الأمثال ٢ / ١٩، والمستقصى ٢ / ٣٩٨، والفاخر ١٩٢ . والتامور : دم القلب .

(٢) ديوان الفرزدق ٢ / ٣٠ . الكلبى : جمع كليب، وهو المصاب بداء الكلب . والأدنف : المريض .

(٣) المجنة : الجنون . النطاسي : الطبيب .

(٤) كاده : أراده .

(٥) البيت للنابغة الجعدي في ديوانه ٨٩، والمعاني الكبير ١٢، ١١٣٣، واللسان (حمل)، وبلا نسبة في التاج (كلب) .

(٦) عجز بيت للحصين بن القعقاع، وصدره (يوم الحُلَيْس بذي الفقار كأنه)، وقد تقدم في الفقرة (٢٣٥)، وهو بلا نسبة في الاشتقاق ٢١، والتاج (كلب)، وجمهرة اللغة ٥٣٣ .

فإذا كَلِبَ من الغيظ والغضب فأدرك ثأره فذلك هو الشفاء من الكلَب، وليس أنّ هناك دماً في الحقيقة يُشربُ

ولولا قول عاصم بن القرِّيَّة : «والنِّطاسيُّ واقفُ». لكان ذلك التأويلُ جائزاً. وقول عوف بن الأحوص : [من الوافر]

ولا العنقاء ثعلبة بن عمرو　　　دِماءُ القَومِ للكَلْبَى شِفاءُ[2]

وفي الكلب يقول الأعشى: [من الطويل]

أُراني وعَمْراً بيننا دَقُّ مَنْشِمٍ　　　فلم يبق إلاَّ أنْ يُجَنَّ وأكلبا[3]

ألا ترى أنَّه فرَّق بينهما، ولو كان كما قال لبيد بن ربيعة: [من البسيط]

يَسْعَى خُزيمةُ في قومٍ ليهلكهمْ　　　على الحمالة هل بالمرء مِن كلَبِ[3]

لكان ذلك على تأويل ما ذهبوا إليه جائزاً ، وقال الآخر: [من الطويل]

وأمْرَ أميري قد أطَعتمْ فإنَّما　　　كَواه بَنارٍ بينَ عينيه مُكلبُ[4]

وهذا عندي لا يدخل في الباب الأوَّل، وقد جعلوه منه.

٢٧١ - [طباع الكلب العجيبة]

قال صاحبُ الكلب : وزعمتم أنّه يبلغُ من فضل قوَّة طباع الدِّيك في الإلقاح، أنَّه متى سفد دجاجة وقد احتشت بيضاً صغاراً من نتاج الرِّيح والتراب، قلبها كلَّها حيواناً ولو لم يكنْ سفدها إلاَّ مرَّةً واحدة، وجعلتموه في ذلك بغاية الفحْلة، فطباعُ الكلب أعجبُ إلقاحاً وأثقبُ، وأقوى وأبعد، لأنَّ الكلبَ إذا عضَّ إنساناً، فأوَّل ذلك أنْ يُحيله نبَّاحاً مثله، وينقلَه إلى طباعه، فصار ينبح، ثم يُحبله ويُلقحه بأجراءٍ صغار يَبولُها عَلقاً في صُوَر الكلاب، على بُعد ما بين العُنصرينِ والطَّبعين والجنسين، والذى يتولَّد في أرحام الدجاج، أقرب مشاكلة إلى طباع الديك، فالكلب هو العجب العجيب، لأنَّه أحبَلَ ذكراً من خِلاف جنسه، ولأنّه مع الإحبال والإلقاح، أحاله نبَّاحاً

---

(١) البيت لعوف بن الأحوص في المفضليات ١٧٥، وشرح اختيارات المفضل ٨٠٩، وبلا نسبة في المقاييس ٤ / ١٦٢، والتاج (عنق).

(٢) ديوان الأعشى ١٦٧، واللسان (نشم)، وتهذيب اللغة ١١ / ٣٨٢.

(٣) ديوان لبيد ٣٤٩. الحمالة: الدية التي يحملها قوم عن قوم.

(٤) في اللسان: كدا (كدا: داء يأخذ الجراء خاصة؛ يصيبها منه قيءٌ وسعال، حتى يكون ما بين عينيه فيذهب. كَدِيَ الكلبُ كداً: إذا نشب العظم في حلقه).

مثله. فتلك الأدراص[1] وتلك الكلاب الصغار، أولادٌ ونتاج، وإن كان لا يبقى.

وقد تعلمون أنَّ أولادَ البغْلات من البغال لا تبقى، وأن اللِّقاح قد يقع، وإنما مُنع البغل من البغلة بهذه العلَّة.

٢٧٢ - [دواء الكلب]

قال أبو اليقظان وغيره: كان الأسود بن أوس بن الحُمَّرة، أتى النَّجاشيَّ ومعه امرأته، وهي بنت الحارث أحد بني عاصم بن عبيد بن ثعلبة، فقال النجاشيُّ: لأعطينَّك شيئاً يشفي من داء الكلب. فأقبَلَ حتَّى إذا كان ببعض الطريق أتاه الموت، فأوصى امرأته أن تتزوَّج ابنه قِدامة بنَ الأسود، وأن تعلّمه دواء الكلَب، ولا يخرُج ذلك منهم إلى أحد، فتزوَجته نِكاح مَقْت[2]، وعلّمته دواء الكلب، فهو إلى اليوم فيهم[3].

فولَدَ الأسود قُدامة وولد قُدامة المُحلَّ ـ وأمُّه بنت الحارث ـ فكان المحِلُّ يُداوي من الكلَب. فولد المحلّ عُقبةَ وعمراً، فداوى ابنُ المحلُ عُتيبة بن مرداس، وهو ابن فَسوة الشاعر، فبال مثلَ أجراء الكلب عَلَقاً، ومِثل صوُر النَّمْل والأدراص فقال ابن فسوة حين برئَ: [من الطويل]

ولولا دواءُ ابنِ المُحِلِّ وعلمُه ... هَرَرتُ إذا ماالنَّاس هَرَّ كلابهُا[4]
وأخرج عبد اللّه أولاد زارعٍ ... مُوَلَّعَة[5] أكتافها وجنوبُها

وأولاد زارع: الكلاب.

وأمَّا قوله:

ولولا دواء ابن المُحِلِّ وعلمه هررتُ. . . . .

فإنَّما ذهبَ إلى أنَّ الذي يَعَضُّه الكلْبُ الكلِبُ، ينبح نباح الكلاب ويَهِرُّ هريرها.

---

(١) الأدراص: جمع دِرص، وهو ولد الهرة والأرنب والفارة ونحوها.

(٢) نكاح المقت: أن يتزوج الرجل امرأة أبيه بعد وفاته، وكان هذا في الجاهلية، فحرمه الإسلام. وانظر المعارف لابن قتيبة ١١٢-١١٣ حيث سرد أسماء طائفة ممن تزوجوا زوجات آبائهم.

(٣) انظر الخبر في عيون الأخبار ٢ / ٨٠، والشعر والشعراء ٢١٩ «ليدن».

(٤) البيتان في عيون الأخبار ٢ / ٨٠، والشعر والشعراء ٢١٩، وأساس البلاغة (زرع)، والبيت الثاني في تهذيب اللغة ٢ / ١٣٢.

(٥) المولعة: التي بها سواد وبياض.

٢٧٣ - [أعراض الكَلَب]

وقال محمَّد بن حفص، وهو أبو عبيد اللّه بن محمد، ابن عائشة: عضّ رجلاً من بَني العَنْبرِ كلبٌ كلب فأصابه داءُ الكلب، فبال عَلَقاً في صورةِ الكلاب، فقالت بنت المستَنْثر[١]: [من الطويل]

أبا لكَ أدراصاً وأولادَ زارعٍ وتلكَ لعمْري نُهيَة المتعَجِّبِ[٢]

وحدَّثني أبو الصَّهباء عن رجالٍ من بني سعد، منهم عبد الرحمن بن شبيب، قالوا: عضّ سنجيرَ الكلبُ الكلِب، فكان يعطشُ ويطلُبُ الماء بأشدِّ الطلب، فإذا أتوه به صاح عند معاينته: لا، لا أريد!

وهكذا يصيب صاحبَ تلك العضّة. وذلك أنّه يعطش عنها أشدّ العطش ويطلب الماء أشدَّ الطلب، فإذا أتوه به هرَب منه أشدَّ الهرب، فقال دَلَم وهو عبدٌ لبني سعد: [من الطويل]

لقد جئت يا سنجير أجلو ملقة إباؤك للشيء الذي أنت طالب

وهي أبياتٌ لم أحفظ منها إلاَّ هذا البيت.

وذكر مَسْلَمَة بن محارب، وعليٌّ بن محمَّد عن رجاله، أنَّ زياداً كتب دواء الكلب، وعلَّقه على باب المسجد الأعظم[٣]، ليعرفه جميع الناس.

وأنا، حفظك اللّه تعالى، رأيتُ كلباً مرّةً في الحَيِّ ونحنُ في الكتَّاب، فعرض له صبيٌّ يسمّى مهديّاً من أولاد القصّابين. وهو قائم يمحو لَوحهُ فعضّ وجهه فنقع ثَنيَّته دونَ موضع الجفن من عينه اليسرى، فخرق اللحمَ الذي دون العظم إلى شطر خدّه، فرمى به ملقيّاً على وجهه وجانبِ شَدقه؟ وترك مُقلتَه صحيحة، وخرج منه من الدّم ما ظننتُ أنّه لا يعيش معه، وبقي الغلامُ مبهوتاً قائماً لا ينبس، وأسكته الفزع وبقي طائر القلب، ثمَّ خيط ذلك الموضعُ، ورأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد إلى الكُتّاب، وليس في وجهه من الشَّتْر[٤] إلا موضعُ الخيط الذى خيط، فلم ينبَحْ إلى أن برئَ، ولا

---

(١) في عيون الأخبار: «فقالت امرأته».

(٢) البيت في عيون الأخبار ٢ / ٨٠. النهية: النهاية، وهي غاية الشيء وآخره.

(٣) هو مسجد البصرة: كان مبنياً باللبن، وهدمه زياد وبناه بالجص، وسقفه بالساج. انظر ميزان الاعتدال ١ / ٣٥٥، ولسان الميزان ٢ / ٤٩٣.

(٤) الشتر: القطع.

هرٌّ، ولا دعا بماءٍ، حتَّى إذا رآه صاح: رُدُّوه ! ولا بال جرواً ولا عَلقاً، ولا أصابه ممَّا يقولون قليل ولا كثير. ولم أجدْ أحداً من تلك المشايخ، يشكُّ أنَّهم لم يَروا كلباً قطُّ أكْلَبَ ولا أفْسَدَ طبعاً منه. فهذا الذي عاينت.

وأما الذي بلغني عن هؤلاء الثقات فهو الذي قد كتبتُه لك.

٢٧٤ - [مما قيل في الكلب الكلِب]

وفي الكَلْبِ الكَلِب أنشد الأعرابي: [من الرجز]

حيَّاكُم اللَّه فإنِّي منقلبْ　　وإنّما الشاعر مجنون كلبْ

أكثر ما يأتي على فيه الكَذبْ

إما أن يكون الشعر لِهِمْيان وإما أن يكون للزَّفيان.

وأنشدني: [من الطويل]

فإن كنتُم كَلْبى فعندي شفاؤكم　　وفي الجنِّ إن كانَ اعتراك جُنونُ(١)

وأنشدني: [من الوافر]

وما أدري إذا لاقيتُ عَمْراً　　أكَلْبَى آلُ عمرو أمْ صِحاحُ

قال: فأما المُكلب الذي يصيبُ كلابَه داءٌ في رُؤُوسها يسمَّى الجُحام(٢) فتُكْوى بين أعينها.

٢٧٥ - [مسألة كلامية]

وسنذكر مسألة كلاميَّة، وإنَّما نذكرها لكثرة من يعترض في هذا ممَّن ليس له علم بالكلام.

ولو كان أعلمُ الناس باللغة، لم ينفعك في باب الدين حتّى يكون عالماً بالكلام.

وقد اعترض معترضون في قوله عزّ وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأ الَّذي آتيناهُ آياتنا فانسلخَ منها فأتبعه الشيطانُ فَكَانَ من الْغاوين. ولَوْ شئنا لَرَفَعناهُ بِهَا وَلكنَّهُ أخْلدَ إلى

---

(١) البيت لجرير في ديوانه ٥٨٩ «طبعة الصاوي».

(٢) الجُحام: داء يصيب الإنسان في عينه فترم، وقيل: هو داء يصيب الكلب يكوى منه بين عينيه. اللسان (جحم).

الأرض واتَّبَع هَوَاهُ فمثَلهُ كمثل الكلب إنَ تحْملْ عَلَيه يَلهثْ أو تَتْركْهُ يلهثْ ذلك مَثلُ القومِ الَّذين كذَّبوا بآياتنا ﴾[1] فزَعَموا أنَّ هذا المثَلَ لا يجوزُ أن يُضرَب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام، لأنه قال: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ الَّذي آتَيْناهُ آياتنا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾[2]. فما يُشبَّه حالُ من أُعطي شيئاً فلم يقبله - ولم يذكر غير ذلك - بالكلب الذي إن حملتَ عليه نبح وولى ذاهباً، وإن تركته شدَّ عليك ونبح، مع أنّ قوله: يلهث، لم يقع في موضعه، وإنما يلهث الكلب من عَطشٍ شديد وحرٍّ شديد، ومن تعب، وأما النُّباح والصِّياح فمن شيء آخر.

قلنا له : إن قال ﴿ ذلكَ مَثَلُ القَومِ الَّذين كذَّبوا بآياتنا ﴾[3]، فقد يستقيم أن يكون الرادّ لا يسمَّى مكذباً، ولا يقال لهم كذَّبوا إلا وقد كان ذلك منهم مراراً، فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبَّه الذي أوتي الآيات والأعاجيب والبرهانات والكرامات، في بدء حرصه عليها وطلبه لها، بالكلب في حرصه وطلبه، فإنَّ الكلبَ يُعطي الجدَّ والجُهْد من نفسه في كلِّ حالةٍ من الحالات، وشبَّه رفضه وقذفه لها من يديه، وردَّه لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها، بالكلب إذا رجع ينبح بعد إطرادك له. وواجبٌ أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبهم والحرصِ عليها.

والكلب إذا أتعب نفسه في شدَّة النُّباح مقبلاً إليك ومدبراً عنك، لهث واعتراه ما يعتريه عند التَّعب والعطش.

وعلى أنَّنا ما نرمي بأبصارنا إلى كلابنا وهي رابضةٌ وادعة، إلا وهي تلهث، من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها، والذي طُبعت عليه من شأنها، إلا أنَّ لهث الكلب يختلف بالشدَّة واللِّين !

٢٧٦ - [كرم الكلاب]

وقال صاحب الكلب : ليس الدِّيك من الكلب في شيء، فمن الكلاب ذواتُ الأسماء المعروفة والألقاب المشهورة. ولكرامها وجوارحها وكواسبها، وأحرارها وعتاقها، أنسابٌ قائمةٌ ودواوينُ مخلّدة، وأعراقٌ محفوظة، ومواليد مُحصاة، مثل كلب جذعان، وهو السَّلْهبُ بن البراق بن يحيى بن وثّاب بن مظفِّر بن مُحارش.

---

(١) ١٧٥-١٧٦/ الأعراف: ٧.
(٢) ١٧٥/ الأعراف: ٧.
(٣) ١٧٦/ الأعراف: ٧.

٢٧٧ - [شعر فيه أسماء الكلاب]

وقد ذكر العرب أسماءَها وأنسابها.

قال مزرِّد بن ضرار : [من الطويل]

فعَدِّ قريضَ الشّعر إن كنت مُغْزراً ... فإن غزير الشعر ما شاء قائل(١)

لنعت صبُاحيٍّ طويل شقاؤه ... له رَقَميَّات وصَفراءُ ذابل(٢)

بَقينَ له مما يبرّي وأكلب ... تَقَلْقلُ في أعناقهنَّ السَّلاسلُ(٣)

سُخامٌ، ومقلاء القَنيص، وسلْهبٌ ... وجدْلاءُ، والسَّرْحان، والمتناولُ(٤)

بنات سَلُوقيِّين كانا حياته ... فماتا فأودى شخصُه فهو خاملُ(٥)

وأيقن إذْ ماتا بجُوع وخَلَّة ... وقال لَهُ الشَّيطانُ: إنَّك عائلُ(٦)

فطوّفَ في أصحابه يستثيبهمْ ... فآب وقد أكْدتْ عليه المسائلُ(٧)

إلى صبيةٍ مثل المغالي وخرملٍ ... رَواد، ومن شرِّ النساء الخراملُ(٨)

فقال لها : هَل من طعامٍ فإنَّني ... أذمُّ إليك الناسَ، أمُّك هابلُ(٩)

فقالتْ : نَعمْ، هذا الطَّويُّ وماؤه ... ومُحتَرقٌ من حائل الجلد قاحلُ(١٠)

فلما تناهتْ نفسُه من طعامه ... وأمسى طليحاً ما يُعانيه باطَلُ(١١)

تَغشَّى، يريدُ النّوم، فضل ردائه ... فأعيا على العينِ الرُّقاد البلابلُ(١٢)

ففكِّرْ في هذا الشعر وقِفْ على فصوله، حتى تعرف غناء الكلاب عندهم، وكسبها عليهم، وموقعها منهم.

---

(١) الأبيات من قصيدته في المفضليات ص١٠١-١٠٢، وأرقام الأبيات ٦٣-٧٤.

(٢) رقميات: سهام منسوبة إلى موضع بالمدينة يعرف بـ «الرقم». صفراء ذابل: قوس قطع عودها وطرحت في الشمس حتى ذبلت.

(٣) يبري: من بري السهام.

(٤) في هذا البيت أسماء كلاب الصباحي الستة.

(٥) السلوقية: كلاب تنسب إلى سلوق، قرية باليمن.

(٦) الخلة: الفقر والحاجة. عائل: من «عال يعيل»: افتقر. أو من «عال يعول»: كثر عياله.

(٧) يستثيبهم: يطلب ثوابهم ونائلهم. أكدت : امتنعت.

(٨) المغالي: سهام لا نصال لها يغلى بها في الهواء، أي يرمى بها لتبلغ الغاية. خرمل: حمقاء. رواد: الطوافة في بيوت جاراتها ولا تقعد في بيتها لشرها.

(٩) هابل: من قولهم «هبلته» أي فقدته.

(١٠) الطوي: البئر. الحائل: الذي أتى عليه حَوْلٌ؛ أو المتغير. قاحل: يابس.

(١١) الطليح: من الطلاحة، وهو الإعياء والضعف.

(١٢) تغشى رداءه: تغطى به. البلابل: الهموم.

وقال لبيدٌ في ذكرها وذكر أسماءَها: [من الكامل]

لتذودهنَّ وأيقنتْ إن لم تَذُدْ ... أنْ قد أحمَّ مِنَ الحتوف حمامُها[1]

فتقصَّدتْ منها كَسابِ وضرِّجت ... بدمٍ وغُودِرَ في المَكَرِّ سُخامُها[2]

ومن عادة الشعراء إذا كان الشعرُ مَرثيةً أو موعظةً، أن تكون الكلابُ التي تقتلُ بقرَ الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً، وقال كأنّ ناقتي بقرة من صفتها كذا، أن تكون الكلابُ هي المقتولة، ليس على أنَّ ذلك حكاية عن قصّة بعينها، ولكنَّ الثِّيران ربَّما جرحت الكلاب وربَّما قتلتها، وأما في أكثر ذلك فإنَّها تكون هي المصابة، والكلاب هي السالمة والظافرة، وصاحبها الغانم.

وقال لبيدٌ في هذا القول الثاني غير القول الأول، وذلك على معنى ما فسّرت لك، فقال في ذلك وذكر أسماءها: [من الطويل]

فأصبح وانشقَّ الضَّبابُ وهاجه ... أخُو قفرةٍ يُشْلى رِكاحاً وسائلا[3]

عوابسَ كالنُّشَّاب تدمَى نحورُها ... يرين دماءَ الهاديات نوافلا[4]

ومن أسمائها قولهم: «على أهلها جنتْ براقش»[5].

ومن أسمائها قول الآخر: ضبَّار: [من الكامل]

سفَرتْ فقلت لها هَجٍ فتبرقَعَتْ ... فذكرْتُ حينَ تبرقعتْ ضَبَّارا[6]

وقال الكُميت الأسديّ: [من المتقارب]

فبات وباتتْ عليه السَّما ... ءُ من كلِّ حابيةٍ تَهْطُلُ[7]

---

(١) ديوان لبيد ٣١٢، والبيت الأول في اللسان والتاج (حمم)، والثاني في اللسان والتاج (قصد، سحم)، وديوان الادب ١/٣٧٥، وما بنته العرب على فعال ١٣.

(٢) كساب: اسم كلبة. سخام: اسم كلب.

(٣) ديوان لبيد ٢٣٩-٢٤٠. أخو قفرة: عنى به الصائد. يشلى: يؤسد ويغرى. ركاح وسائل: اسمان لكلبين.

(٤) عوابس: صفة للكلاب. الهاديات: أوائل الوحش. النوافل: المغانم.

(٥) الأمثال لمجهول ٧٨، والمثل برواية «دلّت» في المستقصى ٢/١٦٥، وفصل المقال ٤٥٩، وأمثال ابن سلام ٣٣٣، وبرواية «تجني» في مجمع الأمثال ٢/١٤، وجمهرة الأمثال ٢/٥٢.

(٦) البيت للحارث بن الخزرج في التاج (ضبر)، وله أو للخزرج بن عون بن جميل في التاج (هبر)، وللخزرج بن عوف في الجمهرة ٣/٢٣٠، وبلا نسبة في اللسان (هجج، ضبر، هبر)، والتاج (هجج)، والمقاييس ٦/٧، وشرح المفصل ٤/٧٥.

(٧) ديوان الكميت ٢/٨-٩، الحبو: امتلاء السحاب بالماء، والحَبِيُّ من السحاب: المتراكم.

مُكِبًّا كما اجتنح الهالكيّ   على النّصْل إذ طُبع المنْصُلُ[1]

ثم ذكر أسماء الكلاب فقال: [من المتقارب]

وفي ضِبْن حِقف يرى حِقْفَه   خَطاف وَسرْحَةُ والأحْدلُ[2]

وأربعةٌ كقِداح السُّرا   ء لا عانياتٌ ولا عُبَّلُ

وقال الآخر: [من البسيط]

بتنا وباتَ جليد اللّيل يَضربنُا   بينَ البُيوتِ قرَانا نبْح درواسِ[4]

إذا مَلاَ بطنَه ألبانها حَلَباً   باتَتْ تغنِّيه وضْرَى ذاتُ إجراسِ

ودرواس: اسم كلب، والوضرى: استه، وغناؤها: الضُّراط.

وقال ضابئ بنُ الحارثُ في ذلك: [من الكامل]

فترمّلَتْ بدمٍ قَدامِ وَقدْ   أوفى اللَّحاقُ وحانَ مصرعه[5]

وقال الآخر: [من مجزوء الوافر]

ولو هيّا له اللّه   من التوفيق أسبابا[6]

لسمَّى نفسَه عَمراً   وسمَّى الكلبَ وثَّابا

ومثل هذا كثير.

٢٧٨ - [أحرص الكلاب]

والكلبُ أشدُّ ما يكون حرصاً إذا كان خطمُهُ يمسّ عجْبَ ذنب الظّبي والأرنب والثّور وغير ذلك، مما هو من صيده، ولذلك قال الشاعر[7]: [من المديد]

ربَّما أغدو مَعي كلبي   طالباً للصيّد في صحبي

---

(٢) الهالكي: الحداد. وفي أدب الكاتب لابن قتيبة ٦٨ «ليدن»: (الحداد: هالكي، لأن أول من عمل الحديد الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة).

(٣) الضِّبن: الناحية. والبيت في ديوان الكميت ٢ / ٩، وما بنته العرب على فعال ٧٢.

(٤) البيت الأول بلا نسبة في اللسان والتاج (درس، ندل)، والمقاييس ٤ / ٢٦٠، والثاني في اللسان والتاج وأساس البلاغة (وضر).

(٥) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج (قدم).

(٦) البيتان لابن أبي عتيق في محاضرات الأدباء ٢/١٥٣، ولأبي محجن، في محاضرات الأدباء ٢ / ٢٩٥، ولم يردا في ديوانه.

(٧) هو أبو نواس. والقصيدة في ديوانه ٦٣٢.

فسمَونا للقنيص معاً فدفعناهُ إلى أظْب[١]
فاستدرَّته فدرَّ لها يَلْطِمُ الرُّفْغينِ بالتُّرب[٢]
فادَّراها وَهْيَ لاهيةٌ في جميم الحاج والغَرْب[٣]
ففرى جُمَّاعهنَّ كما قُدَّ مخلولان من عَصبِ[٤]

ثم قال :

غير يعفورٍ أُهلّ به جاف دَفَّيه عن القَلْب[٥]
ضمّ لَحْيَيه بمخْطمه ضَمَّك الكسرَينِ بالشعب
وانتحى للباقياتِ كما كَسرتْ شَغْواءُ من لهْب[٦]
فتعايا التَّيسُ حين كبَا ودنا فُوهُ من العَجْب[٧]
ظلَّ بالوعساء ينفُضه آرِماً منه على الصُّلْب[٨]
تلكَ لذَّاتي وكنتُ فتًى لم أقُلْ من لذّةٍ حسبي

٢٧٩ - [الإهلال والاستهلال]

وأما قوله [٩]: «غير يعفور أُهلَّ به»، فالإهلال الذي ذكر هو شيءٌ يعتريه في ذلك الوقت، يخرج من جوفه صوتٌ شبيه بالعُواء الخفيف، وهو ما بين العواء والأنين، وذلك من حاق الحرص، وشدَّة الطلب، وخوف الفوات. ويقال : أهلّت السماءُ، إذا صبَّت، واستهلت: إذا ارتفع صوت وقعها، ومنه الإهلال بالحج. وقال ابن أحمر: [من السريع]

يُهِلُّ بالفرقد رُكبانُها كما يُهلُّ الراكبُ المعتمِرْ[١٠]

---

(١) السامي: الصائد. أظب: جمع ظبي.
(٢) الرفغين: الإبطين.
(٣) جميم الحاج: الشجر الكثير. الغرب: شجرة ضخمة ذات أشواك.
(٤) فرى: شقّ وفرّق.
(٥) اليعفور: الظبي. جاف: بلغ بالطعنة الجوف. دفيه: جنبيه.
(٦) الشغواء: العقاب. كسرت: ضمّت جناحيها. اللهب: ما بين كل جبلين.
(٧) كبا: سقط على وجهه. العجب: الذَّنَب.
(٨) الوعساء: اللين من الرمل. أرم: عضّ.
(٩) ورد القول نفسه في اللسان (هلل) ١١ / ٧٠٢، ولم ينسبه إلى الجاحظ.
(١٠) البيت لابن أحمر في ديوانه ٦٦، واللسان (ركب، عمر، رجع)، والتاج (ركب)، وأساس =

ومنه استهلال الصبي، ولذلك قال الأعرابيُّ : أرأيت من لا شرب ولا أكل ولا صاح واستهل، أليس ذلك يُطَلّ[1] ؟!

٢٨٠ - [معرفة أبي نواس بالكلاب]

وإذا ضبَع الكلبُ، وهو أن يمدَّ ضبْعه كلَّه، ولا يكون كالحمار الضيِّق الإبطيْن - والكلبُ في افتراش ذراعيه وبسط رجليه حتَّى يصيب قصُّه الأرض، أكثر من الفرس- وعند ذلك ما يَنْشط أذنيه حتَّى يدميهما ولذلك قال الحسن بن هانئ، وقد طال ما نعتَ بهما : [من الرّجز]

فانصاع كالكوكب في انحداره لَفْتَ المشير مُوهناً بناره[2]
شَدًّا إذا أحْصفَ في إحضاره خرّقَ أذنيه شبَا أظفارِه[3]

وأوّل هذه الأرجوزة :

لما غَدَا الثَّعلبُ من وِجارِهِ يَلتَمِس الكَسْب على صغارِهِ

وأنا كتبتُ لك رجزه في هذا الباب، لأنَّه كان عالماً راوية، وكان قد لعب بالكلاب زماناً، وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب، وذلك موجود في شعره، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه، هذا مع جودة الطبع وجودة السبك، والحذق بالصنعة، وإن تأمَّلتَ شعرَه فضَّلتَهُ، إلاَّ أن تعترض عليك فيه العصبيّة، أو ترى أنّ أهل البدو أبداً أشعرُ، وأنَّ المولَّدين لا يقاربونهم في شيء. فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحقَّ من الباطل، مادمتَ مغلوباً.

٢٨١ - [طرديات أبي نواس]

[١] قال الحسن بن هانئ: [من الرجز]

لما غدا الثعلبُ من وِجارِه يلتَمس الكسبَ على صغاره[4]
عارضَهُ في سَنَن امتياره مضمَّرٌ يَمُوجُ في صِداره[5]

= البلاغة (هلل)، وتهذيب اللغة (هلل)، وبلا نسبة في اللسان والتاج (هلل). الفرقد: نجم في السماء لا يغرب.

(١) يطلّ: يُهدر. والقول في النهاية ٣/١٣٦، ٥/٢٧١، والبيان ١/٢٨٧.

(٢) ديوان أبي نواس ٦٢٩-٦٣٠، وكتاب الانوار ومحاسن الأشعار ٢/١٢٢، وديوان المعاني ٢/١٣٣.

(٣) احصف: اشتد وأسرع. الإحضار: شدة العدو.

(٤) ديوان أبي نواس ٦٢٩-٦٣٠، وكتاب الانوار ومحاسن الأشعار ٢/١٢٢.

(٥) السنن: الطريق. امتار: طلب الميرة، اي الطعام.

في حَلق الصُّفْر وفي أسيارِه منضمَّة قُصْراهُ من إضماره[1]
قد نَحتَ التسهيمُ من أقطاره من بعد ما كان إلى أصبْاره[2]
غَضاً غَذَتهُ الجُورُ من عشَاره أيَّام لا يُحجبُ عن أظآره[3]
وهو طَلاً لم يَدْنُ من إشغاره في مَنْزلٍ يُحجَبُ عن زُوَّاره
يُساسُ فيه طَرَفَيْ نهارِه حتَّى إذا أحْمدَ في اخْتباره
وآضَ مثلِ القُلب من نُضاره كأنَّ خلفَ ملتقى أشفاره[4]
جَمْرَ غضى يدمِنُ في استعاره كأنَّ لَحيَيه لدى افتراره
شك مَساميرَ على طَواره يضمُّ قُطريه من اضطباره[5]
وإن تمطَّى تمّ في أشباره عَشْرٌ إذا قَدّر في اقتداره
سمْعٌ إذا استَرْوَحَ لم تُماره إلا بأن يُطلَقَ من عذاره[6]
فانصاعَ كالكوكب في انحداره لَفْتَ المُشيرِ مُوهناً بناره
شداً إذا أحْصَفَ في إحضاره خرَّق أذنيه شبا أظفاره
حتى إذا ما انساب في غباره عافَرهُ أخْرَقُ في عفاره[7]
فتَلتَلَ المفْصِلَ من فَقارِه وشقَّ عنه جانبَيْ صِدارِه

ما خيرَ للثَّعلب في ابتكاره

[٢] وقال في كلب سُليمان بن داود الهاشميّ – وكان الكلبُ يسمى زُنبوراً:
[من الرجز]

إذا الشياطينُ رأتْ زُنبورا قد قُلِّدَ الحلقَةَ والسُّيورا[8]
دَعَتْ لخزَّان الفلا ثُبُورا أدفى ترى في شدقه تأخيرا[9]
ترى إذا عارضْتَه مفرورا خناجراً قد نبتَتْ سُطورا[10]

---

(١) قصراه: أسفل أضلاعه.
(٢) التسهيم: الضمور، أقطاره: نواحيه. أصباره: أي ممتلئ بدين.
(٣) الخور: مفردها خورة؛ وهي الناقة الغزيرة اللبن.
(٤) القلب: السوار.
(٥) طواره: أي حده.
(٦) السمع: ولد الذئب من الضبع.
(٧) عفاره: ترابه.
(٨) ديوان أبي نواس ٦٣٣، وكتاب الأنوار ومحاسن الأشعار ٢ /١١٨.
(٩) خزان: جمع خزز، وهو الذكر من الأرانب. الثبور: الهلاك. الأدفى: الذي يمشي إلى جانب، وذلك أسرع له.
(١٠) فرّ الدابة: كشف عن أسنانها لينظر ما سنها.

مُشتبكات تنظمُ السُّحورا أُحْسِنَ في تأديبه صغيرا[1]
حتّى توفّى السَّبْعةَ الشهورا من سنِّه وبَلغَ الشُّغورا
وعَرف الإيحاءَ والصَّفيرا والكفَّ أنْ تومئ أو تشيرا
يعطيك أقصى حُضْره المذخورا شَدًّا تَرَى من همزه الأُظفُورا[2]
مُنتشطاً من أذنه سُيورَا فما يزالُ والغاً تامورا[3]
من ثعلب غادَرَه مجزورا أو أرنب كوَّرَها تكويرا
أو ظبية تقرو رَشاً غريرا غادَرها دون الطَّلا عَقيرا[4]
فأمتعَ اللّهُ به الأميرا ربِّي، ولا زالَه مسرورا

وقد قال كما ترى :

شدًّا ترى من هَمْزه الأظفورا مُنتشِطاً من أُذنه سيُورا

بإثر قوله :

حتَّى توفَّى السبعة الشهورا من سنِّه وبلغ الشغورا

فإنَّ الكلب إذا شغر برجله وبالَ، فذلك دليلُ على تمام بلوغه للإلقاح، وهو من الحيوان الذي يحتلم[5].

وأما احتلام الغلام فيعرف بأمور : منها انفراقُ طرف الأرنبة، ومنها تغيُّر ريح إبطيه، ومنها الأنياب، ومنها غلظ الصوت.

ومن الغلمان من لا يحتلم. وفي الجواري جوارٍ لا يحضْن، وذلك في النساء عيب، وليس مثله من الرجال عيباً، وقد رأيت رجالاً يوصفون بالقوة على النساء، وبعضهم لم يحتلم إلا مرة أو مرتين، وبعضهم لم يحتلم البتة.

[٣] وقد قال الحسن بنُ هانئ مثل ذلك، في أرجوزة أخرى : [من الرجز]

يَمْري إذا كان الجراءُ عبْطا براثنا سُحْمَ الأثافي مُلْطا
يَنْشِط أذنيه بهنّ نَشْطا

---

(١) السحور: جمع سَحْر؛ وهو الرئة.
(٢) الحضر: شدة الجري. الهمز: الضغط والغمز.
(٣) والغاً تامورا: شارباً للدم.
(٤) تقرو: تقصد. الرشا: الظبي.
(٥) عيون الأخبار ٢ / ٨٠.

وهذه الأجوزة أوَّلها(١):

عَدَّدْت كلباً للطِّرادِ سَلْطا مقلَّداً قلائداً وَمقْطا(٢)
فهو الجميل والحسيب رهْطا ترى له شدقين خُطّا خَطّا
يمري إذا كان الجراء عَبْطا براثناً سُحْمَ الأثافي مُلْطا
ينشط أُذْنَيه بهنَّ نشطاً تخالُ ما دَمينَ منها شرطا
ما إنْ يقعنَ الأرض إلا فَرْطا كأنَّما يُعجلنَ شيئاً لقْطا
أعجَلَ من قول قَطاة قطّا فاجتاح خِزَّان الصحارى الرُّقْطا(٣)
يَلْقَين مِنه حَكماً مشْتطاً للعظْم حطماً والأديم عَطّا

والشعراء إذا أرادوا سرعة القوائم قالوا كما قال: [من البسيط]

يخفي التُّرابَ بأظْلاف ثمانية ومَسُّهن إذا أقبلن تَحليلُ(٤)

وقال الآخر: [من الكامل]

وكأنَّما جَهَدَتْ أَلِيَّتُهُ أن لا تَمَسَّ الأرضَ أربَعُهُ(٥)

فأفرط المولَّدون في صفة السرعة ـ وليس ذلك بأجود ـ فقال شاعرٌ منهم يصف كلبة بسرعة العَدْو: [من الرجز]

* كأنَّما تَرفَعُ ما لم يُوضَعِ(٦) *

وقال الحسن بن هانئ: [من الرجز]

* ما إنْ يقعن الأرض إلا فرْطا *

[٤] وقال الحسن بن هانئ في نعت كلب: [من الرجز]

أنعتُ كلباً أهلُه في كَدِّه قد سَعِدتْ جدودُهم بِجَدِّه(٧)

---

(١) ديوان أبي نواس ٦٢٧، وكتاب الأنوار ٢ / ١٢٤.

(٢) السلط: الشديد.

(٣) الخزان: جمع خزز، وهو الذكر من الأرانب. الرقط: جمع أرقط؛ وهو الذي يخالط سواده بياض.

(٤) البيت لعبدة بن الطبيب في ديوانه ٧١، وشرح اختيارات المفضل ٦٦٧، ونوادر أبي زيد٩، واللسان (حلل)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ٦١٨، والخصائص ٣ / ٨١.

(٥) البيت لخلف الأحمر في ديوان المعاني ٢ / ١٣٤، وكتاب الأنوار ١ / ٣٣٢، والتشبيهات لابن أبي عون ٣٨، والصناعتين ٩٧، ونسب خطأ إلى حميد بن ثور في سرقات أبي نواس ٦٥.

(٦) الرجز في محاضرات الأدباء ٢ / ٢٨٥، والصناعتين ٧٩.

(٧) ديوان أبي نواس ٦٢٤، وكتاب الأنوار ٢ / ١١٥، والبيزرة ١٤٩–١٥٠، وحياة الحيوان ٢ / ٢٦١.

فكلُّ خيرٍ عندهم من عنده | يظلُّ مولاه له كَعبده
يبيتُ أدنى صاحب من مهْده | وإن عري جلَّله بُبرْده
ذو غُرَّةٍ محجلٌ بزَنْده | تَلَذّ منه العينُ حُسنَ قدِّه
يا حُسنَ شدقيه وطول َ خدِّهَ | تلقَى الظِّباء عنتاً من طَرْده
يشربُ كأساً شدُّها في شدّه | يا لكَ مِنْ كلب نسيح وحْدهِ[1]

[٥] وقال في صفاتها، وأسمائها وسماتها، وأنسابها، وألقابها، وتفدية أربابها لها كما ذكرنا قبل ذلك - [2]: [من الرجز]

قد أغتدي والطَّيرُ في مَثْواتها | لم تُعْرِب الأفواهُ عن لُغاتها
بأكلب تمرَحُ في قدّاتها | تَعُدُّ عينَ الوَحْشِ من أقواتها[3]
قد نحَتَ التقريح وارياتها | من شدَّة التسهيم واقتياتها[4]
وأشفَقَ القانصُ من حُفاتها | وقلت ُ قد أحكمتَها فهاتها
وأدْن للصَّيد مُعلَّماتَها | وارفعْ لنا نسبةَ أمَّهاتَها
فجاء يُزجيها على شياتَها | شُمَّ العراقيب مؤنَّفاتها[5]
غُرَّ الوجوه ومحجَّلاتها | مُشرفَةَ الأكنافَ مُوفياتها[6]
قُود الخراطيم مُخرْطَماتَها | سوداً وصُفْراً وخَلَنْجيَّاتها[7]
مُسَـميَّات ومُلَقَّباتـهَـا | حُمْرا وبيضا ومطوّقاتها
مختبَرَات من سَلُوقيَّاتها | كأنّ أقماراً على لَبَّاتها
تَرَى على أفخاذها سماتَها | مُفـدَّيـات ومُحمَّيـاتـهـا
مفروشة الأيدي شَرَنْبَثاتِها | شُمَّ العَراقيب مؤلفاتها[8]

---

(١) في أدب الكاتب ٥٣ (يقولون فلان نسيج وحده، وأصله أن الثوب الرفيع النفيس لا ينسج على منواله غيره، وإذا لم يكن نفيساً عُمِلَ على منواله سَدَى عدة أثواب، فقيل ذلك لكل كريم من الرجال). و«نسيج وحده» من الأمثال في الفاخر ٤٠، ومجمع الأمثال ١ / ٤٠، والمستقصى ٢ / ٣٦٧، وجمهرة الأمثال ٢ / ٣٠٣.

(٢) ديوان أبي نواس ٦٢٨، وكتاب الأنوار ٢ / ١٢٠، والبيزرة ١٥٢-١٥٣.

(٣) القدَّة: سير يقدّ من جلد غير مدبوغ. العين: البقر.

(٤) الواريات: السمينات. التسهيم: الضمور. اقتياتها: طلبها القوت.

(٥) يزجيها: يسوقها. الشية: العلامة. شم: مرتفع. العرقوب: هو في رجل الدابة بمنزلة الركبة في يدها.

(٦) مشرفة الأكناف: عالية النواحي. الموفيات: المشرفات.

(٧) الخلنجي: أصفر خفيف تعلوه غبرة.

(٨) مفروشة الأيدي: مبسوطتها. الشرنبث: الغليظ.

حيدَ الأظافيرِ مُكَعْبراتِها زُلَّ المآخير عَمَلَّساتها[1]
تسمعُ في الآثار من وحَاتِها[2]
منْ نَهمِ الحرص ومن خَواتِها لتَفْثأ الأرنبَ عَنْ حياتها[3]
إنَّ حياةَ الكلبِ في وفاتها حتَّى ترى القدرَ على مَثْفاتها[4]
كثيرة الضِّيفانِ من عُفاتِها تقذِفُ جالاها بجَوْزَي شاتها[5]

فقد قال كما ترى :

تسمَعُ في الآثار مِنْ وحاتها من نهَم الحرِص ومن خَواتِها

وهذا هو معناها الأول، وأما قوله[6]:

* تعُدُّ عين الوَحْش من أقواتها *

فعلى قول أبي النَّجم : [من الرجز]

* تعُدُّ عانات اللِّوى من مالها *

وزعموا أنَّ قوله : [من الرجز]

* كطلعة الأشمط من جلبابه *

هو قول الأول : [من الرجز]

* كطلعةِ الأشمطِ من كسائه *

وهو كما قال الآخر : [من الرجز]

* كطَلْعةِ الأشمَطِ من بُرْد سَمَلْ *

[٦] وقال الحسن بن هانئ: [من الرجز]

لمَّا تبدَّى الصبحُ من حِجابه كطَلْعَةَ الأشمَطِ من جلبابه[7]
وانعدلَ اللَّيلُ إلى مآبِه هِجْنا بكلبٍ طالما هِجْنا به

---

(١) الأحيد: المائل. المكعبر: الشديد. زل: جمع أزل؛ وهو الخفيف اللحم. العملس: القوي السريع.
(٢) الوحاة: الصوت.
(٣) الخوات: الصوت. فثأ: منع.
(٤) المثفاة: موضع الأثافي.
(٥) الجال: الجانب. الجوز: وسط الشيء.
(٦) الشعر والشعراء ٣٨٣، وسرقات أبي نواس ٦٣.
(٧) ديوان أبي نواس ٦٣١، وكتاب الأنوار ٢ / ١١٤.

خَزَّطَهُ القانصُ واغتدى به يَعزُّه طوراً على استصعابه
وتارةً ينصَبُّ لانصبابه فانصاع للصَّوت الذي يعنى به
كلمعَان البرقِ من سحابه
كأنَّ عينيه لدى ارتيابه فَصًّا عَقيقٍ قد تقابَلا به
حتَّى إذا عفَّرَه هاها به بَابَا به يا بعد ما بَابَا به
ينْتسف المقْوَد من جذابه منْ مرَحٍ يغلُو إذا اغلَوْلَى به[1]
ومَيْعة تُعرَف من شَبابه كأنَّ متْنَيه لدى انسلابه[2]
مَتنا شُجَاع لَجَّ في انسيابه كأنَّما الأُظفور في قِنابه[3]
مُوسى صناعٍ رُدَّ في نِصابه يثْرُدُ وجه الأرض في ذهابه[4]
كأنّ نسراً ما توكَّلنا به يَعفُو على ما جرَّ من ثيابه
إلاَّ الذي أثَّرَ من هُدَّابه تَرَى سَوَام الْوَحْشِ يُحْتَوَى به
يَرْحنَ أسْرى ظُفرهِ ونابه[5]

[٧] وقال في ثعلب كان قد أفْلتَ منهُ مراراً: [من الرجز]

قد طالَما أفلتَّ يا ثعالا وطالما وطالما وطالا[6]
جُلت بكلبي يومَكَ الأجوالا ماطَلْتَ منْ لا يسأمُ المطالا[7]
حتَّى إذا اليومُ حدا الآصالا أتاك حَيْنُ يقدمُ الآجالا[8]

[٨] وقال أبو نواس أيضاً: [من الرجز]

يا ربَّ بيتٍ بفضاءِ سَبْسَبِ بَعيد بين السَّمْك والمطنَّبِ[9]
لِفتْيةٍ قد بَكَّرُوا بأكلُبِ قد أدَّبوها أحسنَ التأدبِ

(١) يغلو : يزداد ويرتفع. اغلولى: ارتفع.
(٢) ميعة الشباب: أوله.
(٣) الشجاع: الذكر من الحيات. القناب: غطاء الظفر.
(٤) يثرد: يمزق ويشق.
(٥) سقط البيت من ديوانه، وهو في كتاب الأنوار ٢ / ١١٥.
(٦) ديوان أبي نواس ٦٣٤.
(٧) المطال: المراوغة.
(٨) الحين: الهلاك.
(٩) ديوان أبي نواس ٦٣٤. السبسب: الأرض المستوية البعيدة. السَّمْك: السقف. المطنب: موضع الطنب، وهو حبل يشد به سرادق البيت.

مِنْ كل أدفى مَيَسان المنْكب يشبُّ في القَوْد شبابَ المُقْرَب[1]
يَنشطُ أذْنيه بجدٍّ المخْلَبِ فما تَني وشيقَةٌ من أرنَب[2]
وجلَدَة مسلوبةٌ من ثعلب مقلوبة الفرْوة أوْ لم تُقْلَب
وعيْرُ عاناتٍ وأُمُّ التَّوْلَبِ ومرجلٌ يهدر هَدْر المُصْعَبِ[3]
يَقذف جالاهُ بِجوز القَرهَب[4]

٢٨٢ - [ما يستدلُّ به على فراهية الكلابِ وشياتها وسياستها]

قال بعض من خبر ذلك[5]: إنَّ طول ما بين يدي الكلب ورجليه - بعد أن يكون قصير الظهر - من علامة السُّرعة.

قال[6]: ويصفونه بأن يكون صغير الرأس، طويل العُنقُ غليظها، وأن يشبه بعضُ خلقه بعضاً، وأن يكون أغضف الأذنين مُفرط الغضف، ويكون بعيد ما بينهما، ويكون أزرق العينين، طويل المقلتين، ناتئ الحدقة، طويل الخطم، واسع الشِّدقين، ناتئ الجبهة عريضها، وأن يكون الشَّعر الذي تحت حنكه كأنَّه طاقة ويكون غليظاً، وكذلك شعرُ خدَّيه، ويكون قصير اليدين، طويل الرجلين، لأنه إذا كان كذلك كان أسرع في الصعود بمنزلة الأرنب.

قالوا : ولا يكاد يلحق الأرنب في الصَّعود، إلاَّ كلُّ كلبٍ قصيرِ اليدين، طويل الرِّجلين.

وينبغي أن يكون طويل الصدر غليظاً، ويكونَ ما يلي الأرض من صدره عريضاً، وأن يكون غليظ العضُدين، مستقيم اليدين، مضموم الأصابع بعضها إلى بعض، إذا مشى أو عدا، وهو أجدرُ ألاَّ يصير بينها من الطِّين وغير ذلك ما يفسُدها، ويكون ذكيَّ الفؤاد نشيطاً، ويكون عريض الظَّهر، عريض ما بين مفاصل عظامه، عريض ما بين عظمي أصلِ الفخذين اللذين يصيبان أصل الذنب، وطويل الفخذين

---

(١) الأدفى: المعوج الخطم. الميسان: التبختر. المقرب: الكريم من الخيل.
(٢) ينشط: يجذب. الوشيقة: لحم يقدد حتى ييبس.
(٣) العير: الحمار الوحشي. العانات: جماعات الحمر الوحشية. أم التولب: الأتان، وهي أنثى الحمار. المرجل: القدر يطبخ فيها. المصعب: الفحل من الإبل.
(٤) القرهب: الكَبير الضخم.
(٥) عيون الأخبار ٢ / ٨١.
(٦) عيون الأخبار ٢ / ٨٠.

غليظهما شديد لحمهما، ويكون رزين المحزم[1]، رقيق الوسط طويل الجلدة التي بين أصل الفخذين والصدر، ومستقيم الرجلين، ويكون في ركبته انحناء ويصير قصير الساقين دقيقهما، كأنَّهما خشبة من صلابتهما. وليس يكره أن تكون الإناث طوال الأذناب، ويكره ذلك للذكور. ولينُ شعرهما يدلُّ على القوة.

وقد يرغب ذلك في جميع الجوارح من الطير وذوات الأربع، من لين الرِّيش لذوات الريش.

ولينُ الشَّعر لذوات الشعر من عِتاق الخيل علامةٌ صالحة.

قال: وينبغي أن يكون الكلبُ شديد المنازعة للمقود والسِّلسلة، وأن يكون العظم الذي يلي الجنَبين من عظام الجنبين صغيراً في قدر ثلاث أصابع.

وزعم أنَّهم يقولون: إنّ السُّود منها أقلّها صبراً على البرد والحر، وإنّ البيض أفرهُ إذا كنَّ سُودَ العيون.

قال[2]: ومن علامة الفرَه التي ليس بعدها شيء، أن يكون على ساقيه أو على إحداهما أو على رأس الذنب مخلب، وينبغي أن يُقطع من السَّاقين، لئلا يمنعه من العدو.

٢٨٣ - [خير طعام للكلب]

وذكرَ أنَّ خير الأشياء التي تُطعمُها للكلب الخبزُ الذي قد يَبِس، ويكُون الماءُ الذي يُسقاه يُصبُّ عليه شيءٌ من زيت، فإنَّ ذلك كالقتِّ[3] المحضّ للخيل، ويشتدُّ عليه عدوُه.

وقال: خير الطعام في إسمان الكلاب رأسٌ مطبوخٌ، وأكارعُ بشعرها، من غير أن تُطعم من عظامها شيئاً، والسَّمنُ إذا طعم منه قدرَ ثلاث سُكُرَّجات[4] مرَّتين أو ثلاث مرات فإنَّ ذلك مما يسمِّنه، ويقال إنَّه يُعيدُ الهرم شابًّا[5]، حتَّى يكونُ ذلك في الصَّيد وفي المَنظر، والعظمُ والثَّريد من أردأ ما تأكله للعَدْوِ.

---

(١) المحزم: موضع الحزام من الدابة. الرزين: الثقيل.

(٢) عيون الأخبار ٢ / ٨١.

(٣) القت: الفصفصة، وهو نبات يسمى البرسيم.

(٤) سكرجة: إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم، وهي كلمة فارسية.

(٥) عيون الأخبار ٢ / ٨١.

٢٨٤ - [من علاج الكلب]

وممَّا يكونُ غذاءً ومن خير شيءٍ يُداوى به الكلبُ من وجع البطن والديدان، أن يطعم قطعة أليةٍ وصوف شاةٍ معجوناً بسمن البقر، فإنَّهُ يُلقي كلَّ دُودٍ وقذرٍ في بطنه.

وخير ما يعالج به الحَفا(١) أن يُدْهنَ استُه ثلاثة أيام. ويجَمّ فيها ولا يستعمل، أو يمسح على يديه ورجليه القطرانُ.

وذكر عن خزيمة بن طرخان الأسديّ، من أهل همذان، أنَّه قال: ليس من علاج الكلب خير من أن يُحقَن.

وقال: يقال كديَ الجروُ يكدى كدًى وهو داءٌ يأخذ الجراء خاصَّة، يصيبها منه قيءٌ وسعال، حتَّى تَكوى بين عينيها، ويقال أكدى الرجلُ إكداء: إذا لم يظفر بحاجته. والكدية من الأرض: ارتفاع في صلابة . ويقال في الماء: حفرَ فأكدى .

وزعم صاحبُ المنطق أنَّ الكلاب إذا كان في أجوافها دُود، أكلت سنبلَ القمح فتبرأ.

وزعم أنَّ الكلاب تمرض فتأتي حشيشةً تعرفُها بعينها، فتأكل منها فتبرأ.

٢٨٥ - [عداوة بعض الحيوان لبعض]

وزعم صاحب المنطق أَنَّ العُقابَ تأكلُ الحيّاتِ، وأَنَّ بينَهما عداوةً؛ لأنَّ الحيَّةَ أيضاً تَطلبُ بيضَها وفراخها.

قال: والغُداف يقاتل البُومة، لأنَّ الغُدافَ يَخْطف بيضَ البومة نهاراً. وتشدُّ البومةُ على بيض الغُداف ليلاً فتأكله؛ لأنَّ البومةَ ذليلةٌ بالنهار رديَّة النظر، وإذا كانَ اللّيلُ لم يَقْوَ عليها شيءٌ من الطير. والطير كلُّها تعرِف البومةَ بذلك وصنيعَها بالليل، فهي تطير حولَ البومةِ وتضربُها وتَنْتِف ريشها. ومن أجْلِ ذلك صارَ الصيَّادون ينصِبونها للطير.

والغداف يقاتل ابنَ عِرْسٍ؛ لأنه يأكل بيضَه وفراخَه.

قال: وبين الحدأة والغُداف قتالٌ؛ لأنَّ الحِدأة تخطِفَ بيضَ الغداف؛ لأنَّها أشدُّ مخالبَ وأسرَعُ طيراناً.

---

(١) الحفا: رقة القدم. وانظر عيون الأخبار ٢ / ٨١.

وبين الأُطْرُغُلّة(١) والشَّقْرَاق(٢) قتال؛ لأنَّه يقتل الأُطْرُغُلّة ويُطالبها.

وبين العنكبوت والعَظَاية(٣) عداوة، والعَظَاية تأكل العنكبوت.

وعصفور الشَّوك يعبَثُ بالحمار، وعبَثه ذلك قتَّال له؛ لأنَّ الحمارَ إذا مَرَّ بالشَّوك وكانت به دَبَرَة(٤) أو جَرَبٌ تحكَّك به، ولذلك متَى نهق الحمار سقطَ بيضُ عصفور الشوك، وجعلتْ فراخُه تخرج من عشّها. ولهذه العِلّة يطيرُ العصفورُ وراءَ الْحِمار وينقُر رأسه.

والذئب مخالفٌ للثَّور والحمارِ والثعلبِ جميعاً، لأنَّه يأكل اللحم النِّيءَ ولذلك يقع على البقر والحمير والثعالِب.

وبين الثعالِبِ والزُّرَّق(٥) خلافٌ لهذه العلّة؛ لأنَّهما جميعاً يأكلان اللحم.

والغراب يُخالف الثَّورَ؛ ويُخالف الحمار جميعاً، ويطير حولَهما، وربّما نَقَرَ عيونَهما. وقال الشاعر: [من الرجز]

عَادَيْتَنَا لازلت في تَبَابِ عَدَاوَةَ الْحِمارِ للغُرابِ

ولا أعرف هذا من قول صاحب المنْطق؛ لأنَّ الثعلبَ لا يجوزُ أن يُعَاديَ مِنْ بينِ أحرار الطّير وجَوارحها الزُّرَّقَ وحدَه، وغيرُ الزُّرَّق آكلُ اللّحم. وإن كان سببُ عداوته له اجتماعَهُما على أكْلِ اللّحم، فليُبْغض العقابَ من الطير، والذئبَ من ذوات الأربَع؛ فإنّها آكل للّحم. والثَّعلَبُ إلى أنْ يحسُدَ ما هو كذلك أقربُ، وأولَى في القياس، فلو زعم أنّه يَعُمُّ أكَلَةَ اللّحم بالعداوة، حتّى يُعطى الزُّرَّق من ذلك نصيبَه، كان ذلك أجْوَزَ. ولعلّ المترجِم قد أساء في الإخبار عنه.

قال: والحيَّة تقاتل الخنزيرَ، وتقاتل ابنَ عِرْس، وإنّما تقاتلُ ابنَ عِرْسٍ إذْ كان مأواهما في بيتٍ واحد، وتقاتَلُ الخنزير لأنّ الخنزير يأكلُ الحيَّات. ويزعمون أنّ الذي يأكلُ الحيَّاتِ القَنافذُ، والأوعالُ، والخنازيرُ، والعِقْبان.

---

(١) الأطرغلة: اسم يقع على القمرية، والفاختة المطوقة.

(٢) الشقراق: طائر صغير يسمى الاخيل، والعرب تتشاءم به. حياة الحيوان ١ / ٦٠٥، وادب الكاتب ٢١٢.

(٣) في حياة الحيوان ٢ / ٣٢ (هي دويبة ملساء تعدو وتتردد كثيراً؛ تشبه سام ابرص، وتسمى شحمة الأرض؛ وشحمة الرمل).

(٤) الدبرة: قرحة البعير.

(٥) الزرق: طائر بين البازي والباشق يصاد به.

قال: فالحيَّة تعرف هذا من الخنزير، فهي تُطَالبه.

قال: والغراب مصادقٌ للثَّعلب، والثَّعلبُ مصادقٌ للحيَّة، والأسد والنمر مختلفان.

قال: وبين الفيَلة اختلافٌ شديد، وكذلك ذكورها وإناثها، وهي تَستعمل الأنيابَ إذا قاتَل بعضُها بعضاً، وتعتمد بهَا على الحيطان فتهدِمُها، وتزحَمُ النَّخلةَ بجنبها فَتَصْرَعُها.

وإذا صعُب من ذكورتها شيء احتالوا له حتَّى يكُومَه[1] ذكرٌ آخر، فإذا كامَهُ خضَع أبداً. وإذا اشتَدَّ خُلُقُه وصعُب عصَبوا رِجلَيه فسكن.

ويقال إنَّ البعيرَ إذا صعُب وخافَه القوم، استعانوا عليه فأبركُوه وعَقلوه حتَّى يكومَه فحل آخر، فإذا فعلَ ذلك به ذَلَّ!

وأمَّا أصحابنا فحكَوا وجوهَ العداوة الّتي بين الفيل والسِّنّور - وهذا أعجب - وذهبوا إلى فزع الفيل من السِّنَّور، ولمْ يرَوه يفزع ممَّا هو أشدُّ وأضخم. وهذا البابُ على خلاف الأوّل، كأنَّ أكثرَ ذلك الباب بُنيَ على عداوة الأكْفاء.

والشاةُ من الذئب أشدُّ فَرَقاً منها من الأسد، وإن كانت تعلم أنَّ الأسد يأكلها.

وكذلك الحمام يَعتريه من الشَّاهينِ ما لا يعتريه من العُقاب والبازي والصقر.

وكذلك الفأرة من السِّنّور[2]، وقد يأكلها ابْنُ عِرْس. وأكثر ذلك أن يقتلها ولا يأكلها. وهي من السِّنّورِ أشدُّ فرَقاً.

والدَّجاجة تأكلها أصناف من السباع، والثعلبُ يطالبها مُطالبةً شديدة، ولو أنَّ دجاجاً على رفٍّ مرتفع، أو كُنَّ على أغصان شجرةٍ شاهقة، ثمّ مرَّ تحتَها كلُّ صنفٍ ممَّا يأكلها، فإنَّها تَكونُ مستمسكةً بها معتصمةً بالأغصان التي هي عليها. فإذا مرَّ تحتها ابنُ آوى وهُنَّ ألفٌ، لم تَبْقَ واحدةٌ منهنَّ إلاَّ رمَتْ بنفسها إليه.

٢٨٦ - [مايأباه بعض الحيوان من الطعام]

والسبع لا يأكل الحارَّ، والسِّنَّور لا يذوقُ الحموضة، ويَجزَع من الطَّعام الحارِّ. والله تعالى أعلم.

---

(١) كام الفرس أنثاه يكومها: إذا نزا عليها.

(٢) ربيع الأبرار ٥/ ٤٣٥.

٢٨٧ - [رجع القول إلى مفاخر الكلب]

ثمَّ رجَع بنا القولُ إلى مفاخر الكلب، ونبدأ بكلِّ ما أشبه فيه الكلبُ الأُسُودَ والإنسان؛ وبشيء من صفات العظَّال.

قال صاحب المنطق (في كتابه الذي يقال له الحيوان، في موضعٍ ذكَرَ فيه الأسد) قال: إذا ضربَ الأسَدُ بمخالبه، رأيتَ موضع آثار مخالبه في أقدار شرط الحجَّام أو أزْيدَ قليلاً، إلاّ أنَّه من داخلٍ أوسعُ خرْزاً، كأنَّ الجلدَ ينضمُّ على سم مخالبه، فيأكل ما هنالك. فأمّا عضّته فإنَّ دواءَها دواءُ عضَّة الكلب.

قال: وممَّا أشبه فيه الكلبُ الأسدَ انطباقُ أسنانه. وممّا أشبَهَ فيه الكلب الأسدَ النَّهَمُ، فإنَّ الأسدَ يأكل أكلاً شديداً، ويَمْضَغُ مَضغاً متداركاً، ويبتلع البَضْع[1] الكبار، من حاقِّ الرغبة[2] ومن الحرص، وكالذي يخاف الفوت. ولمَا نازعَ السِّنَّورَ من شَبَهه صار إذا ألقيت له قطعة لحم فإمَّا أنْ يحملها أو يأكلها حيثُ لا تراه؛ وإمَّا أن يأكلها وَهو يكثر التلفُّت، وَإنْ لم يكنْ بحضْرته سِنَّور ينازعُه، والكلبُ يَعضُّ على العَظمِ ليُرضَّه، فإنْ مانَعَه شيءٌ وكان مما يُسيغه، ابتَلَعَه وهو واثق بأنَّه يستَمريه ويُسيغه.

والنَّهم يعرِض للحيَّات، والحيَّة لا تمضَغُ، وإنما تبتلعُ ذواتُ الرَّاسات[3]، وهي غير ذوات الأنياب، فإنّها تمضَغ المضْغة والمضغتين وإن ابتلعت شيئاً فيه عظم أتَتْ عُوداً شاخصاً فالتوت عليه، فحطَمت العظم، والحيَّة قويّة جداً.

قال: والأسد وإن كان ممَّا لا يفارق الغياض ولايفارق الماء فإنّه قليلُ الشرب للماء، وليس يُلقى رَجْعَه إلاّ مرةً في اليوم، ورَبّما كان في اليومين والثلاثة. ورجعُه يابس شديد اليُبس متعلّق، شبيه برجيع الكلب. ويشبهه أيضاً من جهة أخرى وذلك أنّهما جميعاً إذا بَالاَ شَغَرا[4].

والكلب من أسماء الأسد، لقرابةِ مابينه وبينَ الكلب.

والكلبُ يُشبه الخنزير، فإنَّ الخنزير يسمَن في أسبوع، وإن جاع أيّاماً ثم شبِع شَبعةً تبيَّن ذلك تبيُّناً ظاهَراً. ألا تراهُ ينزع إلى محاسن الحيوان، ويُشبه أشراف السباع وكرائم البهائم ؟!

---

(١) البضع: جمع بضعة، وهي القطعة من اللحم.

(٢) حاق الرغبة: شدتها.

(٣) الراسات: جمع رأس، وهو جمع غريب أتى به الجاحظ.

(٤) شغر: رفع إحدى رجليه.

٢٨٨ - [عظال الكلاب]

ويقال: ليس في الأرض فحلٌ من جميع أجناسِ الحيوان لِذَكَرِه حجمٌ ظاهر إلاّ الإنسان والكلب. وليس في الأرض شيئان يتشابكان من فَرْط إرادة كلٍّ واحدٍ منهما لطباع صاحبه، حتى يلتحم عضوُ الذكر بعضو الأنثى حتَّى يصير التحامهما التحامَ الخلقة والبِنْية، لا كالتِحامِ الملامَسَة والملازمة، إلاّ كما يُوجَد من التحام قضيبِ الكَلب بثَفْر الكلبة

وقد يلزَق القُراد، ويَغْمس العَلس[١] مقاديمه في جوف اللحم، حتَّى يُرَى صاحبُ القُراد كأنَّه صَاحِبُ ثُؤلُول[٢]. وما القُراد المضروبُ به المثلُ في الالتحام إلاّ دون التحام الكلبين. ولذلك إذا ضربوا المثل للمتباضِعين بالسُّيوف، والملْتَقِيَين للصِّراع، فالتفَّ بعضُهم ببعض، قالوا: «كأنهم الكلابُ المتعاظلة»[٣]. وليس هذا النَّوعُ من السِّفاد إلاّ للكلاب وزعم صاحبُ المنطِق وغيرُه، أنَّ الذُّبابَ في ذلك كالكلب.

٢٨٩ - [إسماعيل بن غزوان وجارية مويس بن عمران]

وكان إسماعيل بن غَزْوان قد تعشّقَ جاريةً كانت لموَيْس بن عمران، وكانت إذا وقَعَتْ وقعةً إليه لم تمكثْ عندهُ إلاّ بقدرِ ما يقَعُ عليها، فإذا فَرَغ لبست خُفَّها وطارت، وكان إسماعيلُ يشتهي المعاوَدَةَ وأَنْ يطيلَ الحديث، ويُريدُ القَرْص والشمَّ والتقبيلَ والتجريد، ويعلم أنّه في الكَوْم الثاني والثالث أجدر أن يُنْظَرَ، وأجدَرُ أن يَشْتَفِي فكان ربَّما ضَجِرَ ويذكرُها بقلبه وهو في المجلس، فيقول: ياربِّ امسَخْني وإيّاها كلبَين ساعة من الليل أو النَّهار، حتَّى يشغَلَها الالتحامُ عن التفكيرِ في غضَب مولاتِها إن احتَبَسَتْ!!

٢٩٠ - [أعجوبة في الكلبة]

وفي الكلبة أعجوبة أخرى[٤]: وذلك أنّه يسفَدُها كلبٌ أبقعُ وكلب أسودُ وكلب أبيضُ وكلب أصفرُ، فتؤدِّي إلى كلٍّ سافدٍ شِكْلَهُ وشِبْهه، في أكثر مايكُونُ ذلك.

---

(١) العلس: القراد الضخمة.

(٢) الثؤلول: بثر صغير مستدير.

(٣) من أيام العرب «يوم العظالى»، سمي بذلك لركوب الناس فيه بعضهم بعضاً. معجم البلدان (عظالى)، ومجمع الأمثال ٢ / ٤٣٥.

(٤) عيون الأخبار ٢ / ٨١.

٢٩١ - [تأويل الظالع في شعر الحطيئة]

وأما تأويل الظالع في قول الحطيئة: [من الطويل]

تسدَّيتُها مِنْ بَعْدِ مَا نَام ظَالِعُ الـ ـكلاب وأخْبى نارَهُ كلُّ موقدِ(١)

قال الأصمعيّ: يظلَع الكلبُ لبعضِ ما يعرض للكلاب، فلا يمنعه ذلك منْ أن يهيجَ في زمن هَيْج الكلاب، فإذا رأى الكلبة المستحرِمة لم يطمَع في معاظلتها والكلابُ منتبهةٌ تنبَح، فلاَ يزَال يَنتظِرُ وقتَ فَتْرةِ الكلاب ونومها، وذلك مِن آخر الليل.

وقال أُحَيْحَة بن الجُلاَح: [من المنسرح]

يا ليتَني ليلةً إذا هَجع الـ ـنَّاسُ ونام الكلابُ صاحِبُها(٢)

٢٩٢ - [طرديات أخرى لأبي نواس]

[١] وممَّا قِيل في الكلاب: [من الرَّجز](٣):

وفتية من آلِ ذُهلٍ في الذرى من الرقاشيّينَ في أعْلى العُلا(٤)
بيضٍ بهاليلَ كرامِ المُنْتَمَى باتُوا يَسيرون إلى صُوح اللوى(٥)
ينفُون عن أعيُنهِمْ طِيبَ الكرَى إلاّ غشَاشاً بعد ما طال السُّرى(٦)
يعدين إبلاء الفتى على الفتى حتى إذا ما كوكبُ الصُّبح بدَا
مَاجُوا بغُضْفٍ كاليَعاسيب خَسَا ثلاثَةٍ يقطعن حُزَّان الصُّوَى(٧)

---

(١) ديوان الحطيئة ٧٤، واللسان والتاج (ظلع)، والمستقصى ١/١٢٩، ومجمع الأمثال ١/٢٦، والبرصان ١٩٣.

(٢) البيت في الأغاني ١٥/٣٦، والحماسة البصرية ٢/١٨٧.

(٣) يتضح من كلام الجاحظ أن هذه الطردية لأبي نواس، إذ يقول الجاحظ في الطردية التالية «وقال أيضاً»، إلا أن الطردية هذه ليست في ديوانه؟.

(٤) في الأغاني ٢٣/١٥٥: «قال أبو عبيدة: بنو رقاش ثلاثة نفر ينسبون إلى أمهم، واسمها رقاش، وهم: مالك، وزيد مناة، وعامر، بنو شيبان بن ذهل بن ثعلبة..». وانظر جمهرة أنساب العرب ٣١٧، والاشتقاق ٣٥٠.

(٥) بهاليل: جمع: بُهْلول، وهو السيد الجامع لكل خير. صوح: جمع صاحة، وهي أرض لا تنبت شيئاً أبداً. اللوى: ما التوى من الرمل.

(٦) الغشاش: النوم القليل. السُّرى: السير ليلاً.

(٧) غضف: جمع أغضف، وهو الكلب المنكسر أعلى أذنيه إلى خلفه. اليعاسيب: جمع يعسوب، وهو أمير النحل. خسا: أي فرداً، يقال: خسا أو زكا: أي فرد أو زوج. حُزّان: جمع حزيز، وهو الأرض الغليظة. الصوى: الأرض الغليظة المرتفعة.

رحيبة الأشداق غضْف في دَفَا | تَلوي بأذناب قليلات اللِّحا[1]
سَمَعْمَعات الضُّمَّر من طُول الطَّوى | من كلِّ مَضْبُور القرَا عاري النَّسا[2]
مُحَمْلج المَتْنين مَنْحُوض الشَّوى | شَرَنبَث البُرثُن خَفَّاق الحشا[3]
تخالُ منه القصَّ من غير جَنَا | مَسنَّنًا صَفواء في حَيْدَيْ صَفا[4]
يلتهب الغائطُ منْهُ إن عدا | يُقادح المرْوَ وشَذّان الحَصَا[5]
حتَّى إذا استسحَرَ في رَأْد الضُّحى | بمربَإٍ أوْفى به على الرُّبا[6]
أرانباً من دونها سربًا ظبا | نواشزاً من أنَسٍ إلى خَلاً[7]
فوضَى يُدَعْثرنَ أفاحيصَ القطا | لَعلَعنَ واستلْهثن من غيْر ظما[8]
مبالغات في نَهيمٍ وصأَى | كأنَّما أعينُها جمر الغَضى[9]
ثمَّ تطَلّعنَ معاً كالبرق لا | في الأرض يَهوينَ ولا لوح الهوا[10]
كأنّها في شَرطها لما انبرى | كواكبٌ يُرمَى الشّياطينُ بها
يذمَرْنَ بالإيساد ذَمْراً وآيَا | حتى إذا ما كنَّ منهنَّ كها[11]
دارتْ عليهنّ من الموت رَحى | تجذبهنَّ بحديدات الشَّبا[12]
شوَامذ يلعَطْن مَعْبُوط الدِّما | بين خليع الزَّور مرضُوض الصَّلا[13]

---

(١) الدفا: إقبال إحدى الأذنين على الأخرى. ألوت بأذنابها: حركتها. اللحا: ما يحيط بعظم الذنب من اللحم.

(٢) السمعمع: الخفيف اللحم. الطوى: الجوع. المضبور: المكتنز لحماً. القرا: الظَّهر. النَّساء: عرق يستبطن الفخذين.

(٣) الشرنبث: الغليظ. البرثن: الكف مع أصابعها. خفّاق الحشا: ضامر البطن.

(٤) القصّ: الصدر أو عظمه. الجنا: انكباب الصدر إلى الظهر. الصفواء: الملساء. الحيد: ما شخص من الجبل. الصفا: الحجارة الملساء.

(٥) الغائط: الواسع المطمئن من الأرض. المرو: حجارة بيض توري النار. شذان الحصا: ما تطاير منه.

(٦) رأد الضحى: الوقت بعد انبساط الشمس.

(٧) نشز من المكان: خرج منه. الأنس: الجماعة الكثيرة. الخلا: الخلاء.

(٨) دعثر: هدم وفسد. أفاحيص: جمع أفحوصة، وهي مجثم القطاة تضع فيه بيضها.

(٩) النهيم: الصوت، صأى: صاح. الغضى: شجر ينبت بالرمل دائم الخضرة، وهو معروف ببطء انطفاء جمره.

(١٠) اللوح: الهواء بين السماء والأرض.

(١١) ذمر: حضّ. الإيساد: إغراء الكلب بالصيد. كها: معناها: مثلها.

(١٢) الشبا: جمع شباة، وهو الحدّ والطرف.

(١٣) شوامذ: شمذت الناقة: لَقِحَتْ فشالت ذنبها لتُرِيَ اللقاح. لعط: لحس. الدم المعبوط: الطري. الزور: وسط الصدر. الصلا: مكتنفا الذنب.

وبينَ مفْريٍّ النِّياطِ قد شَصَا كأنّه مبتهلٌ إذا دَعا[1]
ومائلِ الفَوْدَينِ مَجلوز القَفا يُقْفِينَ بالأكبادِ منها والكُلَى[2]
وبالقلوبِ وكَرَاديس الطُّلى[3]

[٢] وقال أيضاً[4]: [من الرجز]

لمَّا تَبَدَّى الصُّبْحُ من حِجَابه وانعدلَ الليلُ إلى مآبه
خرَّطه القانصُ واغتدَى به في مِقود يَردَعُ من جِذَابه[5]
يَعُزُّه طوراً على استصعابه وتارةً ينصبُّ لانصبابه
كأنَّما يفترُّ من أنيابه عن مرهَفات السِّنِّ من حِرابِه[6]
يَرْثُم أنفَ الأرضِ في ذَهابه حتَّى إذا أشرَفَ مِن حِدَابه[7]
بعد انحدار الطَّرف وانقلابه بروضة القاعِ إلى أعجابه[8]
أرسَلَه كالسَّهْمِ إذْ غالَى به يكادُ أن ينسَلّ من إهابه[9]
كَلَمَعان البرقِ في سَحابه حتَّى إذا ما كادَ أو حَدَا به
وانصاتَ للصَّوتِ الذي يُدْعَى به كأنَّما أُدْمجَ في خِضابه[10]
مابين لحْيَيه إلى أَقْرَابه مشَهَّر الغُدُوِّ في إيابه[11]

[٣] وقال أيضاً[12]: [من الرجز]

ما البرقُ في ذِي عارضٍ لَمّاحِ ولا انقضاضُ الكوكبِ المُنْصَاحِ[13]

---

(١) مفري: مشقوق. النياط: القلب. شصا: ارتفعت يداه ورجلاه.
(٢) الفوادن: جانبا الرأس. المجلوز: المطوي أو المنزوع.
(٣) الكردوس: كل عظمين التقيا في مفصل. الطلى: جمع طُلية؛ وهي العنق.
(٤) ديوان أبي نواس ٣٦١.
(٥) خرطه: أرسله.
(٦) المرهف: السيف القاطع.
(٧) رثم أنفه: كسره. ويريد أن الكلب يقشر وجه الأرض من شدة عدوه. الحداب: جمع حدب، وهو ما ارتفع وغلظ من الأرض.
(٨) روضة القاع: الموضع الذي يجتمع إليه الماء فيكثر نبته. أعجاب القاع: نهاياته.
(٩) غالى بالسهم: رمى به أبعد ما يمكن. ينسل: يخرج. الإهاب: الجلد.
(١٠) انصات: أجاب.
(١١) الأقراب: الخواصر. المشهر: المعروف.
(١٢) ديوان أبي نواس ٦٣٧، وكتاب الأنوار ٢ / ١١٧–١١٨.
(١٣) العارض: السحاب الذي يعترض الأفق. انصاح: استنار.

ولا انبتات الدَّلو بالمتَّاحِ ولا انسيابُ الحُوتِ بالمُنْدَاحِ[1]
حين دنَا من راحةِ السَّبَّاحِ أَجدَّ في السُّرعة مَن سرياحِ[2]
يَكادُ عِنْدَ ثَمَلِ المرَاحِ إِذا سَمَا الخاتَلُ للأَشْباحِ[3]
يَطيرُ في الجوِّ بلا جَنَاحِ يفترُّ عن مثلِ شَبَا الرِّماحِ[4]
فكَمْ وكَمْ ذِي جُدَّةٍ لَيَاحِ ونازبٍ أعْفَرَ ذي طِماحِ[5]
غادَرَهُ مضرَّج الصِّفاحِ

---

(١) انبتات الدلو: انقطاع حبلها. المتاح: الذي ينتزع الدلو. المنداح: البحر الواسع. ورواية الديوان «ولا انبتات الحوأب بالمنداح». والحوأب المنداح: الدلو الواسع.

(٢) في ديوانه «المشاح» مكان «السباح». سرياح: اسم كلب.

(٣) الثمل: نشوة السكر. المراح: النشاط. الخاتل: الخادع. وفي ديوانه «سما الخايل» مكان «سما الخاتل».

(٤) شبا الرماح: أطرافها.

(٥) الجدة: الخطة السوداء في متن الحمار. اللياح: الأبيض. النازب: الظبي. الطماح: الجماح.

باب آخر في الكلب وشأنه

٢٩٣ - [تفسير شعر قيل في الكلاب]

قال طُفيلٌ الغَنَويّ: [من الطويل]

أناس إذا ما أنكر الكلبُ أهْلَهُ حَمَوْا جارَهُمْ مِن كلِّ شنْعاءَ مُظْلِعِ[١]

يقول: إذا تكفَّروا في السِّلاح لمْ تَعرِفْهُم كلابُهُم.

ولم يَدَّعِ جميعُ أصحابِ المعارفِ إلاَّ أنَّ الكلبَ أشدُّ ثِباتاً، وأصدقُ حِسّاً. وفي ذلك يقول الآخر: [من الطويل]

فلا تَرفَعي صوتاً وكُوني قَصيَّةً إذا ثوَّبَ الدَّاعِي وأنكَرَني كَلْبي[٢]

يقول: إيَّاكِ والصِّراخَ إذا عايَنْتِ الجيش.

وقوله: «أنكرني كلبي»، يخبر أنَّ سلاحَهُ تامٌّ من الدِّرع والمِغْفَر والبَيضَة[٣]. فإذا تكفَّر[٤] بسلاحه أنكره كلبُه فنبحَه.

وأما قوله: [من المتقارب]

إذا خَرِس الفَحل وسطَ الحُجورِ وصاحَ الكلابُ وعُقَّ الْوَلدْ[٥]

فأمَّا قوله: إذا خرِسَ الفحل، فإنَّ الفحلَ [الحصان][٦] إذا عايَن الجيشَ وبوارِقَ السيوف، لم يلتفت لِفْتَ الحُجورِ.

وأمَّا قوله[٧]: وصاح الكلاب. فإنَّ الكلابَ في تلك الحالة تنبَح أربابَها كما تنبح سَرَعَانَ الخَيل إليهم؛ لأنَّها لا تعرفهم من عدُوِّهم.

---

(١) ديوان طفيل الغنوي ٥٣، وأمالي القالي ١ / ٥٥، وسمط اللآلي ٧٥٤، الشنعاء: الداهية المشهورة.

(٢) قصية: بعيدة. الداعي: الذي يدعو إلى القتال. ثوَّب: دعا مرة بعد مرة.

(٣) المغفر: زَرَدٌ من الدرع يلبس تحت القلنسوة، أو حلق يتقنع به المتسلح. البيضة: غطاء من حديد للرأس.

(٤) تكفر: استتر.

(٥) البيت بلا نسبة في أساس البلاغة والتاج (حجر).

(٦) إضافة من أساس البلاغة (حجر).

(٧) في أساس البلاغة نقلاً عن الجاحظ: «ونبحت الكلاب أربابها لتغير هيئاتهم، وعقت الأمهات أولادهن، وشغلهن الرعب عنهم».

وأما قوله: وعُقُّ الولد، فإنَّ المرأةَ إذا صبَّحتهم الخيل، ونادى الرجال يا صباحاه! ذُهلت عن ولدها، وشغَلها الرُّعبُ عن كلِّ شيء[1]. فجعَلَ تركها احتمالَ ولدها والعطفَ عليه في تلك الحالة، عقوقاً منها، وهو قولُهم: نزلتْ بهم أمور لا يُنادَى وليدُها[2]، وإنَّما استعاروا هذه الكلمة فصيّروها في هذا الموضعِ من هذا المكان.

وقدذكر ذلك مزرِّد بن ضِرَارٍ وغيرُه، فقال: [من الطويل]

تَبَرَّأتُ مِن شَتمِ الرجالِ بتوبةٍ ... إلى اللّه مِني لا يُنادَى وَلِيدُها[3]

وقال الآخر: [من الطويل]

ظَهَرتُم على الأحرار من بَعْدِ ذِلَّةٍ ... وشِقْوَةِ عَيشٍ لا يُنادَى وَلِيدُها

والذي يُخْرِسه إفراطُ البرد، وإلحاحُ المطر، كما قال الهذليُّ: [من البسيط]

وليلةٍ يَصْطَلي بالفَرْث جازِرُها ... يَخْتَصُّ بالنَّقرَى المُثرينَ دَاعيها[4]

لا يَنبَحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ ... من الصَّقيعِ، ولا تَسْرِي أفاعيها

وقال ابن هَرْمة: [من الخفيف]

واسألِ الجارَ والمعصَّبَ والأضيا ... ف وهْناً إذا تحيّوْا لديَّا[5]

كيفَ يَلقَوننَي إذا نَبحَ الكلـ ... بُ وراءَ الكُسورِ نَبحاً خَفيًّا

وقال آخر: [من المتقارب]

إذا عميَ الكلبُ في ديمة ... وأخرسهُ اللّه مِن غير صِرّ[6]

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) في مجمع الأمثال ٢/٣٩٠ «هم في أمر لا ينادى وليده»، وفي فصل المقال ٤٧١، وأمثال ابن سلام ٣٤٢ «القوم في أمر لا ينادى وليده»، وانظر الفاخر ٢٨٠، والمستقصي ٢/٣٦١، وجمهرة الأمثال ٢/٣٧٦، ٤٠٧. وفي المثل عدة أقوال منها: أن الصبيان إذا رأوا شيئاً عجيباً تحشدوا له، مثل القراد والحاوي، فلا ينادون؛ ولكن يتركون يفرحون، وقيل: معناه أمر عظيم لا ينادى فيه الصغار، وإنما يدعى فيه الكهول والكبار...

(٣) ديوان مزرد بن ضرار ٥٧، واللسان والتاج (ولد)، وتهذيب اللغة ١٤/١٧٦، وبلا نسبة في مجمع الأمثال ٢/٣٩٠.

(٤) البيتان لجنوب أخت عمرو ذي الكلب في ديوان الهذليين ٣/١٢٦، وشرح أشعار الهذليين ٥٨٢، والمعاني الكبير ٤١٥، ١٢٤٩، ومجموعة المعاني ١٩٠، ولريطة أخت عمرو في نوادر المخطوطات ٢/٢٤٢، ولأبي ذؤيب الهذلي في الحماسة البصرية ٢/٣٥٢، ولبعض هذيل في أمالي المرتضى ١/٣٥٤، والبخلاء ٢١٥، ولعمرو بن الأهتم في ديوانه ١٠١، والحماسة الشجرية ١٨٨-١٩٠، ولهبيرة بن أبي وهب في السيرة لابن هشام.

(٥) ديوان ابن هرمة ٢٢٧.

(٦) الديمة: مطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق. الصر: البرد الشديد.

يقول: الكلبُ وإن أخرَسَه البردُ الذى يكون مع المطر والرِّيح التي تمرُّ بالصَّحارى المطيرة فتَبرُدُ، فإنَّ الكلب وإن ناله ذلك فإنّ ذلك من خِصبٍ، وليس ذلك من صِرّ.

٢٩٤ - [سبب نبح الكلاب السحاب]

والكلب إذا أَلحّت عليه السحائب بالأمطار في أيام الشتاء لقَي جنَّة فمتى أبصَرَ غيماً نبحه(١)، لأنَّه قد عرَف ما يُلَقّى من مِثله، وفي المثل: «لا يَضُرُّ السَّحَاب نُبَاحُ الكلاب»(٢) فقال الشاعر: [من الطويل]

وما ليَ لا أغْزوُ وللدَّهر كَرَّة ... وقد نَبحتْ نحو السماء كلابها

يقول : قد كنت أدَعُ الغَزو مخافَة العطش على الخيل والأنفس، فما عُذري اليوم والغُدران كثيرة، ومَناقع المياه موفورة.

والكلابُ لاتنبَح السحاب إلاّ من إلحاح المطر وترادُفه(٣).

وقال الأفوه الأوديّ، في نبح الكلاب السحاب، وذلك من وصف الغيم : [من الطويل]

له هَيْدَبٌ دانٍ ورعْد ولَجّةٌ ... وبرق تراهُ ساطعاً يتبلّجُ(٤)

فباتَت كلاب الحيِّ ينبَحْن مُزْنَهُ ... وأضْحَتْ بناتُ الماء فيها تعمَّجُ(٥)

٢٩٥ - [قول أبي حيَّة النميري في الكلب]

وقال أبو خالد النميريّ: وذكروا فرعون ذا الأوتاد عند أبي حيَّة النميريّ، فقال أبو حيَّة: الكلبُ خير منه وأحزم! قال: فقيل له كيف خَصَصْتَ الكلبَ بذلك؟ قال: لأنَّ الشاعر يقول : [من الطويل]

وما ليَ لا أغْزُو وللدَّهر كرَّة ... وقد نبحت نحوَ السماءِ كلابُها

وقال الفرزدق: [من الطويل]

فإنَّك إن تهجو حنيفةَ سادراً ... وقبلك قد فاتوا يَدَ المتناوِل(٦)

---

(١) الجنة: الجنون.

(٢) المثل في مجمع الأمثال ٢/٢١٥، والمستقصى ٢/٢٧٢، يضرب لمن ينال من إنسان بما لا يضره.

(٣) من الأمثال قولهم «أهون من النباح على السحاب» والمثل في مجمع الأمثال ٢/٤٠٨، والمستقصى ١/٤٤٥، وجمهرة الأمثال ٢/٣٥٣، ٣٧٣، والدرة الفاخرة ٢/٤٢٩، ٤٣٢.

(٤) البيتان في ديوانه ٩. الهيدب: السحاب المتدلي. اللجة: الجلبة.

(٥) بنات الماء: السمك. تعمج: تسبح في الماء.

(٦) لم يرد البيتان في ديوان الفرزدق.

كفِرعَوْنَ إذ يرمي السَّماءَ بسهمهِ فرُدَّ عليه السهم أفوقَ ناصلِي(١)

فهذا يرمي السماءَ بجهله، وهذا ينَبح السحابَ من جَودَة فطنته.

٢٩٦ - [تعصّب فهد الأحزم للكلب]

وزعم فهدٌ الأحزم أنَّ الكلبَ إنَّما عَرَف مخرَج ذلك الشيء المؤذي له حتَّى نبحه بالقياس، لأنَّه إنما نَبحه بعد أن توالى عليه الأذى من تلك الجهة. وكان فهد يتعصَّب للكلب. فقلت له: وكذلك الحمار إذا رفعت عليه السَّوط مرَّ من تحتك مَرًّا حثيثاً، فالقياس عَلَّمَهُ أنَّ السَّوط متى رُفِع حُطَّ، ومتى حُطّ أصابَه، ومتى أصابه ألم. فما فضْلُ الكلبُ في هذا الموضع على الحمار، والحمارُ هو الموصوف بالجهل؟!

٢٩٧ - [مما قيل في نباح الكلاب]

قال الفرزدق: [من الطويل]

وقد نَبحَ الكلبُ السحابَ ودُونَها مَهَامِهُ تعْشِي نَظْرَةَ المتأمِّلِ(٢)

وقال الآخر: [من الرجز]

ما لَكَ لا تَنبحُ يا كَلْبَ الدَّوْمْ قد كنتَ نَبَّاحاً فما بالُ اليَوْمْ(٣)

قال: كان هذا رجلٌ ينتظر عِيراً له تَقدَمْ، فكان إذا جاءت العِيرُ نبح، فاحتبست عليه العيرُ، فقال كالمتمنّي وكالمنتظر المستبطئ: ما لك لا تنبح؟ أي ما لِلعيرِلا تاتي.

٢٩٨ - [فراسة إياس بن معاوية]

وقال(٤): خرج إياس بن معاوية، فسمع نُباح كلب فقال: هذا كلبٌ مشدود. ثم سمع نباحَه فقال: قد أُرسِل. فَانتهوْا إلى الماء فسألوهم فكان كما قال. فقال له غيلان أبو مروان: كيفَ علمتَ أنَّه موثَق وأنَّه أُطلق؟ قال: كان نباحُه وهو موثق يُسمَع من مكانٍ واحد، فلما أُطلق سمعتهُ يقرُب مرّةً ويبعد مرةً، ويتصرَّفُ في ذلك.

وقالوا(٥): مرَّ إياس بنُ معاوية ذاتَ ليلةٍ بماء، فقال: أسَمعُ صوتَ كلبٍ غريب.

---

(١) السهم الأفوق: المكسور الفُوق، وهو موضع الوتر من السهم.

(٢) ديوان الفرزدق ٢/١٧٧، وأساس البلاغة (فرس).

(٣) الرجز بلا نسبة في رسائل الجاحظ ١/٣٤٣، ومجمع الأمثال ٢/٢٨٨.

(٤) الراوي هو المدائني كما في ثمار القلوب ١٨٢، وأخبار الأذكياء ٦٩.

(٥) الخبر في ثمار القلوب (١٨٣)، وأخبار الأذكياء ٦٩، وبهجة المجالس ١/٤٢٣، والوافي بالوفيات ٩/٤٦٦.

قيل له: كيفَ عرفتَ ذلك؟ قال: بُخضوع صوتِه وشِدَّة نُباح الآخر. فسألوا فإذا هو غريب مربوطٌ والكلابُ تنبَحه.

٢٩٩ - [استطراد لغويّ]

وقال بعض العلماء: كلب أبقَع، وفرس أبلق، وكبش أملح[١]، وتيسٌ أبرق، وثور أشْيَه[٢].

ويقال كلب وكلاب وكَليب، ومَعزْ وماعِز ومَعيز. وقال لبيد: [من الوافر]

فبِتْنَا حيثُ أمسَيْنَا قَرِيباً ... على جَسَداءَ تَنْبَحنَا الكليبُ[٣]

وقال عَلْقَمَة بن عَبَدة: [من الطويل]

وتُصْبِحُ عن غِبِّ السُّرَى وكأنَّها ... مُوَلَّعَةٌ تخشى القَنيص شَبُوبُ[٤]

تَعفَّقَ بالأَرْطى لَها وأرادَها ... رجالٌ فبَذَّتْ نَبْلَهـمْ وكَلِيب

وقال عُبادة بن مُحبِّرٍ السعدي: [من الوافر]

فَمنْ للخَيلِ بَعْدَ أبي سرَاجٍ ... إذا ما أشنج الصِّرُّ الكَلِيبَا[٥]

وهؤلاء كلهم جاهليّون.

وقال حمُّويَه الخُرَيْبي[٦] وأنشدُوه: [من الوافر]

كَأنَّكَ بالمُبَارَكِ بَعْدَ حينٍ ... تَخُوض غِماره بُقْع الكِلاَبِ[٧]

وأنشدوه: [من البسيط]

أرسلت أُسْداً على سُودِ الكلاب فقدْ ... أمْسَى شريدُهُمُ في الأَرضِ فُلاَّلا

---

(١) الأملح: الأبيض يخالط لونه سواد. وفي فقه اللغة ٧٥ فصل في تقسيم السواد والبياض على ما يجتمعان فيه «فرس أبلق، تيس أخرج، كبش أملح، ثور أشيه، غراب أبقع، حبل أبرق، آبنوس ملمع، سحاب نَمِر، أفعوان أرقش، دجاجة رقطاء».

(٢) في اللسان: وشي «الشية سواد في بياض أو بياض في سواد».

(٣) ديوان لبيد ٣٤٩، ونوادر أبي زيد ٦٨، والتنبيه والإيضاح ٢/١٣، واللسان والتاج (ثأد، فرم)، ومعجم البلدان (جسداء).

(٤) ديوان علقمة ٣٨، والمفضليات ٣٩٣، والمقاصد النحوية ٣/١٥، ونوادر أبي زيد ٦٩.

(٥) البيت في نوادر أبي زيد ٦٩. الصر: البرد الشديد.

(٦) الخريبي: نسبة إلى الخريبة، وهو موضع بالبصرة.

(٧) البيت للمفرج بن المرفع أو للفرزدق في معجم البلدان ٥/٥١ (المبارك). والمبارك: نهر بالبصرة؛ احتفره خالد القسري، وقيل: نهر وقرية فوق واسط.

فقال: لا خير في بُقْع الكلابِ البتة، وسُود الكلاب أكثرها عَقُوراً.

٣٠٠ - [خير الكلاب والسنانير]

وخيرُ الكلاب ما كان لونُه يذهب إلى ألوان الأسد من الصُّفْرةِ والحُمرةَ. والتبقيع هُجْنة.

وخيْرُ السنانير الخلَنْجيَّة، وخير كلاب الصَّيد البِيض.

قَالوا: إنّ الأسَدَّ للهراشِ الحُمر والصُّفر، والسُّودُ للذِّئاب، وهي شرُّها، وقال النبي ﷺ: «لولاَ أنّ الكلابَ أُمَّة من الأمم لأمَرْتُ بقتلها. ولكن اقتلوا منها كلَّ أسوَدَ بهيم».

وكلُّ شيءٍ من الحيوان إذا اسودَّ شعرُه أو جلدُهُ، أو صوفه، كان أقوَى لبَدنه ولم تكن معرفته بالمحمودة.

٣٠١ - [خير الحمام]

وزعم أنّ الحمام الهُدَّاءَ(١) إنما هو في الخُضرِ والنمر(٢)، فإذا اسودَّ الحمام حتَّى يدخل في الاحتراقِ صارَ مثلَ الزِّنجيِّ الشديد البطش. القليل المعرفة. والأسوَدُ لا يجيء من البعد، لسود هدايته. والأبيض وما ضرَب فيه البياض لا يجيء من الغاية، لضَعْف قواه. وعلى قدر ما يعتريه من البَياض يعتريه من الضّعف.

فالكلب هو الأصفَر والأحمر، والحمام هو الأخضر والأنْمر، والسِّنَّور هو الخَلَنْجيُّ العسَّال، وسائر الألوان عيب.

وقد يكون فيها ومنها الخارجيُّ(٣) كما يكون من الخيل، ولكنَّه لا يكادُ ينجب، ولا تعدُو الأمورُ المحمودة منه رأسَه، وقد يكون ربَّما أشْبَهَ وقربَ من النَّجابة، فإذا كان كذلك كان كهذه الأمهات والآباء المُنجبة، إلاَّ أنّ ذلكَ لا يتمُّ منها إلا بَعْدَ بطون عِدَّةٍ.

٣٠٢ - [استطراد لغوي]

وقال أبو زيد: قال ردَّاد: أقول للرجُلِ الَّذِي إذا ركب الإبلَ فَعَقَرَ ظهُورَها من

---

(١) الهداء: جمع الهادي. وفي المخصص ٨/ ١٧٠ «وهن اللائي يدربن ويرفعن من مرحل إلى مرحل حتى يجئن من البعد من بلاد الروم وعريش مصر؛ ودون ذلك من مواضع كثيرة مسماة».

(٢) النمر: جمع أنمر: وهو الذي فيه نمرة بيضاء وأخرى سوداء.

(٣) الخارجي: المجهول النسب.

إتعابه. هذا رجل مِعْقَرٌ، وكذلك السَّرْج والقَتَب، ولا يقال للكلب إلاّ عقُور. ويقال هو ضرْو للكلب الضَاري على الصيد، وضروة للكلبة، وهذا ضِرَاءٌ كثيرة، وكلب ضارٍ، وكلاب ضَوَارٍ. وقد ضريتْ أشدَّ الضراوة. وقال ذو الرُّمَّة: [من البسيط]

مقزَّع أطلس الأطمارِ ليس له ... إلاّ الضِّراءَ وإلا صَيْدَها نَشَبُ[١]

وقال طفيل الغنوي: [من الطويل]

تُباري مَرَاخيها الزِّجاجَ كأنَّها ... ضِراءٌ أحسَّتْ نَبأَةً من مكلِّبِ[٢]

ومنه قيل: إناء ضار[٣]

وقد قال عمر رضي اللّه تعالى عنه: «إيَّاكُمْ وهذهِ المجازِرَ فإنَّ لها ضرَاوَة كضرَاوَةِ الخمر»[٤].

وقال الأصمعيّ: كلب أبقَعُ وكلبةٌ بقعاء، وفرس أبلقُ وفرس بَلقاء، وتَيس أبْرَقُ وعَنْزٌ بَرْقاء، وكذلك جَبَل أبرقُ وكساءٌ أبرق وكلب أبرق.

وقال ابن داحة: نزل عندنا أعرابيٌّ ومعه ابنان له صغيران، وكان أحدهما مُستهتَراً[٥] باللَّعب بالكلاب، وكان الآخر مُستَهْتَراً بالحُملان، فقال الأعرابيُّ لصاحب الكلب: [من الكامل]

ما لي أراكَ مع الكلاب جَنيبةً ... وأرَى أخاكَ جَنيبةَ الحُمْلان[٦]

قال: فردَّ عليه الغلام: [من الكامل]

لولا الكلابُ وهَرْشُها مَنْ دُونَها ... كَانَ الوقيرُ فَريسةَ الذُّؤبانِ[٧]

---

(١) ديوان ذي الرمة ١٠٠، واللسان (طلس، قزع، ضرا)، والتاج (قزع)، وأساس البلاغة (ضري)، والعين ١/١٣٢، والتهذيب ١/١٨٥، وجمهرة أشعار العرب٩٥٩، وبلا نسبة في المخصص ٣/٣٨.

(٢) ديوان طفيل ٢٤، والمعاني الكبير ١/٤٢، والمخصص ١٦/٣٠. المراخي: جمع مرخاة وهي السهلة العدو. الزجاج: الأسنة. الضراء: أشلاء الكلب على الصيد. النبأة: الصوت. المكلب: صاحب الكلب.

(٣) في النهاية ٢/٢٦٧، ٣/٨٧ «ومنه حديث علي أنه نهى عن الشرب في الإناء الضاري» وهو الذي ضُرِّي بالخمر وعُوِّد بها، فإذا جعل فيه العصير صار مسكراً».

(٤) الحديث لعمر بن لخطاب في البخلاء ١٠٨، والنهاية ٣/٨٦، وهو لسالم بن عبد الله في حلية الأولياء ٢/١٩٤. وفي النهاية ٢/٢٦٧ «أراد بالمجازر إدمان أكل اللحوم».

(٥) استُهتر: أولع، فهو مُستهتَر.

(٦) الجنيبة: الدابة تقاد.

(٧) الهراش: تحريش الكلاب.

والوقير: اسم للغنم الكثيرةِ السائمةِ مع ما فيها مِنَ الحمير وغير ذلك.

وقال الشماخُ بنُ ضِرَارٍ: [من الوافر]

فأوْرَدَهُنَّ تَقْرِيباً وشَدًّا ... شرَائعَ لم يكدِّرْها الوَقيرُ[1]

وقال الشاعر في تثبيت ما قال الغلام: [من البسيط]

تَعدُو الذّئابُ علىٰ مَنْ لا كلابَ له ... وتتَّقي صَوْلَةَ الْمُسْتأسِدِ الضارِي

وقال الآخر: [من البسيط]

إنَّ الذئاب تَرى مَنْ لا كلاب له ... وتتّقي حَوْزَةَ المستثفِرِ الحامي[2]

٣٠٣ - [عفّة عمر بن أبي ربيعة وابن أبي عتيق]

وقال محمَّد بن إبراهيم: قَدمَت امرأة إلى مَكَّةَ، وكانتْ ذات جمالٍ وعَفافٍ وبَراعةٍ وشَارة، فأعجبَت ابن أبي ربيعة، فأرْسَل إليها فخافت شعْرَه، فلما أرادت الطَّوافَ قالت لأخيها: اخْرجُ معي. فَخَرَجَ مَعَها، وعَرَضَ لها عُمَر فلمَّا رأى أخاها أعْرَض عنها، فأنشدت قولَ جَرير[3]: [من البسيط]

تعْدُو الذِّئاب على مَنْ لا كلاب له ... وَتتَّقي حَوزَةَ المستأسِد الحَامي

هذا حديثُ أبي الحسن، وأمّا بنو مَخْزومٍ فيزعُمونَ أنّ ابن أبي رَبيعة لم يَحُلَّ إزارهَ على حَرام قَطُّ، وإنما كان يذهب في نسيبه إلى أخلاق ابن أبي عَتيق، فإنَّ ابن أبي عتيقٍ كان مِن أهل الطَّهارة والعفاف، وكان مَن سمعَ كَلامَه توهَّم أنَّه من أجرأ الناس على فاحشة.

وما يُشبِه الذي يقولُ بنو مَخزومٍ مَا ذكروا عن قريش والمهاجرين؛ فإنّهم يقولون: إنّ عمر بن عبد اللّه بن أبي ربيعة إنَّما سُمِّي بعمر بن الخطاب وإنّه ولد ليلةَ ماتَ عمر. فلما كان بعد ذلك ذكروا فسادَ هذا وصلاحَ ذلكِ فقالوا: أيُّ باطِلٍ وُضع، وأيُّ حقٍّ رفع!!

---

(١) ديوان الشماخ ١٥٦. التقريب: ضرب من العدو. الشدّ: السرعة في العدو. الشرائع: جمع شريعة وهي مورد الشاربة.

(٢) البيت للنابغة الذبياني في ملحق ديوانه ٢٤٥، واللسان والتاج (ثفر)، وتهذيب اللغة ١٥/٧٦، والأغاني ١/٧٩، وهو للزبرقان بن بدر في ديوانه ٥٢، وبلا نسبة في عيون الأخبار ٤/١٠٩، وربيع الأبرار ٥/٤٢٢، وأساس البلاغة (ثفر)، والعين ٨/٢٢١.

(٣) نسبة البيت إلى جرير وهم، انظر الحاشية السابقة، والبيت مع الخبر في الأغاني ١/٧٨-٧٩، وعيون الأخبار ٤/١٠٩.

ومثلُ هذا الكلامِ لا يقالُ لمن يُوصف بالعفَّة الثابتة.

٣٠٤ - [وصية شريح لمعلم ولده]

ولبُغض المُزاح في لعب الصبيان بالكلاب واستهتارِهم بها. كَتَبَ شريح إلى معلِّمِ ولَدٍ له كان يَدَعُ الكتَّابَ ويَلعب بالكلاب: [من الكامل]

تَرَكَ الصَّلاة لأكلبٍ يَلهو بها طَلَبَ الهِراشِ مع الغُوَاة الرُّجَّسِ[1]
وليأتينَّك غادياً بصحيفة يَغْدُو بها كصحيفة المتلمِّسِ[2]
فإذا خَلوتَ فعَضَّه بَملاَمَةً أو عِظْهُ موعظةَ الأديب الأكْيس
وإذا هممت بضرْبه فبدرَّةٍ وإذا ضَربَت بها ثلاثاً فاحْبس
واعلمْ بأنّك ما فعلت فإنَّهُ مَعَ مَا يُجَرِّعُني أعزُّ الأنفُس

وهذا الشعر عندنا لأعشى بني سُليم في ابنٍ له. وقد رأيتُ ابنه هذا شيخاً كبيراً. وهو يقول الشعر؛ وله أحَاديثُ كثيرةٌ ظريفة.

٣٠٥ - [مما يدل على قدر الكلب]

وقال صاحب الكلب: ومما يدلُّ على قَدْرِ الكلب كثرةُ ما يجري على ألسنة النَّاس من مَدْحه بالخير والشرّ، وبالحمد وبالذمّ، حتَّى ذكر في القرآن مَرَّةً بالحمد ومرّةً بالذمّ. وبمثل ذلك ذكر في الحديث، وكذلك في الأشعار والأمثال، حتى استعمل في الاشتقاقات، وجرى في طريق الفأل والطِّيَرة، وفي ذكر الرؤيا والأحلام، ومع الجِن والحِن والسِّباع والبهائم. فإن كنتم قضيتُمْ عليه بالشر وبالنقص، وباللؤم وبالسقوط لأنَّ ذلك كلَّه قد قيلَ فيه، فالذي قِيلَ فيه من الخيرِ أكثرُ، ومن الخصال المحمودة أشهر.

ولَيْسَ شيءٌ أجمعَ لخصال النقص من الخُمول، لأنَّ تلك الخصالَ المخالفة لذلك، تُعطي من النَّباهة وتُقيم من الذكر على قَدْرِ المذْكورِ من ذلك. وكما لا تكَون الخصال التي تُورث الخَمول مورثة للنباهة، فكَذلك خِصَال النّباهة في مجانبة الخُمول، لأنَّ الملومَ أفضلُ من الخامل.

---

(١) الأبيات لشريح في عيون الأخبار ٢/١٦٧، وثمار القلوب ١٧٣ (٣٥٣)، والعقد الفريد ٢/٣٤٥-٤٣٦، وأخبار القضاة ٢/٢٠٧، والمحاسن والمساوئ ٢/٤٠٨، والعمدة ١/٣٩، وربيع الأبرار ٤/٤٦٣، وهي لأعشى طرود في الحماسة البصرية ٢/٣٧٥-٣٧٦.

(٢) صحيفة المتلمس: تضرب مثلاً لمن يحمل كتاباً فيه حتفه. والمثل وقصته في مجمع الأمثال ١/٣٩٩، والفاخر ٧٣، وجمهرة الأمثال ١/٥٧٩، وثمار القلوب (٣٥٢)، وأسماء المغتالين ٢/٢١٢، والمعارف ٦٤٩، والسمط ٣٠١، وعقلاء المجانين ٣٤.

٣٠٦ - [الترجمان بن هريم والحارث بن شريح]

وسمع الترجمانَ بن هُرَيْم عند يزيد بن عمر بن هبيرة، رجلاً يقول: ما جاء الحارث ابن شريح بيوم خَيْر قَطّ. قال التَّرجمان: إلا يكنْ جاء بيوم خَير فقد جاء بيوم شرّ(١).

٣٠٧ - [سياسة الشِّدَّةُ واللِّين]

وبعدُ فأيُّ رئيسٍ كان خيرُهُ محضاً عدمَ الهَيْبَةَ. ومَن لم يَعْمَل بإقامة جزاءِ السيئة والحسنة، وقتل في موضع القتل، وأحْيَا في موضع الإحياء. وعَفَا في موضع العفو، وعاقبَ في موضع العقوبة، ومَنَع ساعةَ المنع، وأعطى ساعة الإعطاء، خالَفَ الرَّبَّ في تدبيره، وظنَّ أن رحمته فوق رحمةِ ربه.

وقد قالوا: بعضُ القتل إحياءٌ للجميع. وبعضُ العفو إغراء، كما أنَّ بعضَ المنع إعطاء، ولا خَيْر فيمن كان خيرُهُ محْضاً، وشرٌّ منه مَن كان شرُّه صرفاً، ولكن اخلط الوعدَ بالوعيد، والبِشرَ بالعبوس، والإعطاء بالمنع، والحلمَ بالإيقاع، فإنَّ الناسَ لا يَهابون ولا يصلُحونَ إلاّ على الثّواب والعقاب، والإطماعِ والإخافة. ومن أخافَ ولم يُوقِعْ وعُرِفَ بذلك، كانَ كَمَنْ أطمَعَ ولم يُنْجز وعُرِف بذلك، ومَنْ عُرف بذلك دخلَ عليه بحسَب ما عُرِف منه. فخير الخيرُ ما كان ممزُوجاً، وشرُّ الشرِّ مَا كانَ صرفاً، ولو كانَ النّاس يصلُحون على الخيرِ وحدَه لَكَان اللّه عزَّ وجلَّ أولى بذلك الحكم.

وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة في جميع الأقطار وفي جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحبوب، دليل على أنَّ الصواب فيه دونَ غيره.

وإذا كان الناس إنما يصلحون على الشِّدَّة واللين، وعلى العفو والانتقام وعلى البذْل والمنع، وعلى الخير والشرِّ، عاد بذلك الشرُّ خيراً وذلك المنع إعطاء وذلك المكروه محبوباً. وإنَّما الشأنُ في العَوَاقب، وفيما يدوم ولا ينقطع وفيما هو أدْوَم، ومن الانقطاع أبعَدُ.

وقال الشاعر، وَهويمدح قَوماً: [من البسيط]

إن يُسألوا الخيرَ يُعطُوه وإن جُهِدُوا　　　فَالجهْدُ يُخرج منهم طِيبَ أخبارِ(٢)

---

(١) ورد الخبر في البيان والتبيين ١/١٩٩.

(٢) البيتان للعرندس الكلابي في معجم الشعراء ١٧٣، وأمالي القالي ١/٢٣٩، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٥٩٣، والحماسة المغربية ٢٩٩، ولعبيد بن العرندس الكلابي في التنبيه للبكري ٧٢، والسمط ٥٤٦، والكامل ١/٤٧ (مكتبة المعارف)، وبلا نسبة في ديوان المعاني ١/٢٣، ٤١، والحماسة الشجرية ١/٣٥٩، وانظر حاشية الحماسة المغربية.

وإن تَودَّدتَهمْ لانوا وإن شُهِموا   كَشفْتَ أذْمارَ حَرْبٍ غيرَ أغمارِ[1]

وقال العتبي: [من الطويل]

ولكن بنو خيرٍ وشر كلَيهما   جميعاً ومَعروفٍ ألمَّ وَمُنْكرِ[2]

وقال بَعْضُ من ارتجز يوم جَبَلة[3]: [من الرجز]

أنا الْغُلاَمُ الأعسَرْ   الخيرُ فيَّ والشرّ

والشرُّ فيّ أكثرْ[4]

وقال عبدُ الملك بن مروان لزُفَر بن الحارث؛ وقد دخل عليه في رجالاتِ قيس: ألستَ امرأً مِن كندة؟ قال: وما خيرُ مَن لا يُتَّقى حَسَداً، ويُدعَى رغبة.

وقال ثُمامة: الشُّهرة بالشرِّ خيرٌ من أن لا أُعرفَ بخير ولا شّر.

٣٠٨ - [الاستدلال على النباهة]

وكان يقال: يُستَدَلُّ على نباهة الرَّجل من الماضين بتَبايُنِ الناس فيه.

وقال: ألا ترى أن عليّاً - رضيَ اللّه تعالى عنه - قال: يَهلك فيَّ فئتان: محبٌّ مُفرط، ومبغض مُفرط.

وهذه صفة أنبَهِ الناس، وأبعدهِم غايةً في مراتب الدِّين وشرَف الدنيا. ألا ترى أن الشاعر يقول: [من الهزج]

أرَى العلباء كالعلبا   ءِ لا حُلوٌ ولا مرُّ

شُيَيْخٌ مِن بني الجارُو   دِ لا خير ولا شَرُّ

وقال الآخر: [من الرجز]

عَيَّرتني يا ثكلتْني أمّي   أسْود مثل الجُعَل الأحمِّ[5]

ينطَحُ عُرْضَ الجبَلِ الأصمِّ   ليس بذي القَرْنِ ولا الأجمِّ

---

(١) الأذمار: جمع ذمر، وهو الشجاع. الأغمار: جمع غمر، وهو الذي لم يجرب الأمور.

(٢) البيت لمسافع بن حذيفة العبسي في الخزانة ٥ / ١٧١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٩٩٠.

(٣) يوم جبلة: أحد الأيام العرب العظيمة؛ وهي ثلاثة: يوم الكلاب، ويوم جبلة، ويوم ذي قار، وكان قبل الإسلام بأربعين سنة، انظر الأغاني ١١ / ١٣١-١٦٣، ومعجم البلدان ٢ / ١٠٤ (جبلة).

(٤) الرجز لمعاوية بن عبادة في الأغاني ١١ / ١٤٠، وكان أعسر.

(٥) ثكلته أمه: فقدته. الجعل: دويبة.

وإذا كان الرجلُ أبرعَ الناس بَراعةً، وأظهَرهم فضلاً، وأجمعهم لخصال الشرف، ثمَّ كانت كلُّ خَصلةٍ مساويةً لأختها في التَّمام، ولم تغلب عليه خصلة واحدة، فإنَّ هذا الرَّجل لا يكادُ يوصف إلاَّ بالسيادة والرياسة خاصَّة إذا لم يكن له مسندٌ عما يكون هو الغالب عليه.

وقالوا فيما يشبه ما ذكرنا، وإن لم يكن هو بعينه، قال الشاعر: [من البسيط]

هَيْنون لَيْنُونَ أيسارٌ ذوُو يُسُرٍ سُوَّاسِ مَكرُمَةٍ أبناءُ أيسارِ[1]
مَنْ تَلْقَ منهمْ تَقُل لاقَيْتُ سَيِّدهم مثلُ النُّجوم التي يسري بها السَّاري

وقد قال مثل الذي وصَفنا جعفر الضبّيُّ في الفضل بن سهل: أيُّها الأمير أسْكَتني عن وصفك تَساوي أفعالك في السُّؤدد، وحيَّرني فيها كثرَةُ عددها، فليس إلى ذكر جميعها سبيل، وإن أردتُ وَصف واحدةٍ اعترضتْ أختها، إذْ لم تكن الأُولى أحقَّ بالذكر. ولست أصفُها إلاّ بإظهارالعَجز عن وَصفها.

ولذلك قالوا: «أحلم من الأحنف»[2]، و«ما هو إلاَّ في حلم معاوية» و«أحلم من قَيس بن عاصم»[3]، ولم يقولوا: أحلمَ من عبد المطَّلب، ولاَ هو أحلم من هاشم، لأنَّ الحلم خَصلة من خصاله كتمام حلمه، فلمَّا كانت خصالهُ متساويةً، وخلالُه مشرفة متوازية، وكلُّها كان غالباً ظاهراً، وقاهراً غامراً، سمِّي بأجمعِ الأشياء ولم يُسمّ بالخصلة الْوَاحدة، فيستدلُّ بذلك على أنَّها كانت أغلب خصال الخيرِ علَيه.

٣٠٩ - [هجاء السفهاء للأشراف]

وإذا بلغ السَّيدُ في السُّؤدَد الكمالَ، حسده من الأشراف من يُظنُّ أنَّه الأحقُّ به، وفخرت به عشيرته، فلا يزال سفيهٌ من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعُه على مرتبة سيِّد عشيرتَه فهجاه. ومن طلب عيباً وجَدَه. فإن لم يجدْ عيباً وجدَ بعضَ ما إذاَ ذكره، وجَد مَن يغلط فيه ويحمله عنه. ولذلك هُجيَ حِصنُ بن حذيفةَ، وهُجيَ زُرارة ابن عُدس، وهُجِيَ عبدُ الله بن جُدعان، وهجيَ حاجب بن زرارة.

---

(١) البيتان للعرندس الكلابي في معجم الشعراء ١٧٣، والحماسة المغربية ٢٩٩-٣٠٠، وأمالي القالي ١/٢٣٩، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٥٩٣، ولعبيد بن العرندس الكلابي في السمط ٥٤٦، والكامل ١/٤٧، وبلا نسبة في عيون الأخبار ١/٢٢٦، والبرصان والعرجان ٢٣٦، وديوان المعاني ١/٢٣، ٤١، والحماسة الشجرية ١/٣٥٩. وهما من قصيدة واحدة مع البيتين المتقدمين في الفقرة السابقة.

(٢) المستقصى ١/٧٠، ومجمع الأمثال ١/٢١٩، وجمهرة الأمثال ١/٣٤٣، والفاخر ٢٩٨.

(٣) وجدت في الأمثال قولهم أغدر من قيس بن عاصم، في مجمع الأمثال ٢/٦٥، والمستقصى ١/٢٥٩، وقولهم: «أكذب من قيس بن عاصم»، في مجمع الأمثال ٢/١٦٩، والمستقصى ١/٢٣٩.

وإنَّما ذَكَرتُ لك هؤلاء لأنهم من سؤدَدِهم وطاعة القبيلة لهم، لم يذهبوا فيمنْ تحت أيديهم من قومهِمْ، ومن حلفائهم وجيرانهم، مَذْهَبَ كُليبِ بن ربيعة، ولا مذهبِ حذيفة بن بدر، ولا مذهبَ عيينة بنِ حصن، ولا مذهبَ لقيط بن زُرارة، ولأنَّ لقيطاً لم يأمر بسحب ضَمْرة بنِ ضمرة إلاَّ وهو لو بَقي لَجاوز ظلم كليب وتهكم عيينة، فإنَّ هؤلاء وإن كانوا سادةً فقد كانوا يَظلمون، وكانوا بين أن يظلموا وبين أن يحتملوا ظلماً ممن ظلمهم. ولا بدَّ من الاحتمال كما لا بُدَّ من الانتصار.

وقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَكُمْ في القصاصِ حَياةٌ ﴾[1]. وإلى هذا المعنى رجَع قولُ الحكيم الأوَّل: «بعضُ القَتلِ إحياءٌ للجميع»[2].

وعامَّة هؤلاء السَّادة لم يكنْ شأنهم أن يردُّوا الناسَ إلى أهوائهم، وإلى الانسياق لهم بعُنْف السَّوق، وبالحَرَبِ في القَوْد، بل كانوا لا يؤثرون التَّرهيبَ على الترغيب. والخشونة على التليين. وهم مع ذلك قد هُجُوا بأقبح الهجاءِ.

ومتى أحبَّ السَّيِّدَ الجامعَ، والرئيسَ الكاملَ قومُه أشدَّ الحبِّ وحاطَهمْ عَلى حسب حبه لهم، كان بُغْضُ أعدائهم له على حسب حبِّ قومه له. هذا إذا لم يَتوثَّب إليه ولم يعترض عليه من بني عمّه وإخوته مَن قد أطمعتْه الحال باللَّحاق به. وحَسَدُ الأقاربِ أشدُّ، وعداوتُهم على حسب حسدهم.

وقد قال الأوَّلون: رِضا الناس شيءٌ لا ينال.

وقد قيل لبعض العرب: مَن السَّيِّدُ فيكم؟ قال الذي إذا أقبل هِبناه، وإذا أدْبَرَ اغتبناه!

وقد قال الأوَّل: بَغضَاء السُّوَق[3] موصولة بالملوك والسادة، وتجري في الحاشية مجرى الملوك.

٣١٠ - [صعوبة سياسة العوام]

وليس في الأرض عملٌ أكدّ لأهله من سِياسة العوامّ. وقَدْ قال الهذْليُّ يصف صُعوبة السياسة: [من الوافر]

وإن سياسة الأقوامِ فاعلمْ … لها صَعْداءُ مَطلبُها طويل[4]

---

(١) البقرة: ٢/ ١٧٩.

(٢) مجمع الأمثال ١/ ١٠٥.

(٣) السوق: جمع سوقة، وهي الرعية.

(٤) البيت للأعلم الهذلي في شرح أشعار الهذليين ٣٢٣، وللهذلي في البيان والتبيين ١/ ٢٧٥، ٢/ ٣٥٢، ٣/ ٢١٨، وعيون الأخبار ١/ ٢٢٦، وأساس البلاغة (صعد)، وبلا نسبة في اللسان والتاج (صعد).

وقال آخرُ في شبيه بهذا المعنى: [من الطويل]

ودونَ النَّدى في كلِّ قلبٍ ثَنِيَّةٌ لها مَصْعَدٌ حَزْنٌ ومُنْحَدرٌ سَهْلُ[١]
ووَدَّ الفتى في كلِّ نيلٍ يُنيلُه إذا ما انقضى، لَوْ أنَّ نائله جَزْلُ

وقال عامر بن الطُّفيل: [من الطويل]

وإنِّي وإنْ كُنتُ ابن سيِّدِ عامرٍ وفارسها المشهور في كلِّ مَوكبِ[٢]
فما سوَّدَتني عامر من وراثة أبى اللّه أنْ أسمو بأمٍّ ولا أبِ
ولكنَّني أحمي حِماها وأتَّقي أذاها وأرْمي مَن رماها بِمَنْكبِ

وقال زياد بن ظَبيان لابنه عُبيد اللّه بن زياد وزيادٌ يُغرغر بنفسه[٣]: ألا أُوصي بك الأمير؟ قال: لا. قال: ولم؟ قال: إذا لم يكنْ للحي إلاّ وَصيَّةُ الميِّت، فالحيُّ هو الميِّت[٤].

وقال آخر في هذا المعنى: [من الكامل]

* والعزُّ لا يأتي بغير تطلُّب *

وقال بَشامة بن الغَدير في خلاف ذلك، وأن يثبت أن يكون منه كان: [من الطويل]

وجَدْت أبي فيهم وَجَدِّي كليهما يُطاعُ ويؤتَى أمره وهو مُحْتَبي[٥]
فلم أتَعَمَّل للسِّيادة فِيهِمُ ولكنْ أتتني طائعاً غيرَ مُتْعبِ

٣١١ - [أسباب السعادة]

ومِن الناس من يقول: إن العيشَ كلَّه في كثرة المال، وصحة البدن، وخمول الذكر.

وقال مَن يخالفه: لا يخلو صاحب البدَن الصَّحيحِ والمال الكثير، منْ أن يكون بالأُمور عالماً، أو يكونَ بها جاهلاً. فإن كانَ بها عالماً فعلمُه بها لا يتركه حتَّى يكون له من القول والعَمل على حسب علمه، لأنَّ المعرفة لا تكون كعدمها، لأنَّها لو كانت

---

(١) البيتان للخريمي في ديوانه ٥٠، والبخلاء ١٦٧، والبيان والتبيين ٢/٣٥٢، وبلا نسبة في البيان والتبيين ١/٢٧٤.

(٢) ديوان عامر بن الطفيل ٢٨، والحماسة البصْرية ١/٧٢، وعيون الأخبار ١/٢٢٧، وأمالي القالي ٣/١١٨، وأمالي المرتضى ١/١٠، والعقد الفريد ٢/٢٥٩، والمقاصد النحوية ١/٢٤٣.

(٣) الغرغرة: تردد الروح في الحلق. وغرر: جاد بنفسه عند الموت.

(٣) الخبر في عيون الأخبار ١/٢٣٥، وأمالي المرتضى ١/٢٠٠.

(٤) البيتان لبشامة في الحماسة البصرية ١/٧٢، وأساس البلاغة (عمل).

موجودة غيرَ عاملة لكانت المعرفة كعدمها، وفي القول والعمل ما أوجبَ النَّباهة، وأدنى حالاته أنْ تُخرجه من حدِّ الخمول، ومتى أخرجته من حدِّ الخمول فقد صار معرَّضاً لمن يقدر على سلبه.

وكما أنَّ المعرفة لا بدَّ لها من عملٍ، ولا بدَّ للعمل من أن يكون قولاً أو فعلاً، والقول لا يكونُ قولاً إلاَّ وهناك مَقُول له، والفعلَ لا يكون فعلاً إلاَّ وهناك مفعول له، وفي ذلك ما أخْرَج من الخمول وعُرِف به الفاعل.

وإذا كانت المعرفةُ هذا عملُها في التنبيه على نفسها، فالمالُ الكثيرُ أحقُّ بأنَّ عملَه الدّلالةُ على مكانه، والسِّعايةُ على أهله. والمالُ أحقُّ بالنميمة، وأولى بالشكر، وأخدع لصاحبه، بل يكون له أشدَّ قهراً، ولحيِّه أشدَّ فساداً.

وإن كانتْ معرفتُه ناقصةً فبقدْر نقصانها يجهل مواضع اللذة. وإن كانت تامَّةً فبقدْر تمامها يُنْفَى الخمول ويُجلبُ الذِّكر.

وبعدُ فليس يَفْهم فضيلة السلامة. وحقائق رُشْد العافية، الذين ليس لهمْ من المعرفة إلاَّ الشَّدْو(١)، وإلاَّ خلاَق(٢) أوساط الناس. ومتى كان ذلك كذلك، لم يُعرَف المدْخَل الذي من أجله يَكره ذو المال الشُّهرة. ومن عَرَفَ ذلك على حقِّه وصدقه، لم يدَعْه فهمُهُ لذلك حتّى يدلَّ على فهمه. وعلى أنَّه لا يفهم هذا الموضعَ حتَّى يَفهم كلَّ ما كان في طبقته من العلم. وفي أقلَّ مِن ذلك ما يَبين به حاله مِن حال الخامل.

وشروط الأمانيّ غيرُ شروط جوازِ الأفعال وإمكان الأمور. وليس شيء ألذُّ ولا أسرُّ من عزِّ الأمر والنهي، ومن الظَّفر بالأعداء، ومن عَقْد المنَن في أعناق الرجال، والسُّرور بالرِّياسة وبثمرة السيادة، لأنَّ هذه الأمورَ هي نصيبُ الرُّوح، وحَظُّ الذهن، وقِسْمُ النَّفس(٣). فأمَّا المطعم والمشرب والمنكح والمشمَّة، وكلُّ ما كان من نصيب الحواسّ، فقد علمْنا أنَّ كُلَّ ما كانَ أشدَّ نَهَماً وأرغبَ، كانَ أتمَّ لوجدانه الطعم. وذلك قياسٌ على مواقع الطُّعْم من الجائع، والشراب مِن العطشان.

ولكنَّا إذا ميَّلْنا بين الفضيلة التي مع السُّرور، وبين لذّة الطعام، وما يُحدث الشَّره له من ألمِ السهر والالتهاب والقلق وشدَّة الكلب، رأينا أنَّ صاحبَهُ مفضولٌ غيرُ فاضل. هذا مَعَ ما يُسَبُّ به، ومع حمله له على القبيح، وعلى أنّ نعمتَهُ متى زالتْ لم

---

(١) الشدو: القليل من كل شيء.
(٢) الخلاق: النصيب.
(٣) القسم: الحصة والنصيب.

يكن أحدُ أشقى منهُ. هذا مع سرور العالم بما وهَبَ اللَّه لَهُ من السلامة من آفة الشَّرَه، ومِن فسادِ الأخلاط.

وبعدُ فلا يخلو صاحبُ الثَّروة والصامتِ الكثير[1]، الخاملُ الذكر مِن أن يكونَ ممّن يرغَب في المركب الفارِه، والثوب الليِن، والجارية الحسنة، والدار الجيّدة، والمطْعَم الطيِّب، أو يكون ممن لا يرغب في شيءٍ من ذلك. فإن كان لا يرغب في هذا النوع كلِّه، ولا يعمل في ماله للدَّار الآخرة. ولا يُعجَب بالأُحدوثة الحسنة، ويكونُ ممن لا تعْدو لذّتُهُ أن يكون كثير الصامت، فإنّ هذا حمارٌ أو أفسَدُ طبْعاً من الحمار، وأجْهَل من الحمار، وقدْ رضي أن يكونَ في مَاله أسوأ حالاً من الوكيل.

وبعدُ فلا بُدَّ للمال الكثير من الحراسة الشَّديدة، ومن الخوف عليه، فإن أعملَ الحِراسة له، وتَعب في حفظه وَحَسَبَ الخوف، خرجَ عليه فضْلٌ. فإنْ هو لم يَخَفْ عليه – ولاَ يكون ذلك في سبيل التوكُّل - فهو في طباع الحمار وفي جهْله. والذي أوجَب لَهُ الخمول ليؤدِّيه إلى سلامة المال لَهُ، قَدْ أعْطاهُ من الجهلِ مَا لا يكون مَعَهُ إلاّ مثْلُ مقْدَار لذة البهيمةِ في أكل الخَبَط[2].

وإنْ هو ابتاع فُرَّهَ الدواب، وفُرَّهَ الخَدم والجَواري، واتخذَ الدارَ الجيِّدة، والطعَام الطيِّب والثّوب الليّنَ وأشباهَ ذلك، فقد دلَّ على مَاله. ومَن كانَ كَذلكَ ثُمَّ ظَهرتْ لَهُ ضَيْعَةٌ فاشية، أو تجارةَ مُرْبحة، يحتمل مثلَ ذلكَ الذي يظهَر من نفقته. وإلا فإنّه سيُوجَد في اللُّصُوصِ عند أوَّل مَن يقطع عليْهِ، أو مكابرة تكُون، أو تَعب يؤخذ لأهله المال العظيم.

ولو عنى بقوله الخمول وصحةَ البدن والمال، فذَهب إلى مقدارٍ من المال مقبولاً ولكن ما لمن كان مالُه لا يجاوز هذا المَقدارَ يَتهيَّأ الخمول.

٣١٢ - [طبقات الخمول]

ولعمري إنّ الخمولَ لَيكونُ في طبقاتٍ كثيرة، قال أبو نخيلة: [من الطويل]

شكرتُك إنَّ الشُّكْرَ حَبْلٌ من التّقى ... ومَا كلُّ مَن أقْرَضْتَه نعْمَةً يَقضي[3]
فأحييتَ من ذكري وما كان خامِلاً ... ولكنَّ بعض الذكرِ أنبَه من بَعْضِ

(١) الصامت من المال: الذهب والفضة، والناطق من المال: الإبل.

(٢) الخبط: ورق الشجر؛ يخبط بالعصا فتأكله الدواب.

(٣) البيتان لأبي نخيلة في الأغاني ٢٠/٣٩٢، وطبقات ابن المعتز ٦٤، وعيون الأخبار ٣/١٦٥، والفاضل ٩٩، وأمالي القالي ١/٣٠، ونهاية الأرب ٣/٢٤٩.

قالوا: ولسقوط الخَامل من عُيون الناس، قالت الأعرابيَّة لابنها: إذا جلستَ معَ الناسِ فإنْ أحسَنْتَ أنْ تقولَ كما يقولون فَقُلْ، وإلاَّ فخالفْ تُذْكَر!

وأمَّا الأصمعيُّ فزعَمَ أنَّها قالت: فخالفْ ولو بأنْ تَعلَّقَ في عنُقك أيرَ حمار.

وليس يقول هذا القولَ إلاَّ مَنْ ليسَ يعرف شكْرَ الغنى، وتقلُّبَ الأموال إلى مَا خُلقتْ لَهُ، وقَطْعَها عُقُلَها، وخَلْعَها عُذُرَها، وتيهَ أصحابها، وكثرةَ خُطاهم في حفظِها وسَتْرِها، وعجزْهم عن إماتةِ حركتها ومنعها من جميع مَا تُنازع إليه وتحمل عليه.

٣١٣ - [ملحة من الملح]

وقد روينا في المُلحَ أنَّ رجلاً قال لصاحب لهُ: أبُوكَ الذي جهل قدْرَهُ، وتعدَّى طَورَه، فشقَّ العَصَا، وفارَقَ الجماعة، لاجَرَمَ لقد هُزِم ثم أُسر ثمَّ قتلَ ثمَّ صُلب! قال لَهُ صاحبهُ: دَعْني من ذكر هزيمة أبي، ومن أسْرِهِ وقتله وصلبِهِ. أبُوكَ هلْ حدَّثَ نفسَه بشيء من هذا قطُّ؟!

٣١٤ - [حكم الأسباب في همم الناس]

وليس إلى النَّاس بُعْدُ الهمم وقِصَرُها، وإنما تجري الهِمَمُ بأهلها إلى الغايات، على قدر مَا يعرِض لهم من الأسباب. ألا تَرى أنّ أبعدَ النَّاس همَّة في نفسه، وأشدَّهم تلفتاً إلى المراتب، لا تنازعه نفسه إلى طلب الخلافة، لأن ذلكَ يحتاجُ إلى نسب، أو إلى أمر قد وُطِّئ لَهُ بسبب، كسبَبِ طلب أوائل الخَوارج الخلافة بالدِّين وحدَه دونَ النَّسب. فإن صارَ من الخوارج فقد حدثَ لَه سببُ إمكان الطَّلب، أكْدى أم نجح.

وقد زعمَ ناسٌ من العلماء أنَّ رجالاً خُطِبت للسِّيادة والنَّباهة والطَّاعة في العشيرة.

٣١٥- [سلطان الحظ]

وكذلك القبيلة ربَّما سَعِدت بالحظّ، وربَّما حظيت بالجَدِّ، وإنَّما ذلك على قدر الاتفاق، وإنما هو كالمعافَى والمبتلى، وإنما ذلك كما قال زهير: [من الطويل]

وَجَدْتُ المنايا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ ومَنْ تُخْطِئ يعمَّرْ فيَهْرَمِ[1]

وكما تَحْظَى بعض الأشعار وبعض الأمثال، وبعضُ الألفاظ دون غيرها، ودونَ ما يجري مجراها أو يكونُ أرفَعَ منها.

قالوا: وذلك موجودٌ في المرزوق والمحروم، وفي المُحارَف[2] والذي تجوز

---

(١) ديوان زهير ٣٤، واللسان (خبط، عشا)، والتاج (خبط)، والمقاييس ٤/٣٢٣، والعين ٢/١٨٨، وأساس البلاغة (عشو)، وتهذيب اللغة ٣/٥٤، ٧/٢٥١.

(٢) المحارف: المحدود المحروم.

عليه الصَّدَقَةُ. وكم مِن حاذقٍ بصناعته، وكثير الجَوَلانَ في تجارته، وقد بلغ فَرغانَة[1] مرَّة، والأندلس مرة، ونقَّب في البلاد، وربَع في الآفاق[2]، ومن حاذقٍ يُشاوَر ولا يُستَعْمَل، ثمَّ لا تجدهما يَستَبينان، من سُوء الحال وكثرة الدَّين. ومن صاحب حربٍ منكوب، وهو اللَّيثُ على براثنه، معَ تمَام العزيمةِ وشدَّة الشَّكيمة، ونَفَاذ البصيرة، ومع المعرفة بالمكيدة والصَّبْر الدَّائم على الشدَّة.

وبَعْدُ؛ فكَمْ مِن بيت شعر قد سار، وأجودُ منه مقيمٌ في بطون الدَّفاتر، لا تزيده الأيَّامُ إلاَّ خمولاً، كما لا تزيد الذي دونَه إلاَّ شُهرةً ورِفعةً. وكم من مَثلٍ قد طار به الحظُّ حتَّى عرَفَته الإماءُ، ورَوَاه الصِّبيان والنِّساء.

وكذلك حظوظ الفُرسان. وقد عُرِفتْ شُهرةُ عنترة في العامَّة. ونباهة عمرو بن مَعْد يكَرِب، وضَرَبَ الناسُ المثلَ بعبيد اللَّه بن الحُرّ، وهم لا يعرفون ، بل لم يسمعُوا قطُّ بعتَيْبَة بن الحارث بن شهاب، ولا بِبسطامِ بن قيس، وكان عامرُ بن الطفيل أذكَرَ منهما نسباً.

ويذكرون عُبيدَ اللَّه بنَ الحُرِّ، ولا يعرفونَ شُعبة بن ظُهير ولا زُهيرَ بن ذُؤيب، ولا عَبَّادَ بنَ الحصين. ويذكرون اللسن والبيان والخطيب ابن القِرِّيَّة ولا يعرفون سَحبانَ وائل.

والعامَّة لم يصل ذكر هؤلاء إليهم إلاَّ من قِبَل الخاصَّة، والخاصَّة لم تَذْكُر هؤلاء دون أولئك، فتركَتْ تحصيلَ الأمورِ والموازنَةَ بين الرجال وحكَمتْ بالسَّابق إلى القلب، على قدر طباع القلب وهيئته، ثمَّ استوت عِلل العامَّة في ذلك وتشابهت.

والعامَّة والباعَة والأغنياء والسِّفْلةُ كأنَّهم أعذارُ عامٍ واحد. وهم في باطنهم أشدُّ تشابهاً من التوأمين في ظاهرهما، وكذلك هم في مقادير العقول وفي الاعتراض والتسرُّع ، وإن اختلفت الصُّور والنَّغَم[3]، والأسْنان والبلدان.

٣١٦ - [تشابه طبائع العامّة في كلّ دهر]

وذكر اللَّه عزَّ وجلَّ ردَّ قريشٍ ومُشرِكي العَرَبِ على النبيِّ ﷺ قولَهُ، فذكر ألفاظَهم، وجَهْد معانيهم ، ومقادير هممهم التي كانت في وزن ما يكون من جميع

(١) فرغانة: مدينة وكورة واسعة متاخمة لبلاد تركستان، على يمين القاصد لبلاد الترك، وقيل: فرغانة؛ قرية من قرى فارس.

(٢) ربع في الآفاق: أقام في مواضع كثيرة.

(٣) أراد بالنغم: اللغات واللهجات.

الأمم إلى أنبيائهم، فقال: ﴿تَشَابَهتْ قُلُوبُهمْ﴾[1] وقال: ﴿أَتَواصَوْا به﴾[2] ثم قال: ﴿وَخُضتمْ كالَّذي خَاضُوا﴾[3]. ومثلُ هذا كثير، ألا ترى أنَّكَ لا تَجدُ بُدًّا في كلِّ بلدةٍ وفي كلِّ عصر للحاكة من أن يكونوا على مقدارٍ واحد وجهة واحدةٍ، من السُّخَط والحمق، والغباوة والظلم، وكذلك النخَّاسون[4] على طبقاتهم. من أصناف ما يبيعون. وكذلك السماكون والقَلاَّسون[5] وكذلك أصحابُ الخُلقان[6] كلُّهم، في كلِّ دهرٍ وفي كلِّ بلدٍ، على مثال واحد، وعلى جهةٍ واحدَة.

وكلُّ حجَّامٍ في الأرض فهو شديد الاستهتار بالنبيذ، وإن اختلفوا في البُلدان والأجناس والأسنان.

ولا ترى مسجوناً ولا مَضْروباً عندَ السُّلطان إلاَّ وهُو يقول: إنّي مظلوم، ولذلك قال الشاعر: [من البسيط]

لم يَخلقِ اللّهُ مَسْجُوناً تسائلُهُ ما بالُ سِجْنك إلاّ قالَ مَظلومُ[7]

وليس في الأرض خَصمانِ يتنازعان إلى حاكم، إلاَّ كلُّ واحدٍ منهمُا يدَّعِي عدمَ الإنصاف والظُّلم على صاحبه.

٣١٧ - [إعجاب المرء بنفسه]

وليس في الأرض إنسانٌ إلاَّ وهُوَ يطرَب من صوتِ نفسه، ويعتريه الغَلطَ في شعرِهِ وفي ولده. إلاّ أنَّ الناسَ في ذلك على طبقاتٍ من الغَلط: فمنهم الغرق[8] المغمور، ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطأ، ومنهم من يكون خطؤه مستوراً لكثرة صوابه، فما أحسَنَ حالَهُ ما لم يُمتَحَنْ بالكشف. ولذلك احتاج العاقل في العُجْبِ بولده، وفي استحسان كتبه وشعره، من التحفظ والتوقِّي، ومن إعادة النظَر والتُّهمة إلى أضعاف ما يحتاج إليه في سائر ذلك.

---

(١) ١١٨/ البقرة: ٢.

(٢) ٥٣/ الذاريات: ٥١.

(٣) ٦٩/ التوبة: ٩.

(٤) النخّاس: بياع الرقيق.

(٥) القلاّس: الضارب بالدف.

(٦) أصحاب الخلقان: الذين يبيعون الثياب البالية.

(٧) البيت بلا نسبة في البيان والتبيين ٣/١٦٩، وعيون الأخبار ١/٧٩، ٢/١١٦.

(٨) الغرق: الغريق.

٢١٨ - [كرم حاتم وكعب بن مامة]

والعامّة تحكم أنَّ حاتماً أجودُ العرب[١]، ولو قَدَّمَتْه على هَرِمٍ الجَواد لما اعترَضْتَه عليهم[٢]. ولكنَّ الذي يُحَدَّثُ به عن حاتم، لا يبلغ مقدارَ ما رَوَوْهُ عن كعبِ بن مامة، لأنَّ كعباً بذَلَ نفسَه في أعطية الكرم وبَذْل المجهود فساوى حاتماً من هذه الوجه[٣]، وبايَنَه ببذْل المُهجة.

ونحن نقول: إنَّ الأشعارَ الصحيحة بها المقدارُ الذي يوجبُ اليقين بأنَّ كعباً كان كما وصفوا. فلو لم يكن الأمرَ في هذا إلى الجُدود و الحظوظ والاتّفاقات، وإلى عللٍ باطنةٍ تجري الأمورُ عليها، وفي الغَوصِ عليها وفي مَعرفتها بأعيانها عُسر، لَمَا جرت الأمورُ على هذه المجاري، ولو كان الأمرُ فيها مفوَّضاً إلى تقدير الرأي، لكان ينبغي لغالب بن صعصعةَ أن يكونَ من المشهورين بالجود، دون هرِمٍ وحاتم.

٢١٩ - [كلف العامة بمآثر الجاهلية]

فإنْ زعمتَ أنَّ غالباً كان إسلاميًّا وكان حاتمٌ في الجاهلية. والناسُ بمآثر العرب في الجاهليَّة أشدُّ كلفاً، فقد صدقْت. وهذا أيضاً يُنبئك أنَّ الأمور في هذا على خلاف تقدير الرأي، وإنَّما تجري في الباطن على نسقٍ قائم، وعلى نظر صحيح، وعلى تقدير محكم، فقد تقدَّم في تَعْبيتهما[٤] وتسويتهما مَنْ لا تخفى عليه خافية، ولا يفُوتُه شيءٌ ولا يُعجزه، وإلاّ فما بالُ أيَّامِ الإسلام ورجالها. لم تكنْ أكبرَ في النفوس، وأحلَّ في الصدور مِن رجال الجاهليَّة، مع قُرب العهد وعِظَم خَطرِ ما ملكوا، وكثرة ما جادت به أنفسُهم، ومع الإسلام الذي شملهم، وجعله اللّه تعالى أولى بهم من أرحامهم.

ولو أنَّ جميعَ مآثر الجاهليَّة وُزنت به، وبما كان في الجماعات اليسيرة من رجالات قريش في الإسلام لأربت هذه عليها، أو لكانت مثلها.

---

(١) في الأمثال: «أجود من حاتم طيء»، وهو في مجمع الأمثال ١/١٨٢، والمستقصى ١/٥٣، وجمهرة الامثال ١/٣٣٦.

(٢) في الأمثال: «أجود من هرم»، وهو في مجمع الأمثال ١/١٨٨، والمستقصى ١/٥٥، وجمهرة الامثال ١/٣٣٨.

(٣) في الأمثال: «أجود من كعب بن مامة»، وهو في مجمع الأمثال ١/١٨٣، والمستقصى ١/٥٤، وجمهرة الامثال ١/٣٣٨.

(٤) التعبية: الإعداد والتهيئة، ومنه تعبئة الجيش.

٣٢٠ - [دلالة الخلق على الخالق]

فليس لقَدْر الكلب والدِّيك في أنفسهما وأثمانهما ومناظرهما ومحلِّهما من صُدور العامَّة أسلفنا هذا الكلام، وابتدأنا بهذا القول. ولسنا نقف على أثمانهما من الفضَّة والذَّهب، ولا إلى أقدارهما عندالناس. وإنما نَتَنَظَّرُ[١] فيما وضع اللَّه عزَّ وجلَّ فيهما من الدَّلالة عليه، وعلى إتقان صُنْعه، وعلى عجيب تدبيره، وعلى لطيفِ حكمته، وفيما استخْزنهما[٢] من عجائب المعارف، وأودعهما من غوامض الاحساس[٣]، وسخَّر لهما من عظام المنافع والمرافق، ودلَّ بهما على أنَّ الذي ألبَسهُما ذلك التَّدبيرَ، وأودَعَهُمَا تلك الحكم، يجبُ أن يفكَّر فيهما؛ ويعتَبَر بهما، ويسبَّح الله عزَّ وجلَّ عندهما. فغَشَّى ظاهرهما بالبرهان، وعمَّ باطنَهما بالحكم، وهيَّج عَلَى النظر فيهما والاعتبار بهما؛ ليعلم كلُّ ذي عقل أنّه لم يَخْلق الخلق سُدًى؛ ولم يترك الصُّور هَمَلاً؛ وليعلموا أنَّ الله عزَّ وجلّ لم يَدَع شيئاً غُفْلاً[٤] غير موسوم، ونثراً غير منظوم، وسُدًى غير محفوظ؛ وأنّه لايخطئه من عجيب تقديره، ولا يعطله من حلْي تدبيره، ولا من زينة الحكم وجلال قدرة البرهان.

ثمَّ عمّ ذلك بين الصُّؤابة[٥] والفرَاشة، إلى الأفلاك السبعة وما دونَها من الأقاليم السبعة.

٣٢١ - [تأويل قوله تعالى: ويخلق ما لا تعلمون]

وقد قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٦]. وقد يتَّجه هذا الكلامُ في وجوه: أحدها أنْ تكون ها هنا ضروبٌ من الخلق لايعلم بمكانهم كثيرٌ من الناس، ولابدَّ أن يعرف ذلك الخَلْقُ معنَى نفسه، أو يعلمه صفْوة جنُودِ الله وملائكته، أو تعرفَه الأنبياء، أو يعرِفَه بعضُ الناس، لايجوز إلاَّ ذلك. أو يكونَ الله عَّز وجلَّ إنما عنى أنّه خلق أسباباً، ووهب عِلَلاً، وجعل ذلك رِفداً لما يظهرُ لنا ونظاماً.

وكان بعض المفسِّرين يقول: من أراد أن يعرف معنى قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ

(١) التنظر: التامل وإطالة التفكير.
(٢) استخزن: استودع.
(٣) الأحساس: جمع حس.
(٤) الغفل: ما ليس به سمة تميزه.
(٥) الصؤابة: بيضة القملة.
(٦) ٨/ النحل: ١٦.

تَعْلَمُون ﴾ فَلْيُوقِدْ ناراً في وسط غَيضه، أو في صحراء بريّة ثمّ ينظر إلى ما يغشى النارَ من أصناف الخلق من الحشرات والهمج فإنّه سيرى صُوراً، ويَتَعرَّف خلقاً لم يكن يظنُّ أنَّ الله تعالى خلق شيئاً من ذلك العالم. وعَلَى أنَّ الخلق الذي يغْشى نارَهُ يختلف عَلَى قدر اختلاف مواضعِ الغياض والبحار والجبال. ويعلم أنَّ مَا لم يبلغه أكثرُ وأعجب. ومَا أردُّ هذاَ التأويل، وإنّه ليدخل عندي في جملةِ مَا تدلُّ عليه الآية. ومَنْ لَمْ يَقل ذلك لم يفهَمْ عن ربِّه ولم يفقَهْ في دينه.

٣٢٢ - [ديدان الخل والملح][1]

كأنّك لاترى أنَّ في دِيدان الخلِّ والملحِ، والدِّيدَان التي تتولد في السُّموم إذا عَتقت وعرض لها العفن - وهي بَعْدُ قواتل - عبرةً وأُعجوبَة، وأنَّ التفكّر فيها مَشحذةٌ للأذهان، ومَنْبَهةٌ لذَوي الغفْلة، وتحليلٌ لعقدة البُلْدة[2]، وسببٌ لاعتياد الرويّة وانفساح الصدور، وعزٌّ في النفوس، وحلاوةٌ تقتاتَها الرُّوح، وثمرةٌ تغَذّي العقل، وتَرَقٍّ في الغايات الشريفة، وتَشرُّفٌ إلى معرفَة الغايات البعيدة.

٣٢٣ - [فأرة البيش والسمندل]

وكأنّك لاترى أنَّ في فارة البيش[3] وفي السمنْدَل[4] آيةً غربية، وصفةً عجيبة، وداعيةً إلى التفكُّر، وسبباً إلى التعجُّب والتَّعجيب.

٣٢٤ - [الجُعَل والورد]

وكأنَّك لا ترى أنّ في الجُعَل[5]، الذي متى دفنتَه في الورد سكَنَتْ حركته وبطلتْ في رأي العين رُوحُه، ومتى أعدْتَه إلى الرَّوث انحلّت عُقدته، وعادت حركتُه، ورجَع حسُّه - أعجَبَ العجَبِ، وأحكم الحكم!.

٣٢٥ - [حصول الخلد على رزقه]

وأيُّ شيء أعجبُ من الخُلْد[6]! وكيف يأتيه رزقه، وكيف يهيِّئ الله له ما

(١) وردت هذه الفقرة في ثمار القلوب (٦٣٧) ٣٤٤.

(٢) في ثمار القلوب «البلادة»، والكلمتان بمعنى واحد.

(٣) فارة البيش: دويبة تغتذي السموم فلا تضرها. ثمار القلوب (٦١١)، وحياة الحيوان ٢/١٣٩.

(٤) السمندل: طائر يدخل في التنور ولا يحترق ريشه. ثمار القلوب (٦١١)، وحياة الحيوان ١/٥٧٣.

(٥) الجعل: دويبة تعض البهائم في فروجها فتهرب، وهو أكبر من الخنفساء. حياة الحيوان ١/٢٧٨.

(٦) الخلد: دويبة عمياء صماء، لا تعرف ما بين يديها إلا بالشم، فتخرج من جحرها وتفتح فاها؛ فيأتي الذباب فيقع على شدقها، فتدخله جوفها بنفسها. حياة الحيوان ١/٤٢٣.

يقوته وهو أعمى لا يبصر، وأصمُّ لا يسمَع، وبليدٌ لا يتصرَّف، وأبلهُ لا يعرِف!. ومع ذلك أنّه لا يجوز بابَ جُحره، ولا يتكلّف سوى ما يجلبُ إليه رازقُه ورازق غيره.

وأيُّ شيءٍ أعجبُ من طائرٍ ليس له رزقٌ إلاّ أن يخلِّل أسنانَ التِّمساح، ويكون ذلك له.

٣٢٦ - [الطائران العجيبان]

وأيُّ شيءٍ أعجبُ من طائرين، يراهما الناسُ من أدنى جُدود البحر(١) من شقِّ البصرة، إلى غاية البحر من شقّ السِّند، أحدهما كبيرُ الجُثّة يرتفع في الهواء صُعُداً، والآخَر صغير الجثَّة يتقلَّب عليه ويعبَث به، فلا يزال مرَّةً يرفرِفُ حَولَه ويرتقي على رأسه، ومرَّةً يطيرُ عند ذُنابَاهُ، ويدخلُ تحتَ جَناحه ويخرُج من بينِ رجليه، فلا يزال يغُمُّه ويَكربُه حتّى يتّقيه بذرقه، فإذا ذَرَق شحا له فاه فلا يخطئ أقصى حلقه حتّى كأنّه دحا به في بئر، وحتّى كأنَّ ذَرْقَه مدحاةٌ بيد أُسوار(٢)، فلا الطائر الصغير يخطئ في التلَقِّي، وفي معرفته أنّه لا رزق له إلاّ الذي في ذلك المكان؛ ولا الكبير يخطئ التَّسديد(٣)، ويعلمُ أنّه لا ينجيه منه إلا أنْ يتّقيَه بذرْقه، فإذا أوعى ذلك الذَّرْق(٤)، واستَوْفى ذلك الرِّزق، رجع شبعانَ ريَّانَ بقُوت يومه، ومضى الطائرُ الكبير لِطِيَّته. وأمرهما مشهورٌ وشأنهما ظَاهر، لا يمكن دفعه ولا تُهَمَةُ المخبِرين عنه.

٣٢٧ - [اختلاف طباع الحيوان]

فجعل تعالى وعزَّ بعضَ الوحوش كَسُوباً محتالاً، وبعضَ الوحوش متوكِّلاً غيرَ محتال، وبعضَ الحشرات يدَّخر لنفسه رزْقَ سنَته؛ وبَعضاً يتّكل على الثِّقة بأنَّ له كلَّ يوم قَدْرَ كفايته، رزقاً معدَّاً وأمراً مقطوعاً. وَجَعَلَ بعضَ الهمَج يدَّخر، وبعضَه يتكَسَّب، وبعضَ الذكورة يعُولُ وَلَده، وبعض الذكورة لا يعرف وَلَده، وبعضَ الإناث تُخَرِّج(٥) ولدها، وبَعض الإناث تضيِّع ولدها وتكفلُ وَلَدَ غيرِها، وبَعْضَ الأجناس معطوفَةً على كل وَلَد من جنسها، وبعض الإناث لاتعرف وَلدَها بعد استغْنَائه عنها،

(١) الجدود: جمع جَد، وهو الشاطئ، ومنه سميت مدينة «جدة» لوقوعها على شاطئ البحر، والخبر في ثمار القلوب (٨١٧)، وربيع الأبرار ٥/٤٥٦.

(٢) المدحاة: آلة الرمي. والدَّحْو: هو رمي اللاعب بالحجر وغيره. الأُسوار: الجيّد الرمي بالسهام.

(٣) التسديد: إصابة الهدف.

(٤) الذرق: نجو الطائر. أوعى: استوعب.

(٥) تخرج: تؤدب وتربي.

وبعض الإناث لا تزال تعرِفُه وتعطفُ عليْه، وبعضَ الإناث تأكلُ وَلدهَا، وكذلك بعض الذكُورة. وبعضَ الأجناس يُعادي كُلَّ ما يكسر بيضَها أو يأكل أولادَهَا. وجعل يُتْمَ بعضِ الحيوان من قِبَل أمَّهاتها، وجعل يُتْمَ بعضها من قِبَل آبائها، وجعل بعضَها لا يلتمس الولد وإن أتاه الولد، وجعل بعضَها مستفرِغَ الهَمِّ في حُبِّ الذَّرء[1] والتماس الولد؛ وجعل بعضها يُزَاوِج وبعضها لا يزاوِج ليكون للمتوكل من الناس جهةٌ في توكُّلِه، وللمتكسِّب جهةٌ في تكسُّبِه وليُحضِرَ على بالهم أسباب البِرِّ والعُقوق، وأسبابَ الحظْر والتربية، وأسبابَ الوَحشة من الأرحام الماسَّة.

٣٢٨ - [افتراق المعاني واختلاف العلل]

ولمكان افتراق المعاني واختلاف العلل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعضهم: «اعقِلْهَا وتَوكَّلْ»[2]. وقال لَبلال «أنفِقْ بلاَل، ولاتخشَ مِنْ ذي العَرْش إقْلاَلاً».

فافهموا هذا التدبيرَ، وتعلَّموا هذه الحكم، واعرفوا مداخلَها ومخارجَها ومفرَّقَها ومجموعَها؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يُرَدِّد في كتابه ذِكرَ الاعتبارِ، والحثَّ عَلَى التفكير، والترغيبَ في النظر وفي التثبُّت والتعرُّف والتوقُّف، إلاّ وهو يريد أن تكونوا علماءَ من تلك الجهة، حكماءَ من هذه التعبئة[3].

٣٢٩ - [المعرفة والاستدلال والتمييز]

ولولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى، كما أنّه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى. لولا تمييزُ المضارِّ من المنافع، والرديِّ من الجيِّد بالعيون المجعولة لذلك، لما جعَل الله عزَّ وجلّ العيونَ المدرِكَةَ. والإنسان الحسَّاس إذا كانت الأمور المميَّزة عنده، أخذ ما يحتاج إليه وترك ما يستغني عنه وما يَضُرّ أخذه، فيأخذ ما يحبُّ ويدَعُ ما يكره، ويشكر على المحبوب ويصبر على المكروه، حتى يذكر بالمكروه كيفيَّة العقاب ويَذكُر بالمحبوب كيفيّة الثواب، ويعرفَ بذلك كيفيَّة التضاعيف، ويكون ما يَغمُّه رادعاً له، وممتَحَناً بالصَّبْر عليه، وما يسرُّه باسطاً له ومُمْتَحَناً بالشكر عليه. وللعقل في خِلال ذلك مجال، وللرأي تقلب، وتَنشَقّ

---

(١) الذرء: النسل.

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ١١٩١ وفيه أنه حديث ضعيف.

(٣) التعبئة: الإعداد والتهيئة.

للخواطر أسبابٌ، ويتهيّأ لصواب الرأي أبواب. ولتكون المعارف الحسّية والوِجدانات الغريزيّة، وتمييز الأمور بها، إلى ما يتميز عند العقول وتحصره المقاييس. وليكون عملُ الدُّنيا سُلَّماً إلى عمل الآخرة، وليترقَّى من مَعْرِفة الحواس إلى مَعْرِفَة العُقول، ومن معْرِفَة الروِيّة من غاية إلى غاية؛ حتَّى لا يرضى من العِلم والعَمَل إلاّ بمَا أدّاه إلَى الثَّواب الدائم، ونجّاه من العِقاب الأليم.

٣٣٠ - [ما يحسن الكلب مما لا يحسنه الإنسان]

سنذكُرُ طَرَفاً ممَّا أودَعَ الله - عزَّ وجلَّ - الكلبَ ممَّا لاتحسنُه أنت أيُّها الإنسان، مع احتقارِك له وظلمِك إيَّاه.

وكيف لا تكون تلك الحكمُ لطيفةً، وتلك المعاني غَريبةً، وتلك الأحساسُ[1] دقيقة، ونحنُ نَعلم أنَّ أدقَّ الناس حِسّاً وأرقَّهُم ذِهناً وأحضرَهم فَهْماً،وأصَحَّهم خاطراً وأكملَهُمْ تَجْرِبَة وعلماً، لَوْ رَامَ الشَيء الذي يَحسنُه الكلب في كثيرٍ من حالاتَ الكلب لَظَهَر له من عجزه وخُرْقه، وكلال حدِّه وفَساد حسِّه، ما لا يعرف بدونه إنَّ الأمور لَم تُقسَم على مقدار رأيه، ولا عَلَى مبلغِ عقله وتقديره، ولا على محبَّته وشهوته؛ وأنّ الذي قسم ذلك لا يحتاج إلى المشاوَرَة والمعاونَة، وإلى مكانَفَة ومُرافدة، ولا إلى تجرِبة ورويّة. ونحن ذاكرون من ذلك جملاً إن شاء الله تعالى.

٣٣١ - [خبرة الكلب في الصيد]

اعلم أنَّ الكلب إذا عاين الظِّباءَ، قريبةً كانت أو بعيدةً، عرف المعْتَلَّ وغير المعْتَل وعرَف العَنز من التَّيس. وهو إذا أبصرَ القطيعَ لم يقصِد إلاّ قصدَ التَّيس-وإنْ علم أنّه أشدُّ حُضراً، وأطولُ وثْبةً، وأبعدُ شوطاً - ويَدَعُ العنز وهو يرى ما فيها من نقصان حُضْرها وقصر قابِ خَطوها، ولكنَّه يعلم أنّ التَّيس إذا عدا شوطاً أو شوطين حَقِبَ ببوله[2]!!.

٣٣٢ - [ما يعرض للحيوان عند الفزع]

وكلُّ حيوانٍ إذا اشتدَّ فزعه، فإنّه يَعرِض له إمَّا سَلَس البول والتقطير، وإمَّا الأُسْرُ[3] والحَقَب. وكذلك المضروب بالسياط على الأكتاف، وبالعصيِّ على الأستاه. وما أكثر ما يعتريهم البول والغائط.

---

(١) الأحساس: جمع حس.

(٢) حَقِبَ: تعسر عليه البول، واحتبس.

(٣) الأسر: احتباس البول.

وكذلك صار بعضُ الفرُسان الأبطال إذا عايَنَ العدُوّ قطَّرَ إلى أن يذهب عنه، لهَولِ الجَنان.

وإذا حَقبَ(١) التَّيس لم يستطع البَول مع شدَّة الحُضر، ومع النَّفْزِ والزَّمَع(٢)، ووضع القوائم معاً ورَفعها مَعاً، في أسرَعَ من الطَّرْف فيثقُل عَدْوُهُ، ويقصرُ مَدَى خُطاه، ويعتريه البُهْر حتَّى يلحقه الكلبُ فيأخذه.

والعنز من الظِّباء إذا اعتراها البولُ من شدَّه الفزَع لم تجمعه، وحذفت به كإيزاغ المَخَاض الضّوارب(٣)، لسَعَةِ السَّبِيل وسهولةِ المخرج، فتصير لذلك أدومَ شَدّاً، وأصبرَ على المطاولة.

فهذا شيءٌ في طبعِ الكلب معرفتُه، دونَ سائر الحيوان.

والكلب المجرِّب لا يحتاجُ في ذلك إلى مُعاناة، ولا إلى تعلُّم، ولا إلى رويّة ولا إلى تكلف، قد كفاه ذلك الذي خَلَق العَقل والعاقل والمعقُول، والداءَ والدواءَ والمداواةَ والمداوِي، وقسَم الأُمور على الحكمة، وعلى تمام مصلحة الخليقة.

٣٣٣ - [مهارة الكلب في الاحتيال للصيد]

ومن معرفة الكلب، أنَّ المُكلِّب يُخرجه إلى الصيد في يوم، الأَرضُ فيه ملبَسة من الجليد، ومغشَّاةٌ بالثّلجِ، قد تراكم عليها طبقاً عَلَى طبَق، حتَّى طبَّقها واستفاض فيها، حتَّى ربَّمَا ضربتْه الريح ببَرْدها، فيعود كلُّ طبقٍ منها وكأنّه صفاةٌ ملساء، أو صخرةٌ خلْقاء(٤)، حتى لا يثبت عليها قَدَمٌ ولا خُفٌّ، ولا حافر ولا ظلف، إلاَّ بالتثبيت الشديد، أو بالجَهْد والتَّفريق - فيمضي الكلاّبُ بالكلب، وهو إنسانٌ عاقل، وصيَّادٌ مجرِّب، وهو مع ذلك لا يدري أينَ جُحر الأَرنب من جميعِ بَسائطِ الأرض، ولا موضعَ كُناس ظبيٍ، ولا مَكْوِ ثعلب(٥)، ولا غيرَ ذلك من موَالج(٦) وحوشِ الأرضِ؛

---

(١) حقب: تعسر عليه البول.

(٢) النفز: وثب الظبي خاصة. الزمع: الخوف والدهش.

(٣) الإيزاغ: دفع الناقة ببولها. المخاض: النوق الحوامل. الضوارب: جمع ضارب وضاربة، وهي التي تضرب الفحل بأرجلها إذا أرادها. وكأن الجاحظ يريد قول النابغة:

(بضربٍ يزيل الهام عن سكناته وطعن كإيزاغ المخاض الضوارب)

والبيت في ديوان النابغة ٤٦.

(٤) صخرة خلقاء: ملساء.

(٥) مكو الثعلب: جحره.

(٦) موالج: مداخل، ولج: دخل.

فيتخرَّق[1] الكلب بينَ يديه وخَلفَهُ، وعن يمينه وشماله ويتشمّمُ ويتبصّر، فلا يزال كذلك حتّى يقف على أفواه تلك الجحَرة، وحتى يُثير الذي فيها بتنفيس الذي فيها، وذلك أن أنفاسها وبُخارَ أجوافهَا وأبدانها ، وما يخرج من الحرارة المستكنّة في عمق الأرض- ممّا يُذيب ما لاقاهَا من فَمِ الجُحْر، من الثَّلجِ الجامد، حتى يرقَّ ويكاد أن يثقبه وذلك خفيٌّ غامض، لا يقع عليه قانص[2] ولا راعٍ، ولا قائف[3] ولا فلاّح، وليس يقع عليه إلاّ الكلب الصائد الماهر.

وعلى أنّ للكلب في تَتَبُّع الدُّرَّاج[4] والإصعاد خَلْفَ الأرانب في الجبل الشاهق، من الرِّفق وحسن الاهتداء والتأتّي ما يخفى مكانه على البيازرة[5] والكلاّبين.

٣٣٤ - [الانتباه الغريزي في الكلب]

وقد خبّرني صديقٌ لي أنّه حبس كلباً له في بيتٍ وأغلَقَ دونه الباب في الوقت الذي كان طبَّاخه يرجع فيه من السوق ومعَه اللحم، ثمَّ أحدَّ سكِّيناً بسكين، فنبَح الكلب وقَلق، ورام فتحَ الباب؛ لتوهمّه أنَّ الطَّبَّاخ قد رجَع من السوق بالوظيفة[6]، وهو يحد السكِّين ليقطع اللَّحم!! .

قال: فلما كان العشيُّ صنَعْنَا به مثلَ ذلك، لنتعرَّف حالَه في معرفة الوقت، فلم يتحرّك!! .

قال: وصنعتُ ذلك بكلبٍ لي آخر فلم يَقْلَقْ إلاّ قلقاً يسيراً، فلم يلبث أنْ رجَعَ الطّباخ فصنَع بالسّكِّين مثل صنيعي، فقلِق حتّى رام فتحَ الباب!! .

قال فقلت: والله لَئنْ كان عرفَ الوقتَ بالرَّصْد[7] فتحرَّك له، فلما لم يشَمَّ ريحَ اللحم عرَف أنَّه ليس بشيء، ثمَّ لما سمع صوتَ السِّكِّين والوقتُ بَعْدُ لم يَذْهب، وقد جيء باللحم فشمَّ رِيحَ اللَّحم من المطبخِ وهو في البيت، أو عرف فَصْلَ ما بين إحدادِي السِّكِّين وإحدادِ الطباخ، إنّ هذا أيضاً لَعجَب.

---

(١) يتخرق: يشتد عدوه.

(٢) القانص: الصائد.

(٣) القائف: من يعرف الآثار.

(٤) الدارج: طائر أسود باطن الجناحين وظاهرهما؛ اغبر على خلقة القطا؛ إلا أنه ألطف. حياة الحيوان ١ / ٤٧٧.

(٥) البيازرة: جمع بَيزار، وهو الذي يصيد بالبازي.

(٦) الوظيفة: ما يقدَّر لك في اليوم من طعام أو رزق ونحوه.

(٧) الرصد: الارتقاب.

وإنّ اللحمَ ليكون بيني وبينَه الذراعان والثلاث الأذرع، فما أجدُ ريحَه إلاّ بَعْدَ أنْ أُدْنِيَه من أنفي. وكلٌّ ذلك عجب.

ولم أجدْ أهل سكّة أَصطَفانُوس[1]، ودار جاريَةَ، وباعَةَ مُرَبَّعَة بني مِنْقَرٍ[2] يشُكُّون أنَّ كَلباً كان يكونُ في أعلى السكة، وكان لايجوز مَحْرَس الحارس أيامَ الأسبوع كلِّه، حتَّى إذَا كان يومُ الجمعة أقبلَ قَبْلَ صلاة الغداة، من موضعه ذلك إلى باب جاريَة، فلا يزال هناكَ مادام على مِعْلاق الجزَّار شيءٌ من لحم. وباب جاريَة تُنحر عندَه الجزُر في جميع أيَّام الجمع خاصَّةً، فكَان ذلك لهذا الكلب عادةً، ولم يره أحدٌ منهم في ذلك الموضع في سائر الأيَّام، حتَّى إذا كان غداةَ الجمعة أقبَل!

فليس يكونُ مِثلُ هذا إلاّ عن مقداريّةٍ بمقدار ما بين الوقتين.

ولعلَّ كثيراً من الناس ينتابون بعْض هذه المواضع في يومِ الجمعةِ، إمّا لصلاةٍ، وإمّا لغير ذلك، فلا يَعْدِمُهُم[3] النِّسيان من أنفسهم، والاستذكار بغيرهم. وهذا الكلبُ لم ينسَ من نفسه، ولا يستذكر بغيره.

وزعم هؤلاء بأجمعهم أنّهم تفقَّدوا شأنَ هذا الكلب منذ انتبهوا لصَنيعه هذا، فلم يجِدُوه غادرَ ذلك يوماً واحداً. فهذَا هذا.

٣٣٥ - [قصّة في وفاء الكلب]

وأنشد أبو الحسن بن خالويه عن أبي عُبيدة لبعض الشعراء: [من الطويل]

يُعَرِّدُ عنهُ جارُهُ وشقيقُه ... وينبِش عنه كلْبُهُ وَهْو ضارِبُهْ

قال أبو عبيدة: قيل ذلك لأنَّ رجلاً خرج إلى الجبّان ينتظر رِكابَه فاتبعه كلبٌ كان له، فضرب الكلبَ وطردَه، وكره أن يتبعه، ورماه بحجر، فأبى الكلبُ إلاّ أن يذهب معه، فلما صار إلى الموضع الذي يريد فيه الانتظار، ربضَ الكلبُ قريباً منه، فبينا هو كذلك إذ أتاهُ أعداءٌ لَهُ يطلبونه بطائلةٍ لهم عنده، وكان معه جار لَهُ وأخوه دنْياً، فأسلماه وهربا عنه، فجرح جراحاتٍ ورُمي بهِ في بئرٍ غيرِ بعيدة القعر، ثم حَثَوْا عليه من التراب حتَّى غَطَّى رأسه ثم كُمِّمَ فوقَ رأسِه منه، والكلبُ في ذلك

---

(١) أصطفانوس: موضع في البصرة، مسماة باسم كاتب نصراني كان في أيام زياد؛ أو ما قاربها. معجم البلدان (أصطفانوس).

(٢) مربعة بني منقر: موضع بالبصرة.

(٣) البيت مع الخبر في تأويل مختلف الحديث ١٦٦، وربيع الأبرار ٥ / ٤٢١. التعريد: الفرار.

يَزجُم[1] ويَهِرُّ، فلمَّا انصرفوا أتى رأسَ البئر؛ فما زال يَعوي وينبث عنه ويحثو التُّرَابَ بيده ويكشف عن رأسه حتى أظهر رأسه، فتنفّسَ ورُدَّتْ إليه الرُّوح؛ وقد كاد يموتُ ولم يبق منه إلاّ حُشاشة، فبينا هو كذلك إذ مَرّ ناس فأنكروا مكان الكلب ورأوه كأنّه يحفر عن قبر، فنظروا فإذا هم بالرَّجُلِ في تلك الحال، فاستشالوه[2] فأخرجوه حيًّاً، وحَملوه حتَّى أدَّوه إلى أهله، فزعم أنّ ذلك الموضعَ يُدْعَى ببئر الكلب. وهو مُتيامِن عن النَّجف.

وهذا العملُ يدل عَلَى وَفَاء طبيعي وإلفٍ غريزي ومحاماةٍ شديدة، وعلى معرفةٍ وصبرٍ، وعلى كرم وشكر، وعلى غناءٍ عجيب ومنفعةٍ تفوق المنافع، لأَنّ ذلك كلَّه كان من غير تكلف ولا تصنُّع.

٣٣٦ - [أسدي يأكل جرو كلب]

وقال مؤمَّل بن خاقان، لأعرابيٍّ من بني أسد، وقد أكَلَ جَرْوَ كلب: أتأكل لحم الكلب وقد قال الشاعر: [من الطويل]

إذا أسديٌّ جاعَ يوماً ببلَدةٍ ... وكان سميناً كلبُه فهو آكلُه[3]

أكُلُّ هذا قَرَماً إلى اللحم؟ قال: فأنشأ الأسديُّ يقول: [من الطويل]

فسائِل أخا الحَلْفَاءِ إن كنتَ لا تدري ... وصَبّاً بحظِّ اللَّيثِ طُعْماً وشَهْوَةً[4]

٣٣٧ - [حب الأسد للحم الكلب]

قال: وذلك لأنَّ الأسَدَ لايحرِص على شيءٍ من اللُّحمان حرصَه على لحم الكلب. وأمّا العامَّة فتزعُم أنَّ لحُوم الشاءِ أحبُّ اللُّحمان إليه، قالُوا: ولذلك يُطيف الأسدُ بجَنَبَات القُرى، طلباً لاغترار الكلبِ؛ لأنَّ وثبة الأسد تُعجِل الكلب عن القيام وهو رابض، حتَّى ربَّما دعاهم ذلك إلى إخراج الكلب من قُراهم؛ إلاّ أنْ يكون بقرب ضِياعهم خنازيرُ، فليس حينئذٍ شيءٌ أحبَّ إليهم من أن تكثر الأُسد عندهم. وإنَّما

(١) يزجم: يصوِّت.

(٢) شال: رفع.

(٣) البيت للفرزدق في البخلاء ٢٣٥، والمعاني الكبير ٢٥٤، وربيع الأبرار ٥/ ٤١٥.

(٤) البيت في المعاني الكبير ٢٥٤، وربيع الأبرار ٥/ ٤١٥. أخو الحلفاء: الأسد، لأنه يسكن الحلفاء في الغياض.

(٥) ربيع الأبرار ٥/ ٤١٥ باختصار.

يُخرجون عنهم في تلك الحالات الكلاب، لأنَّهم يخافونها على ما هو عندهم أنفَسُ من الكلب، وهذه مصلحةٌ في الكلب، ولايكون ذلك إلاّ في القُرى التي بقُربِ الغَيْضَةِ أو المأسَدَة[١].

٣٣٨ - [سبب طلب الأسد للكلب]

فزعم لي بعض الدَّهاقِينِ قولاً لا أدري كيف هو، ذكر أنَّهم لا يشكُّونَ أنَّه إنَّما يطلبُ الكلبَ لحَنَقه عليه. لا من طريقِ أنّ لحمَه أحبُّ اللُّحمان إليه. وإنَّ الأسدَ ليَأتي مَناقِعِ المياه. وشطوطَ الأنهار، فيأكل السَّراطين والضفادع، والرِّق[٢] والسلاحف، وإنَّه أشرَهُ مِنْ أنْ يختارَ لحماً على لحم. قال: وإنَّما يكون ذلك منه إذا أرادَ المتطرِّفَ من حمير القرية وشائها وسائر دوابِّها. فإذا لَجَّ الكلبُ في النُّباح انتبهوا ونذروا[٣] بالأسَد. فكانوا بَيْنَ أن يحصِّنوا أموالَهم وَبينَ أن يهجهجوا[٤] به. فيرجعَ خائباً. فإذا أراد ذلك بدأ بالكلب؛ لأنْ يأمَنْ بذلك الإنذار، ثمَّ يستولي على القرية بما فيها. فإنَّما يطالب الأسدُ الكلابَ لهذه العلَّة

٣٣٩ - [حيل الأسد في الصيد]

وسمعتُ حديثاً من شُيُوخ مَلاَّحي الموصل - وأنا هائب له - ورأيتُ الحديثَ يدُور بينهم ، ويتقبّله جميعُهم. وزعموا أنّ الأسدَ رُبَّما جاء إلى قَلس السفينة[٥]، فيتشبَّث به ليلاً، والملاَّحون يمدُّون السفينةَ فلا يشكُّون أنَّ القَلْس قد التفَّ عَلى صخرة، أو تعلَّق بجذْم شجرة[٦]. ومن عاداتهم أنْ يبعثوا الأوَّل من المدَّادين ليحلّه. فإذا رجع إليه المَلاّح ليمدّه تمدّد الأسدُ بالأرض، ولزِق بها وغمّض عينيه كي لا يُبصَر وبيصُهُما بالليل، فإذا قرُب منه وثب عليه فخطفَه، فلايكون للملاّحين همٌّ إلاّ إلقاء أنفُسهم في الماء وعبورَهم إليه. وربما أكله إلاّ ما بقيَ منه، ورُبما جرَّ فريسته إلى عِرِّيسه[٧] وعرينه، وإلى أجرائه وأشباله، وإنْ كانَ ذلك عَلى أميال.

---

(١) المأسدة: الأرض الكثيرة الاسود.

(٢) الرق: العظيم من السلاحف.

(٣) نذر: علم.

(٤) هجهج بالكلب: صاح به ليبعد فقال له: هج هج.

(٥) القلس: حبل غليظ من حبال السفن.

(٦) جذم الشجرة: أصلها.

(٧) العريس: مأوى الأسد.

٣٤٠ - [سلاح الكلب وسلاح الدِّيك]

قالوا: فليس الدِّيك من بابَةِ الكلب؛ لأَنَّهُ إِنْ ساوَرَهُ قَهرَهُ قَهْراً ذريعاً. وسلاحُ الكلب الذي هو في فيه، أقوى من صِيصة[١] الديك التي في رجله، وصوته أندَى وأبعَد مَدَى وعينه أيقظ.

٣٤١ - [دفاع عن الكلب]

والكلب يكفي نفسه ويحمي غيره، ويعُول أهلَه، فيكون لصاحبه غُنمه وليس عليه غُرمه. ولَمَا يَرمَحُ[٢] الدوابُّ من الناس، ولَمَا يَحرن ويجمَع، وتنطَح وتقتُل أهلها في يومٍ واحد، أكثرُ ممَّا يكونُ من جميع الكلاب في عام.

والكبش يَنْطَحُ فيعقِر ويقتل، من غير أنْ يُهاج ويُعبَث به.

والبرذَون يَعضُّ ويرمَح من غير أن يُهاج به ويُعبَث.

وأنت لاتكادُ ترى كلباً يَعضُّ أحداً إلاّ من تهييج شديد، وأكثر ذلك أيضاً إنَّما هو النُّباح والوعيد.

٣٤٢ - [معرفة الكلب صاحبه وفرحه به]

والكلب يعرف وجهَ ربِّه من وجه عبده وأمَته، ووجهَ الزائر. حتَّى ربَّما غاب صاحب الدار حولاً مجرَّماً، فإذا أبصرَه قادماً اعتراه من الفرَح والبصبصة[٣]، والعُواء الذي يدلُّ على السرور، وعلى شدَّة الحنين ما لا يكون فيه شيءٌ فوقه.

٣٤٣ - [قصّة أخرى في وفاء كلب]

وخبَّرني صديقٌ لي قال: كان عندنا جروُ كلب، وكان لي خادمٌ لهِجٌ بتقريبه، مولعٌ بالإحسان إليه، كثيرُ المعاينة له، فغاب عن البَصرة أشهراً، فقلت لبعضِ مَنْ عنْدي: أتظنون أنّ فلاناً (يعني الكلب) يُثبت اليومَ صورةَ فلان (يعني خادمَه الغائب) وقد فارقَه وهو جرو، وقد صار كلباً يشغَر ببوله؟ قالوا: ما نشكُّ أنّه قد نسيَ صورتَه وجميعَ برِّه كان به. قال: فبينا أنا جالسٌ في الدار إذ سمعت من قِبَلِ باب الدار نُباحَه، فلم أَرَ شِكْلَ نباحه من التأنُّب والتعثيث[٤] والتوعّد، ورأيت فيه بَصبصة

(١) الصيصة: شوكة في رجل الديك.

(٢) رمح: رفس.

(٣) البصبصة: تحريك الكلب ذنبه.

(٤) التعثيث: ترجيع الصوت.

السُّرور، وحنين الإلْف. ثمَّ لم ألبَث أن رأيتُ الخادمَ طالعاً علينا، وإنَّ الكلبَ ليلتَفُّ على ساقيه، ويرتفِع إلى فخذيه، وينظر في وجهه، ويصيح صياحاً يستَبين فيه الفرحُ. ولقد بلَغ من إفراطِ سُروره أنّي ظَننتُ أنّه عُرِض[1]. ثمَّ كان بعد ذلك يغيب الشَّهرين والثلاثة، أوْ يمضي إلى بغدادَ ثم يرجع إلى العسكر بعد أيَّام، فأعرف بذلك الضَّرْب من البصبصة[2]، وبذلك النوع من النُّباح، أنَّ الخادمَ قدِم. حتَّى قلتُ لبعض من عندي: ينبغي أن يكون فلان قد قدم، وهو داخل عليكم مع الكلب.

وزعم لي أنّه ربَّما أُلْقِيَ لهذا الجرو إلى أن صار كلباً تامّاً، بعضَ الطعام فيأكل منه ما أكل، ثم يَمضي بالباقي فيخبؤُه. وربَّما أُلْقِيَ إليه الشيءُ وهو شَبْعان فيحتمله، حتَّى يأتِيَ به بعضَ المخابِئ فيضعه هناك، حتّى إذا جاع رجَع إليه فأكله[3].

٣٤٤ - [أدب الكلب]

وزعم لي غِلماني وغيرُهم من أهل الدَّرب، أنَّه كان ينبح على كلِّ راكبٍ يدخل الدرب إلى عراقيبِ برذونه، سائساً كان أو صاحبَ دابّة إلاَّ أنّه كان إذا رأى محمدَ بن عبد الملك داخلاً إلى باب الدرب أو خارجاً منه، لم ينبَحْ البتَّة، لا عليه ولا على دابَّتِه، بل كان لا يقف له على البابَ ولا على الطريق، ولكنَّه يدخل الدِّهليز سريعاً، فسألتُ عن ذلك فبلغني أنه كان إذا أقبل صاحَ به الخادم، وأهوَى له بالضَّرب، فيدخل الدِّهليز، وأنه ما فعل ذلك به إلاّ ثلاثَ مرارٍ، حتَّى صار إذا رأى محمَّدَ بنَ عبد الملك، دخل الدِّهليز من تلقاء نفسه، فإذا جاوزَ وثب عَلَى عراقيب دوابِّ الشاكريَّة[4]. ورأيت هذا الخبرَ عندَهم مشهوراً.

قال: وكُنَّا إذا تَغدَّيْنَا دنا من الخوان فزجرناه مرَّةً أو مرَّتين، فكان لا يقربُنا، لمكان الزَّجر، ولا يَبعُدُ عن الخوان لعلَّة الطمع، فإن ألقينا إليه شيئاً أكلَه ثَمَّ، ودنا من أجل ذلك بعضَ الدُّنوِّ. فكُنَّا نستظهرُ عليه، فنرمي باللُّقمة فوقَ مَربضه بأذرُع. فإذا أكلها ازداد في الطَّمَع، فقرَّبه ذلك من الخوان، ثمَّ يجوز موضعَه الذي كان فيه. ولولا ما كنا نقصد إليه من امتحان ما عندَه، ليصيرَ ما يظهرُ لنا حديثاً، لكان إطعام الكلب والسِّنّور من الخوان خطأً من وجوه: أوّلُهَا أن يكون يصير له به دربة، حتَّى إنَّ منها ما يمدُّ يَده إلى ما على المائدة حتَّى ربما تناول بفيه ما عليها، وربَّما قاء الذي يأكل

---

(١) عرض: أصابه الجنون.

(٢) البصبصة: تحريك الكلب ذنبه.

(٣) الخبر في ربيع الأبرار ٥ / ٤٢١.

(٤) الشاكري: الأجير المستخدم.

وهم يَرَونه، وربَّما لم يرضَ بذلك حتَّى يعُودَ في قيئه. وهذا كله ممَّا لا ينبغي أن يحضُرَهُ الرئيس، ويشهدَه ربُّ الدار. وهو عَلَى الحاشية أجوز.

٣٤٥ - [الأكل بين أيدي السباع]

فأمَّا علماءُ الفرسِ والهند، وأطبَّاء اليونانيِّينَ ودُهاةُ العرب، وأهلُ التَّجربة من نازلة الأمصار وحُذّاق المتكلّمين، فإنهم يكرهون الأكلَ بين أيْدي السِّباع، يخافون نفوسَها وأعينها، للَّذي فيها من الشَّرَه والحرص، والطَّلَب والكَلَب، ولمَا يتحلَّلُ عند ذلك من أجوافها من البخار الرديء، وينفصلُ من عيونها من الأُمور المفسِدة، التي إذا خالطتْ طباعَ الإنسان نقضَتْه.

وقد رُوي مثلُ ذلك عن الثَّوري عن سماك بن حَرْب عن ابن عبّاس أنّه قال على منبر البَصرة: إنّ الكلاب من الجنّ، وإنّ الحِنَّ من ضَعَفَة الجِنّ، فإذا غشيكم منها شَيءٌ فألقوا إليه شيئاً واطردوها، فإنّ لها أنفسَ سوء[1].

ولذلك كانوا يكرَهون قيَامَ الخدمِ بالمذَابِّ والأشربة على رُؤُوسهمْ وهم يأكلون؛ مخافة النفس والعَين. وكانوا يأمرون بإشباعهم قبلَ أنْ يأكُلوا، وكانوا يقولون في السِّنَّور والكلب: إمَّا أنْ تطردَه قبل أن تأكلَ وإمَّا أن تشغَلَهُ بشيء يأكله، ولو بعظم.

ورأيتُ بعضَ الحكماء وقد سقطت من يده لقمةٌ فَرَفَعَ رأسه، فإذا عينُ غلامٍ له تحدّق نحوَ لقمته، وإذا الغلامُ يزدَردُ ريقه لتحلُّب فمه من الشَّهوة. وكان ذلك الحكيمُ جيِّدَ اللَّقْم، طيِّب الطعام، ويضيِّق على غلمانه. فيزعمون أنّ نُفوسَ السِّباع وأعينَها في هذا الباب أردأ وأخبَث.

٣٤٦ - [إصابة العين]

وبينَ هذا المعنى وبين قولهم في إصابة العينِ الشيء العجيبَ المستحسَنَ شرْكَةٌ وقَرَابَة؛ وذلك أنَّهم قالوا: قد رأينا رجالاً ينسب ذلك إليهم، ورأيناهم، وفيهم من إصابة العَين مقدارٌ من العدد، لا نستطيع أن نجعل ذلك النّسَق من باب الاتِّفاق. وليس إلى ردِّ الخبر سبيل؛ لتواتره وترادُفه، ولأنّ العِيانَ قد حقّقه، والتجربة قد ضُمّت إليه.

وفي الحديث المأثور في العين التي أصابت سَهْل بن حُنيف فأمرَ رسول الله ﷺ في ذلك بالذي أمَرَ، وذلك مشهور[2].

---

(١) الحديث في النهاية ١/٤٥٣. اي انها تصيب باعينها.

(٢) أخرج البخاري في الطب برقم ٥٤٠٨، ومسلم في السلام برقم ٢١٨٧ (العين حق)، وانظر المستدرك للحاكم ٣/٤١٠، ٤/٢١٥، والموطأ ٣/١١٨.

٣٤٧ - [العين والحسد]

قالوا: ولولا فاصل ينفصل من عين المستحسن إلى بدن المستحسَن، حتَّى يكون ذلك الداخلُ عليه هو الناقضَ لقُواهُ لَمَا جاز أن يلقى مكروهاً البتَّة. وكيف يلقى المكروه من انساقَ في حَيزه وموضعه، والذي أصابته العين في حيِّزه[1] أيضاً وموضعه، من غير تماسٍّ ولا تصادُم، ولا فاصل ولا عامل لاقى معمولاً فيه. ولا يجوز أنْ يكون المعتل بعد صحّته يعتلُّ من غير معنى بدنُه. ولا تنتقض الأخلاط ولا تتزايل إلاّ لأمرٍ يعرض، لأنه حينئذٍ يكونُ ليس بأولى بالانتقاض من جسمٍ آخر. وإن جاز للصحيح أنْ يعتلّ من غير حادث، جاز للمعتلّ أنْ يبرأ من غير حادث. وكذلك القولُ في الحركة والسكون. وإذا جاز ذلك كان الغائبُ قياساً على الحاضر الذي لم يدخل عليه شيء من مستحسن له. فإذا كان لابدَّ من معنى قد عَمِل فيه، فليس لذلك المعنى وجه إلاّ أن يكونَ انفصل إليه شيء عَمِل فيه. وإلاّ فكيف يجوزُ أن يعتلّ من ذاتِ نفسه، وهو على سلامته وتمام قوّته، ولم يتغيَّرْ ولم يحدُث عليه مايغيِّره. فهو وجسم غائب في السَّلامة من الأعراض سواءٌ. وهذا جواب المتكلِّمين الذين يصدِّقون بالعين، ويُثبتون الرُّؤيا.

٣٤٨ - [صفة المتكلمين]

وليس يكونُ المتكلمُ جامعاً لأقطار الكلام متمكِّناً في الصناعة، يصلح للرئاسة، حتَّى يكون الذي يُحسِن من كلام الدِّين في وزن الذي يُحسِن من كلام الفلسفة. والعالمُ عندنا هو الذي يجْمَعهما، والصيب هو الذي يجمَع بين تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقائقها من الأعمال.

ومن زعم أنّ التوحيدَ لا يصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع، فقد حمل عجْزَه على الكلام في التوحيد. وكذلك إذا زعمَ أنّ الطبائعَ لا تصحُّ إذا قرنتَها بالتوحيد. ومن قال فقد حمل عجزَه على الكلام في الطبائع.

وإنَّما يَيْأس منك الملحد إذا لم يَدْعُكَ التوفُّر على التوحيد إلى بَخس حقوقِ الطبائع؛ لأنّ في رفع أعمالها رفعَ أعيانها. وإذا كانت الأعيان هي الدالّة على الله فرفعْتَ الدّليلَ، فقد أبطلتَ المدلول عليه، ولعمري إنّ في الجمع بينهما لَبعضَ الشِّدّة.

---

(١) حيزه: مكانه المحدود.

وأنا أعوذُ بالله تعالى أنْ أكون كلّما غَمزَ قناتي باب من الكلام صَعْبُ المدخل، نقضْتُ ركناً من أركان مقالتي! ومن كان كذلك لم يُنتفَعْ به.

٣٤٩ - [القول في إصابة العين]

فإن قال قائل: وما بلغ من أمر هذا الفاصِل الذي لا يشعر بِهِ القوم الحضورَ ولا الذي انفصل منه، ولا المارّ بينهما، ولا المتلقِّي له ببدنه وليس دونَهُ شيء، وكيف لم يعْمَلْ في الأقربِ دونَ الأبعد، والأقربُ إنسان مثله، ولعلَّه أن يكون طبعهُ أشدَّ اجتذاباً للآفات!.

وبعد، فكيف يكون شيءٌ يصرَع الصحيحَ ويُضجع القائم، وينقُض القوى، ويُمرِض الأصحَّاء، ويصدَع الصَّخر ويهشِم العظْم، ويقْتُل الثَّور، ويَهدُّ الحمار، ويجري في الجَماد مَجراه في النبات، ويجري في النَّبات مجراه في الحيوان، ويجري في الصَّلابة والملاسة جريهُ في الأشياء السخيفة الرِّخوة؛ وهو ممَّا ليس له صدم كصدم الحجر، أو غَرْب كغرْب السَّيف، أو حدٌّ كحدِّ السِّنان؛ وليس من جنس السمّ، فيحمل على نفوذ السُّمّ؛ وليس من جنس الغذاءِ فيُحمل على نفوذ الغذاء، وليس من جنس السِّحر فيقال إنَّ العُمَّار[1] عملوا ذلك من طريق طاعتهم للعزائَم. فلعلَّ ذلك إنَّما كان شيئاً وافق شيئاً.

قيل لهم: قد تعلمون كيف مقدارُ سَمِّ الجرَّارة[2] أو سمّ الأفْعى،وكيف لو وزنتم الجرَّارة[2] قبل لسعِها وبعده لوجدتموها على حالٍ واحدة. وأنت ترى كيف تفسَخ عقْدَ بدن الفيل، وكيف تنقض قوى البعير، من غير صدم كصدم الحجر، وغربٍ كغرب السَّيف، وحدٍّ كَحَدِّ السنان.

فإنْ قلت: فهل نابُ الأفْعَى وإبرةُ العقرب إلاّ في سبيلِ حدِّ السنان؟ قلنا: إنَّ البعيرَ لو كان إنما يَتَفَسَّخ لطعْن العَقرب بإبرتها لمَا كان ذلك يبلغ منها مقدار النَّخس فقَط، ولكنَّه لأبُدَّ أن يكون ذلك لأحد أمرَين: إمَّا أن تكون العقربُ تمجّ فيه شيئاً من إبرتها، فيكون طبع ذلك وإن قلَّ يفسخ الفيلَ والزَّندبيل[3]، وإمَّا أن يكون طبعُ ذلك الدَّم إذا لاقاهُ طبعُ ذلك الناب وتلك الإبرة أن يُجمد فيقتل بالإجماد، أو يذيب فيقتل بالإذابة. فأيُّهما كان فإنَّ الأمرَ فيه على خلاف ما صدَّرتم به المسألة.

---

(١) العمّار: سكان البيوت من الجان.

(٢) الجرارة: نوع من العقارب إذا مشى على الأرض جر ذنبه.

(٣) الزندبيل: الفيل الكبير. حياة الحيوان ١ / ٥٤٠.

ولا تنازعَ بين الأعراب - والأعرابُ ناس إنّما وضعوا بيوتَهم وأبنيتهم وسطَ السِّباع والأحناش والهمَج، فهم ليس يعبُرون إلاّ بها، وليس يعرفون سواها - وقد أجمعوا على أنّ الأفْعَى إذا هرِمت فلم تَطعَمْ - ولم يبقَ في فمها دم أنّها تنكز[1] بأنفها، وتطعن به، ولا تعضُّ بفيها، فيبلغ النَّكزُ لها ما كان يبلغ لها قبلَ ذلك اللَّدغُ. وهل عندنا في ذلك إلا تكذيبُهم أو الرجوعُ إلى الفاصل الذي أنكرتموه، لأنَّ أحداً لا يموت من تلك النّخسة، إن كان ليس هناك أكثر من تلك الغمْزة.

وقال العجَّاج، أو ابنه رؤبة: [من الرجز]

كنتم كَمنْ أدخَلَ في جُحْرٍ يدا   فأخطأ الأفْعَى وَلاَقى الأسودا[2]

ثم قال:

* بالشمِّ لا بالسَّمِّ منه أقصدا *

وقال الآخر: [من البسيط]

أصمَّ ما شمّ من خَضْرَاءَ أيبسها   أو مسَّ من حجرٍ أوْهَاهُ فانصدعا[3]

وقد حدَّثني الأصمعيُّ بفَرْق ما بينَ النَّكزْ[4] وغيره عند الأعراب[5].

وههنا أمثال نضْربُها، وأمور قد عاينْتموها،يذلَّلُ بها هذا المعنى عندكم ويسهُل بها المدخَل. قولوا لنا: ما بالُ العجين يكون في أقصى الدار ويفلق إنسان بطِّيخةِ في أدنى الدار، فلا يفلح ذلك العجين أبداً ولا يختمر؟ فما ذلك الفاصلُ؟

وكيف تقولون بصدمٍ كان ذلك كصدم الحجر، أو بغرب كغرب السيف!! وكيف لم يعرِض ذلك الفساد في كلِّ معجون هو أقربُ إليه من ذلك العجين.

وعلى أنَّ نكْز الحيَّة التي يصفُه الشُعَراء بأنَّ المنكوزَ ميِّت لا محالة، في سبيل ما حدَّثني به حاذقٌ من حذَّاق الأطباء، أنّ رجلاً يضرب الحيَّة من دواهي الحيّات بعصاهُ فيموت الضّاربُ، لأنهم يرون أنّ شيئاً فَصلَ من الحيَّة فجرى فيها حتّى داخل الضارب فقتله، والأطباء أيضاً والنَّصارى أجْرأ على دفع الرُّؤْياَ والعين . وهذه الغَرائبِ التي تُحكى عن الحيَّات وصرْعِ الشيطان الإنسانَ، من غيرهم.

(١) تنكز: تلسع.
(٢) الرجز لرؤبة في ديوانه ١٧٣.
(٣) البيت ليحيى بن أبي حفصة في الشعر والشعراء ٤٨٢، والوحشيات ٨٧.
(٤) نكزت الحية: لسعت بفيها.
(٥) ثمة نقص هنا!.

فأمَّا الدُّهريّة فمنكرةٌ للشياطين والجنّ والملائكة والرُّؤيا والرُّقى، وهم يرون أنّ أمرَهم لا يتمُّ لهم إلاّ بمشاركة أصحاب الجَهالات.

وقد نجدُ الرجُل ينقف شحم الحنظل[١]، وبينه وبين صاحبه مسافة صالحة، فيجد في حلقه مَرارة الحنظل، وكذلك السُّوس إذا عولج به وبينه وبين الإنسان مسافة متوسّطة البعد، يجدُ في حلقه حلاوة السوس. وناقف الحنظل لا تزال عينه تهمُل مادام ينقفه، ولذلك قال ابن حُذَام، قال أبو عبيدة: وهو الذي يقول: [من الطويل]

كأنّي غداةَ البينِ يومَ تحمَّلوا   لَدَى سَمُرَاتِ الحيِّ ناقفُ حنْظل[٢]

يخبر عن بكائه، ويصف دُرُورَ دَمعته في إثْر الحمول، فشبَّه نفسه بناقف الحنظل، وقد ذكره امرؤ القيس في قوله: [من الكامل]

عوجَا على الطَّلَلِ القديم لعَلّنا   نَبْكِي الدِّيارَ كما بكى ابن خذامِ[٣]

ويزُعمون أنّه أوّل مَن بكى في الدِّيار.

وقد نجدُ الرَّجُلَ يقطَع البصل، أو يُوخِفُ الخَرْدل[٤] فتدمع عيناه. وينظر الإنسان فيديمُ النّظرَ في العين المحمرة فتعتري عينَه حُمرة.

والعرب تقول: «لَهُو أعدَى من الثُّؤَباء!»[٥]، كما تقول: «لَهُو أعدى من الجَرَب!»[٥]، وذلك أنّ مَن تثاءَب مِراراً، وهو تُجاه عينِ إنسان، اعترى ذلك الإنسان التثاؤب.

ورأيت ناساً من الأطباء وهم فلاسفة المتكلّمين، منهم مَعْمر، ومحمد بن الجَهْم، وإبراهيم بن السِّنْديّ، يكرهون دُنُوَّ الطامث[٦] من إناءِ اللبن لتَسُوطه[٧] أو تعالجَ منه شيئاً، فكأنّهم يرونَ أنّ لبدَنها ما دام ذلك العرَضُ يعرِض لها، رائحةً لها حِدَّةٌ وبخار غليظ، يكون لذلك المَسُوط مُفسِداً.

---

(١) شحم الحنظل: ما في جوفه سوى حبه.

(٢) البيت لامرئ القيس من معلقته في ديوانه ٩. نقف الحنظل: شق الحنظل عن الهبيد، والهبيد: حب الحنظل.

(٣) ديوان امرئ القيس ١١٤، واللسان والتاج (خذم)، وجمهرة اللغة ٥٨٠، والخزانة ٤/٣٧٦، وشرح المفصل ٨/٧٩

(٤) أوخفه: صب عليه الماء.

(٥) المثل في المستقصى ١/٢٣٧، وجمهرة الأمثال ٢/٦٧، ومجمع الأمثال ٢/٤٥.

(٦) الطامث: الحائض.

(٧) ساط: خلط ومزج.

٣٥٠ - [أثر العين الحاسدة]

ولا تُبعدَنَّ هذا من قلبك تباعداً يدعُوك إلى إنكاره، وإلى تكذيب أهله. فإنْ أبيتَ إلاَّ إنكارَ ذلك، فما تقول في فَرسٍ تحَصَّن[١] تحتَ صاحبه، وهو في وسط موكِبه، وغبارُ الموكِب قد حالَ بين استبانةِ بعضهم لبعض، وليس في الموكب حجْر ولا رمَكة[٢]، فيلتفتُ صاحبُ الحصان فيرى حجراً أو رمكة، على قاب غَرَضٍ أو غَرَضين[٣]، أو غَلوة أو غلوتين[٤]. حدِّثني، كيف شمَّ هذا الفرس ريحَ تلك الفرسِ الأنثى، وما باله يدخل داراً من الدُّورِ، وفي الدَّار الأخرى حِجْرٌ، فيتحَصَّن[٥] مع دخوله من غير معاينة وسَمَاعِ صهيل !!

وهذا الباب سيقع في موضعه إن شاء اللّه تعالى.

وقال أبو سعيد عبد الملك بن قريب: كان عندنا رجُلان يَعينان الناس، فمرَّ أحدهما بحوضٍ من حجارة، فقال: تاللّه ما رأيت كاليوم قطَّ! فتطاير الحوض فلقَين، فأخذه أهلُه فضبَّبوه[٦] بالحديد، فمرَّ عليه ثانيةً فقال: وأبيك لقلَّما أضرَرْتُ أهلَكَ فيك! فتطاير أربعَ فِلَق.

قال: وأمَّا الآخر، فإنَّه سمعَ صوتَ بَولٍ من وراء حائط فقال: إنَّك لشَرُّ الشَّخب[٧]! فقالوا له: إنه فلانٌ ابنك، قال: واانقطاع ظهراه! قالوا: إنه لا بأسَ عليه. قال: لا يبولُ واللّه بَعْدَها أبداً! قال: فما بال حتَّى مات.

قال الأصمعيّ: ورأيت أنا رجلاً عَيُوناً فدُعيَ عليه فعَوِرَ. قال: إذا رأيتُ الشيءَ يُعجبني، وجدتُ حرارةً تخرجُ من عَيني.

قال: وسمع رجلٌ بقرةً تُحلَب فأعجبه صوتُ شَخْبها[٧]، فقال: أيتُهن هذه، فخافوا عينَه فقالوا: الفلانيّة - لأخرى وَرَّوا بها عنها - فهلكتا جميعاً: المُوَرَّى بها والمورَّى عنها.

---

(١) تحصّن: ظهر عليه ميل الفحولة.

(٢) الحجر والرمكة: أنثى الخيل.

(٣) الغرض: قدر رمية السهم إلى الهدف.

(٤) الغلوة: قدر ما تصل الرمية بالسهم.

(٥) تحصن: ظهر عليه ميل الفحولة.

(٦) ضببت الخشب ونحوه: ألبسته الحديد.

(٧) الشخب: الدم، أو ما خرج من الضرع من اللبن.

وقد حَمَلَ النَّاسُ كما ترى على العين ما لا يجوز، وما لا يسوغ في شيء من المجازات. وقولُ الذي اعورَّ: إذا رأيتُ الشيءَ يعجبني وجدتُ حرارةً تخرج من عيني، مِنْ أعظم الحجج في الفاصل من صاحب العين إلى المعين.

قال: ويقال إنَّ فلاناً لَعَيون: إذا كان يتشوَّف للناس ليصيبَهم بعين. ويقال عنْتُ فُلَانا أعينه عيْناً: إذا أصبتَه بعين، ورجل مَعين ومعيون: إذا أصيب بالعين. وقال عبَّاس بن مِرداس: [من الكامل]

قد كان قومُك يحسَبونكَ سيِّداً وإخال أنك سيِّدٌ معَيونُ[1]

ويقال للعَيون: إنَّه لَنَفُوسٌ، وما أنفسَه، أي ما أشدَّ عينه، وقد أصابته نَفس أو عين.

٣٥١ - [دفاع عن الكلب]

وأمَّا قول القائل: إنَّ من لؤم الكلب وغدره أنَّ اللصَّ إذا أراد دارَ أهله أطعَمَ الكلبَ الذي يحرسهم قَبْلَ ذلك مراراً ليلاً ونهاراً، ودنا منه ومسح ظهرَهُ، حتى يُثبت صورتَه، فإذا أتاه ليلاً أسْلمَ إليه الدارَ بما فيها - فإن هذا التأويل لا يكونُ إلاّ من نتيجة سوءِ الرأي، فإنَّ سوءَ الرأي يصوِّر لأهله الباطلَ في صورة الحقِّ. وفيه بعضُ الظُّلم للكلب وبعض المعاندة للمحتجّ عن الكلب، وقد ثَبتَ للكلب استحقاقُ المدح من حيثُ أرادَ أن يهجوَه منه، فإن كان الكلبُ بفرط إلفه وشكره كفَّ عن اللصِّ عندَ ذكر إحسانه، وإثبات صورته، فما أكثرَ منْ يُفْرط عليه الحياءُ حتَّى ينسب إلى الضَّعف والكرم وحتَّى ينسَب إلى الغفلة، ورُبَّما شاب الرَّجُلُ بعضَ الفطنة ببعض التَّغافل، ليكون أتَمَّ لكَرمه، فإنَّ الفطنة إذا تمَّت منعت من أمورٍ كثيرة، ما لم يكن الخِيمُ[2] كريماً والعِرْق سليماً.

وإنك أيُّها المتأوِّل، حينَ تكلِّف الكلبَ - مع ما قد عَجَّلَ إليه اللصّ من اللُّطَف والإحسان - أنْ يتذكّرَ نعمةً سالفة، وأنْ يحترس من خديعة المحسن إليه، مخافة أنْ يكونَ يُريغُ[3] بإكرامه سوءاً - لحسَنُ الرأيِ فيه، بعيدُ الغاية في تفضيله.

(١) ديوان العباس بن مرداس ١٥٦، والخصائص ١ / ٢٦١، والوحشيات ٢٣٨، والحماسة البصرية ١ / ١٠، والأغاني ٦ / ٣٤٢، وأمالي ابن الشجري ١ / ١١١، وجمهرة اللغة ٩٥٦، واللسان (عين)، والمقاصد النحوية ٤ / ٥٧٤.

(٢) الخيم: السجية والطبيعة.

(٣) يريغ: يريد.

ولو كان للكلب آلة يعرف بها عواقبَ الأمور وحوادثِ الدهور، وكان يوازن بينَ عواجلها وأواجلها، وكان يعرف مصادرها ومواردَها، ويختار أنقص الشرّين وأتمَّ الخيرين، ويتَثبَّتُ في الأمور، ويخاف العَيب ويأخذ بحجةٍ ويُعطي بحجَّة، ويعرف الحُجَّة من الشُّبهة، والثِّقَة من الرّيبة، ويتثبَّت في العلَّة، ويخاف زَيغ[1] الهوى وسَرَف الطبيعة، لكانَ من كبارِ المكلَّفين ومن رُؤُوس الممتَحنين.

٣٥٢ - [الموازنة بين الأشياء لدى العاقلين]

والعادةُ القائمة، والنَّسَقُ الذي لايُتَخَطَّى ولا يغادَرُ، والنظامُ الذي لا ينقطع ولا يختلط، في ذوي التمكين والاستطاعة، وفي ذوي العقول والمعرفة، أنَّ أبدانَهم متَّى أحسَّت بأصناف المكروه والمحبوب، وازَنوا وقابَلوا، وعَايَرُوا وميَّزوا بين أتمِّ الخيرين وأنقص الشرّين، ووصلوا كلَّ مضرةٍ ومنفعة في العاجل بكلِّ مضرَّةٍ ومنفعة في الآجل وتتبعوا مواقعها، وتدبَّروا مساقطَها، كما يتعرَّفونَ مقاديرَها وأوزانها، واختاروا بعدَ ذلك أتمَّ الخيرين وأنْقَصَ الشّرين. فأما الشر صرفاً والخير محضاً فإنّهُم لا يتوقّفون عندهما، ولا يتكلّفون الموازَنةَ بينهما، وإنَّما ينظرون في الممزوج وفي بعض ما يخشى في معارضته، ولا يوثقُ بَمعرّاهُ ومُكَشَّفِه، فيحملونه على خلاص الذِّهن، كما يحمَل الذّهب على الكير[2].

وأمّا ذوات الطَّبائع المسخَّرة والغريزة المحبولة فإنما تَعمَل من جهة التسخير والتنبيه، كالسمّ الذي يقتل بالكَمِّيَّة ولا يغذو، وكالغذاء الذي يغذو ويقتل بالمجاوَزة لمقدار الاحتمال.

وإن هيَّأ اللَّه عزَّ وجلّ أصنافَ الحيوان المسخَّرة لدرْك ما لا تبلغه العقولُ اللطيفة، بلغَتْه بغير معاناةٍ ولا رويّة ولا توقُّف، ولا خوفٍ من عاقبة.

ومتى تقدَّمتْ إلى الأمور التي يعالجها أهلُ العقول المبسوطة، المتمكِّنة بطبائعها، المقصورةِ غير المبسوطة، لم يمكنْها أن تعرفَ من تلك الطبيعة ما كان موازياً لتلك الأمور ببديهة ولا فكرة. وإذا كانت كذلك فليس بواجب أن تكون كلَّما أحسنَتْ أمراً أمكنَها أن تُحْسنَ ما كان في وزنه في الغُموض والإلطاف، وفي الصَّنعة التي لا تمكنُ، إلاّ بحُسن التأتّي وببُعد الرويّة، وبمقابلة الأمور بَعضهَا ببعض. وهذاَ الفنُّ لا يُصابُ إلاّ عند من جهتُه العقل، ويمكنُه الاستدلالُ، والكفُّ عنه والقطعُ له

(١) الزيغ: الميل.

(٢) الكير: زقٌّ ينفخ فيه الحداد.

إذا شاء، وإتمامُه إذا شاء، وبلوغَ غايته، والانصرافُ عنه إلى عَقيبه من الأفعال، ومَنْ جهتُهُ تعرّفُ العِلل، ويُمكنُهُ إكراه نفسه على المقاييس والتكلُّف والتأتّي.

ومتى كانت الآلة موجودةً فإنّها تُنبيك على مكانها، وإلاّ كان وجُودها كعدمها. وبالحسِّ الغريزيّ تُشعر صاحبَها بمكانها، لا يحتاج في ذلك إلى تلقينٍ وإشارة، وإلى تعليم وتأديب، وإن كان صاحبُ الآلة أحمقَ من الحبارى[1]، وأجهلَ من العقرب[2]، والعاقل الممكَّن لا يفضلُ في هذا المكان على الأشياء المسخَّرة، ولا ينفصل منها في هذا الباب.

٣٥٣ - [الإلهام في الحيوان]

وليس عند البهائم والسباع إلاّ ما صُنعت له، ونصبت عليه، وأُلهمتْ معرفَته وكيفيَّةَ تكلُّفِ أسبابِها والتعلُّم لها من تلقاء أنفسها. فإذا أحسَنَ العنكبوتُ نسْجَ ثَوِيِّه[3] وهو من أعجب العجب، لم يحسن عملَ بيت الزنبور. وإذا صنع النَّحلُ خلاياه مع عجيب القِسْمة التي فيها، لم يحسنْ أن يعملَ مثلَ بيت العنكبوت. والسُّرْفة ـ التي يقال: «أصنَعُ من سُرفة»[4] لا تُحسن أن تَبني مثلَ بيتِ الأَرَضَة، على جفاءِ هذا العمل وغِلظِه، ودقَّة ذلك العمل ولطافته.

وليسَ كذلك العاقلُ وصاحبُ التمييز، ومَن مَلك التصرّفَ، وخُوِّل[5] الاستطاعة، لأنّه يكون ليسَ بنجّارٍ فيتعلّم النِّجارة، ثمَّ يبدو له بعدَ الحذق الانتقالُ إلى الفلاحة. ثمّ ربّما ملها بعد أن حذَقها، وصار إلى التجارة.

٣٥٤ - [أسمح من لافظة]

وقال صاحب الكلب: وزعمتَ أنَّ قولهم «أسَمحُ منْ لافظة»[6] أن اللافظة الدِّيك، لأنّه يَعَضُّ على الحبَّةِ بطرفَي منْقاره. ثمّ يحذفُ بها قُدَّام الدَّجاجة. وما رأينا

---

(١) المثل في المستقصى ١/٧٤، والدرة الفاخرة ١/١٣٣.

(٢) المثل في المستقصى ١/٥٨، ومجمع الأمثال ١/١٨٩، وجمهرة الأمثال ١/٣٣٤، والدرة الفاخرة ١/١٠٧.

(٣) الثوي: البيت.

(٤) المثل في مجمع الأمثال ١/٤١١، والمستقصى ١/١١٣، وأمثال ابن سلام ٣٦٣، وجمهرة الأمثال ١/٥٨٣.

(٥) خوّله الشيء: ملّكه إياه وأعطاه.

(٦) مجمع الأمثال ١/٣٥٣، والمستقصى ١/١٧١، وفصل المقال ٤٩٤، وجمهرة الأمثال ١/٥٣١، والدرة الفاخرة ١/٢٢٨.

أحداً من العلماء ومن الذين رووا هذا المثلَ يقول ذلك. والناسُ في هذا المثل رجلان: زعم أحدُهما أنَّ اللافظة العنز؛ لأن العنز تَرعى في رَوضةٍ وتأكل من مَعْلَفها وهي جائعة. فيدعوها الراعي وصاحبُها باسمها إلى الحلْب، فتترك ما هي فيه حتى تُنْهَك حلباً، وقال الآخر: اللافظة الرَّحَى، لأنّهَا لا تمسك في جَوْفها شيئاً مما صار في بطنها.

وكيف تكون اللافظة الديكَ! وليس لنا أن نلْحق في هذه الكلمة تاء التأنيث في الأسماء المذكَّرة. واللافظة مع هاء التأنيث أشبه بالعنز والرّحَى، وإنَّما سمَّينا الجملَ راويةً، وحاملَ العلمِ راويَةً، وعلاَّمة، حين احتجَّ أهلُ اللغة على ذلك ولم يختلفوا فيه، وكَيفَ ولا اختلافَ بينهم أنّ الديك خارجٌ من هذا التأويل، وإنّ اختلافهم بين العنْزِ والرَّحى.

وبعد فقد زعم ثُمامة بن أشرَس رحمه اللّه تعالى: أنَّ دِيكَة مَرْو تطرُد الدَّجاج عن الحبِّ، وتنزِع الحبَّ من أفواه الدَّجاج[1].

وقال صاحب الديك: قولهم: «أسَمح من لافظة» لا يليق بالرَّحى، لأنَّ الرَّحَى صَخْرَةٌ صمَّاء، والذي يُخرج ما في بطنها المُدير لها، والعربُ إنَّما تمدح بهذه الأسماء الإنسان وما جَرَى مجراه في الوجوه الكثيرة، ليكون ذلك مَشحذَةً للأذهانِ، وداعيةً إلى السِّباق وبلوغ الغايات

وأمَّا ترْك الشَّاة للعلَف فليس بلفظٍ للعلَف، إلاّ أنْ يحملوا ذلك على المجازات البعيدة، وقد يكون ذلك عند بعض الضَّرورة. والشّاة ترضع من خلْفها حتَّى تأتي على أقصى لبن في ضرعها، وتنثُر العلَفَ، وتقلبُ المحْلَب[2]، وتنطَح من قام عليها وأتاها بغذائها. وهي من أمْوَق[3] البهائم، وزوجُها شَتيم[4] المحيّا، منتِنُ الريح، يبولُ في جوف فيه وفي حاقّ[5] خياشيمه.

وتقول العرب: «ماهُو إلاَّ تيسٌ في سفينةٍ»[6]، إذا أرادوا به الغَبَاوة و«مَا هُوَ إلاَّ تيس»، إذا أرادوا به نتْنَ الريح.

---

(١) انظر البخلاء ١٨، والعقد الفريد ٦ / ١٧٤، ومعجم البلدان (مرو)، وربيع الأبرار ٥ / ٤٤٣.

(٢) المحلب: إناء يحلب فيه.

(٣) الموق: الحمق.

(٤) الشتيم: الكريه الوجه.

(٥) حاق الشيء: وسطه.

(٦) هذا القول استخدمه أبو الشمقمق في هجاء بشار فقال:

هلِّلينهْ هلِّلينه طعن قثّاة لتينهْ
إن بشار بن بردٍ تيس أعمى في سفينهْ

انظر الأغاني ٣ / ١٩٥، ٢٤٧، ونكت الهميان ١٢٦.

والعنزُ خَرقاءُ، وأبوها وهو التَّيْسُ أخرقُ منها.

وَأمرُ الدِّيكِ وشأنُهُ، وكيْفَ يلفظُ ما قَد صَارَ في منقاره، وكيف يُؤثِرُ به طَرُوقَته مِن ذَاتِ نفسِه - شيءٌ يراهُ الناسُ، ويراه جَميعُ العباد.

وهذه المكرمة، وهذا الغزَل، وهذا الإيثار[1]، شيءٌ يراهُ الناس لم يكنْ في ذَكَرٍ قَطُّ ممَّن يزاوِج إلاَّ الديك، والدِّيكُ أحقُّ بهذا المثل. فإنْ كنتُم قد صَدَقتم على العرب في تأويل هذا المثل فهذا غلطٌ من العرب وعصبيَّة للَّبَنِ، وعشق للدَّقيق.

والمثلُ إنَّما يلفظ به رجلٌ من الأعراب، وليس الأعرابيُّ بقُدْوةٍ إلاَّ في الجرِّ والنصب والرفع وفي الأسماء، وأمَّا غير ذلك فقد يخطئ فيه ويصيب فالدِّيك أحقُّ بهذا المثل الذي ذكرنا، وسائرِ خصاله الشريفة.

والذي يدلُّ على أنَّ هذا الفعلَ في الدِّيك، إنَّما هو من جهة الغزَل لا غير، أنه لا يفعلُ ذلك إذا هرِم وعجزَ عن السِّفاد، وانصرفت رغبتُه عنهنَّ وهو في أيَّام شَبابه أنْهَمُ وأحَرص على المأكول، وأضنُّ على الحَبِّ، فما لَهُ لم يُؤْثِرهنّ به عنْدَ زهده، ويُؤْثِرهُنَّ عند رغبته؟! وما بالُهُ لم يفعل ذلك وهو فرُّوج صغير، وصنَع ذلك حين أطاقَ السفاد؟! فترْكه لذلك في العجز عنهنَّ، وبذلُه في أوقات القوة عليهنَّ دليل على الذي قلنا، وهذا بَيِّن لا يرُدُّهُ إلاَّ جَاهل أو معاند.

٣٥٥ - [دفاع عن الكلب]

وقال صاحب الكلب: لسنا نُنكِر خِصالَ الدِّيك ومناقبَه من الأخبارِ المحمودة، ولولا ذلك ما ميَّلْنا[2] بينَه وبين الكلب. ومَنْ يميِّلُ بين العسَل والخلِّ في وجه الحلاوة والحموضة؟! وكيف يفضل شيءٌ على شيء وليسَ في المفضولِ شيءٌ من الفضل؟! والذي قُلتم من قذْقه الحبَّ قُدَّامَ الدَّجاج صحيح. وليس هذا الذي أنكرْنا، وإنَّما أنكرْنا موضعَ المثل الذي صرفتموه إلى حجّتكم، وتركتم الذين ما زال الناس يقلِّدونهم في الشاهد والمثل. وإن جاز لكم أن تردُّوا عليهم هذا المثلَ جاز لكلِّ مَن كرِهَ مثلاً أو شاهداً أنْ يردَّ عليهم كما رددتمْ، وفي ذلك إفْسَادُ أمرِ العَرَبِ كله.

فإنْ زعمتَ أنّ الديك، كانَ أحقَّ به، فخصومُك كثير ولسنا نحيط بأوائل

---

(١) من الأمثال قولهم: «أسخى من ديك»، والمثل في المستقصى ١/ ١٥٩، والدرة الفاخرة ١/ ٢١٨.
(٢) ميّل بين الشيئين: رجح ووازن.

كلامهم، على أيٍّ مقاديرَ كانوا يضعونها، ومن أيٍّ شيء اشتقُّوها، وكيف كان السبب. ورُبَّ شيءٍ أنكرناهُ فإذا عرفنا سببَه أقررنَا به.

وقال أبو الحسن: مر إياسُ بنُ معاوية بديك ينقر حبًّا ولا يفرقُهُ، فقال: ينبغي أن يكون هذا هرِماً، فإنَّ الهرِم إذا أُلقي له الحبُّ لم يفرقْهُ ليجتمع الدجاجُ حولَهُ. والهرِم قد فنيتْ رغبتهُ فيهنَّ، فليس همَّهُ إلاّ نفسَهُ.

ورووا عنهُ أنَّهُ قال: اللافظة الديك الشابُّ،وإنَّهُ يأخذ الحبَّة يؤْثر بها الدَّجاجَ، والهرِمُ لايفعل ذلك، وإنَّما هو لافظةٌ مادام شابًّا.

وقال صاحب الكلب: وذكر ابن سيرينَ عن أبي هُريرة: «أن كلباً مرَّ بامرأةٍ وهو يلهَثُ عند بئر، فنزعَتْ خُفَّها فسقَتْه، فغَفَرَ اللَّه تعالى لها»[١].

وعنه قال: «غفرَ اللَّه لبَغِيٍّ أو لمؤمنة مرّ بها كلبٌ فنزَعت خُفَّها فسقته»[٢].

وقال صاحب الكلب: وقال ابن دَاحَة: ضرب ناسٌ من السُّلطاء جاراً لهم، ولبَّبوه وسحبوه وجرُّوه،، وله كلبٌ قد ربَّاه، فلم يزَلْ ينبَحُ عليهم ويشقِّق ثيابهم، ولولا أنَّ المضروبَ المسحوبَ كان يكفُّه ويزجُره، لقد كان عقَر بعضَهم أو منَعه منهم.

قال إبراهيمُ النَّظَّام: قدَّمتم السِّنَّور على الكلب، ورويتم أنْ النبيّ ﷺ أمرَ بقتل الكلاب واستحياء السنانير وتقريبها وتربيتها، كقوله عند مسألته عنها: «إنَّهُنَّ من الطَّوَّافَاتَ عليكُمْ»[٣]. وكلُّ منفعةَ عنْدَ السِّنَّوْر إنّما هي أكلُ الفار فقط، وعلى أنَّكُم قلَّما تجدُون سنّوراً يطلُب الفأْر، فإن كان مما يَطلُبُ ويأكلُ الفَأرَ، لم يعدمكم أن يأكلَ حمَامَكُمْ وفراخَكُمْ والعَصافيرَ التي يتلهّى بهَا أولاَدُكُمْ، والطائرَ يُتَّخَذُ لحُسنه وحُسنِ صَوْته. والذي لأبُدّ منه الوثوبُ على صِغَار الفراريج. فإنْ هو عفَّ عَن أموالكُمْ

(١) أخرج البخاري في المساقاة برقم ٢٢٣٤ (عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفّه ثم أمسكه بفيه، ثم رقي فسقى الكلب، فشكر اللّه له فغفر له)، وأعاده البخاري في المظالم برقم ٢٣٣٤، وفي الأدب برقم ٥٦٣، وأخرجه مسلم في السلام برقم ٢٢٤٤.

(٢) أخرج البخاري في بدء الخلق برقم ٣١٤٣ (عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: غفر لامرأة مومسة مرّت بكلب على رأس ركيٍّ يلهث، قال: كاد يقتله العطش، فنزعت خفها، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغفر لها بذلك)، وأخرج في الأنبياء برقم ٣٢٨٠ حديثاً مثله، وأخرجه مسلم في السلام برقم ٢٢٤٥.

(٣) مسند أحمد ٥/٢٩٦، وأبو داود في الطهارة ١/١٩، والترمذي في الطهارة ١/١٥٤.

لم يَعفّ عَن أموال جيرانكُمْ، ومنافع الكلب لا يحصيها الطَّوامير[1]. والسّنّور مع ذلك يأكل الأوزاغَ والعقارب، والخنافيس، وبنات وَرْدان[2]، والحيّات، ودخَّالات الآذان[3] والفارَ والجُرذان، وكلَّ خبيثةٍ وكلّ ذاتِ سمّ، وكلَّ شيء تعافه النفس. ثمَّ قلتم في سؤر السِّنَّور وسؤر الكلب ما قلتم. ثمَّ لم ترضوا به حتَّى أضفتموه إلى نبيِّكُمْ ﷺ !!

٣٥٦ - [أطيب البهائم أفواهاً]

ولا يشُكُّ الناس أنْ ليس في السباع أطيبُ أفواهاً من الكلاب[4]، وكذلك كلُّ إنسانٍ سائِل الريق سائِل اللعاب. والخُلوف[5] لا يعرض للمجانين الذين تسيلُ أفواههم. ومن كان لا يعتريه الخلوف فهو من البخَر أبعَدُ. وكمَا أنَّ طولَ انطباق الفم يُورث الخلوف. فكَثرةُ تحَلُّب الأفواه بالريق تنفي الخُلوف. وحتَّى إنّ من سال فُوه من اللعاب فإنَّما قضوا له بالسلامَة من فيه، وإن استنكَهوه مع أشباهه وجَدُوه طيِّباً، وإن كان لا يقَربُ سواكاً على الريق. وكذَلك يقال، إن أطيبَ النَّاسِ أفواهاً الزِّنج، وإنْ كانت لا تعرفُ سَنُوناً[6] ولا سِواكاً.

على أنّ الكلبَ سبُع، وسباعُ الطيرِ وذوات الأربع موصوفَةٌ بالبخَر، والذي يضْرَب به في ذلك المثل الأسَدُ، وقد ذكره الحكَمُ بن عبدل في هِجَائه محمَّدَ بنَ حسَّان فقال: [من الوافر]

فنكْهَتُه كَنكْهَةِ أخْدرِيٍّ ... شتيمٍ شابِكِ الأنْياب وردِ[7]

وقال بشَّار: [من الطويل]

وأَفسَى من الظَّرْبان في ليلةِ الكَرى ... وأخْلَفُ مِنْ صقرٍ وإنْ كانَ قد طعِمْ[8]

يهجو بها حمادَ عجْرَد.

---

(١) الطوامير: جمع طومار، وهو الصحيفة.

(٢) بنات وردان: دويبة تتولد في الأماكن الندية، وهي تألف الحشوش، أي النخل. حياة الحيوان ٢/٤٢٩.

(٣) دخال الأذن: دويبة ذات قوائم كثيرة، تسمى «أم أربعة وأربعين».

(٤) رسائل الجاحظ ١/٢١٥ «فخر السودان على البيضان».

(٥) الخلوف: تغير رائحة الفم.

(٦) السنون: ما يستاك به من دواء مؤلف لتقوية الأسنان وتطريتها.

(٧) البيت للحكم بن عبدل في الأغاني ٢/٤١٣، والبرصان ١٠٧.

(٨) ديوان بشار ٤/١٩٣.

ويقال: ليس في البهائم أطيبُ أفواهاً من الظباء.

٣٥٧ - [رضيعٌ مُلهَم]

وزعم علماءُ البَصريِّين، وذكر أبو عبيدة النحويُّ، وأبو اليقظان سُحيم بن حفص، وأبو الحسن المدائني، وذكر ذلك عن محمَّد بن حفص عن مَسْلمَةَ بن محارب، وهو حديثٌ مشهورٌ في مشيخة أصحابنا من البصريِّين، أنَّ طَاعوناً جارفاً جاءَ عَلى أهلِ دار، فلم يشكَّ أهلُ تلك المحَلَّة أنَّه لم يَبْقَ فيها صَغيرٌ ولا كبير، وقد كان فيها صَبِيٌّ يرتضع، ويحبو ولا يَقوم على رِجليه، فعمَد مَن بقي من المطعونين من أهل تلك المحَلَّة إلى باب تلك الدار فسدَّهُ، فلمَّا كان بعد ذلك بأشهرٍ تحوَّل فيها بعضُ وَرَثَة القوم، ففتح البابَ، فلمَّا أفضَى إلى عَرْصة الدّار إذا هو بصبيٍّ يلعبُ مع أجراء كلبةٍ، وقد كانت لأهل الدار، فراعَهُ ذلك، فلم يلبَثْ أَنْ أقبلتْ كلبةٌ كانت لأهل الدار، فلمَّا رآها الصبيُّ حبا إليها، فأمكنتْه من أطبائها فمصَّها، فَظَنُّوا أنّ الصّبيَّ لما بقي في الدارِ وصارَ منسيًّا واشتدَّ جوعُهُ، ورأى أجراءَها تستقي من أطبائها، حَبا إليها فعطفت عليه، فلمَّا سقَتْهُ مرَّةً أدامتْ ذلك لَهُ، وأَدَامَ هو الطلب.

والذي أَلْهَم هذا المَوْلودَ مَصَّ إبهامه سَاعَةَ يُولَدُ من بطن أُمِّه، ولم يعرف كيفيَّةَ الارتضاع، هو الذي هداه إلى الارتضاع منْ أطباء الكلبة. ولَوْ لم تكُن الهدايَةُ شيئاً مجعولاً في طبيعته، لما مَصَّ الإبهامَ وحلمَةَ الثّدْي، فلمّا أفرط عليه الجوعُ واشتدَّت حالُهُ، وطلبَتْ نفْسُهُ وتلك الطبيعةُ فيه، دعَتْهُ تلك الطبيعة وتلكَ المَعْرِفَةُ إلى الطلب والدنوّ، فسبحانَ مَنْ دبَّرَ هذا وألهمه وسَوّاهُ ودلَّ عَلَيْه!!

٣٥٨ - [إلهام الحمام]

ومثلُ هذا الحديث ما خُبِّر به عن بابويه صاحب الحمام. ولو سمعت قصَصه في كتاب اللُّصوص، علمتَ أنَّه بعيدٌ من الكذب والتزيد. وقد رأيته وجالسته ولم أسمعْ هذا الحديثَ منه، ولكنْ حدَّثني به شيخٌ من مشايخ البصرة، ومن النُّزول بحضرة مسجد محمد بن رَغبان. وقال بابويه: كان عندي زوجُ حمامٍ مقصوص، وزوجُ حمام طيّار، وفرخان من فراخ الزَّوج الطيار. قال: وكان في الغُرفَة ثَقْبٌ في أعلاها وقد كنتُ جعلت قُدَّام الكَوَّة[1] رفًّا ليكون مَسقطاً لما يدخلُ ويخرج من الحمام، فتقدَّمتُ في ذلك مخافةَ أن يعرض لي عارضٌ فلايكون للطَّيار منفذ للتكسُّب ولورود الماء. فبينَا أنا كذلك إذْ جاءني رسولُ السلطان، فوضَعَني في

---

(١) الكوة: الخرق في الحائط، والثقب في البيت ونحوه.

الحبس، فنسيت قدْر الزَّوج الطيَّار والفرخين. وما لهما من الثمن، وما فيهما من الكرم، ومتُّ من رَحمة الزَّوْج المقصوص، وشغلني الاهتمامُ بهما عن كثير مما أنا فيه، فقلت: أمَّا الزَّوْجُ الطيَّارُ فإنَّهما يخرجان ويرجعان ويزُقّان،ولعلَّهما أن يَسْلَما ولعلَّهما أن يذهبا ـ وقد كنتُ ربَّيتهما حتى تحصَّنَا ووَرَّدَا[1] ـ فإذا شبَّ الفرخان ونهضا مع أبويهما، وسقطا على المعلاة، فإمّا أن يثبُتا وإمَّا أنْ يذهبا، ولكنْ كيفَ يكونُ حَالُ المقصوصَيْن، ومَنْ أسوأُ حالاً منهما؟! فَخُلِّي سَبيلي بَعْدَ شهر، فلم يكن لي همٌّ إلاَّ النَّظَر إلى ما خلَّفت خلْفي من الحمام، وإذا الفرخان قد ثَبتَا وإذا الزَّوْجَان قد ثبتا، وإذا الزَّوجان الطيَّاران ثبتا على حالهما، إلاَّ أنِّي رأيتهما زاقَّين، إذ علامةُ ذلكَ في موضع الغَبَب، وفي القرطمتَين[2]، وفي أصولِ المناقير، وفي عيونهما، فقلت: فكيف يكونانَ زاقَّين مع استغناء فرخَيهما عنهما؟! ولا أشكُّ في موت المقصوصين. ثمَّ دخلتُ الغرفة فإذا هما على أفضلِ حال، فاشتدَّ تعجُّبي من ذلك، فلم ألبَثْ أن دَنَوا إلى أفواه الزَّوج الكبار يصنعان كما يصنع الفرْخ في طلب الزَّقّ، ورأيتهما حين زقَّاهما، فإذا هما لما اشتدّ جوعُهما، وكانا يريانهما يزقّان الفرخَين وَيَريانِ الفرخَين كيفَ يستطعمان ويستَزِقَّان، حملَهُما الجوعُ وحبُّ العيش، وتَلَهُّبُ العطشِ، وما في طبعِهما من الهدايَة، على أنْ طلبا مَا يطلبُ الفرْخُ، فَزَقّاهما ثم صار الزَّقُّ عادةً في الطيَّار، والاستطعَامُ عادةً في المقصوص.

٣٥٩ - [من عجائب الحمام]

ومِن الحمام حمامٌ يزُقُّ فراخه ولا يزقُّ شيئاً من فِراخ غيره، وإن دنا منه مع فراخهِ فرخٌ مِنْ فِراخ غيره، وشاكَلَ فرخيه في السِّنِّ واللَّون طردهما ولم يزقَّهما، ومن الحمام ما يزقُّ كلَّ فرخ دنا منه، كما أنَّ من الحمام حماماً لا يزُقُّ فراخَه البتّةَ حتَّى يموت. وإنَّما تعظُم البليَّة على الفَرخ إذا كان الأبُ هو الذي لا يزقّ، لأنَّ الولادةَ وعامَّة الحضْن والكَفْل على الأمّ، فإذا ظهر الولد فعامَّةُ الزَّقِّ على الأب، كأنه صاحب العِيال والكاسِب عليهم، وكالأمِّ التي تلد وتُرضِع.

٣٦٠ - [كاسر العظام]

وأعجبُ من هذا، الطائرُ الذي يقال له كاسر العظام[3]، فإنّه يبْلغُ من برِّ الفراخِ

---

(١) ورّدت الشجرة: إذا خرج نورها، واستخدم الجاحظ الكلمة بمعنى اكتملا نمواً.

(٢) قرطمتا الحمام: نقطتان على أصلي منقاره، أي أعلاه.

(٣) كاسر العظام: طائر من سباع الطير بين النسر والعقاب، يحمل كل عظم فيه مخ، حتى إذا كان في كبد السماء أرسله على صخرة فينكسر، فيهبط فيأكل مخه. انظر معجم الحيوان ١٤٣-١٤٥.

كأنّها بعد القيَام بشأن فراخ نفسه، أنّهُ يتعاهد فرخَ العُقَاب الثالث، الذي تخرجه من عُشِّها، لأنَّها أشرَهُ وأرغَبُ بَطناً، وأقسى قلباً وأسوأُ خُلقاً مِنْ أنَ تحتَمِلَ إطْعامَ ثلاثَة.

وهي مَعَ ذلك سريعة الجَزع، فتخرج ما فَضَلَ عن فرخين. فإذا أخرجتْه قبله كاسرُ العِظَام وأطْعَمهُ، لأنْ العُقابَ من اللائي تبيض ثلاثَ بيضات في أكثر حالاتها.

٣٦١ - [دفاع أسدي عن أكل قومه لحوم الكلاب]

قال: وعُيِّر رجلٌ من بني أسدٍ بأكل لحوم الكلاب، وذَهبَ إلى قوله: [من الرجز]

يا فَقْعَسِيُّ لِمْ أكلته لِمهْ ... لو خافكَ اللّهُ عليه حَرَّمهْ[1]

فَما أكَلتَ لحمَهُ ولا دَمَهْ

قال: فقال الأعرابي: أمَا علِمت أنْ الشِّدَّة والشجاعة، والبأْسَ والقوة من الحيوان، في ثلاثَةِ أصنافٍ: العقاب في الهواء، والتمساح في ساكن الماء، والأسَد في ساكن الغياض.

وليس في الأرض لحمٌ أشهى إلى التمساح ولا إلى الأسد من لحم الكلب. فإن شئتمْ فعُدُّوه عدُوًّا لهما، فإنّهُما يأكلانِه من طريق الغَيْظ وطلب الثأر، وإن شئتم فقولوا غيرذلك.

٣٦٢ - [بنو أسد أشبه بالأسد]

وبنو أسَدٍ أُسْد الغياض[2]، وأشبهُ شيء بالأسد، فلذلك تشتهي من اللُّحمان أشهاها إلى الأسَد. والدَّليلُ على أنّهُمْ أُسْد، وفي طباع الأُسْد، أنّكَ لو أحصَيْتَ جميعَ القتلى من سادات العرب ومِنْ فُرسانهم، لَوَجْدَت شَطْرَها أو قَرِيباً من شَطرها لبني أسد.

٣٦٣ - [أنفة الكلب]

قالوا: ثمَّ بعدَ ذلك كلّه أنَّ الكلبَ لا يرضى بالنوم والرُّبوض على بياض الطريق، وعلى عَفَرِ التراب، وهو يرى ظَهْرَ البِساط، ولا يرضَى بالبِساط وهو يجد الوِسادة، ولا يرضى بالمطارح دون مرافق المطارح[3] فمن نُبْله في نفسه أن يتخيَّر أبداً أنبلَ موضعِ

(١) الرجز لسالم بن دارة في اللسان (روح، لوم)، وبلا نسبة في البخلاء ٢٣٤، والمقاصد النحوية ٤/٥٥٥، والمخصص ٣/٤، والإنصاف ٢٩٩.

(٢) في العمدة ٢/١٩٤ «الأزد أسد البأس»، وفي شذرات الذهب ١/٩٤ «الأزد أساس الناس».

(٣) المطارح: جمع مطرح؛ وهو المفرش.

في المجلس، وحيثُ يدَعُه ربُّ المجلس صيانةً له وإبقاء عليه ـ إلاّ أن يتصدَّر فيه من لا يجوز إلاّ أنْ يكون صدراً، فلا يقصِّر الكلب دونَ أن يرقَى عليه.

وقد كان في حُجج معاوية في اتخاذ المقصورة بعد ضرب البُرَك إيّاه بالسيف، أنّه أبصرَ كلباً على منبره.

هذا على ما طُبع عليه من إكرام الرَّجُل الجميل اللباس، حتَّى لا ينبحُ عليه إن دنا من باب أهله، مع الوُثوب على كل أسوَد، وعلى كلِّ رثِّ الهيئة، وعلى كلِّ سفيهٍ تشبهُ حالُه حالَ أهل الرِّيبة.

ومِن كِبْره وشدَّة تجبُّره، وفَرْط حميَّته[١] وأنفته واحتقاره. أنْه متى نبح على رجُلٍ في الليل، ولم يمْنعه حارسٌ ولم يمكنه الفوت، فدواؤه عند الرجل أنه لا ينجيه منه إلاّ أن يقعُدَ بين يديه مستخزياً مستسلماً، وأنّه إذا رآه في تلك الحال دنا منهُ فشَغَرَ[٢] عليه؛ ولم يَهجْه، كأنّه حينَ ظفر به، ورآه تحت قدرته، رأى أنْ يسمَه بميسَمِ ذُلٍّ، كما كانت العربُ تجزُّ نواصِيَ الأسرى من الفُرسان، إذا رامت أنْ تخلِّيَ سبيلَها وتمنَّ عليها، ولو كَفَّ العربيُّ عن جزِّ ناصيته، لوسَمَه الأسْيَرُ من الشِّعر والقوافي الخالدات البواقي، التي هي أبقى من الميسَم، بما هو أضرُّ عليه من جَزِّ ناصيتِه، ولعلَّهُ لا يَبلُغُ أهلَه حتَّى تستويَ مع سائر شَعرِ رأسه، ولكنَّ ذُلَّ الجزِّ لا يزال يلُوحَ في وجهه، ولايزال له أثرٌ في قلبه.

٣٦٤ - [رأي في الكلب]

وذُكر أنَّ مُطرِّف بن عبد اللّه كان يكره أنْ يقال للكلب اخسأ، وما أشبه ذلك، وفي دعائه على أصحاب الكلب الذي كان أربابُه لا يمنعونه من دُخول مُصَلاَّه، قال: اللهمَّ امنعهم بركة صيدِه!! دليل على حسْنِ رأيه فيه.

قالوا: ومرَّ المسيحُ بن مريم في الحَواريِّين بجيفة كلب، فقال بعضهم: ما أشدَّ نتنَ ريحه! قال: فهلاَّ قلتَ: ما أشدَّ بياضَ أسنانه!!

قالوا: وقال رجلٌ لكلب: اخسأْ، ويْلكَ! فقال هَمَّام بن الحارث: الويلُ لأهلِ النَّار.

٣٦٥ - [هراش الحيوان]

والهِراش الذي يجري بينها وهو شَرٌّ، يكون بينَ جميع الأجناس المتَّفِقة،

---

(١) الحمية: الأنفة.

(٢) شغر: رفع رجله فبال.

كالبرذون والبرذون، والبعير والبعير، والحمار والحمار، وكذلك جميع الأجناس. فأمَّا الذي يفرط ويتمُّ ذلك فيه، ويتمنّع ناس من النّاس، ويقع فيه القِمار، ويتَّخذ لذلك، وينفقَ عليه، ويُغالَى به، فالكلبُ والكلب، والكبشُ والكبش، والدِّيكُ والدّيك، والسُّمانَى والسُّمانَى(١).

فأمَّا الجُرَذ فإنَّه لا يقاتل الجُرَذَ حتَّى يشدَّ رجل أحدهما في طرف خيط، ويشدّ الجُرَذ الآخر بالطرف الآخر، ويكون بينهما من المساواة والالتقاء، والعضّ والخمش، وإراقة الدَّم وفَرْي الجلود، ما لا يكون بين شيئين من الأنواع التي يُهارَش بها.

والذي يُحدث للجُرْذان طبيعة القتال، الرِّباطُ نفسُه، فإن انقطع الخيطُ وانحلَّ العَقْد، أخذَ هذا شرقاً وهذا غرباً، ولم يلتقيا أبداً.

وإذا تقابلت جحَرَةَ(٢) الفأر، وخَلا لَها الموضعُ، فبيْنَها شرٌّ طويل، ولكنه لا يعدُو الوعيد والصخَب، ولا يلتقي منهما اثنان أبداً...

وحدَّثني ثمامة بن أشْرَس قال: كان بقيَ في الحبس جُحْر فأر، وتلْقاءَه جُحرٌ آخر، فيرَى لكلِّ واحد منهما وعيداً وصياحاً ووثوباً، حتّى يُظَنَّ أنَّهما سيلتقيان ثم لا يحتجزان حتّى يقْتلَ كلٌّ واحدٍ منهما صاحبَه. فبينا كلُّ واحدٍ منهما في غاية الوعيد. إذ مرَّ هارباً حتَّى دخل جُحره، فما زالا كذلك،حتَّى أتى اللَّه تعالى بالفرَج وخُلِّي سبيلي.

٣٦٦ - [الكلاب السلوقية أجود شمّاً]

وزعم أنَّ السَّلوقيَّةَ الطويلةَ المناخر أجودُ شَمّاً، والشمُّ العجيب والحسُّ اللطيف من ذلك، إلاَّ أنَّ ذلك في طلب الذكور للإناث والإناث للذُّكور خاصة. وأمَّا شمُّ المأكول، واسترواحُ الطُّعم، فللسِّباع في ذلك ما ليس لغيرها. وإنَّ الفأرَ لَيَشمُّ، وإنَّ الذَّر والنمل لَيَشمُّ، وإنَّ السنانير لتشَمُّ، وكذلك الكلب، وله في ذلك فضيلة، ولا يبلغُ مَا يبلغ الذئب وقال أعرابيّ: [من الرجز]

كان أبو الصّحيم من أربابها ... صَبَّ عليه الله من ذئابها
أطلسَ لا ينحاشُ من كلابها ... يلتهمُ الطائرَ في ذَهابِها
في الجَرْيَةِ الأولَى فلا مَشْى بها

ألا تراه يجتهد في الدُّعاء عليها بذئب لا ينحاشُ من الكلاب.

---

(١) السماني: على وزن الحبارى: طائر يلبد بالأرض ولا يكاد يطير إلا أن يطار، ويسمى قتيل الرعد؛ من أجل أنه إذا سمع الرعد مات. حياة الحيوان ١ /٥٦٣.

(٢) الجحرة: جمع جحر.

بـــاب
ما يُشَبَّه بالكَلْبِ وليس هو منه

٣٦٧ - [تشبيه قوائم الفرس بقوائم الكلب]

وإذا جرى الفرس المحجِّل شبَّهوا قوائمَه بقوائم الكلب إذا ارتفعت في بطنه، فيصير تحجيلُها كأنَّه أكلُبٌ صغارٌ تعدو، كما قال العُمانيُّ: [من الرجز]

كأنّ تحت البَطْن منه أكلُبَا ... بِيضاً صِغاراً ينتهشْنَ المَنْقَبا[1]

وقال البدريّ: [من الرجز]

كأنَّ أجراءَ كلابٍ بِيضِ ... دونَ صِفاقَيْه إلى التَّغْريضِ[2]

وقال الآخر: [من الرجز]

كأنَّ قطاً أو كلاباً أربَعا ... دون صِفاقيه إذا ما ضَبَعا[3]

ويصفون الطَّلْعَ أوَّل ما يبدو صغاراً بآذانِ الكلابِ البِيضِ. وقال في ذلك الرَّاجزُ: [من الرجز]

أنعَتُ جُمَّاراً على سحيض ... يَخرِج بعد النَّجْم والتبعيض

طَلْعاً كآذَانِ الكلابِ البيضِ

ويُوصَف صوتُ الشَّخْب[4] في الإناء بهرير هراش الكلاب.

وقال أعرابيّ: [من الرجز]

كأنَّ خِلْفيها إذَا ما هرَّا ... جروَا كلابٍ هُورِشا فَهرّا[5]

---

(١) البيتان في ديوان المعاني ٢/١١٤، وطبقات ابن المعتز ١١٠، والفاضل ٤٥، والشعر والشعراء ٤٧٦.

(٢) الصفاق: جلد البطن.

(٣) ضبع: أسرع، الضبع: العضد.

(٤) الشخب: ما خرج من الضرع من اللبن.

(٥) الرجز بلا نسبة في اللسان والتاج وأساس البلاغة (هرش)، والمقاييس ٢/١٦٨، وتهذيب اللغة ٦/٧٩.

وقال الآخر: [من الرجز]

كأنَّ صوتَ شَخْبِها المسحنْفِرِ بينَ الأباهِيمِ وبين الخِنْصرِ[1]

هِراشُ أجراءٍ ولما تُثْغِرِ[2]

وقال أبو دُؤَاد: [من الهزج]

طَويل طامِح الطَّرْفِ إلى وَهَوْهةِ الكلب[3]

٣٦٨ - [ابن وَوْ وَوْ]

وزعم الهيثم بن عدي قال: كان رجل يُسمَّى كلباً، وكان لهُ بُنَيٌّ يلعبُ في الطريق، فقال له رجلٌ: ابن مَنْ؟ فقال: ابن وَوْ وَوْ وَوْ[4] !

٣٦٩ - [مايستحبّ في ذنب كلب الصيد]

ويحبّون أن يكون ذنَب الكلْبِ الصَّائِدِ يابساً، ليس له من اللحم قليل ولا كثير، ولذلك قال: [من الرجز]

* تلوي بأذنابٍ قليلاتِ اللِّحَا[5] *

وقال الشاعر: [من البسيط]

إنِّي وطَلْبَ ابنِ غلاّقٍ ليَقرِيَني

كالغابط الكلبَ يبغي الطِّرْقَ في الذَّنب[6]

الطِّرق: الشحم اليسير، يقال: ليس به طِرْق.

---

(١) المسحنفر: الكثير الغزير. الأباهيم: جمع إبهام.

(٢) تثغر: تبدو أسنانها. ولعلها «تشغر»؛ أي ترفع إحدى رجليها حين البول.

(٣) ديوان أبي دؤاد ٢٨٨، واللسان والتاج (طمح)، والتهذيب ٤ / ٤٠١، والأضداد لابن الأنباري ٣٠٥، والمعاني الكبير ١٢٠، والأمالي ٢ / ٢٥٠، وفي التنبيه للبكري ١٢٦ (هذا الشعر ليس لأبي دؤاد؛ ولا وقع في ديوانه، وإنما هو لعقبة بن سابق الهِزّاني)، قلت: انظر قصيدة عقبة بن سابق في الأصمعيات رقم ٩.

(٤) الخبر في البيان والتبيين ١ / ٦٤.

(٥) البيت من أرجوزة تقدمت في الفقرة (٢٩٢).

(٦) البيت بلا نسبة في اللسان (غبط، غلق، أتى)، والتاج (غبط)، والمقاييس ١ / ٥٠، ٤ / ٤١٠، والمجمل ٤ / ٣١، والعين ٥ / ٩٩، ٨ / ١٤٥، والمخصص ٨ / ٤، ١٤ / ١٣٣، ١٧ / ٢٤، والتهذيب ٨ / ٥٩، ١٤ / ٣٥٠، والجمهرة ٣٥٨، وإصلاح المنطق ٢٣٩، والمعاني الكبير ٢٤٣. الغابط: الذي يجس الحيوان ليعرف سمنه من هزاله.

٣٧٠ - [طيب لحم أجراء الكلاب]

ويقال: ليس في الأرض فَرخٌ ولا جروٌ ولا شيءٌ من الحيوان أسمنَ ولا أرطبَ ولا أطيبَ من أجراء الكلب. وهي أشبهُ شيءٍ بالحمام، فإنَّ فِراخَ الحمام أسمنِ شيءٍ مادامت صغاراً من غير أن تسمَّن، فإذا بلَغتْ لم تقبل الشحم، وكذلك أولادُ الكلاب.

وقال الآخر: [من البسيط]

وأغضَفِ الأذْن طاوي البَطْنِ مُضْطَمِرٍ لِوَهْوَهٍ رَذِمِ الخيشومِ هَرَّارِ[١]

الأصمعِيّ قال: قال أعرابيٌّ: أصابتنا سَنة شديدة، ثم أعقبتْها سنةٌ تتابَعَ فيها الأمطارُ فسمِنت الماشية، وكثُرت الألبان والأسمان، فسَمِن وِلْدان الحيِّ، حتَّى كأنَّ استَ أحدهم جرو يتمطَّى!

٣٧١ - [تدرُّج أبي دلامة في طلبه]

أبو الحسن قال[٢]: قال أبو العبَّاس أميرُ المؤمنين لأبي دُلامة: سَلْ! قال: كلباً. قال: ويلَكَ! ما تصنع بالكلب؟! قال: قلت أصيدُ به. قال: فلك كلب. قال: ودابَّةً. قال: ودابّة. قال: وغلاماً يركَب الدابة ويَصيد. قال: وغلاماً. قال: وجاريَة. قال: وجارية. قال: يا أمير المؤمنين! كلبٌ وغلامٌ وجاريَة ودابّة، هؤلاء عيال، ولابدَّ من دار. قال: ودار. قال: ولابدَّ لهؤلاء من غَلَّة ضَيعة. قال: أقطعناك مائَةَ جَرِيبٍ عامرةً ومائَةَ جريبٍ غامرة. قال: وأيُّ شيء الغامرة؟ قال: ليس فيها نبات. قال: أنَا أُقطِعك خمسَمائَة جريب من فيافي بني أسد غامرةً. قال: قد جعلنا لك المائتين عامِرتين كُلَّها، ثمَّ قال: أبقيَ لك شيء؟ قال: نعم، أقبِّل يدك. قال: أمَّا هذه فدعْها. قال: ما منعتَ عيالي شيئاً أهون عليهم فقْداً منه؟![٣].

---

(١) البيت بلا نسبة في البرصان ١٩٦.
الأغضف: المنكسر الأذن. المضطمر: المهزول الضامر البطن. الوهوه: الكلب في صوته جزع. رذم الخيشوم: سائله. الهرار: النبّاح.

(٢) ورد الخبر في الأغاني ١٠/٢٣٦-٢٣٧، ومعاهد التنصيص ٢/٢١١-٢٢٧، وطبقات ابن المعتز ٥٨-٥٩،

(٣) بعده في الأغاني، ومعاهد التنصيص (قال الجاحظ: فانظر إلى حذقه بالمسالة ولطفه فيها،: ابتدأ بكلب فسهّل القصة به، وجعل يأتي بما يليه على ترتيب وفكاهة، حتى نال ما لو ساله بديهة لما وصل إليه).

٣٧٢ - [اتّق شر من أحسنت إليه]

أبو الحسن عن أبي مريم قال: كان عندنا بالمدينة رجلٌ قد كثُر عليه الدَّين حتَّى توارى من غرمائه، ولزِم منزله. فأتاه غريم له عليه شيءٌ يسير، فتلطَّفَ حتَّى وصل إليه، فقال له: ما تجعلُ لي إنْ أنا دللتك على حيلةٍ تصيرُ بها إلى الظهورِ والسَّلامةِ من غرمائك؟ قال: أقضيكَ حقَّك، وأزيدُك ممَّا عندي ممَّا تقرُّ به عينك. فتوثَّق منه بالأيمان، فقال له: إذا كان غداً قبْلَ الصَّلاة مرْ خادمَك يكنُسْ بابَك وفناءَك ويرشَّ، ويبسُطْ على دكّانك حُصراً، ويضَعْ لك متَّكأ، ثمّ أمهِل حتى تصبَح و يمرَّ الناس، ثمّ تجلس، وكلُّ مَن يمرُّ عليك ويسلّم انبح له في وجهه، ولا تزيدَنَّ على النُّباح أحداً كائناً مَن كان، ومَنْ كلّمك من أهلك أو خدمك أو من غيرهم، أو غريمٍ أو غيره، حتَّى تصير إلى الوالي فإذا كلَّمك فانبَحْ له، وإيَّاك أن تَزيدَه أو غيرَه على النُّباح؛ فإنَّ الواليَ إذا أيقنَ أنَّ ذلك منك جدٌّ لم يشُكَّ أنَّه قد عرَض لك عارض من مَسٍّ فيخلِّيَ عنك، ولا يغري عليك. قال: ففعَل، فمرَّ به بعضُ جيرانه فسلّم عليه، فنبَح في وجهه، ثم مرَّ آخرُ ففعل مثلَ ذلك، حتَّى تسامع غرماؤه فأتاه بعضُهم فسلّم عليه فلم يزدْه على النُّباح، ثمَّ آخرُ، فتعلَّقوا به فرفعوه إلى الوالي، فسأله الوالي فلم يزدْه على النُّباح، فرفَعه معهم إلى القاضي، فلم يزده على ذلك، فأمَرَ بحبسه أيَّاماً وجعلَ عليه العيون، وملَك نفْسَه وجعَلَ لاينطق بحرفٍ سوى النُّباح، فلمَّا رأى القاضي ذلك أمرَ بإخراجه ووضعَ عليه العيونَ في منزله، وجعل لاينطق بحرفٍ إلاَّ النباحَ، فلما تقرَّرَ ذلك عند القاضي أمر غرماءَه بالكفِّ عنه، وقال: هذا رجلٌ بهِ لَمَمٌ[1]. فمكث ما شاء اللهُ تعالى. ثمَّ إنَّ غريمَه الذي كان علّمه الحيلة، أتاه متقاضياً لعدته فلمَّا كلمه جعل لا يزيدهُ على النُّباح، فقال لَهُ ويلَكَ يافلان!! وعليَّ أيضاً، وأنَا علَّمتك هذه الحيلة؟! فجعل لا يزيدُه على النُّباح، فلمَّا يئس منه انصرف يائساً مما يطالبه بهِ.

٣٧٣ - [اتحاد المتعاديين في وجه عدوِّهما المشترك]

قال أبو الحسن عن سلمة بن خطّاب الأزديّ، قال: لمَّا تشاغل عبدُ الملك بنُ مرْوانَ بمحاربة مُصعَب بنِ الزُّبير، اجتمَعَ وجوهُ الرُّوم إلى ملكهم فقالوا له: قد أمكنَتْك الفُرْصَةُ من العَرب، بتَشاغُل بعضهم مع بعض، لوقوع بأسهم بينهم، فالرأيُ لك أن تغزوَهم إلى بلادهم، فإنَّك إن فعلتَ ذلك بهم نلتَ حاجتَك، فلا تدَعْهم حتَّى

---

(١) اللمم: الجنون.

تنقضيَ الحربُ التي بينهم فيجتمعوا عليك! فنهاهم عن ذلك وخطّأ رأيَهم، فأبوا عليه إلاّ أن يغزُوا العربَ في بلادهم. فلمّا رأى ذلك منهم أمَرَ بكلبَينِ فحرَّش بينهما، فاقتتلا قتالاً شديداً، ثمَّ دعا بثعلبٍ فخلاَّه، فلما رأى الكلبان الثعلبَ، تركا ماكانا فيه، وأقبلا عليه حتَّى قتلاه، فقال مَلكُ الروم: كيف ترون!؟ هكذا العربُ، تقتتلُ بينها، فإذا رأونا تركوا ذلك واجتمعوا علينا فعرَفوا صدقه، ورجَعوا عن رأيهم.

٣٧٤ - [كرم الكلاب]

قال: وقال المغيرةُ لرجلٍ خاصم إليه صديقاً له، وكان الصديقُ توعَّدَه بصداقة المغيرة، فأعلمه الرجلُ ذلك، وقال: إنَّ هذا يتوعَّدَني بمعرفتك إيَّاه، وزعم أنَّها تنفعه عندَك. قال[١]: أجَلْ! إنَّها والله لتنفَع، وإنَّها لتنفَعُ عند الكلب العقور[٢]!.

فإذا كان الكلبُ العقورُ كذلك، فما ظنُّك بغيره؟ وأنت لا تصيب من الناس مَن تنفع عنده المعرفةُ من ألفٍ واحداً.

وهذا الكرمُ في الكلاب عامٌّ. والكلبُ يحرُس ربَّه، ويحمي حريمه شاهداً وغائباً، وذاكراً وغافلاً، ونَائِماً ويقظان، ولا يقصِّر عن ذلك وإن جفَوه، ولا يخذُلهم وإن خذَلوه.

٣٧٥ - [نعاس الكلب][٣]

والكلبُ أيقَظُ الحيوان عيناً في وقت حاجتهم إلى النوم، وإنَّما نومه نهاراً، عند استغنائهم عن حراسةٍ، ثمَّ لا ينام إلاَّ غِراراً وإلاَّ غِشَاشاً[٤]. وأغلبُ ما يكوم النَّومُ عليه وأشدُّ مايكون إسكاراً له أنْ يكونَ كما قال رؤبة: [من الرجز]

* لاقيت مَطْلاً كنُعاسِ الكَلْبِ[٥] *

يعني بذلك القَرْمَطَة في المواعيد.

وكذلك فإنَّه أنْوَمُ مايكونُ أنْ يفتحَ عينَه بقدْر ما يكفيه للحراسة، وذلك ساعةً،

---

(١) ورد قول المغيرة في البيان والتبيين ٣ / ٢٨٠.
(٢) بعده في البيان والتبيين «والجمل الصؤول، فكيف بالرجل الكريم». العقور: الذي يعض ويجرح.
(٣) وردت هذه الفقرة في ثمار القلوب (٥٨٩).
(٤) الغرار والغشاش: النوم القليل.
(٥) ديوان رؤبة ١٧.

وهو في هذا كلِّه [أيقظ من ذئب، و](1) أسمَعُ من فرَس(2). وأحذَرُ من عَقْعَق(3)، مع بُعد صوته.

٣٧٦ - [قول رجل من العرب في الجمال]

وقيلَ لرجُل من العرب: ما الجمال؟ فقال: غُؤور العينَين، وإشراف الحاجبين، ورُحْب الأشداق، وبُعْدُ الصوت.

٣٧٧ - [علاج الكلب لنفسه]

هذا مع قلة السآمة، والصَّبْرِ على الجفوة، واحتمال الجراحات الشِّداد، وجوائف(4) الطعان ونوافذ السهام. وإذا ناله ذلك لم يَزَلْ ينظِّفه بريقه؛ لمعرفته بأنَّ ذلك هو دواؤه حتَّى يبرأ، لَا يحتاج إلى طبيب، ولا إلى مِرْهم ولا إلى علاج.

٣٧٨ - [طول ذماء الضب والكلب والأفعى]

وتقول العرب: «الضبُّ أطولُ شيءٍ ذَمَاء»(5)، والكلبُ أعجبُ في ذلك منه. وإنَّما عجبوا من الضَّبِّ، لأنَّه يَغْبُر(6) ليلته مذبوحاً مفريَّ الأوداج، ساكنَ الحركة، حتَّى إذا قرِّب من النار تحرّك. كأنَّهم يظنُّون أنَّه قد كان حياً، وإن كان في العين ميّتاً.

والأفعَى تبقى أيَّاماً تتحرَّك.

٣٧٩ - [ما يعتريه الاختلاج بعد الموت]

فأمَّا الذي يعتريه الاختلاج بعد جُموده ليلةً، فلحْمُ البقر والجُزُر(7)، تختلج وهي على المعاليق اختلاجاً شديداً.

---

(١) الزيادة من ثمار القلوب ٥٨٩، والقول من الأمثال في مجمع الأمثال ٢/٤٢٧، والمستقصى ١/٤٤٩، وجمهرة الأمثال ٢/٤٢٠.

(٢) مجمع الأمثال ٢/٣٤٩، وأمثال ابن سلام ٣٦٠، والدرة الفاخرة ١/٢١٨.

(٣) العقعق «كثعلب»: طائر على قدر الحمامة، وهو على شكل الغراب. حياة الحيوان ٢/٦٧، والقول «أحذر من عقعق» من الأمثال في المستقصى ١/٦٢، وجمهرة الأمثال ١/٣٤٣، ٣٩٦، والدرة الفاخرة ١/١٣٣، ٢/٤٤١.

(٤) الجائفة: طعنة تبلغ الجوف.

(٥) في الأمثال «أطول ذماء من الضب»، والمثل في مجمع الأمثال ١/٤٣٧، والدرة الفاخرة ١/٢٨٤، ٢٨٦، والمستقصى ١/٢٢٧، وجمهرة الأمثال ٢/٢٠. الذماء: بقية الروح في المذبوح.

(٦) يغبر: يمكث.

(٧) الجزر: الإبل المذبوحة، أو الشياه أو الكِباش.

والحيَّة يُقطَعُ ثلثها الأسفل، فتعيش وينبُت ذلك المقطوع.

٣٨٠ - [حياة الكلب مع الجراح]

قال: والكلب أشدّ الأشياءِ التي تعيش على الجراح، التي لايعيش عليها شيء إلا الكلبُ، والخنزيرُ، والخُنْفَساء.

٣٨١ - [قوة فكّ الكلب]

والكلبُ أشدُّ الأشياء فَكّاً، وأرْهفها ناباً، وأطيَبُها فماً، وأكثرها ريقاً، يُرمَى بالعظم المدْمَج[١]، فيعلم بالغريزة أنَّه إن عضَّه رضّه، وإن بلعَه استمرأه.

٣٨٢ - [إلف بعض الحيوانات للإنسان]

وهو ألوفٌ للناس، مشاركٌ من هذا الموضع العصافيرَ والخطاطيفَ والحمامَ والسنانير، بل يزيد على ذلك في باب الخاصّ وفي باب العامّ. فأمَّا باب الخاصّ، فإن من الحمام ما هو طُورانيٌّ[٢] وحشيٌّ، ومنه ما هو آلفٌ أهلي. والخُطَّاف من القواطع غير الأوابد، إذا قطع إلى الإنس لم يَبْنِ بيتَه إلاَّ في أبعدِ المواضع، من حيثُ لاتناله أيديهم. فهو مقسومٌ على بلاده وبلادِ من اضطرَّته إليه الحاجة. والعصافير تكون في القرب حيثُ تمتنع منهم في أنفسها. والكلاب مخالطةٌ لها ملابِسة، ليس منها وحشيّ، وكلُّها أهلي. وليس من القواطع ولا من الأوابد مايكون آنس بالناس – من كثير ممَّا يوصف بالأنس والإلف – من الكلاب دون سواها. وفي السَّنانير الوحشَّيةُ والأهليةُ.

وعلى أنّ إلفَ الكلب فوقَ إلف الإنسان الألوف، وهو في الكلب أغرَبُ منه في الحمام والعصفور؛ لأنَّه سبع، والحمام بهيمة والسبع بالسباع أشبه، فتركَها ولم يناسبها، ورغِب عنها. وكيف، وهو يصيد الوُحوشَ ويمنع جميعَ السِّباع من الإفساد؟! فذلك أحمَدُ له وأوجَبُ لشكره. ثمَّ يصيرُ في كثيرٍ من حالاته، آنَسَ بالنَّاس منه بالكلابِ دِنيَّةً وقُصْرةً[٣]، ولاتراه يلاعبُ كلباً مادام إنسانٌ يلاعبه. ثمَّ لم

---

(١) المدمج: الصلب.

(٢) في اللسان: طور «الطور: الجبل، وطور سيناء: جبل بالشام. والنسب إليه طوري وطوراني. وحمام طوراني وطوري منسوب إليه، وقيل هو منسوب إلى جبل يقال له طرآن نسب شاذ» وأضاف في اللسان: «والطوري: الوحشي من الطير والناس».

(٣) أي الكلاب القريبة إليه في النسب.

يرْضَ بهذه القرابة وهذه المشاكلة، وبمقدار ما عليه من طباع الخُطَّاف والحمام والعصفور، وبمقدار ما فضَّلها الله تعالى بِهِ من الأُنس، حتَّى صار إلى غايةِ المنافع سُلَّماً، وإلى أكثر المرافق.

٣٨٣ - [الحاجة إلى الكلاب]

وليس لحارس الناس ولحارسِ أموالهم بُدٌّ من كلب، وكلَّما كان أكبرَ كان أحبَّ إليه. ولا بدَّ لأقاطيع المواشي من الكلاب، وإلاَّ فإنّها نهب للذئاب ولغير الذئاب ثمّ كلابِ الصّيد، حتَّى كان أكثرُ أهل البيت عِيالاً على كلٍّ كلب.

٣٨٤ - [قبول الكلب للتلقين]

وقد صار اليومَ عندَ الكلب من الحكايات وقَبول التلقين، وحُسْن التصريف في أصناف اللَّعِب، وفي فِطَن الحكايات ما ليس في الجوارح المذلَّلةِ لذاك، المصرَّفةِ فيه، وما ليس عند الدبِّ والقرد والفيل، والغَنَم المكّيَّة، والبَبغَاء.

والكلب الزِّينيّ الصِّينيّ[1] يُسرَج على رأسه ساعاتٍ كثيرةً من اللَّيْل فلا يتحرَّك. وقد كان في بني ضَبَّةَ كلب زينيٌّ صينيّ، يُسرَج على رأسه، فلا ينبض فيه نابِض، ويدعونه باسمه ويُرمى إليه ببِضْعَة لحم والمِسْرَجةُ على رأسه، فلا يميل ولا يتحرَّك، حتَّى يكونَ القومُ هم الذين يأخذون المصباح من رأسه، فإذا زايَل رأسَه وثَب على اللحم فأكله! دُرِّب فدَرِب وثُقِّف فثَقِف، وأُدِّب فقَبِل. وتعلَّق في رقبته الزِّنْبلة[2] والدَّوْخَلّة[3] وتوضع فيها رُقعة، ثم يمضي إلى البقَّال ويجيء بالحوائج.

٣٨٥ - [تعليم الكلب والقرد]

ثمَّ صار القَرَّادُ وصاحبُ الرُّبَّاح[4] مِنْ ثَمَّ يستخرِجُ فيما بين الكلْب والقِرد ضُروباً من العمَل، وأشكالاً من الفِطَن، حتَّى صاروا يطحنون عليه، فإذا فرغ من طحنه مضَوا به إلى المُتمعَّك[5]، فيُمعَّكَ كما يُمعَّك حمار المُكَارِي وبغلُ الطحَّان.

---

(١) الكلب الزيني الصيني: ضرب من الكلاب قصير القوائم، شديد الذكاء، وانظر ربيع الأبرار ٥/٤٣٥-٤٣٦.

(٢) لعلها الزبيل أو الزنبيل، وهو وعاء يحمل فيه، أو جراب.

(٣) الدوخلة: سفيفة من خوص يوضع فيها التمر والرطب؛ وهي كالزنبيل.

(٤) الربّاح: القرد الذكر.

(٥) المتمعك: مكان تمعك الدابة في التراب.

وقرابةٌ أخرى بينه وبين الإنسان: أنّه ليس شيءٌ من الحيوان لذكره حجمٌ بادٍ إلا الكلبُ والإنسان.

٣٨٦ - [الكلب أسبح أنواع الحيوان]

والكلبُ بعد هذا أسبحُ من حيّة، ولا يتعلّق به في ذلك الثّور، وذلك فضيلةٌ له على القرد، معَ كثرة فِطَن القِرْد وتشبُّهه بالإنسان؛ لأنّ كلَّ حيوانٍ في الأرض فإنَّه إذا ألقي في الماء الغَمْر سبح، إلاّ القردَ والفرسَ الأعسَر. والكلب أسبحُها كلِّها، حتّى إنّه ليُقَدَّم في ذلك على البقرة والحيَّة.

٣٨٧ - [أعجوبة في الكلبة]

وفي طباع أرحامِ الكلاب أُعجوبَة؛ لأنَّها تَلقَح من أجناس غير الكلاب، ويُلقحها كما يلقح منها، وتلقح من كلابٍ مختلفة الألوان، فَتؤدِّي شَبَه كلِّ كلب(١)، وتمتلئ أرحامُها أجراءً من سِفاد كلبٍ، ومن مرةٍ واحدة، كما تمتلئ من عدَّة كلابٍ ومن كلبٍ واحد. وليست هذه الفضيلةُ إلاّ لأَرحام الكلاب.

٣٨٨ - [فخر قبيلتين زنجيتين]

قالوا: والزِّنج صِنفان، قبيلة زنجيَّة فوق قبيلة، وهما صِنفان: النمل والكلاب، فقبيلةٌ هم الكلاب، وقبيلةٌ هم النمل، فخر هؤلاء بالكثرة، وفخر هؤلاء بالشدَّة. وهذان الاسمان هُمَا ما اختاراهما لأنفسِهما ولم يُكرَها عليهما.

٣٨٩ - [كلب الله](٢)

قال: ويقال إنّ النبي ﷺ قال لعُتْبة بن أبي لهَب: «أكلك كلبُ الله» فأكله الأسد. [ففى هذا الخبر فائدتان](٣). فواحدةٌ: قد ثبت بذلك أنَّ الأسد كلبُ الله. والثانية: أنّ الله تبارك وتعالى لا يُضاف إليه إلاّ العظيمُ، من جميع [الأشياء من](٤) الخير والشرّ. فأما الخير فقولك: بيت الله، وأهل الله، وزُوّار الله، وكِتاب الله، وسماء الله، وأرض الله، وخليلُ الله، وكَلِيم اللّه، وروح الله، وما أشبه ذلك. وأما الشرُّ

---

(١) عيون الأخبار ٢/ ٨١.

(٢) الخبر في ثمار القلوب ١٩ (٧٩)، وانظر الاشتقاق ٢٢، والأغاني ١٦/ ١٧٥-١٧٦، والمعارف ١٢٥، وربيع الأبرار ٥/ ٤١٣.

(٣) الزيادة من ثمار القلوب (٧٩).

(٤) الزيادة من ثمار القلوب (٨٠).

فكقولهم: دعْه في لعنَةِ الله وسخَط الله، [وأليم عذابه][1]، ودعْه في نار الله وسَعيره[2]، وما أشبه ذلك. وقد يسمِّي المسلِمون والنَّاس كلباً.

٣٩٠- [تسمية أنواع من الحيوانات بالكلاب]

وقد زعم آخرون: أنَّ بناتِ آوى، والثعالبَ والضِّباعَ، والكلابَ كلَّها كلاب، ولذلك تَسافَدُ وتَلاَقح.

وقال آخرون: لعَمري إنَّها الكلاب إذا أردتم أن تشبِّهوها، فأمَّا أن تكونَ كلاباً لعلَّةٍ أو علَّتين- والوجوهُ التي تخالف فيها الكلاب أكثر فإنَّ هذا ممّا لا يجوز.

وقول مَنْ زعم أنّ الجواميس بقرٌ وأنّ الخيلَ حُمُرٌ، أقربُ إلى الحقِّ من قولكم، وقولِ من زعَم أنّ الجواميس ضأنُ البقر. والبقَر ضأنٌ أيضاً، ولذلك سمَّوا بقرَ الوحْشِ نِعاجاً، كأنهم إنما ابتغوا اتِّفاق الأسماء.

ومابالُ من زعم أنَّ الأسَد والذئب والضبع والثعلبَ وابنَ آوى كلابٌ أحقُّ بالصواب ممَّن زعم أنَّ الجواميس ضأنٌ والبقر ضأنٌ والماعزُ كلها شيء واحد. وهذا أقربُ إلى الإمكان؛ لتشابهها في الظِّلف والقُرون والكروش وأنَّها تجترُّ. والسِّنَّور والفهد والنمر والبَبْر[3] والأسد والذئب والضبع والثّعلبُ إلى أن تكونَ شيئاً واحداً أقرب. وعلى أنَّنا لم نتبينْ إلى الساعة أنَّ الضِّباع والكلابَ وبناتِ آوى والذئابَ تتلاقح؛ وما رأينا على هذا قط سِمْعاً[4] ولا عِسْباراً[5]، ولا كلَّ ما يعُدُّون. وما ذكْرهم لذلك إلاّ من طريق الإخبار عن السُّرعة، أو عن بعضِ ما يُشبه ذلك. فأمّا التلاقُح والتركيب العجيب الغريب، فالأعراب أفطنُ- والكلام عندهم أرخص- منْ أن يكونوا وصَفُوا كلَّ شيءٍ يكون في الوحش، وكلَّ شيءٍ يكون في السّهل والجبل، مما إذا جمع جميعُ أعاجيبه لم يكنْ أظرفَ ولا أكثرَ ممَّا يدَّعون من هذا التَّسافُد والتّلاقُح والتراكيب في الامتزاجات. فكيفَ يَدَعُون ما هو أظرفُ، والذي هُو أعجب وأرغب، إلى مايستوي في معرفته جميعُ الناس؟!.

---

(١) الزيادة من ثمار القلوب (٨٠).

(٢) في ثمار القلوب: «وسقره».

(٣) الببر: ضرب من السباع شبيه بابن آوى، ويقال إنه متولد من الزبرقان واللبوة. حياة الحيوان ١/١٥٩.

(٤) السمع: ولد الذئب من الضبع. حياة الحيوان ١/٥٦٤.

(٥) العسبار: ولد الضبع من الذئب. حياة الحيوان ٢/٢٢.

٣٩١ - [تتمة القول في حديث: «أكلك كلب الله»]

وقال آخرون: ليس الكلبُ من أسماء الأسد، كما أنْ ليس الأسد من أسماء الكلب، إلاّ على أنْ تمدحُوا كلبَكم فيقول قائلكم: ماهو إلاّ الأسد؛ وكذلك القول في الأسَد إذا سمَّيتموه كلباً، وذلك عند إرادة التصغير والتحقير، والتأنيب والتقريع؛ كما يقال ذلك للإنسان على جهة التشبيه.

فإن كان النبي ﷺ قال ذلك فإنَّ ذلك على بعض ما وصفْنا لك. ويقول أهل حمص: إنهم لا يُغلَبون؛ لأن فيها نورَ الله في الأرض. وما كلبُ الله إلا كنُور الله. والله، تبارك وتعالى عُلُوّاً كبيراً، لا تضاف إليه الكلابُ والسنانيرُ والضِّباعُ والثعالب. والنبي صلى الله عليه وسلم لم يقل هذا قطُّ. وإنْ كان قالَه فعلى صلةِ كلامٍ أو على حكايةِ كلام.

وقال صاحب الكلب: قد وضَح الأمر، وتلقَّاه الناس بالقَبول، في أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أكَلَك كلبُ الله» وهو يعني الأسد. ومن دفع هذا الحديثَ فقد أنكرَ علاماتِ الرسول صلى الله عليه وسلم.

٣٩٢ - [التسمية بمشتقات الكلب]

والنَّاسُ قد سمَّوا الناسَ بكلبٍ وكُليب وكِلاب وأكلبُ ومكاليب ومكالبة بنو ربيعة، وكليب بن ربيعة بن عامر. وفي العرب من القبائل كلب، وبنو الكلْبة، وبنو كلاب، وأكلبُ بنِ ربيعةَ بنِ نزار عِمارةٌ ضخمةٌ[١]. وكلْب بن وَبْرة جِذْمٌ[٢] من الأجذام وهم نفرُ جُمجُمة، وكلّ ساداتٌ فهو يكنى أبا كليب، ومن ذلكَ عمرو ذو الكلب وأبو عمرو الكلب الجرمي وأبو عامر الكلب النحوي. وكيف لا يجوز مع ذلك أنْ يسمَّى الأسد بالكلب، وكلُّ هؤلاء أرفَعُ من الأسد؟!

وقد قالوا: كلب الماء، وكلبُ الرحى. والضَّبَّة[٣] التي في الرحل يقال لها الكلب، والكلب: الخشبة التي تمنع الحائط من السُّقوط، وتُشخَص في القناطر والمسنَّيات[٤].

(١) العمارة: أصغر من القبيلة، أو الحي العظيم.
(٢) الجذم: الأصل.
(٣) الضبة: حديدة عقفاء تكون في طرف الرحل، تعلق فيها المزاود.
(٤) المسناة: السد يعترض به الوادي ليحبس الماء.

والكلب الذي في السماء ذو الصُّوَر.

ويقال: داء الكَلَب، وقد اعتراه في الطعام كلب، وقد كلب عليهم في الحرب، و«دِماءُ القوم للكَلْبى شفاء»[1].

ومنه الكلْبة والكلْبتان[2] والكُلاَّب[3] والكلُّوب[4] ثمَّ المكلِّب والمكلب[5] وهذا مختلف مشتقٌّ من ذلك الأصل.

ومنه عَلُّويَهْ كلب المطبخ، وحمويه كلب الجنّ.

٣٩٣ - [بين أبي علقمة المزني وسوار بن عبد الله]

ولما شهدَ أبو علقمة المُزَنيُّ عند سوّار بنِ عبد الله أو غيره من القضاة و توقَّفَ في قَبول شهادته، قال له أبو علقمة: لم توقَّفتَ في إجازة شهادتي؟ قال: بلغني أنَّك تلعَب بالكلاب والصُّقور. قال: مَنْ خبَّرك أنّي ألعب فقد أبْطَل، وإذا بلغك أنّي أصطادُ بها فقد صدقَك مَنْ أبلغك، وإنّي أخبرك أنّي جادٌّ في الاصطياد بها غيرُ لاعبٍ ولا هازئ، فقد وقَفَ المبلِّغ على فرقِ ما بينَ الجدِّ واللَّعب. قال: ما وقَفَ ولا وقَّفته عليه. فأجازَ شهادتَه.

٣٩٤ - [قوله تعالى: يَسألونَكَ ماذا أُحِلَّ لَهُمْ]

وقد قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾[6] فقال لنبيِّه: ﴿قلْ أُحلَّ لكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِحِ مُكلِّبِين﴾[6]. فاشتَقَّ لكلِّ صائدٍ وجارحٍ كاسب مِنْ بازٍ، وصقرٍ، وعُقاب، وفَهْد، وشاهين، وزرَّق[7]، ويؤيؤ[8]، وباشق، وعَنَاق الأرض[9]، من اسم الكلب. وهذا يدلُّ على أنّه أعمُّها نفعاً، وأبعدها صِيتاً،

(١) عجز بيت لعوف بن الأحوص، تقدم في الفقرة ٢٧٠.

(٢) الكلبتان: آلة للحداد يأخذ بها الحديد المحمى.

(٣) الكلاب: الحديدة التي على خف الرائض للدابة، وتسمى المهماز.

(٤) الكلوب: المنشال، أي آلة نشل الشيء ورفعه.

(٥) المكلب «بتشديد اللام وكسرها»: الرجل الذي يعلم الكلاب أخذ الصيد. والمكلب «بفتح اللام»: الكلب قد علمه صاحبه أخذ الصيد.

(٦) ٤/ المائدة: ٥.

(٧) الزرّق: طائر يصاد به؛ بين البازي والباشق. حياة الحيوان ١/ ٥٣٣.

(٨) اليؤيؤ: طائر من جوارح الطير يشبه الباشق. حياة الحيوان ٢/ ٤٣٣.

(٩) عناق الأرض: دويبة أصغر من الفهد؛ طويل الظهر؛ يصيد كل شيء حتى الطير. حياة الحيوان ٢/ ٧٩.

وأنبهها ذكراً. ثمَّ قال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ الله فَكُلُوا مِمّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسمَ الله عَلَيْه﴾[1] فذكر تعليمَهم لها إذ أضافَ ذلكَ إلى نفسه، ثمَّ أخبرَ عن أدَبها وأنَّها تُمسكُ على أربابها لاعلى أنفسها. وزعَم أصحاب الصَّيْد أنْ ليس في الجوارح شيءٌ أجدرُ أن يُمسكَ على صاحبه ولا يُمسكَ على نفسه من الكلب.

٣٩٥ - [تأويل آية أصحاب الكهف]

قال الله تعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقيمِ كانُوا مِنْ آياتنَا عَجَباً. إذ أوَى الْفتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا: رَبَّنَا آتنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾[2]. فخبَّر كما ترى عن دعائهم وإخلاصهم، ثمَّ قال جلّ وعزَّ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ في الْكَهْفِ سنِينَ عَدَداً ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لنَعْلَمَ أَيُّ الحزْبَيْنِ أَحْصَى لمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾[3]، ثمَّ قال عزَّ وجلَّ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى. وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا: رَبُّنَا رَبُّ السَّموات وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دونه إلهاً لَقَدْ قُلْنَا إذاً شططاً﴾[4] ثم قال: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْف يَنشر لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِه وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً. وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُم ذَاتَ الشِّمال﴾[5] ثمّ قالَ بعدَ هذه الصِّفة لحالهم، والتمكين لهم من قلوب السَّامعين، والأُعجوبة التي أتاهم بها: ﴿وكَلْبُهُمْ بَاسطٌ ذِراعَيْه بِالْوَصيد﴾[6] ثمَّ قال: ﴿لَو اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾[6] فخبَّر أنّهم لم يستصحبوا من جميع مَن يألفُ النَّاس ويرتفقون به، ويسكنون إليه، شيئاً غيرَ الكلب، فإنَّ ممّا يألفُ النَّاس ويرتفقون به، ويسكنون إليه، شيئاً غيرَ الكلب، فإنّ ممّا يألفُ النَّاس ويرتفقون به، ويسكنون إليه: الفرسَ والبعيرَ والحمار والبغل، والثَّور والشاة، والحمامَ والدِّيكة، كلّ ذلك مما يرتفَق به ويُستصحب في الأسفار، وينقَل من بلدٍ إلى بلدٍ.

والناس يصطادون بغير الكلب، ويستمتعون بأمور كثيرة، فخبَّر عنهم بعد أن جعلهم خياراً أبراراً، أنّهم لم يختاروا استصحابَ شيءٍ سوى الكلب، وليس يكون ذلك من الموفّقين المعصومين المؤيّدين، إلاّ بخاصةٍ في الكلب لاتكون في غيره.

---

(١) ٤/ المائدة: ٥.

(٢) ٩-١٠/الكهف:١٨.

(٣) ١١ - ١٢ الكهف: ١٨.

(٤) ١٣-١٤/ الكهف: ١٨.

(٥) ١٦-١٧/ الكهف: ١٨.

(٦) ١٨/ الكهف: ١٨.

ثمَّ أعاد ذكر الكلب، ونبَّأ عن حاله، بأنْ قال عزَّ وجلَّ: ﴿ إذ يَتنازعُونَ بيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهم بُنْيَاناً رَبُّهُم أَعْلَمُ بهمْ قَالَ الَّذين غَلَبُوا عَلَى أَمْرهم لَنَتَّخذَنَّ عَلَيْهم مَسْجداً. سَيقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادسُهُم كَلْبُهُمْ رَجْماً بالْغَيْب وَيقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامنُهُمْ كَلْبُهُم قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بعدَّتهمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إلاَّ قَليلٌ. فَلاَ تُمَارِ فيهمْ إلاّ مراءً ظَاهراً وَلاَ تَسْتَفْت فيهمْ منْهُمْ أَحَداً ﴾[١] وفي قولهم في الآية ﴿ ثَلاثَةٌ رَابعُهُم كَلْبُهُمْ وَيقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادسُهُم كَلْبُهُم رَجْماً بالْغَيْب وَيقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامنُهُم كَلْبُهُمْ ﴾[١] دَليلٌ عَلَى أنَّ الكلبَ رفيعُ الحال، نبيه الذِّكر، إذ جُعل رابعَهم، وعُطف ذِكْرُه على ذكرهِمْ، واشتقَّ ذكْره من أصل ذكرهِمْ، حتَّى كأنَّه واحدٌ منهم، ومن أكفائهم أوْ أشباههم أو ممَّا يقاربهم. ولولا ذلك لقال: سيَقُولون ثلاثةٌ معهم كلبٌ لهم. وبينَ قول القائل معهم كلبٌ لهم، وبين قوله ﴿ رَابِعُهُم كَلْبُهُمْ ﴾[١] - فرقٌ بيِّن وطريق واضح.

فإنْ قلتم: هذا كلام لم يحكه الله تعالى عن نفسه، وإنَّما حكاه عن غيره، وحيث يقول: ﴿ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾[١] وَقَدْ صَدَقتُم، والصِّفة على ما ذكرتم؛ لأنَّ الكلامَ لو كان منكراً لأنكره الله تعالى، ولو كان معيباً لعابه الله، فإذْ حكاه ولم يَعبْهُ،وجعله قرآناً وعظّمه بذلك المعنى، ممّا لا ينكرَ في العقل ولا في اللغة، كان الكلام إذا كان على هذه الصفة مثلَه؛ إذ كان الله عزّ وجلّ المنْزل له.

٣٩٦ - [الاستطاعة قبل الفعل]

ومثلَ ذلك مثَّلَ بعضُ المخالفين في القدَر، فإنّه سأل بعضَ أصحابنا فقال: هل تعرفُ في كتاب الله تعالى أنَّه يُخبرُ عن الاستطاعة، أنّها قبلَ الفعل؟ قال: نعم، أتى كثيرٌ، منْ ذلك قولُه تعالى ﴿ قَالَ عفْريتٌ منَ الْجنِّ أَنَا آتيكَ به قَبْلَ أَنْ تَقُومَ منْ مَقامكَ وَإِنِّي عَلَيْه لَقَويٌّ أَمينٌ ﴾[٢]. قال المخالف: سألتكَ أنْ تخبرني عن الله، فأخبرتني عن عفريت لو كان بينَ يديَّ لبزَقتُ في وجهه! قال صاحبُنا: أمّا سليمانُ النبيُّ، ﷺ، فقد تركَ النَّكيرَ عليه، ولو كان مثلُ هذا القول كفْراً وافتراءً على الله، ومغالبةً وتفويضاً للمشيئة إلى النفس، لكان سليمان ومَن حضره من المسلمين من الجِّن والإنس أحقَّ بالإنكار، بل لم يكن العِفريتُ في هذا الموضع هو الذي يسرع فيه

(١) ٢١ -٢٢/ الكهف: ١٨.
(٢) ٣٩/ النمل: ٢٧.

ويذكر الطاعة، ولا يتقرَّب فيه بذكر سرعة النفوذ، ويبشر فيه بأنّ معه من القوّة المجعولة ما يَتَهَيأ لمثله قضاءُ حاجته، فيكذب ثمَّ لا يرضى بالكذب حتَّى يقول قولاً مستنكراً، ويدَّعي قوَّة لا تُجعَل له، ثمّ يستَقبل بالافتراء على الله تعالى والاستبداد عليه، والاستغناء عنه- نبيّاً قدْ ملك الجنَّ والإنس والرِّياحَ والطير، وتسْيير الجبال، ونطقَ كلِّ شيء، ثمَّ لا يزجره فضلاً عن أنْ يضربَه، ويسجُنه فضلاً عن أن يقتله.

وبعدُ، فإن الله تبارك وتعالى لم يجعلِ ذلك القول قرآناً، ويترك التنبيه على ما فيه من العَيب، إلاّ والقول كان صِدقاً مقبولاً. وبعد، فإن هذا القولَ قد سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتلاهُ على الناس، وما زالوا يتلونه في مجالسهم ومحاريبهم، أفَما كان في جميع هؤلاء واحدٌ يعرف معرفتك، أو يغضَبُ لله تعالى غضبك؟!.

٣٩٧ - [دفاع عن الكلب]

قال صاحب الكلب: لو اعترضْتَ جميعَ أهل البدو في جميع الآفاق من الأرض، أنْ تُصيبَ أهلَ خيمةٍ واحدة، ليس عندهُمْ كلبٌ واحد فما فوقَ الواحد لمَا وجدته. وكذلك كانوا في الجاهليَّة، وعلى ذلك هم في الإسلام. فمن رجعَ بالتخطئة على جميع طوائف الأمم، والتأنيبِ والاعتراض على جميع اختيارات الناس، فليتَّهِم رأيَه؛ فإنَّ رأيَ الفردِ ولاسيّما الحسودُ، لا يَفي برأي واحد، ولا يرى الاستشارة حظاً وكيف بأنْ يَفيَ بجميع أهل البدو من العرب والعجم. والدليل على أنَّ البَدْوِ قد يكون في اللُّغة لهما جميعاً قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾[١] ولو ابتُلي صاحبُ هذا القول بأن يَنزل البادية، لتحوَّل رأيُه، واستبدلَ به رأيَ من قد جرّب تقريبَ الكلب وإبعادَه. وقد قال أبو عبَّادٍ النميري: لايكون البُنْيَان قريَةً حتى ينبحَ فيه كلبٌ، ويزْقوَ فيه ديك.

ولمَّا قال أحمد بنُ الخَاركي: لا تَصير القريةُ قريَةً حتَّى يصيرَ فيها حائكٌ ومعلِّم، قال أبو عبَّاد: يا مجنونُ إذا صارتْ إلى هذا فقد صارت مدينة.

وللكلب إثباتُه وجهَ صاحبه، ونظرُه في عينيه وفي وجهه، وحبُّه له، ودُنُّوه منه، حتَّى ربَّما لاعبه ولاعب صبيانَه بالعضِّ الذي لايؤثِّر ولا يُوجِع، وهي الأضراسُ التي لو نشَّبها في الصخر لنَشِبت، والأنيابُ التي لو أنحى بها على الحصَى لرضَّها.

---

(١) ١٠٠/ يوسف: ١٢.

وقد تراه وما يصنع بالعظْم المدمَج، وبالفِقْرة من الصُّلب القاسي الذي ليس بالنَّخِر البالي، ولا بالحديث العهد بالودَك الذي يلين معه بالمضْغ ويَطيب، فتراه كيف يرضُّه ويفتّته، ثمَّ إن مانَعَه بعضَ الممانعة، ووافقَ منه بعضَ الجوع، كيف يبتلِعه وهو واثق باستمرائه وهضْمه، أو بإذابته وحَلِّه.

وله ضروبٌ من النَّغَم، وأشكال من الأصوات، وله نوح وتطريب، ودُعاء وخُوار، وهَرير وعُواء، وبَصبصة، وشيءٌ يصنَعه عند الفرح، وله صوتٌ شبيهٌ بالأنينِ إذا كان يَغْشَى الصيد، وله إذا لاعَبَ أشكاله في غُدُوات الصَّيفِ شيءٌ بينَ العُواء والأنين.

وله وطءٌ للحصى مثله بأن لو وطئ الحصى على أرض السطوح لا يكون مثله وطء الكلب يربى على وزنه مراراً[1].

وإذا مرَّ على وادٍ جامدٍ ظاهرِ الماء، تنكّبَ مواضعَ الخرير في أسفله.

قال الشاعر - ورأى رجلاً اسمه وثّاب واسم كلبه عمرو - فقال: [من مجزوء الوافر]

ولو هَيَّا له اللّه ... من التَّوفيق أسبابا[2]
لسمَّى نفسه عَمْراً ... وَسمَّى الكلبَ وَثَّابا

٣٩٨ - [أطْباء الكلبة والخنزيرة والفهدة]

قال: والكلبة كثيرةُ الأطباء، وكذلك الخنزيرة. وللفَهدة أربعة أطباء من لَدُنْ صدرِها وقرب إبطيها إلى رفغيها[3]، وللفيل حلمتان تصغران عن جثّته. وهما مما يلي الصَّدر مثل الإنسان، والذّكَر في ذلك يشبَّه بالرجل؛ لأنْ للرجل ثديَيْن صغيرَين عن جثته.

٣٩٩ - [واقية الكلاب]

ويقال: إنَّ على الكلابِ واقيةً من عبث السُّفهاء والصِّبيان بها. قال دُريد بن الصِّمَّة، حينَ ضرَبَ امرأتَه بالسيف ولم يقتلْها: [من الوافر]

أقَرَّ الْعَينَ أَنْ عُصِبتْ يداها ... وما إن يُعصبَان على خِضَابِ[4]

---

(١) يبدو السياق غير مستقيم؛ ولعله يريد أن يقول: «وله وطء للحصى مثّله بعضهم بأن لو وطئ الخصيُّ على أرض السطوح لا يكون وطؤه مثل وطء الكلب أو وزنه - أي وزن الخصي - يربى على وزنه مراراً. قلت: وقد ذكر الجاحظ في الفقرة (٧٨) شدة وطء الخصي للأرض.

(٢) تقدم البيتان في نهاية الفقرة ٢٧٧.

(٣) الرفغ: أصل الفخذ.

(٤) ديوان دريد بن الصمة ٣٩، وثمار القلوب ٣١٨ (٥٩١)، والأغاني ١٠/ ١٩.

فأبقاهُنَّ أنَّ لهنَّ جَداًّ وواقية كواقية الكلاب[1]

وقال الآخر: [من المتقارب]

إنْ يَقنَا اللّه من شَرِّها فإنَّ الكلابَ لها واقيَهْ

ويروى:

* سينْجيه مِنْ شرِّها شرُّه *

وقال غيره: [من الكامل]

ولقدْ قتلتُك بالهجاء فلم تمُتْ إن الكلاب طويلة الأعْمارِ[2]

وقال بِشر بن المعْتمر: [من السريع]

الناسُ دَأباً في طلاب الثّرَا فكُلُّهم من شأنه الختْرُ[3]

كأذؤبٍ تنهَشها أذْؤبٌ لها عُواءٌ ولها زَفرُ

٤٠٠ - [استطراد لغوي]

قال: ويقال قزَح الكلب ببوله يقزح قزْحاً، إذا بال. قال: وقال أبو الصَّقر: يقزَحُ ببوله حين يبول، وشغر الكلب يشغَر إذا رفَع رجْلُه، بال أو لم يبل. ويقال شغرتُ بالمرأة أشغُرها شغْراً إذا رفعتَ رِجلَها للنِّكاح، قال: ويقال عاظَل الكلبُ مُعاظَلةً، يعني السِّفاد، قال أبو الزحف: [من الرجز]

كمِشْيَةِ الكلبِ مَشَى للكلبَة يَبغي العِظالَ مُصْحراً بالسَّوءَة[4]

قال: ويقال كلبٌ عاظِل وكلابٌ عُظّل وَعظَالى.

وقال حسان بن ثابت الأنصاري: [من الطويل]

ولَست بَخيرٍ من يَزيدَ وخَالدٍ ولست بخيْر من معاظلة الكلب[5]

قال مالِكُ بن عبد اللّه الجَعْديّ، يوم فيفِ الرِّيح[6]: حدَّثني أبي، لقدْ نظرتُ

---

(١) واقية الكلاب: يضرب مثلاً للخسيس إذا كان موقًّى لأن الكلب من الحيوانات الطويلة الذماء. ثمار القلوب (٥٩١).

(٢) البيت لأبي يزيد العبدي في ربيع الأبرار ٢/ ٤٥١.

(٣) البيتان لبشر بن المعتمر في اللسان (ربح).

(٤) البيت لأبي الزحف الكلبي في اللسان والتاج (عظل)، الإصحار: المجاهرة.

(٥) ديوان حسان ١١١ (طبعة دار المعارف)، وسر صناعة الإعراب ٧٧٤، والعمدة ١/ ١٧٦ باب التقفية والتصريع.

(٦) يوم فيف الريح: كان لمذحج على عامر. وفيف الريح: موضع بأعلى نجد. انظر معجم البلدان ٤/ ٢٨٥، وذيل الأمالي ١٤٦، والنقائض ٤٦٩، وأيام العرب في الجاهلية ١٣٢.

يَوْمَئذٍ إلى بني عبد الحارث بن نمير، فما شبَّهتُهم إلاَّ بالكلاب المتعاظلة حَوْلَ اللواء.

وقال أبو بَرَاء عامرُ بن مالكٍ ملاعبُ الأَسِنَّة – لاعبه الحارث واليوم قال فقال[1] منذ يومئذ.

قال: والسَّلوقيّة منسوبَةٌ إلى سَلوقَ من بلاد اليَمن، لها سلاحٌ جيِّد وكلاب فُرَّه. وقال القَطَاميُّ: [من الكامل]

معه ضَوَارٍ مِنْ سَلوقَ له　　　طَوْراً تُعانِدُه وتنفعه[2]

٤٠١ - [تعفير البهائم والسباع أولادها]

قالُوا: وليس في الأَرض بهيمةٌ ولا سبع أنثى تريد فطامَ ولدها وإخراجَه من اللَّبَن إلى اللحم، أو من اللبَنِ إلى العُشْب، إن كانت بهيمةً إلاَّ وهي تعفر ولدَها. والتعفير: أن ترضعه وتمنعه حتى يجوع ويطلب اللحمَ إن كان سبعاً، والعُشْبَ إن كان بهيمة.

فلا تزالُ تنوِّله وتُماطله وكلما مرَّتْ عليه الأيَّام كان وقتُ منعها له أطولَ، حتَّى إذا قوي على أكْل اللَّحْمِ أو العُشْب فطمته. قال لبيدٌ في مثل ذلك[3]: [من الكامل]

أَفَتِلْكَ أَمْ وَحْشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ　　　خُذِلَتْ وَهَادِيَةُ الصوَّار قِوامُهَا[4]
خَنْسَاءُ ضَيَّعَتِ الْفَرِيرَ فَلم يَرِمْ　　　عُرْضَ الشَّقَائِقِ طَوْفُهَا وَبُغَامُهَا[5]
لِمُعَفَّرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوَهُ　　　غُبْسٌ كَوَاسِبُ لاَ يُمَنُّ طَعَامُهَا[6]
صَادَفْنَ مِنْهَا غِرَّةً فَأَصَبْنَهَا　　　إنَّ المنايا لا تَطِيشُ سِهامُها

لأنَّ البقرة إذا كانت بحضْرة ولدها لم تضيِّعه ومَنعت السِّباعَ منه، وقاتلَتْ دونَهُ بقُرونها أشدَّ القتال، حتَّى تُنجيَه أو تعطَب.

---

(١) ثمة اضطراب في النص!

(٢) لم يرد البيت في ديوان القطامي، ووجدت ما يشبهه في ديوانه ٦٢ وهو:
(معهم ضوارٍ من سلوقَ كأنها　　　حصن تجول تجرر الأرسانا)

(٣) ديوان لبيد ٣٠٧ – ٣٠٨.

(٤) الوحشية: البقرة. مسبوعة: أكل السبع ابنها، هادية الصوار: طليعة القطيع من البقر، وقيل هو الثور وحده.

(٥) الخنساء: فيها خنس: وهو تأخر الأنف وقصره. الفرير: ولد البقرة. الشقائق: الأرض الغليظة بين رملتين. الطوف: الذهاب والمجيء. بغامها: صوتها.

(٦) المعفر: الذي تفطمه أمه على مراحل. قهد: أبيض، أو الصغير الأذن من الضأن تعلوها حمرة. الغبس: الذئاب، أو الكلاب ذات اللون الأغبر. كواسب: تتعيش من الصيد. يُمَنُّ: ينقص.

٤٠٢ - [بعض من كني بالكلاب]

قال: وكان ابنُ لِسَانِ الحُمَّرَةِ(١) يكنى أبا كلابٍ. وكان زوجُ حُبَّى المدَنيَّة يقال له ابن أمِّ كِلاب، وقَال الشَّاعر يذكُرها: [من الطويل]

وما وَجَدَتْ وَجْدي به أمٌّ واحدٍ ... ولا وجْدُ حُبَّى بابنِ أمِّ كِلابِ(٢)

رأتْهُ طويلَ السَّاعدين شَمرْدَلاً ... كما انبعثتْ من قوّةٍ وشَبَاب

٤٠٣ - [صفة عيون الكلاب]

وقال آخر يصفُ عيونَ الكلاب إذا أبصرت الصَّيد: [من الطويل]

مجزَّعَةٌ غُضْفٌ كأنَّ عيونَها ... إذا آذَنَ القُنَّاصُ بالصَّيد عَضْرَسُ(٣)

مجزّعة: في أعناقها جَزْع، وهو الودَع يُجعَل في القلائد. يقول: تبيضُّ عيونُها حينَ تختِلُ الصَّيد. والعَضْرَس هاهنا: البَرَد.

وقال الآخر: [من الكامل]

خُوصٌ تَرَاح إلى الصُّراخِ إذا غدَتْ ... فِعْلَ الضِّراء تَرَاحُ للكَلَّابِ(٤)

وقال آخر وذكر الضِّراء، وهو يصف الشَّيخ وضعْفَه: [من الوافر]

ومنها أنْ يُقادَ به بَعير ... ذَلُولٌ حينَ تَهتَرِشُ الكِلابُ

قال: وهُم عند الحاجة يُعِدُّون الكلبَ والمطيَّة، وأنشد: [من الطويل]

فأعقَبَ خيراً كلّ أهوجَ مِهْرَجٍ ... وكلُّ مُفدَّاةِ العُلالة صِلْدِمِ(٥)

---

(١) في جمهرة أنساب العرب ٣١٥ (لسان الحمرة: واسمه حصن بن ربيعة بن صُعَيْر بن كلاب؛ والنسابة هو عبد الله بن لسان الحمرة). وفي المعارف ٥٣٥ (ومن النسابين: ابن لسان الحمرة الناسب، وهو ورقاء بن الأشعر، وكنيته أبو كلاب، وكان أنسب العرب، وأعظمهم بصراً). وفي الاشتقاق ٣٥٤ (لسان الحمرة: أحد البلغاء في الجاهلية، وَورقاء هذا هو لسان الحمرة في قول أبي عبيدة).

(٢) البيتان لهدبة بن الخشرم في ديوانه ٧٣، وتزيين الأسواق ٣٢٠ - ٣٢١، والأغاني ٢١/ ٢٧١، ومجمع الأمثال ١/ ٣٨٧، والمستقصى ١/ ١٨٦، والأول في اللسان والتاج (حبب)، والثاني بلا نسبة في أساس البلاغة (نعت)، ونسبا لابن هرمة في جمهرة الأمثال ١/ ٥٦٣.

(٣) البيت للبعيث في اللسان (عضرس)، وبلا نسبة في اللسان والتاج (حرج، أيه)، والتنبيه والإيضاح ٢/ ١٩٠.

(٤) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج (روح).

(٥) البيت لأوس بن حجر في ديوانه ١٢٠، وأمالي القالي ١/ ١٨٩، والمعاني الكبير ٨٤، والسمط =

وقال الآخر: [من الرجز]

* مُفدَّيات وملقَّبات *

وأنشد قول أبي ذُؤَيب في شبيهٍ بالمعنى الأوّل: [من الكامل]

شَغفَ الكلابُ الضّارياتُ به ... فإذا يَرَى الصُّبْحَ المُصَدَّقَ يَفْزَعُ(١)

يقول: هذه الثِّيران لما قد لُقِّينَ مع الصبح والإشراق من الكلاب، صار أحدها حين يَرَى ساطع الصبح يَفْزَعُ، وذلك أنَّها تمطَرُ ليلتَها فتَشرَّقُ في الشمس، فعندها تُرسَل عليها الكلاب.

٤٠٤ - [تعرض الذئب للغنم مع الصبح]

ويقال إنَّ أكثرَ ما يعرِض الذّئبُ للغنم مع الصُّبْح، وإنَّما رقَب فتْرةَ الكلب وكلالَه، لأنْه باتَ ليلتَه دائباً يحرس.

وقال أعرابيٌّ وكسَرَ ذئب شاةً له مع الصُّبح، فقال: [من البسيط]

أودَى بوَردةَ أُمِّ الوَرْدِ ذو عَسَلٍ ... من الذِّئاب إذا ما راحَ أو بَكَرَا(٢)

لولا ابُنها وسَلِيلاتٌ لها غُرَر ... ما انفكَّت العين تذْري دمعَها دِررَا

كأنَّما الذِّئبُ إذ يعدو على غنَمي ... في الصُّبح طالبُ وِترٍ كان فاتَّأرا(٣)

اعتامَها اعتامَه شَثْنٌ براثِنُه ... من الضَّوارِي اللّواتي تقصِمُ القَصَرا(٤)

٤٠٥ - [سبب نزول آية في صيد الكلاب]

ولما قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام لزيدِ الخيل مِن الخير ما قَال. وسمّاه زيدَ الخير، ما سأله زيدٌ شيئاً، ولا ذكر له حاجة، إلاّ أنَّه قال: يا رسول اللّه، فينا رجُلان يقال لأحدهما ذَرِيح، والآخر يكنى أبا دُجانة، ولهما أكلب خمسة تَصيد الظباء، فما

= ٤٥٩. الأهوج: الذي يركب رأسه فيمضي. المهرج: الكثير الجري. العلالة: الجري الذي بعد الجري الأول، فيقال لها إذا طلبت علالتها: ويهاً فداء لك. الصلدم: الشديدة.

(١) البيت لأبي ذؤيب في شرح أشعار الهذليين ٢٦، والمفضليات ٤٢٥، ومحاضرات الراغب ٢/٢٩٦، واللسان (شعف)، والسمط ٩٦٥، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ١/٤٣٩.

(٢) عَسَلَ الذئب: اضطرب في عدوه وهز رأسه.

(٣) اتأر: أدرك وتره.

(٤) اعتام: اختار. شثن البراثن: غليظها. تقصم القصر: تقطع الرقاب.

ترى في صيدهم؟ فأنزلَ اللّه عزَّ وجلّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنّ مّما عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ﴾(١).

فأوّلُ شيءٍ يعظّم في عينِك شأنَ الكلب، أنَّ هذا الوَافدَ الكريمَ الذي قِيل له ما قيل، وسُمِّي بما لم يسمَّ به أحد ـ لم يسألْ إلاّ عن شأن الكلب.

وثانية وهي أعظمها: أنَّ اللّه تعالى أنزل فيه عند ذلك آياً مُحْكماً فقال: ﴿أُحلّ لَكمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ فسمَّى صيدَها طيّباً، ثم قال: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبينَ﴾ مخبراً عنْ قَبولها للتعليم والتأديب. ثم قال: ﴿ممَّا عَلَّمَكُمُ اللّه﴾ ولولا أنَّ ذلك البابَ من التعليم والعلم مَرْضيٌّ عند اللّه عزَّ وجلَّ، لَمَا أضافه إلى نفسه. ثم قال: ﴿فَكلُوا ممَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكمْ وَاذْكُروا اسْمَ اللّه عَلَيْه﴾ فأوّلُ شيءٍ يعظُم به في عينك إمساكَه عليك. وهكذا يقول أصحاب الصيد، إنَ كَلَ صائدٍ فإنما يَمسِك على نفسه إلاّ الكلبَ فإنّهُ يُمسك على صاحبه.

ولو كان الجوابُ لزيد الخيل سُنَّةً من سُنن النبي صلى اللّه عليه وسلم لَكانَ في ذلك الرِّفعةُ، فكيفَ والكتابُ فوقَ السُّنّة.

وقد روى هشام أنّ ابنَ عبَّاس سمَّى كلابَ ذَريحٍ هذه وكلابَ أبي دُجانة فقال: المختلِس، وغلاَّب، والقَنيص، وسَلهب، وسِرْحان، والمتعاطِس(٢).

٤٠٦ - [العلاج برجيع الكلاب]

وزعم الأطبَّاء أنَّ من أجود أدويَة الذُّبحة والخانوق أنْ ينفخ في حلق مَن كان ذلك به، ما جَفَّ من رَجيع الكلاب. وأجودُ ذلك أنْ يكون يتغرغر به وربَّما طلوْه على جلد المحموم الحديد الحُمَّى.

وأجود رجيع الكلابِ أنْ يشتدّ بياضهُ. وليس يعتريه البَياضُ إلاّ عن أكْل الطعام، وذلك رديءٌ للقانص منها.

والجعور قد تبيَضُّ إذا كان قوتُ صاحبها اللبن، ولذلك قال أبو كلاب – وهو ابن لسان الحمَّرة – ومرَّ به رجلٌ من بني أسد فقال: قد علمت العربُ يا معشَرَ بني أسدٍ أنّكم أشدُّها بَياضَ جُعور، فعكفَ عليه فضرَبه بالسيف حتى بَرَد.

---

(١) ٤/ المائدة: ٥.

(٢) انظر البيت الرابع من قصيدة مزرد بن ضرار التي تقدمت في الفقرة ٢٧٧.

وذلك أنّه عيّره بأنّهم لا يعرفون البَقْل، ولا يعرفون إلاّ اللبن. وقال الشاعرُ يهجو ناساً منهم : [من الطويل]

عَراجِلةٌ بيضُ الجُعُورِ كأنّهمْ بمنْعَرَج الغيطَانِ شُهْبُ العَنَاكِبِ[1]

والعرب تقول: اللَّحم أقلُّ الطّعامِ بَخراً.

٤٠٧ - [دفاع عن الكلب]

وقال صاحب الكلب: وما للدِّيك وللكلاب، والكلابُ ينزِّل فيها القرآنُ ويُحدَث فيها السنن، ويُشتقُّ من أسمائها للنَّاس وللأُسد، ولها أسماءٌ معروفةٌ وأعراق منسوبة، وبُلدان مشهورة، وألقَابٌ وسِمَات، ومناقِبُ ومقَامات !!

وما للدِّيك إلاّ ما تقول العوام: إنّه إذا كان في الدارِ ديكٌ أبيض أفرَق[2] لم يدخله شيطان. وليس يقومُ خَيْر ذلك، ولو كان ذلك حقًّا، بشؤمه؛ لأنَّ العوامَّ تقضي على مَن كان في داره ديكٌ أَبيض أفرق بالزندقة.

والذين يقولون إنّ الدار إذا كان فيها ديكٌ أفرقُ لم يدخُلْها شيطان، هم الذين يقولون مَنْ أكلَ لحم سِنّورٍ أسودَ لم يَضِرْه سحر[3]، وإذا دُخِّنت الدار بالدُّخنة[4] التي سمّوها بدُخنة مريم، أو باللُّبان، لم يكنْ عليها لعُمَّار الدَّار سبيل، فإن مَرَّت ساحرة تطير سقَطت. وهم الذين لا يشكُّون أنّ مَن نام بين البابَين تخبَّطَه العُمَّارُ وخَبَلته الجنّ.

٤٠٨ - [مايقال له: جرو]

قال: ويقال لولد الكلب والذِّئب والسِّنَّور أشباه ذلك: جرو. ويقال للصغير من الحنْظل على مثل ذلك: جرو. وقَال النَّمرُ بنُ تَوْلب: [من الطويل]

بجروٍ يُلقَّى في سِقاءٍ كأنّه مِنَ الحَنْظَل العامِيِّ جَرْوٌ مفلَّقُ[5]

٤٠٩ - [كلاب الحوءب]

وممَّا زادَ في ذِكْر الكلب قولُ السَّيِّد بن محمد في شأن عائشة في الحديث

---

(١) عراجلة: أي جماعة مشاة.

(٢) أفرق: عرفه مفروق.

(٣) ربيع الأبرار ٥/٤٢٨.

(٤) الدخنة: ذريرة تدخن بها البيوت.

(٥) ديوان النمر بن تولب ٣٦١، السقاء: جلد السخلة إذا أجدع ولا يكون إلا للماء. الجرو: ما استدار من ثمار الأشجار كالحنظل ونحوه.

الذي رَوَوه[1] - وكان السّيِّد رافضيًّا غالياً، وليس في ذكره شرَف، ولكنّه أجمعُ للفنِّ-: [من الكامل]

تهْوِي من البَلَدِ الحرَامِ فنبَّهتْ ... بَعْدَ الهُدُوِّ كِلابَ أَهْلِ الحوْءَبِ[2]

قال: ويقال صرَفت الكلبة صِرَافاً وصُروفاً، وظَلَعت تظلَع ظُلوعاً

٤١٠ - [قولهم: لا أفعل حتى ينام ظالع الكلاب]

قال: ومن الأمثال في ذلك: «لا أفعَلُ حتَّى يَنامَ ظالِعُ الكلاب»[3]. قال الأصمعيُّ: هذا باطل، إنّما ذلك إذا أصابَ الكلبَ ما يظلَع منه لم يُطِق سفاد الكلبة حتَّى تهدأ الرِّجْل، وحتَّى تملَّ الكلابُ النُّباح وتَفترِقَ، وتحتاج إلى النَّوم لطول التعب، وإذا كان في ذلك الوقت يلتمس الظالع ورامَ سِفاد الكلبة، لم يعرف ظَلعه إلاّ الكلبة. وأنشد فقال[4]: [من الطويل]

تسدَّيتُها مِنْ بَعْدِ ما نام ظالِعُ الْـ ... ـكِلابِ وأخْبَى نارَه كلُّ مُوقِد

وأنشد غيرهَ لجِرَان العَوْد: [من الطويل]

وكانَ فُؤادي قدْ صَحَا ثمَّ هاجه ... حَمائمُ وُرْقٌ بالمدَائنِ هُتَّفُ[5]

كأنَّ الهديلَ الظّالِعَ الرِّجْل وَسْطَهَا ... مِنَ البغْي شِرِّيبٌ يُغَرِّدُ مُتْرَفُ

٤١١ - [شعر في إشلاء الكلب على الضيوف]

وقالوا أبياتاً في غير هذا الباب، قال الأعرابيّ: [من الطويل]

نزلْنا بعَبّاد فأشلَى كلابَه ... عَلينا فكدْنَا بين بابَيه نُؤْكَلُ[6]

فَقُلْتُ لأصحابي أُسرُّ إليهمُ ... أذَا اليَومُ أو يومُ القِيامة أطولُ

---

(١) انظر الحديث في معجم البلدان (حوأب).

(٢) البيت في ديوان السيد الحميري ٨٥، ومعجم البلدان (حوأب).

(٣) مجمع الأمثال ١/٢٦، والمستقصى ١/١٢٨، ٢/٥٩، وأمثال ابن سلام ٢٤٩.

(٤) ديوان الحطيئة ٧٤، واللسان والتاج (ظلع)، والمستقصى ١/١٢٩، ومجمع الأمثال ١/٢٦، والبرصان ١٩٣، وتقدم البيت في الفقرة (٢٩١).

(٥) ديوان جران العود ١٣.

(٦) البيتان لبلال بن جرير في الوحشيات ٢٢٥، والشعر والشعراء ٢٨٥، وبلا نسبة في البخلاء ٢٣٨، والأول لزياد الأعجم في اللسان والتاج (شلا)، والمقاييس ٣/٢١٠، وبلا نسبة في المجمل ٣/١٧٤، والخزانة ٣/٢٩٠ (بولاق).

وقال آخر: [من الكامل]

أعدَدْتُ للضِّيفانِ كلباً ضارياً   عِندي وفضلَ هِراوَة مِنْ أَرْزَنِ[1]

وقال في خلاف ذلك مالكُ بن حَريم الهمْدانيُّ: [من الطويل]

وواحدةٌ إلاَّ أبيتَ بغرَّةٍ   إذا ما سَوَامُ الحيِّ بات مصرَّعا[2]

وثانيةُ ألاَّ تفزَّعِ جَارتي   إذا كان جَارُ القوم فيهم مفزَّعا

وثالثة ألاَّ أُصمِّتَ كلبَنَا   إذا نزَل الأضيافُ حِرصاً لتُوزَعا

٤١٢ - [استطراد لغوي]

قال: ويقال لَحزَ الكلبُ الإناءَ، فهو يلحَزه لَحزاً، ولحسَه فهو يلحَسه لحساً. قال أبو يزيد: وذلك إذا لحس الإناءَ من باطنه. والقَرْو: ميلَغة الكلب، فإذا كان للكلب فإنَّما هو من أسفَل كُوزٍ أو ما أشبه ذلك، وإلاَّ فالقَرْوُ أسفلُ نخلةٍ يُنْجَر ويقوَّب ويُنْتَبَذُ فيه.

وقال الأعشى: [من السريع]

أرمِي بها البيدَ إذا أعرَضَتْ   وأنتَ بينَ القَرْوِ والعاصر[3]

في مِجْدَلٍ شُيِّد بُنْيَانُهُ   يزِلُّ عنه ظُفرُ الطَّائرِ[4]

٤١٣ - [أحجيَّة في الكلب]

وممَّا يُحاجي به النَّاسُ بعضُهم بعضاً أن يقولوا: أتعرفون شيئاً إذا قام كان أقصرَ منه إذا قعد؟ يريدون الكلب، لأنَّ الكلب قعودُه إقعاؤه، وهو إذا أقعَى كان أرفَع لسَمْكه، وأرفعَ في الهواء طولاً منه إذا قام. وقال عمر بن لجأ: [من الرجز]

عليه حنْوا قَتَبٍ مستقدمِ   مُقْعٍ كإقعاء الكليبِ المعصِمِ[5]

---

(١) البيت لوبرة بن معاوية الأسدي في الحماسة البصرية ٣/٣٧٧، وحماسة البحتري ٢٦٣، وبلا نسبة في البخلاء ٢٣٨، والبيان والتبيين ٣/٧٩، وعيون الأخبار ٣/٢٤٢، واللسان (رزن)، وهو بقافية «أزرق» في اللسان (عتد).

(٢) الأبيات في الأصمعيات ٦٤.

(٣) ديوان الأعشى ١٩٧، ٢١١ (وطبعة جاير ص٢٤٥)، والأول في اللسان والتاج (قرا)، والتهذيب ٩/٢٦٧، ٢٦٨، وبلا نسبة في المقاييس ٥/٧٨، والمخصص ١١/٨٣، والثاني في اللسان وأساس البلاغة (جدل)، والتاج (وسط، جدل)، والمجمل ١/٤١٢، وبلا نسبة في المقاييس ١/٤٣٤.

(٤) المجدل: القصر المشرف.

(٥) ديوان عمر بن لجأ ١٦١، والمعاني الكبير ٢٤٠.

ويقال أقعى الكلبُ إقعاء، ولا يقال قعد ولا جلس، وفي الحديث: «أنَّه نَهَى أنْ يُقْعِيَ أحدُهم في الصلاة إقعاءَ الكلب»(١).

٤١٤ - [معرفة فتاء الكَلْب وهرمه]

قال صاحب الكلب: يُعرَف فَتاء الكلب وهَرَمُهُ بالأسنان، فإذا كانت سوداء كانت دليلاً على كبره، وإذا كانت بِيضاً حادّة دلَّت على الفتاء والحداثة. وقال: أسنان الذَّكر أكثر.

٤١٥ - [أصناف الحيوان الموصوفة بشدة المماضيغ]

وأصناف الحيوان المشقوقةُ الأفواه كالكلب والأسد والفهْد موصُوفاتٌ بشدَّة المماضيغ والفكّ والخراطيم. كالكلب والخنزير والذئب، فأشبَهَ الكلبُ الأسدَ في شَحْو الفم واتِّساعه، وعلى أنَّ شَحْو فمه على مقدار جسمه، وأشبَه الذِّئبَ والخنزيرَ في طول الخَطم وامتداد الخُرطوم، ولذلك كان شديدَ القلب، جيِّدَ الاسترواح. فجمع الكلب دون هذه الأصناف ما يصلُح للرضّ والحطم، كما جمع ما يصلُح للابتلاع والالتهام والحطم والاستمراء.

٤١٦ - [بعض ما قيل في الأسد]

والأسد حريصٌ واسع الشَّحْو، فهو يبتلع البَضْعَةَ التي لو رآها الإنسان لم يظنَّ أنَّ حلقَه يتَّسع لمرورِ ذلك. ويقال إنّ عنقَه عظمٌ واحد واللُّقَم لا تجول فيه، وهو في ذلك قليلُ الرِّيق، فلا يسلُس في حلْقه ما يمرّ فيه، بل يبتلع لفرْط نَهمه وشحْوِ لَحييه ضِعفَي ذلك المقدار.

وقد زعم ناسٌ أنّ الذي يدلُّ على أنَّ عنقَ السبُع عظمٌ واحدٍ، ضعفُه عن تصريفه عنقَه، فلا يلتفت إلاّ معاً، فيسمَّى الأصيد.

٤١٧ - [أسنان الذئب والأفاعي]

وقال جِران العَوْدِ في الذئب: [من البسيط]

شدَّ المماضغَ منه كلَّ مُلْتَفَتٍ ... وفي الذِّراعين والخُرطومِ تسهيلُ(٢)

---

(١) مسند أحمد ٣/٢٣٣، والنهاية ٤/٨٩.

(٢) البيت من قصيدة تنسب إلى أكثر من شاعر، فهو من قصيدة لجران العود في ديوانه ٥٤-٦٠، وهو من قصيدة لابن مقبل في ديوانه ٢٧٠، وفي ديوان جران «وتروى لقحيف العقيلي، وقال خالد: هي لحكم الخضري». وانظرتعليق محقق ديوان ابن مقبل. شد المماضغ: أي شد أضراسه على ولد البقرة. كل منصرف: أي من كل ناحية من جانبي ولد البقرة. تسهيل: طول.

وقالوا في أسنان الذئب وفي أسنان بعض الحيَّات بأنَّها مَمطُولة[1] في الفكّين، يُذْهَبُ إلى أنّه عظمٌ مخلوق في الفك، وأنّه لا يُثْغِر. وأنشدوا: [من السريع]

مُطِلْنَ في اللَّحْيينِ مَطلاً إلى رأسٍ وأشداقٍ رحيباتِ

والحيَّاتُ توصَف بسعة الأَشداق، والأفاعي خاصَّة هي المنعوتة بذلك.

وقال الشاعر - وهو جَاهلي -: [من الكامل]

خُلقَتْ لَهَازِمُهُ عزِينَ وَرأسُهُ كالقُرص فُلطحَ من طحينِ شَعيرِ[2]

ويَديرُ عَيناً للوِقَاع كأنها سمراءُ طاحت من نَفيضِ بَريرِ[3]

وكأنّ شِدقيه إذا استعرضتَه شِدْقَا عَجُوزٍ مَضْمَضَتْ لطَهورِ

٤١٨ - [مما أشبه فيه الكلبُ الإنسان والأسد]

وممَّا أشبَه فيه الكلبُ الإنسان والأسد، أنّ كلّ واحد من هذه الأجناسِ إنَّما له بطنٌ واحد، وبعدَ البطنِ المعَى، إلا أنَّ بعضَ بطنها أعظمُ من بعض، ويناسبها في الذي ذكرنا الذئبُ والدُّبّ، فما أكثَرَ ما يناسبان الكلب، فلذلك صارا يتناكحان ويتلاقحان. وهذا قول صاحب المنطق. قال: وأمعاء الكلب أشبهُ شيءٍ بأمعاء الحيَّة، وهذا أيضاً مما يزيدُ في قدره، لأنّه إمّا أن يشبه الإنسانِ، وإمَّا أنْ يشبه رؤساء السباع ودواهي الحشرات، وكلّما كانت هذه المعاني فيه أكثر كان قدره أكبر.

٤١٩ - [احتلام الحيوان]

قال: والكلب يحلمُ ويحتلم، وكذلك الفرس والحمار، والصبيُّ يحلم ولا يحتلم، والثَّور في هذا كله كالصبيّ. ويعرف ذلك في الكلب إذا تفزَّعَ وأنعَظ.

وزعم أنَّ الاحتلامَ قد عُوين من الفَرس والبِرذون والحمار.

٤٢٠ - [الحيوان الذي يطاول عند السفاد]

قالوا: وليس العظال والتحام الفرجين إلاّ في الكلب والذئاب، ومَن أراد أن يُفرِّق بينَ الكلاب إذا تعاظلَت وتسافدت رامَ أمْراً عسيراً.

---

(١) ممطولة: أي ممتدة داخلة.

(٢) الأبيات أنشدها أبو مهدية في الأصمعيات ١٢٣، ولابن احمد البجلي في اللسان (فرطح)، والتنبيه والإيضاح ١/٢٥٨-٢٥٩، والأول له في التاج (فرطح)، واللسان (عزا)، ولرجل من بلحارث بن كعب في اللسان (فلطح)، والتهذيب ٥/٣٢٩، ولأبي مهدية في الجمهرة ٥٤٩ (٢/١٧١)، والأول والثالث بلا نسبة في ديوان المعاني ٢/١٤٥، والأول بلا نسبة في العين ٢/٢٠٥، وأساس البلاغة (عزو)

(٣) البرير: ثمر الأراك إذا اسود وبلغ.

قالوا: والحيوان الذي يطاوِل عند السِّفاد معروف، مثل الكلب والذئب والعنكبوت والجمل، وإن لم يكن هناك التحام. وإذا أراد العنكبوت السفادَ جلَبت الأنثى بعض خيوطِ نسْجها من الوسط، فإذَا فعلت ذلك فعَل الذكَر مثلَ ذلك، فَلاَ يزالانِ يتدانيان حتى يتشابكا فيصير بطنُ الذَّكر قُبالَةَ بطنِ الأنثى. وذلكَ شَبيهٌ بعادات الضفادع.

٤٢١ - [تلاحم الذئب والذئبة عند السفاد]

وقال أبو الحسن عنْ بعض الأعراب، قال[١]: إذا هَجَم الرَّجلُ على الذِّئب والذِّئبة وهمايتسافدان، وقد التحَمَ الفَرْجان، قتلَهما ذلك الهاجم عليهما كيف شاءَ، لأنَّهما قليلاً ما يُوجدَان كذلك، لأنَّ الذئب وحشيٌّ جداً وشَهيٌّ[٢] جداً، صاحبُ قفرة[٣] وخلوة، وانفرادٍ وتباعد، وإذا أراد الذِّئبة توخَّى موضعاً من القِفار لا يطؤه الأَنيس، خوفاً على نفسه، وضنًّا بالذي يَجد في المطاولة منِ اللّذة.

وحدَّثني أحمد بنِ المثَنَّى قال: خرجتُ إلى صحراء خوخ لجنايَةٍ جنيتها وخفْتُ الطَّلب، وأنا شابٌّ، إذْ عرض لي ذئب فكنْتُ كلّما دُرْت من شِقّ استدارَ بي، فإذَا دُرْت له دَارَ من خلْفي، وأنا وسْطَ بَرِّيّة لا أجد مُعيناً إلاّ بشيء أسند إليه ظهْري، وأصابَني الدُّوار، وأيقنْتُ بالهلَكة. فبينا أنَا كذلك وقد أصابني ما أصابني – وذلك هو الذي أراده الذِّئبُ وقدَّره – إذا ذئبةٌ قد عرَضت، وكان من الصُّنع وتأخير الأَجَل أنَّ ذلك كان في زمن اهتياجها وتسافُدها، فلما عايَنها تركَني وقصَدَ نحوها، فما تَلَعْثَمَ[٤] أنْ ركبها. وقد كنتُ قرأتُ في بعضِ الكتب أنَّها تلتحم، فَفوَّقت سهْمِي وهما ينظران إليَّ، فلمَّا لم أرَ عندهما نكيراً حقَّقَ ذلك عندي ما كان في الكتاب من تلاحُمِهما، فَمشَيْت إليهما بسَيفي حتَّى قتلتهما.

٤٢٢ - [زمان تلاقح الكلاب والخنازير]

قال: ومما يُعَدُّ للكلاب أنَّها كثيراً ما تُلقحُ وتَلقَح لحال الدِّفء أو الخِصب، والكلبُ والخنزير في ذلك سواء، ولا يكاد غيرُهما من الأصناف يتلاقح فيَ ذلك الزمان. فالكلبُ كما ترى ينازع أيضاً مواضع الإساءة والمحاسن في جميع الحيوان.

---

(١) ربيع الأبرار ٥/٤١٨.

(٢) شهي: شديد الشهوة.

(٣) ربيع الأبرار ٥/٤١٩.

(٤) ما تلعثم: ما لبث.

٤٢٣ - [أسوأ ما يكون الحيوان خلقاً]

قال: وإناثُ الكلاب تصعُب أخلاقُها إذا كانَ لها جراء . وكلُّ شيء له بَيضٌ أو جراء أو فِراخٌ فأسوأُ ما يكون خُلقاً وأنزقُ وأكثرُ مايكون أذًى وأعْرَمُ – إذا كان كذلك، إلاَّ إناث البقَر.

والكلب كلما كان أسنَّ كانَ صوتُه أجهرَ وأغلظ.

٤٢٤ - [سن تزاوج الكلاب]

قال: والكلب ينزو إذا تمَّت له ستَّةُ أشهر، وربَّما كان ذلك منه وهو ابن ثمانية أشهر . والكلبةُ الأنثى تحمِل واحداً وستين يوماً، أطولَ ما يكون، ولا تضعُ قبل أن يتمّ لحملها ستُّون يوماً، ولاَ يبقى الجرْو ولا يتربّى إذا قصَّر عن ذلك، والأنثى تصلح أن يُنزَى عليها بعد ستَّة أشهر

٤٢٥ - [ولد البكر أصغر جثة]

والكلبة والحجْر[١] والمرأةُ وغير ذلك، يكون أوَّلُ نِتاجها أصغرَ جُثّة، وكذلك البَيْضُ إذا كان بكراً، وكذلك ما يخرج منه من فرُّوج أو فرخ.

٤٢٦ - [سفاد الكلاب]

وذُكور الكلاب تَهيج قبل الإناث في السّنّ، والإناث تهيج قبلها في وقت حركتها، وكلما تأخَّر وقت الحدث إلى تمام الشَّباب كان أقوى لولده.

والكلابُ لا تريد السِّفاد عُمرها كله، بل إلى وقت معلوم .

وهي تلقح إلى أن تبلغ ثمانيَ عشرة سنة، وربما انْتَدَرت الكلبة فبلغت العشرين.

والكلابُ أجناسٌ كثيرة: الكلب السلوقيُّ يَسفَد إذا كان ابن ثمانية أشهر، والأنثى تطلب ذلك قبل الثمانية، وذلك عند شغُور الذكر ببوله. والكلبة تحمِل من نزْوٍ واحد. وقد عرف ذلك الذين عرفوا الكلاب وحضروا ليعرفوا ذلك. قال: والكلبة السَّلوقيَّة تحمل سُدْس السنة ستِّين يوماً، وربَّما زادت على ذلك يوماً أو يومين. والجرو إذا وُضع يكون أعمى اثنَيْ عَشر يوماً ثمَّ يبصر، والكلبة تسفَد بعد وضعِها في الشهر الثاني، ولا تسفد قبل ذلك.

---

(١) الحجر: أنثى الخيل.

ومن إناث الكلاب ما تحمل خُمس السنة، يعني اثنين وسبعين يوماً، وإذا وضعت الجراء تكون عمياءَ اثنين وعشرين يوماً.

ومن أصناف الكلاب ما يحمل رُبع السنة، أعني ثلاثة أشهر، وتضع جراء وتبقى كذلك سبعة عشر يوماً، ثمَّ تُرضع جِراءَها على عدد أيَّامِها التي لا تبصر فيها.

وزعم أنَّ إناث الكلاب تحيضُ في كلِّ سبعة أيام[1]، وعلامة ذلك وَرَم أثفارِها، ولا تقبَل السفاد في ذلك الوقت، بل في السبعة التي بعدها ليكون ذلك تمامَ أربعَة عشرَ يوماً أكثرَ مايكون، وربما كان كذلك لتمام ستَّةَ عشرَ يوماً.

قالوا: وإنَاث الكلاب تُلقي بَعْدَ وضْع الجراءِ رُطوبَةً غليظةً بلغميَّة، وإذا وضَعتْها بعدَ الجراء اعتراها هُزال، وكذلك عامَّة الإناث. ولبَنهَا يظهَر في أطبائها قبل أن تضَعَ بخمسة أيامَ أكثر ذلك. وربما كثُر اللبنُ في أطبائها قبل ذلك بسبعة أيام، وربّما كان ذلك في مقدار أربعة أيام. ولبنها يظهَر ويجود إذا وَضَعَتْ من ساعتها. قال: فأمَّا السلوقيّة فيظهر لبنها بعد حملها بثلاثين يوماً، ويكون لبنُها أوَّلَ ما تضعُ غليظاً، فإذا أزمن رقَّ ودقَّ. ولبنُ الكلابِ يخالف لبن سائرِ الحيوان بالغلظ، بعد لبن الخنازير والأرانب.

وقد تكون علامة مبلغُ سفادها مثلَ مَا يعرِض للنِّساءِ من ارتفاع الثَّديين. ومعرفة ذلك عسيرة، وهذه علامَات تظهر لإنَاث الكلاب. وذكورةُ الكلاب ترفع أرجلَها وتبول لتمام ستَّة أشهر، ومنها مَا لا يفعل ذلك إلى أن يبلغ ثمانية أشهر، ومنها مَا يعجِّل قبل ذلكَ. قال: ونقول بقولٍ عامٍّ إنَّ الذكورَ تفعلُ ذلك إذا قويت، فأمّا الإنَاث فهي تبول مُقْعية، ومنها مَا تشغَر.

وأكثرُ ما تضعُ الكلبةُ اثنا عَشَر جرواً، وذلك في الفَرْط، وأكثر ذلك الخمسة والسّتة، وربّما وضعت وَاحداً[2]. فأمَّا إناث السلوقيَّة فهي تضعُ ثمانيةَ أجراء، وإنَاثُها وَذكورُها تسفَد ما بَقيَتْ، ويَعرِض للكلاب السلوقيَّة عَرَض خاصٌّ: وَهي أنَّها كلَّما بقيت كانت أقوى على السِّفاد.

٤٢٧ - [أعمار الكلاب]

وذكورة السلوقَّية تعيش عشرَ سنين، والإناث تعيش اثنتي عشرة سنة، وأكثر أجناس الكلاب تعيش أربعَ عشرة سنة. وبعض الأجناس تبقى عشرين سنة[3].

---

(١) ربيع الأبرار ٥ / ٤٢١.
(٢) ربيع الأبرار ٥ / ٤٢١.
(٣) ربيع الأبرار ٥ / ٤٢٢.

قال: وإناث الكلاب أطولُ أعماراً من الذكور، وكذلك هي في الجملة، وليس يُلقي الكلب من أسنانه سنًّا ما خلا النَّابين، وإنَّما يلقيهما إذا كان ابنَ أربعة أشهر.

قال: ومن أجْل أنَّ الكلابَ لا تُلقي غيرَ هذين النَّابين يشكُّ بعض الناس أنها لا تلقى سِنًّا البتّة.

٤٢٨ - [أمراض الكلاب]

قال[١]: وللكلاب ثلاثة أصناف من المرض، وأسماؤها: الكلَب بفتح اللام، والذبحَة، والنقرس. والكلَب جُنون، فإنْ عرَض لشيء من الحيوان كَلَبٌ أيضاً أماته، ماخلا الإنسان. وهو داءٌ يقتل الكلاب، وتقتُل به الكلابُ كلَّ شيء عضّته، إلاّ الإنسان فإنّه يعالج فيسْلَم.

قال : وداء الكلَب يعرِض للحمار، فأمَّا الجنون وذَهابُ العقل فإنّه يصيبُ كلَّ شيء، فمن ذلك ما يصيب الدوابَّ، فإنَّ منها مَا يُصرعَ كما يُصرع المجنون. والسائس من الدواب: الذاهب العقل .

٤٢٩ - [صرع أعين الطبيب]

وقد كان شأن أَعين الطبيب عَجَباً، وذلك أنّه كان يُصرع، واتَّفق أنّه كان له بغلٌ يصرع، فكان ربَّما اتّفق أن يُصرَعا جميعاً[٢]! وقد رأى ذلك كثير من أصحابنا البصريِّين.

٤٣٠ - [الصَّرْعُ عند الحيوان]

والصَّرْع عامٌّ في الحيوان، ليس يسلم منه صنف منها حتَّى لا يعرض له منه شيء. والإنسان فوق جميع الحيوان تعذيباً، وكذلك هو في العقل والمعرفة والاحتيال له، مع دفع المضرّة واجتلاب المنفعة، ومَا أكثر مَا يعتريهم ذلك . ومن ذلك مَا يذهب، ومن ذلك ما لا يذهب.

٤٣١ - [صرع الفضلاء]

وقد كان بَخْتيَشوعُ المتطبِّب عرَض له ذلك، وقد كان عرض لعبد الملك بن قُريب فذهب عنه. وربَّما عرض للرّجل الذي لا يُظَنُّ به ذلك في بيان ولا تبيين، ولا

---

(١) ربيع الأبرار ٥ / ٤٢٢.

(٢) رسائل الجاحظ ٢ / ٢٦٤.

في أدبٍ، ولا في اعتدالٍ من الأخلاط، والصحَّة من المزاج، ثُمَّ لا يعرض من ذلك إلاَّ ما لا حيلةَ له فيه، كما كان يعرض لبشر بن أبي عمرو بن العلاء النحويِّ المازنيّ وكما عرض لعبد الرحمن ومنصور الأسدِّيين، فما زالا كذلك حتَّى ماتَا، ولم يبلغنا أنهما صُرِعا.

٤٣٢ - [الموتَة]

والمُوتَة[١] جنسٌ من الصَّرْع، إلاَّ أَنَّ صاحبَه إذا أفاقَ عاد إلى كمال عقله كالنائم والسكران والمغشيِّ عليه، وإن عاش صاحبُ المُوتة في ذلك مائة عام.

وليس يلقى شيءٌ من الحيوان في هذا الباب كما يلقَى الوَرَشان.

٤٣٣ - [تباين درجات السُّكْر لدى الحيوان]

وأَمَّا السُّكْر فليس شيءٌ من الحيوان إلاَّ وهو يسكر، واختلاف سكره كاختلاف سكر الإنسان، فإنَّ من الناسِ مَن تراه يتحدَّث وهو يشرَب فلا تنكر منه شيئاً، حتَّى يغلب عليه نوم السُّكر ضربةً واحدة، ومنهم من تراه والنبيذ يأخذُ منه الأوَّلَ فالأوَّل، وتراه كيف تَثقُل حركتهُ، ويغلُظُ حسُّه ويتمحَّق، حتى يَطيش عليه السُّكرُ بالعبث، ويطبقَ عليه النوم. ومنهم مَن يأخذُه بالعَبث لا يعدُوه. ومنهم من لا يرضى بدون السَّيف، وإلا بأن يضرب أمَّه ويطلِّق امرأته. ومنهم مَن يعتريه البكاء، ومنهم مَن يعتريه الضَّحك، ومنهم مَن يعتريه الملَق والتَّفديةُ، والتَّسليمُ على المجالس، والتَّقبيلُ لرؤوس الناس، ومنهم من يرقصُ ويثِب، ويكون ذلك على ضربين: أحدهما من العَرْض[٢] وفضل الأشَر[٣]، والآخر تحريك المرارة، وهي علَّةُ الفساد وهيَجان الآفة.

وكلُّ هذه الحالات والصّور، والنعوت، والأجناس، والتوليد، الذي يختلف في طبائع الناس، وطبائع الأشربة، وطبائع البُلدان والأزمان والأَسنان، وعلى قدر الأَعراق والأَخلاق، وعلى قدر القلَّة والكثرة، وعلى قدر التصريف والتوفيق، قد وجدوه في جميع أصناف الناس والحيوان، إلاَّ أَنَّ في الناس واحدةً لم تُوجَد في سائر الحيوان قطُّ، فإنَّ في الناس من لا يسْكَر البتّة، كان [منهم] محمد بن الجهم وأبو عبد اللّه العَمِّيُّ.

---

(١) الموتة: الغشي والظنون.

(٢) العرض: الجنون وذهاب العقل.

(٣) الأشر: المرح.

وكان بين عقل زبيد بن حُميد إذا شرب عشْرة أرطال، وبين عقله إذا ابتدأ الشرب، مقدارٌ صالح.

٤٣٤ - [سكْرُ العمّيّ]

وإمَّا العَمّيّ فإنَّ بني عبد الملك الزياديِّين دعَوني مرَّةً ليعَجِّبوني منه، ولم ينبِّهوني على هذه الخاصَّة التي فيه، لأكون أنا الذي أنتبه عليه، فدخلت على رجلٍ ضخمٍ فَدْم(١) غليظ اللسان، غليظ المعاني، عليه من الكلام أشل المؤنة، وفي معانيه اختلافٌ، ليس منها شيٌ يواتي صاَحبَه ولاّ يعاونُه ولا يشاركُه ولا يناسبه، وحتَّى ترى أنَّ أذنه في شِقٍّ ولسانَه في شقٍّ، وحتَّى تظنَّ أنّ كلامه كلامُ محمومٍ أو مجنون، وأنَّ كلَّ واحد منهما يقطع نظام المعاني، ويخلط بين الأسافل والأعالي. فشرب القوم شُربَ الهيم(٢)، وكانت لهم أجسادٌ مدْبرة، وأجوافٌ منكَرة، وكنتُ كأنِّي رجلٌ من النَّظَّارة. فما زال العمِّي يشرَب رِطلاً، ويرقُّ لسانُه، وينحلُّ عَقْده(٣)، ويصفو ذهنُهُ، ويذهب كدره. ولو قُلْتُ إنِّي لم أرَ مثلَه حُسْنَ نفسٍ كنتُ صادقاً. فالتفت إليَّ القومُ أجمعُهم فقالوا: لولا هذا العَجَب مَا عَجَّبْنَاك اليومَ معَ حداثة عهدنا بك.

وزعم العمِّيُّ وكان كثيرَ المنازَعة عند القضاة، أنَّه كان إذا قارب العشرةَ الأرطال ثمّ نَازَعَ الخصومَ، كان ذلك اليومُ الذي يفوت فيه ذَرْعَ الخصوم(٤) لِلَحَنِ بحجَّته(٥)، ويستميل فيه رأيَ القاضي المنعقد في مجلسه الطويل، القطوبِ في وجهِ مَن نازع إليه.

وقال الشاعر: [من الطويل]

وجدتُ أقلَّ النَّاس عقلاً إذا انتشي ... أقلَّهُمُ عقلاً إذا كانَ صاحيا(٦)
تزيدُ حُسَى الكاس السَّفِيهَ سَفاهةً ... وتَتْرُكُ أخْلاَقَ الرِّجالِ كما هِيا(٧)

قال: وهذا شعر بعضِ المولَّدين، والأعاريبُ لا تُخطئ هذا الخطأ؛ قد رأينا أسْفَهَ الناس صاحياً أحلم الناس سكران؛ وهو مِرداسٌ صاحب زهير، ورأينا أحسنَ

---

(١) الفدم: الأحمق.
(٢) الهيم: الإبل العطاش.
(٣) عقدة: بمعنى قوته.
(٤) فات ذرعهم: غلبهم.
(٥) اللحن: أن يفطن المرء لحجته.
(٦) البيتان لأبي نواس في ديوانه ٢١٣، وبلا نسبة في ديوان المعاني ١/٣٢٤.
(٧) رواية صدر البيت في الديوان (تزيد سفيه القوم فضل سفاهة). الحسى: جمع حُسوة، وهي المرة من الحسو.

النَّاس خُلقاً وأوزنَهم حلماً، حتَّى إذا صار في رأسه رِطلٌ كان أخفَّ من فَرَاشة[1]، وأكثرَ نزواً من جَرادةٍ رَمِضة[2]، فإنَّ المثَلَ بها يُضرَب.

٤٣٥ - [سبب مَا له عرَفَ المعتزلة سكرَ البهائم]

وكان سببُ ما لَهُ عرَف أصحابُنا سكْر البهائم . أنَّ محمَّدَ بنَ عليٍّ بنِ سليمانَ الهاشميَّ لمَّا شرب على علُّويه كلب المطبخ، وعلى الدُّهمان، وعلى شُرَّاب البصريِّين، وعلى كُلٍّ من نزَع إليه من الأقطار، وتحدَّاه من الشرَّاب الجوَادٌ من الشُّرَّاب، أحَبَّ أن يشْرَب على الإبل من البَخاتيِّ والعِراب، ثُمَّ عَلَى الظِّلف من الجواميس والبقر، ثم على الخيل العتاق والبرَاذين، فلَمّا فرَغ من كلٍّ عظيمِ الجثة واسع الجُفْرَة[3]. صار إلى الشاء والظِّباء، ثمّ صار إلى النُّسور والكلب وإلى ابن عرس، وحتَّى أتَاهم حاوٍ فأرغبوه، فكان يحتال لأفواه الحيَّات حتَّى يصبَّ في حاقٍّ[4] أجوافِها بالأقماع المدنيّة، وبالمَسَاعط، ويتَّخذ لكلِّ شيءٍ شكله، وكان ملكاً تواتيه الأمور، وتُطيعه الرجال، فأبصَرُوا تلك الاختلافاتِ في هذه الأجناس المختلفة.

٤٣٦ - [نعت النّظام]

فخبّرني أبو إسحاقَ إبراهيمُ النَّظام، وقد كان جالسَهُ حيناً - وكان إبراهيمُ مأمونَ اللِّسان، قَليلَ الزَّلَل والزَّيغ في باب الصدق والكذب . ولم أزعم أنَّه قَليلُ الزَّيغ والزَّلل على أنَّ ذلك قد كان يكونُ منه وإن كان قليلاً، بلْ إنَّما قُلتُ عَلَى مثل قولك: فلاَنٌ قَليل الحياء، وأنتَ لستَ تريد هناك حياءً البتة، وذلك أنَّهم ربَّما وَضعوا القليلَ في موضع ليس. وإنما كان عيبُهُ الذي لا يفارقه سوءَ ظنِّه، وجَودةَ قياسه عَلَى العارض والخاطر والسابق الذي لا يُوثَق بمثله. فلو كان بدَلَ تصحيحه القياسَ التَمَسَ تصحيحَ الأصل الذي كان قاس عليه أمرَه على الخلاص، ولكنَّه كان يظنُّ ثمَّ يقيس عليه وينسى أنَّ بدءَ أمرِه كان ظَنّاً فإذا أتقنَ ذلك وأيقنَ، جزَم عليه، وحكاهُ عن صاحبه حكايَةَ المستبصر في صحَّة معناه. ولكنّه كان لا يقول سمعت، ولا رأيت. وكان كلامُه إذا خرج مخرج الشَّهادةِ القاطعة لم يشُكَّ السامعُ أنّه إنَّما حكى ذلك عن سماعٍ قد امتحنه، أو عن معاينةٍ قد بهرته.

---

(١) مجمع الأمثال ١/٢٥٤، والمستقصى ١/١٠٤، وجمهرة الأمثال ١/٤٢٨.

(٢) في الأمثال: (أنزى من جرادة) والمثل في المستقصى ١/٣٠٩، وبرواية: (أنزى من جراد) في مجمع الأمثال ٢/٣٥٦، ٣٩٢، وجمهرة الأمثال ٢/٣٢٣. الرمضة: التي أصابها الرمض، أي شدة الحر.

(٣) الجفرة: جوف الصدر، ومن الفرس وسطه.

(٤) حاق: وسط.

٤٣٧ - [الظبي أملح الحيوان سكراً]

فحدَّثني إبراهيمُ قال: شهدتُ أكثرَ هذه التَّجربة التي كانت منهم في إسكار البهائمِ وأصنافِ السباع، ولَقَد احتالَ لأسد مقلّم الأظفار يُنادى عليه: العجَب العجب!! حتى سقاه وعرف مقدارَه في الاحتمال، فزعمَ، أنّه لم يجدْ في جميعِ الحيوان أملحَ سُكْراً من الظَّبي. ولولا أنَّه من الترفُّه لَكنتُ لايزال عندي الظَّبيُ حتَّى أسكره وأرى طرائفَ مايكون منه.

٤٣٨ - [التعلم والجرأة عند بعض الحيوان]

قال: وإناث الكلابِ السَّلُوقيَّة أسرعُ تعلُّماً من الذُّكورة.

قال: وجميع أصناف السباع ذُكُورتُها أجرأُ وَأمضى وأقوى، إلاَّ الفَهْدة والذِّيبَة.

والعامَّة تزعم أنَّ اللَّبُؤة أجرأُ من الأسد، وليس ذلك بشيء، وهو أنزَقُ وأَحَدُّ، وأفرَقُ من الهَجْهجَة[١]، وأبعَدُ من التصميم وشدَّة الصَّولة.

٤٣٩ - [بين عروة بن مرثد وكلب حسبه لصّاً]

قال بِشر بن سعيد[٢]: كان بالبَصرة شيخٌ من بني نَهشَلٍ يقال له عُروة بن مَرْثد، نزل ببني أختٍ له في سكَّة بني مازن، وبنو أخته من قُريش، فخرج رجالُهم إلى ضياعهم وذلك في شهرِ رمضان، وبقِيت النِّساءُ يصلِّين في مسجدهم، فلم يبق في الدار إلاّ كلب يعُسُّ، فرأى بيتاً فدخل وانصفق الباب، فسمِع الحركةَ بعضُ الإماءِ فظَنُّوا أنَّ لصّاً دخل الدار فذهبتْ إحداهنَّ إلى أبي الأعزّ، وليس في الحيِّ رجلٌ غيره، فأخبرتْهُ فقال أبو الأعزِّ: ما يبتغي اللصُّ منَّا؟! ثمَّ أخذَ عصاهُ وجاء حتَّى وقفَ على باب البيت فقال: إيه يا مَلأمَان[٣]! أما والله إنَّك بي لعَارف، وإنِّي بك أيضاً لعارف، فهلَ أنتَ إلا من لُصوصِ بني مازن، شربتَ حامضاً خبيثاً، حتَّى إذا دارت الأقداحُ في رأسك منَّتْك نفسُكَ الأمانيَّ، وقلتَ دُورَ بني عمرو، والرِّجالُ خُلوف، والنِّساء يصلِّين في مسجدهنَّ، فأسرقهنَّ! سَوءَةٌ والله، ما يفعل هذا الأحرارُ! لبئْسَ والله ما منَّتك نفسُكَ! فاخرجْ وإلاَّ دخلتُ عليك فَصرَمَتْك منِّي العُقوبة! لايمُ الله لَتَخرُجَنَّ أو لأهتفَنّ هتْفةً مشؤومةً عليك، يلتقي فيها الحيَّانِ: عمرو وحنظلة، ويصيرُ أمرُك إلى

---

(١) الهجهجة: الصياح.

(٢) ورد الخبر في عيون الأخبار ١/١٦٧-١٦٨، دون ذكر اسم الراوي.

(٣) ملأمان: لئيم.

تباب، ويجيء سعدٌ بعَدَد الحصى، ويَسيل عليك الرِّجالُ من هاهنا وهاهنا!! ولئن فعلتَ لتكونَنَّ أشأمَ مولودٍ في بني تميم!! فلما رأى أنَّه لايجيبُه أخَذَهُ باللِّين وقال: اخرجْ يا بُنَيَّ وأنتَ مستور، إنِّي والله ما أُرَاك تعرِفُني، ولو عرفتَني لقد قنعتَ بقولي واطمأننت إليَّ، أنا عُروة بن مَرثد أبو الأعَزِّ المَرثَدِيُّ، وأنا خالُ القومِ وجِلدةُ ما بين أعينهم لا يعصُونَني في أمر، وأنا لك بالذِّمة كفيلٌ خفير، أصيِّرك بين شحمةِ أذني وعاتقي لا تُضارّ، فاخرج فأنتَ في ذِمَّتي، وإلا فإنَّ عندي قَوْصرَّتَين[1] إحداهما إلى ابن أختي البارِّ الوَصُول. فخذْ إحداهما فانتَبِذْها حلالاً من الله تعالى ورسوله ﷺ.

وكان الكلبُ إذا سمعَ الكلامَ أطرقَ، وإذا سكت وثَب يُريغُ المخرج، فتهافت الأعرابيُّ، أيْ تساقط[2]، ثمَّ قال: يا ألأمَ الناسِ وأوضَعَهم، ألا يأْنِي لك أنَّا منذُ الليلة في وادٍ وأنتَ في آخر، إذا قلتُ لك السَّوداءَ والبيضاء تسكتُ وتطرِق، فإذا سكتُّ عنكَ تَريغُ المخرج؟! والله لتخرُجَنَّ بالعَفو عنك أو لألجَنَّ عليك البيت بالعُقوبة! فلما طال وقوفُه جاءَتْ جَاريةٌ من إماء الحيِّ فقالت: أعرابيٌّ مجنون!! والله ما أرى في البيت شيئاً!! ودفعت البابَ فخرج الكلبُ شدّاً، وحادَ عنه أبو الأعزّ مستلقياً، وقال: الحمدُ لله الذي مَسَخك كلباً، وكفاني منك حرباً!! ثم قال: تالله ما رأيتُ كاللَّيلة، ما أُراه إلاَّ كلباً !! أمَا والله لو علمتُ بحالِه لولَجت عليه.

٤٤٠ - [خصال الديك]

قال صاحب الديك: في الدِّيك الشّجاعَةُ، وفي الديك الصّبرُ عند اللّقاء، وهم لا يجدون الصَّبرَ تحت السِّياط والعصا، إلاّ أنْ يكون ذلك موصولاً بالصَّبر في الحرب على وقع السِّلاح.

وفي الدِّيَك الجَوَلان، وهو ضرب من الرَّوَغان، وجنسٌ من تدبير الحرب، وفيه الثَّقافةُ والتسديد[3]؛ وذلك أنَّه يقدِّر إيقاع صِيصِيَته[4] بعين الديك الآخر ويتقرَّب إلى المذبح فلا يخطئ.

وهم يتعجَّبون من الجزَّار، ويضربون به المثل إذْ كان لايخطئ اللَّبَّة، ومن اللحَّام إذا كان لايخطئ المَفْصِل، ولذلك قالوا في المثل: «يطبِّق المحَزَّ ولايخطئ

---

(١) القوصرة: وعاء للتمر.

(٢) تساقط: تخاذل.

(٣) الثقافة: الحذق. التسديد: صدق الإصابة.

(٤) الصيصة: شوكة في رجل الديك

المَفْصِل!»[١]. وهذا القولُ يذمُّون به ويَمْدحون. والديك في ذلك أعجبُ، وله مع الطَّعنة سرعة الوَثْبة، والارتفاع في الهواء. وسلاحه طَرِير[٢]، وفي موضع عجيب، وليس ذلك إلاّ له، وبه سمّى قَرْن الثور صِيصِيَة، ثم سمَّوا الآطام[٣] التي كانت بالمدينة للامتناع بها من الأعداء صياصِيَ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾[٤]. والعَرَبُ تسمِّي الدَّارع وذا الجُنَّة[٥] صاحبَ سلاح، فلما كان اسم سلاح الديك وما يمتنع به صِيصِيَة، سمَّوا قرنَ الثور الذي يجْرَح صيصيَة. وَعلى أنّه يشبِّه في صورته بصيصِية الديك وإن كان أعظم. ثمَّ لمَّا وجدوا تلك الآطامَ معاقِلهم وحصونَهم وجُنَّتَهم، وكانت في مجرى التُّرس والدرع والبَيضة، أجروها مُجْرَى السلاح، ثم سمَّوها صياصي. ثمَّ أسمَوْا شوكةَ الحائك التي بها تهيَّأُ السَّدَاة واللُّحمة صِيصِيَةً إذْ كانت مشبَّهة بها في الصورة، وإنْ كانت أطولَ شيئاً؛ ولأنَّها مانعةٌ من فساد الحَوْك والغَزْل؛ ولأنَّها في يده كالسلاح، متى شاءَ أن يجأ بها إنساناً وجأه به[٦].

وقال دُريد بن الصِّمَّة: [من الطويل]

نَظَرْتُ إِلَيْهِ والرِّمَاحُ تَنُوشُهُ   كَوَقْعِ الصَّيَاصِي في النَّسِيجِ المُمَدَّدِ[٧]

٤٤١ - [استطراد لغوي]

وقد تسمِّي العربُ إبرة العقرب شوكة، كما تسمِّي صيصِيَة الديك شوكة، وهي من هذا الوجه شبيهةٌ بشَوك النَّخل.

ويقال لمن ضربته الحُمْرة. قدْ ضربته الشَّوكة؛ لأنَّ الشَّوكةَ إذا ضربت إنساناً، فما أكثرَ ما تعتريه من ذلك الحمرةُ.

---

(١) في مجمع الأمثال ١/٥٧: (إنك لتكثر الحزّ وتخطئ المفصل).

(٢) سلاح طرير: محدد ماضٍ.

(٣) الآطام: الحصون من الحجارة.

(٤) ٣٦/ الأحزاب: ٣٣.

(٥) الدارع: لابس الدرع، وهو ثوب حديدي. الجنة: ما يحمله المرء ليقي نفسه.

(٦) وجأ: ضرب وطعن.

(٧) ديوان دريد بن الصمة ٤٨، والأصمعيات ١٠٩، واللسان (نوش، صيص، شيق، صيا)، والعين ٧/١٧٦، والتاج (صيص)، والتهذيب ١٢/١٦٦، وبلا نسبة في الجمهرة ٢٤٢، والمخصص ١٢/٢٦٠، وراجع المزيد من مصادر البيت في ديوانه.

وقد قال القَطاميُّ في تسمية إبرة العقرب شَوكة: [من الطويل]

سرى في جَليدِ الأرْضِ حتَّى كأنّما تخزم بالأطراف شوك العَقاربِ[1]

وتُوصف الحجْر[2] وتشبَّه بالشَّوكة؛ لأنَّ الشَّوكة غليظةُ المآخِر، لطيفة المَقادم. والشَّوكُ والسُّلاّءُ سواءٌ. وقال في ذلك عَلْقمة بن عَبدة يصف الحِجْر: [من البسيط]

سُلاّءَة كعصَا النَّهْدِيِّ غُلَّ لها ذُو فَيئة مِنْ نَوَى قُرّان مَعْجومُ[3]

ومن سمَّى إبرة العقرب حُمَة فقد أخطأ. وإنَّما الحُمة سمومُ ذواتِ الشعر كالدَّبْر[4] والزَّنَابير، وذوات الأنياب والأسنان كالأفاعي وسائر الحيات، وسموم ذوَاتِ الإبر من العقارب. فأمّا البيشُ[5] وما أشبهه من السُّموم، فليس يقال له حُمَة.

وها هنا أمور لها سمومٌ في خراطيمها، كالذِّبَّان والبَعوض وأشياءُ من الحشرات تَعضُّ وربَّما قتلت، كالشَّبَث[6] وسامِّ أبرَصَ. والطِّبُّوعُ[7] شديد الأذى، والرُّتَيْلاء[8] ربما قتلت، والضَّمج[9] دون ذلك، وعقارب طيَّارةٌ: ولم نرهم يسمُّون جميع السُّموم بالحُمة، فقلْنا مثل ما قالوا، وانتهينا إلى حيثُ انتهوا.

وقد يُعرفُ بعضُ النّاس بأنّه متى عضّ قَتَل، كان منهم صفوان أبو جشَم الثّقَفيّ، وداودُ القَرَّاد.

وسيقَع هذا البابُ في موضعه على ما يمكننا إن شاء الله تعالى.

والناس يسمُّون الرَّجلَ إذا بلغ مِنْ حرصه ألاّ يدع ذكراً، غلاماً كان أو رجلاً،

---

(١) ديوان القطامي ٤٧، واللسان والتاج (وكع، خزم)، والعين ٢ / ١٨٢، وأساس البلاغة (شوك).

(٢) الحجر: أنثى الخيل.

(٣) ديوان علقمة ٧٤، واللسان (سلأ، قرر، سلل، غلل، عجم)، والتاج (سلأ، فيأ، قرر، سلل، غلل)، والمخصص ٦ /٥٩، ٨ /١٦٢، ١٦ /٣٨، وبلا نسبة في التهذيب ١ /٣٩٢، والجمهرة ١٠٧٤، والمقاييس ٤ /٣٧٧، والعين ٥ /٢٣، والمجمل ٤ /٧.

ذو فيئة: ذو رجعة. قران: قرية باليمامة مشهورة بالنخل. معجوم: ممضوغ.

(٤) الدَّبر: جماعة النحل.

(٥) البيش: نبات سام.

(٦) الشبث: العنكبوت ودويبة كثيرة الأرجل.

(٧) الطبوع: صغار القردان.

(٨) الرتيلاء: ضرب من العناكب.

(٩) الضمج: دويبة تلسع، وهي ما يعرف بالبق.

وخَصياً كان أو فحلاً، إلاّ نكحه من فَرْط غُلْمته، ومن قوّة فحلَته: صيصيَة. ويقولون: ما فلانٌ إلا صيصيَة، وهو عندهم اسمٌ لمن اشتدَّ لِواطه؛ تشبيهاً منهم بصيصِية الديك في الحدَّة والصَّلابة.

٤٤٢ - [مزايا الديك]

وللديك انتصابُهُ إذا قام، ومباينتُه صورَةً في العين لصُورة الدجاجة، وليس هذا الفرقُ الواضحُ من جميعِ الإناث والذكور موجوداً إلاّ فيه، وليس ذلك للحمام والحمامة، ولا للحمار والحمارة، ولا للبِرذَون والرَّمَكة[١] ولا للفرس والحِجْر[٢]، ولا للجمَل والنَّاقة؛ وليس ذلك إلاّ لهذه الفحولة لأنّها كالرَّجل والمرأة، والتَّيسِ والظبية، والدِّيك والدَّجَاجة وكَالفُحَّال والنخلة المطعمة. الا ترى أنّك لو رأيتَ ناقةً مقبلة لم تدر أنَاقة هي أم جمل، حتى تنظر إلى موضع الثِّيل والضَّرْع، وإلى موضع الحيا. وكذلك العنز، وكذلك جميع ما وصفت، إلاّ أن يدّعوا أن للعامة أو لبعض الخاصة في ذلك خصوصيَّة . ولذلك ضربوا المثل بالتّيس والنخلة والفُحّال، فاشتقوا من هذا الفحل. وهذا أيضاً من خصال الدِّيك.

ثُمَّ للديك لحية ظاهرة، وليست تكون اللِّحى إلاّ للجمل فإنّه يوصف بالعثنون، وإلاّ للتَّيس وإلاّ للرَّجل. وقال الرَّاجز في الجمل: [من الرجز]

مختلط العُثنونِ كالتّيسِ الأَحَمّ   سامٍ كأنّ رأسَه فيه وَذم

إذْ ضمَّ من قطرَيه هياج قَطِم

ثمَّ الديك بعدُ صاحب اللِّحية والفرَق[٣]. وقالت امرأة في ولدها وزوجها: [من الرجز]

* أشهَبَ ذي رأسٍ كرأسِ الديك[٤] *

أمّا قولها أشهب، فإنّها تريد أنّ شعرَ جسده قد ابيضَّ من الكبَر، وإنّما جعلتْ شعرَ رأسه كرأس الديك لأنّه كان مخضوبَ الرأس واللّحية بالحُمْرة، ثُمَّ لم ترضَ له بشبه الرجَال من هذا الوجه حتَّى جعلتْ رأْسه أفرقَ، وذلك شيءٌ من الجمال والوقار والفضل، لايتَهيَّأ للناس مع كمالهم وتمامهم إلاّ بالتكلف والاحتيال فيه.

---

(١) الرمكة: أنثى الخيل الأعجمية.

(٢) الحجر: أنثى الخيل.

(٣) الفرق: انفراق العرف.

(٤) الرجز بلا نسبة في اللسان والتاج وأساس البلاغة (حنك)، والمخصص ٣/ ٢٣.

ثُمَّ يبلغ من شدّة تعجله ومن قوَّته على السِّفاد، وعلى الباب الذي يفخر به الإنسان إذا كان ذا حظٍّ منه وهو ممّا يُذْكي النَّفس - كنحو ما ذكر عن التّيس المراطيّ، وكنحو مَا تراهم يُبركون للبُخْتيّ الفالج عدّة قلاص[1]، فإذا ضَرَب الأُولى فخافوا عليها أن يحطِمها وهو في ذلك قد رمى بِمائه مراراً أفْلَته الرِّجَالُ على التي تليه في القرب، حتى يأتي على الثَّلاث والأربعِ على ذلكَ المثال. وما دعاهم إلى تحويله عن الثالثة إلى الرابعة إلاّ تخوفهم من العجز منه.

وزعم أبو عبد الله الأبرص العَمِّيُّ، وكان من المعتزلين، أنّ التَّيس المراطي قرَع في أول يومٍ من أوَّل هَيْجة نَيِّفاً وثمانين قَرعة.

والنّاسُ يحكون مايكون من العُصفور في الساعة الواحدةِ من العَدَد الكثير. والنّاس يُدخلون هذا الشكل في باب الفضْل، وفي باب شدَّة العَجلة وتظاهرِ القوَّة. والديك يكون له وحدَه الدّجاج الكثيرُ، فيُوسعها قمطاً وسفاداً.

وقد قلنا في حالة البيض الكثير التُّرابي وقلبه إيَّاه بسفادٍ إلى الحيوانيّة. وعلى أنّ الذي يَخصيه إنَّما يُخرج له من بين الزِّمكّي[2] وموضِع القطاة[3] بيضَتين عظيمَتين معروفتين.

وأنا رأيتُ ديكاً هنديّاً تسنَّم دَجَاجَة هنديّة فلم يتمكّنْ منها، فرأيت نطفته حينَ مجَّها - وقد زَلَق عَن ظهرها - على مَدَرة[4]، وكانت الدار مُثارَة[5] لتُجعَل بُستاناً، فإذا تلك المجَّة كالبَزْقة البيضاء، فأخذها بعضُ مَن كان معنا فشمَّها حين رأى بياضها وخَثورتها وكدرتها، ليعلم هل تناسب ريحُها ريحَ نُطفة الإنسان، وريحَ طَلع الفُحّال، فلم يجدْ ذلك.

ثمَّ معرفةُ الدِّيك باللَّيل وساعاته، وارتفاقُ بني آدم بمعرِفته وصوته: يعرفُ آناء الليل وعددَ الليل وعددَ السَّاعات، ومقاديرَ الأوقات، ثمَّ يقسِّط أصواتَه على ذلك تقسيطاً موزُوناً لا يُغادر منه شيئاً. ثمَّ قد علمنا أنّ اللَّيل إذا كان خمسَ عشْرَةَ ساعة

---

(١) البُخت: الإبل الخراسانية. الفالج: الجمل الضخم ذو السنامين يحمل من السند للفِحْلة. القلاص: جمع قلوص؛ وهي الناقة الشابة.

(٢) الزمكي: أصل ذنب الطائر.

(٣) القطاة: العجز، أو ما بين الوركين.

(٤) المدرة: قطعة يابسة من الطين.

(٥) أرض مثارة: محروثة.

أنّه يقسِّط أصواتَه المعروفةَ بالعَدد عليها، كما يقسطها والليل تسعُ ساعات، ثمَّ يصنع فيما بين ذلك من القسمة وإعطاء الحصص على حساب ذلك. فليعلم الحكماءُ أنّه فوقَ الأَسطرْلاب، وفوق مقدار الجزْر والمدِّ على منازل القمر، وحتَّى كأنّ طبْعَه فَلَكٌ على حِدَة. فجمَعَ المعرفةَ العجيبةَ والرِّعاية العجيبة.

وربَّ معرفةٍ تكون نبيلةً وأخرى لاتكون في طريق النَّبالة. وإنْ كانت المعارفُ كلّها مفصّلة مقدَّرة، إلاّ أنّها في منازِلَ ومراتب. وليس في الأرض معرفةٌ بدقيقٍ ولا جليل وهي في نفسها شريفة كريمةٌ.

والمعرفةُ كلُّها بَصر، والجهْل كله عمًى، والعمى كلُّه شَيْنٌ ونقص، والاستبانة كلُّها خيرٌ وفضْل.

ثمّ له بعد ذلك ارتفاق الناس بهذا المعنى منه.

ومن ذلك بُعدْ صوته، وأنّه يدلُّ على أنّ موضعَه ماهُولٌ مأنوس، ولذلك قالوا: لايكون البُنْيان قريةً حتَّى يصقَع فيها ديك.

وليس في الأَرض طائر أَملح ملحاً من فرُّوج، وليس ذلك الاسم إلاّ لولد الديك، وإلاّ فكلُّ شيءٍ يخرج من البيض فإنَّما هو فرخ والفَرُّوج حين تنصدِع عنه البَيضة، يخرج كاسباً عارفاً بموضع لقْط الحب وسدِّ الخَلَّة، وهو أصيَدُ للذُّباب من السُّوداني[١]، ويدرُج مع الولادة بلا فَصْل.

وهذا مع ما أعطى من محبَّة النساء، ورحمة الرجَال، وحُسْن الرَّأي من جميع الدار، ثم اتِّباعه لمن دَعَاه، وإلفُه لمن قرَّبه. ثمّ ملاحةُ صوته وحُسن قَدّه، ثمَّ الذي فيه ممَّا يصحُّ له الفروج ويتفرَّج فيه.

٤٤٣ - [تفضيل الديك على الطاوس]

وكان جعفر بن سعيد، يزعم أنَّ الدّيك أحمدُ من الطاوس، وأنَّه مع جماله وانتصابه واعتداله وتَقلُّعه إذا مشى، سَليمٌ من مقابح الطاوس ومن مُوقه وقبح صورته، ومن تشاؤم أهل الدار به ومن قُبح رجليه، ونَذَالة مَرْآته. وزعم أنَّه لو ملك طاوساً لألبَسَ رجليه خفَّاً.

وكان يقول: وإنَّمَا يُفخَر له بالتَّلاوين، وبتلك التعاريج التي لألوانِ ريشه. وربَّما

(١) السوداني: طائر من فصيلة الزرازير.

رأيتَ الدِّيك النَّبَطيَّ وفيه شبيهٌ بذلك. إلاّ إنَّ الدِّيك أجملُ من التُّدْرُج[1]؛ لمكان الاعتدال والانتصاب والإشراف، وأسلمُ من العيوب من الطاوس.

وكان يقول: ولو كان الطاوس أحسنَ من الدِّيك النَّبَطي في تلاوين ريشه فقط لكان فضلُ الديك عليه بفضل القدِّ والخَرْط، وبفضل حُسْن الانتصاب وجودة الإشراف أكثرَ مِنْ مقدارِ فضْل حُسنِ ألوانِه على ألوان الديك، ولكانَ السليمُ من العيوب في العين أجمل لاعتراض تلك الخصال القَبيحة على حسن الطاوس في عينِ الناظر إليه. وأوَّل منازل الحمد السلامة من الذَّمّ.

وكان يزعم أنَّ قول الناس فلانٌ أحسن مِن الطاوس، وما فلان إلاّ طاوس، وأنَّ قولَ الشاعر: [من الرجز]

* جلودُها مثلُ طواوِيسِ الذَّهب[2] *

وأنّهم لمّا سمَّوا جيشَ ابن الأشعث الطواويس لكثرةِ مَن كان يجتمع فيه من الفتيان المنعوتين بالجمال، إنما قالوا ذلك لأن العامَّة لا تبصر الجمال. ولَفَرسٌ رائعٌ كريم أحسنُ من كلِّ طاوسٍ في الأرض، وكذلك الرَّجُل والمرأة. وإنّما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه فقط، ولم يذهبوا إلى حسن تركيبه وتنصُّبه، كحسن البازي وانتصابه، ولم يذهبوا إلى الأعضاء والجوارح وإلى الشِّيات والهيئة، والرأس والوجه الذي فيه.

وكان جعفر يقول: لمّا لم يكن في الطاوس إلاّ حسنُه في ألوانه، ولم يكن فيه من المحاسن ما يزاحمُ ذلك ويجاذبُهُ وينازعه ويَشغل عنه، ذُكِرَ وتبيّن وظهر. وخصال الديك كثيرة، وهي متكافئة في الجمال. ونقول: لم يكن لعبد المطّلب في قريش نظير، وكما أنّه ليس للعرب في النَّاس نظير؛ وذلك حين لم تكن فيه خصلةٌ أغلبَ من أختها، وتكاملت فيه وتساوت، وتوافت إليه فكان الطَّبع في وزن المعرفة، فقالوا عند ذلك:سيِّد الأبطح وسيِّد الوادي وسيِّد قريش. وإذا قالوا سيِّد قريش فقد قالوا سيِّد العرب، وإذا قالوا سيِّد العرب فقد قالوا سيِّد الناس.

ولو كان مثل الأحنف الذي برع في حلمه وبرَع في سائر خصاله لذكروه بالحلم؛ ولذلك ذكر قَيس بن زُهير في الدَّهاء، والحارث بن ظالم في الوفاء، وعتيبة ابن الحارث في النَّجدة والثّقافة.

---

(١) التدرج: طائر حسن الصوت، موطنه بلاد فارس. حياة الحيوان ١ / ٢٣٠.

(٢) الرجز بلا نسبة في ثمار القلوب (٦٨٩).

ولو أنّ الأحنَفَ بن قيس رأى حاجبَ بن زُرارة، أو زُرارة بن عُدَس، أو حِصْن بن حذيفة، لقدَّمهم على نفسه. وهؤلاء عيونُ أهلِ الوبر لا يُذكَرون بشيءٍ دونَ شيءٍ لاستواءِ خِصال الخير فيهم.

وفي منحول شعر النابغة: [من الوافر]

فألفيتُ الأمانة لم تخُنْها كذلك كانَ نوحٌ لا يخُونُ[1]

وليس لهذا الكلام وجهٌ، وإنَّما ذلك كقولهم كان داودُ لا يخون، وكذلك كان موسى لا يخون عليهما السلام. وهم وَإن لم يكونوا في حالٍ من الحالات أصحابَ خِيانةٍ وَلا تجوزُ عليهم، فإِنَّ النَّاس إِنَّما يضربون المثلَ بالشيء النادر من فِعل الرجال ومن سائر أمورهم، كما قالوا: عيسى ابن مريم رُوح الله، وموسى كليم الله، وإبراهيم خليلُ الرحمن، صلى الله عليهم وسلم.

ولو ذكر ذاكرٌ الصبرَ على البلاءِ فقَال: كذلك كان أيُّوب لا يجزع كان قولاً صحيحاً. ولو قال: كان كذلك نوح عليه السلام لا يجزع لم تكن الكلمة أعطِيت حقَّها.

ولو ذكر الاحتمال وتجرُّع الغيظ فقال: وكذلك كان معاوية لا يسفهُ، وكان حاتم لا يفحُش، لكان كلاماً مصروفاً عن جهته ولو قال: كذلك كان حاتم لا يبخَل لكان ذلك كلاماً معروفاً ولكان القول قد وقع موقعَه، وإن كان حاتمٌ لا يُعرَف بقلّة الاحتمال وبالتَّسَرُّع إلى المكافأة.

ولو قال: سألتك فمنعتني وقد كان الشَّعبيُّ لا يمنع، وكان النَّخعِيُّ لا يقول «لا»، لكان غيرَ محمودٍ في جهة البيان، وإن كان ممَّن يُعطِي ويختار «نعم» على «لا». ولكنْ لمَّا لم يكن ذلك هو المشهور من أمرهما لم تُصرَف الأمثال إليهما، ولم تضرب بهما.

قال جعفر: وكذلك القول في الديك وجماله؛ لكثرة خصاله، وتوازُن خلاله، ولأنَّ جمال الديك لا يلهَج بذكره إلاّ البُصراء بمقادير الجمال والتوسُّطِ في ذلك، والاختلاط والقصد، وما يكون ممزوجاً وما يكون خالصاً. وحُسن الطاوس حسنٌ لا تعرف العوامُّ غيرَه، فلذلك لهِجت بذكره.

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ٢٢٢.

ومن الدَّجاج الخِلاسيُّ[١] والهنديّ، ومن الدَّجاج الزِّنجي ومنها الكَسْكَرِيّ[٢]، ومن الدّيَكة ما يُخصى فلا يبلغه في الطِّيب والسِّمن شيء وإن اشتدَّ لحمه. وإن كان غيرَ خَصيٍّ فقد يُمدح ذلك من وجهٍ هو أرَدُّ عليه في باب الفخر، من رَخاوة اللَّحم واستطابة الأكل. وعلى أنَّه لو كان أدناه من بعضِ سباع الطَّير، أو عدا خَلْفَه إنسانٌ، فكان يريد أخْذَه حتَّى إذا فسخه البهر ارتدّ في موضعه لا يبرحُه، ثم ذبحه على المكان، لجَمَع به الخصال كلَّها.

ولو علَّقَ في عنقه حَجَرٌ ليلتَه بعد أنْ ذبحه، أو أولج بطنَه شيئاً من حلْتيت[٣] لجَمَعَ بهِ الخصال؛ فإنّه أعْمَلُ فيه من البُورَق وقشورِ البِطّيخ في اللحم المفصّل.

وهو بعدُ غيورٌ يحمي دَجاجَه. وقال الرَّاجز: [من الرجز]

* يغارُ والغَيرةُ خُلُقٌ في الذَّكَرْ *

وقال الآخر: [من الكامل]

* الفحل يَحْمِي شَوْلَهُ مَعْقولا[٤] *

٤٤٤ - [مزايا لحم الدجاج]

ولحم الدَّجاج فوق جميع اللُّحمان في الطِّيب والبياض، وفي الحسن. والملوك تقدِّمه على جميع الفراخ والنواهض[٥]، والبطِّ، والدُّرَّاج، وهم للدُّرّاج آكَلُ منهم للجِداء الرُّضَّع، وللعُنُق الحُمر[٦] من أولاد الصَّفايا.

والدَّجاجُ أكثر اللُّحوم تصرُّفاً، لأنَّها تطيب شِواءً، ثم حارّاً وبارداً، ثمَّ تطيب في البَزْمَاوَرْد[٧]، ثم تطيب في الهرائِس[٨]، ويحدث لَها به نفحةٌ لا تُصاب مع غيرها،

---

(١) الخلاسي: الديك بين دجاجتين هندية وفارسية. «القاموس: خلس»

(٢) الكسكري: نسبة إلى كسكر وفي ثمار القلوب ٤٢٦ (٧٧٢): «كسكر: إحدى كور السواد من طساسيج دجلة والفرات، ودجاجها موصوف بالجودة وبالسمن، وربما بلغت الواحدة منها وزن الجدي والحمل».

(٣) حلتيت: صمغ الأنجُدان. «القاموس: حلت». والأنجذان: نبات يقاوم السموم جيد لوجع المفاصل. «القاموس: نجذ»

(٤) الشول: الناقة التي خف لبنها وارتفع ضرعها، وهذا القول من الأمثال في مجمع الأمثال ٢/ ٧٢، وجمهرة الأمثال ٢/ ٩١، والمستقصى ١/ ٣٣٨، وأمثال ابن سلام ١٠٨.

(٥) النواهض: جمع ناهض، وهو الفرخ الذي وَفُرَ جناحه وتهيأ للطيران. «القاموس:نهض».

(٦) العنق:جمع عناق، وهي الأنثى من أولاد المعز. «القاموس: عنق»

(٧) في القاموس (ورد): الزماورد: طعام من البيض واللحم، معرب، والعامة يقولون بزماورد». وانظر الوصلة إلى الحبيب ٨٧٥ «لقمة القاضي»

(٨) الهرائس: جمع هريسة، وهي نوع من الحلوى معروف. انظر الوصلة إلى الحبيب ٨٩٣ - ٨٩٤.

وتَطيب طبيخاً، وتَطيب فُصوصها، وإنْ قطَّعتها مع اللحم دَسِمَ ذلك اللحم. وتصلح للحَشاوى، وللملاقسطي، وتصلح في الاسفرجَات وسمينُها يقدَّم في السِّكباجة[1] على البطّ، إلاّ أنها تُطْعَمُ المَفْصُودَ وليس ذلك للبطّ.

٤٤٥ - [لفظ: الدجاج]

قال: والدِّيَكة دَجَاج إذا ذكرت في جملة الجنس، وهذا الباب مما تغلَّب فيه الإناث على الذُّكورة. وقال آخرون: لا، ولكنَّ الدِّيكَ نفسه دَجَاجة، إلاَّ أنَّهم أرادوا إبانَته بأنَّه ذكرٌ فقالوا: ديك، كما يسمُّون الذَّكر والأنثى فرساً بلا هاء، فإذا أرادوا أن يُثبتوا إناثها قالوا حجْر، وإن كانت حجْراً فهي فرس. وقال الأخطل: [من البسيط]

نازعْته في الدُّجَى الرَّاحَ الشَّمُولَ وقدْ
صاحَ الدَّجَاجُ وحانتْ وَقْفةُ السَّارِي[2]

وقد بيَّن ذلك القرشيُّ حيث يقول: [من الخفيف]

اطرُدوا الدِّيكَ عن ذؤابةِ زيدٍ ... كانَ مَا كانَ لا تطَاهُ الدَّجَاجُ[3]

وذلك أنّه كان رأى رأسَ زيدِ بن علي في دار يوسفَ بن عمر، فجاء ديكٌ فوطئ شعْرَه ونقَره في لحمه ليأكله.

٤٤٦ - [القول في تجاوب الديكة]

قالوا: قد أخطأ مَن زعم أنّ الدِّيكة إنَّما تتجاوب، بل إنَّما ذلك منها شيءٌ يتوافق في وقت، وليس ذلك بتجاوُبٍ كنباح الكلاب؛ لأنّ الكلبَ لا وقتَ له، وإنَّما هو صامتٌ ساكت ما لم يحسَّ بشيءٍ يفزَع منه، فإذا أحسَّ به نَبح، وإذا سمع نُباح كلبٍ آخر أجَابَ ثم أجابَ ذلكَ آخرُ، ثمَّ أجابهما الكلبُ الأوَّلُ، وتبيَّن أنّه المجاوِبِ جميعَ الكلاب. والدِّيك ليس إذاً من أجْل أنّه انكر شيئاً استجاب، أو سمع صوتاً صقع[4]، وإنَّما يصقع لشيءٍ في طبعه، إذا قابل ذلك الوقتَ من اللَّيل هيَّجَه. فَعددُ أصواتِهِ في الوقتِ الذي يُظَنُّ أنّه تتجاوبُ فيه الدِّيكة، كعددِ أصواتِهِ في القريةِ وليس

---

(١) سكباج: طعام يعمل من اللحم والخل والبصل والكراث، مع توابل وأفاويه، الواحدة سكباجة. الوصلة إلى الحبيب ٨٢٣.

(٢) ديوان الأخطل ١٦٨. نازعته: ناولته. الشمول: الطيبة الريح. الساري: الذي يسير ليلاً.

(٣) البيت لأحد الشيعة في الكامل ٢/٣١٠ (مطبعة المعارف)، ١٣٧١ (طبعة الدالي). وتقدم البيت في الفقرة (٢٦٤).

(٤) صقع: صاح. «القاموس: صقع».

في القريَةِ ديكٌ غيره، وذلك هو في المواقيت. والعلَّةُ التي لها يصقَع في وقت بعينه شائعةٌ فيها في ذلك الوقت. وليس كذلك الكلاب! قد تنبح الكلاب في الخُرَيْبة(١) وكلابٌ في بني سعد غير نابحة، وليس يجوز أن تكون دِيَكة المهالبة تصقع، وديكة المسامِعة(٢) ساكتة.

فإنْ أراد مريدٌ بقوله إنّ الدِّيكة تتجاوب، وعلى مثل قول العرب: هذه الجبال تتناظَر، إذا كان بعضُها قُبالة بعض، وإذا كان الجبلُ من صاحبه بالمكان الذي لو كان إنسانٌ رآه - جَاز ذلك. وعلى هذا المثال قال النبيُّ ﷺ في نارِ المشركين ما قال، حيث قال: «لا تَتَراءَى ناراهما»(٣)، ومع قول الشاعر:

* لا تتراءَى قبورهما *

وقال ابن مُقْبِلٍ العَجْلاَنيّ: [من الطويل]

سَلِ الدَّار من جنْبَي حِبرٍ فَواهب
وحيثُ يَرَى هَضبَ القَليبِ المضَيّحُ(٤)

وتقول العرب: إذا كانتَ بمكان كذا وكذا، حيثُ ينظُر إليك الجبُل فخُذْ عن يسارِك أو عن يمينك.

وقال الرَّاجز: [من الكامل]

* وكما يرى شَيْخ الجبالِ ثَبِيرا *

---

(١) الخريبة: موضع بالبصرة، وعندها كانت وقعة الجمل، وماء قرب القادسية نزلها بعض جيوش أيام القوادس. معجم البلدان (الخريبة).

(٢) المسامعة: محلة بالبصرة تنسب إلى مسمع بن شهاب بن عمرو، كما قالوا في النسبة إلى المهلبيين المهالبة. معجم البلدان (المسامعة).

(٣) الحديث عن قيس بن حازم أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى قوم من خثعم، فاستعصموا بالسجود فقتلوا، فقضى رسول الله ﷺ بنصف العقل، وقال: «إني بريء من كل مسلم مع مشرك»، ثم قال رسول الله ﷺ: «ألا لا تراءى نارهما» أخرجه النسائي ٨/٣٦، وأخرجه أبو داود في الجهاد برقم ٢٦٤٥، (٣/٤٥)، وانظر عارضة الأحوذي ٨/١٠٤، وشرح السنة ١٠/٣٧٣.
التراثي: تفاعل من الرؤية، أي ناراهما مختلفتان، هذه تدعو إلى الله، وهذه تدعو إلى الشيطان، فكيف يتفقان. انظر النهاية ٢/١٧٧.

(٤) ديوان ابن مقبل ٣٧ (طبعة دار الشرق)، ومعجم البلدان (حبر، واهب)، ومعجم ما استعجم ٤١٩، ١٢٣٥، ١٣٦٥، واللسان (رأي)، والتاج (وهب)، وتهذيب اللغة ١٥/٣٢٣.
حبر وواهب: جبلان في ديار بني سُلَيْم. هضيب القليب: موضع لبني قنفذ من بني سُليم. المفيح: ماء لبني البكّاء. انظر ديوان ابن مقبل ٣٧.

وشيخ الجبال عنده أبو قبيس.

وقال النبي ﷺ وعلى آله الأخيار: «أنا بريءٌ من كلِّ مسلمٍ مع كلِّ مشرك». قيل: ولِمَ يا رسولَ اللّه؟ قال: «لاتتراءَى ناراهُما»(١).

وقال الكسائيّ: تقول العرب: داري تنظُر إلى دار فلان، ودورنا تتناظر. وقال اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهَمْ لا يُبصِرُونَ﴾(٢).

وإِنَّما قال القوم في تجاوُب الدِّيكة ببيتِ شعرٍ سمعوه للطِّرِمَّاح، جهلوا معناه، وهو: [من الطويل]

فيا صُبْحُ كمِّشْ غُبَّرَ اللَّيلِ مُصْعِداً ... بِبَمٍّ ونَبِّه ذَا العِفاءِ الموَشَّحِ(٣)

إذا صاحَ لم يُخذَل وجَاوبَ صوتَه ... حِمَاشُ الشَّوى يَصْدَحن من كلِّ مَصْدَحِ(٤)

وكذلك غلطوا في قول عبدة بن الطبيب: [من البسيط]

إذ صفّق الدِّيك يدعو بعضَ أسرتِه ... إلى الصَّباح وهم قومٌ معازيل(٥)

وإنّما أرادَ تَوافيَ ذلك منها معاً؛ فجعلها دعاء وتجاوبا على ما فسرناه.

٤٤٧ - [تفضيل الحمار على الديك]

قال صاحب الكلب: لولا أنّا وجدنا الحمار المضروبَ به المثلُ في الجهلِ(٦)، يقومُ في الصَّباح وفي ساعات اللّيل مقامَ الدّيكة، لقد كان ذلك قولاً ومذْهباً غيرَ مَرْدُود. ولو أنَّ متفقِّداً يتفقَّد ذلك من الحمار لوجدَه منظوماً يتبع بعضُه بعضاً على عدد معلوم؛ ولوجَدَ ذلك مقسوماً على ساعات الليل، ولكان لقائلٍ أن يقول في نهيق الحمار في ذلك الوقت: ليس على تجاوبٍ، إنَّما ذلك شيء يتوافى معاً، لاستواء

(١) انظر الحاشية قبل السابقة.

(٢) ١٩٨ / الأعراف: ٧.

(٣) ديوان الطرماح ٩٧ (٩٤ طبعة دار المشرق)، وربيع الأبرار ٥ / ٤٤٤، والأول في اللسان (وشح)، والعين ٣ / ٢٦٣، والمقاييس ٤ / ٦٠، والتهذيب ٥ / ١٤٦، وأساس البلاغة (وشح، كمش)، والمعاني الكبير ٣٠٢، والثاني في العين ٣ / ١٠٠. كمِّش: قلِّص. غبر الليل: بقايا ظلامه. مصعداً: مرتفعاً. العفاء: ما كثر من الريش والوبر، وذو العفاء: الديك. الموشح: الموشى.

(٤) حماش الشوى: دقاق الأرجل، يريد الديكة.

(٥) ديوان عبدة بن الطبيب ٧٩، والمفضليات ١٤٣، واللسان والتاج (عزل). المعازيل: العزل من السلاح.

(٦) من الأمثال (أجهل من حمار) والمثل في مجمع الأمثال ١ / ١٨٩، والمستقصى ١ / ٥٨، وجمهرة الأمثال ١ / ٢٩٨، ٣٣٤.

العلة، ولم تكن للدِّيك الموصوف بأنّه فوق الأَسْطرلاب فضيلةٌ ليست للحمار.

وعلى أنّ الحمار أبعدُ صوتاً، وقد بلغ من شدّة صوته ما إن حلَفَ أحمدُ بن عبد العزيز: إنّ الحمار ما ينام! قيل له: وما ذاك؟ قال: لأنّي أجدُ صياحَه ليس بصياح شيءٍ انتبه تلك الساعة، ولا هو صياحُ من يريد أن ينام بعد انقضاء صياحه!.

هذا والحمارُ هو الذي ضَرب به القرآنُ المثلَ في بُعد الصوت، وضَرب به المثلَ في الجهْل، فقال: ﴿ كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾(١). فلو كان شيءٌ من الحيوان أجهلَ بما في بطون الأسفار من الحمار، لضَرب اللّه المثلَ به دونَه.

وعلى أنّ فيه من الخصال ما ليس في الديك، وذلك أنّ العربَ وضعته من الأمثال التي هي له في عشرة أماكن، فقال رسول اللّه ﷺ: «كلُّ الصَّيْدِ في جوْفِ الفَرَا»(٢) وكفاك بِهِ مثلاً إذا كان لرسول اللّه ﷺ في تفضيل هدايةِ أبي سفيان.

وقال العرب: «أنْكَحُ من الفَرَا»(٣). والفَرَأُ مهموز مفتوحة الفاء مجموعُهُ فِرَاءٌ، قال الشاعر: [من الطويل]

بِضَرْبٍ كآذانِ الفِرَاءِ فُضُولُه وطَعْنٍ كإيزاغ المخَاضِ تَبُورُها(٤)

وتقول العرب: «العَيْرُ أوْقى لدَمه»(٥). وقولهم: «مَنْ يَنِك العَيْر يَنِك نيَّاكاً»(٦). وقالوا: «الجحْشَ إذا فاتَتْكَ الأعيار»(٧) وقالوا: «أصبَرُ من عَير أبي

---

(١) ٥/الجمعة: ٦٢.

(٢) انظر خبر الحديث في الأغاني ٦/٣٤٥ – ٣٤٦، وهو حديث قاله ﷺ في أبي سفيان، وهو في مجمع الأمثال ٢/١٣٦، وجمهرة الأمثال ٢/١٣٦، ١٦٢، والمستقصى ٢/٢٢٤، وفصل المقال ١٠، وأمثال ابن سلام ٣٥، والبيان ٢/١٦، وتقدم الحديث في الفقرة (٢٤٣)

(٣) في مجمع الأمثال ٢/٣٣٥، وجمهرة الأمثال ١/١٠، ١٦٥ (أنكحنا الفرا فسنرى)، وفي المستقصى ١/٤٠٠ (انكحنا الفرا فسوف نرى).

(٤) البيت لمالك بن زغبة الباهلي في اللسان والتاج (فرأ، بور، وزغ)، والتنبيه والإيضاح ١/٢٤، وأساس البلاغة (فرأ)، وللباهلي في البرصان ٢٩١، وبلا نسبة في المقاييس ١/٣١٧، والتهذيب ٨/١٦٤، ١٥/٢٤٠، ٢٦٦، والمخصص ٨/٤٦، ١٥/١٤٤، والعين ٤/٤٣٤، ٨/٢٨٦.

(٥) مجمع الأمثال ٢/١٣، والمستقصى ١/٣٣٦، وأمثال ابن سلام ٢١٩، وجمهرة الأمثال ٢/٥٥.

(٦) المثل في مجمع الأمثال ٢/٣٠٥، والمستقصى ٢/٣٦٤، وهو من الرجز في اللسان والتاج (نوك). يضرب مثلاً لمن يغالب الغلاب.

(٧) مجمع الأمثال. ١/١٦٥، والمستقصى ١/٣٠٩، وأمثال ابن سلام ٢٣٥، يضرب لمن يطلب الأمر الكبير فيفوته.

سيَّارة»[1]؛ لأنَّه كان دفعَ بأهْلِ الموسم على ذلك الحمار أربعينَ عاماً.

وقالوا: «إن ذَهَب عيرٌ فَعيرٌ في الرِّباط»[2]. وقالوا في المديح لصاحب الرأي: «جُحَيش وَحْده»[3]، و «عُيَير وحده»[3]، و «العَيْرُ يَضْرِط والمِكواةُ في النَّار»[4]؛ وقالوا: «حمَارٌ يحمل أسفاراً»[5]، و «أضلُّ من حمارِ أهله»[6]، و «أخزى اللّه الحِمارَ مالاً لا يُزكَّى ولا يذكّى»[7]، و «قد حِيلَ بين العَيْر والنَّزَوان»[8].

فالذي مُدح به أكثر؛ فقد وجدنا الحمار أبعدَ صوتاً، ووجدناه يعرف من أوقات الليل ويميِّز عدداً معلوماً إلى الصبح، إلاَّ أنَّ له في الأسحار فضيلة.

والحمارُ أجهلُ الخلق، فليس ينبغي للدِّيك أن يُقضَى له بالمعرفة والحمار قد ساواه في يَسِير علمه، ثم بايَنَه أنَّ الحمار أحسنُ هداية. والدِّيك إن سقط على حائط جَارِه لم يُحسن أن يهتدي إلى داره، وإن خرج مِن باب الدار ضلَّ، وضلالُه من أسفل كضلالِه من فَوق.

٤٤٨ - [أحاديث في الديك]

قال صاحب الديك: حدَّثونا عن صالح بن كيسان، عن عبيد اللّه بن عبد اللّه

---

(١) المثل برواية (أصبر..) في مجمع الأمثال ١/٤١٠، وجمهرة الأمثال ١/٥٨٨، والمستقصى ١/٢٠٥، والدرة الفاخرة ١/٢٧١، ٥٦٨، وفصل المقال ٥٠١، وأمثال ابن سلام ٣٧٣، وثمار القلوب (٥٥٣)، والاشتقاق ٢٦٨، وعيون الأخبار ١/١٦٠، والمعمرون والوصايا ٦١، وبراوية (أصبر من حمار) في مجمع الأمثال ١/٤١٧، وجمهرة الأمثال ١/٥٨٨.

(٢) مجمع الأمثال ١/٢٥، وأمثال ابن سلام ٣٢٥، والمستقصى ١/٣٧٢، وجمهرة الأمثال ١/١٠٩. يضرب في الرضا بالحاضر وترك الغائب.

(٣) مجمع الأمثال ٢/١٣، يضرب لمن يعتزل الناس ويستبد برأيه.

(٤) في الأغاني ٩/٥١ «قال مسافر: قد يضرط العير والمكواة في النار» وهو يضرب للرجل يخاف الأمر فيجزع قبل وقوعه فيه.

(٥) مثل قرآني، أصله قوله تعالى في سورة الجمعة، الآية ٥: ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾.

(٦) لم أجد المثل في كتب الأمثال.

(٧) المثل برواية (شر المال ما لا يزكى ولايذكى) في مجمع الأمثال ١/٣٦٠، والمستقصى ٢/١٣٠، والدرة الفاخرة ١/١٨١. لا يزكى: لا تجب فيه الزكاة. لا يذكى: لا يُذبح.

(٨) مجمع الأمثال ٢/٩٦، والمستقصى ٢/٦٩، وجمهرة الأمثال ١/٣٧١، وفصل المقال ٧٢، وهوعجز بيت لصخرو بن عمر (أخي الخنساء) وصدره (أهُمُّ بأمر الحزم لو أستطيعه). والبيت في الأصمعيات ١٤٦، واللسان (نزا).

ابن عتبة، قال: «صرخَ ديكٌ عندَ النبي ﷺ فسبَّه بعضُ أصحابه، فقال: لا تَسبَّهُ فإنَّه يدعُو إلى الصلاة».

وعن ابن الماجِشُونِ، عن صالح بن كيسان، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود، عن يزيد بن خالد الجُهني: «أنّ رَسولَ الله ﷺ نَهَى عن سبِّ الديك وقال: إنّه يؤذِّن للصَّلاَة».

الحسن بن عمارة، عن عمرو بن مرَّة، وعن سالم بن أبي الجعد، يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «إنَّ مما خلق الله تعالى لَديكاً عُرْفُه تحتَ العرش وبَرَاثِنُهُ في الأرض السُّفلى، وجَناحاه في الهواء، فإذا ذهب ثُلثا الليل وبقي ثُلثُه ضربَ بجناحه ثم قال: سبِّحوا الملكَ القُدُّوس، سُبُّوح قَدُّوس - أيْ أَنَّهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ - فعند ذلك تضرِب الطَّيرُ بأجنحتها وتصيحُ الدِّيَكة».

وأبو العلاء عن كَعب: «إنَّ للَّه تَعَالَى ديكاً عُنقُهُ تحْتَ العرش، وبراثنهُ في أسفل الأرَضين، فإذا صاحت الديكةُ يقول: سبحانَ الملِكِ القُدُّوس الملِك الرَّحمن، لا إله غيره» . قال: والدِّيَكة أكيسُ شيءٍ.

ورويَ عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الدِّيكَ الأبيضَ صديقي، وعدوٌّ عدوِّ الله، يحرس دارَ صاحبِهِ وسبعَ دُور».

وكان رسول الله ﷺ يبيِّته معه في البيت.

ورُوي أنّ أصحاب النبي ﷺ كانوا يسافرون بالدِّيكة.

٤٤٩ - [ذبح الديك الأفرق]

وزعم أصحابُ التَّجربة أنَّه كثيراً ما يَرون الرَّجل إذا ذبح الدِّيك الأبيضَ الأفرق[١]، أنّه لا يزال يُنْكَب في أهله وماله[٢].

٤٥٠ - [كيف تعرف الديك من الدجاجة إذا كان صغيراً]

وممَّا في المحاجاة أن يقال: كيف تعرف الدِّيك من الدجاجة إذا كان صغيراً حين يخرجُ من البيضة؟ فقالوا: يعلّق بمنقاره، فإنْ تحرَّكَ فهو ديك وإن لم يتحرَّك فهو دجَاجة.

---

(١) الأفرق: المفروق العرف.

(٢) الخبر في ربيع الابرار ٥/٤٤٣.

٤٥١ - [شعر في حسن الدجاجة ونبل الديك]

قال الشاعر في حُسن الدَّجاجة ونَبل الديك[١]: [من الوافر]

غَدَوْتُ بَشربةٍ من ذات عِرْقٍ ... أبا الدَّهناء من حَلَب العصيرِ[٢]
وأُخرى بالعقَنْقَل ثم رُحنا ... نرى العُصفورَ أعظمَ من بَعيرِ
كأنَّ الدِّيكَ ديكَ بني نُمير ... أميرُ المؤمنين على السَّرِيرِ
كأنَّ دجَاجَهم في الدَّار رُقطاً ... بناتُ الرُّوم في قُمُصِ الحريرِ[٣]
فبتُّ أُرَى الكواكبَ دانياتٍ ... يَنَلنَ أناملَ الرَّجُلِ القَصِيرِ
أُدافعُهنَّ بالكفَّينِ عنِّي ... وأمسح جَانبَ القمر المنير

٤٥٢ - [طعن صاحب الكلب في الديك]

وقال صاحب الكلب: الأشياءُ التي تألفُ الناس لا تريد سواهم كالعصفور والخطَّاف والكلب والسّنورِ. والدِّيكُ ممَّا يتَّخذه الناس، وليس ممَّا يحنُّ إليهم فيقطَع البلادَ نِزاعاً، فيكون كالقواطع من الطير التي تريدهم كالخطَّاف، ولا هو من الأوابد كالعصفور الذي حيثُما دار رجع إليهم، ولا هو كالكلب الذي لا يعرف سواهم، ولا هو كالأهليِّ من السنانير التي متى ألِفتهم لم تفارقهم، وتعُسُّ باللَّيل، وتطوف في القبائل من دار إلى دار ثمَّ لا يكون مرجعُها إلاَّ إليهم. والدِّيك في خلاف ذلك كلِّه، ثمّ لا يألف منزله ولا يعرف ربْعه، ثم لا يحنُّ إلى دجاجه، ثمَّ لا تتوقَ نفسُه إلى طَروقته، ولا يشتاق إلى ولده، ولا يعرف الذين غَذوه وربَّوه، بل لم يدر قطّ أنَّ له ولداً، ولو كان درَى لكان على درايته دليل، فإذْ قدْ وجدناهُ لفراريجه وبيضه المخلوقة منه ومِنْ نجْله، كما نجده لما لم يلدْ ولما ليس من شكله أيضاً ولا يرجعُ إلى نسبه، فكيفَ لا نقضي عليه بالنَّقص، إذ كانت الأمور لا تعرف إلاَّ بهذا وشبهه!!.

وهو لا يعرف أهلَ داره، ولا يُثبت وجهَ صاحبه الذي لم يُخلَقْ إلاَّ عندَه، وفي ظلِّه وتحتَ جناحه، ولم يزلْ في رزقه وعِياله. والحمام ترجع إليه من مائتي فرسخ،

(١) الأبيات بلا نسبة، وهي عدة مصادر، فالثالث في ديوان المعاني ٢/١٣٦، والخامس والسادس فيه ١/٣٣٠، والرابع في البرصان ٧١، واللسان (سرق) وفيه نسب إلى الأخطل وليس في ديوانه، وانظر نهاية الأرب ١٠/٢٢٧، والحماسة الشجرية ٢٧٨، والعقد الفريد ٦/٣٤٧ . وانظر الأبيات في الفقرة (٥٤٠) .

(٢) ذات: مُهَلُّ أهل العراق؛ وهو الحد بين نجد وتهامة. معجم البلدان (العرق) . الحلب: الشراب .

(٣) الرقط: جمع رقطاء، وهي ذات اللون الأسود يخالطه بياض. (القاموس: رقط) .

ويُصطاد فيتحوَّل عن وطنه عشْرَ حِجَج، ثمَّ هو على ثبات عهده وقوَّة عقْده، وعلى حفاظه وإلفه، والنِّزاع إلى وطنه. فإن وجد فُرجة ووافق جناحَه وافياً وافاه وصار إليه، وإن كان جناحُه مقصوصاً جَدَف[1] إلى أهله، وتكلَّف المضيَّ إلى سكَنه، فإمّا بَلَغ وإمَّا أعْذَر.

والخُطّاف يقطع إليهم من حيث لا يبلغه خبر، ولا يطؤه صاحب سفر؛ على أنّا لا نراه يتَّخذ وكرَه إذا صار إليهم إلاّ في أحصَنِ موضع، ولا يحمله الأُنْس بهم على ترك التَّحرُّز منهم، والحزمِ في مُلابَستهم، ولا يحمله الخوف منهم على منْع نفسه لذّةَ السُّكونِ إليهم، ولا يبخس الارتفاق بهم حظّه.

والعصافير لا تقيم في دار إلاّ وهي مسكونة، فإن هجرها الناسُ لم تُقِمْ فيها العصافير.

والسِّنَّور يعرف ربَّةَ المنزل، ويألف فرخَ الحمام، ويُعابِث فراريج الدار. إن سُرق ورُبط شهراً عاد عند انفلاته، وانحلال رباطه.

والهرَّةُ تعرف ولدَها وإن صار مثلَها، وإن أُطعمت شيئاً حملته إليه وآثرته به. وربّما أُلقي إليها الشيءُ فتدنو لتأكلَه، ويُقبلُ ولدها فتُمسك عنه، وترضُّه له. وربّما طُرح لها الشيءُ وولدها غائبٌ عنها – ولها ضروبٌ من النَّغَم، وأشكالٌ من الصِّياح – فتصيح ضرباً من الصِّياح يعرفُ أهلُ الدَّارِ أنّه صياحُ الدُّعاء لا غير ذلك. ويقال: «أبَرُّ مِنْ هِرَّة»[2].

ومتى أرادتْ ما يريدُ صاحبُ الغائط، أتت مواضعَ تراب في زاويةٍ من زوايا الدَّار فتبحثه، حتَّى إذا جعلتْ له مكاناً كهيئة الحفرة جعلَتْه فيها ثمَّ غطّتهُ من ذلك التُّراب، ثمَّ تشمَّمتْ أعلى ذلك التراب وما ظهرَ منه، فإنْ وجدَتْ شيئاً من الرائحة زادت عليها تراباً، فلا تزال كذلك حتَّى تعلم أنَّها قد أخفت المرئيّ والمشموم جميعاً[3]. فإنْ هي لم تجدْ تراباً خَمشت وجهَ الأرض، أو ظَهْرَ السَّطح، حتَّى تبلغَ في الحفر المبلغَ، ومن ستر ذلك المجهودَ.

وزعم ناسٌ من الأطبّاء أن السِّنَّورَ يعرفُ وحدَه ريحَ رجْعه، فإنما يستره لمكان شمّ الفأر لَهُ، فإنها تفرُّ من تلك الرائحة. أو يُغطِّيه لما يكون فيه من خلُق من أخلاق

(١) جدف الطائر: طار وهو مقصوص؛ كأنه يرد جناحيه إلى خلفه. «القاموس: جدف».
(٢) مجمع الأمثال ١/١١٦، والمستقصى ١/١٧، وجمهرة الأمثال ١/٢٤٣، والدرة الفاخرة ١/٨٢.
(٣) انظر ربيع الأبرار ٥/٤٧٢.

الأسد. و ما يشاكل فيهِ الأسدَ في الخُلُق، على قدر ما يشاكله في الخَلق. وتعداد ذلك كثيرٌ.

٤٥٣ - [سُلاح الديك]

والدِّيكُ لا تراه إلاّ سالحاً، ثمَّ لا يتوقَّى ثوبَ ربِّ الدار ولا فِراشه ولا بِساطه. هذا، وحياتُه التُّراب، ولذا يدفن نفسَه فيه، ويُدخله في أصولِ ريشهِ.

ثمَّ لا ترى سُلاحاً أنتن من سُلاحه، ولا يشبه ذَرْق الحمام، وصَوْم النَّعامِ، وجَعْر الكلب. ثم مع ذلك لا تراه إلاّ سائلاً رَقيقاً. ولو كان مُدَحرَجاً كأبعار الشاءِ والإبل والظباء، أو متعلقاً يابساً كجَعْر الكلب والأسد، ثمَّ لو كان على مقدار نتنه لكان أهونَ في الجملة.

وقال أبو نُواسٍ في ديكِ بعض أصحابه: [من الرجز]

آذيتَنا بديكِكَ السَّلاّحِ فنجِّنا مِنْ مُنْتِنِ الأرْوَاحِ[1]

٤٥٤ - [استخدام الخناقين للكلب]

وقال صاحب الكلب: ومن مَرافق الكلب أنّ الخنَّاقين[2] يظاهر بعضُهم بعضاً، فلا يكونون في البلاد إلاّ معاً، ولا يسافرون إلاّ معاً؛ فربَّما استولَوا على دربٍ بأسْره، أو على طريقٍ بأسره. ولا ينزلون إلاّ في طريق نافذ، ويكون خلف دُورهم: إمّا صَحارى وإمَّا بساتين، وإما مزابِلُ وأشباهُ ذلك. وفي كلِّ دارٍ كلابٌ مربوطة، ودُفوف وطُبول. ولا يزالون يجعلون على أبوابهم معلِّمَ كتّابٍ منهم، فإذا خنق أهلُ دارٍ منهم إنساناً ضربَ النِّساءُ بالدُّفوف، وضربَ بعضهم الكلابَ فسمع المعلِّم فصاحَ بالصِّبيان: انبَحُوا! وأجابهم أهْلُ كلِّ دارٍ بالدفوف والصُّنوج، كما يفعل نساءُ أهْلِ القرى، وهَيَّجوا الكلاب. فلو كان المخنوقُ حماراً لما شَعر بمكانه أحد، كما كان ذلك بالرَّقَّة.

وانظرْ كيف أخذُوا أهْلَ دَرْبٍ بأسره!! وذلك أنّ بعضهم رغِب في ثُوَيب كان على حمّال، وفيهِ دريهمات معَهُ، فألقى الوَهَق[3] في عنقهِ فغُشي عليهِ ولم يمتْ،

---

(١) لم يرد الرجز في ديوان أبي نواس. الأرواح: جمع ريح.

(٢) الخناقون: جماعة من المنصورية، أصحاب أبي منصور الكسف، الذي سمي «كسفاً» لأنه قال لأصحابه: فيَّ نزل قول الله تعالى ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ [٤٤/الطور:٢٥]. انظر المعارف ٦٢٣، وعيون الأخبار ٢/١٤٧.

(٣) الوهق: حبل مفتول يرمى في أنشوطة، فتؤخذ به الدابة. «القاموس: وهق».

وتحرَّك بطنُه فاتى المتوضأ وتحرَّك الحمَّال والسَّاجور[1] في عنقِه، فرجَعت نفْس الحمال، فلمَّا لم يحسّ بأحَدٍ عندَه، قَصَدَ نحوَ باب الدار، وخرج وزِيارهُ[2] في عنقِه، وتلقَّتهُ جماعتُه فأخبرهم الخبرَ، وتصايح النَّاس فأُخِذوا عن آخرهم.

وقد كان بالكوفة شبيهٌ بذلك، وفي غيرها من البلدان. فقال حمادٌ الرَّاوية، وذكر المرميِّين بالخنق من القبائل وأصحاب القبائل والنِّحَل، وكيف يصنع الخُنَّاق، وسمَّى بعضَهم فقال[3]: [من الطويل]

إذا سرتَ في عِجْلٍ فسِرْ في صَحابةٍ ... وكِنْدَةُ فَاحْذَرْها حذارَكَ للخَسْفِ
وفي شيعة الأعمى زيار وغيلَةٌ ... وقَشْبٌ وإعمالٌ لجنْدلة القَذْفِ[4]
وكلُّهم شرٌّ عَلَى أنَّ رأسَهم ... حميدةُ والميلاءُ حاضِنَةُ الكِسْفِ
متى كنتَ في حَيَّيْ بَجيلَةَ فَاستمعْ ... فإنَّ لهم قَصْفاً يدُلُّ على حَتْفِ
إذا اعتزموا يوماً على خنْقِ زائرٍ ... تداعَوْا عَلَيْهِ بالنُّباح وبالعزفِ

وأمَّا ذكره لبني عجل فلمكان ذي الضفرتين وغيره من بني عجل. وأمَّا ذكره كندة، فقد أنشدنا سُفيان بن عيينة، وأبو عبيدة النحويُّ: [من الهزج]

إذا ما سرَّك العيشُ ... فلا تأخذ عَلَى كِنْدَه[5]

ومن كِندة أبو قصبة أُخذ بالكوفة وقُتِل وصُلب.

وكان بالكوفة ممَّن يأكلُ لحومَ النَّاس عَديَّةُ المدَنية الصَّفراء. وكان بالبَصرة رَادَوَيه صاحب قصاب رادويه.

وأمَّا الأعمى في بني ضبَّة الذي ذكره فهو المُغيرة بن سعيد صاحب المُغيريَّة، وهم صِنفٌ ممَّن يعمل في الخنق بطريق المنصوريَّة.

والمغيرة هذا من موالي بَجيلة، وهو الخارج عَلى خالد بن عبد الله القَسْرِيّ، وعِند ذلك قال خالد وهو عَلى المِنبر: أطعِمُوني ماءً!

---

(١) الساجور: القلادة أو الخشبة توضع في عنق الكلاب. «القاموس: سجر».
(٢) الزيار: شناق يشد به البيطار جحفلة الدابة. «القاموس: زير».
(٣) الأبيات لأعشى همدان في عيون الأخبار ٢/١٤٦ - ١٤٧. عدا البيت الثالث.
(٤) القشب: خلط السم بالطعام. «القاموس: قشب». الجندلة: الحجارة. «القاموس: جندل».
(٥) البيت في عيون الأخبار ٢/١٤٧.

وفي ذلك يقول يحيى بن نوفل: [من الوافر]

وقلتَ لِما أصابَكَ أطعِموني   شراباً ثمَّ بُلْتَ عَلَى السَّرِير[1]

لأعلاجٍ ثمانيةٍ وشَيْخٍ   كَبيرِ السِّنِّ ذي بَصرٍ ضرير

وأما حميدة فقد كانت لها رياسة في الغالية، وهي ممَّن استجاب لليلى السبائية الناعظية، والميلاءُ حاضنة أبي منصور صاحب المنصوريَّة، وهو الكِسْف. قالت الغالية: إيَّاه عَنَى اللّهُ تبارك وتعالى ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾[2]. وقد ذكَره أبو السريِّ مَعْدَانُ الأعمى الشُّمَيطي في قصيدته التي صنّف فيها الرَّافضة ثم الغالية، وقدَّم الشُّميطيَّة عَلَى جميع أصناف الشيعة، فقال[3]: [من الخفيف]

إنَّ ذا الكِسْفَ صَدَّ آل كُمَيلٍ   وكُمَيْلٌ رَذْلٌ من الأرْذالِ[4]

تركا بالعراق داءً دويّاً   ضلَّ فيه تلطُّفُ المحتالِ

منهم جاعلُ العَسيبِ إماماً   وفريقٌ يرضى زَنْدَ الشَّمالِ

وفريقٌ يقول إنَّا براءٌ   من عَليٍّ وجُنْدُبٍ وبلالِ

وبراءٌ مِنَ الذي سَلَّمَ الأمْـ   ـر عَلَى قدرةٍ بغير قتالِ

وفريقٌ يدين بالنصِّ حَتْماً   وفريقٌ يدينُ بالإهمالِ

لأنَّ الكميليَّة لا تجيز الوَكالة في الإمامة، وتقول لأبُدَّ من إمَامٍ صامتٍ أو ناطِقٍ، ولابدَّ من عَلَم يمدُّ الناسُ إليهِ أعْناقَهم. وأبو منْصُورٍ يقولُ بخلاف ذلك.

وأمَّا قوله[5]: [من الطويل]

وفي شِيعة الأعمى زِيارٌ وغيلة   وقشب وإعمالٌ لجنْدَلَةِ القَذْفِ

فقد قال مَعْدان: [من الخفيف]

حبشيٌّ وكافر سبياني   حَربيٌّ وناسخ قَتَّال

تلك تيميَّةٌ وهاتيك صمت   ثمَّ دين المغيرة المغتالِ

---

(١) البيتان في البيان والتبيين ٢/٢٦٧، ٣/٢٠٥.

(٢) ٤٤/ الطور: ٥٢.

(٣) الأبيات من قصيدة أورد الجاحظ منها ثلاثة أبيات أخرى في البيان والتبيين ١/٢٣، ثم أورد في ٣/٧٥ بيتين آخرين، وأورد في ٣/٣٥٦ ستة أبيات أخر.

(٤) الرذل: الدون الخسيس. «القاموس: رذل»

(٥) تقدم البيت في بداية الفقرة، وهو في عيون الأخبار ٢/١٤٦.

خنق مرةً وشَمٌّ بخار ثمَّ رضْخٌ بالجندَلِ المتوالي

لأنَّ من الخنّاقين من يكون جامعاً، وبذلك يسمُّونه إذا جمعَ الخنْق والتشميم، وحمل معه في سَفَره حَجَرَين مستديرين مُدمْلَكين وململمين فإذا خلاَ برجلٍ من أهل الرُّفقة استدبره فَرَمى بأحدهما قَمَحْدُوَتَه[1]، وكذلك إن كان ساجداً. فإن دمغه الأول سلبَهُ، وإنْ هُوَ رفَع رأسَهُ طبَّق بالآخر وَجْهَهُ. وكذلك إنْ ألفاه نائماً أو غافلاً.

ولقد صَحبَ منهم نَاسٌ رجلاً خرج من الرَّيِّ، وفي حَقوه هِمْيَانٌ[2]، فكان لاَ يفارق مُعْظَمَ النَّاس، فلمَّا رأوهُ قد قَرُب منْ مفرق الطَّريقين ورأوا احتراسَهُ، وهم نزولٌ إمَّا في صحراء وإمّا في بَعْضِ سُطوحِ الخانَات، والنّاس مُتشاغلون بأمُورهمْ، فلم يشعُرْ صاحبُ الهِمْيان نهاراً والنّاس حَوْلَهُ إلا والوَهَقُ[3] في عنقه، وطرحَهُ الآخر حين ألقاه في عنقه، ووَثَبَ إليه وجلَسَ علَى صَدره، ومَدَّ الآخَر برجْلَيه وألقى عليه ثَوْباً وأذَّنَ في أذُنه فقام إليهم بعضُ أهل الرُّفقة كالمعين والمتفجّع، فقالوا له: مكانَكَ؛ فإنّه إنْ رَآك خجِل واستحَى. فأمسك القومُ عنهم، وارتحل القوم، وأعجلوا بصاحبهم، فلمَّا خَلَوا به أخذوا ما أحَبُّوا، وتركوا ما أحَبُّوا، ثمَّ حملوه علَى أيديهم، حتى إذا برزوا رمَوه في بعض الأودية.

٤٥٥ - [شعر أعشى همدان في السبئية]

وقد ذكر أعشَى هَمْدانَ السَّبئيَّةَ وشأنَهم في كرسيِّ المختار: [من الطويل]

شهدتُ عليكم أنّكم سبئيّة وإنِّي بكم يا شُرْطَةَ الكُفْر عارفُ[4]
وأُقسمُ ما كرسيُّكم بسَكينة وإنْ كانَ قد لُفّتْ عليه اللفائف
وأنْ لَيْسَ التّابُوتُ فُتْناً وإن سَمتْ حمامٌ حواليه وفيكمْ زخارف
وإنّي امرؤٌ أحببتُ آلَ محمَّد وآثرْتُ وَحياً ضُمِّنَتْهُ المصاحفُ
وإن شاكراً طافتْ به وتمسَّحَتْ بأعواد ذاوٍ دبرت لا تساعف
ودَانَتْ به لابن الزُّبير رقابُنا ولا غَبْنَ فيها أو تُحزُّ السَّوالفُ
وأحسبُ عُقباها لآل محمَّد فيُنْصَرُ مَظلومٌ ويأمن خائفُ
ويجمعُ ربى أُمَّةً قَدْ تَشتَّتَتْ وهاجتْ حُروبٌ بينَهُمْ وحسَائِفُ

(١) القمحدوة: الهنة الناشزة فوق القفا وأعلى القذال خلف الأذنين ومؤخر القذال. «القاموس: قمحد».

(٢) الحقو: الكشح: وهو مكان عقد الإزار. «القاموس: حقو». الهميان: وعاء للدراهم «القاموس: همى».

(٣) الوهق: حبل مفتول يرمى في أنشوطة؛ فتؤخذ به الدابة. «القاموس: وهق».

(٤) الأبيات الخمسة الأولى في التاج (خشب)، وأنساب الأشراف ٥ / ٥٤٢.

أبو عبيدة: الحسيفة الضغينة، وجمعها حسائف

٤٥٦ - [من قتل نفسه بيده]

وما أكثر من قتل نفسَهُ بيده، إمَّا لخوف المُثْلة، وإمَّا لخوف التعذيب والهوان وطولِ الأسر.

وقد كان الحكمُ بن الطُّفيل، أخو عامر بن الطفيل، وأصحابُه خنقُوا أنفسَهم في بعض الأيام[1]، فعُيِّروا بذلك تعييراً شديداً، فقال خُراشة بن عامر بن الطفيل: [من الطويل]

وقُدْتَهم للموت ثُمَّ خَذَلْتَهُمْ ... فَلا وألتْ نفسٌ عليك تحاذرُ
فهلْ تبلغنِّي عامراً إنْ لَقيتَه ... أسلَّيتَ عن سلمان أم أنتَ ذاكرُ
فإنَّ وراءَ الحيِّ غِزْلانَ أيْكة ... مُضَمَّخَةً آذانُها والغدائرُ
وإنَّكم إذ تخنقون نفوسَكم ... لكمْ تحتَ أظْلاَلِ العضَاه جرائرُ

وقال عُروة بن الوَرد في يوم ساحوق، ويذكر خنْق الحكم بن الطُّفيل وأصحابِه أنفسَهم، فقال[2]: [من الطويل]

ونحنُ صبَحْنا عامراً في ديارها ... عُلالَةَ أرماحٍ وعَضْبا مُذَكَّرا[3]
بكلِّ رقيقِ الشَّفْرتين مُهَنَّدٍ ... ولَدْن من الخَطِّيِّ قد طرَّ أسمرَا[4]
عجبت لهم إذ يخنقُون نفوسَهم ... ومَقْتَلُهمْ عند الوغَى كان أعذرا
يَشُدُّ الحليمُ منهم عَقْدَ حبله ... ألاَ إنَّما ياتي الذي كان حُذِّرَا

٤٥٧ - [رثاء أبي زبيد الطائي كلباً له]

وقال أبو زُبَيْدٍ في كلبٍ لَهُ، كان يُساور الأسدَ ويمنعه من الفساد، حين حطمه الأسد، وكان اسمه أكدر، فقال[5]: [من البسيط]

أخَال أكْدَرُ مختالاً كعادتِه ... حتى إذا كان بينَ الحَوْض والعَطَنِ[6]

---

(١) في أيام العرب في الجاهلية ٢٧٨ (أما الحكم بن الطفيل فإنه خاف أن يؤسر ويُمثل به، فجعل في عنقه حبلاً، وصعد إلى شجرة، وشدّه ودلّى نفسه فاختنق».

(٢) ديوان عروة بن الورد ٤١.

(٣) علالة كل شيء: ما جاء منه بعدما يمضي أوله. العضب المذكر: السيف القاطع.

(٤) الخطّي: الرمح المنسوب إلى مرفأ بالبحرين يدعى «الخطّ».

(٥) ديوان أبو زبيد الطائي ٦٦٦ - ٦٦٨، والأبيات ١ - ٥ في الأغاني ١٢/١٣٣، والأبيات (١،٢،٤،٥) في رسائل الجاحظ ٢/٣١١.

(٦) العطن: مبرك الإبل حول الحوض.

لاقى لَدَى ثُلَلِ الأطْوَاءِ داهيَةً أسْرَتْ وأكدَرَ تحتَ الليل في قَرَنِ[1]
حطَّت به سُنَّةٌ ورهاءُ تَطْرُدُه حتَّى تَناهى إلى الأهوال في سَنَنِ[2]
إلى مُقارِبِ خَطْوِ الساعدَين لَهُ فوق السَّراة كَذِفْرَى القارِح الغَضِنِ[3]
رِيبالُ ظلماءَ لا قَحْمٌ ولا ضَرَعٌ كالبغل خطّ به العجلان في سكنِ[4]
فاسرَيا وهما سنًّا هومهما إلى عرين كُعشٍّ الأرمَل اليَفَنِ[5]
هذا بما علقت أظفاره بهم وظنُّ أكدَرَ غيرُ الأفْنِ والحتَنِ[6]
حتّى إذا ورد العرزالَ وانتبهت لحسّه أُمُّ أجْرٍ ستةٍ شُزُنِ[7]
بادٍ جناجنها حصَّاء قد أفلت لهن يبهرن تعبيراً عَلَى سدنِ[8]
وظنَّ أكدرُ أن تموا ثمانية أن قد تجلَّل أهلُ البيت باليُمنِ
فخافَ عزَّتهم لما دنا لهمُ فحاص أكدَرُ مشفياً من الوَسَنِ[9]
بأربَع كلُّها في الخلق داهية غُضف عليهنَّ ضافي اللحم واللبنِ[10]
الفاه متَّخِذَ الأنيابِ جُنَّتَه وكانَ بالليل وَلاَّجاً إلى الجَنَنِ[11]

٤٥٨ - [رثاء أعرابي شاة له أكلها ذئب]

وقال صاحب الكلب: قال أعرابيٌّ وأكل ذيبٌ شاةً لَهُ تسمّى وردة، وكُنْيَتها أم الوَرد[12]: [من البسيط]

أودَى بوَرْدَةَ أمِّ الوَردِ ذُو عَسَل من الذئاب إذا ما راحَ أو بَكَرَا

---

(١) المثل: جمع ثلة، وهو ما أخرج من تراب البئر. الأطواء: جمع طوي؛ وهو البئر المطوية بالحجارة. القرن: الحبل.
(٢) الورهاء: الخرقاء.
(٣) السَّراة: أعلى كل شيء. الذفري: ما بين المقذ إلى نصف القذال. والمقذ: ما بين الأذنين من خلف. القارح: الفرس في سن الخامسة.
(٤) القحم: الكبير السن. الضرع: الصغير السن.
(٥) فاسريا: الضمير هنا يعود إلى الأسد والكلب. اليفن: الشيخ الكبير.
(٦) الأفن: ضعف الرأي. الحتن: الباطل.
(٧) العرزال: مأوى الأسد. أجر: جمع جرو. شزن: الغليظ من الأرض.
(٨) الجناجن: عظام الصدر. الحصاء: قليلة الشعر.
(٩) حاص: جال جولة يطلب المهرب والمحيص.
(١٠) الغضف: استرخاء في الأذنين.
(١١) الجنن: الميت أو القبر.
(١٢) تقدمت الأبيات في الفقرة (٤٠٤).

لولا ابنُها وسَليلاتٌ لها غرُرٌ ... ما انفكَّت العَيْنُ تَذْري دَمْعها دِررَا
كأنَّما الذِّئب إذ يَعْدُو عَلَى غَنَمي ... في الصُّبحِ طالبُ وِترٍ كانَ فَاتَّأرا
اعتامَها اعتامَهُ شَثْنٌ براثِنهُ ... من الضّواري اللَّواتي تقصِم القَصرَا

قال: في هذا الشعر دَليلٌ أنَّ الذِّئب إنَّما يعدو عليها مع الصبح، عند فتور الكلْب عن النُّباح؛ لأنَّه باتَ ليلَتهُ كلّها دائباً يقظانَ يحرُس، فلمَّا جَاءَ الصُّبحُ جاءَ وَقتُ نَوْم الكلاب، وما يعتريها من النّعاس. ثم لم يَدْعُ اللَّهَ عَلَى الذِّئبِ بأن يأكله الأَسد حتَّى يختاره ويعتامه، إلاَّ والأسدُ يأكل الذئاب، ويختار ذلك . وإنَما استطابَ لحمَ الذِّئبِ بفضل شهوتِهِ للحم الكلب.

٤٥٩ - [إجازة الشعراء الدجاج]

وقال صاحب الدِّيك: لم نر شريفاً قَطُّ أجازَ شاعراً بكلْب، ولا حَبا به زائراً، وقد رأيتَهم يجيزون الشُّعَراء بالدَّجاج[1]. وأعْظَمُ من ذلك أن لقيمَ الدَّجَاجِ ، لما قال في افتتاح خيبر، وهو يعني النبيﷺ : [من الكامل]

رُمِيَتْ نَطاةُ من النبيِّ بفَيْلقٍ ... شهْباءَ ذاتِ مَناكِب وفقَار[2]

وهَب لَهُ دَجاج خَيبَر عن آخرها. رواه أبو عمرو، والمدائني عن صالح بن كَيْسان، ولتلك الدَّجَاج قيل: لقيم الدَّجَاج.

٤٦٠ - [زكن إياس][3]

وقال صاحب الكلب: قال أبو الحسن: كانَ إياسٌ بنُ معاويَة وهو صغيرٌ، ضعيفاً دقيقاً دميماً، وكانَ له أخٌ أشدُّ حركَةً منْهُ وأقوى، فكان معاويَةُ أبوه يقدِّمهُ عَلَى إياس، فقال لَه إياسٌ يَوْماً يا أبت! إنَّك تقَدِّمُ أخي عَلَيّ، وسأضربُ لك مثلي ومثلَه: هو مثل الفَرُّوج حين تنفلق عنه البَيضة، يخرج كاسياً كافياً نَفْسَهُ، يلتقط، ويستخفُّه الناس، وكلّما كبر انتُقص، حتى إذا تَمَّ فصار دجاجة، لم يصلحْ إلاَّ للذبح. وأنا مثلُ فَرخِ الحمام حين تنفلق عنه البَيضةُ عن ساقطٍ لا يقدر عَلَى حركة، فأبَواه يغذُوانه حتّى يقوى ويثبتَ ريشُهُ، ثمَّ يحسُن بعد ذلك ويطير، فَيجدُ به الناس[4] ويكرمونَهُ،

---

(١) انظر الإصابة، ترجمة رقم ٧٥٥٤.

(٢) نطاة: اسم لأرض خيبر، وقيل: عين بها تسقي بعض نخيل قراها. معجم البلدان (نطاة). والبيت في ربيع الابرار ٥ /٤٤٣ .

(٣) ثمار القلوب ٧٢ (١٨١).

(٤) في ثمار القلوب ٧٢ (١٨١): «ويتخذه الناس».

ويرسل من المواضع البعيدة فيجيء، فيُصان لذلك ويُكْرَمُ ، ويُشْتَرى بالأَثْمان الغالية[١]. فقال أبوه: لقد أحسنت المثل!! فقدَّمه عَلَى أخيهِ، فوجَد عِنْدَهُ أكثرَ مما كانَ يظنُّ فيه، [وخرج إياس باقعةً منقطع النظير][١].

قال صاحب الكلب: وقد أغفل إياسٌ في هذا القول بعضَ مصالح الدَّجاج، وذلك أنّ الدَّجاج مِنْ لدُنْ يخرج من حَدِّ الصِّغَر والكَيْس إلى أن يدخل في حَدِّ الكبر واحتمال اللَّحم والشَّحم، يكون أخبثَ حالاً لأنَّهُ لا يصلح فيه للذَّبح، وقد خرج من حدِّ الكَيْس والاستملاح.

وإياسٌ هو الذي يقول[٢]: لستُ بخَبٍّ[٣] والخَبُّ لا يخدعني، و [قال: الخب][٤] لا يَخدَعُ ابن سيرِينَ؛ وهو يخدَع أبي ويخدَع الحسَن.

---

(١) زيادة من ثمار القلوب.

(٢) الخبر في البيان والتبيين ١/١٠١.

(٣) الخب: الخدّاع. «القاموس: خبب».

(٤) إضافة من البيان والتبيين ١/١٠١.

بـــاب
ما يحتاج إلى معرفته

٤٦١ - [أسماء الفرج][١]

يقال فَرْج المرأة والجمع فُروج ، وهو القُبُل ، والفَرْجُ كِناية، و الاسم الحِرُ، وجمعه أحْراح . وقال الفرزدق : [من الرجز]

إنّي أقودُ جملاً ممْرَاحَا   في قُبَّةٍ مُوقَرةٍ أحْرَاحَا[٢]

قالوا: وإنّما جمعوه عَلَى أحراح، لأنَّ الواحد حِرْح. هكذا كان أصله. وقد يستعار ذلك وهو قليل ، قال الشاعرُ[٣]: [من الوافر]

تراها الضَّبعَ أعْظمَهنَّ رَأساً   جُرَاهِمَةً لها حِرَةٌ وثِيلُ[٤]

فلم يرض الاستعارة حتَّى ألحق فيها الهاء.

وهو الكَعْثَب، وقال الفرزدق : [من الطويل]

إذا بطِحت فوقَ الأَثَافي رَفعنها   بثديين مَعْ نحر كريمٍ وكَعْثَبِ[٥]

وقال الأغلب: [من الرجز]

* حَيَّاكة عن كعْثبٍ لم يَمْصَحِ[٦] *

---

(١) انظر خلق الإنسان ٢٩٤ - ٣٠٠.

(٢) الرجز للفرزدق في خلق الإنسان ٢٩٤، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في اللسان والتاج (حرح)، والمخصص ٢ /٣٧، وسر صناعة الإعراب ١ /١٨٢، والممتع في التصريف: ٢ /٦٢٧.

(٣) البيت لحبيب الأعلم في شرح أشعار الهذليين ٣٢٢، وديوان الهذليين ٢ /٨٧، والتاج (جعر)، ولساعدة بن جؤية في التاج واللسان (جرهم، حرهم)، وللهذلي في اللسان (جعر)، وصدر البيت للهذلي في اللسان (منن)، وعجزه في اللسان والتاج (حرح)، وبلا نسبة في خلق الإنسان ٢٩٤، والمخصص ٨ /٧١، ١٦ /١٧٧، وصدره بلا نسبة في اللسان (كلم).

(٤) في اللسان «الجراهمة: الضخمة الثقيلة»، وفي شرح أشعار الهذليين «الجراهمة: المغتلمة»، وفي ديوان الهذليين «الجراهمة: العظيمة الرأس». الثيل: جراب قضيب البعير. يريد أنها خنثى.

(٥) البيت في ديوان المعاني ١ /٢٨١. وفيه «يقول: إنها إذا بُطحت على وجهها لم يمس الأرض منها شيء، لأن نهود ثدييها وكبر ركبها مثل أثافي القدر لبدنها».

(٦) ديوان الأغلب العجلي ١٥٤، وخلق الإنسان ٢٩٥، وبلا نسبة في المخصص ٢ /٤٠. حياكة: تمشي مفرجة بين رجليها. مصح: أخلق ودرس. وفي خلق الإنسان ٢٩٥ «هو الناتئ الممتلئ».

وهو الأجم، وقال الرَّاجز: [من الرجز]

جارية أعظمها أجَمُّها   قد سمَّنتْها بالسَّويق أمُّها

بائنة الرِّجْلِ فما تَضمُّها[(١)]

وقال: وقد يسمّى الشَّكْر، بفتح الشّينِ وإسكان الكاف،

وأنشدوا[(٢)]: [من الوافر]

وكنتَ كليلة الشَّيْبَاء هَبَّتْ   بمَنْع الشَّكْرِ أتأمَهَا القَبيلُ[(٣)]

أتأمها: أفضاها. وأمَّا قوله[(٤)]: [من الرجز]

قد أقبلَتْ عَمْرَةُ من عِرَاقِها   مُلْصَقَةَ السَّرْجِ بخَاقِ باقها

قال: وهو إن أرادَ الحرَ فليس ذلك من أسمائه، ولكنه سَّماه بذلك على المزاح.

قالوا[(٥)]: والظَّبْيَةُ اسم الفَرْج من الحافر، والجمع الظَّبَيات، وقد استعاره أبو الأخزر فجعله للخُفِّ فقال: [من الرجز]

ساوَرَها عندَ القُرُوءِ الوحِمْ   في الأرض ذات الظّبيات الجحمْ

وقد قال الأوَّل: [من الطويل]

فجاء بغُرمولٍ وفلك مُدَمْلَكٍ   فَخَرَّقَ ظَبْيَيْها الحِصانُ المُشَبَّقُ

وهو من الظِّلف والخُفِّ الحيا. والجمع أَحيية. وهو من السبع ثُفْر، وقد استعاره الأَخطلُ للظِّلْف فقال[(٦)]: [من الطويل]

جَزَى اللَّه عنّا الأَعْوَرَيْنِ مَلاَمَةً   وعبلة ثَفْر الثَّوْرَةِ المتَضَاجِمِ[(٧)]

---

(١) الرجز بلا نسبة في اللسان (بدد، جمم)،والتاج (جمم)، والتهذيب ١٠/٥٢٠، ١٤/٨٠، والجمهرة ٦٥، والمعاني الكبير ٥١٠، والمخصص ٢/٤٠، وخلق الإنسان ٢٩٦.

(٢) البيت لعروة بن الورد في خلق الإنسان ٣٥، واللسان والتاج (تأم، شوب)، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في خلق الإنسان٢٩٥.

(٣) يقال: «باتت بليلة شيباء» إذا أمكنت زوجها من نفسها ليلة عرسها، أما إذا امتنعت عن زوجها فيقال: «باتت بليلة حرة». انظر ثمار القلوب (٩٠٥ - ٩٠٦).

(٤) الرجز بلا نسبة في اللسان والتاج (خوق)، والمخصص ٤/١١، والتهذيب ٧/٤٥٧.

(٥) انظر أدب الكاتب ١٨٩.

(٦) ديوان الأخطل ٥٠٦، واللسان والتاج (ثفر،ثور، ضجم)، والتهذيب ١٥/٧٦، والمجمل ١/٣٦١، والمخصص ١٦/١١٢، وكتاب الجيم ١/١٠٩، وديوان الأدب ١/١٠٦، ٢/٤٧٢، وبلا نسبة في المقاييس ١/٣٨١، والجمهرة ٤٢٢.

(٧) المتضاجم: المائل.

فلم يرضَ أن استعاره من السَّبُع للبقرة حتّى جعل البقرة ثورة.

وقد استعاره النَّابعةُ الجَعديُّ للحافر، كما استعاره الأخطل للظِّلف، فقال[1]: [من الطويل]

بُريذنَةٌ بَلَّ البَرَاذين ثَفْرَها وقد شَرِبتْ مِنْ آخر الليل أُيَّلاَ[2]

وقد قالوا برذونة، وقال الرَّاجز[3]: [من الرجز]

تزَحْزَحي إليك يا برِذَوْنَهْ إنّ البراذينَ إذَا جَرَيْنَهْ
مَعَ الجيادِ ساعَةٌ أَعيَيْنَهْ

وقد استعاره آخرُ فَجَعَلهُ للنعجة فقال[4]: [من الطويل]

وما عمرُو إلاّ نَعْجَة سَاجِسيَّةٌ تَحرَّكُ تحْتَ الكَبْشِ والثَّفرُ وارِمُ

والسَّاجِسيَّةُ: ضأنُ في تغلب.

وقد استعاره آخرُ فجعله للمرأة فقال[5]: [من الرجز]

نحن بنو عَمْرَةَ في انتساب بنت سُويد أكْرَم الضِّبابِ
جلْدَتنا مَن ثفرِها المِنْجَابِ

ويقال لجُردان الحمار غرمول، وقد يقال ذلك للإنسان وقضيب البعير، وهو لكلِّ شيء، ومِقْلم الجمل فقط. ومن السباع العقدة، وأصله للكلب والذِّئب. وقال جرير: [من البسيط]

إذا رَوِينَ عَلَى الخنزير من سَكَرٍ نادَينَ يا أعْظَمَ القَسِّينَ جُرْدَانا[6]

ويقال: صرفت الكلبة صرافاً وصروفاً، وظلعت تظلع ظلوعاً.

وقالوا في الأمثال: «لا أفْعَلُ حتّى ينامَ ظالِعُ الكلاب»[7] أي الصارف.

---

(١) ديوان النابغة الجعدي ١٢٤، والسمط ٢٨٢، والخزانة ٦ /٢٣٩، واللسان والتاج (أول)، والمخصص ١٦ /٩٩.

(٢) الأيل: جمع آيل؛ وهواللبن الخاثر. «القاموس: أيل».

(٣) الرجز بلا نسبة في رسائل الجاحظ ٢ /٣٤١، واللسان (عيا).

(٤) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج (ثفر)، وفيهما «وارد» مكان «وارم».

(٥) الرجز بلا نسبة في اللسان والتاج (ثفر)، ورواية البيت الثالث فيهما: (جاءت بنا من ثفرها المنجاب).

(٦) ديوان جرير ١٦٧ (طبعة المعارف)، ٥٩٨ (طبعة الصاوي)، واللسان (جرد، سكر) وتهذيب اللغة ١٠ /٥٨، وخلق الإنسان ٢٧٧، والمخصص ٢ /٣٠.

(٧) المستقصى ١ /١٢٨، ٢ /٥٩، وأمثال ابن سلام ٢٤٩.

ولم يعرف الأَصمعِيُّ ظلعت الكلبة بمعنى صَرَفت. واستحرمت، واُجْعَلت واستجعلت، واستطارت. والذئبة في ذلك كالكلبة.

قال: ويقال في السِّباع: قد وَضَعت، وولَدت، ورمصَت مثلَ ما يقالُ للنَّاس والغنم.

٤٦٢ - [المذكر والمؤنث من الحيوان]

قال: ويقال كلبة وكلب، وذئبة وذئب وبِرذون وبرذَونة. وأنشد[١]: [من الطويل]

أريْتَ إذا ما جالت الخيْلُ جَوْلَةً وأنتَ على بِرْذَوْنَةٍ غيرِ طائِل

ويقال رجل ورجال، وامرأة ونساء ، وليس لها جمعٌ من واحدها. ويقال بعير وناقة وجمل ، ولا يقال جملة ولا بعيرة، وقد قالوا رجل ورجلة وشيخ وشيخَة. ويقال كبش ونعجة، ولا يقال كبشة[٢]، كما لا يقال أسدة[٣]، ويقال أسد ولبوة ولبوات، ويقال ذئبة وذئب، وقال الشاعرُ: [من الطويل]

كأنَّهما ضِبْعانَةٌ في مَفازَةٍ وذِئْبةُ مَحْلٍ أمُّ جِرْوَينِ تعسلُ[٤]

ويقال إنسان وإنسانَةٌ، وسبع وسبعة، وحمام وحمامة، وحمار وحمارة، وسِرْحان وسرحانَة، وَسِيدٌ وسِيدة، وهِقل وهِقلة، وإلق وإِلْقَة[٥]، وقال رؤبة: [من الرجز]

* جَدَّ وجدَّتْ إلقَةً من الإلقْ[٦] *

وزعم أنَّه يقال ضبع وضبعة، وثعلب وثعلبة. وأصحابُنا لا يقولون هذا ويضحكون ممن يقولون ضَبُعة عرجاء. ويقال تُرمُلة[٧].

---

(١) البيت بلا نسبة في اللسان (برذن، رأي)، والتاج (برذن) ورسائل الجاحظ ٢/٣٤١، وشرح المفصل ٥/٩٨.

(٢) «قال ابن جني: كبشة اسم مرتجل؛ ليس بمؤنث الكبش الدال على الجنس، لأن مؤنث ذلك من غير لفظه؛ وهو نعجة»، اللسان «كبش».

(٣) قلت: إن كلمة «أسدة» وردت في القاموس في مادتي (لبأ، لبو).

(٤) تعسل: تضطرب في عدوها وتهز رأسها. انظر القاموس «عسل».

(٥) السرحان: الذئب، السِّيد: الذئب. الهقل: الفتي من النعام. الإلق: الذئب.

(٦) ديوان رؤبة ١٠٧، وبلا نسبة في المقاييس ١/١٣٢، والمخصص ١٠/١٨٧..

(٧) ثرملة: أنثى الثعلب. «القاموس: ثرمل».

ويقال من الفراخ فرخ وَفرخة، ومن النمور نَمِر وَنَمِرة. قال : ويقال ذِيخٌ وذيخَةٌ(١)، وضِبْعان وَضِبْعانَةٌ، وجيال وجَيْالة(٢). ويقال عقرب وعقربَة. والعُقرُبان الذَّكر وحدَه. وقال الشاعرُ(٣): [من السريع]

كأنَّ مَرْعى أُمِّكُمْ إذْ غدَتْ عَقْرَبَةٌ يكُومُها عُقْرُبانْ(٤)

ومن الضفادع ضِفدَع وَضِفدَعَة، ومن القنافذ قُنفُذ وقُنفذة، وشَيْهَمٌ وشَيهمةٌ(٥)، ومن القرود قرد وقردة.

ويقال إِلْقة و قِشَّة(٦)، ولا يقال إِلْق وقِش، ويقال لولد القرد رُبَّاح والأُنثى إِلقة. وقالَ الشَّاعِرُ(٧): [من السريع]

وإِلْقَةٌ تُرغِث رُبَّاحَها والسَّهْلُ والنَّوفَلُ والنَّضْرُ(٨)

ومِن النعام هِقل وَهِقلة. وهَيق وهَيقَةٌ، وصَعل وصَعلة، وسفَنَّج وسفَنَّجة، ونعامٌ وَنعامة، والواحد من فراخها الرأل والجمع رئال ورئلان وأرآل وأرؤل، والأُنثى رألة، وحفّانةٌ والجمع حَفّان، وقد يكون الحَفّان أيضاً للواحد. ويقال لها قلاص والواحدة قلوص ولا يقال قلوصة، ويقال ظليم ولا يقال ظَلِيمة، ويقال نِقْنِق ولا يقال نِقنِقة.

ويقال من الأرانب أرنب ولا يقال أرنبة، والذكر خُزَز. ويقال للأُنثى عِكْرِشة ولولدها خِرْنِق. ويقال هذه أرنب وهذه عقاب، ولا يقال هذا الأرنب ولا هذا العقاب.

وقال الشَّمَّاخ: [من الوافر]

فما تنفكُّ بين عُويرِضَاتٍ تجرّ برأسِ عِكْرِشَةٍ زَمُوعِ(٩)

---

(١) الذِّيخ: الذئب الجريء؛ والفرس الحصان؛ وذكر الضباع الكثير الشعر. «القاموس: ذيخ».

(٢) الجيال: الضبع. «القاموس: جال».

(٣) البيت لإياس بن الأرت في اللسان والتاج (عقرب،كوم)، والتنبيه والإيضاح ١/١٢٠، ولبعض العربان في معجم البلدان ٤/١٣٥ (العقربة)، وبلا نسبة في المخصص ٨/١٠٥، ١٦/١٠٥، ١١١، وديوان الأدب ٢/٨٢، وأساس البلاغة (كوم).

(٤) في اللسان «عقرب»: (مرعى: اسم أمهم. روى ابن بري عن أبي حاتم قال: ليس العقربان ذكر العقارب؛ إنما هو دابة له أرجل طوال. ويكومها: ينكحها).

(٥) الشيهم: ذكر القنافذ «القاموس: شهم».

(٦) القشة: القردة أو ولدها الأنثى،ودويبة كالخنفساء. «القاموس: قشّ».

(٧) البيت لبشر بن المعتمر في اللسان والتاج (ربح، ألق)، والتنبيه والإيضاح ١/٢٣٦.

(٨) ترغث: ترضع «القاموس: رغث». السهل: الغراب «القاموس: سهل». النوفل: البحر «القاموس: نفل». النضر: الذهب «القاموس: نضر».

(٩) ديوان الشماخ ٢٣١، واللسان والتاج (زمع)، والمقاييس ٣/٢٤، والعين ١/٣٦٧، ٢/٣٠٣، والمجمل ٣/٢٢. زموع: تمشي على زمعتها، وهي الشعرة المدلاة في مؤخر رجلها، وقيل: الزموع من الأرانب: النشيطة السريعة. انظر ديوان الشماخ ٢٣١.

قال ويقال لولد الكلب جروٌ والأُنثى جروة، وهو دِرْص والجمع أدراص، ويقال لمن عضَّه الكلْبُ الكَلِبُ: بالَ كأدراص الكلاب.

٤٦٣ - [بدء الإبصار عندالجرو]

وجرو الكلب يكون أعمى عَشرةَ أيّام وأكثَر، وقد يعرِض شبيهٌ بذلك لكثيرٍ من السِّباع.

٤٦٤ - [استطراد لغوي]

ويقال بصبص الجروُ وفقَّح وجصَّص، إذا فتح عينيه شيئاً، وصأصأ إذا لم يفتح عينيه. ولذلك قال عبيد اللّه بن جحش، والسَّكران بن عمرو، للمسلمين ببلاد الحبشة: «إنَّا فَقَّحنا وصأصأتم»[١]. قال بعض الرُّجاز في بعض الصِّبيان[٢]: [من الرجز]

أقبحْ بهِ مِنْ وَلَدٍ وأَشْقَحِ   مثْلَ جُرَيٍّ الكلْبِ لم يفقِّحِ
إنْ يَسْرِ سارٍ لم يَقُمْ فيَنبَحِ   بالبابِ عنْدَ حاجةِ المستَفْتحِ

ويقال لولد الأسد جرو وأجراء وجِراء، وهي لجميع السباع، ويقال له خاصَّةً: شِبْل. والجمع أشبال وشُبول. وقَال زُهير: [من الكامل]

ولأنتَ أَشجَعُ حِينَ تتَّجِهُ الـ   أبطالُ مِنْ لَيْثٍ أبي أَجْرِ[٣]

٤٦٥ - [من حيل الثعلب والكلب]

وحدَّثني صديقٌ لي قال: تعجَّبَ أخٌ لنَا من خُبث الثَّعلب. وكان صاحبَ قَنص، وقَالَ لي ما أعجب أمر الثعلب! يفصل بين الكلب والكلاَّب، فيحتالُ للكلاَّب بما يعلم أنَّه يَجوز عليه، ولا يحتال مثل تلك الحيلة للكلب، لأنّ الكلب لا يَخفى عليه الميِّت من المغشيِّ عليه. ولا ينفع عنْدَه التَّماوت. ولذلك لا يُحمل من مَات من المجوس إلى النَّار حتى يُدنَى منه كلبٌ، لأنّه لا يَخفى عليه مغْمُور الحِسِّ أحَيٌّ هُوَ أو ميت. وللكلب عند ذلك عمل يستَدلُّ بِهِ المجوس.

قال: وذلك أنِّي هَجَمْتُ على ثعلبٍ في مَضيق، ومعي بُنَيٌّ لي، فإذا هو ميِّتٌ

---

(١) في النهاية ٣/٣، ٤٦٢ (في حديث عبيد اللّه بن جحش أنه تنصّر بعد ما أسلم، فقيل له في ذلك؛ فقال: إنا فقحنا وصأصأتم. أي أبصرنا رشدنا ولم تبصروه).

(٢) الرجز للأحوص في الأغاني ٤/٢٣٢.

(٣) ديوان زهير ٨٢، وأساس البلاغة (جرو). أجر: جمع جرو.

منتفخٌ، فصدَدْت عنه، فلم ألَبثْ أن لحقتني الكلاب. فلمَّا أحسَّ بها وثَب كالبرق، بعد أن تحايَدَ عن السَّنن، فسألت عن ذلك فإذا ذلك من فعله معروفٌ ، وهو أنْ يستلقيَ وينفخَ خواصرَه ويرفعَ قوائمه، فلا يشكُّ مَن رآه من النَّاس أنَّه ميِّت منذُ دهر، وقَدْ تَزكَّرَ(١) بالانتفاخِ بدنُه، فكنتُ أتعجَّب منْ ذلك، إذْ مررْتُ في الزُّقاق الذي في أصل دار العبَّاسيّة ومنفَذه إلى مازن ، فإذا جرو كلبٍ مهزولٌ سيِّئ الغذاء ، قد ضربه الصِّبيان وعقَروه ففرَّ منهم ودخل الزُّقاق ، فرمى بنفسه في أصل أُسطُوانة وتبعوه حتَّى هَجمُوا عليه، فإذا هو قد تَماوَتَ فضربوه بأرجلهم فلم يتحرَّكْ فانصرفوا عنه. فلمَّا جاوزُوا تأمَّلت عينَه فإذا هو يفتَحُها ويُغمضها ، فلمّا بعدوا عنه وأمنَهم عدا، وأخذَ في غير طريقهم فأذهَبَ الذي كان في نفَسي للثَّعلب، إذا كان الثَّعلب ليس فيه إلاَّ الرَّوَغان والمكر، وقد ساواه الكلبُ في أجودِ حِيله.

٤٦٦ - [مفاضلة بين الثعلب والكلب]

ومع الكلب بعدُ ما ليس مَعَهُ، إلاَّ أنْ يُفخَر بفروته(٢) في موضع انتفاع النَّاس به، فجعْر الكلب للذُّبحة أنفع منه ، إذ كان في الذُّبحة الموت وليس يقوم مقامه شيءٌ. وجلد الثّعلب منه عِوَض(٣).

٤٦٧- [قول صاحب الديك في الكلاب]

قال صاحب الديك: شِرار عِباد اللَّه مَن قتل أولادَ رسولِ اللَّه ﷺ. ولم نجدْ شعراءَ النَّاس شبَّهوا أولئك القاتلين بشيءٍ سوى الكلاب. قال أبو نضلة الأبَّار، في قتل سلم بن أحوز المازنيِّ، صاحب شرطة نَصْرِ بن سيَّار اللَّيثي، يحيى بنْ زَيدٍ وأصحابه ، فقال: [من الطويل]

ألم تر لَيثاً ما الذي خَتَمتْ به لها الوَيْلُ في سُلطانها المتخاذلِ
كلابٌ تعاوَتْ لاهَدَى اللَّه سُبْلَها فجاءتْ بصَيدٍ لا يحلُّ لآكلِ
بنفسي وأهلي فاطميٌّ تقنَّصوا زَمانَ عمًى مِنْ أمَّةٍ وتخاذلِ
لقد كشفت للنّاس ليثٌ عن استها وغابَ قَبيلُ الحَقِّ دُونَ القبائلِ

قال صاحب الديك : وروى هُشيم عن المغيرة عن إبراهيم قال: لم يكونُوا ينْهَوْنَنَا عن شيءٍ من اللعب ونحنُ غِلمانٌ إلاَّ الكلاب.

---

(١) تزكر بطن الصبي: عظم وحسنت حاله. «القاموس: زكر».

(٢) الضمير هنا يعود إلى الثعلب.

(٣) أي يمكن الاستعاضة بجلد غيره.

٤٦٨ - [التقامر بالبيض]

وذكر محمَّد بن عجلان المدينيّ عن زيد بن أسلم، أنّه كان لايرى بأساً بالبيض الذي يتقامر بهِ الفتيان، أن يُهدَى إليه منه شيء أو يشتريَه فيأكله.

وهشام بن حسَّان قال: سئل الحسن عن البيض يَلعَب بهِ الصِّبيان يشتريه الرجل فيأكله، فلم يرِ بهِ بأساً وإن أطعموه أن يأكل منه. والجوز الذي يلعب بهِ الصِّبيان.

وحاتم بن إسماعيلَ الكوفيُّ قال: حدّثنا عبد الرحمن بن حَرْمَلة، عن سعيد بن المسيّب، أنّه لم يكن يرى بأساً بالبيض الذي يلعب به الصِّبيان.

٤٦٩ - [قتل أنواع من الحيات والكلاب]

قال: وحدَّثني ابن جُريج قَال، وأخبرني عبد اللّه بن عُبيد بن عمير قال: أخبرني أَبو الطفيل أنَّهُ سمع عليَّ بن أبي طالب يقول: اقُتلوا من الحيَّات ذا الطُّفْيتين(١)، والكلبَ الأسودَ البهيم ذا الغُرَّتين(٢).

قال: والغُرَّةُ: حُوَّة تكون بعينيهِ.

٤٧٠ - [قول صاحب الكلب في صقاع الديك]

قال صاحب الكلب: قد أخبرني أبو حرب عن منصور القصَّاب، قال: سألت الحسن عن البيض الذي يتقامرون به، فكرههُ.

وما رأينا قطُّ أحداً يريد الادّلاج ينتظر صُقَاع الدّيك(٣). وإنَّما يوالي الدِّيك بين صياحه قُبيل الفجر ثمَّ مع الفجر إلى أنْ ينبسط النهار، وفيما بين الفَجْر وامتدَاد النهار لا يحتاج النَّاس إلى الاستدلال بأنْ يصوِّت الديك. ولها في الأسحار أيضاً بالليل الصَّيْحة والصَّيحتان، وكذلك الحمار. عَلَى أنّ الحمارَ أبعدُ صوتاً، وأجدر أنْ ينبِّه كلَّ نائمٍ لحاجةٍ إن كانتْ له. وما رأينا صاحبَ سَحُورٍ يستعمله، وكذلك صاحب الأذان، وما رأيناه يتَّكل في وقت أذانه عَلى صياحِ الدِّيك، لأنّ صورةَ صوته ومقدارَ مَخرجه في السَّحَر الأكبر كصياحهَ قبلَ الفجر. وصياحهُ قبلَ الفجر؛ كصياحه وقد نوَّر الفجرُ وقدْ أَضاء النهار. ولو كان بين الصيحتين فرقٌ وعلامةٌ كانَ لعمْري ذلَك دليلاً. ولكنَّهُ مَن سمع هُتافه وصُقاعَه فإنَّما يفزع إلى مواضع الكواكب، وإلى مطلع الفجر الكاذب والصادق.

---

(١) الحديث في النهاية ٣ / ١٣٠، الطفيتان: خطان أسودان في ظهر الحية.

(٢) الحديث في النهاية ٣ / ٣٥٤، الغرتان: هما النكتتان البيضاوان فوق عينيه.

(٣) صقاع الديك: صياحه. «القاموس: صقع».

والديك له عدَّةُ أصواتٍ بالنَّهار لا يغادر منها شيئاً، ولتلك أوقَاتٌ لايحتاج فيها النَّاس إليهِ.

٤٧١ - [طرائق معرفة الأوقات]

وملوكُنا وعلماؤنا يستعملون بالنَّهار الأسطرلابات، وبالليل البَنكامات، ولهم بالنّهار سوى الأسطرلاباتِ خطوطٌ وظلٌّ يعرفون به ما مَضى من النهار وما بقي. ورأيناهم يتفقَّدون المطالعَ والمجاريَ. ورأينا أصحابَ البَساتين وكلّ مَنْ كان بقُرب الرِّياض، يعرفون ذلك بريح الأزهار. ورأينا الرُّومَ ونَصارى القُرى يَعرفُون ذلك بحركاتِ الخنازير وببُكورها وغدوِّهَا وأصواتها، ولذلك قالوا في وَصف الرجل: له وَثبة الأسد، ورَوَغان الثعلب، وانسلاب الذِّئب[1] وَجْمع الذرّة وبُكور الخنزير. والرَّاعي يعرف ذلك في بكور الإبل وفي حنينها وغيرِ ذلك من أمرها.

٤٧٢ - [هديل الحمام]

وللحَمام أَوقاتُ صياحٍ ودُعاءٍ مع الصُّبح وقبيلَ ذلك على نسَق واحد، ولكنَّ النَّاس إنَّما ذكروا ذلك في الدِّيك والحمار، لامتداد أصواتهما.

وهديلُ الحمامِ ودعاؤه لا يُجوزُ بعيداً، إلاَّ ما كان من الوراشين[2] والفَواخت في رُؤُوس النَّخل وأعالي الأشجار، فلعمري إنَّ ذلك لمَا يُسمعَ من موضعٍ صالح البعد.

٤٧٣ - [ما يصيح من الطير مع السَّحَر والصبح]

وللعصافير والخطاطيف وعامَّة الطَّير، مَّما يصرِ أو يُصرصر[3]، ومما يهدل مع الفجر إلى بُعيد ذلك - صياحٌ كثير . ثمَّ الذي لا يدع الصِّياح في الأسحار مع الصبح أبداً الضُّوَع[4]، والصَّدَى[5]، والهامَةَ، والبُومة وهذا الشّكلُ من الطَّير. وقد كتبْنا في غير هذا الموضعِ الأشعارَ في ذلك[6].

---

(١) انسلب: أسرع في السير. «القاموس: سلب».

(٢) الوراشين: جمع رَشان؛ وهو طائر لحمه أخف من الحمام. «القاموس: ورش».

(٣) صرصر: صوّت وصاح شديداً. «القاموس: صرّ».

(٤) الضُّوَع: طائر من طير الليل، أو الكروان، أو ذكر البوم، أو طائر أسود كالغراب طيب اللحم. «القاموس: ضوع».

(٥) الصدى: طائر يصرّ بالليل. «القاموس: صدى».

(٦) انظر الفقرة رقم (٤٧٥) فيما سياتي.

قال: وقد يصيح مع الصُّبح البُوم، والصدى والهام، والضُّوَع والخطاطيف، والعصافير، والحمَّرُ[١] في ذلك الوقت أكثرَ من الدِّيكة. قال الوليدُ بن يزيد في ذلك: [من الهزج]

سُلَيمى تِيكَ في العير ... قفي إنْ شئتِ أوْ سيري[٢]

فلما أنْ دَنا الصُّبحُ ... بأصواتِ العَصافيرِ

وقال كلثوم بن عمرو العتّابيّ: [من البسيط]

ياليلةً لي بحُوَّارِينَ ساهرة ... حتَّى تكلمَ في الصُّبْحِ العَصافيرُ[٣]

فالعَصافير والخطاطيف والحُمّر[١] والحمام والضُّوعان[٤] وأصناف البوم كلُّها تقوم مَقام الديك. وقال ثَعْلبة بن صُعَير المازنيّ: [من الكامل]

أَعُمَيْرَ ما يُدريكِ أنْ رُبَّ فتْيةٍ ... بيضِ الوجوهِ ذوي ندًى ومآثِرِ[٥]

حَسَني الفُكاهةِ لا تذمُّ لحامُهم ... سَبْطِي الأكفِّ لدى الحروب مساعرِ[٦]

باكرْتُهُمْ بسِباء جَوْنٍ مُتْرَعٍ ... قَبْلَ الصَّباحِ وقَبْل لغوِ الطائرِ[٧]

٤٧٤ - [صوت الديك وما قيل فيه شعراً]

قال: ويقال لصوت الدِّيكة الدُّعاء. والزقاء، والهُتاف، والصُّراخُ، والصُّقاع. وهويهتف ويَصقَع ويزْقُو ويصرُخ. وقال جِران العَوْد: [من الطويل]

تميلُ بك الدنيا ويَغْلبك الهوى ... كما مَالَ خَوَّارُ النَّقَا المتقصف[٨]

ونُلْغَى كأنَّا مَغْنَمٌ قد حويته ... وترغَبُ عن جزْلِ العَطاءِ وتَصْدفُ

فموعِدُكَ الشَّطُّ الذي بينَ أهلِنا ... وأهلِك حتَّى تسمَعَ الديكَ يهتِفُ

---

(١) الحمر: ضرب من الطير كالعصفور. حياة الحيوان ١ / ٣٧٦.

(٢) البيتان ليزيد بن ضبة في الأغاني ٧ / ٩٤، ٩٧، وهما من قصيدة في مدح الوليد بن يزيد.

(٣) البيت بلا نسبة في معجم البلدان ٢ / ٣١٥ (حوّارين)، و «حوارين» بالضم، وتشديد الواو: من قرى حلب، وحصن من ناحية حمص.

(٤) الضوع: طائر من طائر الليل، أو الكروان، أو ذكر البوم. «القاموس: ضوع».

(٥) الأبيات في المفضليات ص ١٣٠.

(٦) اللحام: جمع لحم. السبط: المسترسل، والمراد أنهم كرام. مساعر: جمع مسعر؛ وهو الذي يوقد الحرب كأنه يسعرها.

(٧) السباء: شراء الخمر. الجون: الأسود، أراد به الزق.

(٨) ديوان جران العود ١٧. خوار النقا: الرمل اللين.

وقال الممزَّق العَبديُّ: [من الطويل]

وقَدْ تَخذَتْ رجلايَ في جَنْبِ غَرْزِها نَسيفاً كأُفحوصِ القَطَاة المطرِّق(١)

أُنيختْ بجوٍّ يصرُخ الديكُ عندَها وباتَتْ بِقاعٍ كادِئ النبتِ سَمْلَقِ(٢)

وقال لَبيد: [من الطويل]

لَدُنْ أن دعا ديكُ الصَّباح بسُحرَةٍ إلى قدر وِرْدِ الخامس المتأوِّب(٣)

٤٧٥ - [طيور الليل]

ويقال للطائر الذي يخرجُ من وكره باللَّيل البومة والصَّدَى والهامة والضُّوَع والوَطواط والخفَّاش، وغُراب اللَّيل، ويصيدُ بعضها الفارَ وسامَّ أبرصَ والقَطا وصِغارَ الحشرات، وبعضها يصيد البعوضَ والفَرَاش وَما أشبَه ذلك. والبُوم يدخل بالليل على كل طائر في بيته، ويُخرجه منه ويأكُلُ فِراخه وبَيضَه. وهذه الأسماء مشتركة.

وقال خزيمة بن أسْلم: [من الطويل]

فلا تَزْقُونْ لي هامةٌ فوقَ مَرْقَبٍ فإنَّ زُقاءَ الهامِ أخبَثُ خابِثِ

وقال عَبد اللّه بن خازم أو غيره: [من الوافر]

فإنْ تكُ هَامَةٌ بهرَاة تَزْقُو فَقَدْ أزْقَيْتَ بالمروَينِ هَاما(٤)

وقال تَوْبة بن الحميِّر: [من الطويل]

ولو أنَّ ليلَى الأخْيَليَّةَ سَلَّمتْ عَلَيَّ ودُوني جَنْدَل وَصفائحُ(٥)

---

(١) البيتان للممزق العبدي في الأصمعيات ١٦٥، والبيت الأول في اللسان (فحص، نسف، طرق)، والمقاصد النحوية ٤/٥٩٠، وبلا نسبة في الجمهرة ٣٨٨، ٥٤١، ٧٥٧، ٨٤٨، ١١٩٢، والخصائص ٢/٢٨٧، والثاني بلا نسبة في المخصص ١٠/٢٠٦، ونسب البيت الأول إلى المثقب العبدي في اللسان (حدب). الغرز: ركاب من جلد. «القاموس: غرز». النسيف: أثر ركض الرجل بجنبي البعير. الأفحوص: مجثم القطاة.

(٢) جو: اسم اليمامة. كادئ: يقال: كدأ النبات: أصابه البرد فلبده في الأرض. السملق: الأجرد لا شجر فيه.

(٣) ديوان لبيد ٨.

(٤) البيت لعبد اللّه بن خازم في المخصص ٨/١٦٢، وذيل الأمالي ٣١، ولحنظلة أو ربيعة بن عرادة في السمط ٢/١٧، وبلا نسبة في الوحشيات ٨٤، واللسان والتاج (هوم، زقا)، والجمهرة ٨٢٣، والتهذيب ٦/٤٦٩، وأساس البلاغة (زقو).

(٥) البيتان لتوبة بن الحمير في الحماسة البصرية ٢/١٠٨، والحماسة المغربية ٩٣٥، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٣١١، والأغاني ١١/٢٤٤، والسمط ١٢٠، والمقاصد النحوية ٤/٤٥٣، وأمالي المرتضى ١/٤٥٠، وتزيين الأسواق ١٨٩.

لَسلَّمتُ تسليمَ البَشاشةِ أو زَقا   إليها صَدى مِنْ جانبِ القَبْرِ صائحُ

وقال الرَّاجز : [من الرجز]

ومَنْهَل طامِسَةٍ أَعْلاَمُهُ   يَعْوِي بِهِ الذِّئْب وَيزْقُو هامُه

وأنشدني في الصَّدَى : [من الطويل]

تجشمَّتُ مِنْ جَرَّاكِ والبُومُ والصَّدَى   له صائح أنْ كنْتِ أسْرَيت مِنْ أَجْلي

وقال سُوَيد بن أبي كاهل في الضُّوَع : [من الرمل]

لَنْ يَضِرْني غَيْرَ أَنْ يَحْسُدَني   فَهْوَ يَزْقُو مثْل مَا يزْقُو الضُّوَعْ[١]

قال: في قراءة ابن مسعود: ﴿إِنْ كانتْ إِلاَّ زَقْيَةً وَاحِدةً﴾[٢]، ﴿وَنفخَ في الزَّقية﴾[٣] يريد الصُّور.

وصَوْتُ الدجاجةِ القوقاة، تقول هي تقوقئ.

٤٧٦ - [شعر في الدجاج]

وقال أعرابيٌّ : [من الطويل]

أَلَيْس يَرَى عَيْنَي جُبيرة زَوْجُها   ومَحْجرَهَا، قامَتْ عليه النَّوائحُ
تنجَّبَها لا أَكْثَرَ اللَّه خَيْرَهُ   رُميصاءَ قَدْ شابَتْ عليها المسائح[٤]
لها أنْف خنزير وساقَا دَجَاجَةٍ   ورُؤيتها تَرْحٌ من العَيْشِ تارِحُ

وقال العُجَير السَّلُوليْ : [من البسيط]

لا نَوْمَ إلاَّ غِرَارُ العَيْنِ ساهرة   حتَّى أُصيبَ بغيظ آلَ مطلوب[٥]
إن تَهْجُروني فقد بدَّلْتُ أيكتَكُمُ   ذَرْقَ الدجاج بحفّاز اليَعَاقِيبِ[٦]

---

(١) البيت لسويد بن أبي كاهل في ديوانه ٢٦، وشرح اختيارات المفضل ٨٧٨، والمفضليات ١٩٨، واللسان والتاج (كنع).

(٢) ٢٩/ يس: ٣٦، وهي قراءة ابن مسعود وعبد الرحمن بن الأسود. المحتسب ٢/٢٠٦.

(٣) ٩٩/ الكهف: ١٨.

(٤) تنجّب: اختار واصطفى. رميصاء: التي يظهر بعينيها القذى. المسائح: جمع مسيحة؛ وهي الضفيرة.

(٥) البيتان في الأغاني ١٣/٥٩، ومعجم البلدان ٥/١٥١ (مطلوب)، ١٥٩ (معمل. مطلوب: ماء لخثعم، معمل: قرية من أعمال مكة.

(٦) في معجم البلدان «معمل»: (الأيكة: جماعة الأراك، وذلك أنه نُزع ووُضع مكانه الفسيل). ذرق الدجاج: نجوه. اليعاقيب جمع يعقوب: وهو ذكر الحجل.

وقال أبو الأسود الدُّؤليّ: [من الطويل]

ألم تعلما يا ابنَي دجاجة أنَّني ... أغُشُّ إذا ما النُّصْحُ لم يُتَقَبَّلِ[1]

٤٧٧ - [هجاء الدجاج وهجاء من اتخذها]

وقال صاحب الكلب: وسنروي في الدَّجاج ونذكرُ كلَّ من هجاها وهَجا مَنِ اتخَذها وأشبَهَها في وجهٍ من الوجوه، قال الراجز[2]: [من الرجز]

أقْبَلْنَ من نيرٍ ومن سُوَاجِ[3] ... بالحيِّ قد ملّ من الإدْلاَجِ

فَهُمْ رَجاجٌ وعلى رَجَاجِ[4] ... يمشُون أفْوَاجاً إلى أفْواجِ

مَشْيَ الفَراريجِ إلى الدّجاجِ

وقال عبد اللّه بن الحجّاج: [من الوافر]

فإن يُعْرِضْ أبو العبَّاسِ عَنِّي ... ويركبْ بي عَرُوضاً عن عَرُوضِ[5]

ويجعلْ ودَّهُ يوماً لغيري ... ويُبْغضْني فإنِّي من بَغِيضِ

فَنَصرُ اللّه يأسُو كلَّ جُرْحٍ ... وَيجْبر كسْرَ ذي العَظْم المهيض

فدًى لَكَ مَنْ إذا ما جئتُ يوماً ... تلقاني بجامعةٍ ربُوض[6]

لَدى جَنْبِ الخِوان وذاك فُحشٌ ... وبئستْ خُبْزَة الشَّيخِ المريض

كأنِّي إذ فزِعت إلى أُحَيْحٍ ... فزِعْتُ إلى مُقَوْقِيَةٍ بَيوضِ[7]

إوَزَّة غَيْضةٍ لَقِحت كشافاً ... لِفَقْحَتِهَا إذا بركَتْ نَقِيضُ[8]

---

(١) البيت في ديوان أبي الأسود الدؤلي ٢٣٨، وثمة بيت في ديوان الفرزدق ٧٠٧ قاله لعوف بن القعقاع، وأخيه، وهو:

(ألم تعلما يا ابني أمامة أنني ... أغش إذا ما النصح لم يتقبل)

(٢) الرجز بلا نسبة في اللسان والتاج (رجج، نير)، والمقاييس ٢/٣٨٥، والجمهرة ٩٠، ٤٩٠، ٥٧٤، ١٠٤١، والمجمل ٢/٣٦٨، وديوان الأدب ٣/٦٣، والعين ٦/١٧، والمخصص ٣/٩٥. ومعجم البلدان (سواج).

(٣) النير: جبل بأعلى نجد. معجم البلدان (نير). سواج: جبل لقبيلة غني. معجم البلدان (سواج).

(٤) الرجاج: الضعفاء من الناس والإبل. «القاموس: رجج».

(٥) ديوان عبدالله بن الحجاج ٣٠٤ - ٣٠٥، والأغاني ١٣/١٦٣، والبيت الأول بلا نسبة في التاج (عرض).

(٦) الربوض: الضخمة الثقيلة. «القاموس: ربض».

(٧) المقوقية: المصوِّتة، وعنى بها الإوزة.

(٨) الكشاف: أن تلقَّح حين تبيض. النقيض: الصوت. وهذا البيت فيه إقواء.

وقالت امرأة في زوجها وهي ترقِّص ابناً لها منه[1]: [من الرجز]

وُهبتُه من سَلْفَعٍ أَفُوك ... ومن هِبَلٍّ قَدْ عَسا حَنيكِ[2]

أَشْهَبَ ذي رأسٍ كرأسِ الدِّيكِ

تريد بقولها «أشهب» أنه شيخ وشعر جسده أبيض وأنّ لحيته حمراء.

وقد قال الشاعرُ، وهو الأعشى: [من الخفيف]

وبني المنْذرِ الأشاهِب بالحيـ ... ـرهِ يَمْشُونَ غُدْوَةً كالسُّيوفِ[3]

وإنما أراد الأعشى أنْ يعظِّم ويفخِّم أمرَهم وشأنهم، بأنْ يجعلهم شيوخاً. وأمَّا قولها: «ذي رأس كرأس الدِّيك» فإنَّما تعني أنَّه مخضوبُ الرَّأس واللِّحية.

وقال الآخر:[4] [من البسيط]

حلَّتْ خويلةُ في حَيٍّ مجاورَةً ... أهلَ المدائنِ فيها الدِّيكُ والفيلُ

يقارِعُون رؤوس العُجْمِ ضَاحيةً ... منهم فَوَارِس لا عُزْلٌ ولا مِيلُ[5]

قال ابن أحمر: [من البسيط]

في رأس خَلْقَاء من عَنْقاءَ مُشْرِفَةٍ ... لا يُبْتَغَى دُونَها سَهْلٌ ولا جَبَلُ[6]

إلاَّ كمثلك فينا غير انّ لنا ... شوقاً وذلك ممَّا كلّفت جَلَلُ

هَيهاتَ حَيٌّ غَدَوْا من ثَجْرَ مَنْزِلُهُمْ ... حيٌّ بنجرانَ صاحَ الدِّيك فاحتملوا[7]

وقال[8]: [من الطويل]

أَبعدَ حُلولٍ بالرِّكاء وجَامِلٍ ... غداً سارحاً مِنْ حَوْلنا وتنَشَّرا[9]

---

(١) الرجز بلا نسبة في اللسان والتاج وأساس البلاغة (حنك). والمخصص ٣/٢٣.

(٢) السلفع: الشجاع: هبل: مُسِنٌ ثقيل. الحنيك: الشيخ.

(٣) ديوان الأعشى ٣٦٥، واللسان والتاج (شهب)، والتهذيب ٦/٨٧، وبلا نسبة في المخصص ٦/٢٠٤.

(٤) البيتان لعبدة بن الطبيب في المفضليات ١٣٥، والأغاني ٢١/٢٥.

(٥) العزل: جمع أعزل، وهو من لا سلاح معه. «القاموس: عزل». ميل: جمع أميل، وهو من لا ترس معه؛ أو لا سيف؛ أو لارمح، والجبان؛ ومن يميل على السرج في جانب. «القاموس: مال».

(٦) ديوان عمرو بن أحمر ١٣٤ - ١٣٥. والأول في اللسان والتاج (عنق)، والجمهرة ٦١٨ (٢/٢٤٠)، والثالث بلا نسبة في اللسان والتاج (ثجر). الخلقاء الصخرة الملساء. العنقاء: أكمة فوق جبل.

(٧) ثجر: ماء قرب نجران. معجم البلدان (ثجر).

(٨) ديوان عمرو بن أحمر ٨٢ - ٨٣، والثالث في اللسان والتاج (نطر).

(٩) الركاء: موضع، وقيل: وادٍ في ديار بني عجلان. معجم البلدان «ركاء».

تبدَّلت إصطبلاً وتلاًّ وَجَرَّةً | وديكاً إذا ما آنسَ الفَجْرَ فرفرا[1]
وبستانَ ذي ثَوْرَين لاَ لِينَ عنده | إذا ما طَغَى ناطُورُه وتَغَشمَرا[2]

وقال أوس بن حجَر: [من البسيط]

كأنَّ هِرًّا جَنيباً عِندَ مَغْرِضِها | والتفَّ ديكٌ برِجْليها وخنْزيرُ[3]

وقال الحكْم بن عَبْدل: [من الطويل]

مَرَرْتَ على بَغْلٍ تَزُفُّكَ تسعةٌ | كأنَّك ديكٌ مائلُ الرَّأسِ أعورُ[4]
تخيرتَ أثواباً لِزينةِ مَنْظَرٍ | وأنتَ إلى وجه يَزينُك أَفْقَرُ

وقال النَّمِر بن تَولب: [من الوافر]

أَعِذْني رَب منْ حَصَرٍ وعِيٍّ | ومِنْ نَفسٍ أُعالجُها عِلاجَا[5]
ومِن حاجات نَفْسي فاعْصِمَنِّي | فإنَّ لمضمَرات النّفْسِ حَاجَا
وأنتَ وليّهَا وبرِئتُ منها | إليكَ وما قَضَيْتَ فلا خلاجَا
وأنتَ وَهَبْتَها كُوماً جِلاداً | أرجِّي النَّسْلَ منها والنِّتاجَا[6]
وتأمُرُني رَبيعةُ كلَّ يومٍ | لأشريَها وأقتَنيَ الدَّجاجا
وما تُغْني الدَّجاجُ الضيْفَ عني | وليس بنافِعي إلا نضَاجَا
أَأُهْلكُها وقد لاقيتُ فيها | مِرارَ الطّعنِ والضَّرْبَ الشَّجَاجا
وتَذْهَبَ باطلاً غَدوَاتُ صُهْبَى | على الأعداء تختلِجُ اختلاجا
جَمُوم الشدِّ شائلةُ الذُّنابَى | تخال بياضَ غُرَّتها سَراجَا
وشدِّي في الكريهة كلَّ يومٍ | إذا الأصوات خالطت العَجَاجَا

وقال عبد الرحمن بن الحكم: [من الوافر]

ولِلأَنْصارُ آكَلُ في قُراهَا | لخُبْثِ الأطْعمات من الدَّجَاجِ

---

(١) الفرفرة: الصياح.

(٢) غشمره: أخذه قهراً، وغشمر الرجل: غضب.

(٣) ديوان أوس بن حجر ٤٢.

(٤) البيتان في رسائل الجاحظ ٢/٢٤٩، والأول في اللسان والتاج (زين)، وبلا نسبة في المجمل ٣/٣٦.

(٥) ديوان النمر بن تولب ٣٣٨-٣٤٠، والأبيات (١، ٢، ٣) في الأغاني ٢٢/٢٨٤، و(١ ، ٢) في عيون الأخبار ٢/١٦٩. والأول في البيان والتبيين ١/١٨، والفاضل ٦، ومحاضرات الراغب ١/٢٨.

(٦) الكوم: جمع كوماء، وهي الناقة العالية السنام. «القاموس: كوم». الجلاد: الصلاب الكبار. «القاموس: جلد».

وقال الآخر لصاحبه: [من الرجز]

آذيتَنا بديكك السَّلاَّحِ فَنَجِّنا مِن مُنْتنِ الأرْواحِ(١)

وقالوا: «هو أسلح من حُبارَى» ساعة الخوف، ومن «دجَاجَةٍ»، ساعة الأمن.

وقال عقيل بنِ علَّفة: [من الطويل]

وهَلْ أَشْهَدَنْ خَيلاً كأنَّ غُبارَهَا بأسفَلِ علكد دَواخِنُ تَنْضُبِ(٢)

تَبيتُ عَلَى رَمْضٍ كأنَّ عُيُونَهـم فِقَاحُ الدَّجَاج في الوَدِيِّ المعصبِ(٣)

٤٧٨ - [كلب الرفقة]

وقال صاحب الديك: حدَّث الأصمعيُّ قال: أخبرني العَلاء بن أسلم قال: أردت الخروج إلى مكَّة المعظَّمة، شرَّفها اللَّه تعالى، فجاءني هشامُ بنُ عقبة - وهو أخو ذي الرُّمة - فقال لي: يا ابن أخي، إنَّك تريد سفراً يحضُر الشَّيطانُ فيه حُضوراً لا يحضره في غيره، فاتَّقِ اللَّه وصَلِّ الصَّلوات لوقتها فإنَّك مصلِّيها لاَ محالَة، فصلِّها وهي تنفعك، واعْلم أنَّ لكلِّ رُفقةٍ كلباً ينبحُ عليهم، فإن كان نهبٌ شرِكوه فيه، وإن كان عارٌ تقلَّده دونَهم فلا تكنْ كلبَ الرُّفقة(٤)!!

وقد رووا شبيهاً بذلك عن تبيع بن كعب.

٤٧٩ - [أم كلبة]

وقال زيد الخيل: [من الكامل]

يا نَصْرَ نصْرَ بني قُعَيْنٍ إنَّما أَنْتُمْ إماءٌ يَتَّبِعْنَ الأشْتَرا(٥)

يَتْبَعْنَ فَضْلَةَ أَيْرِ كَلبٍ مُنْعِظ عضَّ الكلابُ بعَجْبِه فاسْتَثْفَرَا(٦)

قال(٧): فلمَّا قَدِم زيد من عند النبي ﷺ قال: «أبْرَحَ فَتَى إنْ لَم تُدْرِكْهُ أُمُّ كَلبَة»، يعني الحُمَّى.

---

(١) الرجز لأبي نواس، وتقدم في الفقرة (٤٥٣).

(٢) البيت الأول في اللسان والتاج (نضب).

دواخن: جمع دخان. تنضب: شجر حجازي شوكه كشوك العوسج. «القاموس: نضب».

(٣) الودي المعصب: صغار النخيل.

(٤) انظر مثل هذا الخبر في ثمار القلوب ٣١٥ (٥٨٧)، وعيون الأخبار ١/ ١٣٦، وأمالي القالي ٢/ ٢٣٤.

(٥) ديوان زيد الخيل ١٧٧، والبيت الثاني في المعاني الكبير ٢٣٢.

(٦) الاستثفار: إدخال الكلب ذنبه بين فخذيه حتى يلزقه ببطنه. «القاموس: ثفر».

(٧) انظر الخبر في الأغاني ١٧/ ٢٥٠.

٤٨٠ - [الكلب بين الهجاء والفخر]

وقال جرير في البَعيث : [من الطويل]

إذا أنتَ لاقَيت البَعِيثَ وجدْته أشَحَّ على الزَّادِ الخبيثِ من الكلب

وقال صاحب الكلب: وقد قال عمرو بن مَعْد يكَرب : [من الهزج]

وقد كنتُ إذا ما الحيُّ يوماً كَرِهُوا صُلْحي[١]
أَلُفُّ الخَيْلَ بالخَيْلِ وأكْفِي النَّبْحَ بالنَّبْح

٤٨١ - [استعارات من اسم الكلب]

قال ومن الاستعارات من اسم الكلْب قولُ الرَّجل منهم، إنْ أوْطَنَ نفسَهُ على شيء: قد ضَرَبت جَروَتي، وضَرَبت عليه[٢]. وقال أبو النَّجْم: [من الرجز]

حتّى إذا ما ابيضَّ جرو التّنْفُل وبُدِّلتْ والدَّهْرُ ذو تَبَدُّلِ[٣]

وقال: [من الطويل]

* من الحنْظَلِ العَاميِّ جروٌ مفلَّقُ[٤] *

وقال عُتبة الأعور: [من مجزوء الكامل]

ذهبَ الذين أحبُّهم وَبقيت فيمَنْ لا أحبهْ
إذْ لا يزال كريمُ قو مي فيهمُ كلبٌ يسبُّهْ

٤٨٢ - [احتقار العرب للصيد]

قال صاحب الديك:

فخرتم علينا بصَيْد الكلْب، وهَجوتم الديك إذْ كان مما لا يصيد ولا يُصاد به، وقد وجدْنا العربَ يستذِلُّون الصَّيدَ ويحقِرون الصَّيَّاد، فمن ذلك قولُ عمرو بن معد يكرب: [من الكامل]

ابني زيادٍ أنتمُ في قَوْمِكُمْ ذَنَبٌ ونحنُ فروعُ أصل طَيِّبِ[٥]

---

(١) ديوان عمرو ٧٨، والثاني في المعاني الكبير ٥٣٦.

(٢) الجروة: النفس، والمثل برواية (ضرب عليه جروته)، وهو في مجمع الأمثال ١/٤١٨، والمستقصى ٢/١٤٦، وجمهرة الأمثال ٢/٦، وفصل المقال ٣٣٢.

(٣) ديوان أبي النجم ١٨٠، والطرائف الأدبية ٥٨، والأول في التاج (تفل)، والثاني في الخزانة ٢/٣٩١، والخصائص ١/٣٣٦، وبلا نسبة في اللسان (بدل). الجرو: الثمر. تتفل: نبات أخضر.

(٤) عجز بيت للنمر بن تولب في ديوانه ٣٦١، وتقدم البيت بتمامه في الفقرة (٤٠٨).

(٥) ديوان عمرو ٦٥-٦٦.

نَصِلُ الخَميس إلى الخَميس وأنتمُ بالقَهْرِ بين مربَّق ومكلِّبِ[1]
لا يحسَبَنَّ بنو طُليحَةَ حَرْبَنا سَوْقَ الحَمير بجابَةٍ فالكَوْكَبِ[2]
حيدٌ عن المعروفِ سَعْيُ أبيهمُ طَلَبُ الوُعول بوَفْضَةٍ وبأكلُبِ[3]
حتَّى يكهَّنَ بعْدَ شَيبٍ شامِلِ ترحاً له من كاهن متكذِّبِ

٤٨٣ - [الاشتفاء بدماء الملوك]

وأما قولُ زهير: [من الطويل]

وإن يُقتلوا فَيُشْتَفَى بدمائهم وكانوا قَديماً مِنْ مَنَاياهمُ القتْلُ[4]

فهذا البيت نفسُه ليس يَدُلُّ على قولهم أنَّ كُلَّ مَن كان به جُنُونٌ أو كلَبٌ ثمَّ حسَا من دمِ ملكٍ أو سيِّدٍ كريم أفاقَ وبرئَ.

٤٨٤ - [شدة فرار الكَلِبِ من الماء]

وقَدْ ضربُوا لصاحب الكلَب أمثالاً في شدَّة طلبهِ الماء، وفي شِدَّة فِرارِه منهُ إذا عاينهُ.

وقالوا وقلتم: فالماءُ المطلوبُ إذا عايَنه من غير أن يمسَّه، وهو الطالب له ولم يحرص عليه إلاَّ من حاجة إليه. فكيف صار إذا رآه صاح؟!

قالوا: وقد يعتري النَّاظرَ إلى الماء، والذي يديم التَّحديقَ إليه وهو يمشي على قنطرةٍ أو جُرُف أو جسْر الدُّوَارُ، فإنَّه ربما رمى بنفسه من تلقاء نفسه إلى الماء، وإن كان لا يحسن السباحة، وذلك إنما يكون على قدر ما يصادف ذلك من المِرَار. ومن الطِّباع.

فممَّن فعل ذلك بنفسه أبو الجهجهاه محمد بن مسعود، فكاد يموت حتى استُخرِج. ومنهم منصور بن إسماعيل التَّمَّار، وجماعة قد عُرفت حالُهم.

---

(١) الخميس: الجيش. المكلب: الصائد بالكلاب.

(٢) في ديوانه (لا تحسبن بني كحيلة حربنا)، جابة وكوكب: موضعان من موارد بني الحارث بن كعب.

(٣) الوفضة: جعبة السهام من أدم.

(٤) ديوان زهير ٨٧، وفيه (يقول: هم أشراف، إذا قتلوا رضي بهم من قتلهم، بهم يُدركُ ثاره ويشتفي. ومن مناياهم القتل، اي لا يموتون على فرشهم).

٤٨٥ - [ما يعتري المختنق والممرور]

وهذا كما يعتري الذي يصيبه الأسَنُ[١] من البخار المختنق في البئر إذا صار فيها، فإنّه ربّما استقى واستخرج وقد تغيّر عقله. وأصحاب الرّكايا[٢] يرون أنَّ دواءَه أن يُلقوا عليه دثاراً ثقيلاً، وأن يزمَّل تزميلاً وإن كان في تموزَ وآب، ثم يحرس وإن كان قريباً من رأس البئر، فإنّه إنْ لم يُحَلْ بينَه وبينَها طرح نفسَهُ في تلك البئر، أتاها سعياً في أوَّلِ ما يفتح عينَه ويرجعَ إليه اليَسيرُ من عقله، حتى يُكفيَ نفسَه فيها من ذات نفسه، في الموضع الذي قد لقي منه ما لقي، وقد كان عنده معلوماً أنَّ القومَ لو تركوه طَرْفَةَ عينٍ لهلَك. هكذا كان عنده أيَّام صحّةِ عقله، فلمّا فسد أراه الفسادُ أنَّ الرَّأيَ في العَود إلى ذلك الموضع.

وكما يعتري الممرورَ[٣] حتَّى يرجُم النَّاس، فإنَّ المِرَّة تصوِّر له أن الذي رَجَمه قد كان يريدُ رجمه، فيرى أنَّ الصَّواب أن يبدأه بالرَّجْم وعلى مثلِ ذلك تُريه المِرّةُ أنَّ طرْحَه نفسَه في النَّار أجودُ وأحزم.

وليس في الأرض إنسانٌ يذبح نفسَه أو يختنق أو يتردَّى في بئر، أو يرمي نفسه من حالقٍ، إلاَّ من خوف المثْلة أو التعذيب أو التعيير وتقريع الشامتين، أو لأنّ به وجعاً شديداً فيحرِّكُ عليه المِرَّة فيحمَى لذلك بدنُه ويسخنُ جوفُه، فيطير من ذلك شيءٌ إلى دِماغه أو قلبهِ، فيوهمه ذلك أنَّ الصَّواب في قتلِ نفسه، وأنّ ذلك هو الرَّاحة. وأنّ الحزم مع الرَّاحة.

ولا يختار الخنقَ الوادعُ الرابح الرافه، السليمُ العقلِ والطِّباع. وللغيظ ربَّما رَمى بنفسه في هذه المهالك، وقذف بها في هذه المهاوِي.

وقد يعتري الذي يصعَد على مثل سنسيرة أو عقَرقوفَ[٤] أو خضراء زوج، فإنّه يعتريه أن يرمي بنفسه من تلقاء نفسه، فيرون عند ذلك أن يَصعَد إليه بعضُ المعاودين المجرّبين، ولا يَصنع شيئاً حتَّى يشُدَّ عينَيه، ويحتال لإنزاله، فهذا المعنى عامٌّ فيمن كانت طبيعته تثور عندَ مثلِ هذه العلَّة، وما أكثر من لا يعتريه ذلك.

وقد قال النَّاسُ في عذر هؤلاء ولأنّ فيهم ضروباً من الأقاويل.

---

(١) في القاموس «أسن»: (أسِنَ: دخل البئر فاصابته ريح منتنة فغشي عليه).

(٢) الركايا: جمع ركية، وهي البئر. «القاموس: ركي».

(٣) الممرور: من غلبت عليه المرة. «القاموس: مرّ».

(٤) عقرقوف: قرية بينها وبين بغداد أربعة فراسخ. معجم البلدان (عقرقوف).

وإنّما تكلمنا على المغلوب. فأمَّا من كانت هذه العوارضُ لا تُفسد عقلَه، ولا تنقُضُ استطاعته، فليس بيننا اختلافٌ في أنّه ملوم. على أنّ إلزامَه اللائمةَ لا يكونُ إلاّ مِن بَعدِ خُصومةٍ طويلةٍ، لا يصلُح ذكرُها في هذا الباب.

٤٨٦ - [ضعة الغراب وضعفه]

وقال صاحب الكلب[١]: الغراب من لئام الطير وليس من كِرامها، ومن بغاثها وليس من أحرارها، ومن ذوات البراثن الضعيفة والأظفار الكليلة، وليس من ذوات المخالب المعقَّفة والأظفار الجارحة. ومن ذوات المناقير وليس من ذوات المناسر. وهو مع أنّه قويُّ النَّظَر. لا يتعاطى الصَّيد. وربَّما راوغَ العصفور، ولا يَصيد الجرادة إلاّ أن يلقاها في سُدٍّ[٢] من الجراد. وهو فَسْلٌ إن أصاب جيفةً نال منها وإلاّ مات هُزالاً، ويتقمّم كما يتقمم بهائم الطير وضعافها، وليس ببهيمةٍ لمكانِ أكْلِه الجيف، وليس بسَبع لعَجْزه عن الصَّيد.

٤٨٧ - [ألوان الغربان]

وهو مع ذلك يكون حالكَ السَّواد شديدَ الاحتراق، ويكون مثلُه من الناس الزَّنجَ فإنّهم شِرارُ الناس، وأردأُ الخلق تركيباً ومزاجاً، كَمَنْ بردت بلادُه فلم تطبخه الأرحام، أو سخنت فأحرقته الأرحام. وإنما صارت عقول أهل بابَل وإقليمها فوقَ العقول، وجمالهم فوق الجمال لعلّةِ الاعتدال.

والغراب إمَّا أن يكونَ شديدَ الاحتراق فلا يكون له معرفةٌ ولا جمال، وإمَّا أن يكونَ أبقعَ فيكونَ اختلافُ تركيبه وتضادُّ أعضائهِ دليلاً على فسادِ أمْره. والبُقْع الأمُ من السُّود وأضْعَف.

٤٨٨ - [أنواع الغربان]

ومن الغِرْبان غُراب الليل، وهو الذي ترك أخلاقَ الغِربان وتشبَّه بأخلاق البوم[٣].

ومنها غُراب البَينِ. وغراب البَينِ[٤] نوعان: أحدهما غِربان صِغارٌ معروفةٌ

---

(١) نقل النويري الخبر في نهاية الأرب ١٠ / ٢١٠.
(٢) جراد سُدٌّ: كثير سَدَّ الأفق. «القاموس: سدد».
(٣) الخبر في ثمار القلوب (٦٧٢).
(٤) الخبر في ثمار القلوب (٦٧٠-٦٧١).

بالضَّعف واللُّؤم والآخر: [كُلُّ غُرَاب يُتَشاءَمُ به. و][1] إنَّما لزمهُ هذا الاسمَ لأن الغرابَ إذا بانَ أهْلُ الدَّار للنُّجعة، وقَعَ في مرابض بيوتهم يلتمس ويتقمَّم، فيتشاءمون به ويتطيَّرون منه، إذْ كان لا يعتري منازلهم إلاّ إذا بانوا، فسمَّوه غراب البين. ثمَّ كرهوا إطلاق ذلك الاسم له مخافة الزَّجْر والطِّيرَة، وعلموا أنّه نافذ البصر صافي العين – حتى قالوا: «أصفى مِنْ عَيْنِ الغراب»[2]. كما قالوا: «أصفَى مِن عين الدّيك»[2] – فسمّوه الأعور كنايَةً، كما كنوا طيرة عن الأعمى فكنوه أبا بَصير. وبها اكتنى الأعشَى بعد أنْ عمي. ولذلك سمَّوا الملدوغ والمنهوش سليماً، وقالوا للمهالك من الفيافي: المفاوز. وهذا كثير.

والغِدْقان[3] جنس من الغِربان، وهي لئام جدًّا.

٤٨٩ – [التشاؤم بالغراب]

ومنْ أجْل تشاؤمِهم بالغراب اشتقُّوا من اسمه الغُربة، والاغتراب، والغريب.

وليس في الأَرض بَارحٌ ولاَ نَطيح[4]، ولا قَعيد، ولا أَعضب[5] ولا شيءٌ مما يتشاءمون به إلاّ والغرابُ عندَهم أنكدُ منه، يرون أنه صِيَاحَهُ أكثر أخباراً، وأَنّ الزَّجْر فيه أَعمُّ. وقال عنترة: [من الكامل]

حَرِق الجناح كَأَنّ لَحْيَيْ رأسه ... جَلَمانِ، بالأَخبار هَشٌّ مُولَعُ[6]

٤٩٠ – [التعاير بأكل لحم الغراب]

وهو عندهم عار، وهم يَتعايرون بأكل لحمه. ولوكان ذلك منهم لأنَّه يأكل

---

(١) الزيادة من ثمار القلوب (٦٧٠).

(٢) مجمع الأمثال ١/٤١٧، والمستقصى ١/٢١٠، وجمهرة الأمثال ١/٥٦٧، والدرة الفاخرة ١/٢٦٣.

(٣) غدفان: جمع غُداف، وهو الغراب الضخم، أو غراب صغير أسود؛ لونه كلون الرماد. حياة الحيوان ٢/١٠١.

(٤) البارح: ما مر من الطير من ميامنك إلى مياسرك. «القاموس: برح»، النطيح: ما يأتي إليك من أمامك من الطير. «القاموس: نطح».

(٥) القعيد: ما أتى إليك من ورائك من ظبي، أو طائر. «القاموس: قعد». الأعضب: المكسور القرن. «القاموس: عضب».

(٦) ديوان عنترة ٤٨ (دار صادر) واللسان (حرق، بين)، والتاج (بين)، وأساس البلاغة (حرق)، وبلا نسبة في الجمهرة ٥١٩، والمخصص ١/٧٣.

اللحوم، ولأنَّه سبع، لكانت الضَّوارِي والجوارحُ أحقَّ بذلك عندهم. وقد قال وَعْلَة الجَرْمي: [من الوافر]

فما بالعار ما عَيَّرْتُمونا شواءَ الناهضات مع الخبيص[١]
فما لَحْمُ الغُرابِ لنا بزادٍ ولَا سَرَطَانُ أنْهارِ البريص[٢]

٤٩١ - [فسق الغراب وتأويل رؤياه]

قال: والغربانُ جنسٌ من الأجناس التي أُمر بقتلها في الحِلِّ والحرم[٣]، وسميت بالفسق وهي فواسق، اشتقَّ لها من اسم إبليس.

وقالوا: رأى فلان فيما يرى النَّائم أنه يُسقطُ أعظمَ صومعةٍ بالمدينة غرابٌ. فقال سعيدُ بن المسيِّب: يتزوج أفسَق الفاسقين امرأةً من أهل المدينة. فلم يلبثوا إلا أيَّاماً حتى كان ذلك.

٤٩٢ - [غراب نوح]

وقالوا في المثل[٤]: «لا يرجعُ فلانٌ حتَّى يرجعَ غرابُ نوح»[٥]، وأهل البصرة يقولون: «حتَّى يرجعَ نَشيطٌ من مَرْو»[٦]، وأهل الكوفة يقولون: «حتَى يرجعِ مَصقَلة من سِجِستان»[٧]. [وكما تقول العرب: حتى يؤوب القارظ العنزي][٨] فهو مثلٌ في كل موضعٍ من المكروه.

(١) البيتان في نهاية الأرب ١٠ / ٢١١، والثاني في اللسان والتاج (برص)، وعجزه في معجم البلدان (بريص). الناهض: فرخ الطائر الذي وفر جناحه وتهيأ للطيران. «القاموس: نَهَض». الخبيص: ضرب من الحلوى؛ يصنع من التمر والسمن. انظر الوصلة إلى الحبيب ٨٠٣.

(٢) البريص: نهر دمشق. معجم البلدان (بريص).

(٣) أخرج البخاري في الإحصار وجزاء الصيد، باب ١٩، حديث ١٧٣٢، ومسلم في الحج، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب برقم ١١٩٨ (عن عائشة رضي اللّه عنها أن رسول اللّه ﷺ قال: خمس من الدواب، كلهن فاسق، يقتلن في الحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور).

(٤) وردت هذه الفقرة في ثمار القلوب ٣٠ (١٠٠)

(٥) في مجمع الأمثال ١ / ١١٩ (أبطأ من غراب نوح عليه السلام).

(٦) مجمع الأمثال ١ / ٢١٦، وجمهرة الأمثال ١ / ٣٦١. كان نشيط غلاماً لزياد بن أبيه؛ وكان بنّاءً، مرو. ومرو: أشهر مدن خراسان وقصبتها. معجم البلدان (٥ / ٢١١).

(٧) في جمهرة الأمثال ١ / ٣٦٢، والمعارف ٤٠٣، ومعجم البلدان ٤ / ١٥ (حتى يرجع مصقلة من طبرستان)، ومصقلة: هو ابن هبيرة من بني شيبان، كان مع علي بن أبي طالب، ثم هرب إلى معاوية، الذي ولاه طبرستان.

(٨) الزيادة من ثمار القلوب (١٠٠)، والمثل في المستقصى ١ / ١٢٧، ومجمع الأمثال ١ / ٢١١.

٤٩٣ - [نتن فرخ الغراب والهدهد]

وزعم الأصمعيُّ عن خلف الأحمر، أنَّه قال: رأيت فرخ غراب فلم أر صورة أقبحَ ولا أسمجَ ولا أبغضَ ولا أقذرَ ولا أنْتنَ منه. وزعم أنَّ فِراخ الغِربان أنتنُ من الهدهد ـ على أنَّ الهدهدَ مَثَلٌ في النَّتْن ـ فذكر عِظَمَ رأسٍ وصِغَر بدن، وطولَ منقار وقصرَ جناح، وأنَّه أمْرَطُ أسود، وساقط النَّفْس، ومُنتِن الرِّيح.

وصاحب المنطق يزعم أنَّ رؤيَةَ فَرْخ العُقاب أمرٌ صعب، وشيءٌ عسير. ولست أحسنُ أنْ أقضيَ بينهما.

والغربان عندنا بالبَصرة أوابدُ غير قواطع، وهي تفرخ عندنَا في رؤوس النَّخل الشَّامخة، والأشجار العالية.

٤٩٤ - [خداع الغراب للديك]

فالغرابُ عند العرب مع هذا كلِّه، قد خدع الدِّيك وتلعَّب به(١)، ورَهَنَه عند الخمَّار، وتخلَّص من الغُرْم، وأغلقه عند الخمَّار، فصار له الغنم وعلى الدِّيكِ الغرم، ثم تركه تركاً ضرب به المثل.

فإن كان معنى الخبر على ظاهر لفظه. فالدِّيك هو المغبون والمخدوع والمسخور به، ثمَّ كانَ المتلعِّب به أنْذلَ الطير وألأمَه.

وإن كان هذا القولُ مهم يجري مَجرى الأمثال المضروبة، فلولا أنَّ عُلْيَا الدِّيك في قلوبهم دونَ محلِّ الغراب ـ على لؤم الغراب ونذالته وموقه وقلّة معرفته ـ لَمَا وضعوه في هذا الموضع.

٤٩٥ - [دهاء أمية بن أبي الصَّلت]

فإن أردتمْ معرفةَ ذلك فانظروا في أشعارهم المعروفة، وأخباره الصحيحة ثمّ ابدؤوا بقول أُميَّة بن أبي الصَّلت، فقد كان داهيةً من دواهي ثقَيف، وثَقيفٌ من دُهاة العرب، وقد بلغ من اقتداره في نفسه أنَّه قد كان همَّ بادِّعاء النُّبوة، وهو يعلم كيف الخصالُ التي يكون الرجل بها نبيًّا أو متنبِّياً إذا اجتمَعت له، نعمْ وحتَّى تَرَشَّحَ(٢) لذلك بطلب الرِّوايات، ودرْس الكُتُب، وقد بان عندَ العرب علاّمةً، ومعروفاً بالجوَلان في البلاد، راوية.

---

(١) انظر الفقرة (٤٩٦).

(٢) ترشح الفصيل: قوي على المشي. «القاموس: رشح».

٤٩٦ - [خداع الغراب للديك]

وفي كثيرٍ من الروايات مِن أحاديث العرب، أنّ الدِّيك كان نديماً للغراب، وأنَّهما شربا الخمر عند خمَّارٍ ولم يعطياه شيئاً، وذهب الغرابُ ليأتيَه بالثَّمن حين شرب، ورَهن الدِّيك، فخاس به، فبقي محبوساً.

٤٩٧ - [الغراب والحمامة في سفينة نوح]

وأنَّ نوحاً صلَّى اللّه عليه وسلم حينَ بقي في اللُّجَّة أيّاماً بعث الغرابَ، فوقع على جيفةٍ ولم يرجع، ثمّ بعث الحمامة لتنظر هل ترى في الأرض موضعاً يكون للسفينة مَرفأ، واستجْعَلت[١] على نوحٍ الطَّوق الذي في عنقها، فرشاها بذلك - أي فجعَلَ ذلك جُعْلاً لها.

وفي جميع ذلك يقول أمَّية بن أَبي الصَّلت: [من الوافر]

بآية قامَ ينْطِقُ كلُّ شيءٍ وخانَ أمَانَةَ الدِّيكِ الغرابُ[٢]

يقول: حين تركه في أيديهم وذهب وتركه.

والعامّة تضرب به المثل وتقول: «ما هُوَ إلاّ غرابُ نوح»[٣].

ثم قال: [من الوافر]

وأُرْسلت الحَمَامَةَ بَعْدَ سَبْعٍ تدُلُّ على المهالك لا تَهابُ
تَلَمَّسُ هَلْ ترَى في الأرضِ عيناً وغايتها من الماء العبابُ[٤]
فجاءَتْ بَعْدَ ما ركَضَتْ بقِطْفٍ عليه الثَّاط والطين الكُبابُ[٥]
فلما فرَّسُوا الآيات صَاغُوا لها طوْقاً كما عُقِدَ السِّخابُ[٦]
إذا ماتت تورِّثُه بنيها وإنْ تُقْتَل فليس لَها استلاب[٧]

(١) استجعلت: طلبت الجَعالة، وهي الرشوة. «القاموس: جعل».

(٢) ديوان أمية ٣٣٨-٣٤٠، ومنه أخذت شرح مفردات الابيات التالية.

(٣) في مجمع الامثال ٢/٦٧ (غراب نوح).

(٤) العين: الناحية، أراد ناحية لا ماء فيها. العباب من كل شيء أوله، وعباب الماء: أوله ومعظمه.

(٥) ركض الطائر: أسرع في طيرانه. والقطف: ما قطف من ثمار وسواها. الثاط: الطين الأسود المنتن. الكباب: الطين اللازب.

(٦) الآيات: العلامات. السخاب: القلادة.

(٧) الاستلاب: الاختلاس.

كذي الأفْعَى تَرَبَّبَهَا لديه ... وذي الجنّيٌ أرسله تسابُ[1]
فلا ربٌّ المنية يأمَنْها ... ولا الجنّيُّ أصبح يُستَتابُ

الجنّيّ: إبليس، لذنوبه. والأفعى هي الحيَّة التي كلم إبليس آدَمَ من جَوفها. ومَنْ لا علِمَ عندَه يروي أيضاً أنَّ إبليس قد دخل جوفَ الحمار مرَّة، وذلك أنَّ نوحاً لمَّا دخلَ السفينة تمنَّع الحمار بعسره ونَكَدِه، وكان إبليسُ قد أخذَ بذَنَبه. وقال آخرون: بل كان في جوفه فلمَّا قال نوح للحمار: ادخل يا ملعون! ودخل الحمار، دخَل إبليس معه، إذْ كانَ في جوفه. قال: فلمَّا رآه نوحٌ في السفينة قال: يا ملعون من أدخلك السَّفينة؟ قال: أنتَ أمرتَني. قال: ومتى أمرتك؟ قال: حينَ قلتَ، ادخل ياملعون، ولم يكن ثمَّ ملعون غيري.

٤٩٨ - [شعر أمية في الديك والغراب والحمامة]

قال أميَّة بن أبي الصَّلت: [من الخفيف]

هو أَبْدَى من كلّ ما يأثرُ النّا ... سُ أماثيلَ باقياتٍ سُفُورا[2]
خَلَقَ النَّخْلَ مُصْعَداتٍ تراها ... تقصف اليابسات والخضُورا[3]
والتَّماسيح والثَّياتل والإِ ... يِّلَ شتّى والرِّيمَ واليَعْفُورا[4]
وَصواراً من النّواشط عيناً ... وَنَعَاماً خَواضباً وحَميرا[5]
وأُسُوداً عوادياً وفيَولاً ... وذياباً والوَحْشَ والخنْزيرا
ودُيوكاً تدعو الغرابَ لِصُلْحٍ ... وإِوَزّينَ أخرجتْ وصقورا[6]

قال: ثم ذكر الحمامة فقال[7]: [من الخفيف]

سمع الله لابنِ آدَمَ نُوحٍ ... ربُّنا ذُو الجلال والإِفْضالِ

---

(١) تربيها: ربّاها..
(٢) ديوان أمية ٤٠٠ - ٤٠٢. ومنه أخذت شرح مفردات الأبيات التالية. سفورا: ظاهرة؛ من أسفرت المرأة وجهها: إذا كشفت عنه النقاب.
(٣) مصعدات: مرتفعات. تقصف: تلقي. الخضور: الأخضر.
(٤) الثياتل: مفردها ثيتل؛ وهو الذكر المسن من الوعول. الإيل: مفردها أيِّل، وهو ذكر الأوعال، الريم: الظبي الخالص البياض. اليعفور: الظبي الذي لونه كلون العفر، وهو التراب.
(٥) الصوار: القطيع من البقر الوحشي. النواشط: التي تخرج من أرض إلى أرض للمرعى. العين: مفردها عيناء؛ وهي الواسعة العين. الخواضب: مفردها خاضب؛ وهي من النعام ما كان أحمر الساقين.
(٦) الإوزون: جمع إوزة.
(٧) ديوان أمية ٤٣٩.

حينَ أوفَى بذي الحمامة والنَّا س جميعاً في فُلْكه كالعيالِ
فأتَتْهُ بالصِّدْقِ لمّا رشَاها وبِقِطْفٍ لما غدا عِثْكالِ[1]

ووصف في هذه القصيدة أمر الحمامة والغراب صفة ثانية، وغيرَ ذلك، وبدأ بذكر السفينة فقال[2]: [من الطويل]

تَرَفَّعُ في جَرْيٍ كأنَّ أطيطَه صَريف مَحال تَستعيد الدّواليا[3]
على ظَهْر جَوْنٍ لم يُعَدَّ لراكب سرَاهُ وغيمٍ ألبس الماءَ دَاجيا[4]
فصارتْ بها أيَّامَها ثَمَّ سَبْعَةً وستَّ ليالٍ دائبات غَواطيا[5]
تشُق بهم تهوي بأحسن إمرةٍ كأنَّ عليها هَادياً ونَوَاتيا[6]
وكان لها الجُودِيُّ نهياً وغَايَةً وأصبح عنه مَوجُه متراخيا[7]

[ثم قال]:

وما كان أصحابُ الحمامة خيفة غَدَاةً غدَتْ منهم تضمُّ الخوافيا
رسولاً لهم واللّه يُحكِمُ أمرَه يُبينُ لهم هل يُؤنَس التّربُ باديا
فجاءتْ بقطف آيةً مستبينَةً فأصبحَ منها موضعُ الطِّين جاديا[8]
على خطْمها واستوْهَبَتْ ثَمَّ طَوقَها وقالتْ ألا لا تجعلِ الطّوقَ حَاليا[9]
ولا ذهَباً، إنِّي أخافُ نبالهم يخالونه مالي وليسَ بماليا
وزِدْني على طوْقي من الحَلْيِ زينةً تُصيب إذا أتبعت طوْقي خضابيا
وزدني لطَرْف العَينِ منك بنعمة وأَرِّث إذا ما متُّ طَوقي حَماميا
يكُون لأولادي جمالاً وزينةً ويهوين زيني زينة أن يرانيا[10]

---

(١) العثكال: العذق بشماريخه، وهو من النخل بمنزلة العنقود من الكرم.
(٢) ديوان أمية ٥٣٠ – ٥٣٧.
(٣) الأطيط: الصوت. صريف البكرة: صوتها. مَحال: مفردها مَحالة، وهي البكرة العظيمة التي يستقى عليها، الدواليا: الدلاء العظيمة.
(٤) جون: أسود. أراد به البحر.
(٥) الغواطيا: مفردها غاطية؛ وهي المظلمة التي تغطي ما على الأرض.
(٦) النواتي: الملاحون.
(٧) الجودي: الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح عليه السلام.
(٨) القطف: كل ما يقطف، وأراد به قضيب الزيتون الذي حملته الحمامة إلى نوح دلالة على اليابسة. الجادي: الزعفران.
(٩) في ديوانه (باليا) مكان (حاليا).
(١٠) في ديوانه (ترابيا) مكان (يرانيا)

ثم عادَ أيضاً في ذكر الدِّيك فقال:

ولا غرْو إلاَّ الدِّيكُ مدمن خمرةٍ ... نديم غرابٍ لا يملُّ الحوانيا[1]
وَمَرْهَنُهُ عن الغراب حبيبَهُ ... فأوفيت مرهوناً وخلفاً مُسابيا[2]
أَدَلَّ عليه الدِّيك: إنّي كما ترى ... فاقبلْ على شأني وهاكَ رِدائيا
أمنتك لا تلبَثْ من الدَّهر ساعةً ... ولا نصفَها حتّى تؤوب مآبيا
ولا تدركنْك الشّمسُ عندَ طلوعها ... فأعلقَ فيهم أو يَطولَ ثَوائيا
فردّ الغرابُ والرداء يحوزه ... إلى الدِّيك وعداً كاذباً وأمانيا
بأيَّة ذنب أو بأيَّة حُجَّةٍ ... أدعْكَ فلا تدعو عليَّ ولا ليا
فإنِّي نذرتُ حَجَّةً لن أعوقها ... فلا تدعونّي مرَّة من ورائيا
تطيِّرت منها والدُّعاءُ يَعُوقني ... وأزْمَعْتُ حَجًّا أنْ أطير أماميا
فلا تيأسَنْ إنّي مع الصُّبح باكرٌ ... أُوافي غداً نحوَ الحجيج الغواديا
لحبِّ امرئٍ فَاكهتُه قبلَ حَجَّتي ... وآثرتُ عَمْداً شأنَه قبلَ شانيا[3]
هنالك ظنَّ الدِّيك إذ زال زَوْلُهُ ... وطالَ عليه اللَّيلُ ألاَّ مُفاديا[4]
فلما أضاءَ الصُّبحُ طرَّبَ صَرْخةً ... ألا يا غرابُ هل سمعتَ ندائيا
على ودِّه لو كان ثمَّ مجيبَه ... وكان له نَدْمانَ صدق مُوَاتيا
وأمسى الغُرابُ يضرِبُ الأرضَ كلَّها ... عتيقاً وأضحَى الدِّيكُ في القِدِّ عانيا[5]
فذلك ممّا أسْهَبَ الخمرُ لُبَّهُ ... ونادمَ نَدماناً من الطَّير عاديا[6]

٤٩٩ - [ما يلقم فراخه وما يزقها]

قال: ومن الطَّير ما يُلقِم فِراخه مثل العصفور، لأن العصفور لا يزُقّ. وكذلك أشباه العصفور.

ومن الطير ما يَزُقُّ فراخَه، مثلُ الحمام وما أشبه ذلك كبهائم الطير الخالصة. لأنَّ الدَّجاجةَ تأكل اللَّحم، وتَلَغُ في الدم، وولدها حين يخرج من البيض يخرج كاسباً

(١) الحواني: الحانات، مفردها الحانية، وهي مثل الحانوت.
(٢) في ديوانه (وخان مسابيا)، وقال محقق الديوان عن رواية الحيوان: إنها غامضة.
(٣) فاكهته: مازحته.
(٤) الزول: الحركة، وزال زوله: أصبح ساكناً هادئاً من الحزن والهم. ظن، هنا: بمعنى علم واستيقن.
(٥) العتيق: الطليق. القِدّ: الغل. العاني: الأسير.
(٦) أسهب لبه: ذهب بعقله. الندمان: النديم. العادي: المعتدي.

مليحاً، كيساً بصيراً بما يُعيشه ويقوته، ولا يحتاج إلى تلقيم سباع الطيرِ والعصافيرِ لأولادها، لأنَّ أولادها إذ لم ترضع ولم تلقط الحبَّ كالفراريج أوّلَ ما تخرج من البيض ولم تزقّها الآباءُ ولا الأُمهات كأجناس الحمام ـ فلا بدَّ لها من تلقيم.

٥٠٠ - [طبائع مشتركة في الطير]

والفرُّوج مشترك الطبيعة. قد أخذ من طبائع الجوارح نصيباً، وهو أكْلُه للحم، وحَسْوه للدَّم، وأكله للديدان وما هو أقذر من الذُّباب، والعصفور أيضاً مشارِك الطّباع، لأنّه يجمع بين أكل الحبوب واللُّحمان، وبين لقْط الحبوب وصيد أجناسٍ كثيرةٍ من الحيوان، كالنمل إذا طار. وكالجراد، وغير ذلك . وليس في الأرض رأسٌ أشبهُ برأس الحيَّة من العصفور[١].

٥٠١ - [هداية العصفور]

والعصفور يتعالى ويطير، ويهتدي ويستجيب. ولقد بلغني أنّه قد رجع من قريبٍ من فرسخ. وهي تكون عندنا بالبصرة في الدُّور، فإذا أَمكنت الثمارُ[٢] لم تَجد منها إلاّ اليَسير، فَتصير من القواطع إلى قاصي النَّخْل، وذلك أنّها إذا مرّت بعصافير القرى وقَدْ سبقتْ إلى ما هو إليها أقرب، جاوزَتْها إلى ما هو أَبْعَدْ، ثمَّ تقرُبُ الأَيَّامَ الكثيرةَ إلى ما هو أبعد، ثمَّ تقربُ الأيَّامَ الكثيرةَ المقدار، في المسافة إلى أكثَرَ مما ذكرتُ من الفرْسَخ أَضعافاً.

٥٠٢ - [أشد تعطفاً من عصفور]

والعَصافير لا تقيم في دُورِ الأمصار إذا شخص أهلها عنها، إلاّ ما كان منها مقيماً على بيَض أو فِراخٍ، فإنّه ليس في الأرض طائرٌ أحنَى على ولده ولا أَشدُّ تعطفاً من عصفور. والذي يدلُّ على أنّ في طبعها من ذلك ما ليس في طبعِ سواها من الطّير الذي تجدُ منِ إسعاد بَعضهنَّ لبعض، إذا دخلت الحيَّة إلى جُحر بعضهن لتأكلَ فرخاً، أو تبتلعَ بيضاً، فإنَّ لأبوَي الفرْخ عند ذلك صياحاً وقلقاً وطيراناً، وتدفيفاً وترنيقاً[٣] فوقَ الجُحْرِ ودونَه وحواليه، فلا يبقى عصفورٌ من حيث يسمع صياحَهما أو يسمع أصواتهما إلاّ جئنَ أَرْسَالاً مُسْعِدَاتٍ، يصنعن معهما كما يصنعان.

---

(١) ربيع الابرار ٥ / ٥٥٤.

(٢) أمكنت الثمار: نضجت وامكن اكلها.

(٣) دَفَّ الطائر: حرك جناحيه. رنّق الطائر: خفق بجناحيه ورفرف ولم يطر. «القاموس: دف، رنق».

٥٠٣ - [شدة حذر العصفور]

وليس في الأرض أَصدقُ حَذَراً منهُ، ويقال إنّه في ذلك لأكثر من العَقْعَق[١] والغراب.

وخبَّرني من يصيد العصافيرَ قال: ربما كان العصفور ساقطاً على حائط سطح بحذائي، فيغمُّني صياحُهُ وَحدَّةُ صوته، فاصبح وَأُومِئ إليه بيدي، وَأشير كأنِّي أَرميه، فما يطير. حتَّى ربَّماَ أَهويت إلى الأرض كأني أتناولُ شيئاً، كُلُّ ذلك لا يتحرَّك له. فإنْ مسَّت يدي أَدِيي حصَاة أَو نَواةٍ وَأنَا أُريدُ رميها، طَارَ قبل أن تستمكن منها يدي[٢].

٥٠٤ - [سفاد العصفور][٣]

وليس في الطَّير أكثرُ عَدَد سفاد من العصافير[٤]، ولذلك يقال إنَّها أقصر الطَّير أعماراً. ويقال إنّه ليس شيءٌ مّما يَألَفُ النَّاسَ ويعايشهم في دُورهم أقصرَ عمراً منها، يعنون: من الخَيل والبغال والحمير، والبقر والغنم، والكلاب والسَّنانير، والخطاطِيفُ والزرازير، والحمام والدَّجاج.

٥٠٥ - [نقزان العصفور]

ولا يقدر العصفورُ على المشي، وليس عنده إلا النَّقَزَان[٥]، ولذلك يسمَّى النَّقَّاز، وإنَّما يجمع رجليه ثمَّ يثب، وذلك في جميع حركاته، وفي جميع ذَهابه ومجيئه. فهي الصَّعْو، والعصافير، و النقاقيز. وإن هو مشى هذه المشيةَ - التي هي نَقَزان - على سَطحٍ وإن ارتفع سَمْكه، فكأنَّك تسمع لوطئه وقْعَ حجرٍ، لشدَّة وطئه، ولصلابة مشيه، وهو ضدُّ الفيل؛ لأنَّ إنساناً لو كان جالساً ومن خلف ظهره فيلٌ لَما شَعرَ به، لخفّة وقع قوائمه، مع سرعة مَشي وتمكينٍ في الخطَا.

٥٠٦ - [سبُعية الرَّخم والنسر]

والرَّخَم والنَّسر سباع، وإنَّما قصَّر بها عدمُ السلاح. فأمَّا البدن والقوَّة ففوقَ جميعِ الجوارح. ولكنّهاَ في معنى الدَّجاج، لمكانِ البَرَاثِن ولعدم المخالب.

---

(١) العقعق: طائر على قدر الحمامة، وهو على شكل الغراب، وجناحاه أكبر من جناحي الحمامة، إذا باضت الأنثى أخفت بيضها بورق الدلب خوفاً من الخفاش. حياة الحيوان ٢ /٦٧. ويقال في الأمثال: (أحذر من عقعق)، والمثل في المستقصى ١ /٦٢، وجمهرة الأمثال ١ /٣٩٦.

(٢) من الأمثال (أحذر من غراب)، وهو في المستقصى ١ /٦٢، وجمهرة الأمثال ١ /٣٩٦.

(٣) الفقرة في ثمار القلوب (٧١٤).

(٤) يقال: (أسفد من عصفور)، وهو مثل في مجمع الأمثال ١ /٣٥٦، والمستقصى ١ /١٦٩.

(٥) النقزان: الوثب. «القاموس: نقز».

٥٠٧ - [حب العصفور لفرخه]

ولقد رأيتُ سنَّوراً وثب على فرْخ عصفورٍ فأخطأه فتناولَ الفرخ بعضُ الغلمان فوضعه في البيت، فكان أبوه يجيء حتَى يطعمه، فلمَّا قويَ وكاد يطير جعلَه في قفص، فرأيت أباه يجيء يتخرَّق السَّنانير وهي تهُمّ به، حتَّى يدخل إليه من أعلى فتح الباب، وهي تهمُّ بالوثوب والاختطاف له، حتَّى يسقُط على القفص فينازعه ساعة، فإذا لم يجدْ إلى الوصول سبيلاً طارَ فسقط خارجاً من البيت، ثُمَّ لا يصبر حتَّى يعود. فكان ذلك دأبَه. فلمّا قوي فرخه أرسلوه معه فطارا جميعاً.

وعرفنا أنَّه الأبُ دونَ الأمِّ لسوادِ اللِّحية.

٥٠٨ - [قبح صوت الديك]

قال: والدليلُ على أنَّ صوت الدِّيك كريهٌ في السَّماع، غيرَ مطربٍ، قولُ الشاعر[١]: [من الكامل]

ذَكَرَ الصَّبُوحَ بسُحْرَةٍ فارتَاحَا　　وأَمَلَّهُ ديكُ الصَّبَاحِ صِياحَا
أَوفَى على شَعَفِ الجِدَارِ بسُدْفةٍ　　غَرِداً يصفِّقُ بالجَنَاحِ جَنَاحا[٢]

٥٠٩ - [صغر قدر الدجاج]

قال: ويدلُّ على صِغَر قدْر الدَّجاج عندهم قولُ بشَّارِ بنْ بُردِ الأعمى[٣]: [من الوافر]

بجدِّك يا ابنَ اقْرَعَ نِلتَ مالاً　　الا إنَّ اللِّئامَ لهم جُدُودُ
فمن نذر الزِّيادة في الهدايا　　اقمتَ دَجاجة فيمن يَزِيدُ

٥١٠ - [إذا كثر الدجاج قلّ عدد البيض][٤]

قال: وإذا كثر الدَّجاج في دارٍ أو إصطبل أو قريَة، لم يكن عددُ بيضها وفراريجها على حسَب ما كان يبيض القليل منهنَّ ويفرخه. يعرف ذلك تُجَّار الدَّجَاج ومَن اتخذها للغَلَّة.

وهي بِمِصرَ تَرْعَى كما يَرْعَى الغنم، ولها راعٍ وقيِّم.

---

(١) البيتان لأبي نواس من خمرياته في ديوانه ١.
(٢) شعف الجدار: أعلاه. السدفة: اختلاط الضوء والظلمة.
(٣) ديوان بشار بن برد ٣/١٨.
(٤) انظر الفقرة (٥١٢).

٥١١ - [فراخ الدجاج وفراخ الحمام]

والموتُ إلى الدَّجاج سريعٌ جداً، العادة في صغار فراريجهاخلاف ما عليها نتوُ فراخِ الحمام، لأنَّ الفرُّوج تتصدَّعُ عنه البَيضة فهو كَيِّسٌ ظريف، مليح مقبول، مُحبٌّ، غنيٌّ بنفسه، مكتفٍ بمعرفته، بصيرٌ بموضع معيشته من لَقْط الحب، ومن صَيْد الذُّباب وصغار الطير من الهوامّ. ويخرج كاسياً حتى كأنَّه من أولاد ذوات الأربع. ويخرج سريعَ الحركة شديدَ الصوت حديده، يُدْعى بالنَّقْر فيُجيب، ولا يقال له: قرْ، قرْ، ثلاثَ مرّات – حتى يَلقنَه. فإن استدبره مستدْبرٌ ودعاه عطفَ عليه، وتتَّبع الذي يطعمه ويلاعبه، وإن تباعد من مكانه الأوَّل. فهو آلف شيء. ثمَّ كلما مرَّت عليه الأيام ماق وحمق، ونقص كيسه، وأقبل قبحُه وأدبر مِلْحُه. فلا يزال كذلك حتى ينسلخ من جميعِ ما كانُ يُحَبُّ له إلى ضدّ ذلك، ويصير من حالة إلى حال لم يبلغ الانتفاع بذبحه وبيضه وفراريجه. وذهب عنهم الاستمتاع بكيسه. ولا يكاد يقبل الشَّحم. حتى يلحقَ بأبيه، وكذلك إن كانت أنثى، لا تقبل السِّمن،ولا تحمل اللَّحمَ حتَّى تكادَ تلحقُ بأُمِّها في الجثّة.

والفرخ يخرج حارضاً[١] ساقطاً، أنقصَ من أنْ يقالَ له مائق، وأقبحَ شيء، وهو في ذلك عاري الجلد مختلف الأوصال متفاوت الأعضاء، ضعيفُ الحوصَلة، عظيم المنقار، فكلمَّا مرَّت به الأيَّام زادت في لحمه وشحْمه، وفي معرفته وبصره،حتى إذا بلغ خرجَ منه مِن الأُمور المحمودة ما عسى لو أنَّ واصفاً تتبَّع ذلك لَملأَ منهُ الأجْلاد الكثيرة. ثم إذا جَازَ حدَّ الفِراخ إلى حَدِّ النواهض[٢]، إلى حَدِّ العُتَق والمخالب[٣]، قلَّ لحمُه وذهب شحمُه على حساب ذلك ينقص. فإذا تمّ وانتهى لم تكنْ في الأرض دابَّةٌ ولا طائرٌ أقلَّ شحماً ولا أخبثَ لحماً منه، ولا أجدرَ ألاَّ يقْبلَ شيئاً من السِّمَن ولو تخيّروا له فؤارَة[٤] المسْمِنات وما يسمّن به ـ ما سمِن.

٥١٢ - [علة قلة البيض إذا كثر الدجاج]

وسألت عن السَّبب الذي صار له الدَّجَاجُ إذا كثُرن قلّ بيضهُنَّ وفراخهنَّ، فزعموا أنَّها في طباع النَّخْل، فإن النَّخلَة إذا زَحمت أختها، بل إذا مسّ طرَفُ سعَفِها

(١) الحارض: المريض والمشرف على الهلاك، ومن لا يرجى خيره. «القاموس: حرض».

(٢) الناهض: الفرخ الذي وفر جناحاه ونهض للطيران. «القاموس: نهض».

(٣) العاتق: فرخ الطائر إذا طار. «القاموس: عتق».

(٤) الفؤارة: حلبة وتمر يطبخ للنفساء. «القاموس: فأر».

طرفَ سعف الأُخرى وجاورتْها، وضيّقت عليها في الهواء، وكذلك أطراف العُروق في الأرض – كان ذلك كرباً عليها وغمّاً.

قالوا: فَتدَانيها وتضاغُطُها، وأنفاسها وأنفاسُ أبدانها، يُحدث لها فساداً.

قال: وكما أنّ الحمامَ إذا كثُرت في الكُنّة[1] والشريحة احتاجتْ إلى شمس وإلى ماء تغتسِل فيه في بعض الأحايين، وإلى أن تكون بُيوتُها مكنوسة في بعض الأوقات ومرشوشة، وإلاّ لم يكنْ لها كبيرُ بيض. على أنّه إذا كان لها في الصميمين الدِّفءُ في الشتاء والكِنُّ في الصيف، لم تُغادرِ الدّهر كلّه أنْ تبيض.

٥١٣ – [فخر صاحب الديك بكثرة ما اشتق من البيض]

قال صاحب الدِّيك: فخرتم للكلب بكثرة ما اشتقّ للأشياء من اسم الكلب، وقد اشتقّ لأكثر من ذلك العدد من البيض، فقالوا لقلانس الحديد: بَيْضٌ، وقالوا: فُلان يَدْفع عن بَيضة الإسلام، وقالوا[2]: قال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أنَا بَيضةَ البلَد. وفي موضع الذمِّ من قولهم[3]: [من البسيط]

تأبَى قضاعة أن تدري لكم نَسَباً   وابنا نزارٍ وأنتمْ بَيَضةُ البَلَدِ

ويسمّى رأس الصَّوْمَعة والقبّة بَيضة. ويقال للمجلس إذا كان معْمُوراً غير مطوّل بَيضٌ جاثمة، ويقال للوعاء الذي يَكون فيه الحِبْن والخراج – وهُو الذي يجتمع فيه القَيح ـ بيضة. وقال الأشتر بن عُبادة: [من الوافر]

يكفُّ غُروبَها ويَغضُّ منها   وَراء القَوم خشية أن يلامُوا
مُظاهِرُ بَيْضَتَين على دِلاصٍ   بهِ من وَقْعةٍ أُخْرى كِلامُ

وقال النابغة: [من الوافر]

فَصَبّحَهُمْ ملَمْلَمَةً رَدَاحاً   كأن رُؤوسهُمْ بَيْضُ النعام[4]

وقَال العُجيرُ السَّلولي: [من الطويل]

إذا البَيْضَةُ الصَّمَّاء عضّت صفيحةً   بِحربائها صاحَتْ صِياحاً وصَلّت

---

(١) الكُنّة: جناح يخرج من حائط؛ أو سقيفة فوق باب الدار؛ أو مخدع؛ أو رفٌّ في البيت. «القاموس: كنّ».

(٢) ثمار القلوب ٣٩٢ (٧١٩).

(٣) البيت للراعي النميري في ديوانه ٢٠٣، والتاج (بلد، بيض)، واللسان (بيض)، وتهذيب اللغة ٣/١٢٤، ١٢/٨٥، وثمار القلوب ٣٩٢ (٧٢٠)، وبلا نسبة في اللسان والتاج (دعا).

(٤) ديوان النابغة الذبياني ١٣٥.

٥١٤ - [شرط أبي عباد النمري في الخمر]

ولما أنشدوا أبا عبَّاد النَّمَرِيَّ قولَ ابنِ مَيَّادة، وهو الرَّمَّاح[١]: [من الكامل]

ولقد غدَوْتُ على الفتَى في رحله قبْلَ الصَّباحِ بمُتْرِعٍ نَشّاجِ[٢]
جادَ القلالُ له بدَرٍّ صبابة حمراءَ مثل سخينة الأوداجِ[٣]
حُبِسَتْ ثلاثةَ أحْرُسٍ في دَارةٍ قَوْراءَ بَيْنَ جَوازِلٍ ودَجاجِ[٤]
تَدَعُ الغويَّ كأنَّه في نفسه مَلِكٌ يعصَّبُ رأسُهُ بالتَّاجِ
ويظَلُّ يحسِب كلَّ شيء حولَه نُجبَ العراق نزَلْنَ بالأحْداجِ[٥]

فحين سمعه أبو عبّاد يقول:

حُبست ثلاثَةَ أحْرُسٍ في دَارةٍ قَوراءَ بَيْنَ جَوازل ودَجاجِ

قال: لو وجدْتُ خمراً زيتيّة ذهبية، أصفى من عين الديك، وعين الغراب، ولعاب الجندب وماء المفاصل، وأحسنَ حمرةً من النّار، ومن نَجيع[٦] غزال، ومن قُوَّة الصَّباغ ـ لَما شربْتها حتَّى أعلمَ أنَّها من عصير الأرجل، وأنَّها من نبات القرى، وما لم تَكدر في الزِّقاق، وأنَّ العنكبوت قد نسَجَت عليها، وأنَّها لم تصرْ كذلك إلاَّ وسْطَ دَسكرةٍ، وفي قرية سَواديَّة وحولَها دَجاجٌ وفراريج. وإن لم تكنْ رقطاء أو فيها رُقْط فإنَّها لم تتمَّ كما أريد. وأعجَب من هذا أنِّي لا أنتفع بشربها حتَّى يكون بائعُها على غير الإسلام. ويكون شيخاً لا يُفصح بالعربيَّة، ويكونَ قميصُهُ متقطِّعاً بالقار. وأعجب من هذا أنّ الذي لا بدَّ منه أنْ يكون اسمه وإنْ كان مجوسيًّا شهريار، ومازيار، وَما أشبه ذلك، مثل أدير، واردان، ويازان. فإن كان يهودياً فاسمه مانشا، وأشلوما، وأشباه ذلك، وإن كان نصرانيّاً فاسمه يُوشع وشمعون وأشباه ذلك.

٥١٥ - [استطراد لغوي]

ويقال حَمِسَ الشرُّ وأحْمَسَ إذا اشتدَّ. ويقال قد احتَمَسَ الدِّيكان احتماساً، إذا

---

(١) ديوان ابن ميادة ٩٠-٩١. ومنه أخذت شرح المفردات.
(٢) المترع النشاج: قدح الخمرة الذي يغلي ما فيه حتى يسمع صوته.
(٣) القلال: جمع قلة، وهي الجرة الكبيرة. الودج: عرق في جانب العنق.
(٤) الأحرس: جمع حرس؛ وهو الدهر. القوراء: الواسعة. الجوازل: الحمام، أو أصواتها.
(٥) الأحداج: جمع حدج، وهو مركب من مراكب النساء نحو الهودج.
(٦) النجيع: الدم الأسود، أو دم الجوف. «القاموس: نجع».

اقتتلا اقتتالاً شَدِيداً، ويقال وقَعَ الطائر يقَع وُقوعاً. وكلُّ واقعٍ فمصدره الوقوع، ومكانه موقعَةٌ، والجمع مواقع. وقال الرَّاجز[١]: [من الرجز]

كأنَّ متنيْه من النفيِّ مواقعُ الطير على الصُّفيِّ[٢]

يقال صفاً وصُفيٌّ. والنّفيُّ: ما نفى الرِّشاء من الماء، وما تنفيه مشافرُ الإبلِ من الماء المَدير[٣]. فشبَّه مكانَه على ظهر الساقي والمستَقي بِذَرْق الطَّير على الصَّفا.

ويقال: وقع الشيءُ من يدي وُقوعاً، وسقط من يدي سُقوطاً. ويقال وقَع الربيع بالأرض، ويقال سقَط. وقال الرّاعي: [من الكامل]

وقْعَ الربيع وَقدْ تقاربَ خَطْوُهُ ورأى بعَقْوَتِه أزلَّ نَسُولا[٤]

٥١٦ - [لؤم الفروج]

قال: وكان عِنْدَنا فرّوجُ، وفي الدار سنانيرُ تعابثُ الحمامَ وفراخه، وكان الفرُّوج يهرُب منها إلى الحَمام، فجاؤُونا بدُرَّاج، فترك الحمامَ وصار مع الدُّرَّاج، ثمَّ اشترينا فَروجاً كَسْكَرِيّاً للذّبح فجعلناه في قفص، فترك الدُّرّاج ولزم قُرْب القفَص، فجئْنا بدَجَاجَةٍ فترك الدِّيك وصار مع الدَّجاجة، فَذكرتُ قولَ الفزْر عبد بني فَزَارة - وكانت بأذنه خُرْبَة[٥] -: إنّ الوثام يتنزَّع في جميع الطَّمْش[٦]، لا يَقرب العنزُ الضَّأن ما وجدت المعز، وتنفر [الشاء][٧] من المخلب ولا تتأنّس بالخفّ. فجعلَها كما ترى تنفر ولا تَأنس منزله وكذلك حدّثنا الأَصمعيُّ قال: قلتُ للمنتَجع بن نبهان - وكانت بأُذنه خربة[٨] - أكان تميمٌ مسلماً؟ قال: إن كان هو الذي سمَّى ابنَه زَيْدَ مناةَ فما كانَ

(١) الرجز للأخيل الطائي في اللسان (صفا، نفي)، والتاج (هيص، وقع، نفي)، ولرؤبة في ملحق ديوانه ١٨٨، والتاج (صفا)، وله أو للعجاج في اللسان (هيص)، وليس في ديوان العجاج، وبلا نسبة في الجمهرة ٩٤٥، ٩٧٢، واللسان (هيض، وقع)، والتاج (هيض)، والعين ٤/٧٠، والمخصص ٤١/٤، ١٠/٩٠، والتهذيب ٣/٣٧، ٦/٣٦٥، ١٥/٤٧٥، والخصائص ٢/١١٢، وشرح المفصل ٥/٢٢، ومجالس ثعلب ٢٠٧، وأمالي القالي ٢/٨.

(٢) الصفي: جمع صفا، والصفا: جمع صفاة؛ وهي الحجر الصلد.

(٣) الماء المدير: به مدر؛ وهو الطين اليابس. «القاموس: مدر».

(٤) ديوان الراعي: ٢٣٩، واللسان (نهش)، والتاج (نسل).

(٥) الخربة: ثقب شحمة الأذن. «القاموس: خرب». وورد الخبر في رسائل الجاحظ ١/١٧٧-١٧٨، وقد رواه الأصمعي.

(٦) الطمش: الناس.

(٧) إضافة من رسائل الجاحظ ١/١٧٨.

(٨) في رسائل الجاحظ ١/١٩٨ (وكان المنتجع سندياً في أذنه خربة، وقع إلى البادية وهو صبي، فخرج أفصح من رؤبة).

مسلماً، وَإلاَّ يكنْ هو الذي سَّماه فلا أدري. ولم يقلْ: وإلاَّ يكنْ هوسَّماه فقد كان مسلماً.

٥١٧ - [لولا الوئام لهلك الأنام]

والوئام: المشاكلة. وقالوا: تقول العرب: «لولا الوئام لهلك الأنام»[١]. وقال بعضهم: تأويل ذلك: لولا أنَّ بعضَ الناس إذا رأى صاحبه قد صنع خيراً فتشبَّه به لهلك الناس، وقال الآخرون: إنما ذهب إلى أُنسِ بعْض الناس ببَعض، كأنّه قال: إنَّما يتعايشون على مقادير الأُنس الذي بينهم، ولو عمَّتهم الوَحْشة عمَّتهم الهَلَكة، وقال قوم بن مالك، في الوئام: [من الوافر]

عَلامَ أُوائم البخلاءَ فيها   فأقعد لا أزُورُ ولاَ أُزارُ[٢]

وقال الأخْطل[٣]: [من البسيط]

نازعته في الدجَى الرَّاحَ الشَّمُولَ وقدْ   صَاحَ الدَّجاجُ وحانتْ وقفة السَّاري

وقال جرير[٤]: [من البسيط]

لمَّا مَررْتُ على الدَّيرَينِ أرَّقَني   صَوْتُ الدَّجاجِ وقرْعٌ بالنواقيسِ[٥]

٥١٨ - [شعر في الديكة والدجاج]

قالوا: وقد وجدنَا الدِّيَكةَ والدَّجَاجَ وأفعالَها، مذكوراتٍ في مواضعَ كثيرة، قال ذو الرُّمة[٦]: [من البسيط]

كأنَّ أصواتَ من إيغالهنَّ بنا   أواخرِ المَيْسِ أصواتُ الفرَاريجِ[٧]

---

(١) مجمع الأمثال ٢/١٧٦، وجمهرة الأمثال ٢/١٨٤، والمستقصى ٢/٢٩٩، وأمثال ابن سلام ١٥٦، وفصل المقال ٢٣٧.

(٢) ثمة بيت يشبه هذا الشاهد، وهو بلا نسبة في الدرر ٢/١٤٨، والهمع ١/١٣٠ وهو:
(أعاذل توشكين بان ترميني   صريعاً لا أزور ولا أُزارُ)

(٣) ديوان الأخطل ١٦٨.

(٤) ديوان جرير ٣٢١ (الصاوي)، ١٢٦ (دار المعارف)، والسمط ٥٤، واللسان والتاج (دجج، نقس)، والمعاني الكبير ٨٧، والخزانة ٣/١٠٧، ومعجم البلدان ٢/٥٢٥ (دير فَطْرُس ودير بَوْلُس)، ومعجم ما استعجم ٩٦.

(٥) الديران: هما دير فَطْرُس ودير بَوْلُس، وهما بظاهر دمشق في ناحية الغوطة. معجم البلدان ٢/٥٢٥.

(٦) ديوان ذي الرمة ٩٩٦، والخزانة ٤/١٠٨، ٤١٣، ٤١٩، والخصائص ٢/٤٠٤، والكتاب ١/١٧٩، ٢/١٦٦، ٢٨٠، واللسان (نقض)، وبلا نسبة في الجمهرة ٨٦٣، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٠٨٣، وشرح المفصل ١/١٠٣، ٣/٧٧، ٤/١٣٢، والمقتضب ٤/٣٧٦.

(٧) الميس: شجر تتخذ منه الرحال.

وقال الهذلي[1]: [من المتقارب]

ومن أينها بعد إبدانها ... ومن شحم أَثْباجها الهابط[2]
تصيحُ جنادبُهُ رُكَّداً ... صياحَ المساميرِ في الواسط
فهو على كلِّ مستوفز ... سقوط الدَّجاجِ على الحائط

وقال مَرْوان بن محمد: [من السريع]

ضيَّع ما وُرِّثَه راشدٌ ... من كيلَة الأكداسِ في صفِّه
فربَّ كدْسٍ قد علا رمسَه ... كالدِّيك إذ يعلو عَلَى رَفِّه

٥١٩ - [بيضة الديك وبيضة العقر]

ويقال في المثل للذي يعطي عطيّة لا يعود في مثلها: «كانَتْ بَيْضَةَ الدِّيك»[3]. فإن كان معروف له قيل: «بَيْضة العُقْر»[4].

٥٢٠ - [استطراد لغوي]

ويقال دجاجة بَيوضٍ في دَجاجٍ بيضٍ وبُيُض، بإسكان موضع العين من الفعل من لغة سفلى مضر، وضمِّ موضع العين من نظيره من الفعل مع الفاء من لغة أهل الحجاز.

ويقال عمد الجرح يَعمَد عَمَداً، إذا عُصر قبل أن ينضجَ فورِمِ ولم يُخرج بَيضتَه وذلك الوعاء والغِلاف الذى يجمع المِدَّة يسمّى بيضة، وإذا خرج ذلك بالعصر من موضع العَين فقد أفاق صاحبُه.

ويقال حضَن الطائر فهو يحضن حِضاناً.

٥٢١ - [تقسيم الجماع]

ويقال[5]: هو التَّسافد من الطير، والتعاظل من السِّباع. ويقال قَمَط الحمام الحمامة وسفِدَها، ويقال قَعا الفحلُ يقعو قَعْواً، وهو إرساله بنفسه عليها في ضرابه،

---

(١) الابيات لاسامة الهذلي في شرح أشعار الهذليين ١٢٨٩، والأول في اللسان وأساس البلاغة (هبط)، وبلا نسبة في التهذيب ٦/١٨٢.

(٢) الأثباج: الأعالي.

(٣) مجمع الأمثال ٢/١٣١، والمستقصى ٢/٢١١، وأمثال ابن سلام ٣١٥، وفصل المقال ٤٣٧، وانظر ثمار القلوب ٣٩٢، ٣٩٣ (٧١١، ٧٢٠).

(٤) مجمع الأمثال ١/٩٦، والمستقصى ٢/٢١١، والفاخر ٣٤٥، وجمهرة الأمثال ١/٢٢٤، وانظر ثمار القلوب ٣٩٢، ٣٩٣ (٧٢٠).

(٥) انظر مثل هذه الفقرة في أدب الكاتب ١٧٠ - ١٧٢ بعنوان «فروق في السفاد».

والفحل من الخفّ يَضرِب، وهو القَعْو والضّراب. ومن الظِّلف والحافر ينزو نزْواً، وكذلك السنانير، والظليم يقعو، وكلّ الطير يقعو قعواً، وأما الخفّ والظِّلف فإنّه يقعُو بعد التسنم. وهو ضراب ٌ كلُّه ما خلا التسنُّم. وأما الظِّلف خاصَّة فهو قافط، يقال قفط يقفُط قفْطاً. أو القفْط نزوة واحدة. وليس في الحافر إلاّ النَّزو.

٥٢٢ – [حضن الدجاج بيض الطاوس]

قال[١]: ويُوضع بيضُ الطاوس تحتَ الدّجاجة، وأكثرُ ذلك لأنَّ الذَّكر يعبَث بالأنثى إذا حَضَنت، قال: ولهذه العلَّة كثيرٌ من إناث طير الوحش يهربْن ببيضهُنَّ من ذكورتها، ثمَّ لا تضعه بحيث يشعر به ذكورتُهَنّ.

قال: ويُوضَع تحتَ الدجاجة بيضتان من بيض الطاوس، لا تقوى على تسخينِ أكثرَ من ذلك. عَلَى أنهم يتعهّدونَ الدّجاجة بجميع حوائجها خوفاً من أن تقوم عنه فيفسده الهواء.

٥٢٣ – [حجم خصى ذكور الطير]

قال: وخُصَى ذكورِ أجناس الطَّير تكونُ في أوان أوّل السفاد أعظم. وكُلّما كانَ الطيرُ أعظم سِفاداً . كانتَ خصيته أعظمَ، مثلُ الدّيك، والقَبَج، والحَجَل.

وخُصيةَ العصفور أعظم من خُصيةِ ما يساويه في الجثَّة مرَّتين.

٥٢٤ – [بيض الدجاج]

قال: وكلُّ ما كان من الدَّجاج أصغرَ جثَّة يكون أكبر لبيضه. وبعض الدَّجاج يكون يبيض بيضاً كثيراً، وربما باض بيَضتين في يوم واحد؛ وإذا عرض له ذلك كان من أسباب موته[٢].

٥٢٥ – [شعر في صفة الديك]

وقال آخر[٣] في صفة الديك: [من البسيط]

ماذا يؤرِّقني والنومُ يُعْجِبُني ... مِنْ صوتِ ذي رَعَثاتٍ ساكنِ الدَّار

---

(١) ربيع الأبرار ٥/٤٤٤

(٢) ربيع الأبرار ٥/٤٤٤

(٣) البيتان لجران العود في ربيع الأبرار ٥/٤٤٤، والأول للأخطل في اللسان والتاج وأساس البلاغة (رعث) والتنبيه والإيضاح ١/١٨٤، وليس في ديوانه، وهما بلا نسبة في الجمهرة ٥٤٧، والمخصص ٤/٤٣، واللسان (حمض)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٨٨٣، ومحاضرات الراغب ٢/٣٠١، والأول بلا نسبة في الجمهرة ٤٢١، ٥١٨، والمقاييس ٢/٤١٠، والمجمل ٢/٣٩٣، والعين ٢/١٠٦.

كَأنَّ حُمَّاضةً في رأسهِ نبتَتْ   من آخر الليل قد همَّتْ بإثمارِ[1]

وقال الطرِمَّاح [2]: [من الطويل]

فيا صبحُ كَمِّشْ غُبَّرَ اللَّيلِ مُصْعِداً   بِبَمّ ونَبِّهْ ذا العفاءِ الموشَّحِ

إذا صاحَ لم يُخذَلْ وَجاوَبَ صَوْتَهُ   حمَاشُ الشَّوَى يَصْدحْنَ منْ كُلِّ مَصْدَحِ

٥٢٦ - [حضن الحمام بيض الدجاج]

قال[3]: والفرُّوج إذا خرج من بيضه عن حضن الحمام، كان أكيسَ له.

٥٢٧ - [بيض الطاوس]

وبيضُ الطَّاوس إذا لم تحضنه الأنثى التي باضته خرج الفرخ أقمأ وأصغَر.

٥٢٨ - [بيض الدجاج]

قال: وإذا أُهْرِمَت الدَجَاجة فليس لأواخر ماتَبيض صُفرة. وقد عايَنوا للبَيضةَ الواحدة مُحَّتين، خبَّرني بذلك جماعة ممَّن يَتَعرَّف الأُمور. وإذا لم يكن للبيضة مُحٌّ لم يُخلق من البيضة فرُّوج ولا فرخ، لأنّه ليس له طعام يغذوه ويُربْيه. والبيض إذا كان فيه مّحتان وكان البياض وافراً - ولا يكون ذلك للمسنَّات - فإذا كان ذلك خلق اللّه تعالى من البَياض فروجين، وتربَّى الفَرُّوجان، وتمَّ الخَلق، لأنّ الفرْخ إنَّما يخلق من البَياض، والصفرة غذاء الفروج.

٥٢٩ - [استطراد لغوي]

قال: ويقال قَفط الطائر يقفُط قَفطاً، وسفد يسفَد سفاداً، وهما واحد. ويكون السِّفاد للكلب والشاة، ويقال قَمط الحمام يقمُط قمطاً.

ويقال ذَرق الطائر يذرُق ذرْقاً، وخزَق يخزِق خَزْقاً، يقال ذلك للإنسان، فإذا

---

(١) الحمّاض: من العشب، وهو يطول طولاً شديداً، وله ورقة عظيمة وزهرة حمراء، وإذا دنا يبسه ابيضت زهرته. اللسان (حمض).

(٢) ديوان الطرماح ٩٩ (٩٤ طبعة دار المشرق)، وربيع الأبرار ٥/٤٤٤، والأول في اللسان (وشح)، وأساس البلاغة (كمش، وشح)، والعين ٣/٢٦٣، والمقاييس ٤/٦٠، والتهذيب ٥/١٤٦، والمعاني الكبير ٣٠٢، والثاني في العين ٣/١٠٠.

(٣) ربيع الأبرار ٥/٤٤٤.

(٤) ربيع الأبرار ٥/٤٤٤.

اشتقّ له من الحذقة نفسه ومن اسمه الذي هو اسمه قيل خرئ، وهو الخرءُ والخراءُ. ويقال للحافر راث يرُوث، وللمعْز والشاء: بعر يبعُر، ويقال للنَّعام:صام يَصُوم، وللطير: نجا ينجو واسم نجْو النَّعام الصَّوم، واسم نجو الطَّير العُرَّة. وقال الطِّرِمّاح: [من المديد]

في شَناظِي أُقَنٍ بَيْنَهَا عُرَّةُ الطَّيرِ كَصَوْمِ النَّعامِ(١)

ويقال للصبي عَقًى، مأخوذ من العِقْي.

ويقال لحمت الطير، ويقال ألحم طائرك إلحاماً، أي أطعمْه لحماً واتخّذ له. ويقال هي لُحمة النَّسب، ويقال ألحمت الثوب إلحاماً، وألحمْت الطائر إلحاماً، وهي لحمة الثَّوب، ولحمة، بالفتح والضمّ.

٥٣٠ - [القول في عين الديك]

ومن خصال الدِّيك المحمودةِ قولهم في الشراب: «أصفَى مِنْ عَيْنِ الدِّيك» وإذا وصفوا عَين الحمام الفَقيع بالحمرة، أو عينَ الجرادِ قالوا: كأنَّها عينُ الدِّيك. وإذا قالوا: «أصفى من عين الغراب» فإنَّما يريدون حدَّته ونَفاذ البصر.

وفي عين الديك يقول الأعشى: [من الطويل]

وكأسٍ كعَينِ الدِّيكِ باكَرْت حَدَّها بِفِتْيانِ صِدقٍ إذ غابَ عنها بُغاتُها(٢)

وقال آخر: [من الطويل]

وكأس كعين الديك باكرتُ حدها بفتيانِ صِدق والنّواقِيس تُضربُ(٣)

وقال آخر(٤): [من الخفيف]

قَدَّمَتهُ على عُقارٍ كَعين الدِّيـ ـكِ صفَّى زُلالها الرَّاووقُ

(١) ديوان الطرماح ٤٩٠ (٢٢٩ طبعة دار المشرق)، واللسان والتاج (شنط، أقن، قنا)، والتهذيب ٩/٣١٤، ٣٢٤، ١١/٣٣١، والعين ٥/٢٢١، ٧/١٧٢، والجمهرة ١٢٣، وبلا نسبة في المخصص ٨/١٢٩، والعين ١/١٨٥، والجمهرة ٨٦٩، ٨٩٩.

(٢) ديوان الأعشى ١٣٣. وصدره (وكأس كماء النيء باكرت حدها).

(٣) البيت للأعشى في ديوانه ٢٥٣، واللسان (حدد، كأس)، والتهذيب ٣/٤٢٠، والعين ٣/٢٠، والمقاييس ٢/٤، والتاج (حدد)، والمجل ٢/٧، والتنبيه والإيضاح ٢/١٧، وبلا نسبة في المخصص ١١/٩٩.

(٤) البيت لعدي بن زيد في ديوانه ٧٨، والأغاني ٦/٧٧، ٧٨، ٩٢، ٧/٤٥، ٦٦، واللسان (طرق)، والتاج (روق).

وقال الآخر[1]: [من الطويل]

ثلاثةَ أحوال وشَهْراً مُجرَّما تضيء كَعيْنِ العُتْرُفان المحاربِ

والعُتْرُفان من أسماء الديك، وسماه بالمحارب كما سماه بالعُتْرُفان.

٥٣١ - [وصف الماء الصافي]

وإذا وصفوا المَاءَ والشَّرابَ بالصَّافي قالوا، كأنّه الدَّمع ، وكأنَّه ماء قَطْر، وكأنّه ماء مَفْصِلٍ، وكأنّه لعاب الجندب، إلاّ أنّ هذا الشاعر قال: [من الطويل]

مطبقة ملآنة بابليَّة كأنّ حُميَّاها عُيُون الجَنادِبِ

وقال آخر[2]: [من الطويل]

ومَا قرْقَفٌ من أَذْرِعاتٍ كأنَّها إذا سُكِبَت مِنْ دَنِّها ماءُ مَفْصِلِ

٥٣٢ - [المفاصل وماء المفاصل]

والمفاصل: ماءٌ بين السَّهل والجَبَل، وقال أبو ذؤيب[3]: [من الطويل]

مَطافيلَ أبكارٍ حَديثٍ نتاجُها تشَابُ بماءٍ مِثْلِ ماء المفَاصِلِ

وقال ابن نجيم: إنما عَنوا مفاصل فَقارِ الجمَل، لأنّ لكلّ مَفْصِلٍ حُقاً، فيستنقع فيه مَاءٌ أبداً أصفى ولا أحسن منه وإن رقّ.

٥٣٣ - [حدة بصر الكلب]

وقال مَرَّة قطربٌ، وهو محمد بن المستنير النحويُّ: «والله لفلان أبصرُ من كلب، وأسمعُ من كلب، وأشمُّ مِن كلب»!. فقيل له: أنشدْنا في ذلك ما يُشبِه قولَك. فأنشد قوله[4]: [من البسيط]

يا ربَّة البَيتِ قومي غيرَ صاغرة حُطّي إليك رِحال القَوْم فَالقُرُبا[5]

---

(١) البيت لعدي بن زيد في ديوانه ١١٨، واللسان والتاج (عترف).

(٢) البيت لكثير عزة في ديوانه ٢٩٠، وثمار القلوب ٤٤٦ (٨٠٧).

(٣) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ١٤١، واللسان والتاج (بكر، طفل، فصل)، والتهذيب ١٢/١٩٣، ١٣/٣٤٨، والمقاييس ٤/٥٦، والعين ٧/١٢٦، والمخصص ١/٢٣، ١٦/١٦١، والخزانة ٤٩٠.

(٤) الأبيات لمرة بن محكان السعدي في معجم الشعراء ٢٩٥، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٥٦٢، والأغاني ٣/٣٢٢، ٢٢/٣٢٠، وأشعار اللصوص ١/١١١، والبيت الأول بلا نسبة في الجمهرة ٣٢٤، والمقاييس ٥/٨٢، والثاني في الخصائص ٣/٥٢، ٢٣٧، واللسان (ندى)، والمقتضب ٣/٨١، وبلا نسبة في اللسان (رجل).

(٥) في الأغاني ٢٢/٣٢٢ (سئل أبو عبيدة عن معنى قول مرة بن محكان: «ضمي إليك رحال القوم =

في ليلةٍ من جُمادَى ذات أنديةٍ لا يُبصِرُ الكلبُ مِنْ ظَلْمَائها الطُّنُبا[1]
لا يَنْبَحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ حتَّى يجرَّ على خَيشومِه الذَّنَبا

وأنشد هذا البيت في ثُقوب بصره، والشِّعر لمرَّة بن مِحْكَان السعديّ.

ثم أنشدَ في ثُقوب السّمع: [من الطويل]

خَفيّ السُّرَى لا يَسْمَعُ الكَلْبُ وَطْأهُ أتى دُونَ نَبْحِ الكلبِ والكلبُ دابب

٥٣٤ - [خصال القائد التركي]

قال أبو الحسن: قال نصْر بن سيَّار اللَّيثي: كان عظماءَ التُّرك يقولون للقائد العظيم القِيادة: لا بدَّ أن تكونَ فيه عشرُ خصالٍ من أخلاق الحيوان: سخاء الديك، وتحنُّن الدَجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروَغان الثعلب، وخَتْل الذئب، وصبر الكلب على الجراحة، وحذر الغراب، وحِراسة الكُركيِّ، وهداية الحمام[2].

وقد كتبْنا هذا في بابِ ما للدَّجاجِ والدِّيك، لأنَّ صاحبَ هذا الكلامِ قسّم هذه الخصال، فأعطى كلَّ جنسٍ منها خَصْلةً واحدة وأعطى جنس الدجَاج خَصلتين.

٥٣٥ - [ما ورد من الحديث والخبر في الديك]

وعبَّاد بن إبراهيم عن عبد الرحمن بن زيد قال: كان مكحولٌ يسافر بالدِّيك،

وعنه في هذا الإسناد عن رسول اللّه ﷺ: «الدِّيكُ صديقي، وصديق صديقي، وعدُوُّ عدوِّ اللّه، يحفَظ دارَه وأربع دُور من حواليه»[3].

والمسيب بن شريك عن الأعمش نحسبه عن إبراهيم، قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تَذبَحوا الدِّيك، فإنَّ الشَّيطَان يُفْرَحُ بِهِ»[4].

= والقربا»، ما الفائدة في هذا؟ فقال: كان الضيف إذا نزل بالعرب في الجاهلية ضموا إليه رحله، وبقي سلاحه معه لا يؤخذ خوفاً من البيان والإغارة»، فقال مرة بن محكان يخاطب امرأته: ضمي إليك رحال هؤلاء الضيفان وسلاحهم، فإنهم عندي في عز وأمن من الغارات والبيات، فليسوا ممن يحتاج أن يبيت لابساً سلاحه).

(١) الطنب: حبل البيت. «القاموس: طنب».

(٢) الخبر في ثمار القلوب ٣٠٦ (٥٧٠-٥٧١)، والتمثيل والمحاضرة ١٥٣، والفخري ٥٨، والتوفيق للتلفيق ٧٧، والإمتاع والمؤانسة ١/١٤٤.

(٣) ورد الحديث في عيون الأخبار ٢/٨٩، وعلّق محققه انه حديث موضوع؛ وقد نبّه عليه ابن الجوزي والقاري.

(٤) أفرحه: أغمه، وحقيقته: أزلت عنه الفرح؛ كاشكيته إذا أزلت شكواه. النهاية ٣/٤٢٤.

٥٣٦ - [وصف جناح الطائر]

قال[١]: وليس جناح إلاَّ وفيه عشرون ريشةً: فأربعُ قوادم. وأربعُ مناكب، وأربع أباهر، وأربع كلىً، وأربعٌ خَوَافٍ، ويقال: سبعٌ قوادم، وسبعٌ خَوافٍ، وسائره لقب.

٥٣٧ - [الرُّكبة والكف لدى الإنسان وذوات الأربع]

قال: وكلُّ شيءٍ من ذوات الأربع فركبتاه في يديه، وركبتا الإنسانِ في رجليه، قال: والإنسان كفُّه في يده، والطائر كفه في رجله.

٥٣٨ - [أسنان الإنسان]

قال[٢]: وفي الفم ثَنِيَّتان ورَبَاعِيتَان ونابان وضاحكان وأربعةُ أرحاءٍ سوى ضِرْس الحُكْم. والنَّواجذ والعوارِض سواء. ومثلها أسفل.

٥٣٩ - [التفاؤل بالدجاجة]

قال صاحب الدِّيك: والدَّجَاجةُ يُتفاءَل بذكرها، ولذلك لَّما ولد لسعيد بن العاص عَنْبَسَةُ بن سعيد، قال لابنه يحيى: أيّ شيءٍ تَنْحَلُه؟قال: دَجَاجة بفراريجها! يريد احتقاره بذلك، إذ كان ابنَ أَمَةٍ ولم يكن ابنَ حرَّة. فقال سعيد -أو قِيلَ له -: إن صدَقَ الطَّيرُ ليكونَنَّ أكثرَهُم ولداً!

فهم اليومَ أكثرُهُمْ وَلَداً[٣]، وهم بالكوفة والمدينة.

٥٤٠ - [شعر في حسن الدجاجة ونبل الديك]

وقال الشاعر[٤]: [من الوافر]

غدَوتُ بشَرْبَةٍ منْ ذات عِرْقٍ ... إبا الدَّهناء من حَلب العصيرِ
وأُخرى بالعَقَنْقَل ثمَّ سِرْنا ... نرى العُصفورَ أعظمَ مِن بَعيرِ
كأنَّ الدِّيكَ ديك بني نُميرٍ ... أميرُ المؤمنين على السَّرير
كأنَّ دَجَاجَهُمْ في الدَّار رُقطاً ... بناتُ الرُّومِ في قُمصِ الحريرِ

---

(١) انظر هذه التسمية لاقسام جناح الطائر في أدب الكاتب ١٦٧، ومبادئ اللغة ١٧٠ (باب آخر في النعام ووصف جناح الطائر)، واللسان ٤ /٨٣، ٨٤ (بهر).

(٢) انظر تفصيل تسمية أسنان الإنسان في كتاب خلق الإنسان ١٦٥ - ١٦٧، وأدب الكاتب ١٦٢ (باب فروق في الأسنان).

(٣) في المعارف ٢٩٦، ٦١٥: (وولد له نحو من عشرين ابناً، وعشرين بنتاً).

(٤) تقدم تخريج الأبيات في الفقرة (٤٥١).

فبتُّ أرى الكَوَاكبَ دانيات يَنَلْنَ أنامل الرَّجُلِ القصيرِ
أُدافعهنَّ بالكَفين عنيٍّ وأمسَحُ جَانبَ القَمَرِ المُنيرِ

٥٤١ - [وصف الدجاج بالدعاء والمنطق]

قال: ويوصف بالدُّعاءِ وبالمنطق، قال لَبيد بن ربيعة: [من السريع]

وصدَّهُمْ مَنطِقُ الدَّجَاجِ عن القَصـ ـد وضَرْبُ النَّاقوس فاجْتُنِبا[١]

وقال: [من الطويل]

لَدُنْ أن دعا ديكُ الصباح بسُحْرةٍ إلى قَدر وردِ الخامِس المتأوّب[٢]

٥٤٢ - [دعابة أعرابي، وقسمته للدجاج]

قال أبو الحسن: حدَّثني أعرابيٌّ كان ينزل بالبَصْرة قال[٣]: قدِم أعرابيٌّ من البادية فأنزلته، وكان عندي دَجَاج كثير، ولي امرأةٌ وابنان وابنتان منها، فقلت لامرأتي: بَادِري واشوي لنا دَجَاجَة وقدِّميها إلينا نتغدَّاها فلمَّا حضرالغداء جلسنا جميعاً أنا وامراتي وابناي وابنتاي والأعرابيّ. قال: فدفعنا إليه الدَّجاجة فقلنا له: اقسمها بيننا - نريد بذلك أنّ نضحك منه - فقال: لا أحسنُ القسمة، فإن رضيتم بقسمَتي قسمْتُها بينكم، قلنا: فإنَّا نرْضَى. فأخذَ رأسَ الدَّجَاجة فقطَعه فناولَنيه وقال: الرَّأس للرّأس، وقَطَعَ الجناحين وقال: الجناحان للابنين. ثمَّ قطع السَّاقين فقال: السَّاقان للابنتين. ثمَّ قَطَعَ الزمكَّي وقال: العجز للعُجُز. [ثم قطع الزور][٤] وقال: الزور للزائر: قال فأخذَ الدَّجَاجة بأسْرها وسَخِر بنا. قال: فلما كان من الغد قلتُ لامرأتي: اشوي لنا خَمْسَ دَجاجَات. فلما حضر الغداءُ. قلت: اقسم بيننا. قَال: إنّي أظنّ أنّكم وجَدْتم في أنفسكم! قلّنا: لا! لم نجد في أنفسنا فاقسِم. قَال: أقسمُ شفعاً أو وِتراً، قلنا: اقسم وِتراً قالَ: أنت وامرأتك ودَجَاجة ثلاثة. ثمَّ رمى إلينا بدجاجة. ثُمَّ قَالَ: وابناك ودجاجة ثلاثة. ثمّ رمى إليهما بدجاجة. ثمَّ قال: وابنتاك ودجاجة ثلاثة. ثمّ رمى إليهما بدجاجة. ثمَّ قَالَ: أنا ودجاجاتان ثلاَثَةٌ. وأخذ دجاجتين وسخِر بنا. قَالَ: فرآنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه فقال: ما تنظرون! لعلَّكم

---

(١) ديوان لبيد ٢٦، والمعاني ٣٠٤، وفي ديوانه: «يقول: الدجاج والناقوس إنما يكون في القرى، فلما مروا بالقرى كرهوا دخولها، فعدلوا عنها واجتنبوها، وكانت قصداً على الطريق».

(٢) ديوان لبيد ٨، وتقدم في نهاية الفقرة (٤٧٤).

(٣) وردت هذه القصة في نهاية الأرب ١٠/ ٢٢٣.

(٤) زيادة يقتضيها سياق الكلام.

كرهتم قسمتي الوتر لا يجيء إلاّ هكذا، فهل لكمْ في قسمة الشَّفع؟ قلنا: نعم. فضمَّهنَّ إليه، ثم قال: أنتَ وابناك ودجاجة أربعة. ورمى إلينا بدجَاجَة، ثمَّ قال: والعجوز وابنتاها ودجَاجة أربعة، ورمى إليهنَّ بدجَاجَة، ثمّ قالَ: أنَا وثلاث دَجَاجَات أربعة، وضمَّ إليه الثَّلاث، ورفَعَ يديه إلى السماء وقال: اللّهم الحمد، أنتَ فَهَّمتنيها!

٥٤٣ - [صاحب الكلب على صاحب الديك]

قال صاحب الكلب: [أمَّا قولهمْ][(١)]: من أعظم مَفاخِر الدِّيك والدَّجَاج على سائر الحيوان، إنَّ الفَرُّوج يخرج من البيضة كاسيا يكفِي نفسه، ثمَّ يجمع كيْس الخلقة وكيْس المعرفة، وذلك كلُّه مع خُروجه من البيضة ـ فَقد زعم صاحبُ المنطق أنَّ ولد العنكبوت يأخذُ في النَّسج ساعةَ يُولد. وعملُ العنكبوتِ عملٌ شاقٌ ولطيفٌ دقيق، لايبلغه الفَرُّوجُ ولا أبو الفَرُّوج!!

على أنّ ما مدَحوا الفرُّوج به من خُروجه من البيضة كاسياً، قد شرِكه في حاله غيرُ جِنسه. وكذلك ذَوات الأربَع كلها تُلد كواسِيَ كواسب، كولد الشاء.

وفِراخ القَبج والدُّرَّاج، وفراخ البطِّ الصِّينيِّ في ذلك كلِّه لاحقةٌ بالفراريج، وتزيدُ على ذلك أنَّها تزداد حُسناً كلَّما كبِرت. فقد سقط هذا الفخر.

٥٤٤ - [شعر هزليّ للشمقمق في الديك]

ومن الشِّعر الذي قيل في الدِّيك، ممَّا يُكتَب للهزْل وليس للجِدِّ والفائدة، قولُ أبي الشَّمَقْمَق: [من مجزوء الرمل]

هَتَفَتْ أمُّ حُصَينٍ   ثمَّ قالت: مَن يَنيك
فَتحتْ فَرْجاً رَحيباً   مثلَ صَحراء العَتيكْ
فيه وزٌّ فيه بَطٌّ   فَيه دُرّاجٌ وديكْ

٥٤٥ - [حديث صاحب الأهواز عن العرب]

قال: وممَّا فيه ذِكْرُ الدَجَاج وليس من شكْل ما بنَينا كلامَنا عليه. ولكنَّهُ يُكتَب لما فيه من العجب. قال: قال الهامَرز. قال[(٢)] صاحب الأهواز: ما رأينا قوماً أعجب من العَرَب! أتيتُ الأحنفَ بنَ قيسٍ فكلَّمته في حاجةٍ لي إلى ابن زياد، وكنتُ قد ظلمت في الخَراج، فكلَّمَه فأحسَنَ إليّ وحطّ عنّي، فأهدَيْتُ إليه هدايا كثيرةً فغَضب وقال: إنَّا لا نأخُذُ على مَعُونتِنا أجراً! فلمَّا كنتُ في بعضِ الطريق سقطتْ من ردائي

(١) زيادة يقتضيها المعنى.

(٢) لعل حذف هذه الكلمة يعطي تناسباً في الخبر.

دَجاجةٌ فلحقني رجلٌ منهم فقال: هذه سقطتْ من ردائك. فأمرتُ له بدرهَمٍ، ثمَّ لحقني بالأُبُلّة فقال: أنا صاحبُ الدَّجاَجة! فأمرْتُ لَهُ بدراهم؛ ثمَّ لحقني بالأهواز فقَال: أنا صاحب الدَّجاجة! فقلت له: إن رأيتَ زادي بعد هذا كلِّه قد سقط فلا تُعْلمنِي، وهُوَ لك!!

٥٤٦ - [جرو البطحاء]

قال صاحب الكلب: كان يقال لأبي العاصي بن الربيع بن عبد العُزَّى بن عبد شمس، وهو زوج زَينبَ بنتِ رسول اللّه ﷺ ولأخيه كنانة بن الرَّبيع: جرْوُ البطحاء.

٥٤٧ - [أسطورة البازي والديك]

قال صاحب الديك لصاحب الكلب: وسنضرب لك المثلَ الذي ضَرَبه الموريانيُّ للدِّيك والبازي: وذلك أنَّ خلاَّد بن يزيدَ الأرقط قال: بينما أبو أيُّوب الموريانيُّ جالسٌ في أمْره ونهيه، إذ أتاه رسولُ أبي جعفرٍ فانْتُقِع لونه، وطارت عصافيرُ رأسه[1]، وأذن بيومِ بأسه، وذعر ذعراً نقَضَ حُبْوته[2]، واستطار فؤاده، ثمَّ عاد طلقَ الوَجْه، فتعجَّبنا من حالَيه وقلْنا لَهُ: إنَّك لطيفُ الخاصَّة قريبُ المنزلة. فلمَ ذهب بك الذُّعُر واستفرَغك الوَجل؟ فقال: سأَضرب لكم مثلاً مِنْ أمثال الناس.

زعموا أنَّ البازيَ قالَ للديك: ما في الأرض شيءٌ أقلُّ وفاءً منك! قالَ: وكيف؟ قالَ: أخذَكَ أهلكَ بيضةً فحضَنُوك، ثمَّ خرجتَ على أيديهم فأطعمُوكَ عَلَى أكفِّهم، ونشأتَ بينهم، حتَّى إذا كبرتَ صرتَ لا يدنو منك أحدٌ إلاَّ طرتَ هاهنا وهاهنا وضَجَجْتَ وَصِحت. وأُخذتُ أنا من الجبال مسنّاً فعلَّموني وألَّفوني، ثمَّ يخلَّى عَنِّي فآخذُ صيدي في الهواء فأَجيءُ به إلى صاحبي. فقال له الدِّيك: إنَّك لو رأيتَ من البُزاة في سَفافيدهم مثلَ ما رأيتُ من الدُّيُوك لكنتَ أنفرَ منِّي!

ولكنَّكم أنتمْ لو علمتم ما أعلَم، لم تتعجَّبوا من خوْفي، مع ما ترونَ من تمكُّنِ حالي.

٥٤٨ - [أجود الخيل]

قال صاحب الكلب: ذكر محمَّد بن سلاَّمٍ عن سعيد بن صَخْر قال: أرسل مسلمَ بن عمرو، ابن عَمٍّ لَهُ إلى الشَّام ومِصر يشتري لَهُ خيلاً، فقال له: لا علم لي

---

(١) مجمع الأمثال ١ /٤٣٢، وهو يضرب للمذعور.

(٢) الاحتباء: أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره ويشده عليها، وهو منهي عنه في الحديث، انظر اللسان (حبا).

بالخيل - وكان صاحبَ قنْص - قال: ألستَ صاحبَ كلاب؟ قال: بلى. قال فَانْظرْ كلَّ شيءٍ تستحسنه في الكلب فَاستعمله في الفَرَس. فقدِم بخيلٍ لم يكنْ في العرَب مثلُها.

٥٤٩ - [حاجة الديك إلى الدجاجة]

قال محمَّد بن سلاّم: استأْذنَ رجلٌ عَلَى امرأة فقالت له: مَاله من حاجة. قالت الجارية: يريدُ أن يذكر حاجة. قالت: لعلها حاجة الدِّيك إلى الدَّجَاجَة![1].

٥٥٠ - [هرب الكميت من السجن متنكراً بثياب زوجه]

محمَّد بن سلاّم عن سَلاّم أبي المنذر قَالَ[2]: حبس خالدُ بن عبد اللّه الكميتَ ابن زَيْد، وكانت امرأتُه تختلف إليه في ثياب وهَيئة حتَّى عرَفها البوَّابُونَ، فلبسَ يَوْماً ثيابَها وخرج عليهم. فسمّى في شِعره[3] البوَّابين النَّوابحَ، وسمّى خالداً المُشْلي: [من الطويل]

خرجت خروجَ القِدْحِ قدحِ ابنِ مُقْبلٍ على الرَّغْم من تلْكَ النَّوابح والمشلي[4]
عليَّ ثِيابُ الغانِياتِ وتحتَها صَرِيمةُ عَزْمٍ أشْبَهَتْ سَلَّة النَّصْل

٥٥١ - [فتيا الحسن في استبدال البيض]

قال: وأخبرنا خَشْرَم قال: سمعتُ فلاناً البقَّالَ يسأل الحسنَ قَالَ: إنّ الصبيان يأْتُونني ببيضَتين مكسورتين، يأخذون منِّي صحيحةً واحدة. قال: ليس به بأْس.

٥٥٢ - [أعجوبة في الكلبة]

محمّد بن سلاّم عن بعض أشياخه قال: قال مُصعَب بن الزُّبير على منبر مسجد البصرة، لبعض بني أبي بكْره: إنما كانت أمُّكم مثلَ الكلبة، ينزُو عليها الأَعفر والأسودَ والأبقَع، فتؤدي إلى كلٍّ كلب شِبْهَه[5].

هذا في هذا الموضع هِجاء، وأصحابُ الكلاب يرون هذا من باب النَّجابة، وأنَّ ذلك من صِحّة طِباع الأرحام، حين لا تختلط النُّطَف فتجيء جوارح الأولاد مختلفة مختلطة.

---

(١) في مجمع الأمثال ٢/٢٥٨: (لنا إليه حاجة كحاجة الديك إلى الدجاجة).
(٢) ورد الخبر مفصلاً في الأغاني ١٧/١٧-١٨.
(٣) البيتان في ديوان الكميت ٢/٥٠، والأغاني ١٧/١٨، ومحاضرات الأدباء ٣/١٩٧، ومجموعة المعاني ١٤٨.
(٤) قدح ابن مقبل: يضرب مثلاً في حسن الأثر، ثمار القلوب ١٧٣ (٣٥٤). المشلي: الذي يغري الكلاب بالصيد. «القاموس: شلي».
(٥) انظر عيون الأخبار ٢/١٨، وانظر الفقرة (٢٩٠)، والفقرة (٣٨٧).

٥٥٣ - [وصية عثمان الخياط للشطار]

وقال صاحب الكلب: في وصيّة عثمانَ الخيَّاط للشُّطَّار اللُّصوص: إيَّاكم إيّاكم وحبَّ النِّساء وسماعَ ضربِ العود، وشربَ الزَّبيب المطَبوخ، وعليكم باتِّخاذ الغلْمان؛ فإنَّ غلامَك هذا أنفعُ لك مَن أخيك، وأعونُ لك منْ ابنِ عمّك، وعليكم بنَبيذَ التَّمر، وضرب الطُّنْبور، وما كان عليه السلف واجعلو النَّقل باقلاّء، وإن قدَتم على الفُستق، والرَّيحان شاهَسْفَرَم[١]، وإن قدرتم على الياسمين. ودَعوا لُبس العمائم وعليكم بالقناع. والقَلَنْسوة كُفْر، والخف شِرك، واجعل لهوَك الحَمَامَ، وهارِش الكلابَ وإيَّاك والكَباشَ واللَّعِب بالصُّقورة والشَّواهين، وإيَّاكم والفهودَ.

فلما انتهى إلى الديك قال:: والدِّيكَ فإنَّ لَهُ صبراً ونجدة، ورَوَغانا وتدبيراً، وإعمالاً للسِّلاح، وهو يبهر بهر الشُّجاع.

ثم قال: وعليكم بالنَّرد ودعوا الشُّطْرَنج لأهلها، ولا تلعبوا في النَّرْد إلا بالطويلتين. والودَعُ[٢] رأس مالٍ كبير، وأوَّل منافعه الحذق باللَّقْف[٤].

ثمَّ حدَّثَهم بحديث يزيد بن مسعود القَيسيّ.

٥٥٤ - [كراهية ما يصيده الكلب الأسود البهيم]

وقال صاحب الديك: ذكر محمَّد بن سلاَّم عن يحيى بن النضر، عن أبي أميّة عبد الكريم المعلِّم قال: كان الحسنُ بن إبراهيم يكرَهُ صيدَ الكلبِ الأسودِ البهيم.

٥٥٥ - [قصيدة ابن أبي كريمة في صفة صيد الكلب]

وأنشد صاحبُ الكلب قولَ أحمد بن زياد بن أبي كريمة في صفة صَيْدِ الكلب، قصيدة طويلة أولُها[٤]: [من الطويل]

وغبَّ غمامٍ مَزَّقتْ عن سمائه ... شاميَّةٌ حصَّاءُ جُون السَّحائب[٥]
مُواجِهِ طَلَقٍ لم يردِّد جَهامَه ... تذاؤُب أرْواح الصَّبا والجنائب

---

(١) في اللسان «شهسفرم» ١٢/٣٢٩: (شاهسفرم: ريحان الملك، قال أبو حنيفة: هي فارسية، دخلت في كلام العرب).

(٢) في اللسان «ودع» ٨/٣٨٠: (الودع: خرزٌ بيضٌ جوفٌ؛ في بطونها شق كشق النواة تتفاوت في الصغر والكبر، وقيل: هي جوف في جوفها دويبة كالحلمة).

(٣) اللقف: تناول الشيء يرمى به إليك، (اللسان: لقف).

(٤) القصيدة في نهاية الأرب ٩/٢٦٦. والحماسة البصرية ٢/٣٤٤،٣٤٥.

(٥) الغبُّ: عاقبة الشيء. «القاموس: غبّ». الحصاء من الرياح: الصافية بلا غبار. «القاموس: حصّ».

بعثْتُ وأثوابُ الدُّجى قد تقلَّصَتْ لغرَّة مشهور من الصبُح ثاقب(١)
وقد لاح ناعي الليل حتَّى كأنَّه لسَاري الدُّجَى في الفجر قنديلَ راهب
بهاليلَ لا يَثنيهم عن عزيمة وإن كان جَمَّ الرشد، لوْمَ القرائب(٢)
بتَجْنيب غضْف كالقداحِ لطيفة مُشرَّطة آذانها بالمخالب(٣)
تخالُ سياطاً في صلاها منُوطَةً طوال الهوادي كالقداح الشوازبَ(٤)
إذا افترَشَتْ خَبتاً أثارتْ بمتْنه عجاجاً وبالكَذَّان نارُ الحَباحب(٥)
يفوتُ خُطاها الطَّرْفَ سبقاً كأنَّها سهامُ مُغال أو رُجومُ الكواكب
طرادُ الهَوادي لاحَها كلّ شَتْوَة بطامسة الأرجاء مَرْت المسارب(٦)
تكادُ من الأَحراج تنسَلُّ كُلَّماً رأتْ شَبَحاً لولا اَعتراضُ المناكب(٧)
تسُو ف وتُوفي كلَّ نَشْزٍ وفَدفد مرابضَ أبناء النِّفاق الأرانب(٨)
كأنّ بها ذعراً، يُطير قُلوبَها أنينُ المَكَاكي أو صريرُ الجنادبَ(٩)
تديرُ عيوناً رُكِّبت في بَراطلٍ كجَمْر الغضى خُزْراً ذرَابُ الأنائب(١٠)
إذا مَا استُحثّتْ لم يُجنَّ طَريدَهاً لهنَّ ضَراءٌ أو مجارِي المَذَانب(١١)
وإن باصها صَلْتاً مدَى الطَّرف أمسكَتْ عليه بدُون الجُهد سُبلَ المذاهبَ(١٢)

---

(١) الغرة: البياض في الجبهة، وقصد بها أول النهار. «القاموس: غرّ».

(٢) البهلول: السيد الجامع لكل خير. «القاموس: بهل».

(٣) جَنَبَهُ: قاده إلى جنبه. «القاموس: جنب». الغضف، جمع أغضف، وهو الكلب المسترخي الأذنين «القاموس: غضف».

(٤) الصلا: الظَّهْرُ، أو ما انحدر من الوركين، أو الفرجة بين الجاعرة والذنب. «القاموس: صلا». الهوادي: الأعناق. «القاموس: هدي». الشازب: الخشن والضامر اليابس. «القاموس: شزب».

(٥) الخبت: المتسع من بطون الأرض. «القاموس: خبت». الكذان: حجارة رخوة. «القاموس: كذان». نار الحباجب: هي التي توريها الخيل بسنابكها من الحجارة إذا وطئتها. وانظر أقوالاً أخرى في ثمار القلوب (٣٨٢).

(٦) الطامس: البعيد. «القاموس: طمس». المرت: الأرض لا ينبت مرعاها. «القاموس: مرت».

(٧) الأحراج: جمع حرْج، وهو قلادة الكلب. «القاموس: حرج».

(٨) تسوف: تشم. «القاموس: سوف». النشز: المكان المرتفع. «القاموس: نشز». الفدفد: الفلاة، «القاموس: فدفد». النفاق: جمع نفق؛ وهو الحجر. «القاموس: نفق».

(٩) المكاكي: جمع مَكّاء؛ طائر يصوِّت في الرياض، فإذا غرد في غير روضة فإنما يكون ذلك لإفراط الجدب وعدم النبات وعند ذلك يهلك الشاء والحمير. حياة الحيوان ٢ / ٣٢٢.

(١٠) براطيل: جمع برطيل؛ وهو حجر أو حديد طويل صُلْبٌ خلقةً يُنقر به الرحى، والمعول. «القاموس: برطل». الخزرُ: ضيق في العينين. «القاموس: خزر». قوم ذُرُبٌ: أحِدّاء. «القاموس: ذرب. الأنائب: الأنياب، أي أنيابها حداد.

(١١) المذانب: جمع مذنَب، وهو الجدول يَسيل عن الروضة بمائها إلى غيرها.

(١٢) باص: سبق. الصلت: الركض.

تكادُ تَفَرَّى الأُهبُ عنها إذا انتحت | لنبّأة شَخْت الجرْم عاري الرّواجب(١)
كأنّ غصون الخيزران مُتُونُها | إذا هي جَالَت في طِراد الثّعالبَ(٢)
كواشرُ عن أنيابهنَّ كوالحٌ | مُذلّقة الآذان شوس الحواجب(٣)
كأنّ بنات القَفْرِ حينَ تفرّقتْ | غَدَونَ عليها بالمنايا الشّواعبِ(٤)

ثم وصفَ الفهود:

بذلك أبغي الصّيدَ طوراً وتارة | بمُخْطَفَة الأكْفال رُحْب التَّرائب(٥)
مرقّقَة الأَذناب نُمْرٍ ظهورُها | مخطّطة الآماق غُلب الغوارب(٦)
مُدَنّرة وُرْقٍ كأنّ عيونها | حَواجلُ تستَذْمى متونَ الرّواكب(٧)
إذا قلّبتها في الفجاج حسبتها | سَنا ضَرَمٍ في ظُلمة اللّيل ثاقب(٨)
مُوَلّعة فطح الجباه عوابسٍ | تخالُ على أشداقها خطَّ كاتبَ(٩)
نَواصب آذان لطَاف كأنّها | مَداهنَ، للإجْراس من كلٍّ جانب(١٠)
ذوات أشاف رُكّبَت في أكُفِّها | نَوَافذَ في صُمٍّ الصُّخور نَواشبَ(١١)
ذراب بلا ترهيف قَينٍ كأنّها | تعقربُ أصداغِ الملاح الكواعَب(١٢)
فوارسُ مَالم تلق حَرْباً، ورَجْلةٌ | إذا آنسَتْ بالبِيد شُهبَ الكتائب(١٣)

---

(١) فراه: شقه. الأهب: جمع إهاب، وهو الجلد. الشخت: الضامر الدقيق. الرواجب: قصب الأصابع أو مفاصلها.

(٢) المتن: الظهر.

(٣) كوالح: عوابس. مذلقة: محددة. حواجب شوس: صغيرة.

(٤) شواعب: مفرقات.

(٥) مخطفة: ضامرة. الترائب: عظام الصدر، مفردها تريبة.

(٦) نمر: جمع أنمر، وهو الذي فيه نُمَر؛ أي نكت بيضاء وسوداء. الآماق: جمع موق، وهو طرف العين مما يلي الأنف. غلب: كفرح: غَلُظ عنقه.

(٧) مدنرة: فيها نكت كأنها الدنانير. الورق: جمع أورق، وهو الذي في لونه سواد وبياض. الحواجل: جمع حوجلة؛ وهي القارورة الصغيرة الواسعة الرأس. استذمى: تتبّع. الرواكب: جمع راكب؛ وهو رأس الجبل.

(٨) الفجاج: جمع فج، وهو الطريق الواسع بين جبلين.

(٩) المولعة: المستطيلة البلق، وهو سواد وبياض. الفطح: جمع أفطح وهو العريض.

(١٠) المداهن: جمع مِدْهن؛ وهو آلة الدهن أو قارورته، الإجراس: استماع الجرس؛ وهو الصوت.

(١١) الأشافي: جمع إشفى، وهي مثقب الإسكاف، وعنى بها الأظافر الصخرة الصماء. الصلبة المصمتة.

(١٢) الترهيف: ترقيق الحد. القين: الحداد. الصُّدغ: الشعر المتدلي بين العين والأذن. وتعقرب الصدغ: تلوّيه وتعطّفُه.

(١٣) رجلة: جمع راجل، وهو الماشي على رجليه. شهب الكتائب: عنى بها جماعة الوحش التي تتصيدها هذه الفهود.

ترُوٌ وَتَسْكِينٌ يَكُونُ دَرِيئةً لهنّ بذي الأَسْرابِ في كلِّ لاحبِ[1]
تضاءَلُ حتّى لا تكادُ تُبِينُها عُيُونٌ لدى الصرَّات غير كَواذبِ
حراصٌ يَفوت البرقَ أمكثُ جَرِيِها ضراءٌ مبلّاتٌ بطول التَّجاربِ[2]
تُوَسِّد أجْيادَ الفَرَائس أذرعاً مرَمّلةً تحكى عناق الحَبائبِ[3]

٥٥٦ - [سهل بن هارون وديكه]

قال دِعْبلٌ الشاعر[4]: أقمنا عند سهل بن هارونَ فلم نبرحْ، حتّى كدنَا نموتُ من الجوع، فلما اضطررناه قال: ياغلام، ويْلَك غدِّنا! قال: فأُتينا بقَصعة فيها مرقٌ فيه لحمُ [ديك عاسٍ][5] هرم ليس قبلَها ولا بعدَها غيرُها لا تحزُّ فيه السكينُ، ولا تؤثّر فيه الأضراس. فاطّلع في القصعة وقلّب بصرَه فيها، ثمّ أخذ قطْعةَ خبزٍ يابس فقلّب جميع مَافي القَصعة حتّى فقد الرأس من الدِّيك وحده، [فبقي مطرِقاً ساعةً][5] ثمَّ رفع رأسه إلى الغلام فقال: أين الرَّأس؟ فقال: رميتُ به. قال: ولم رميت به؟ قال: لم أظنّك تأكله! قال: ولأيِّ شيءٍ ظننتَ أنّي لا آكلُه؟ فواللّه إنّي لأَمقتُ مَن يرمي برجليه [فكيف من يرمي برأسه][5]؟! ثم قال لَهُ: لو لم أكرهْ مَاصنَعتَ إلاّ للطِّيَرة والفأل، لكَرِهْتُه! الرأس رئيسٌ وفيه الحواسُّ، ومنه يصدَح الديك، ولولا صوتُه ما أُرِيدَ؛ وفيه فَرقُه الذي يُتبرّك به، وعَينُهُ التي يضرب بها المثل، يقال: «شرابٌ كعين الديك»[6]، ودمَاغُه عجيب لوجَع الكلية، ولم أرَ عَظماً قَطُّ أهشَّ تحت الأسنان من عَظْم رأسه، فهَلاّ إذْ ظننتَ أنّي لا آكلُه، ظننتَ أنّ العيال يأكُلُونه؟! وإنْ كانَ بلَغَ من نُبْلك أنّك لَا تأكلُه، فإنّ عنْدَنا من يأكُله. أوَ ما علمتَ أنّه خيرٌ من طرَف الجَناحِ، ومن السَّاق والعنق! انظرْ أين هو؟ قال: واللّه ما أدري أينَ رميتُ بِهِ! قال: لكنّي أدري أنّك رمَيت بِهِ في بطنك، واللّهُ حَسيبك!

كمل المصحف الثاني من كتاب الحيوان بحمد اللّه تعالى وحسن عونه
ويتلوه في الثالث إن شاء اللّه ذكر الحمام

---

(١) الدريئة: ما تتستر به من الصيد لتختله. الأسراب: جمع سرب، وهو الطريق. اللاحب: الطريق الواضح.
(٢) ضراء: معتادة الصيد. المبل: الثبت الجريء. يقول: إن سرعة البرق لا تداني أبطأ جرية لهذه الفهود.
(٣) المرملة: الملطخة بالدم. تحكي عناق الحبائب: تحكي صنع المحب يعانق حبيبه.
(٤) الخبر في عيون الأخبار ٣ / ٢٥٩ نقلاً عن الجاحظ.
(٥) زيادة من عيون الأخبار ٣ / ٢٥٩.
(٦) انظر ما تقدم في الفقرة (٥٣٠).

فهرس أبواب المصحف الأول

أبواب المصحف الثاني